فلاح رحيم

القنافذ في يوم ساخن

@ketab_n
Follow Me
24.5.2015

رواية

@ketab_n
Follow Me

فلاح رحيم

القنافذ في يوم ساخن

رواية

@ketab_n

دار الكتاب الجديد المتحدة

Twitter: @ketab_n

القنافذ في يوم ساخن

Twitter: @ketab_n

القنافذ في يوم ساخن

تأليف: فلاح رحيم

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2012
جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع المؤلف

الطبعة الأولى
1 حزيران/يونيو 2012

موضوع الكتاب رواية
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
الحجم 16 × 23 سم
التجليد برش مع ردّه

ردمك ISBN 978-9959-29-622-1
(دار الكتب الوطنية/بنغازي - ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2012/271

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + خليوي 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + فاكس 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت - لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

جميع الحقوق محفوظة للدار، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

توزيع حصري في العالم ما عدا ليبيا دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس
هاتف 04 03 75 1 961 +/بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

توزيع داخل ليبيا شركة دار أويا لاستيراد الكتب والمراجع العلمية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس - ليبيا
هاتف وفاكس 013 07 34 21 218 + نقال 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني **oeabooks@yahoo.com**

Twitter: @ketab_n

إلى الصديق كامل شياع

الذي عاد من المنفى لأنه قرر ألّا يموت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عن القنافذ

"ويقول الباحثون عن طبائع [القُنفذ] إنه يسفدُ قائماً وظهرُ الأنثى لاصقٌ بظهر الذكر... وفي طبعه أنه يجعلُ في جُحْره بابين؛ أحدُهما من جهة الجنوب والآخر الشمال، فإذا هبّت الريح الجنوب سدّ باب جهتها وفتح بابَ جهة الشمال، وإذا هبّت الشمال سدّ باب جهتها وفتح بابَ جهةِ الجنوب. وبصرُه في الليل أكثر من النهار، ويستأنسُ في البيوت ويختفي أياماً حتى يؤنس منه ويعود يظهر ولا يدري أين كان... وهو لا يظهر إلا ليلاً ولذلك يُشبَّه بالنمّام والماحل وقال عبدة بن الطيب وذكر نمّامين:

قومٌ إذا دمس الظلامُ عليهم حُدجوا قنافذ بالنّميمةِ تمرغُ

وهو مولعٌ بأكل الأفاعي ولا يبالي أيّ موضع قبض من الأفعى إن قبض على رأسها أو قفاها فذلك من أسهل الوجوه".

كتاب الوطواط "مباهج الفكر ومناهج العبر"

* * *

"القُنْفُذ والقُنْفَذ: الشَّيْهَمُ، معروف، والأُنثى قُنْفُذة وقُنْفَذَة.

وتَقَنْفُذهما تَقَبُّضهما.

وإنه لَقُنْفُذُ ليلٍ أَي إنه لا ينام كما أَنّ القُنْفُذَ لا ينام.

ويقال للرجل النمّام: ما هو إلا قنفذُ ليلٍ وأَنَقَدُ ليل..

والقُبَعُ: القُنْفُذُ لأَنه يَخْنِسُ رأْسه، وقيل: لأَنه يَقْبَعُ رأْسَه بين

Twitter: @ketab_n

شَوْكِه أي يُخبِّئُه، وقيل: لأَنه يقبعُ رأْسه أي يردّه إلى داخل؛ وقول ابن مُقْبِل:

ولا أَطْرُقُ الجاراتِ بالليلِ قابِعاً قُبُوعَ القَرَنْبَى أَخْطَأَتْه مَحاجِرُهْ

هو من ذلك أَي يُدخل رأْسه في ثوبه كما يُدخل القرنبى رأْسه في جسمه".

معجم "لسان العرب" لابن منظور

* * *

"تقاربت مجموعةٌ من القنافذ في يومٍ شتائيّ بارد سعياً إلى الدفء، لكنها وجدت نفسها وهي يخزُ بعضها بعضاً بأشواكها، مضطرّة إلى التفرُّق. وإذ اشتدّ البرد عليها تقاربت مرةً أخرى فحدث الشيء نفسه. أخيراً، وبعد تعاقب التقارب والتفرُّق، اكتشفت القنافذُ أن أفضل حال لها أن تبقي بينها مسافةً قصيرة. وهو ما يحدث لدى البشر، لأن حاجةَ المجتمع تدفع القنافذَ البشريةَ إلى التقارب، لكنها سرعان ما ينفرُ بعضها من بعض بسبب الصفات الشوكية المنفّرة العديدة في طباعها. أما المسافة المعتدلة بينها والتي تكتشف أخيراً أنها الحالةُ الوحيدة المحتملة في اللقاء فهي شفرة التهذيب والخلق الحسن، ومن يتجاوز حدودها يُطلب منه بخشونة، بالعبارة الإنكليزية، أن يحافظَ على المسافة. بحسب هذا الترتيب لا يكون سدّ الحاجة إلى الدفء إلا جزئياً، لكنه يوفّر على الناس التعرض لوخز الأشواك. أما الإنسانُ الذي يختزن داخله بعض الحرارة فيفضّل البقاء منفرداً، حيث لا يخزُ أحداً بشوكه ولا يسمح لأحد أن يخزه".

آرثر شوبنهور "ملاحق ومحذوفات" (1851)

* * *

Twitter: @ketab_n

لكاتبة الأطفال البريطانية المعروفة بياتريس بوتر حكاية حيوان طريفة تُنجب فيها السيّدة قنفذة ثلاثة أبناء: لاثنين منهم شوك القنافذ لكن لم يكن للثالث شيءٌ يستر جلده. كان يشبه القنافذَ في كل شيء إلا هذا. عندما بلغ عمره عاماً واحداً زارته جنّيةٌ وقالت له: اذهب إلى الصين وخذ ثلاث شعرات من خنزيرِ الإمبراطور ثم أحرقها في النار واخلطها بستة دلاء من الماء وضع بعض الرماد على رأسك وانتظر حتى الصباح وستجد أنّ الشوكَ قد غطاك تماماً. وتتابع القصة الطريقة التي نَفَّذ بها هذه التعليمات ثم تكون خاتمتها كما يلي:

"ذهب إلى فراشه لينام قرب النهر. وصحا صباحاً وقد داخله شعورٌ غريب. نظر إلى ظهره فوجد أنه مغطى بالأشواك. أمضى أربعة أيام في الصين، ثم عاد إلى وطنه في زورق. وقد غلبت الدهشة عائلته لرؤيته".

* * *

كتب جاك ديريدا مقالاً عنوانه "ما طبيعةُ الشعر؟" ردّاً على هذا السؤال الذي طرحته عليه مجلةٌ إيطالية، وجاء في مقاله أن القصيدةَ تشبه قنفذاً قُذف به في عُرْضِ الطريق، وأن هذا القنفذ بحسب ديريدا: "يتكوّرُ في كرة شائكة واخزة، مكشوفاً للخطر وخطيراً، متحسّباً للطوارئ وعاجزاً عن التكيُّف معها (فهو إذ يخنس متوارياً في كرة وهو يحدس خطراً، إنما يزيد من احتمال تعرضه لحادثٍ على الطريق)".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

لكل مدينةٍ طريقتها الخاصة في استقبال الغرباء، والمدن في ذلك تشبه الأشخاص. هنالك مدنٌ تتطلعُ إليك بمزيج غريب من التعاطف والملل، ربما لأن كثرةَ القادمين من العراق أرهقت قدرتها على التعاطف، وعمّان مثالها الأول. هنالك مدنٌ تستقبلك بفخر واحتفاء لا تعرف لهما سبباً لأن ما عشته في العراق لا يعدو بالنسبة إليك فنطازيا دامية يُذبح على مسرحها المئات كل يوم، ومثال هذه المدن ما عرفته مبكراً العاصمة تونس التي مررت بها ذات يوم في الطريق إلى العاصمة الليبية طرابلس. أما طرابلس نفسها فإن إيقاعَ أيامها الهادئ لا يمتُّ بصلة إلى صخب إعلامها الثوري، وهي تعبّر عن تعاطفها معك برقّة وهدوء؛ يشبه الأمر تعاطفاً عائلياً لا يشغل الناس عن حياتهم الوديعة. لن أزيدَ من الأمثلة لأن المنافي تقاذفتني في مدن كثيرة حتى انتهى بي الترحال إلى مدينة مَسْقَط.

وصلت إلى مَسْقَط في العاشرة مساء، في يوم من أواخر آذار منعش رائق، قادماً من الصحراء الليبية بعد مرور عابر بالعاصمة عمّان. وكنت قد رتّبت مع الصديق شهاب زيدان لقاءً في عمّان طال انتظاره لأكثر من ربع قرن كامل. كان هو ينطلقُ من بغداد إلى مؤتمر لليونسكو في باريس ممثلاً لوزارة الثقافة العراقية الجديدة التي صار الوزير فيها شيوعياً بعد دخول القوات الأميركية العراق. وكان مضطراً إلى أن يتخذَ الطريق البري إلى عمّان حيث يصبح متاحاً له فيها اعتماد الطائرة في سفره. وكنت أنا قادماً من صحراء البريقة للالتحاق بعملي في سلطنة عُمان. حين اكتشفنا عبر الرسائل الإلكترونية أن المصادفةَ المنتظرة قد حانت وأن طرقنا ستتقاطعُ

Twitter: @ketab_n

ليوم واحد في الأقل اتفقنا على اللقاء والتحاور وجهاً لوجه. كان آخر حوار مطوّل بيننا قد حدث عام 1979 عندما زارني شهاب لآخر مرة في بغداد ليودّعني قبل أن يغادرَ العراق إلى المنفى وتنقطع عني أخباره نهائياً.

خطر لي وأنا أنتظرُ وصوله أن هذا اللقاء الفريد قد حُشر في زاوية ضيّقة لا تليقُ به. كنت مشغولاً بترتيبات النّقلة الجديدة التي استغرقت أسابيعَ طويلةً قدّمت في خلالها استقالتي من عملي في شركة سرت للنفط في البريقة بعد ثمانية أعوام شاقة. والمؤكّد أن فراقَ المكان يزداد صعوبة وتعقيداً كلما طال مكثنا به، لأننا حينها نمدّ جذوراً متشابكة مهما كانت ضيِّقة ضنينة في تربته أو رماله. حين أدركت أن اللقاء سيؤجلُ مرةً أخرى، وأن موعد الطائرة صار يقترب دون أن يظهر شهاب، وجدت نفسي منهمكاً في حوارٍ افتراضي معه. كانت حاجتي إلى الحوار في تلك اللحظة الانتقالية ملحّة وآنيّة. لقد عاش شهاب في المنافي ربع قرن حتى حصل على الجنسية البلجيكية وأنجب ولداً من أمّ بلجيكية لا يكاد يُجيد العربية تجاوز اليوم سنّ المراهقة. كنت أودّ أن أسأله عن السبب الذي دعاه إلى العودة إلى العراق وقراره البقاء هناك بالرغم من المخاطر الكبيرة التي تُحيط به في عمله الجديد مديراً في وزارة الثقافة. وكان قد مرّ شهر واحد على تفجير ضريح الإمامين العسكريّين في سامرّاء وصار واضحاً أن موجةَ العنف يمكن أن تتصاعدَ إلى حربٍ أهلية واسعة النطاق. أيكمن السبب في محافظته على روح كفاحية يستمدّها من موقفه السياسي أم هو كشفٌ أجهله لعلّةٍ طاردة في المنفى؟

أسئلة كثيرة بقيت معلّقة، لكنّ انشغالي باحتمالات المحطة الجديدة في اغترابي تواصل مؤطّراً بذلك الحوار الافتراضي مع شهاب. أتذكر هذا جيداً وأراه الآن أمراً طريفاً عميقَ الدلالة.

استقبلني في مطار السّيب سائق أرسلته وزارةُ التعليم العالي اصطحبني إلى فندق الفلج خماسي النجوم لأمكثَ فيه ريثما تقرر الوزارة الجهة التي

Twitter: @ketab_n

سأُنَسَّب إليها. ما إن دخلتُ غرفتي الأنيقةَ في الفندق، التي فاجأني السكون الكامل في محيطها بعد رحلةٍ صاخبة، حتى بادرت إلى الاتصال بالأهل في بغداد. جاءني صوتُ أختي إنعام المشوب بالنعاس. حين أدركتْ أن الاتصال مني انبثق في نبرتها حماسة تتجاوز الصحو. قلت لها إني وصلت إلى مَسْقَط سالماً وإن وجهتي ستتقرر غداً. هنّأتني على سلامة الوصول وقد حرصتُ ألّا أطيل الاتصال لأني كنت أستخدمُ تلفون الفندق بتكلفته المنذرة. لكني سألتُ عن الوالدة فقالت إنها قد نامت منذ حين، ثم عن ابتسام وعائلتها في الميكانيك. كانت أختي ابتسام حينئذٍ تسعى إلى الانتقال من حيّ الميكانيك في الدورة إلى حيّ نادر في الحِلّة هرباً من موجة العنف المرعبة المتصاعدة حولها. قالت إنعام إنها قد انتقلت بالفعل في خلال الأسبوع الماضي وإنها حلّت في بيتها الجديد بأمان.

بعد حمّامٍ دافئ تمدّدت على السرير الوثير متطلعاً إلى صفاء السقف الحليبي. كنت بحاجة إلى نوم عميق لكن عقلي وقع فريسةَ تداعيات لم أفهم المناسبة التي استدعتها حينئذٍ. خطر لي موقفُ إنعام وهي تنقل إلى بيتنا في البياع عدداً كبيراً من أجهزة الكمبيوتر الخاصة بفرع بنك الرافدين الذي تعمل فيه لحمايتها من الدمار المحتمل قبل الهجوم الأميركي عام 2003، ثم مبادرتها إلى إعادتها كلها بعد أن وضعت الحرب أوزارها. خطر لي أن هذا الموقفَ يمثل ولاءً للبنك بعيداً عن السّلطة السياسية المحتملة، وأن الولاء للوطن لا يكتسب معناه إلا إذا كَرَّسه ولاء صغير كهذا. صارت إنعام تقتربُ من الأربعين دون أن تسمح لها المصائب المتلاحقة في العراق منذ ربع قرن أن تجد محطةً تلتقطُ بها أنفاسها وتراجع خسائرها. لقد تحولتْ إلى موقف دفاعي كامل. صادرت القسوةُ الشاملةُ كل حقوقها في مطالبة الحياة بالحقوق وصار البقاء وتجنّب الكارثة هما الفوز الوحيد المتاح لها.

فكرت في والدتي وتحذيراتها المتكررة المشدّدة لي من التوجه إلى بغداد في طريقي إلى عملي الجديد لأن الانفلات الأمني بلغ حداً غير مسبوق. بالرغم من مرورِ ربع قرن من الشدائد على مقتل أخي في الحرب

Twitter: @ketab_n

العراقية الإيرانية ومقتل خالي بعده بعامين في الحرب نفسها فإن رُعْبَ والدتي من جنون العراق وشهيته المقيتة إلى التهام أبنائه لم يتضاءل. لا أكاد أتخيّل طريقةً تقنعها بالسماح لي بالعودة في مستقبل منظور. برق أمامي لسبب غير مفهوم مرضها بعد آخر زيارةٍ لقبر أخي في النجف، وقد بلغ حداً هدّد حياتها. كان نوعاً من الوهن الشديد والعزوف عن الطعام والشراب وبكاءً مستمراً. ولم تكن زياراتها المتتالية للقبر من قبل قد أدّت بها إلى مثل هذه الحالة. مرّ وقت طويل قبل أن نعرفَ السبب؛ قالت إنها رأت في تلك الزيارة دوداً أبيض كريهاً يخرج من الرمال المجاورة للقبر وأنها أدركت أن جسدَ كريم الفتي الحي قد بدأ يتحلل. تباعدت زياراتها للقبر بعد ذلك وزاد حزنها عمقاً وقد تمكّن منها اليأس.

حين نزلت إلى مطعم الفندق لَيْلَتئذٍ وجدت نفسي محاطاً بفخامة المكان وهدوئه الوقور المستريح. استدعت نظري في المطعم مفارقة طريفة لم أدرك أبعادها حينئذٍ. كانت تتحركُ في المكان نادلةٌ آسيويةٌ شابة لا تفارق وجهها ابتسامة راضية وهي ترتدي تنّورة سوداء قصيرة من الستريج الذي يلتصق بكل تفاصيل حوضها وتكشفُ بسخاء عن فخذين مكتنزتين. بدا امتلاء ساقيها العاريتين مفاجأة لي، وقد زادت المفاجأة عندما ظهرت نادلة عُمانية جميلةُ الملامح ترتسمُ على وجهها الابتسامة نفسها تعمل معها في خدمة الزبائن، غير أنها في تناقض واضح مع صاحبتها كانت ترتدي الحجاب وتنّورة طويلة متجهِّمة. حين انتهيت من العشاء واقتربت من الكاونتر لتسجيل رقم الغرفة سمعتها تكلّم زميلتها الآسيوية بإنكليزية سليمة. بدا أن بينهما تفاهماً تاماً وشراكةً راضية. أتذكّر تلك المفارقة الآن وأعجب لدلالتها العميقة التي لم تخطر لي على بال حينئذٍ. صالة الطعام الصغيرة المطلة على مسبح ساكن تحيط به كراسٍ ملونة معدّة للاستلقاء، ولقاء الآسيوية شبه العارية مع العُمانية المحجّبة في مهمة مشتركة، والإنكليزية بوصفها لغة بدأت تفقد هويتها البريطانية وتتحول إلى شفرةٍ عالمية؛ كل هذه العناصر تشكّل أمامي لوحةً عميقة الدلالة في هذه اللحظة بعدما جرى.

Twitter: @ketab_n

عدت إلى غرفتي وحاولت أن أركز على أمرٍ واحد فقط هو احتمالات حياتي المقبلة، لكن النكبةَ الجديدة في العراق التي صعّدت المأساة منذ شهر جعلت ذلك أمراً بالغَ الصعوبة. وقفت وراء زجاج الشّرفة الخالي من أية شائبة. كانت تمتدّ خلفه أحياء كاملة من بيوت يوحّد بينها اللونُ الأبيض الذي اختلط ببحيرة شفّافة تشكلها مصابيحُ الشوارع. كان مشهداً حالماً هادئاً بعيداً عني. فكرت وأنا أتطلّعُ إليه أن هدوءَ البيت واطمئنانه يدجّنان الوطن ويحوِّلانه إلى مكان سعيد. ساحات الحرب تجعل الوطن فكرة دموية جنونية مدمّرة. الأعوام التسعة التي قضيتها جندياً ضائعاً في المواضع والمعسكرات أظهرتني بالتفصيل على الطريقة التي يتجسّدُ بها هذا الجنون. ولكن ما الذي يدجّن المنفى؟ كيف يمكن أن يتحقّقَ هدوءُ البيت وطمأنينته في عالم المنفى المتغير الذي لا يأبه لك ولمشاغلك. أتذكر الآن أن ساندرا سألتني مرةً عن السبب الذي يمنعني من التفكير في الزواج مرةً أخرى، كانت تحاول أن تُثبت لي أن طليقتي لم تكن إلا فشلاً طارئاً لا يمنع احتمال النجاح في تجربة جديدة. الآن وفي ضوء ما حدث أرى المفارقة التي تكمنُ في دعوة كهذه تصدر عن ساندرا دون سواها. لكني قلت لها حينئذٍ إن هنالك تنافراً بين المنفى والزواج لأن الأول وجود في مكان عاصف يفتقدُ الثبات محكوم بالزوال والهامشية والتحول، بينما الثاني مشروعٌ يسعى إلى الثبات والاستقرار والانتظام.

لاحظتُ في الشارع القريب من مدخل الفندق تحتي حركةَ امرأة هندية ممتلئة ترتدي الساري برفقة رجلٍ كهل لم تمنعه النحافةُ من امتلاك كرش صغيرة. ربما كانا يمارسان رياضةً مسائيةً حالمة. ظهرا وكأنهما يسبحان في بحيرة الضوء والسكون. تساءلت إن كان الهنديّ المقيم في السلطنة يرى المنفى كما أراه، وتوصّلتُ إلى أن اضطرابَ الوطن قد يكون هو السبب في اضطراب المنفى وعدائه لفكرة الثبات. قد لا يكون المنفى مضطرباً في ذاته. عدت أرددُ السؤال كالتعويذة التي أحاول أن أستحضر بها حلاً سحرياً: إذا كان هدوء البيت واطمئنانه يدجّنان الوطن، فما الذي يمكن أن يدجّن

Twitter: @ketab_n

المنفى؟ لم أجد إجابةً حينئذٍ، لكن حديثي المطوّلَ الأول مع فرحان في مَسْقَط قادني إلى الإجابة التي شكّلت مسار تجربتي في منفاي الجديد. أتذكر الآن جيداً أني في موقفي ذاك وراء زجاج الشرفة في ليلتي الأولى في مَسْقَط، توصلتُ إلى أن المنفى تأجيلٌ مطوَّل نتكوَّر فيه على أنفسنا في عُزلة وانتظار. ولم أطل التفكير بعد ذلك. ربما لأني كنت متعباً وربما لأني كنت بعد خمسة أعوامٍ على بلوغي العقد الرابع عاجزاً عن تقديم إجابات واضحة. عدتُ إلى السرير الشاسع الخالي واستنشقتُ نظافة الشراشف والأغطية ونمت بعمق.

Twitter: @ketab_n

2

لم أكن قد سمعتُ أن في عُمان ولايةً تدعى صُور من قبل. وقد علمت من الموظف الذي جعلني أوقّع العقد وأتمّ أوراق التحاقي بالعمل أنها تبعد عن مَسْقَط مئتي كيلومتر، وتقع في المنطقة الشرقية المطلة على خليج عُمان، وأنها قريبة من نقطة التقاء الخليج وبحر العرب في منطقة سياحية جميلة أسماها راس الحد. بدا مشغولاً فلم أشأ التعجل في معرفة المزيد.

أمضيتُ نهاراً طويلاً بانتظار سائق من الكلّية في صُور ينقلني إلى هناك. وقد جُلْتُ لبعض الوقت في منطقة روي التي يقع فيها الفندقُ والوزارة. كانت تزدحم بالمحالّ التجارية والمكاتب من كل نوع وتنبض نبضاً متسارعاً بحركة الأشخاص والسيارات. أعرف أناساً تشحذ كثرة المدن التي يزورونها شهيتهم إلى المزيد. لكني لأسباب أجهلها أزداد عزوفاً عن استكشاف مدن جديدة كلما زاد عدد المدن التي أتعرّف عليها. ربما يكون السبب أني بقيتُ لسنين بعد خروجي من العراق أخدع نفسي عندما تحل العُطَل الصيفية فأتصرف كما لو كنت سائحاً يبحث عن طرافة السياحة وما توفر من إثارة وتجديد، حتى بدأت أكتشف تدريجاً أن السائحَ لا يستحقّ هذه التسمية إلا إذا كان خارجاً من أرض ثابتة تحت قدميه تدعى الوطن، وأن هذا الوطن لا بد أن يكون مستقراً تلفّه رتابةُ العيش الهادئ المستكين التي يتخلق في شرنقتها مشروعُ السائح. أما من يحيا مغامرةَ المنافي المرهقة فإن زيارة المدن الجديدة التي يجهلها ولا يعرف أحداً فيها تزيد إحساسه بالضياع والتشتُّت.

وصل سائقُ الكلية عندما شارف الوقت منتصفَ الليل. كان قصيراً نشيطاً يفيض حيويةً جعلت احمرارَ العروق في عينيه أمراً بديهياً. قال إن

Twitter: @ketab_n

اسمه خالد وإنه وصل تواً من صُور وسيعود معي إليها. بدا في عجلةٍ من أمره. ساعدني على نقل حقيبتي إلى صندوق الميتسوبيشي رباعية الدفع وقفز إلى مقعده مرحّباً. حين علمت أن المسافةَ بين مَسْقَط وصور تزيد على ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً عجبت لأن هذا يتناقضُ مع ما عرفته من موظف الوزارة. قال خالد إن مسافةَ المئتين لا توجد إلا على الخارطة، وربما وفّرها الطريقُ الساحلي الجديد الذي يجري العمل عليه حالياً.

كان خالد مدخلاً مناسباً لمدينتهِ وخُصوصياتها. تطلعتُ إليه وهو يركز نظره على حركة السيارات في شارع السُّلطان قابوس الواسع الطويل متجهاً إلى دَوّار الصحوة. بدا في كمّته المزركشة بألوان متداخلة هادئة ودشداشته الخليجية البيضاء، وهما علامة العُمانيين الفارقة، تواقاً إلى العودة بأسرع وقت.

أول مفاجأة في تلك الرحلة الليلية أن الطريقَ الطويل بين مَسْقَط والولاية كان يخلو تماماً من أية نقاطٍ للتفتيش. وهو أمر لم أرَ مثيلاً له في أيّ من الدول التي عشت فيها من قبل. وقد قلت ذلك لخالد الذي أعرب عن دهشته من الحاجة إلى نقاط تفتيش داخل البلد. قال إنها مفهومة على الحدود مع الدول الأخرى فقط أما داخل البلد الواحد فلا حاجة إليها. المفاجأة الثانية أن خالد سألني طوال الطريق الكثيرَ عن نفسي لكنه لم يتطرق قطّ إلى الوضع السياسي في العراق وحديث الاحتلال الأميركي والصراع الطائفي ومحاكمة الدكتاتور وما إلى ذلك. وهو أمر ملأني بامتنان حقيقي لهذا الشاب المهذّب. فمثل هذا الحديث كان كفيلاً بتحويل الرحلة الهادئة إلى مأزقٍ أجدُ نفسي فيه كمن يمشي على حبلٍ رفيع. لقد أدركت بعد تحقيقاتٍ متواصلة من هذا النوع هنا وهناك أن تعقيدَ الوضعِ في العراق لا يتيحُ مجالاً للتوضيح عبر أحاديث يسطّحها السجالُ والحماسةُ.

سألني خالد عن اختصاصي، وحين علم أني أدرّس اللغةَ الإنكليزية زادت حماسته للحديث. وقال إنه ظل يطمحُ دائماً إلى تعلّم اللغة الإنكليزية ولكنه لم يحقّق من هذا الطموح شيئاً يذكر. قال بنبرة أُلفة بالغة لم أتوقّع أن تتشكل بهذه السرعة:

Twitter: @ketab_n

- هل تعلم يا دكتور كم في هذا من إحراج؟ معظم الأساتذة الذين أنقلهم في سيارتي هذه هم من الأجانب الذين لا يتكلمون إلا الإنكليزية. والآن أصبحت اللغة الإنكليزية كما يُقال هي لغة الدراسة في كلّيتنا وزاد عدد الأجانب من المدرّسين فيها. ولا أدري كيف سأحلّ هذا الإشكال!

قلت لأشجّعه:

- مازلتَ شاباً والشرطُ لا يعدو وجودَ الرغبة والصبر. كلنا قادرون على تعلّم اللغات، ألا نتكلمُ لغتنا بطلاقة؟ هذا يعني أنّ قدرتنا على تعلّم اللغة موجودة وسليمة. وتذكَّر أن الطفل هو أفضلُ من يتعلّم اللغةَ الجديدة ويُتقنها. أي إن المسألة ليست معقّدةً كتعلّم الرياضيات والفيزياء أو حتى التاريخ والجغرافيا.

استمع خالد إلى حديثي باهتمام شديد، بالرّغم من أن ما قلته لم يعدُ حدودَ المجاملة وكنت قد أعددتُ هذه الأفكار مسبقاً لتشجيع الشاكين من صعوبة تعلّم الإنكليزية وما أكثرهم. أدركت من شدّة اهتمامه أن الإنكليزية أصبحت تُعد اليوم غايةً مشتهاة في عُمان. وكما هي الحال مع من يجهل اللغة الإنكليزية وبالتالي يمقتها بقدر حبه لتعلّمها فقد ظلّ خالد يعاود السؤال عن أفضل وسيلة تقرّبه من الإنكليزية حتى جعلني أشعر بأني ساحر أرفض الإفصاحَ عن أسرار عجائبي، وبأن لديّ مفتاحاً أخفيه في مكان ما ليس ببعيد يمكن لو قررتُ في لحظة كرم متوقّع مني أن أفتحَ أمامه كل الخزائن المستعصية عليه.

بادرت أسأله عن صُور فقال إن أهمّ ما يميزها طيبةُ الناس فيها وعراقةُ التقاليد والقبائل التي تسكنها، وقد ذكر لي أسماء بعض هذه القبائل بصوت نمّ عن اعتزاز كبير. كان خالد فخوراً بمدينته يفضّلها على مَسْقَط نفسها التي أكدّ أنها بدأت تفقدُ خصوصيتها العُمانية، أما صُور فالناس فيها متكاتفون يعرف بعضهم بعضاً، وأنها تفخر بأن أبرز تجّار السّلطنة قد خرجوا منها وهؤلاء لم يتنكّروا لولايتهم فقد قرروا دفعَ رواتب للعاطلين عن العمل

Twitter: @ketab_n

والمُعْوَزين لوجه اللّه. حين ساد صمتٌ قصير بيننا بادر خالد إلى السؤال عن المكان الذي جئتُ منه وهل هو العراق؟ قلت إني كنت مقيماً في ليبيا وقد عملتُ في جامعة الفاتح في طرابلس ثم في شركة سرت للنفط في البريقة، وقد درّست في المكانين الإنكليزية. سألني عن مدة إقامتي هناك وعجب عندما قلت إنها تزيدُ على عقدٍ من السنين. لكن دهشته بلغت أوجها عندما علم أني أعيشُ وحدي وأني لم أفكّر في الزواج مرةً أخرى. كان عليّ تقديم تفسير مقبول ومفهوم لديه فقلت إني حريص على ألّا أتزوّجَ إلا امرأة عراقية ولأن ظروفَ العراق مضطربة فالأمر مؤجّل. لكن حماسته لدفعي إلى الزواج زادت على حماسته للتعرف إلى أسرار تعلّم الإنكليزية. كان يتكلم بصدقٍ وحرارةٍ وتعاطف جعلني أشعر أني أعيش مصيبةً كبرى لا أدرك أبعادها. قال لي إن أحدَ أقاربه فقد أصابعه في المعمل ولولا زوجته ورعايتها إياه لما استطاع العيش. حين أشرتُ بما يشبه المُزاح إلى أني قد طَعَنْتُ في السنّ لم يبتسم وقال بجدّية كاملة إنهم رتّبوا لزواج أبيه الأرمل البالغ من العمر ستة وسبعين عاماً، وقد تزوّج قبل شهر أرملةً في الخامسة والثلاثين سترعاه وتبعد الوحشة عنه.

استغرقت محاضرةُ خالد عن فوائد الزواج بقية الرحلة ولم يوقفها إلا عند وصولنا إلى فندق صُور بلازا في صُور. لكنني أدركت أن الأسابيعَ الأولى من الوصول إلى مكان جديد ستشهد الكثيرَ من مثل هذه الحوارات والمحاضرات. ما يحدث عادةً أن القادمَ الجديد يواجه العديد من الأسئلة عن حياته وماضيه يحاول بها محيطه الجديد أن يشكّلَ له صورة جاهزة يسهل التعرف إليها والتعامل معها. ولا بدّ من قبول هذه اللعبة لأن الامتناعَ عن الإجابة وترك فراغات مُلْغزة أمور قد تكون لها عواقب وخيمة على تطبيع وضع القادم الجديد وقبوله.

Twitter: @ketab_n

3

هكذا وجدتُ نفسي محاصراً في زاوية التعرّف هذه. وكان لقائي سعيد المخيني أكثرها طرافة. تمكّنت بعد أسابيع من وصولي من العثور على شقّة صغيرة في الطابق الثالث تُطل على ميدان صغير في منطقة الشّرية، ليس بعيداً عن مركز المدينة. عثرتُ عليها بمساعدة أستاذة معي في قسم اللغة الإنكليزية قادمة من جنوب أفريقيا، هندية الأصل مسلمة تُدعى صَفِيّة. قالت لي حين علمت أني أبحثُ عن سكن إنها زارت أثناء بحثها عن شقة لها واحدة راقت لها كثيراً ولكنها لم تتفق مع صاحب العقار لأنه أصرّ على أن تنتقل إليها مباشرةً بينما أرادت هي أن تبدأ إيجارها بعد عودتها من الإجازة. حصلت على رقم هاتفه منها واتصلت به فالتقينا قرب البناية المكوَّنة من ثلاثة طوابق تتربّعُ على تلّة صغيرة تعلو على مستوى الميدان الصغير المقابل لها وتوفّر لها موقعاً يُضفي عليها أبهةً وسمواً. يشغل الطابقَ الأرضيّ منها مكتبٌ لشركة الاتصالات العُمانية الخاصة بالهاتف النقّال. وقد ألقيت عليه أثناء الانتظار نظرةً متفحصة فلاحظت أناقة المكان وأثاثه ما بعد الحداثي ذا الألوان الزاهية (كان يغلب عليه اللونُ البرتقالي الصاخب). لم ألاحظ فيه إلا فتاةً مجلّلة بالسواد ذات ملامح متناسقة جذّابة لا بد أن اختيارها للمكان كان مدفوعاً بجمال ملامحها.

كنت أتوقّع أن أجد صاحبَ العقار رجلاً كهلاً أو عجوزاً لكني فوجئتُ بشابٍ لا يكاد يبلغ الثلاثين في دشداشة ناصعة البياض وكُمّة مشغولة بلون سماوي حالم يتقدّم مني بحيويةٍ ووجهٍ باسم. قدّم نفسه بأدب ولطف قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- سعيد المخيني.

قلتُ بمودة لا تكلف فيها:

- سليم كاظم.

بين العدد الكبير من العُمانيين الذين التقيتهم أثناء عملي في صُور كان سعيد الوحيد الذي أبدى اندفاعاً وحماسةً لمناقشة الوضع المتأزم في العراق. منذ الوهلة الأولى، ونحن نصعدُ سلالمَ البناية، وقد لاحظت أن مدخلها لم يكن يخلو من بعض أكياس القمامة، بادر سعيد إلى سؤالي عن أحوال العراق وآخر تطورات محاكمة الدكتاتور، وقد عجبتُ لذلك. خطر لي أن اعتماد سعيد على مورد آمن وثابت من عقاره ربما أتاح له أن يتفرغَ لمثل هذه الأحاديث. غيره منهمكٌ في مشاغله لا وقت لديه للسياسة. حاولت أن أقدّم أجوبةً عامة لا تدلّ على شيء خاص بي، وقد تعلّمت أن السائل في مثل هذه الحالات يسعى إلى معرفة معلومات محدّدة بعينها: مع الاحتلال أنت أم ضده؟ ما رأيك في البعث وحكمه؟ من السنّة أنت أم من الشّيعة؟ وغيرها من الأسئلة التي لا أجدُ لها إجابةً سهلة وأراها معقّدة أشدّ التعقيد عندما أفكر فيها في حضرة متسائل عربي من غير العراقيين. تجربتي الطويلة والمعقّدة في العراق لم تترك لي مجالاً للشك في طبيعةِ النظام المستبد الذي أهلك شبابَ البلاد وموارده في حروب عقيمة وخرج منه وقد أصبح بلداً محتلاً وكان قد دخله بلداً مستقلاً آمناً. لكن هذه البديهيات التي لا أجد صعوبةً في شرحها وتوضيحها لمن عاش سنوات الحروب من العراقيين (باستثناء أزلام السلطة والمنتفعين منها بالطبع) تصبح مع المُحاوِر العربي إشكاليات يصعبُ شرحها. هل يُبرِّرُ الاستبداد قبول الاحتلال الأميركي؟ هل يمكن التشكيكُ في صدق قائد تصدّى للاستعمار والصهيونية حتى خسر كرسيّ الحكم ووقف في قفصِ الاتهام لمواجهة الموت؟ أدركت بعد سنوات أن هنالك سوءَ تفاهم مستحكماً لا سبيل إلى حَلّه بين العراقي المنهك الخارج من سعير الوطن إلى سعير الصحراء العربية وبين العربي

Twitter: @ketab_n

الذي تعرَّض لعقود من الإعلام الذي لا يجد ما يتحدثُ عنه سوى التستُّر بقميص القضية الفلسطينية. وهو إعلامٌ عجيب حقاً، فبينما هو ينام ويصحو على ذمّ إسرائيل وحلفائها الغربيين فإنه يمثل أنظمة ظلت تسعى دائماً وبكل السُّبُل إلى إرضاء الغرب والتماشي مع ثقافته.

لكني مُضطرّ إلى التوقف عن محاولة صوغ جنون السياسة العربية هذه لأنها تصيبني بالغضب واليأس. لقد قررتُ منذ سقوط بغداد عام 2003 ألّا سبيلَ إلى التفاهم بين العراقي وأخيه العربي بشأن ما يحدث وأن المودّةَ بينهما يجب ألّا تعدو حدودَ المشاعر العصبية البحت التي لا سندَ لها في المنطق والتوافق العقلي. لي صديق عراقي في الأردن، يعمل في الزرقاء، قال لي إنه يعاني ضغطاً عصبياً متواصلاً بسبب الشِّعارات الاستفزازية التي يسمعها هنالك ضد العراقيين لأنهم خانوا الطاغية، وأنا أفهم مشكلةَ هذا الصديق المسكين فقد قُتل اثنان من إخوته أثناء حرب الخليج الثانية في الكويت: تعرض الأولُ للاحتراق في ناقلة على الطريق المؤدّي إلى البصرة حتى تفحّمت جثته، وقُتل الثاني في مدينة العمارة على يد المتمرّدين على الحكومة حين علموا أنه يحمل رتبة ضابط في الجيش.

حسناً قلت إن عليّ التوقف عن محاولة عقلنة الجنون! لكن سعيد المخيني بدشداشته ناصعة البياض وابتسامته الودودة التي تكشفُ عن أسنان ناصعة البياض هي الأخرى وعقاره المهيب الذي يدرّ عليه ثروةً يُحْسَد عليها، كان مصراً على معرفة من أكون سياسياً؟ كنت من جهتي قد طورت تكتيكاتٍ أتحايلُ بها على مثل هذه المواقف، خصوصاً عندما يكون المتحدث مهذّباً لا تسمح له أخلاقه الأصيلة بطرح أسئلة مباشرة سَمْجة. تعلّمت بعد حواراتٍ كثيرة أن أُقدّمَ إجابات لا يفهم منها المقابل شيئاً محدّداً عني، لكني مع هذه التعمية المتعمّدة أحرصُ على مواصلة الكلام عن العراق وأقدّم له مادةً لا تترك مجالاً للشك في جدّيتي في تقديم إجابات واضحة.

Twitter: @ketab_n

سألني سعيد:

- من أيّ منطقة أنت في العراق؟ البصرة؟ الرمادي؟ كركوك؟

أطلق ضحكةً راضية وهو يعدّد أسماء المدن العراقية فرحاً بالتعبير عن معرفته التامة بالبلاد. أدركت أن هذه صيغة مهذّبة للسؤال: أسنّي أنت أم شيعي؟ قلت له باسماً:

- من بغداد.

صمت قليلاً وأطرق. بغداد منطقةٌ غائمةٌ بالنسبة إليه لأنها خليط من كل الأطياف. كان بإمكانه معرفة الأصل لو أنه دقّق في المكان الذي ولدت فيه وهو الحلّة، لكن خياله لم يصل به إلى هناك وسأل بدلاً من ذلك:

- أي منطقة في بغداد؟ الكاظمية؟ الأعظمية؟ الثورة؟ عفواً مدينة الصدر!

أطلق ضحكةً أخرى، ربما تعبيراً عن سعادته بمعرفة دقيقة أخرى عن التغييرات في أسماء المدن، كأنه يقول أنا أعرف هذا أيضاً؛ إن ما كان يُدعى مدينة الثورة أصبح اليوم مدينة الصدر. أجبت بهدوء:

- من البياع.

صمت مرةً أخرى وبدا أنه يُراجع قائمةَ المناطق التي يعرفها في بغداد. حمدتُ الله على المصادفة السعيدة التي جعلتني أسكن منطقةً مختلطةً من كل الطوائف والأجناس في بغداد، وإن كانت هذه الحقيقة تمثّل كارثة بالنسبة إلى عائلتي هناك.

أعتقد أن سعيداً فقد الأمل في الاستدلال على ضالّته عبر السؤال عن المنطقة فعرّج على سؤال جديد:

- هل زرت العراق أخيراً؟

- قبل أكثر من عام.

- وكيف حال الناس في بغداد؟ هل هم في حال أفضل الآن؟

Twitter: @ketab_n

تطلعت إليه مستغرباً:

- هل أنت جاد في سؤالك؟ كيف يمكن لهم أن يكونوا في حال أفضل وهم خارجون من حربٍ شاملةٍ ويواجهون حالة احتلال وتدمير لبنية الدولة العراقية وغياباً للمؤسسات والنظام؟ إنهم يعيشون مأساة حقيقية!

صمت سعيد وبدا حائراً، ثم رفع رأسه وتطلّع إلى عيني ليفهم. كان يجد صعوبةً حقيقيةً في تحديد من أكون، وكانت تلك اللعبة تستهويني، كنت كمن يكتشفُ أن مآسيه مادة قابلة للهو. اندفع سعيد إلى سؤال أكثر صراحة، وكنا قد وصلنا إلى الشقة وفتح بابها وأصبحنا نقف في صالة مريحة الحجم تنتهي في الجهة المقابلة للباب بشرفةٍ عريضةٍ تُطلّ على الميدان ويفصلها عن الفضاء الخارجي بابان زجاجيان منزلقان على الطريقة الفرنسية. قال وهو يواجهني ويمنعُ عني رؤيةَ الشرفة الساحرة خلفه:

- ألم تكن الحال قبل الاحتلال أفضل مما هو الآن؟ مهما يكن فابن البلد أولى بحكم نفسه من الأجنبي؟

قلت وأنا أتطلّعُ حولي لأذكّره بأن الغايةَ من لقائنا هي إلقاء نظرة على الشقة:

- إنها مشكلةٌ فعلاً. لا يستطيع أحد الدفاعَ عن احتلال مهما كان. ولكن كم غرفة تحتوي هذه الشقة؟

انتفض كمن فزّ من نوم عميق وتطلّع حوله. قال بنبرةٍ لا تخلو من الاعتذار؛ كان مهذباً ذلك التهذيب العُماني الرصين الهادئ:

- هنالك صالة، ثم غرفة نوم وحمّام ومطبخ واسع.

كانت غرفةُ النوم صغيرة إلى حدّ ما، لكنها سحرتني بشرفة ثانية تضاف إلى شرفةِ الصالة معلّقة في الفضاء خلف باب صغير تتسعُ لكرسيين في الهواء الطلق. خرجتُ إليها ووقفت أتطلع إلى المناطق المحيطة بها. بدت لي صُور لأول مرّة ملموسةً حتى وهي تمتدّ وتتسع. خلف بناية المستشفى الحكومي المقابل هنالك شارعٌ آخر ثم منظر البحر المهيب من

Twitter: @ketab_n

خلفه. بحر عريض أزرق ممتدّ في اللانهاية علّم العُمانيين الهدوء والاتزان والرضا. على اليمين يمتدّ الشارعُ الرئيس في صُور مارّاً بالمطعم التركي وبنك عُمان الدولي وصيدلية مصيرة ثم مكتب دي أج أل الذي يقع قبالة الجامع الكبير، حتى ينتهي في زحمة مركز المدينة. على اليسار يمتدّ الشارع نفسه عريضاً منسرحاً حتى مجمّع مجان حيث أسواق كمجيز ومن بعدها أسواق بشرى الخير.

سحبني صوتُ سعيد إلى الداخل:

- هل الأسرة معك؟

فاجأني السؤال بالرغم من أنه متوقّع في مثل هذا الموقف. قلت متعمّداً الغموض وأنا أتذكر محاضرةَ خالد عن الزواج:

- الأسرة في بغداد حالياً. ولكن ألا يوجدُ جهاز تبريد في غرفة النوم؟

قال سعيد:

- هنالك سبليت في الصالة سأتركه لك، أما غرفةُ النوم فتختار تبريدها كما تشاء.

قرب مدخل غرفة النوم حمّام صغير يحتوي على بانيو وردي اللون لكن قِدَمَ البناية جعل لونه باهتاً. زاد من وَلَعي بالشّقة أن أجدَ أن المطبخَ هو الآخر يؤدّي إلى شرفة صغيرة ترك المستأجرُ السابق فيها حبلَ غسيل قصيراً. بدت الشقّة بشرفاتها الثلاث أشبه بمرصد عاجي يحقّق العزلةَ والتواصلَ في آنٍ واحد. هنالك فتحة لمكيّف التبريد في المطبخ أيضاً ذكرتني بالتهديد الذي يمثله الصيفُ بحرارته اللاهبة الخانقة.

اتفقت مع سعيد على الإيجار، وبدا لي معقولاً. وقد أسعدني أن يشترطَ سعيد عليّ تسلّم الإيجار على شكل صكوك تُودَع في حسابه في البنك شهرياً، لأنه أمر يمكن أن يوفّر عليّ استقباله شهرياً والخضوع لاستجوابه وخطبه الحماسية.

Twitter: @ketab_n

4

لم يترك لي التحاقي المتأخّر بالعمل أكثرَ من شهرين انتهى بعدهما العامُ الدراسي وحلّت العطلةُ الصيفية فكانت مثل طبقٍ شهيّ يحترقُ على موقد الصيف اللاهب. كنت مضطراً إلى قضاء العطلة في صُور لأن رصيدي من الإجازات لا يسمحُ لي بالتمتّع بإجازة. حين أعودُ بذاكرتي إلى تلك الأسابيع التي سبقت العطلة أجد أن ذاكرتي وهي تستعيدها تبدو انتقائيةً وسجاليةً بطبيعتها من حيث الأساس. وأعني هنا ذاكرتي المأزومة المُلْتاعة بعد ما حدث. أما ذاكرةُ مارسيل بروست مثلاً التي كانت تنشطُ على غير موعد بتلقائية كاملة، فيمكن أن يحرّكها على نحو مفاجئ كوب من الشاي أو بلاطة معوجّة، ذلك أنها ذاكرةٌ مستريحة راضية تخلو من الانفعالات العنيفة والقصدية المتوفّزة. ما يحدثُ عندما نتأزَّم وتتجمعُ تجاربنا في بؤرة ضيِّقة حارقة أن ذاكرتنا تنصاعُ لهيمنة التأزُّم فتسعى إلى حيث يشاء لها الهمّ بحثاً عما تستكمل به الصورة وتؤكّد به الشكوى.

أتذكّر لقائي الأول عميد الكلّية الدكتور سالم الخروصي الذي قادني إلى لقاء رئيس قسم اللغة الإنكليزية التونسي الدكتور أحمد الطاهر. لم يكن العميد يتجاوزُ العقدَ الرابع، ولم يخالط الشّيبُ لحيته السوداء الكثّة الفاحمة، ونمّت عيناه الصافيتان عن وجود راسخ في أحضان سكينة مطمئنة. استقبلني بهدوء وجلال جعلا حركاته تبدو وكأنها تسجيل سينمائي يُعاد عرضه بالسّرعة البطيئة. وبدت ابتسامته صافيةً خاليةً من الهَمّ. لم أكد أنتهي من القهوة حتى دخل الدكتور الطاهر بعد طرق خفيف على الباب. وقد دهشت للتناقض الصارخ بين الرجلين. تقدّم الطاهر بحركة نشطة لا

Twitter: @ketab_n

تخلو من اضطراب وحرج، وبدا كأن الحاجةَ إلى استقبالي قد قطعت عليه شاغلاً ملحّاً. صافحني دون أن تلتقي نظراتنا إلا لثانيةٍ خاطفةٍ ما لبث بعدها أن انتقل إلى العميد. كان استقبال أستاذ جديد لكليهما حدثاً مألوفاً على مدار العام. بدا الطاهر متوسطَ الطول أقرب إلى النّحافةِ لا يستقرّ نظره طويلاً على شيء بعينه، وقد غلبه اضطراب لم أفهم حينئذٍ أهو ناجم عن شأن بعينه أم هو صفة متأصّلة في شخصيته؟

لم يترك حضورُ الطاهر المرتبك أي أثر في جلال العميد وحركاته المتأنية المسترخية. وما كاد الطاهر ينهي جملته الموجّهة إلى العميد حتى بادره الأخير بالسؤال عن ترجمة كان قد كلّفه القيام بها، وقد زاد عدم إنجازها ارتباك الرجل حتى بدأت أتعاطف معه. انتقل العميد إلى السؤال عن أستاذة بريطانية في القسم وهو يبحثُ بهدوء عن ورقة تخصّها أمامه قائلاً دون أن يرتسم غضب على ملامحه:

- ما هذا التوقيت الغريب لتقديم استقالة؟ نحن في النصف الثاني من الفصل الدراسي.

قال الطاهر دون أن يجلس، ربما رغبة منه في اختصار مدّة اللقاء:

- سبق أن تحدّثنا عن هذه الأستاذة من قبل. كان ذلك بعد عيد الميلاد الأخير.

لمعت في عَيْنَي العميد نظرة تحدّى بها ذاكرته المستريحة فساعده الطاهر قائلاً:

- إنها الأستاذة التي تمادت في السّكر في حفلة عيد الميلاد في فندق شاطئ صُور وغادرت الفندق إلى شقّتها في سيارة مجموعة من طلبة الكلية.

بدا أن العميدَ تذكّر الآن. وقد عجبت وأنا أرى أن الحالةَ التي أثارت فضولي لمعرفة المزيد لم تترك على وجهه إلا ابتسامة راضية كل الرضا عن حقيقة أنه استطاع أن يتذكّرها. أردف الطاهر دون أن يبدو أن وقوفه بينما نحن جالسان يعني شيئاً بالنسبة إليه:

Twitter: @ketab_n

- لاحظ زملاؤها تغيُّراً مفاجئاً في سلوكها بعد تلك الليلة، وهنالك شكوى سبق أن عَرَضْتُها عليك من أنها تستضيفُ أحد الطلبة في شقّتها، قررنا حينئذٍ عدم تجديد عقد عملها للعام المقبل.

سأل العميد وقد بدأت تتضحُ أمامه الصورة:

- أليست هي من كانت تعمل قبل وصولها إلى صُور نادلةً في بار بالبرازيل؟

شعّ في وجه الطاهر حمدٌ للّه على أنه لن يضطرّ إلى مزيد من التوضيح، وانتقل إلى شرح الموقف المترتّب على الاستقالة وهو يتذكر وجودي لأول مرة منذ بدأ الحديث عنها:

- كنا نأمل تخفيفَ العبء عن بعض الأساتذة مع وصول الأستاذ سليم، لكن استقالتها تعني أن الحالَ ستبقى على ما هي عليه.

ردّ العميد دون انفعال:

- لتَعُدْ من حيث أتَتْ. لابد من إعداد رسالة إلى مكتب فكتوريا لاستدعاء بديل منها.

خرجتُ مع الطاهر إلى مَمَرّات تزدحمُ بالطلبة. وعلمت منه بينما نحن نشقّ طريقنا إلى القسم أن هنالك طريقين للتعاقد مع الأساتذة الجُدُد؛ الأول الوزارة نفسها، وهي الطريقة التي أتاحت لي فرصةَ العمل، والوزارة لا توفِّر فيه سكناً بل تعوّض عنه بمخصّصات. أما الطريقةُ الثانية فهي شركة فكتوريا النيوزيلندية التي تعاقدت مع الوزارة على سدّ حاجتها من الأساتذة بكفاءة وسرعة ومرونة يفتقر إليها جهازُ الوزارة البيروقراطي. ما يميِّز الشركة أنها توفّر سكناً مؤثّثاً لمستخدميها مما يسهلُ عليهم فُرصةَ الانتقال إلى عمل جديد بعد عامٍ واحد أو أقل دون أن يتعرضوا لمصاعب تصفية المتعلِّقات عند المغادرة. كما أن الشركةَ ترفضُ التعاقد مع من لا تكون الإنكليزية لغته الأصلية، وهو السببُ الذي جعلها تهملُ الردّ على طلبات العمل التي بقيت أرسلها إليها من ليبيا دون طائل.

Twitter: @ketab_n

اتجه الطاهر إلى مكتبه ولاحظتُ وأنا أمضي معه أن خارطة بنايات الكلّية تنقسمُ إلى مجموعتين مستقلتين؛ الأولى تقع قرب البوابة الرئيسة مخصّصة لمكتب العميد والإدارة تعقبها مجموعة الفصول الدراسية التي تنتهي عند مكاتب الأقسام وغرف الأساتذة. وهذه الأخيرةُ تتوزّع على طابقين يشغل قسم اللغة الإنكليزية الطابق الثاني منهما بأكمله بينما تتقاسمُ بقية الأقسام الطابق الأرضي. والسببُ في ذلك أن قسمَ الإنكليزية هو أكبر الأقسام في الكلّية من حيث عدد الأساتذة وعدد الطلبة، فهو يكاد يكون مسؤولاً عن كل طلبة الكلّية. علمت أن الوزارةَ قررت منذ عامين أن تصبح لغة الدراسة في التخصصات العلمية التي توفّرها كلّياتها هي الإنكليزية وأن على الطلبة كافة المرور بسنة تأسيسية مخصّصة لتقوية إنكليزيتهم قبل الانتقال إلى دراسة التخصّص. قال لي الطاهر دون أن يرفعَ صوته بالرغم من ضجّة أصوات الطلبة المزدحمين في الممرّات إن في القسم أكثر من أربعين أستاذاً قَدِموا من مختلف أرجاء العالم الناطق بالإنكليزية (ستة منهم من العرب فقط)، وهنّأني على التمكّن من الحصول على فرصة عمل في القسم لأن شرطَ العمل أن تكون الإنكليزية اللغة الأم للأستاذ. قال ذلك وهو يلتفتُ نحوي بما يشبه التساؤلَ والرغبة في معرفة التفاصيل فخمّنت أن لديه مرشّحين من معارفه ينتظرون الفرصة العَصِيّة. قلت إني بقيتُ أعاود التقديم لأكثر من عامين دون أمل حقيقيّ بالفوز حتى تمّ لي ذلك على نحو لم أفهمه، ربما كان ضربةَ حظ. كنت صادقاً في قولي ذلك لكن الطاهر لم يبدُ عليه التصديق ولم يدفعه ذلك إلى الإلحاح في معرفة المزيد.

اهتبل الطاهرُ أول فرصة سنحت له للتخلّص من رفقتي وأسئلتي، وتمثلت تلك الفرصةُ بلقائنا شاباً طويلاً رشيقاً وسيماً له بشرة بيضاء أوروبية وملامح شامية متناسقة. كنا نمشي في ممرّ مسقوف مفتوح الجانبين يؤدي إلى مكاتب الأساتذة. وقد بادر الشاب إلى مصافحتي بمودّة وقدّم نفسه باسم جورج حداد. سرعان ما سأل الطاهر جورج إن كان مشغولاً ثم تركني معه ليعرّفني على الكلّية والأساتذة معتذراً بكثرة مشاغله.

Twitter: @ketab_n

6

انطلق بي جورج إلى النادي ودعاني إلى قدح من الشاي. وقد وجدنا هناك مجموعةً من أساتذة القسم منهمكة في حوار حماسي عن أسعار السيارات وأيهما أفضل شراء سيارة جديدة من الشركة أم سيارة مستعملة؟ حين علم الجالسون أن الأستاذَ الجديد قد وصل وأنه من العراق الذي ظلّ يتصدّر الأخبارَ لسنوات انصرفوا بانتباههم كلّياً لتفحصي. كان بين الجالسين ماثيو كلارك وزوجته جين كلارك وهما أميركيان من أوريغون أَبْدَيا أشدّ الاهتمام بي لأسباب اتَّضح أنها سياسية بحتة. بدا ماثيو قوياً مشدوداً بالرغم من الشّيب الذي وَخَط فوديه، أما جين فقد ميزتها عينان خضراوان وديعتان حالمتان وكانت لا تصغره كثيراً. سرعان ما تعرفت عليها عن كثب بعد أيام حين توليت تدريسَ مجموعة كانت هي تدرّسها ويبدو أنها ظلت تجد صعوبةً في السيطرة عليها. أعطتني مجموعة من البطاقات المطوية التي كتبْت عليها بخطّ عريض أسماء الطلبة وقالت إنها ستنفعني في معرفتهم بالاسم إذا وضعتها أمامهم وهو ما يمكن أن يقللَ من ميلهم إلى المشاكسة. لكني لم أجد ما يدعوني إلى استخدامها وعجبتُ لهدوء الطلبة. تعرفتُ في تلك الجلسة إلى صفية الهندية من جنوب أفريقيا التي كان يؤطّر وجهها الأسمر شعر أشيب وتميزها عينان صافيتان متسائلتان. شاركت في الحوار أستاذة انتقلت إلى العمل في مَسْقَط بعد نهاية العام بحثاً عن حياةٍ اجتماعية أكثر حيوية هناك، كندية تُدعى ماريا أوليري.

وقد حدث ما كنت أخشاه فكان علي أن أستعدّ لرسم الصورة التي ستستقرّ في العقول عني. هَبَّ جورج إلى الكاونتر وجاءني بقدحٍ من الشاي

Twitter: @ketab_n

بعد أن سألني بأدبٍ جمّ عما أشرب. وقبل أن أباشر الرشفةَ الأولى سألني بجدية بالغة:

- هل أنت قادم من العراق نفسه؟

قلت بهدوء واقتضاب:

- لا، من ليبيا.

قال ماثيو كمن يعلن اكتشافاً فريداً:

- هذه دولة في شمال أفريقيا.

هنأته على سعةِ معارفه فأردف ضاحكاً:

- إنها بلد القذّافي!

سألتني جين وهي تتطلع نحوي بعينين خضراوين ساكنتين وديعتين وابتسامة ودودة:

- ألم تزر بلدك العراق أخيراً؟

قلت إن آخر زيارة كانت قبل عام تقريباً. وهو ما التقطه جورج وعلى وجهه سيماءُ المتأمل العارف:

- وكيف وجدته؟ يقال إن بوش قد دمّر البلادَ تدميراً شاملاً وإن هنالك مقاومةً ضاريةً للاحتلال.

تطلَّع الجميع نحوي وبَدَتْ على وُجوههم راحةٌ تامة لأن جورج وفّر عليهم اللفّ والدورانَ الطويل قبل طرح السؤال المحوري.

تساءلت إن كان ماثيو وجين، وهما أميركيان، من المتحمّسين لمغامرات بوش في العراق وأفغانستان؟ كان على وجهيهما فضول وترقّب لم أتمكن من استبطانهما. قلت وأنا أشعر بنوعٍ من الارتباك لغموض الموقف حولي:

- ظروف البلد صعبةٌ بالتأكيد والمشاكل كثيرة. التغيير الذي تم أعمق مما يبدو للوهلة الأولى وقد أشاع الاضطراب لدى الجميع، خصوصاً بعد حلّ مؤسسات الدولة والبداية من نقطة الصفر.

Twitter: @ketab_n

قال ماثيو بابتسامة متهكّمة:

- المحافظون الجُدُد في أميركا لا يدركون ما يفعلون. ورّطوا أنفسهم وبدأوا يتخبّطون. ما أقرأه يدلّ على تعقيد لا يخطرُ على بال: هنالك طوائف من السُّنّة والشّيعة وهنالك قوميات من العرب والكرد والأتراك. متاهة حقيقية!

لم يكن جورج ميالاً إلى الكلام بقدر تعلّقه بمزيد من المعلومات عن الحالة وعني، وقد صرتُ أخشى أسئلته المباشرة التي لا تقيمُ وزناً لما تسبّب من إحراج. التفت نحوي فجأة وقذف سؤالاً غريباً لسذاجته:

- هل أنت سعيد بما حدث في العراق؟

صمتّ قليلاً بالرغم من أن كثرةَ الحوارات السابقة قد بلورت في ذهني إجابةً تُمَثّلُ ما أشعر به. كان صمتي محاولة لدفع جورج إلى التأني في أسئلته، قلت:

- ما حدث لا يمثّل ما كنت أطمحُ إليه. كان العراقيون بحاجةٍ ماسّة إلى تغيير جذري للنظام بعد عقود من الحروب العقيمة والعَوَز والمُعاناة، لكن الطريقةَ التي حدث بها التغيير تعني الخروجَ من مأزق للسقوط في مأزق آخر.

قالت صفية وقد لاحظتُ صفاء عينيها السوداوين لأوّل مرّة:

- وهل كان التغييرُ ممكناً دون التدخل الأميركي؟

قلت في محاولة للإيجاز:

- لم يكن ممكناً دون الموافقة الأميركية.

سألتْ: كيف؟

قلت وأنا أشعر بِجَزَعٍ لسقوطي في فخّ حوار مكرور طالما أرهق أعصابي:

- كان التغيير محتوماً بعد الخطايا الكبيرة التي ارتكبها النظام بحربه

Twitter: @ketab_n

المدمّرة مع إيران واحتلاله الكويت وهما مغامرتان أضعفتاه ضعفاً قاتلاً. وقد حدثت انتفاضة ضده عام1991 كادت تحقّق التغييرَ دون تدخل خارجي لكن الولايات المتّحدة سمحت له بقمعها حين حجبت أية مساعدة عن الثائرين بينما أتاحت للنظام استخدام السّمتيات والحرس الخاص لقمع الانتفاضة. كانت النتائجُ مأساوية كارثية وأعتقد أنكم سمعتم عن المقابر الجماعية التي أعقبت تلك الانتفاضة.

قال جورج وهو يحدّق إلى نقطةٍ لم أتبينها في الفراغ:

- يقال إن تلك الانتفاضةَ كانت بتحريض خارجي أيضاً من قبل إيران.

وأضاف ماثيو مؤمّناً:

- هذا صحيح. إيران هي الخطرُ الأكبر في هذه المنطقة.

قررت الإيجاز فقلت:

- لكن الأحزابَ التي تسلّمت السلطةَ بعد الانتخابات الأخيرة هي أحزاب دينية كان مقرها في إيران، وقد ظلت إيران تدعمها وتساندها دائماً.

بدأت الصورةُ تتشابك، لكن صفيّة آثرت الصبرَ ومحاولة الفهم. قالت بنبرةٍ لا تخلو النباهةُ فيها من تهكّم مبطّن:

- كيف؟

وأضاف جورج بتبسيطه الدالّ عليه:

- الأحزاب التي تسلّمت السلطة جاءت مع الأميركان وبالاتفاق معهم، والانتخابات حدثت في ظروفٍ استثنائية تثيرُ الشكوك في صحتها.

لا أدري كيف استثارني جورج لشرح فكرتي عمّا حدث في الانتخابات، لم تكن غايتي تقديم الفكرة نفسها ولكنْ توضيحَ الأبعاد الشائكة للوضع في البلاد. قلت وقد تركّزت عليّ الأنظار بفضولٍ شديد:

- علينا أولاً أن ندرك أن خلقَ الشرعية هدفٌ رئيس للأميركان، لأنهم بدونها سيزيدون من أعداد الساخطين على احتلالهم البلاد. كان لابد أن

Twitter: @ketab_n

يقدّم الأميركان تنازلات مؤقّتة للفوز بولاء أكبر عدد من السكّان ولتهدئة الأغلبية. وكانت الانتخابات تمثل مزاجَ شعب لم يَذُق الديمقراطية يوماً ولم يُبقِ له الاستبداد أدنى أثر من الحياة السياسية المدنية. لقد سحق نظامُ البعث كل الأحزاب والتيارات العلمانية والدينية المعارضة للسلطة، فما كان من الناس إلا التمسُّك بالعقائد الدينية التي لم يستطع النظام التنكّر لها بل كان يروّجها واجهةً له، وهو ما صعّد المشاعرَ الطائفية وروّج الأحزاب الدينية قبل الاحتلال. حين دخل الأميركان قرروا التخندقَ خلف شرعية هذه الأحزاب على الرغم من العداوة المستحكمة بين الطرفين. ولم يخامر الأميركان شك في قدرتهم على دفع الأحداث بالاتجاه الذي يخدمُ مصالحهم بعيدة الأمد لأن لهم جيشاً كبيراً في البلاد، ولأن كفّتهم بوصفهم البلدَ الأقوى والقُطب الأوحد تضمنُ لهم الغلبةَ في نهاية المطاف. أحد أسباب حالة الغليان والفوضى في العراق يكمنُ في وجود هذه الأحزاب الشيعية الدينية القادمة من إيران في السلطة، لو كان الفائز في الانتخابات علمانياً من حلفاء أميركا لهدأت الأمورُ بسرعة أكبر ولسارع الأميركان إلى مدّ السلطة المنتخبة بالأسلحة والمعلومات المطلوبة للتصدّي للعنف. المسألة الكبرى أن الصراعَ في البلاد وقع بين طرفين لا يأتي العراقيون في قائمة أولوياتهما إلا على السطر الأخير. المُستبدّ الوطني دمّر البلادَ بحماقاته قبل أن يقعَ الاحتلال، وصار شراً يحلم الجميع بالتخلّص منه، والمحتل الأممي جاء لاعتبارات إستراتيجية تخصّه بالمقام الأول، وكان طوال العقود الماضية يدفع المستبدّ الوطني إلى المزيد من الحماقات حتى انفرد به في زاوية خانقة. وصعوبة الموقف أن الفردَ المحايد من العراقيين والعرب والأجانب يحتاجُ إلى الاصطفاف مع طرف دون آخر في أيّ صراع. فليس من المعتاد أن يقال ألّا موقف من هذا الصراع وأن هنالك اعتراضاً على طرفَي النزاع. لا يتناسبُ هذا الموقف مع عادة الناس في السعي إلى الوضوح والموقع الثابت المفهوم، وهو ما قاد إلى انقسام الموقف بين مؤيد للاحتلال بوصفه تحريراً من ظلام الاستبداد ومدافع باستماتة عن المستبدّ

Twitter: @ketab_n

الوطني لأنه بالرغم من كل الاعتراضات وطني لا أجنبي محتل. والواقع أن فهمي هذا للصراع في العراق لا يزيدني إلا حيرةً والتباساً. لقد حاولت دائماً أن أوضحَ لمن يسألني أن في كلامه دون شك جزءاً من الحقيقة مهما كان موقفه، غير أن فيه أيضاً جزءاً من الخطأ والمبالغة. المسألة العراقية أكبر من أن تُفهم على المستوى الوطني الداخلي. إنها معادلةٌ دوليةٌ كبيرة تحركها آليات تفوق قدرةَ الهواة على التحليل.

حين توقفت عن الكلام لزم الجالسون الصمت. لم يبدُ أن كلامي كان مفهوماً لهم، لكن حماستي أثارت اهتمامهم. بادرت الكندية ماريا أوليري التي انتقلت في نهاية العام إلى مَسْقَط إلى حسم الموقف فقالت بما يشبه المزاح:

- تذكروا أن الحوارات السياسية والدينية والجنسية ممنوعة منعاً باتاً بحسب تعليمات الدكتور الطاهر وأنتم تجلسون في مكانٍ عام. أقترح لمن يحرصُ على عقد عمله أن تستمرّ المناقشة على انفراد في جلسات أكثر خصوصية من النادي.

Twitter: @ketab_n

5

بدا في الأسابيع الأولى التي أعقبت وصولي أن ثمة قالباً مُعدّاً سلفاً مطروحاً على الأرض وأن عليّ كلما قابلت أحداً أن أستلقي فيه لقياس مدى انطباقه عليّ. كنت كلما تكرَّرَ هذا الاختبار زِدتُ شعوراً بأن هذا القالبَ لا يعدو في حقيقته تابوتاً متجهّماً. لقد منح التاريخ العراق صفة فاعل فرد ينشط على مسرح العالم بأسره حتى صار من الصعب على أبنائه تقديم أنفسهم كأفراد، صاروا هم أيضاً فاعلين خُرافيين في حدث كبير يتخطاهم ويستهينُ بهم. لم يكن من تعرَّفت عليهم يتعاملون معي كإنسانٍ فرد يتحركُ في محيطٍ له أدنى قدر من الخصوصية، كنت لا أعدو بالنسبة إليهم رمزاً لمحنة وناطقاً بلسانها. هم أنفسهم كانوا يتقمّصون أثناء الحديث أدواراً تتجاوزهم كأفراد وتحنّطهم في مواقف مثالية مستريحة لا تأبه بالتفاصيل والمفارقات. بعد كل حديث مطوّل عن العراق ومتاهته المتشابكة مع أشخاص لا يعرفون عنه وعن تعقيد العوامل الفاعلة في تقرير محنته إلّا شعاراتٍ فجّةً، ينتابني إحساسٌ بالخواء والابتذال. يشبه الأمر فضح عشق مرهف يؤرقُ الروح وسط جمع صاخب في بارٍ رخيص.

ربما كان السببُ في نُفوري من حديث السياسة أن حياتي صارت لا توفّرُ لي زاويةً حميمةً أخلع فيها أسلابَ المحنة العراقية وأرتدي بيجاما البيت ومشاغلهِ الصغيرة. بعد عقود من إدمان نشرة الأخبار ولغتها المحنّطة اليابسة ووجوه المذيعين وأصواتهم التي تحاولُ جاهدةً ادعاء الحياد والموضوعية حتى وهي تنقلُ أفظعَ المآسي، صارت نشرة الأخبار هي قصيدتي اليومية الفجّة. تعليق أخرق يخترق غزارة الحياة ودهشتها. ما كنت

Twitter: @ketab_n

أعانيه في وحدتي لم يكن غياب الآخرين بل العكس. التلفزيون والإنترنت والكتب كلّها تُحيل إلى الناس ومشاغلهم. أعتقد أن ما يعانيه المستوحدون ليس الوحدة بمعنى العُزلة عن العالم، ولكن التواصل الذي يتمّ بين طرفين: الأول الذي هو أنت، حَيٌّ نابض تحكمه صيرورةٌ متدفقة، بينما الثاني شبح يقبعُ في مكانٍ بعيد لا يستجيبُ لك تحديداً بل تكون استجابته قد تقررت وثبتت من قبل وما أنت إلّا راصدٌ معزول عنه، عاجز عن التواصل الحقيقي معه.

أبدأ يومي بسماع نشرة الأخبار العُمانية عبر الراديو، وهو عموماً لا يوفرّ في صُور إلا هذه الإذاعة. أتجنبُ التلفاز صباحاً لأنه ينثر من الصور والتعليقات والدعايات ما أراه في صخبه وإيقاعه السريع متناقضاً مع هدوء الصباح المقدّس، هدوء البدايات والتقاط الأنفاس. راديو عُمان يقدّم نشرةً هادئةً وتقاريره تخلو من المبالغات والتوابل. كم تمنيتُ طوال عقود لو أني تمكّنتُ من الامتناع عن متابعة الأخبار اليومية بكل أشكالها، تمنيتُ نوعاً من الهدنة. لكن ما يحدث عندما أتوقف عن متابعتها أن أكتشفَ عبر أحد الأصدقاء أو المعارف أن حادثاً مأساويّاً قد وقع في العراق وأن ضحاياه بالعشرات. بدأت أشعرُ على نحوٍ غامض أني بمتابعة الأخبار يوماً بيوم أمنع هذه المآسي من الوقوع!

حين صارت لي سيارة انطلقت كمحجّة أُولى إلى البحر الذي يحتضنُ المدينة. كنت قد وصلتُ شتاء، وهو ما جعلني أقعُ في عشق الهواء المنعش والشمس الوديعة الحانية. الطبيعة ملاذي. دراستي لشعراء الرومانتيكية الإنكليزية انطمرت تحت طبقاتٍ متنوعة من وحل المصائب حتى نسيت الأبيات القليلة التي وصلت بي حماستي لها يوماً حد معرفتها عن ظهر قلب. وهي أبيات تمجّد الطبيعة وتلوذُ بها. لكنّي وفي لحظة ضيق وانسحاق، وكنت يومئذٍ أقودُ سيارتي في ليبيا على طول الساحلِ الأخضر، انتبهت إلى منظر غابة من أشجار اليوكالبتوس العملاقة تضحكُ خضرتها للشمس والبحر والريح. كنت متعباً فأوقفتُ سيارتي وتطلعت إليها، صعّدت

Twitter: @ketab_n

نظري بحيث إنه لم يعد يمسّ الأرض وما عليها. ظلّ يتشبثُ بعناد بخُضرة الشجر وزُرقة السماء التي تكلّلها مثل هالة مقدّسة. وفجأة انبثق في رأسي بيت شيلي: "أحب الأمواج، والرياح، والأعاصير، وكل ما لم تُدنسه تعاسةُ الإنسان في الطبيعة". أدركت حينئذٍ ما كان يعنيه أولئك الشعراءُ المنسيّون الذين ذاقوا جمالَ منطقة البحيرات في انكلترا وغسلوا به سُخامَ الثورة الصناعية المتطاير حولهم والعالق بأرواحهم المجنّحة. خطر لي حينئذٍ أن للعالم سِحراً متجدّداً يطمره غبارُ مشاغلنا البشرية الخانق، وأن بي حاجة إلى العودة إليه والاستغراق في تأمله بين حين وآخر بعيداً عن البشر... كل البشر، فالبشرية تبقى قرينةَ السؤال والقلق والخلاف. حتى الأحبة لوّثتهم المصائبُ الكبيرةُ فصاروا هَمّاً. أولئك الذين استندتُ إليهم بكل ثقل حاجاتي العاطفية من حبّ وقرابة وصداقة رحلوا أو تعذبوا، وفي كل الأحوال صاروا مصدرَ ألمٍ وأفق غياب.

تعلّمت مذاك أن أرفعَ بصري إلى أعالي الشجر، إلى الأفق، إلى النجمة، إلى القمر المكتمل في سماء بعيدة هانئة لا تعرفني. كنت أفعل ذلك كلما خنقتني مصيبةٌ وأضيفت إلى طبقات الهمّ العراقي التي تكدست طوال ربع قرن طبقة جديدة. وقد أدهشني أن تكونَ لهذه الفكرة البسيطة قدرةٌ على المواساة. ولكن ما الصلاة وما التصوف في نهاية المطاف؟ أليسا قفزةً إلى عالم يخلو إلا من إلٰه واحد لا يشبه البشر في شيء؟

أتاحت لي السيارةُ أن أستعرضَ ولايةَ صُور بأكملها، واكتشفتُ كم هي صغيرة وادعة منزوية. هنالك الساحل الطويل وكورنيش أنيق مرصوف ببلاط ملون يمتدّ إلى أقل من كيلومترين، وقد أقيمت في بدايته بعض الاستراحات الصغيرة المزوّدة بمنصّات كونكريتية تغطيها قبابٌ مقوّسة مفتوحةُ الجوانبِ على البحر والشارع المؤدّي من مركز المدينة إلى منطقة البر. وما هي إلا بضع زيارات حتى أدمنتُ التمشي هناك والجلوس داخل تلك الاستراحات في عزلة تامة. كنت أفتقد محاورين بأعينهم تشتّتوا في المنافي أو شدّهم الوطن بمصائبه الدموية. حوار الغرباء لا يُغني، وكثرة

Twitter: @ketab_n

الجراح تجعل أي تماس مع الناس هنا سبباً لتوجّع جديد. وبالرغم من أن العزلةَ تلازمني فإنها لم تكن في عيني أمراً طبيعياً متأصّلاً في نفسي. سبب عزلتي نفوري من الشرط التاريخي الأحمق الذي يلفّني، وكل تواصل مع العراقيين أو العرب حولي ينتهي إلى تململ داخل شبكةِ المفارقاتِ المحيرة لا يفعل إلا زيادة الإحساس بها. مشكلتي أني لم أجد جماعةً من الناس أو موقفاً يمكنُ لي قبوله والتمتّع بطمأنينة الانتماء إليه. الاحتلال الأميركي مفارقةٌ محيّرة، ومواقف العرب والعراقيين منه مفارقة محيرة هي الأخرى. الناقمون على الاحتلال يدفعهم إما حنينٌ إلى نظام استبدادي جائر وإما حلمٌ زائف في إقامة الدولة الإسلامية التي ستحق الحق. الراضون بالاحتلال حوّلوه إلى وسيلة ثأر وتهديم وإثراء ونهب وانتهى بهم المطاف اليوم إلى الحرب الطائفية. كل هذه الخيارات بعيدةٌ عني والأدهى من ذلك أنك ما أن تتعرف على عربي أو عراقي في المنفى حتى يحشرك في واحدة من هذه الخيارات، ولا مناصَ من العودة المتكررة إلى حديثِ السياسة والخلاف الطائفي في أي لقاء. بينما السياسةُ بالنسبة إلى غير العراقيين تسلية مؤقّتة يعودون بعدها إلى حياتهم اليومية الرتيبة، فهي بالنسبة إلى العراقي كابوس مستمرّ منذ ربع قرن يودّ في كل لحظة أن يستيقظَ منه دون جدوى.

حدث بعد نوبةِ التحقيق مع عدد من أساتذة القسم الأجانب في النادي، التي انتهت بدفعي لأول مرةٍ منذ وصلت إلى صُور إلى التعبير عن بعض أفكاري عن المحنة العراقية، أن وجدت نفسي في موقفٍ شبيه بذاك. كنت أتناولُ الغداءَ في غرفة صغيرة أنيقة خصّصتها الكلّية للأساتذة زُودت بجرس يتيحُ استدعاء النادل الهندي الودود لتقديم الطلبات. وقد كان وجودي في هذه الغرفة يجمعني بمختلف أنواع الأساتذة من الأقسام الأخرى، ويعرّضني لاستجواباتٍ حرصتُ دائماً على التملّص منها بتهذيب وهدوء. يومئذٍ جلس إلى جواري إبراهيم الساسي، وهو أستاذ تونسي من قسمنا لم يكن قد بلغ الثلاثين. كان يصطحبُ أستاذين تونسيين من قسم

Twitter: @ketab_n

الرياضيات لم أتعرَّف إلا إلى واحد منهما من قبل. لفت نظري في الثلاثة شهيتهم المفتوحة لالتهام الطعام وصخبهم وتنكيتهم والطريقة المتعجرفة التي كانوا يُصدرون بها الأوامر للنادل الهندي إذ طلب منه الأستاذ الذي لم أره من قبل أن يناوله المملحة ولم تكن تبعدُ عنه أكثر من ذراع. كان لإبراهيم الساسي كرشٌ لا تتناسب مع صغر سنه واتسمت حركاته باندفاع أهوج لا يخلو من عدوانية يوحي بأنه لا يقيمُ وزناً لأحد حوله، بالرغم مما تأكد لي لاحقاً من أن طباعه كانت تنقلبُ رأساً على عقب عندما يتعاملُ مع أبناء البلد من العُمانيين وأن شعبيته بينهم لذلك كانت واسعةً جداً. مضى بعض الوقت قبل أن يلتفتَ الأستاذ الجديد إلي ويسأل عمن أكون. حين عرف أني من العراق انطلق يعبرُ عن مشاعره القلبية تجاه الطاغية القابع في قفص المحاكمة. كان يمجّده وهو يحشو فمه بالطعام، ثم حوّل نظره نحوي على نحو لم أتوقّعه وسأل:

- ما مشاعرك وأنت ترى هذا البطلَ خلف القضبان؟

كان المعتاد أن أتوخّى الاعتدال وأتجنبَ المواجهةَ لكني شعرتُ بغيظٍ لم أتمكّن من كبحه ربما كان سببه تبجّح الثلاثة وصياحهم. قلت دون مقدمات:

- أين البطولة في أن تتسلم الحكم في بلدٍ مستقل وتتركه وقد أصبح محتلاً؟

صمت ذلك الأستاذ وكفّ عن مضغ الطعام وكان وجهه كروياً كبالونة شاحبة. لم يكن يتوقّع مني تلك الإجابة. لزم زميلاه الصمتَ أيضاً حتى قال إبراهيم الساسي وهو يصبّ كوباً من الماء:

- حدث الاحتلال لأن في البلد بطلاً.

سألتُ وأنا أحدّق إلى عينيه الضيقتين:

- البطل أم النفط؟ ليس البطل الذي تتحدثُ عنه سوى أسطورة خلقها المحتل نفسه لتبرر له برعونتها وتهوّرها احتلال البلاد.

Twitter: @ketab_n

سألني الأستاذُ الذي ابتدأ الجدال:

- هل رأيك هذا يمثلُ الأغلبيةَ في العراق؟

فردّ عليه زميله الذي ظل يلزمُ الصمت:

- الأغلبيةُ في العراق من الشّيعة، وهم جميعاً حاقدون على الرئيس.

كنت على وشك التمادي في اللعبة، لكني انتبهتُ إلى الفخّ الذي استدرجت إليه. قلت بهدوءٍ مفاجئ لي ولهم:

- يقال إن حديثَ السياسة لا يليقُ على الطعام. أتمنى أن نلتقي في وقت آخر لمواصلة الحوار.

نهضتُ وأنا أقول ذلك قبل أن أُكمل طعامي وغادرتُ المكان بأقصى ما استطعت من الهدوء والتماسك. لم يجمعني حوار بهم بعد ذلك. لكني صرت أقصدُ المطعم في وقت متأخّر كي أضمن ألّا أصادفَ شلّة كتلك. أيقنتُ أني لم أكن لأتوصلَ إلى موقف يختلفُ عنهم لو كنت أرصدُ المشهد العراقي من ربوع تونس الخضراء الوديعة الآمنة. سرعان ما تبخّر لومي لهم لكني تجنّبتهم، وكان ذلك يعني أني صرتُ أتناولُ طعامي وحيداً في معظم الأحيان.

Twitter: @ketab_n

7

قد لا أكونُ مبالغاً في ملاحظتي أن الفرد ينزفُ قدراً من خصوصيته يتناسب مع مقدار تأزم الوضع السياسي في بلده. القادمون من بلدان آمنة، ومقياس الأمن ألّا يتصدّر البلد نشرة الأخبار، يحتفظون بقدر كبير من خصوصيتهم وبالتالي إنسانيتهم. حين يقدّمون أنفسهم تثبتُ عليهم العين ولا يقفزُ العقل إلى التطويح بهم داخل إطار يتجاوزهم فيحولهم إلى رقم صغير ذي قيمة رمزية لا تخصّه. قد تتضحُ هذه الفكرةُ إذا ما قورن أستاذ قادم من كندا مثلاً بأستاذ آخر قادم من أميركا. الأول فرد نتفحّصه لذاته ولا يؤثّر في خصوصيته ما يقترنُ به من صورة نمطية يؤطّرها البرد والثلج، لكن الثاني يخسرُ الكثير من إنسانيته لأن بلاده تتصدرُ كل نشرة للأخبار مهما كانت لغتها. المصري مثلاً عاش حقبةً طويلةً من الإزاحة على مسرح التاريخ السياسي الحافل لبلده خلال عقود الحروب مع إسرائيل، ثم بدأ يستعيدُ نطاقه الخاص بعد أن تراجعَ اسم مصر في نشرات الأخبار.

ضمن هذا المنطق يكونُ أشدَّ من همّشتهم محنُ بلدانهم في يومنا هذا الفلسطينيون والعراقيون. وهو الأمر الذي جعلني أعجبُ لما وجدت عليه الدكتور زكي خليل الذي شذّ كثيراً عن هذه القاعدة. حين قدّم نفسه لي بوجهٍ صبوح بشوش استحضرت الإطار المألوف لديّ عن مشكلةِ العلاقة بين العراقي والفلسطيني منذ بدايةِ الاحتلال. هنالك قرابةٌ خاصة بين العراقيين والفلسطينيين تتضمنُ الكثير من المفارقات والتناقضات. فالعراقي عاش عقوداً من حياته لا يسمعُ في الإعلام العراقي نشرة أخبار إلا وتتصدرها وتهيمنُ عليها مشاغلُ القضية الفلسطينية، وشعار "كل شيء من أجل المعركة" كان يعني في العراق المعركة لتحرير فلسطين شبراً شبراً.

Twitter: @ketab_n

لكن الكثيرَ من المعارك نشبت منذ راج هذا الشعار وكانت القوات العراقية خلالها تندفعُ في الاتجاه المعاكس لموقع فلسطين على الخارطة؛ تارةً نحو إيران وأخرى نحو الكويت. وهكذا أدرك العراقيون بالخبرة الدموية الفادحة أن حماسة الدكتاتور العراقي لفلسطين لم تكن إلا لذرّ الرماد في العيون وأن فلسطين ومصيرها لا يمثلان بالنسبة إليه أولويةً من أي نوع. الفلسطيني من جانبه، وربما بسبب حالة اليأس الكامل التي يعيشها والطريق المسدود الذي مضت فيه قضيته ظل متشبّثاً بالشعارات البعثية العراقية لأنها مصمّمة على قياس أحلامه القصوى دون زيادةٍ أو نقصان. ولقد قادتني الغربةُ إلى حوارات طويلة مع الفلسطينيين كنت خلال التسعينيات مولعاً بها، على عكس حالتي الآن، أدركتُ بعدها أن رفضي القاطع لدكتاتورية النظام في العراق وحماقاته التدميرية يساوي رفضَ الفلسطيني القاطع لأية كلمة يمكن أن تمسَ قدسيةَ هذا النظام في خياله. كلا الرفضين قاطع ويقيني. بعد الاحتلال الأميركي للعراق قامت أميركا بغسل الدكتاتور من كل ذنوبه وحولته إلى مناضلٍ ضد الإمبريالية ضحّى بكل شيء من أجل العِزّة والكرامة. وهنا قررت أن الحوار بين العراقي (اللابعثي) والفلسطيني صار متعذراً أو عقيماً مهما اشتدّ أواره.

كل هذه التداعيات أحاطت بوجه الدكتور زكي خليل الوضّاح الباسم، وقد وجدت صعوبةً في التركيز على كلماته التي عرّفني بها بنفسه وبخصوصياته. كان شاباً في منتصف العقد الثالث يحملُ شهادة الدكتوراه في علم اللغة من جامعة مغمورة في الفلبين، متزوج وله ثلاثة أطفال. تميِّزه وسامة في الملامح تعزّزها صحةٌ وافرة، وضحكةٌ دائمة، وحماسة منشرحة بيولوجية المصدر دون شك لأنها لا تنقطع أو تتضاءل. كان مولعاً بالحوار وبالمعلومة يصغي بانتباه شديد لأتفه الأحاديث لأن ما يسعى إليه يقعُ بين السّطور أو خلفها، وهو يخزنُ المعلومة في ركن حصين من ذاكرته المزدحمة بالتفاصيل ليستخدمها بعد أشهر في إثبات أن المتحدّثَ إليه قد ناقض نفسه أو أخفى شيئاً.

Twitter: @ketab_n

سحبني زكي من يدي بعد بضعة أيام من لقائنا الأول ودعاني إلى جولة في ملعب كرة القدم المُغطّى بالحشائش بعيداً عن صخب الممرّات. لم أتمكن من الإفلات لأنه سألني أولاً إن كنت مشغولاً بحصة قريبة فقلت لا. تمشينا على مهل في صباح شتائي عُماني رائق لا تكاد تصدّق أن شمسه الساطعة الدافئة هي نفسها شمس الشتاء التي عرفتها خارج عُمان. قررتُ وأنا أواجهُ المشهدَ الأخضر المشمس أمامي أن أعاودَ زيارة المكان وحيداً لأمارسَ فيه طقوس التعالي على أدرانِ الأرض. كان زكي يطلقُ تعليقاته الضاحكة عن أحد الأساتذة الأوستراليين الذي مزّق دفتر أحد الطلبة لأن الأخيرَ حاول التحدثَ إلى زميله أثناء الامتحان وكان يؤكدُ قناعته بأن الرجل مصابٌ بالشيزوفرينيا. وبينما هو يتكلمُ كنت أنا أهيِّئُ نفسي لتحقيق سياسي ساخن وكان ملاذي الذي أستعينُ به في حواري السياسي مع الأصدقاء الفلسطينيين أن أسعى قدر المستطاع إلى تحويل النقاش من صراع الطوائف في العراق إلى الصراع بين منظمة التحرير وحماس في غزة. وهي خطة تأتي أُكُلَها في الغالب لأن الموضوعَ الثاني لا يقلّ إثارةً وإشكاليةً عن الأول. لكن زكي فاجأني في ذلك الحوار الأول المطوّل بيننا حين بادرني بالسؤال:

- هل الأسرةُ معك؟

كان عليّ القفزُ من حَمْأة السياسة إلى حَمْأة الزواج في خلال ثوانٍ خاطفة. ولم تكن الثانية تقلّ عن الأولى صعوبة وإحراجاً. كنت كهلاً دون زوجةٍ أو أطفال، وتوضيح هذه المفارقة لعربيّ لا يرى للحياة قيمةً دون أسرة ومال وبنين أمرٌ عسير معقّد لا يتحققُ دون الخوض في تفاصيل شخصية وددت دائماً أن أبقيها نائمةً كجمع من كلاب مسعورة. لم أجد بُداً من التوضيح. ذكّرت نفسي بالقاعدة: حين تبلغ مكاناً جديداً يكون لزاماً عليك أن تملأَ لوحةَ وجودك في أذهان الناس بالخطوط والألوان المطلوبة وإلا فإنك ستثيرُ مخيلتهم إلى ابتكار ما لذّ لها من الأساطير عنك. قلت له:

- إن كنت تقصدُ زوجةً وأطفالاً فإني منفصلٌ عن زوجتي دون أطفال.

Twitter: @ketab_n

تطلع زكي نحوي وبرق في عينيه فضولٌ متنمّر إلى وجبة دسمة من الحكايات المثيرة. سأل محاولاً إخفاء فضوله:

- كم مضى على ذلك؟

- خمسة أعوام.

- ولم تفكر في الزواج مرةً أخرى؟

هتفتُ بطريقةٍ مسرحية:

- إطلاقاً!

- لماذا؟

- العراقيون جميعاً متزوجون زواجاً كاثوليكياً لا فكاكَ منه يستهلك كل طاقاتهم ولا يدعُ لهم مجالاً للتفكير في زواج آخر.

تطلع زكي إليّ مرةً أخرى مستفهماً:

- ماذا تعني؟

- مشاكل العراق والغربة خارج العراق!

انطلقت أساريره مرةً أخرى كأنما اكتشف أني أعني التنكيتَ لا غير. هتف بحماسة:

- لن تقنعني. المشاكلُ السياسية موجودةٌ في كل مكان في الشرق، ولكن الحياةَ تمضي والناس تعيش حياتها.

قلتُ دون حماسة:

- ربما تكونُ على حق. لكني لا أجدُ في نفسي القدرةَ على الجمع بين الهمّين.

كنت أدركُ وأنا أدفعُ الحوار باتجاه موضوعة الهمّ العراقي مخاطر السقوط في جدلٍ سياسي مربك، لكني وجدتُ ذلك أهونَ من الخوض المفصّل في هموم حياتي الخاصة التي غالباً ما أحرص على عدم التفكير فيها حتى منفرداً. أدهشني ألّا يبدي زكي رغبةً في التحول إلى موضوع

Twitter: @ketab_n

السياسة. لم أكن أعلم مدى ولعه بأحاجي الزواج وقصصه وعجائبه، بل لم أكن أعلم حينئذٍ أنه مولعٌ أيضاً بلعب دور الخاطبة وحثّ العُزّاب على دخول القفص. حين أصبحنا في وسط ساحة كرة القدم الفسيحة التي فتحت حولنا فضاء منعشاً من الخضرة والنسمات العذبة طفق زكي يعدّد ما لديه من مرشّحات للزواج. قال جاداً:

- هنالك الكثير من المرشّحات لك. ما عليك إلا أن تطلب وستجد ما تريد. هنالك عراقيات وسوريات وأردنيات...

قاطعته ضاحكاً:

- هل لديك مكتب زواج أو وكالة ما؟

- أبداً. أنا أجدُ التوفيقَ بين رأسين بالحلال عملاً خيّراً فيه نفعٌ للجميع.

حاول زكي في ذلك الحوار الدخول في تفاصيل حياتي دون جدوى. قلتُ له إني إذا ما فكرت يوماً في الزواج فسأقصده قبل أيّ شخصٍ آخر. وهتف هو ضاحكاً وهو يسحبني من ذراعي إلى مكتبه:

- بالله عليك تأتي لنتناول قدحاً من الشاي.

بدا لقاؤنا بالنسبة إليه احتفالاً فريداً. لقد شمّ دُخان وضع غامض ولن يطلقَ سراحي قبل أن يتبينَ ما حدث. حين دلفنا إلى مكتبه هتف إن زواجي سيكونُ على يديه، ولم أدرك حينئذٍ مدى حماسته لتحقيق ذلك الهدف.

جلستُ على كرسي يقابله أمام مكتبه. وكان على المكتب قاموس المورد الكبير بغلاف حائل وكتابات أقرب إلى الخربشة ربما تركها أحدُ أطفاله عليه. لم يتوقف زكي عن الكلام وهو يعدّ الشاي الذي قدّمه لي في كوب بلاستيكي أبيض وقد غطّس فيه كيس الشاي الجاهز. قال وهو يمسكُ بكوبه المُلوَّن الثقيل:

- العراقي فَحْل لا يُشقّ له غُبار، ولن تقنعني أنك زاهدٌ في النساء. كيف يكون زاهداً فيهن مَنْ فطوره الباجة والفشافيش والتكة.

Twitter: @ketab_n

فاجأتني معرفته بهذه الأسماء العراقية وسألته عن مصدر معلوماته، فكلمني بحماسة لأول مرة عن صديقه العراقي كفاح صيهود الذي تعرّف إليه وشاركه في السكن في أثناء فترة دراسته في الفلبين. قال مستمتعاً باستعادة ما يروي:

- كان ضخماً، قوياً، مفتولَ العضلات لا يعترفُ بوجبة فطور تخلو من اللحم. وقد أصيب في الحرب العراقية الإيرانية إصابةً خطرة لجأ بعدها إلى إيران، ومن هناك انتقل إلى ألمانيا حيث أجريت له عمليةٌ كبرى فُتحت فيها بطنه على طولها وقد عرض عليّ آثارَ الجرح الطويل الذي يقطعُ بطنه. بقي يتلقى العلاجَ في ألمانيا لعامين ثم هرب منها دون أن يدفعَ المصاريف. وقد قصد الفلبين لرخصها وتوفر اللحم الحي فيها. ظل إلى حين عاطلاً بلا عمل مربح يسمحُ له بالعيش الآمن. ذات يوم التقى وسطاءَ من ألمانيا يعملون لحساب شركةٍ ألمانية، فاتفق معهم على تصديرِ الملابس الفلبينية الرخيصة إلى ألمانيا، وقد كان يُتقن الألمانيةَ فتقرّب منهم وسامرهم حتى توثقت الصداقة معهم وعرفوا كل أسراره. اشترى في الفلبين مئة وخمسين بنطلون جينز وصدّرها عبر هؤلاء الوسطاء إلى ألمانيا، لكن الألمان انقلبوا ضده وحاولوا سرقته فقالوا له إنه مدينٌ للحكومة الألمانية بتكاليف علاجه هناك. وهنا ظهر معدنُ العراقيّ الأصيل. تناول كفاح قامته ودخل على كبيرهم فوجد معه شخصاً آخر فأغلق دونهما الباب وشهر القامة مهدّداً: النقود أو الموت!

أطلق زكي ضحكةً مجلجلةً وقد راقته الذكرى وأردف باعتزاز كبير:

- ولم يخرج إلا بعد أن وقّع له المدير صكّاً بالمبلغ. هكذا هو العراقي!

ضحكت لحماسته واحتقان وجهه. قلتُ له مشاكساً:

- حسناً، يدلّ هذا على أن العراقي رجلُ حرب لا حبّ.

انتفض زكي مستنكراً:

- بالعكس. كان كفاح يضاجعُ النساء دون تمييز. كانت له عشيقة إسبانية تهيمُ به حباً. ولتعلم أنه كان يتحدثُ الألمانية والإنكليزية بطلاقة،

Twitter: @ketab_n

فضلاً عن الفارسية التي زاد من إتقانه لها علاقاته الوثيقة بالسفارة الإيرانية في مانيلا. هل تعلم؟ لقد سرق مني امرأةً صينيةً ثريةً ناعمةً بالرغم من أنها وصلت إلى الشقة من أجلي وبدعوة مني. الإسبانية والصينية كانتا تنفقان عليه المال بسخاء.

صمت بُرهةً وأطلق ضحكةً عالية تميّزه، قال وقد تقطّع حديثه بالضحك:

- هل تعلم؟ تمكنّا ذات مرة من استدراج فتاتين فلبينيتين في مَيْعة الصبا (لا أكثر من سبع عشرة سنة)، وكانتا تتمنعان وتبديان الخجل. دخل كفاح مع صاحبته وتركني مع صاحبتي، بعد نصف ساعة عاد وقد أكمل مهمته بينما بقيتُ أتحايلُ على صاحبتي دون جدوى، عندما خرج من غرفته سألني عن الأخبار، قلتُ له إنها عنيدة، فنظر نحوها بفضول وقد بدت عليه الدهشةُ ثم دعاها لرؤية لوحةٍ جميلةٍ في الغرفة، ولم تخرج إلا وقد فش غليلي منها.

- هل تقصد أنك لم تحصل على شيء؟

- يصعب أن تحصلَ على شيء مع فحلٍ مثل كفاح. هذا أبو جاسم!

شدّد على حرف الجيم في الكنية على الطريقة العراقية. قلت له إن كفاحه هذا يبدو صعلوكاً ضائعاً فانبرى يدافعُ عنه وقال:

- أبداً. أنت على خطأ كامل. كان ورعاً أشدّ الورع يصلّي الأوقات الخمسة ويضعُ صُوَر الأولياء الصالحين على حائط غرفته.

ضحكت وأنا أسأل:

- هل عرض على الفلبينية الشابة تلك الصور؟

أجاب ضحكتي بمثلها وقال:

- لابد أنه تمكّن منها بعد أن أغمي عليها وهي ترى لحاهم الطويلة ووجوههم المتجهمة.

لا يمكنُ لأحد مقاومة مواهب زكي في خلق الأُلفة والصحبة الطيبة والمسامرة الحميمة. وبالرغم من معرفتي المتزايدة بهوسه الغريب بالتلصص

Twitter: @ketab_n

وفضح الأسرار إلا أني بقيتُ دائماً أقدّر عالياً الفرصةَ التي يمنحني إياها في ضحكة لا يكدرها همّ وفي منفذ إلى كواليس القسم وحكاياته التي لم أكن ممن يسعى إلى الاطلاع عليها. وبالرغم من المآل المُؤسف لمعرفتي به فقد كان بطريقته المشوّهة الخاصة قادراً على تحطيمِ الإطار الجاهز الذي يهددُ خصوصيته.

عرّج بعد حديثه الضاحك عن كفاح ومغامراته العجيبة، دون أن يجد أدنى صعوبة في ذلك، على الحديث عن محاكمة الدكتاتور في العراق. قال إن رجالَ العراق كبار حتى وهم وراء القضبان، وإن الأسدَ يزأرُ وهو في قيوده فيرعب الجِرذان المتجمعة حوله. الطريف أنه وهو يقول ذلك لم يُغير من نبرته الضاحكة وهتافاته التهريجية التي يحرصُ على التمسكِ بها مهما كانت جدِّيَّة الموضوع الذي يتحدثُ عنه. قلت له بين جادّ وهازل:

- هل يعجبك الطيشُ والرُّعونة؟

- تعجبني الرجولةُ والعزّة.

- أسدك هذا تمتع بسلطةٍ مطلقةٍ لأكثر من ثلاثين عاماً. تسلّم السلطة والبلاد ذات سيادة واستقلال يعاني أهلها الملل والرتابة لا الدمار والفواجع، وخرج منها بعد أن تنازل عن أجزاء من البلاد لإيران، ثم للكويت والأردن، ولم يكتفِ بذلك بل سلّم البلاد كلّها إلى الاحتلال الأميركي. كيف يثير إعجابك أحمق كهذا؟

عجبت أن نبرتي الجادة المريرة لم تدفع زكي إلى تغيير نبرته الضاحكة اللاهية فظل يردّدُ هتافات الثناء للقائد الكبير وقد سيطرت على مخيلته صورةُ الأسد والجرذان. نهضت لأخرجَ فحاول أن يستبقيني قائلاً إن حديث الأبطال لا يملّ فسألته وأنا أغادرُ المكان:

- هل تعني الصّعلوك صيهود أم الأحمق الكبير؟

فسمعت هتافه يتبعني:

- كلاهما من الفحول!

Twitter: @ketab_n

8

ظلّت والدتي كلما انتقلتُ إلى بلد جديد تكررُ سؤالها إن كان معي عراقيون، ولا تطمئنّ إلا إذا قلت نعم وأكّدت لها أني ألتقيهم بانتظام. بالنسبة إليها ينقسم البشر إلى فئتين: عراقي وغريب، بينما الأول ابن البلد و"تشيله الحميّة" في وقت الشدّة كما يروقها القول، فإن ولاء الثاني ضربة حظ أو مقامرة لا يصحّ الركون إليها تماماً. كلما استفاضت والدتي في تداعياتها عن تلاحم العراقيين والأقربين عبر التلفون، رنّ في رأسي الوقع الحزين لعبارة بلانش (فيفيان لي) في نهاية فيلم "عربة اسمها الرغبة" وهي تمنح طبيباً نفسياً ذراعها ليمضي بها إلى مستشفى المجانين بعد أن تأكدت خيبتها من الأقربين. تقول بوجه ذاهل للطبيب: "لا يهمّ من تكون، لقد بقيتُ دائماً أعتمد على شفقة الغرباء".

علمت بعد أيام من وصولي إلى صُور أن معي في القسم عراقياً واحداً فقط. وكنت قد سألتُ الدكتور الطاهر رئيس القسم عن العراقيين إكراماً لوالدتي، ولم يفتني ملاحظة نبرة الطاهر وهو يعلن الخبر لي. كانت تنطوي على خيبةٍ تحاول أن تتخفى وراء حياد بارد. لم أستغرب ذلك عندما عرفت أن العراقيّ الوحيدَ معي هو الدكتور حاكم نشمي. كنتُ قد تعرَّفت إليه في جامعة الفاتح في ليبيا قبل أكثر من ثماني سنوات، حيث عملت في كلّية التربية بينما عمل هو في كلّية اللغات فلم تجمعني به لقاءات كثيرة. الواقع أني بدأت أتجنّبه بعد جلستين قصيرتين جمعتنا بزملاء آخرين. لم يكن قراري ذاك ناجماً عن خلاف أو حدث بعينه. اللقاءات الأولى لا تعدو المجاملات عادة، لكنّ الرجلَ بدا واجماً متعالياً على من حوله، ميّالاً إلى فرض سطوته على غيره لاقتناعه التام أن له شخصية قوية لا تُضاهَى.

Twitter: @ketab_n

سمعت مِمَّن تعاملوا معه شكوى من الطابع النفعي لعلاقاته وميله إلى استخدام الناس لمآربه. كما أنه ينتمي إلى تلك الفئة من الأشخاص الذين تتمحورُ حياتهم على ثلاثةِ أركان لا يملّون الحديث عنها هي السيجارة والقهوة وصُعوبةُ النوم. هؤلاء يعانون في الغالب الفراغَ والشعورَ العدمي بأن الحياةَ رحلة مُملّة أطول مما يجب. فإذا ما أثار حماستهم شيء فإن الحماسة تتخذ شكل التهكّم والتعبير عن القرف. بالنسبة إلى معظم هؤلاء الامتناع عن التدخين علامة بساطة أقرب إلى السذاجة، أما ولعهم بالقهوة فلا منطق فيه، فما الفائدة من شَحْذ انتباههم إذا كان ما يشغلهم هو العدم الأجوف. أزعجني حينئذ أن الدكتور حاكم تمكّن في الجلستين اللتين جمعتاني به من تخصيص وقت لا يُستهان به للشكوى من عجزه عن ترك التدخين واستغرابه أن يكونَ لمثل هذه العادة الساحرة كل ما يقال عنها من أضرار. وكان لا يكفّ أثناء شكواه تلك عن التدخين نافخاً الدخان في وجوه محدّثيه باعتدادٍ يُحسد عليه. أما القهوةُ فقد تبجّح أنه يحتسي منها ثمانية أكواب في اليوم على الأقل دون أن يربط بين ذلك وشكواه المرّة من قلة النوم. حين علمت أنه أمضى خدمته العسكرية في العراق ضابطَ احتياط في معهد اللغات العسكري في بغداد، وأنه لم ير جبهةَ الحرب يوماً أدركت سعة الشقة التي تفصل بيننا. فقد أمضيتُ عسكريتي جندياً صغيراً مشرّداً في مواضع الحرب الأمامية.

وهكذا داخلتني خيبة، ربما لا يكفي ما ذكرتُ تبريراً لها، لكني عجبتُ لأن المصادفة اختارت هذا الأستاذ دون سواه ليكون العراقيّ الوحيد معي. كان لا بُد من الحوار معه والتقرّب إليه لا لشيءٍ إلا لأن أبناءَ البلد الواحد، كما ترى والدتي الطيبة، يتقاربون في الغربة تجمعهم همومهم المشتركة وخصوصيات لهجتهم ونُكاتهم وأطعمتهم الخاصة. والحق أن الرجل تلقّاني بترحاب، لكن ترحابه لم يصل إلى حد مسح سيماء الوجوم والكدر عن وجهه. دعاني إلى الانضمام إلى شلّةٍ من العراقيين تقصد مقهى ومطعم "الخروف التركي" القريب من سكني. وقد سرّني ذلك وفتح أمامي

Twitter: @ketab_n

أفقاً جديداً، فالرجل يمكن أن يكونَ مدخلاً إلى التعرّف إلى المزيد من العراقيين في صُور. حين سألته عن موعد محدّد قال إنه يجلس هناك كل يوم من السابعة مساء إلى ما بعد التاسعة، بل حتى العاشرة. وقد أثارت عجبي هذه المواظبة الدائمة التي لابدّ أنها ناجمة عن جلسات شيّقة.

اتجهتُ إلى المقهى مساءَ يومِ صحوٍ لا يخلو من نسمات منعشة ربيعية. لاح د. حاكم على البعد منتصِباً على أريكةٍ خشبية ذكّرتني بأمثالها في المقاهي العراقية. حين اقتربتُ منه تبيّنت سحابةَ الدخان التي تلفه. حيّاني بابتسامةٍ فاترة وسرعان ما شرع (لسبب لا أتذكره الآن) يتغنى بجمال مدينة صُور وسهولة العيش فيها وعشق أبنائه لها حتى إنهم رفضوا السياحة صيفاً في أي بلد آخر مفضّلين المكثَ بعُمان. لكن هذا الاحتفاء بالمكان لم يترك على وجهه أدنى أثر يدلّ على البهجة أو الرضا. كان يتكلمُ عن هذا بوقار ونبرة لا تخلو من التحدّي كأنه في كلامه يردّ على شخص لا أراه يحاول الجدال بأن مدينةَ صُور تثيرُ الملل والاكتئاب. لم أقل أمامه ما يدل على أني أخالفه في الرأي، كما أن سلوكي المتحفظ وصمتي الراضي لم ينمّا عن أية استهانة بالمكان. لقد وافقته على كل ما قال، وودت فقط لو أنه ابتسم وهو يقوله.

اتَّضح أن "الخروف التركي" كان ملتقى مجموعةٍ منتخبة من الأطباء العراقيين العاملين في مستشفى صُور وعيادتها الخاصة. وصل في البداية طبيبان شابان لم يتجاوزا الثلاثين كثيراً هما عبد الله الذي يميلُ إلى القصر والبدانة بوجه طفولي باسم، وإياد الرشيق الطويل الذي يفيضُ حيويةً وصحةً كشأن كثير من الأطباء. قال عبد الله عن صاحبه عندما استويا على الأريكة المقابلة إنه يعمل في قرية الأشخرة القريبة من صُور وإنه يأتي إلى هنا سعياً وراء الأصدقاء والتنويع بين حين وآخر. كان إياد النقيض الكامل للدكتور حاكم المجلّل بدخانه ووقاره المُكفهِر. تكلم بأَرْيَحِية وأسارير منشرحة عن حياته في الأشخرة وبساطة الناس هناك وتقديرهم الكبير للطبيب حتى ليكاد يكون بالنسبة إليهم كالعَرّاف. أما عبد الله فكان شكله أقرب إلى الطفل

Twitter: @ketab_n

البريء الصادق منه إلى البالغ الجاد. لكنه حين تحدّث كشفت طباعه عن الثقة العالية بالنفس التي يكتسبها الأطباء لطول تعاملهم مع الناس وهم في أضعف حالاتهم من المرض والاستغاثة.

لاحظ عبد الله باسماً سحابةَ الدخان التي تحيطُ بحاكم فقال بما يشبه المزاح:

- هل عدنا إلى التدخين؟ أنسيت حالك قبل أشهر وأنت تواظبُ على المستشفى؟

انثلم الجلال الذي حرص حاكم على إحاطة نفسه به أمامي وسمح لابتسامة مرتبكة بالاعتذار عنه:

- لا تقلق، أنا مستمرّ في عملية التخفيض التدريجي لعدد السجائر كل يوم.

قال إياد جاداً:

- أفضل وسيلة للتخلّصِ من التدخين هي أن تتخذَ القرار مرةً واحدةً وبحسم.

قال حاكم وهو يقرب السيجارة من فمه:

- هموم العراق لا تُتيح للنفس مثل هذه القدرة والعزيمة. ألا تسمعُ الأخبار؟

قال عبد الله بتهكّم:

- إن كنت تدخّن على إيقاع الفتنة في العراق فستنتهي بك الحال إلى مدخنة على ساقين.

ردّ حاكم دون أن يبتسم:

- دعك من اليأس. تفجير المرقدين فجّر الدملة المتقيّحةَ وها إنهم أولئك الشباب يتولَّون حسم الموقف بعد أن نفد صبرهم.

سألت بحيادٍ وفضول حقيقي:

Twitter: @ketab_n

- هل تقصد ميليشيات المهدي؟

التفت نحوي وبرق في عينيه ما يشبه السّخط. كان له دائماً وجه شاحب مزرقّ مأزوم:

- كلمة ميليشيات مشبوهة، إنهم ليسوا ميليشيات والعراق ليس لبنان؛ إنهم جيشُ الحق.

لاحظتُ أن عبد الله وإياداً كانا يصغيان برضا وابتسام. قلت بقلق:

- لكنها حربٌ أهلية، وهو ما يعني أن كلّ المشاركين فيها خاسرون.

قال إياد وهو يتفحصني لأول مرة:

- لقد تمادوا كثيراً وقتلوا آلاف الأبرياء بحجة المقاومة.

أجبت بسؤال:

- من هم؟ أنت تتكلم عن فُلول البعث وعصابات القاعدة.

قال حاكم وهو دون أدنى شكّ واحد من فلول البعث بحسب ما أعرف عنه:

- أخي سليم، دعنا نواجه الحقائق. المسألة أعمقُ من البعث وفلوله؛ إنها صراعٌ تاريخي يمتدّ مئات السنين.

خطر لي أن منطقَ حاكم هذا يتيحُ تبرئته من ماضيه البعثي لأنه يجعل الولاء السياسي مسألة تتقرر بالانتماء الطائفي. لكنني لم أعلّق بشيء. كان جلياً أني حللت في تلك الأمسية ضيفاً على قبيلة بدائية مشغولة بثارات القرون الوسطى. وقد تواصل كلامُ الثلاثة متكاتفاً لتأكيد فكرة حاكم التي صدمتني حتى قطعه وصول طبيب ثالث يدعى موفق قدّمه لي الدكتور حاكم قائلاً إنه الدكتور موفق أخصائي الأذن والأنف والحنجرة الأول في صُور. وكان موفق أقرب الجماعة إلى طباع حاكم فقد صافحني بوقار وابتسامة محايدة تخلو من أي فضول وجلس قربه يحدّثه عن مشروعه البحث عن سيارة جديدة. وما إن انتهى من أمر السيارة حتى أعلن خبر وفاة مريض في

Twitter: @ketab_n

عملية جراحية لمعالجة فتق في المستشفى الجديد، وقد انطلق من ذلك الخبر إلى الشكوى من قِلّة رواتب الأطباء التي اكتشفت لأول مرة أنها أقل من نصف راتب أستاذ اللغة الإنكليزية في كلّيتنا.

لاحظتُ أن أول سؤال وجّهه إلي كل من تعرّفت إليهم في تلك الأمسية يخص حالتي الزوجية، وقد ارتسَم على الوجوه فتور حين سمعوا إجابتي. كانت عزوبيتي مشكلة فرّقت بيني وبين معارفي الجدد لأنها تعني أني لا أصطحبُ معي زوجةً أستكمل بها مؤهّلاتي لصداقة متينة. أدركت من الحديث أن ما يحدث عادة أن تجتمع النساء معاً للتسامر مما يتيحُ للرجال فسحة يطوّرون في خلالها صداقاتهم دون الشعور بالذنب لأنهم تركوا الزوجة وحدها تلتهمُ فراغَ البيت. كما كان وصول امرأة جديدة يعدّ رافداً ثميناً لمجموعة الزوجات العاطلات الجزعات الباحثات عن دم جديد يبثّ الحياة في رتابة أيامهن. لم أكن أصطحبُ معي تلك الدّمية المطلوبة للترفيه والتنويع. حين تكرر إعلاني عزوبيتي عمد د. حاكم إلى سرد حكاية تحذيرية عن أستاذ عراقي تعلّق بأستاذة أردنية فكان ينقلها بسيارته إلى بيتها ويتقرب منها حتى فوجئا بقرار عدم تجديد عقديهما في نهاية العام، وبالرغم من أنه سارع إلى تقديم عقد قران لتلافي الخسارة فإن العميدَ هنأهما وأكد أن إنهاء العقد لا علاقة له بالعلاقة بينهما!

لكن العزوبيةَ لم تكن السببَ الوحيد للتباعد. هنالك سبب آخر يدفع معظم العراقيين المقيمين في بلد غريب إلى الحذر من التقارب مع قادم جديد. في ليبيا حين وصلتُ إليها أول مرة قادماً من العراق، وكانت هجرة العراقيين إلى الخارج تتصاعدُ بمعدلات محمومة تعكسُ تصاعد الأزمة التي سببها الحصار في التسعينيات، كنت قد لاحظتُ أن الكثير ممن خرجوا في البداية كانوا يحرصون على عدم تشجيع من بقي في العراق على الالتحاق بهم. وقد عانيتُ الكثير من السلبية التي أبداها بعضُ زملائي الذين سبقوني للهجرة تجاه نداءاتي المستغيثة بالمساعدة على عقد عمل في الخارج. قال لي بعضهم عندما وصلت أخيراً أن من الأفضل عدم تشجيع الباقين في

Twitter: @ketab_n

الداخل على السفر لأن كثرةَ العراقيين هنا ستؤدّي إلى تقليص الرواتب والامتيازات. قال أحدهم بإيجاز: "إنها مسالة عرض وطلب". وقد كانوا على حق، لأن راتبي في جامعة الفاتح انخفض إلى حوالى النصف في العام الثاني لبدء عملي هناك، والسبب كثرة المستغيثين بليبيا. لكني بقيت أجدُ الامتناع عن مدّ يد العون لمن يستغيث أنانيةً مقيتة. بعد عقدٍ من الزمان وبعد أن فتحت حدود العراق لكل من يفكرُ في الهجرة صارت المشكلة التي يعانيها من وصل أولاً من العراقيين تجنُّب من وصل حديثاً لأنه يأتي معه بقائمةٍ طويلةٍ من الاحتياجات والجهالات، والمصطلح العامي العراقي "ينام براسك" كان يرد في هذا السياق. لم يخفَ في جلستي تلك في "الخروف التركي" التحفُّظ الذي شاب تعامل الجالسين معي بمن فيهم د.حاكم نفسه الذي يعلم جيداً أني قادمٌ من عمل مجزٍ في شركة نفط وأن غُربتي امتدت أكثر من عقد ونصف لم أعد في خلالها بحاجة إلى دعم مادي من أي نوع، لكنهم أكثر ذكاء وحذراً من أن يتقربوا من قادم جديد. فمهما امتلكت من مال في مدينة جديدة لا دليل لمحالها وخدماتها في مجلة أو على الإنترنت فأنت تبقى بحاجةٍ إلى من يقود خُطاك فيها.

كل هذه الاعتبارات دفعتني إلى الهامش. ولم أشأ السعي إلى خلق روابط أوثق مع الحاضرين. بادر عبد اللّه إلى طلب رقم تلفوني وسأل عن مكان سكني فقدمتُ له المعلومات المطلوبة دون أن أسألَ عن السبب أو المناسبة، لكنه سرعان ما تبرَّع بالتوضيح فقال إنه مع اقتراب عاشوراء يوزعُ كل عام الهريسةَ على العراقيين في صُور طلباً للثواب، فرحبت باسماً وقلت إنه يستطيعُ أن يعد العنوان دعوة مفتوحة للزيارة. لم يبدُ أن زيارة أعزب كهل لا يتحمسُ للميليشيات مما يستهوي شاباً مشغولاً ببيته وعقيدته وعمله.

لكنّ أسهمي ارتفعت فجأةً وعلى غير توقّع في الربع الأخير من الأمسية. وهو أمر آخر دالّ على عِلل المنافي. ما يحدثُ عادةً عندما يتعرف أحدهم إلى شخص جديد في الغربة أن يكون الاعتبار الأول متعلّقاً بمدى إمكانية الاستفادة منه ومن مكانته أو إمكاناته في تحقيق غاية من الغايات.

Twitter: @ketab_n

لم تكن الحال هكذا داخل العراق. هناك يكون الفصلُ واضحاً بين الصداقةِ الصدوقة حيث لقاء الصديق والتسامر معه هما الغاية الأولى من العلاقة والمعرفةِ المنفعية الطارئة التي تبقى مهما اكتست من مظاهر المودّة والمجاملة منفعةً في المقام الأول. وقد سأل الجالسون أنفسهم ثم سألوني عما يمكنُ أن أقدّمَ لهم، فما أن بدأت أتحدثُ عن مشاكل تعليم الإنكليزية والحصول على شهادة الآيلتس الدولية التي صارت اليوم مطلباً عالمياً لإثبات مستوى التمكّن من الإنكليزية حتى بدأت الحماسة والودّ يطفوان على ماء الحوار الراكد. طلب مني عبد اللّه وموفق الذي ظل معظم الوقت يتجنّبُ مخاطبتي أن أحصل لهما على بعض الكتب عن هذا الامتحان العسير، وحدّثاني عن نيَّتهما الهجرة إلى أوستراليا أو كندا وحاجتهما إلى هذه الشهادة. حين وعدت خيراً تقدّم عبد الله بوجهه الطفولي الباسم خطوةً أخرى فقال إنه سيكون ممتناً لو أني درّسته بعض أسرار هذا الامتحان، فقلت إني سأخبره عندما يتوفرُ لدي الوقت لذلك. وبقي يراودني سؤال لم أفقه إجابةً عنه: لماذا انتظر هؤلاء ظهوري لإعلان حاجاتهم إلى الإنكليزية وبينهم د.حاكم الذي يدّعي لنفسه القِدْحَ المُعَلّى في هذا الباب؟ لكن الإجابةَ جاءت على شكل معلومة زادت من دهشتي، إذ دخل د.حاكم نفسه على الخط فقال إنه ينوي إرسال ابنه للدراسة في ماليزيا لأن معدّلاته في الثانوية لم تتح له قبولاً في الجامعة هنا، وإنه يودّ لو وافقتُ على تدريسه أصولَ امتحان الآيلتس وسوف يدفعُ لي أجوراً مقابل ذلك، فسألته باستغرابٍ حقيقي: ولم لا تدرّسه أنت وأنت من أنت في مجال التدريس. فقال إنه متخصّص في مجالات تربوية محدّدة ولا خبرة كافية له عن الامتحان الدولي اللعين ذاك، كما أن ابنه مشاكسٌ يصعبُ ضمان حضوره واهتمامه إذا ما كان المدرّس أباه. لم أجد أمامي إلا أن أعتذرَ بحجة أني منشغلٌ في الكلّية انشغالاً يعرفه هو معرفة جيدة. وأضفت: كان بودي لو امتلكت الوقت لقمت بتدريسه دون مقابل، وهي من العبارات الجوفاء المطلوبة في مثل هذه المواقف.

Twitter: @ketab_n

9

توصلتُ بعد مرور أقل من ثلاثة أشهر على وصولي إلى صُور إلى تكوين الصورة الذهنية التي تتحدثُ عنها الدراسات الإدراكية. هنالك خارطة واضحة للمدينة لم أجد صعوبةً في استحضارها كلما قررتُ التنقل في شوارعها، وهنالك عالمُ الكلّية الصغير الذي يبقى يُوحي بالرتابة والهدوء بالرغم من زحام الطلبة والأساتذة في ممرّاته، وهنالك الاكتشافُ المخيِّب أن المدينةَ لن تقدّم لي البديل المأمول عن السنوات التي تبخّرت في صحراء البريقة الليبية. طريقة صُور في استقبال الغرباء بسيطة وآمنة، يُترك الغريبُ لشأنه ولا يَلْقى من أهل المدينة إلا المودّة والترحاب عندما يحدث التماسّ بين حينٍ وآخر. وهكذا وجدت وأنا أواجه حائطَ العُزلة والملل أن خيرَ ما أفعل هو الانشغال بالمهمّة التي وصلت إلى صُور لأدائها. وهو من اكتشافات سنوات طويلة في حبائل الرتابة واللاحدث في المنافي. شعرت في البداية وقد انتهت بي الحال إلى تدريس مبادئ الإنكليزية الأولية، بعد سنوات من تدريس الشّعر والرواية والنقد في الجامعة، أن التدريسَ لم يعد يمثل تحدّياً ينطوي على أية إثارة. لكني اكتشفتُ بمرور الوقت أن تعليمَ شباب متحمّس مهارةً لغوية تمثل عقبة أمامهم كان في حقيقته لعبةً شيِّقة لمن ينخرطُ فيها بحماسة هو الآخر. بدلاً من الشكوى لأن مستوى التدريس لا يعدو الأساسيات البسيطة في اللغة كنت أمضي وقتاً شيِّقاً في التجريب واختبار وسائل جديدة في إيصال هذه المعلومات إلى الطلبة. وقد زاد متعتي من الانخراط في هذه اللعبة أن تكون نتائجها سريعةً بَيِّنة، فعلى العكس من تدريس المستويات المتقدّمة في اللغة يكون ناتج تدريس المستويات الأولية سريعاً وملحوظاً والطالب الذي يبدأ بتعلّم الأبجدية سرعان ما يبدأُ باكتساب القدرة على التواصل اللغوي بعد أشهر من ممارسة اللعبة اللغوية مع أستاذ

Twitter: @ketab_n

متحمّس. بالمقابل يكونُ ناتج تدريس المستويات المُتقدِّمة غير ملحوظ وبطيئاً. كانت سرعةُ الإنجاز تخفض إحساسي باللاجدوى وتقدّم لي إثارةَ التحدي في بيئة راكدة.

بعد شهر من التدريس في صُور كتبتُ تقريراً للدكتور الطاهر أتناول فيه بالتفصيل معضلةَ النظام الامتحاني الذي يخضعُ له الطلبة. كانت المشكلة كبيرةً وخطيرةً ومطمورةً في سعي كل مؤسسة إلى خلق روتينها الذي يسمح بتحويل تجربة العمل إلى وجود مستريح. يصلُ الطلبة إلى الكلّية من الدراسة الثانوية بحصيلة بائسة من المهارات اللغوية تجعل السنة التأسيسية بدايةً جديدةً بالنسبة إلى الكثير منهم. وقد حاولتُ في تقريري ذاك أن أوضّح أن اعتماد نموذج امتحان آيلتس الدولي في تقويم مستوى الطلبة في السنة التأسيسية يعدّ خطأً يعود بالضرر على مجمل العملية التدريسية. فهذا الامتحانُ لا يأخذ في الاعتبار مستوى المتقدّمين له كما أن له صيغةً واحدة يخضع لها الجميع دون أخذ التفاوت في مستوياتهم في الاعتبار. وهو ما يعني أنه يحتوي على أعقد التراكيب المعدّة لاختبار المستويات المتقدمة جنباً إلى جنب مع تراكيب أقلّ صعوبةً للمستويات المتوسطة ودون المتوسطة. أما المستوياتُ الابتدائية التي يقعُ ضمنها أغلب طلبتنا فيمثل الامتحان بالنسبة إليهم تحدّياً كفيلاً بسحق ثقتهم بأنفسهم. وقد اقترحت في تقريري بديلاً من آيلتس هو نظام امتحانيّ كان مُعتمداً في شركة سرت للنفط في ليبيا يدعى اختبار بَتْمان الذي تشرفُ عليه شركة سيتي أند جيلدز. وقد جادلتُ بأن اختبار بَتْمان يخصصُ لكل مستوى لغوي الاختبار الذي يناسبه فيخضعُ من يكون مستواه ابتدائياً لاختبار ابتدائي بينما يُقَدَّم لمن يكون مستواه متقدماً اختبارٌ متقدم يتناسب مع مستواه. وتكمنُ الأفضلية في اعتماد بَتْمان في أنه يجنّبُ الطلبة صدمة مواجهة أسئلة مخصّصة لأعلى المستويات اللغوية وما يستتبعُ ذلك من صدمة مربكة، أي إن للامتحان المقترح مِيزةً أنه يصبحُ عنصراً بَنّاءً في حثّ الطلبة على تطوير مهاراتهم ويزيد من ثقتهم بأنفسهم.

Twitter: @ketab_n

أخذ الدكتور الطاهر التقرير مني ووعد بدراسته وتقديم الردّ عليه، لكني لم أسمع رداً إلا بعد انقضاء الامتحانات النهائية. اتصل بي الطاهر وطلب مني حضور اجتماع موسّع مع العميد ومندوبين من الوزارة في قاعة الاجتماعات. وقد أدهشني حجمُ الاهتمام بالتقرير، لكنّي أدركتُ خطئي عندما اتّضح لي أن الدافعَ للاجتماع مشكلةٌ كبيرة تتعلّق بمحور وجودنا جميعاً في صُور، أي تعليم الطلبة اللغة الإنكليزية. كان في مقرّ الوزارة فريق من الخبراء البريطانيين الذين يُشرفون على مختلف برامج الكلّيات من رياضيات واتصالات وحاسوب وتصميم وغيرها، وهؤلاء متخصّصون في المجالات التي يشرفون عليها ولا علاقة لهم باللغة الإنكليزية. لكنَّ قرار الوزارة قبل عامين اعتماد الإنكليزية بدلاً من العربية وسيلة للتدريس وضعهم في مواجهة مُعضلة تتجاوز مجالَ اختصاصهم. ويبدو أنهم لاحظوا بعد تدقيق أجوبة الطلبة في الامتحانات النهائية التخصصية الضعف اللغوي الفاضح الذي يعانيه الطلبة والذي يعيقُ إحراز تقدّم في المستويات الدراسية. وقد تقدموا بشكوى من أداء أقسام اللغة الإنكليزية لمهمتها التأسيسية التي يعتمدُ عليها نجاح عمل الكلّيات برُمَّته. وكانت صُور في أسفل قائمة الأداء. كان السؤال المحرج الذي أُلقي على الدكتور الطاهر مثل شبكة صيد كبيرة كيف أمكن لطلبة يصل ضعف مستوياتهم في اللغة الإنكليزية هذا الحد اجتياز الامتحانات النهائية والانتقال إلى دراسة التخصص؟

كانت غرفةُ الاجتماعات التي لا يعدو حجمها حجم فصل دراسي صغير تزدحمُ برؤساء الأقسام الأكاديمية في الكلّية وبينهم الدكتور الطاهر ومنسّقو قسم اللغة الإنكليزية. وقد سادت همهمات وتطايرت تحايا وابتسامات كثيرة قبل أن يصل عميد الكلّية متبختراً بوقاره المعهود يصطحبُ مديرةَ برنامج اللغة الإنكليزية في الوزارة وندي وليامز وممثّلَيْن عن الوزارة أحدهما عُماني والآخر بريطاني. تفحصت مديرة البرنامج التي طالما تردّد اسمها في القسم عند تعميم التعليمات فجذب نظري ما تجمع من شيخوخة وحركة نشطة ترصد كل ما يجري بعينين زرقاوين حادَّتَيْن. كان الجو يوحي

Twitter: @ketab_n

بالحذر والترقّب وبدا كأنَّ أمام المجتمعين حقلَ ألغامٍ لا يهمهم شيء بقدر الحرص على الخروج منه دون ارتكاب خطأ مميت. اكتشفت أن إزالةَ الألغام لم تخطر على بال أحد.

بالنسبة إلي بدا الاجتماع كافياً لأدرك حجمَ المعضلة الكبيرة التي تواجه مهمة تحويل لغة الدراسة في الكلّية من العربية إلى الإنكليزية. وأول مظاهر الأزمة أن العميدَ نفسه لم يكن يتقنُ الإنكليزية بالمستوى الذي يسمحُ له بمخاطبة الجالسين بها وظل الدكتور الطاهر يتولى أمر ترجمة ما يقول العميد بالعربية إلى اللغة الإنكليزية، والطريف أنه لم يكن يترجمُ ما يقال بالإنكليزية للعميد. ولم أعلم حينئذٍ إنْ كان السبب قدرة العميد على فهم ما يقال أم صعوبة تحويل كل ما يقال إلى العربية. الأكيد أن للعميد قدرةً محدودةً على فهم ما يسمعُ يكون معها اشتراكه في الحوار مبتوراً ومضبّباً. كان الدكتور الطاهر أول المتحدثين، وهو يفتقرُ إلى الطلاقة المطلوبة بالإنكليزية وحقيقة أنه من بلد فرانكفوني حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة الإنكليزية من جامعة فرنسية كانت السبب في تفوُّق فرنسيته على إنكليزيته. حاول الدفاع عن عمل القسم وتوسّع في وصف الضعف الذي يميز الطلبة عند انتقالهم من الثانوية إلى المستوى الجامعي. وقد أحضر معه مجموعةً من الكتب الدراسية المقرّرة على طلبة السلطنة في الثانويات وعرضها على الجالسين ليثبت لهم أن الطالبَ الذي ينتهي من دراستها واجتياز الامتحانات المخصّصة لها لا بدّ أن يكون قد بلغ المستوى المتوسط، وهو ما يعادل 7 من أصل 9 في مقياس آيلتس. بالمقابل يصل إلينا الطلبة من الثانويات وهم لا يجيدون كتابةَ الحروف الأبجدية ويكون لزاماً علينا الوصول بهم إلى المستوى قبل المتوسط بعد السنة التأسيسية الأولى في الكلّية أي 4,5 من 9 بمقياس آيلتس. وهو أمر تعجيزي لنا ولهم، كما أن هذا المستوى المطلوب حتى في حالة تحقُّقه كاملاً لا يؤهّل الطالبَ لدراسة المقرّرات الدراسية المكتوبة أصلاً لطلبة تُعَدُّ الإنكليزية لغتهم الأصلية.

رد عليه ممثلُ الوزارة الأسمر المنشرحة أساريره بالرغم من جدّيته أن

Twitter: @ketab_n

هذه المشكلةَ لا تخصّ وزارة التعليم العالي بل هي من اختصاص وزارة التربية وسوف يسعى إلى إثارة الموضوع على أعلى المستويات. لكن السؤالَ الصعب الذي واجه به الطاهر كان بالغَ البساطة والصعوبة: كيف أمكن أن تكون نسبةُ النجاح في السنة التأسيسية 99% بينما المستويات ضعيفة لا تحققُ الحدّ الأدنى المقبول؟ والواقع أن الطاهرَ انتفع كثيراً من ضعف قدراته الخطابية وعجزه عن بلورة أفكاره بوضوح فظل يتكلمُ دون أن يكون ميسّراً استخلاص فكرة محدّدة مما يقول. ثم انتبهت فجأة أنه يدعوني إلى عرض مشكلة نظام الاختبارات المعتمد وبُعده عن الدقّة في تقويم مستويات الطلبة. وقد قمتُ بعرض أفكاري وأنا أدرك أن المشكلةَ أكبر من نظام الامتحانات. وأسعدني أن يبادرَ الدكتور سعد جبور رئيس قسم الاتصال، وهو سوري وقور يحرصُ على ارتداء ربطة عنق أنيقة والتكلّم بتمهل يصل إلى حد اللامبالاة، إلى إثارة المشكلة المحورية فيدعو إلى تبسيط لغة المناهج المقررة لتناسبَ مستويات الطلبة اللغوية. كانت وندي وليامز تسجلُ كل ما يقال بحرص شديد وتتطلعُ بما يشبه الدهشة والتساؤل إلى وجوه المتحدثين، لكنها لم تقل الكثير.

خرجت من الاجتماع باقتناع تام فحواه أن الكلّية تواجهُ معضلة كبيرة اسمها اللغة الإنكليزية. وقد اختصر الدكتور سعد جبور هذه المعضلة في حديث عابر جمعني معه بعبارة موجزة: "ما زال الوقت مبكراً لاعتماد الإنكليزية لغة للدراسة". كنت أسيرُ معه في ممرّ خانق من شدة القيظ وبدا أن الحر أو خلافاً ما قد يخصّ العمل قد صعّد سخطه فأعلن أن المهمة مستحيلة والتفاهم بين الأساتذة والطلبة يكاد يكونُ معدوماً وأن اللغة تعدّ بمثابة الهواء للتواصل إذا غابت اختنق وانقطع. ثم التفت نحوي وقد خنقته ربطةُ عنقه في ذلك القيظ ليعلن باستنكار "كيف تكون الإنكليزية لغةَ الكلّية وموظفو الكلية لا يفقهون حرفاً منها؟ كيف يمكنهم التفاهم مع الأساتذة الأجانب؟ لابد أن يتهيأَ الجميعُ لهذه النقلة قبل أن تقع". وقد سألته عن السبب الذي يدعو الوزارة إلى اعتماد هذا القرار قبل أوانه فأجاب كأنه

Twitter: @ketab_n

يخاطبُ الهواء الساخن في الممرّ أن المشكلة أكبر من مجرد تغيير في وسيلة الدراسة وأن الأمرَ يتصلُ بفتح الأبواب أمام الثقافة الغربية والنأي بالأجيال الشابة عن التقوقُع الثقافي الذي يهدّدهم بالسقوط ضحيةً للتطرف والميولِ الإرهابية. وقد ذكر أثناء شرحه نظريته تلك عن الحادي عشر من سبتمبر بوصفه ناقوس الخطر الذي نبَّه الجميعَ إلى خطر التطرف بين شباب الخليج. لم يمنعه غضبه في ختام حوارنا القصير من تأكيد دعمه سياسة فتح عقول الشباب أمام كل جديد لكنه أكد أنّ الطريقةَ التي يتمّ بها كل ذلك تدعو إلى الأسف بل الجزع.

Twitter: @ketab_n

10

حين اشتدّ القيظُ وحلَّت العطلةُ الصيفية كشفت صُور عن وجه متوعد غاضب. بلغ الحرّ من الشدة أن المدينةَ كانت تتحولُ بين الواحدة ظهراً والخامسة عصراً إلى ما يشبه مدينة أشباح. تغلق المحال أبوابها وينسحب الناس إلى ظلال البيوت مستجيرين بأجهزة التبريد التي لم تكن تتوقفُ إلا بخلوِّ البيوت من أهلها. لم يكن من السهل تخيُّل الحياة في هذه المدينة قبل وصول تكنولوجيا التبريد الحديثة. وقد حصّن الرجالُ أنفسهم من الحرّ بكل الطرق المتاحة؛ الدشداشة البيضاء وغطاء الرأس (الكمة والمصر) واقتناء السيارة التي توفّر عليهم خوضَ مجازفة انتظار التاكسي في الحر. أما النساء فليس شائعاً ظهورهن في الشوارع، وهن لا يتحركن إلا مصحوبات برجال يوفرون لهن وسيلةَ التنقل دون إبطاء. ربما تكونُ قلة تعرضهن للحرّ سبباً في غلبة اللون الأسود على أرديتهن عندما يتحركن في الأماكن العامة.

كنت مضطراً إلى أن ألزم صُور إذن خلال العطلة وأن أشاركَ في تدريس الفصل الصيفي المخصص للطلبة الضعفاء. واتّضح أن سعيرَ الصيف قد جعل كل الأماكن في الكلّية رهينةً لأجهزة التكييف. بدا وكأن خلو الكلية من الأساتذة والطلبة كان ناجماً عن هجمة الحر. لم يبقَ في القسم لإنجاز الفصل الصيفي إلا عدد قليل من الأساتذة معظمهم من العرب. أما البقيةُ فقد غادروا إلى حيث موعد تلقيهم مكافأة الصيف على جهود العام. وقد علمتُ أن ثلثي أساتذة القسم لن يعودوا في العام القادم. قال لي الدكتور الطاهر إنهم أشبه بالسيّاح يعملون لعام واحد ثم ينتقلون إلى بلد جديد سعياً إلى التنويع والمغامرة. وبالغ في الشكّوى من العناء الذي يترتبُ

Twitter: @ketab_n

على استقبال مجموعة جديدة من الأساتذة كل عام وإطلاعهم على طبيعة العمل ومقتضياته.

كنت أعودُ إلى الشقة قبل الواحدة ظهراً، وهو أمر لم يكن متاحاً من قبل إذ كنا مُجبرين على البقاء في الكلّية حتى الساعة الرابعة عصراً. وقد تبدو العودةُ المبكرة امتيازاً، لكن الوجودَ في شقة ساكتة إلا من صوت المكيف لساعات طويلة كان أمراً يبعثُ على الملل والاختناق. وقد دفعني ذلك لزيارة جورج حدّاد الذي كان يشاركني في السكن في البناية نفسها. وتقع شقته وحدها على سطح البناية مما أتاح له الاستفادة من الساحة المقابلة لها في جلسات مسائية في الهواء الطلق. وبالرغم من أن سطحَ البناية يزدحمُ بالصحون الفضائية من مختلف الأحجام وحبال الغسيل المتداخلة على امتداد المكان فقد تمكّن أن يشقّ لنفسه حيزاً وضع فيه كرسيين وطاولة صغيرة. وهناك كانت لي معه جلسة طريفة تحدثنا فيها لأول مرة على انفراد. كان قد دعاني لأتناولَ قدحاً من الشاي معه مساء، فقررتُ بعد عودتي من مسيرتي المسائية المعتادة أن أزوره قبل أن أنفردَ بنفسي في فراغ الشقة.

جورج حدّاد أستاذ بريطاني من أصل لبناني، وقد علمتُ منه أن مهنة والده الأولى قبل أن يهاجرَ إلى بريطانيا بسبب تفاقم الحرب الأهلية في لبنان أواخر السبعينيات كانت تعليم اللغة العربية. هيئة جورج ولكنته وطريقته في التعامل مع الناس لا تدع مجالاً للشك في أنه شاب بريطاني قُحّ، كما أني لم أسمعه يتكلمُ العربية قط بالرغم من ادعائه إجادتها. والحق أن المللَ لم يكن السبب الوحيد الذي دعاني إلى قبول دعوته. كانت لدي رغبة في معرفة المزيد عن حالة جورج الخاصة الطريفة. كنت قد قرأتُ الكثير عن مسألة الهوية والتثاقف واكتساب اللغات وغيرها من الإشكالات التي دخلت حقل دراسات ما بعد الكولونيالية، وقيل فيها الكثير حتى دُجّنت وتحقق لها مبدأُ الحلقة المفرغة التي تتيحُ النقاش الأكاديمي المتواصل دون أن يتوفر احتمالُ الوصول إلى اتفاق أو نتيجة قاطعة. قلت

Twitter: @ketab_n

لنفسي ها هو ذا شاب لبناني الأصل هاجر مع أسرته إلى بريطانيا وله من العمر أربع سنوات، ونشأ في المدارس البريطانية، وحمل اسماً بريطانياً، فضلاً عن ديانته المسيحية التي تقرّبه من المجتمع البريطاني، أفلا يكونُ الحوار المباشر معه أحقَّ بالاهتمام من هَذَر المُنظِّرين؟

استقبلني جورج بتي شيرت أسود خفيف وبنطلون شورت خاكي اللون، وبدا وجهه مستريحاً بعد نومٍ عميق خلال قيلولة الظهيرة. رحّب بي دون أن تظهر على وجهه ابتسامةٌ واسعة. بدا جاداً لسبب لم أفهمه. تطلعت حولي إلى أثاث شقته فلاحظت أن الأثاثَ بالرغم من بساطته كان يسدّ كل احتياجاته: هنالك تلفزيون متوسطُ الحجم وأريكتان خشبيتان تفتقران إلى الأناقة، بدا أنه اشتراهما مستعملتين. كان قد تعاقد مع الوزارة فاضطرّ إلى أن يؤثِّثَ شقّته بنفسه، وقد استبقته حاجته إلى المال لقضاء الصيف في حَرّ صُور.

بادرني بالقول إنه كان مُنهمكاً في إعداد خبزه الخاص الذي تعلّم طريقة إعداده من والدته ثم بدأ يشرحُ لي خطوات العمل، وعرض عليّ ماركة الطحين الذي يستخدمه باعتبارها أهمّ اكتشافاته في أسواق كمجيز. حاولتُ أن أثنيه عن التمادي في سخاء تقديم المعلومات المطبخية إلّا أنه لزم المطبخَ وظل يعرض عليّ المزيد من مأكولاته المفضّلة. هنالك الحمَّص الشامي الشهير وقد سألني إن كنت أعرف طريقةَ إعداده فقلت نعم، ثم التَّبُّولة والكُبَّة وغيرهما من الأطباق التي عُرف بها المطبخُ اللبناني، فانتهزت الفرصة لأطرح عليه سؤالي المحوري:

- يبدو أن مطبخك لبناني لا بريطاني.

التفت نحوي كما لو أن الملاحظةَ فاجأته، ثم سألني:

- وما هو المطبخُ البريطاني؟ هل له خصوصية تُذكر؟

قلت أول ما خطر لي:

- السمك ورقائق البطاطس (قلتها بالإنكليزية طبعاً: فش أند جبس).

فرد كمن يختبرني:

Twitter: @ketab_n

- وهل من طبق آخر؟

- لا أدري. أنتظر منك بوصفك بريطانياً أن تخبرني.

- للأسف ليس هنالك الكثير: المطبخُ الشامي يتمتعُ بشعبية كبيرة في بريطانيا! ووالدتي طباخة ماهرة.

تعمّدت استثارته لأسمعَ المزيد:

- لكن الحياةَ هناك حافلةٌ بالتنوع والغزارة والانفتاح.

كان إعداد الشاي قد انتهى فانتقلنا إلى الصالة. قال لي وهو يحمل صينيةَ الأكواب:

- هل يعجبك الجلوسُ على السطح في الهواء الطلق؟

رحبتُ بالفكرة بالرغم من أن المساء لم يتمكّن من تبديد ما تجمع من حرّ الظهيرة الخُرافي. جلسنا على كرسيين من البلاستك مريحين. كان المغيبُ يتجمع في الزوايا ونسمة دافئة تعتذرُ عن حَرّ الظهيرة. قال بعد صمت قصير:

- الحياة في بريطانيا قشورٌ لا جوهر لها.

- كيف؟

- هنالك احتفاء بالمظاهر، بالمتع الحسية، بالزائل التافه، وهنالك استهانة بالمشاعر العميقة للإنسان. كل شيء يتحولُ إلى مزحة سرعان ما تفقدُ مفعولها ما إن تقال مرةً واحدة.

- هل تعني أنك تسعى إلى ما هو أزليّ ثابت؟

استغربت أن يرتفعَ الحديثُ إلى هذه الأسئلة الوجودية بهذه السرعة. قال جورج وهو يمسكُ بكوبه بين يديه ويتطلعُ إلى الأفق المحمرّ:

- أنا أسعى إلى القِيَم والالتزامات والأخلاق التي بدونها يتحولُ الإنسان إلى حيوانٍ أعجم.

- لكن الحضارة أسَّست قيمها.

Twitter: @ketab_n

- الحضارة تتدهورُ يوماً بعد يوم إلى وجود بدائي غريزي أعمى.

- وماذا عن قِيَمِ الغرب التي طالما سمعنا عنها؟

قال جورج وهو يتطلعُ نحوي بتركيزٍ لم أتوقَّعه منه:

- هذه القِيَم إن صحّ وصفها كذلك هي القِيَم التي جاء بها التصنيعُ وابتدأتها الثورةُ الصناعية. تجدها في بريطانيا وأوستراليا واليابان وحيثما تحوّل المجتمع إلى ورشة صناعية لإنتاج الثروة المادية وتصنيع القوة.

- هل يعني هذا أن ما تفتقده القِيَمُ الوطنية، المحلية؟

واصل شرحه بحماسة:

- دعني أوضح لك الحالة. في المجتمعات الصناعية المتطورة يكون المحورُ الأساس للمجتمع بأسره خدمة ماكينة إنتاج الربح وتهيئة الإنسان لشقّ طريقه في غابةٍ من التنافس الخالي من القِيَم. كلّ شيء عابر وزائل وهامشي إزاء هذه العملية المحورية التي تشلّ المجتمع وتحوّله إلى ورشة عمل كئيبة.

لم أستطع منع نفسي من الضحك:

- كيف تكون ورشة العمل كئيبة، هل تعني أن البطالةَ والجمود هما مصدرُ البهجة؟

- أعني أن الإنسانَ يأتي أولاً، وحاجة الإنسان الأولى هي القِيَم والإيمان والاستقرار الذي يعتمد الثوابت.

- ما هي الثوابت؟

فاجأتني إجابته التي اختزلها في كلمة واحدة أطلقها إلى ظلام المساء المتكاثف:

- الروح.

تطلعتُ إليه لأرى ما ارتسم على وجهه من تعبير مصاحب لهذه الكلمة فكان مُعْتِماً بالرغم من بشرته البيضاء، ساهماً إلى حدّ ما.

Twitter: @ketab_n

قررتُ أن أهبطَ بالحوار قليلاً فهو يكاد يفلت مني مثل طائرة ورقية ينقطعُ خيطها:

- خبّرني عن حياتك في بريطانيا. هل كانت لك صداقات مع البريطانيين؟ هل عرفتهم عن كثب؟

التفت نحوي مستفهماً. ربما وجد سؤالي سمجاً. قال:

- بالطبع. عشتُ كل حياتي بينهم.

قلت أستزيده:

- لكن البريطاني يتصفُ بتهذيبٍ عال.

ابتسم بجزع كمن أدرك أن عليه أن يشرحَ الكثير:

- التهذيب هو المعضلةُ الكبرى عند التعامل مع البريطاني. كلما زادت رغبته في الابتعاد عنك وتجنّبك وعزلك بل والتعالي عليك، زاد تهذيبه في التعامل معك. لا يكون التهذيبُ وارداً لدى البريطاني الذي يظهرُ المودةَ الصادقة، لأن التهذيب علامةُ البرودة. لقد أصبحت الكلمات النابية البذيئة مكوِّناً ثابتاً من مكوِّنات الحديث في بريطانيا، وهي مقبولة ومستحبة لسبب بسيط أنها بالنسبة إليهم علامةُ المحبة والأُلفة! كان لي الكثير من الأصدقاء في بريطانيا لكنها صداقات لم تدم طويلاً. سرعان ما تبدأ نبرةُ الأدب واللياقة تطفو على السطح، ثم ينسحبُ الصديق ويبدأُ بتجنب اللقاء.

- لماذا؟

- لا أدري!

لم يساورني شك في وجود نبرة إحباط زاعقة في هتافه ذاك، وقد أعقبها غضب واضح:

- إنها النزعةُ العنصريةُ في التعالي على الغير وهي أمجاد الإمبراطورية الفكتورية الغابرة.

- هل تعني أنك عانيت العنصريةَ في بريطانيا؟

Twitter: @ketab_n

- بكل تهذيب!

- ولكنّ جلدك أبيض، ولُكْنتك بريطانية صحيحة، وديانتك المسيحية!

- لا يكفي. تنتهي بي الحال دائماً إلى حالةٍ من العُزْلة والحِيْرة.

- ألم تحصل على عمل هناك؟

- العمل معضلةٌ كبرى. التنافس شديدٌ والحصول على عمل يعلو على غسل الصحون وتنظيف الأرضيات أمر متعذّر على أمثالي.

وجدت أننا وصلنا إلى طريق مسدود، وأن الشابّ الوسيم الهادئ المعتدّ بنفسه ينطوي على إشكالات كبيرة لن يتسعَ المساء كله لمناقشتها. لكن جورج تطلّع نحوي وقال محاولاً كما يبدو تنويع الحديث. سألني:

- هل قرأت رواية دان براون "شيفرة دافنشي"؟

لم أكن قد اطّلعتُ عليها وما عرفته عنها لم يدفعني إلى ذلك. قال متحمّساً:

- أكاد أنتهي من قراءتها للمرة الثانية وإذا وددت فسأعيرك إياها لتقرأها.

ثم انطلق يتحدثُ بحماسة عن مضمون الرواية وفرضيتها الغريبة في أن المسيحَ كان متزوّجاً. لكن ما أثار اهتمامي سعة اطلاعه على أدبيات التاريخ السرّي للكنيسة واقتناعه بأن تواريخَ الكنيسة الرسمية المعروفة لا تمثل حقيقةَ ما جرى. سألته لأضعَ حداً لحديثه المُطول الحافل بالأسماء والوقائع التي لم أكن قد اطلعتُ عليها من قبل:

- هل تعتقد أن الفرضيةَ التي يطرحها براون صحيحة وجادة. كنت أعتقدُ دائماً أن الرواية تعتمدُ الخيال وهي لا تعدو ما نلقاه في الروايات البوليسية.

بدا على ملامحه الاستنكار وقال إن براون صرّح في عدة مناسبات أن ما يورده موثّق وصحيح مئة بالمئة، وعاد يحدّثني عن أخوية صهيون

Twitter: @ketab_n

وأصولها التي تعودُ إلى عام 1099 ويستهجنُ من يدّعي أنها بدأت عام 1956 في فرنسا. والواقع أن الردح الأخير من الزيارة أصابني بحالة من الملل والانقطاع عما يقول بينما هو مأخوذ بسرّية العالم الذي يتحدثُ عنه. كان الهواء قد سكن وفسح في المجال لحرّ خانق. شكرته على قدح الشاي والحديث الطريف وقلت له إننا سنلتقي كثيراً في المستقبل لمواصلة الحديث. لكني شككتُ وأنا أنزل السلّم إلى شقتي أن يكون ثمة الكثير مما يمكن أن يجمعنا في حديث شيِّق، وقد كنت على خطأ.

Twitter: @ketab_n

11

فتحت بابَ الشقة في وجوم المساء وسُخونة الممر المثقلة بالرطوبة ثقلاً خانقاً. ما إن دخلت الشقةَ واحتواني جوها الساخن هو الآخر حتى ندمت لأني نسيتُ فتح المكيِّف قبل زيارة جورج. بادرتُ إلى تصحيح خطئي ففتحت مكيف السبليت في الصالة والآخر الموجود في غرفة النوم معاً لعل ذلك يقصّر فترةَ تحسين الجو. مضيتُ إلى المطبخ وأخرجت علبةَ بيرة بلا كحول مثلجة شربتها وأنا أقفُ على شرفة غرفة النوم في محاولة لتجنب الجو الخانق للشقة. كان ميدانُ الشرية تحتي يضجّ كالعادة بأصوات محركات السيارات وزعيق أبواقها.

بعد عشاء خفيف ربطتُ جهاز الكمبيوتر إلى الإنترنت وبدأتُ بنظرة على البريد، لكن ضوءاً مُحْمَرّاً ظل يتلامعُ أسفل الشاشة أدركت منه أن إنعام كانت على الخطّ في بغداد، وأنها قد كتبت لي تحية حين لاحظت ظهوري على هوتميل الدردشة. سرّني أن أتحدّث إليها وأسمع آخرَ الأخبار عن الحالة المتفجّرة في بغداد. وكانت صُورة إنعام على الشاشة تغيم وتسطعُ لأسبابٍ مجهولةٍ، لكن صوتها المتقطع ظل مفهوماً ومسموعاً بالنسبة إلي، وقد انقطع تماماً ثلاث مرات خلال الحديث دون أن يقلل ذلك من رغبتنا في الحديث وتبادل الأخبار.

قالت إنعام وعلى وجهها ابتسامةُ رضا لِتحقُّق الاتصال أخيراً:

- كيف حالك في عُمان؟ هل أنت راضٍ عن عملك الجديد؟

قلت نعم وامتدحتُ البلد لما فيه من استقرار وهدوء ويُسر في سبل الحياة وأكدتُ طيبةَ العُمانيين عموماً وإن كنت لم أتعرَّف إليهم حتى الآن

Twitter: @ketab_n

إلا بوصفهم طلبة عندي. فسألت هل الطلبة مشاكسون؟ قلت إنهم أهدأ بكثيرٍ من طلبة العراق، ويشبهون طلبةَ ليبيا في احترامهم المعلم ومعرفة حقه عليهم عموماً. ثم انعطف الحديثُ إلى الحالة في البيّاع فلاحظتُ أن إنعام تحاول أن تقدّم إجابات عامة، وهو ما أثار قلقي لأنها حين تقدّم حقائق تفصيلية تكون متفائلةً في الغالب، بينما تحتمي بالعموميات عندما تكون الحال متأزمة. قلت لها في إصرار لا يخلو من الضّراعة:

- شوفي إنعام، أنا أعلمُ أن الحالة متأزمة منذ تفجير المرقدين في سامراء فما الذي يحدثُ في البيّاع؟

قالت بعد بعض تردد إن البيّاع قد انقسم إلى منطقتين بحسب الهوية الطائفية؛ المنطقة الأولى وحتى منتصف المنطقة الثانية (وقد حدّدتها بحمّام الإخلاص العمومي) هي منطقة سنّية. أما النصفُ الجنوبي من المدينة فهو للشيعة. وأضافت مضطرةً أن المدينة تشهد عنفاً غير مسبوق. هنالك هجمات متكررة على الجوامع والحُسَيْنِيّات، وقتل في الأسواق والكراجات على نحو عشوائي. ثم سألتني:

- هل تعرفُ الشيخ الكبير أبا حسن الذي يبيعُ المواد الكهربائية في شارع عشرين قرب المخبز؟

قلت متوجّساً:

- نعم أعرفه.

قالت إن سيارة مرّت قربه قبل أيام وأطلقت النار عليه فأُرْديَ قتيلاً.

فهتفتُ بحرارة: لماذا؟

قالت لا أحد يعرفُ لذلك سبباً، يبدو أن المسألةَ عشوائية. إذا قُتل أحد من هذا الطرف، قام الطرف الآخر بتصفية واحد من الطرف الأول وهكذا. ثم حدّثتني عن تزايد نشاط جيش المهدي وسيطرته الكاملة على نصف البيّاع الجنوبي. وأعادتني إلى جيران الشارع الذي نسكنُ فيه. هنالك بيت أم محمود التي عمل أولادها في الحرس الجمهوري الخاص قبل

Twitter: @ketab_n

السقوط، سألتني قبل أن تستمر: هل تتذكرهم؟ قلت بالطبع. قالت إن أول أولادها ويدعى مجيد، قد قُتل في بداية الهجوم الأميركي على بغداد ووصوله إلى أطراف مدينة البيّاع بإطلاقات من القوات الأميركية لأنه لم يتراجع عندما طُلب منه ذلك. وقد تلقت العائلةُ أخيراً تهديدات من جيش المهدي بإخلاء الدار فخرجت الأم واثنان من أبنائها وبقي في البيت ابنها الأكبر محمود لحمايته. قبل أيام طرق بابه مدنيون مسلّحون وكان يتناولُ غداءه كما قال فيما بعد. عندما امتنع عن فتح الباب اقتحموا الدار، فقفز إلى السطح ووجد نفسه بين جارين أحدهما شيعي كان قد أرسل إليه طعامَ الغداء الذي كان يتناوله حينئذٍ وهو يثق به ثقةً مطلقةً إلا أنه لم يقفز باتجاهه لأن ذلك سيجعله مكشوفاً لمن يقفُ في الشارع ويترصّد البيت. في الجهة الأخرى جاره الصابئي فقرر التوجهَ نحوه ومنه إلى بيت أم شذى (وهي امرأة علوية من كربلاء) وقد أخذ منها قميصاً وعبر السياجَ إلى البيت المجاور، ومنه إلى الشارع الخلفي. أما المسلّحون فقد اقتحموا الدار وفتشوها ثم أخرجوا بعض ما فيها من الأثاث إلى سيارتهم وغادروه ليعودوا في اليوم التالي مع عائلةٍ صغيرةٍ دخلت البيت وأقامت فيه بدلاً منهم. ثم أضافت إنعام أن رَبّ العائلة الجديدة، وهو شاب لا يتجاوزُ الثلاثين يقضي معظم نهاره فوق سطح الدار يتابعُ طيوره الملوَّنة في سماء البيّاع الكابية.

قالت إنعام إن السُّنّةَ في شارعنا قد غادروا جميعاً وإن بيوتهم قد احتلّها أناسٌ لا نعرفهم تحميهم مليشيات. أما المليشيات السُّنّية، وقوامها الجنابيون في المنطقة الأولى، فقد ركّزت هجماتها على الأسواق والحُسَيْنِيّات وأخلت بيوت الشيعة هناك من سكانها بطريقةٍ لا تختلفُ عما يحدث هنا. لاحظت أثناء الحديث أن والدتي كانت تتدخلُ بين حين وآخر لتلومَ إنعام على كشف كل هذه التفاصيل لتجنبني الهمّ لكنني بقيت مُصِرّاً على سماعِ المزيد.

اضطربت شاشةُ المسنجر وخبت ثم تجسّد عليها وجهُ إنعام الوديع الشاحب مرة أخرى تعلوه ابتسامة حائرة. قالت لي: ابتسام (أم سعد) تزور

Twitter: @ketab_n

البيّاع لأول مرة منذ انتقالها إلى الحلّة قبل شهرين تقريباً. وكنت قلقاً على أخبارها وأخبار زوجها فوزي وولديهما سعد وسناء. ابتعدت إنعام عن الشاشة وظهر وجه ابتسام شاحباً بالرغم من امتلائه المعتاد. كانت عيناها تجوسان الشاشة بحثاً عن وجهي القادم من بعيد، وقد اتسعت ابتسامتها وأشرقت حين رأتني أمامها. سألتها وقد صار كلامي كالصياح دون أن أعي ذلك عن أحوالها وأحوال فوزي والأسرة فقالت إنهم بخير وإن الحلّة أهدأ من بغداد بكثير. كان خبر انتقالهم من حي الميكانيك في الدورة إلى حي نادر في الحلّة قد بلغني من قبل في عبارة موجزة فتحت في نفسي مخاوف ووساوس لا إجابة تشفيها. وجدت اللقاء فرصةً للحصول على الإجابات المنتظرة. ومع ابتسام المتدفّقة في الحديث، القادرة على رسم صُورة حية لما تشهد، تطلّعتُ بفضول إلى سماع ما تقول. سألتها عن سبب قرارهم المفاجئ بالانتقال إلى الحلّة وأنا أعلم أنهم كانوا سعداء ببيتهم الأنيق في الميكانيك وبجيرانهم الطيبين. فقالت وهي تبحثُ عن عيني في الشاشة لتتأكد أن ما تقوله يصل إلي:

- لم يعد البقاء في الميكانيك مُمكناً، أصبح كل شيء يثيرُ الرعب، والشوارع خالية من الناس في معظم الأحوال. منذ تفجير الضريحين والناس يُقتَلون دون أسباب مفهومة. أول مرة رأيت فيها جثةً على الرصيف كنتُ وموظفةً معي في الدائرة ينقلنا زوجها إلى عملنا صباحاً. لم أصدّق المشهد المرعب. كانت الجثةُ منتفخةً مهملة لا أحد يقف قربها، وقد أجهشت ببكاء حارق. ظل زوج صديقتي يواسيني كما لو أن الشاب واحد من أقاربي، كان بُكائي هستيرياً وظل زوج صديقتي يردّد: ماذا دهاكِ؟ اهدئي. كانت زوجته أكثر هدوءاً مني لأنها كما أخبرتني رأت مثل ذلك المشهد في منطقتها الكَرّادة عدة مرات. لم أصدِّق عينيّ، لكن هذا المشهدَ الفريد من نوعهِ صار يتكررُ يومياً. أصبح منظر الجثث المرمية على جوانب الطريق أمراً مألوفاً، ولكن رعبي لم يهدأ. بعد أيام رأيت شاباً مغطى إلى النصف بشرشف مبقّع بالدم قرب أحد المحال وقربه سيارته مُثَقّبة بالرصاص، سألتُ فقيل إنه قُتل

Twitter: @ketab_n

قبل دقائق وكان الناس متجمّعين حول جثتهِ. بعد أن تقدّمنا مسافةً غير بعيدة رأيت جثتين تقف قربهما سيارة حكومية. هذه حقائق سليم، أنا لا أُبالغُ على الإطلاق. هذا ما رأيتُ بأم عيني. ذات مرة مررنا بسيارة كِيا، وكان وراء مقودها شاب مقتول يسند رأسه إلى المقود، والناس واقفون على مبعدةٍ لا يجرؤون على الاقتراب من المكان لئلا تكون السيارةُ مفخّخة. مناظر مرعبة بكل معنى الكلمة. عدت إلى البيت وقلت إننا لن نبقى في هذا البيت بعد اليوم. قلت ذلك بعد أن وصل القتل إلى الجيران. وجدوا جثةَ شاب يعيش مع أمه في بيت جده على يميننا. خلفنا تعرَّض أبو حسن لمحاولة قتل، وهو حادث شهده سعد بعينه. كان هنالك مسلّحان ينتظرانه في السيارة، وحين اقترب من محل تسوّق أطلقوا عليه الرصاص، وهو رجل ضخم قوي، ركض لينجو بنفسه لكنه سقط على الأرض فظنا أنهما قد أجهزا عليه وهربا بسيارتهما، لكنه نقل إلى المستشفى وحاولوا علاجه. في الأيام التالية جاء أخوته وجمعوا أثاثه من البيت ثم أقفلوا البابَ وذهبوا. رعب، رعب كامل. قررتُ أن أنجو بنفسي وبأسرتي من هذه المحرقة، وبالرغم من تردّد فوزي في البداية إلا أنه وقد أدرك فظاعة الموقف وافق على ترك بغداد إلى الحِلّة. كان يعيش حالةً من الخوف الدائم هو الآخر حتى إنه ظل يتجنّب دخولَ الحمّام للاستحمام لظنه أن المسلّحين قد يقتحمون الدار في أية لحظة ويأخذونه معهم فلم يشأ أن يخرج عارياً.

ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ باهتة وهي تقول ذلك، لكن وجومها وسيماء الرعب على وجهها غلبت عليها من جديد. سألتُها مستوضحاً:

- على أيّ الأسس تتمّ تصفيةُ الناس؟ لم قُتل أبو حسن دون سواه؟

قالت بمرارة:

- الأسباب مجهولة. تصل أسماء بعينها فيقتل الشخص، أو يصل إليه تهديد بمغادرة المنطقة. كانت حرباً طائفيةً مجنونة. الشعارات تملأ الحيطان: يحيا جيشُ عمر، تسقط قواتُ بدر. حين قصدت دائرتي آخر مرة

Twitter: @ketab_n

للانفكاك كانت الشوارع خاليةً تماماً، مدينة أشباح. قلت لسعد الذي أخذني بسيارته لن نعودَ سالمين من هذه الرحلة الأخيرة. مصفّحة هامر أميركية اعترضت طريقنا على حين غرّة، خرجت من أحد الفروع وسدّت الشارع وكدت أجنّ من الرعب.

قلت أواسيها:

- كان الله في عونكم. وهل حصلت على سعر مناسب للبيت في مثل هذه الظروف؟

- لم يكن الحصول على شخص يشتري البيت بالأمر السهل، كنا على اتصال مع محسن في الحُلّة ليجد لنا بيتاً، وكان يتصل ليعرض علينا بيوتاً مناسبة بأسعار ممتازة لكننا لا نستطيعُ أن نتحرك لأننا لم نجد مشترياً لبيتنا. فكّرنا في الانتقال إلى أبو المعالف حيث تعيشُ إحدى صديقاتي لكن الحال هناك تدهورت فجأةً وبدأت الجثثُ تظهر في الطرقات. ليس من أمل إلا الهروب من بغداد. أنقذت الموقف جارتنا أم أنطوان. قالت إنها تعرف دلّالاً ممتازاً في المنطقة وهو عنيد لا يهدأ له بال حتى يبيعَ العقار الذي يعرض لديه. وبالفعل ظل الرجل يترددُ إلى البيت ويأتي معه بالمشتري ويتفاوض. سألنا ذات يوم عن لقب العائلة فاخترنا لقباً يقبل الوجهين.

سألت: كيف؟

قالت: قلنا إن لقبنا الشمّري لأنها عشيرة تضمّ الشّيعة والسُّنّة على السواء. ولكن الموقفَ صار محرجاً عندما بدأت إجراءات بيع البيت واطّلع الرجل على لقبنا الشّيعي. ظل يرددُ متهكّماً: صارت الناس تنكر أصلها وتكذب علناً! زمان أغبر!

- من اشترى بيتكم؟ هل كان من الطائفة السنّية؟

قالت: لا! كان شيعياً من عشيرة الفلوجي وهي عشيرة توجد في النجف والأنبار. ظنّ الرجل أنه يستطيعُ بغموض عشيرته هذا أن ينجو من الماكنة التي تسحقُ عظام الجميع. لكنه لم يكن قد أدرك صعوبةَ الموقف في

Twitter: @ketab_n

الدورة. كان يسكن الكَرّادة وجاء إلى المنطقة فرآها أنيقة، مرتّبة، ذات شوارع واسعة وخدمات جيدة. كان شديد الحماسة للانتقال، وظل يرددُ أن تأخرنا في إخلاء الدار سيعني أن ندفعَ له بدل إيجار شهري قد يصل إلى 750 ألف دينار. سعينا في المعاملة بأنفسنا وسلّمناه السند فاطمأن وشكرنا. ولم نتأخر في نقل الأثاث إلى الحُلّة.

- وما مصيرُ الفلوجي هذا؟

- تدهور الوضع بعد خروجنا من المدينة بأسابيع. صار الناس يقفلون أبوابهم وينتقلون إلى مناطق أخرى للتخلص من القتل، وكانت البيوت تُنهب في اليوم التالي بعد كسر أبوابها. جاء المسلّحون إلى الفلّوجي وسألوه عن لقبه فقال إنه من الطائفة السُّنّية، ولم يجد بداً من مجاراتهم وصار يقصد الجامع للصلاة معهم وشارك معهم في الخفارات الليلية لحماية المنطقة من هجمات الميلشيات الشّيعية. لكنني علمت أنه هرب من المنطقة قبل أسبوعين.

- لماذا؟

- يقال إنهم طلبوا منه أن يقتل شخصاً لا ذنب له ولا معرفة بينهما، فرفض وقال إنه لا يستطيع القتل، فما كان منهم إلا أن طلبوا منه أن يلزمَ داره ويكفّ عن لقائهم، فقصده شيخٌ من الجيران يدعى أبو عمر وحذّره من أن الجماعة ينوون قتله وأن عليه الهرب بأسرع وقت. فما كان منه إلا أن جمع حاجياته المهمّة وهرب في ليلة سوداء مع زوجته وأولاده. في اليوم التالي وصل المسلّحون فكسروا الباب ونهبوا أثاثه بوصفها غنائم وأباحوا بيعها.

قلت: إن الميليشيا الشيعية تفعل الشيء نفسه في البيّاع.

قالت: نعم، هذا ما سمعته من أهل البيّاع. إنه وباء، وباء لا أحد يعلم إلى أين يقودنا إلا الله.

Twitter: @ketab_n

10

سرعان ما انتظمت أيامي في روتين هادئ من العمل لساعات معدودة والتبطُّل والتسكُّع لساعات طويلة في مدينة ساخنة تدفعك بألف ذراع من الحرّ والرطوبة للعودة من حيث خرجت. لم تكن خياراتُ التواصل المفتوحة أمامي مشجّعةً وقد مضى على وصولي أكثر من أربعة أشهر. الأساتذة الذين تعرَّفت عليهم غادروا المدينة في إجازة ومعظمهم غادروا إلى غير رجعة. المتبقّون منهم بعيدون عني، ومحاولتي التواصل مع حاكم وجورج، وكلاهما يعمل معي في الفصل الصيفي، انتهت بعد لقاءاتٍ معدودةٍ إلى قراري أن حواراً مع كتاب أو مع النفس أجدى وأهون. وجوم حاكم وعالَمه البعيد عني، وغرابة مشاغل جورج الذي اكتشفت أن حديثه الأثير معي كان ينتهي إلى عرض ما توصّل إليه من هلوسات عن التاريخ السرّي للعالم والكنيسة لم تُبْقِ أمامي خيارات أخرى مغرية. وقد لاحظ كلاهما انسحابي وعزوفي عن اللقاء. وكان الأمرُ أكثر إحراجاً مع جورج لأنه طالما حدّثني عن مشكلته في بريطانيا في أن من يتعرفون إليه سرعان ما يتجنبون لقاءه وظلّ يعزو ذلك إلى أسبابٍ عنصرية. الواقع أن هنالك في شخصيته تردداً واضطراباً وخيبة تُنفّر من يجلس إليه. وهكذا وجدت أني أعاود السقوط في إدمان نشرات الأخبار الفاجعة ومواقع الإنترنت التي تزخرُ بالتعليقات عن الحالة المتأزمة في العراق. ولا شك أن هذه الأيامَ الثقيلة رسّبت في نفسي شعوراً بالخيبة إلى حد ما. كنت أتوقّع كما يحدث عند كل نقلة جديدة أن يتغير أمر ما في حياتي، ذلك التغير الذي ينتشلني من حالة الجمود والعُزلة والهوس بتأمل المشهد العراقي المتشابك. كان الإنترنت مصدر حيوية محدودة فهو يوفّر لي تواصلاً رقمياً مع بعض من

Twitter: @ketab_n

أحب من الأهل والأصدقاء ولكنّ الحاجةَ إلى حضورهم الحي تبقى حادة وإدراك المسافات الشاسعة التي تفصل بيني وبينهم يصيبني بإحباط شديد.

كان وصول رسالة من شهاب في تلك الأيام حدثاً مثيراً. وقد قرأتها غير مرة. منذ أن بدأ يراسلني عبر الإنترنت وهو يستخدمُ الإنكليزية في مراسلاته. عندما كنت في ليبيا ولم أكن أتوفر على اتصال إلكتروني كانت رسائله من بلجيكا بالعربية وبخط اليد الذي يبقى في حالة شهاب أنيقاً مهما أسرع في الكتابة. وكانت رسائل طويلة، تأملية أحياناً، تُعيدني إلى جلساتي معه في كازينوهات أبي نؤاس قبل حوالى ربع قرن نتحاور في أحدث كتاب فلسفي قرأه أو أحدث رواية شاقتني. بعد زلزال 2003 المدوّي قرر شهاب أن يعود إلى بغداد ويعمل من الداخل (وهو مصطلح يهواه الناشطون السياسيون) بعد أن حافظ على علاقةٍ متصلة مع الحزب الشيوعي ظل خلالها يعمل من الخارج. كان متحمّساً للفرصة الجديدة التي أتاحت له فجأة العودة إلى العراق بعد غياب ربع قرن. قال لي إنه شعر حينئذٍ كما يمكن أن يشعرَ مُعَوَّق فقد ساقيه في حادث مأساوي ثم استيقظ يوماً ليجد أنهما في مكانهما وأن الأمرَ كله لم يعدُ كابوساً انقشع وولّى.

زُرت العراقَ بعد التغيير مرّتين. الأولى بعد عام وكان شهاب قد سبقني إلى هناك فاتصلت به تلفونياً وحاولنا اللقاء. إلا أن لقاءنا حين تحقق لم يشفِ حاجتي إلى محاورته. زارني في البيت ولم يمكث إلا نصف ساعة بقي خلالها أخوه في السيارة. علمت أنه يعمل في وزارة الثقافة وأن الوزارة لا تزال تغصّ بالبعثيين السابقين الذين يترحّمون على عزّهم الغابر، وأنه اتخذ أخاه حمايةً له وقد اعتذر عن عدم دخوله البيت معه لأن بقاء السيارة في الشارع وحدها قد يعرّضها للتفخيخ. كانت عيناه تسطعان بحماسة لم أعهدها فيهما من قبل وكان يُكثر من الابتسام والضحك. تولّد لديّ إحساس بأن شهاب صار يعيش مغامرة تثيرُ لديه أقصى درجات الحماسة والسعادة. حدّثني عن جيل من الشباب المثقفين في بغداد الذين يكتبون أعمالاً رائعة

Twitter: @ketab_n

في القصة والشعر ويتطلعون إلى حقبة جديدة من الحرية والانعتاق. حين سألته عن الوجود الأميركي في العراق وتأثيره في مثل هذه الأحلام قال إن للأميركيين مصالح إذا ما ضمنوها تركوا البلاد لأهلها يديرونها كما شاءوا، وإن العدالةَ في توزيع الموارد المتاحة للعراقيين هي الأسبقية وهي غاية تستحقّ التضحية لأن التهاون سيعيد الدكتاتورية بأثواب جديدة. وبالرغم من أن اللقاء لم يتجاوز نصفَ ساعة فقد استطاع شهاب أن يستعرضَ نظرية مفكر برازيلي ماركسي يرى أن البلدانَ الناميةَ المغلوبةَ على أمرها يمكن أن تستعيدَ بعض العافية إذا ما التهمتها الإمبرياليةُ العالمية فصارت جزءاً من النظام العالمي العملاق. وشدّد على أن الإشكالات الداخلية للبلدان المنفردة لم تعد شأناً داخلياً خاصاً بها لأن العالم أصبح كتلةً اقتصادية وسياسية متداخلة واحدة. سألته إن كان يقصد نبوءة ماركس في أن الصراع من أجل الانعتاق ذو طابع أممي فقال بالتأكيد، لكن الماركسيةَ لم تعد عقيدةً جامدةً تشبه الديانة المقدّسة. قلت وأنا أُمعن التفكير حائراً فيما يقول: ألا ترى أن الحالة التي تصفها من صراع عمالقة على النطاق العالمي لا تترك فعاليةَ للفرد القادم من بلد صغير نامٍ؟ فقال إن فعالية الفرد عاجزة عن التأثير لكن لقاء الأفراد في جماعات كبيرة واستخدام المؤسسات الديمقراطية الحديثة التي تركت هامشاً للشرعية سيكونُ لهما أثرٌ عميق، من هنا الانفتاحُ على كل أنواع الأفراد وتكثيف الجهود في بؤرة الاتفاق المحورية. وذكر لي أنه لم يعجب حين دخل مقرّ الحزب الشيوعي الذي افتتح في بغداد بعد السقوط فوجد شيوعيين يمارسون الصلاة! وقد عجبتُ لذلك فأكده وقال إن ما يجمعُ الشيوعيين اليوم هو سؤال العدالة الاجتماعية والحرص على مصالح المغلوبين أما الوسيلة والعقيدة المؤدّية إلى ذلك فأمر يقرّره الفردُ نفسه. وأردف بما يشبه المزاحَ أن شيوعيةَ ما بعد الحداثة وعصر التفكيك مختلفة تماماً بالرغم من أنها حافظت على عناصر بعينها لم تتغير. سألت عن السبب الذي جعل الحزب مصراً على تسميته المرتبطة بتاريخ طويل من الصور النمطية فقال إن هذا الأمر قد نُوقش على

Twitter: @ketab_n

أعلى المستويات في الحزب وكان هنالك اقتناع واسع بضرورة تغيير الاسم ليعكسَ التحولات الجديدة في منهجه وفكره إلا أن الخشيةَ من أن تظهر جماعة متطرفة تخطفُ الاسم القديم وتقدّم نفسها بوصفها هي الحزب الشيوعي منعت ذلك الإجراء.

في أول رسالة تلقيتها من شهاب بعد وصولي إلى صُور اعتذر عن عدم حضوره اللقاء الذي اتفقنا عليه في عمّان. كتب في رسالته الإلكترونية بالإنكليزية التي أتقنها مع ثلاث لغات أخرى خلال غربته الطويلة في دول أوروبا:

"عزيزي سليم

كنت أتطلع بشوق إلى لقائنا في عمّان، لكن الروتين الإداري وانعدام الكفاءة في ترتيب أمور السفر والإيفاد أخّراني يوماً واحداً فوصلت إلى عمّان بعد أن غادرتَها أنت إلى سلطنة عُمان. أرجو أن تكونَ بخير وأن يكون عملك الجديد كما توقّعته. لقد سافرت إلى فرنسا مباشرة، وهل تعلم؟ اتفقت مع زوجتي البلجيكية وولدي على أن نلتقي في كازينو بعينه في السابعة مساء في شارع سان جيرمان في باريس. وبينما انطلقا هما من لوفن في بلجيكا وأنا من بغداد في العراق، كان كازينو البجعة في سان جيرمان بانتظارنا في باريس. أليس عالمنا هذا غريباً محيراً؟ أتخيل عيناً في مكان قَصِيّ في العُلى ترصدُ مساراتنا الغريبة هذه. لقائي إياك كان يمثل مساراً آخر طريفاً فأنت تنطلقُ من صحراء البريقة في ليبيا متّجهاً إلى سلطنة عُمان لتتقاطع سبلنا في فندق "قصر الباشا" في عَمّان لأمسية من الحوار اللذيذ يؤسفني أنها لم تتحقق، لكن أملي أن يكون لنا ذلك اللقاء الطويل الذي نستعرض فيه كل مشاغلنا من جديد. عزائي أن لقاء سان جرمان تحقّق وأمضيت أمسيةً رائعةً مع زوجتي وولدي. مثل هذه المتعة المسروقة على عجل والتي نفوزُ بها بعد رحلة طويلة لا تعادلها متعة.

أنتظر أخبارك الطيبة من عُمان.

Twitter: @ketab_n

أعانقك

شهاب"

لاحظتُ وأنا أنتهي من القراءة الثانية لرسالة شهاب أنه لم يأتِ على ذكر التدهور الأمني المأساوي في بغداد، وبدا لي وكأنه كتب الرسالةَ قبل تفجير الضريحين في سامراء. لكن تاريخَ الرسالة لم يدع مجالاً للشك، لقد كُتبت قبل يوم واحد فقط، ولكنها من طبائع شهاب التي عرفتها عنه منذ عودته إلى بغداد فهو لا يستغربُ أية كارثة، وقد وقعت منذ عودته عشرات الحوادث المأساوية التي سحقت حياة المئات. قال لي ذات مرة إن لصناعة التاريخ ثمناً باهظاً، وتمثل ببيت من الشعر للوركا الشاعر الإسباني الشهير: إن الموتَ نزفاً خير من الحياة بدم فاسد. استرجعت حواراتي مع إنعام وابتسام ثم مشاهد القتل والرعب في مدن العراق وعجبت كيف يكون شهاب في المكان ذاته دون أن يعلّق بكلمة واحدة. أغمضتُ عيني وتساءلت إن كان شهاب ينوي الانتحار. لم أفهم أن يعرّض مثقف مثله أمضى عقوداً من حياته في إعداد نفسه وشحذ عدّته المعرفية لخطر التصفية لمجرد أن يكونَ موجوداً في بغداد، مشاركاً في عمل إداري لا يحتاج إلى مواهب شهاب الفريدة لأدائه. تساءلتُ إن كان إيمانه الماركسي هو السبب في هذا الموقف، إيمانه بأن التاريخَ يتحرك كالسهم صاعداً إلى ذُرَى العدالة والحق دائماً. لماذا يصرّ على فكرة التقدم الحتمي بينما التجربة تعلّمنا باستمرار أن التاريخَ حركة متخبطة لا ينظمها إلا فعل القوة وشهوتها العمياء.

تمشيتُ إلى الصالة وواجهني التلفزيون فلم أفتحه. كنت أشعر بغضب لا أعرف له مصدراً محدداً. عدت إلى غرفة النوم وكتبت لشهاب رسالةً صريحةً أعبر فيها لأول مرة عن موقفي من وجوده في بغداد في هذا الوقت بالذات.

"أخي شهاب

تركتني رسالتك وقد اشتدّ قلقي عليك. أخبار القتل والجنون الطائفي

Twitter: @ketab_n

تُطبق على خِناقي وتمنعني من التفاؤل، لم يعد بالإمكان التعامل مع الموضوعة العراقية بحياد الفكر الموضوعي. المأساة تتفاقمُ، ونفوسنا نحن جيل المحنة الدامية منذ عقود تَعِبَت وكلّت. لم أعد قادراً على متابعة نشرات الأخبار كما كنت من قبل لما تسببه لي من ألم وشعور بالإحباط، أكتفي في الغالب بقراءة الأشرطة الإخبارية والاتصال بالأهل في بغداد.

لكني أودّ أن أعرضَ عليك درساً تعلّمته من تجربتي العراقية الطويلة المريرة التي تعرف فصلها الأول، فصل السبعينيات، أما ما أعقب ذلك من فصول الحروب والشقاء خلال ربع قرن من الزمان فهو ما لم تُتَحْ لي فرصة الحديث معك عنه بالرغم من محاولاتنا اللقاء. دعني أوجز: يعتقدُ الإنسان لسببٍ أو لآخر أنه عندما يمرّ بمحنة كبيرة تكون بانتظاره دائماً محطة للمواساة والاستراحة، أي أن هنالك نهاياتٍ موضوعية سعيدة للمآسي. التجربة العراقية البشعة والمتوحشة تجعلنا نصدّق درس فرانك كيرمود الإسكاتولوجي القائل إن وجودنا صيرورةٌ متصلة وإن النهايات كما قلت لي يوماً مُتخيَّلة دائماً. لا تنتظر مكافأةً على عذابك في العراق أو نهاية سعيدة: العراق مكانٌ يخلو من المواساة، يخلو من احترام الفرد أو أخذه في الاعتبار. لا تستسلم لهذا الفخّ الذي طالما شلّ قدراتنا وحطّم أعصابنا، العراق هو المكانُ الذي يكشف فيه التاريخ فضائحه وانشغاله بنزوات القوة على حسابنا، عندما أفكّر أنك مهدّد بالقتل في العراق على أيدي جهلة بدائيين أشعر أن الثقافةَ العراقية في خطر ومطلوب ألّا نضحّي بمثقفينا بطريقةٍ مجانية. عُدْ إلى أوروبا ولا تحفل بلؤم الأوروبيين وقسوتهم الحداثوية وغُربتك بينهم، أنا واثق أنك ستعودُ إلى العراق مستقبلاً وأن خروجك سيكون مؤقتاً، إنه قرار حاسم لا بد أن تتخذه الآن دون تأخير.

أتذكّر أنني بعد تسعة أعوام في الخدمة العسكرية البائسة انتبهت إلى أن وجودي جحيم متصل، وأنه لا أثر لقوة دُنْيوية أو أُخْروية تُبدي اهتماماً بإنقاذي، فماذا فعلت؟ قرّرتُ في لحظة يأس أقرب إلى الانتحار ألّا أستسلم، بدلاً من الانتحار عقدتُ العزم على استلهام درس جوليان سوريل

Twitter: @ketab_n

في "الأحمر والأسود". أن أواجه الخيبة بالمكيدة الفردية الصغيرة، وهكذا بدأتُ التقديم للدراسات العُليا مدركاً أن تلك الخطوة كانت كفيلةً بنبش الماضي السياسي الذي دفنته بصعوبةٍ وأنها يمكن أن تؤدي إلى تفاقم المشكلة بدلاً من حلّها، لكننا محكومون حكماً مؤبداً بالأمل، نتشبَّث به كما يفعل طفل عنيد يتشبَّثُ بأذيال أمه الغاضبة منه، ولك أن تقدّر ما شعرت به وأنا أنجحُ في محاولتي وأحصل على شهادة الماجستير في نقلة أقرب إلى المُعجزة من مواضع الحرب الدامية إلى مقاعد الدرس في جامعة بغداد. لقد علّمتني تلك التجربة درساً بليغاً أرجو أن تستلهمه في إطار دعوتي لك لمقاومة "سحر الفظاعة" the fascination of abomination، كما أسماه كونراد في "قلب الظلام". قد تقول إن هذا خلاص فردي فيه أنانية، لكني كنت وما زلت أعدّه انتفاضةً شرعيةً على استهانة التاريخ بنا كأفراد. أما فكرتنا عن دور المثقف على طريقة أن يتحوَّل إلى ميليشيا أو ناشط سياسي يُعرِّض وجوده للفناء من أجل حُفنةٍ من البيروقراطيين محترفي السياسة ففيها من التبسيط والاستهانة بالطبيعة الخاصة لمساهمة الثقافة والمثقفين في التاريخ ما يستحقّ المراجعة. دورك كمثقف يتمثل في التعمُّق والكتابة، الرصد والتفكير في حلول مبتكرة تساعد بها شعبك الضائع الذي يحتاج إلى مثقفي الضمير والنظر الحادّ.

إن ما يدفعني إلى الإطالة هو اعتزازي بك وحرصي عليك. والأهمّ ألّا تستسلم للفظاعة، وألّا تنتظر حلولاً من حركة التاريخ لأنها سَوْرةٌ عنيفة لا أوَّلَ لها ولا آخر.

مع محبتي الخالصة وشوقي إليك الذي تمتدّ جذوره في عمق وجودنا الطويل في هذه المحنة.

حفظك الله وبارك فيك أيها الصديقُ الأول.

سليم"

Twitter: @ketab_n

12

يخيل إلي وقد وصلت إلى هذه المحطة من حكايتي أن التعريفَ الأدقّ للسرد يمكن أن يُختزل في بضع كلمات: السرد هو تحويل المصادفة إلى سبب. لن يتسعَ المجال للدفاع عن هذه الفكرة نظرياً لأنها تبلورت بعد انقضاء التجربة وربما تكون التجربة نفسها خير دفاع عنها، لكني لا أستطيعُ وأنا أستعيدُ ظهور فرحان جابر الذي اتفق توقيته مع بداية العام الدراسي الجديد إلا أن أعدّه سبباً لا مصادفة.

مضى صيف صُور بطيئاً يتنقَّل بتمهُّل خانق من مشاغل تدريس الفصل الصيفي إلى عُزلة الأسابيع الثلاثة الأخيرة من آب دون عمل إلا القراءة والبحلقة في شاشتَي الكمبيوتر والتلفزيون حتى شحّ نظري. مع اقتراب أيلول كنت خاوياً شاحباً جافاً كما يحدث لفَخّار خارج تَوّاً من فُرن حارق. سَفْرتي إلى مَسْقَط للتعرُّف إليها التي بقيتُ أخطّط لها ظلَّت مؤجّلةً لسبب مجهول حتى صار التأجيل نفسه همّاً أرهقني السعي إلى التخلُّص منه. ودّعني جورج حداد بعد امتحانات الفصل الصيفي مباشرةً وتوجه لزيارة عمه في بيروت من أجل التغيير وتقليب الجذور. وبسفره خلت البناية ممن يمكن أن يجمعني به حوار، وتكثَّف السكون حولي حتى اكتشفتُ لأول مرة أن الشّرفات الثلاث التي استهوتني في البداية وجعلتني أحتفلُ بالحصول على الشقة كانت في الواقع مصدر ضوضاء متواصلة لا يكفّ دوار الشرية المقابل للبناية عن القذف بها حتى ساعة متأخّرة من الليل عبر تلك الشرفات. وبدلاً من الجلسات الحالمة الطويلة فيها صرت أحرص على غلق الأبواب المؤدية إليها ليخفّ ضجيجُ السيارات والدرّاجات البخارية الزاعقة تحت أقدام شباب صُور فضلاً عن الاحتماء من الحَرّ.

Twitter: @ketab_n

وسط هذا المُستنقع الراكد الذي تكوّن من نزف أشْهُر الصيف الطويلة وَصَلَت إلي رسالة إلكترونية لم أكن أتوقعها من فرحان جابر الصديق والزميل السابق في شركة سرت للنفط في ليبيا. وَرَدَ فيها أنه يعمل الآن في شركة الغاز العُمانية ويودّ أن يراني في موعد قريب في مَسْقَط لأن لديه شوقاً كبيراً إلى جلسة عراقية أصيلة. راقني أن ألتقي صديقاً يعيدني إلى إحدى جُزُر حياتي التي تناثرت دون منطق أو انتظام على بَحْر المنفى الشاسع، وهو أمر نادر. ما يحدث غالباً أن تنطوي صفحة فصل في الحياة ليختفي معها حشد كبير من المعارف والأصدقاء ولا يتبقّى منهم إلا أشباح تناكد الذاكرةَ والمخيِّلة بين حين وآخر. ربما كان السببُ الأول في هذه الحالة المؤسفة أن التحولات في حياتنا تحولات جذرية يرمي بنا كل واحد منها في رُكْن جديد لا يمتّ بصلةٍ إلى ما قبله. هنالك من يقضي عمره في مكان واحد أو عدة أماكن متشابهة يستكمل أحدها الأخر، ويبقى بإمكانه جمع أصدقائه في احتفال تذكّر ومراجعة دون أن يغيب عنه الكثيرون. لكن ما أسعدني تحديداً أن الصديقَ الذي اختارته لي الأقدار كان فرحان جابر دون سواه.

يمتاز فرحان بذكاء ثاقب وحسٍّ عمليّ فريد. وهو أبعد ما يكون عن فخاخ الميوعة العاطفية التي صار العراقيون بسبب بلواهم يتساقطون فيها زَرَافاتٍ ووِحْداناً. لم يفقد يوماً القدرةَ على التنكيت والمُسامَرة والتقاط المفارقات الساخرة. ومما يزيد من طرافة شخصيته أن كل هذا التوازن الذي يُبديه في مواجهة البلوى يمتزجُ بحماقةٍ تصل إلى حد التهور في السعي إلى الملذات في خليط عجيب جعلني أعجز عن تصنيفه؛ فهو يَحسِب لكل شيء حسابه ويُبدي تفوقاً في عمله (يحمل شهادة عُليا في مجال الهندسة الكيماوية وقد عُدّ من أنجح مدرّبي مركز التدريب النفطي الذي جمعنا ذات يوم)، لكنه يمتاز أيضاً بنزعة بوهيمية غالبة أدركت أنه يتعامل معها بوصفها كياناً مستقلاً عنه ما عليه إلا أن يتعايش معه ويقبله ولا يحاول إنكاره أو قمعه. فهو حريصٌ على علاقاته العامة وله أينما حل شبكةٌ واسعةٌ من الأصدقاء والمعارف، حريص على التردّد إلى الجامع ولقاء الناس هناك وتبادل الأحاديث الحميمة

Twitter: @ketab_n

معهم بعد الصلاة، لكنه لم يكن يترددُ، من جهة أخرى، عندما كنا في البريقة، في قبول دعوة أستاذ بريطاني يمتلك في كرفانه نوعاً جيداً من الويسكي. متزوج وله ولدان وبنت حرص على رعاية شؤونهم واصطحابهم معه أينما ذهب، لكن ولعه بالمغامرات النسائية لم يفتر يوماً وهو مستعدّ لمواجهة أية مخاطر من أجل لقاء مشبوب وليلة حمراء. أما في مجال السياسة وهي شاغل لا يغيب عن أي حوار يجمع بين العراقيين أو يحضره عراقيون فإن خوضه فيه ينتمي إلى جانب العلاقات العامة في نفسه، ذلك الجانب المحكوم بالعقل والمنطق العام، ويبقى لديه دائماً في مقابل السياسة ميلٌ قويّ إلى إلغاء السياسة والنظر إليها على أنها "دوخة راس" لا طائل فيها. الطريف أنه بالرغم من كل التغيرات العنيفة منذ اندلاع الحرب مع إيران وحتى وصول الأميركان لا يميز أي خطّ بياني قابل للتحليل والمناقشة ويرى الحوادث كتلةً مشوّهةً من الفواجع واللامعنى، ليس فيها خيط معقول يمكن أن يؤدّي إلى نهاية محدّدة. كان يرددُ في نهاية أي نقاش سياسي أنه عاجزٌ عن فهم دوافع رجل مثل الطاغية يحكم بلداً يحتوي مثل ثروات العراق ثم يبدّد كل شيء ويدمّر نفسه وعائلته وسيادة بلده بعد تقلّبات وحروب لا يجمع بينها خيطٌ مفهوم. بالنسبة إلى فرحان يتزامن راهن السياسة مع راهن الغريزة التوّاقة إلى إشباع متجدّد، والغلبة دائماً للأخيرة. كل هذا جعل توقيت ظهوره ضربةَ حظ، ووجدته فرصة تُبعدني عن شبكة الهُموم العراقية التي تطبق عليّ أينما ذهبت وتربك خُطاي. كان قد حسم أمره وتوصّل إلى حالةٍ من القبول بالأمر الواقع على نحو لا يمكن أن أفهمه أو أقلّده.

سارعتُ باستخدام رقم التلفون الوارد في الرسالة واتفقنا على اللقاء في كازينو الجوهرة على كورنيش القرم في مَسْقَط. كنت في طريقي إلى مَسْقَط بالسيارة أمزقُ شرنقةَ الأيام المتشابهة في صيف صُور الحارق وأحقق تلك الزيارة المؤجّلة. وجدت طريقي إلى الكازينو بصعوبةٍ لأنه كان يقبع خلف صفّ من البنايات التجارية المتلاصقة المبهرجة التي لا تترك منفذاً إلى الساحل إلا بالدخول في أحدها والخروج من الباب المقابل. كان

Twitter: @ketab_n

المكان مزدحماً بالزبائن العُمانيين والأجانب، تميِّزه أناقةٌ لاهية ويطل على منظر البحر. تتحرك على الساحل شقراوات حاولن إبراز ما لديهن من مفاتن شهية دون الإساءة إلى تقاليد المكان. وسرعان ما لاح لي فرحان فوق أحد الكراسي في هواء العصر الساخن الطلق ممتلئاً يميلُ إلى البدانة كما عهدته دوماً. كان عمله الجديد في حقول الصحراء العُمانية قد زاد من سُمْرته، لكن نظرته البرّاقة الثاقبة ظلت حية في عينيه الضيِّقتين. وقف حين رآني أقترب منه وتعانقنا بشوق حقيقي.

لاحظ حين جلسنا أنني ازددت نحافةً عن ذي قبل وبدلاً من تعليق قلق سأل بجدية:

- يبدو أنها حالة عشق جديد!

ولأني أعرفه ضحكت لهذه النكتة التي طالما رددها عن نفسه، فإذا ما عانى أي توعّك بسبب الإسراف في الأكل والشرب قال بنظرة رومانتيكية ذابلة "سببه الحب!" دون أن يبتسم.

قادتنا ملاحظته تلك إلى مناقشة حالتي بعد الانفصال عن زوجتي التي يعرفها جيداً وتعرفها زوجته لأننا كنا نتبادل الزيارات العائلية في ليبيا، وقد عاصرا مراحل الدراما التي عشتها أولاً بأول. كنت قد أمضيتُ عاماً كاملاً في البريقة أشارك فرحان في شِقة واحدة بعد سفر عائلته إلى العراق بانتظار حسم انتقاله إلى العمل في عُمان. وقد لاحظ عن كثب شحوب حياتي التي تتوزعُ بين العمل والقراءة ومتابعة الأخبار. سألني وهو يستعيدُ كل ذلك عن عملي الجديد في صُور وقال:

- ماذا عن الشقراوات؟

قلت بنبرةٍ هادئة:

- لا تذهب بعيداً. الكلّية لا تستقبل أساتذة دون سن الخمسين. يبدو أنهن لا يقررن المجيءَ إلى الشرق إلا عندما يبلغ بهن العمر محطة التقاعد.

تطلَّع نحوي بجدية تُبَطِّنها مزحة:

Twitter: @ketab_n

- وماذا عنك؟ هل أنت في العشرين؟ لديك عزّ الطلب، والمرأة لا تكبر.

قلت أذكّره بحوار سابق بيننا:

- عدنا إلى نظرية الشبكة والصنّارة.

انفجر ضاحكاً. كنت قد لاحظتُ أن فرحان يتصيد المغامرات النسائية بشبكة يرميها في البحر ولا يهمّه ما تلتقط، بينما أميل أنا إلى الانتقاء والاكتفاء بامرأة واحدة. هتف جزعاً:

- من يعتمد الصنّارة يهلك من الجوع، كل الأسماك توفر فيتامينات مفيدة وغذاء رائعاً، ومن ينتظر سمكةً بعينها ليأكل سيعاني هُزالك المتزايد وصحراءَك القاحلة.

قلت إني لا أستمتع بعلاقة تبدأ وتنتهي في الفراش، وإن الحاجة إلى المرأة أوسع وأعمق من ذلك. فهزّ يده يائساً مني ونادى النادل ليطلب فنجانين من القهوة. قال لي:

- دعني أحدثك بالعقل. تخيل أنك بدوي في أفريقيا يعاني حالة جفاف مُهْلِك وأنك تشرفُ على الموت جوعاً وعطشاً، ثم يأتيك شخص بصحن من الأرز مطبوخ طبخاً سيئاً حتى إنه يكاد يبدو كتلةً من العجين ومعه قدح من الماء فيه ملوحة وطعم لا يستساغ. هل ترفض؟

ابتسمت في علامة استنكار للتبسيط الذي يميزُ حلوله فقال:

- أجب هل يمكنُ أن ترفض؟

قلت:

- إن التشبيهَ تُعْوِزُه الدِّقّة. فالحاجة إلى المرأة لا تشبهُ الحاجة إلى صحن من الرز.

ارتسمت حيرةٌ ساخرةٌ على وجهه وسأل:

- ما هي إذن؟ هل تعاني في صُور نقصاً في الغذاء؟ هل أسلفك بعض المال لتشتري طعاماً تأكله؟

Twitter: @ketab_n

حاولت أن أتكلم فأردف وهو يعلم إجابتي:

- إذن عليك أن تسلّم بأن هُزالك هذا وشحوبك ناجمان عن نقص التغذية الأنثوية وأنك مهما أكلت من الطعام لن تتورّد دون لمسة ناعمة تحرك الدماء في عروقك.

لم يدم لقاؤنا الأول ذاك طويلاً، لكن الحديثَ ظل يدور حول فكرة الحاجة إلى التقاط الأنفاس بعد سنوات عِجاف من العُزلة في صحراء ليبيا. كان فرحان قد حسم دون صعوبةٍ مسألة التناقض الذي يشلّني بين المحنة والعيش الطيب وقرر أن ما يحدث في العراق أمر مُؤسف لكنه بعد عقود من التأزم أصبح جزءاً من الوجود اليومي ولابد أن تستمرّ الحياة. علّق بشيء من السّخرية أن عائلة الميّت تطبخ وتأكل وتستقبل الناس. الحياة تستمرّ ولا يمكن أن ننتظرَ استكمال كل مقوّمات الفرح لنفرح. ذكرني قوله ذلك بقصيدة كتبتها قبل عقودٍ طويلة أقول فيها لا بد من الضحك بدون سبب لأن انتظار الضحكات الحقيقية لا نهاية له. زاد الحوار مع فرحان من رغبتي المُحْبطة في مراجعة النَّمَط الذي اخترته لعيشي. وبالرغم من أن فرحان لم يُبلور موقفه في عبارات فلسفية كبيرة فقد كان حافزاً دعاني طوال طريق العودة إلى صُور إلى التفكير المتصل ومحاولة استخلاص الحلول. أدركتُ مثلاً أن خياري الذي انتهيتُ إليه دون وعي مني هو الانسحاب من العالم المحيط بي، عالم المنفى، وذلك لاقتناع ترسَّب في نفسي دون وعي أيضاً فحواه أن المنفى وهمٌ والوطن حقيقة. كأني إذا ما باشرت الحياة خارج الوطن أمزّق صورته وأدمرّها وكأن الأسى الذي يلازمني هو الحارس الأمين الذي يمنعني من فقدانه. هنالك شيء متماسك في داخلي تهدّده الحياة الطيبة خارج الوطن وتنفي عنه المعنى.

على مشارف صُور توصلتُ إلى أن فرحان قد حقَّق هدنةً مع المنفى عندما حَوَّله إلى مغامرة. وهي فكرة تبلورت على نحو أدقّ في لقائي اللاحق وإياه.

Twitter: @ketab_n

13

منذ الاجتماع مع ممثلي الوزارة بخصوص مستوى الطلبة اللغوي صار الدكتور الطاهر أكثر اهتماماً بي ورغبة في التحدّث معي عما يشغله. ومع بداية العام الجديد اختارني لعضوية لجنة تختصّ باستقبال الأساتذة الجُدد. كان دوري يتمثلُ في مُرافقة الذين يصلون منهم في جولة داخل الكلّية للتعرف إلى معالمها (وهي عُموماً صغيرة محدودة)، لكن الأهمّ كان إبلاغهم بطريقة مهذّبة غير مباشرة النواهي والتحذيرات التي يجبُ على الأجنبي أن يضعها نُصْبَ عينيه أثناء وجوده في السّلطنة. وقد سلّمني الطاهر نسخةً من كُرّاس صغير بالإنكليزية يحتوي الكثير من المعلومات ويتضمنُ هذه النواهي أيضاً وطلب مني نسخه وتوزيعه على من يصل منهم. ولكن لأهمية هذا الكُرّاس لم يكن كافياً إعطاء الأساتذة الجُدد نسخةً منه (قال الطاهر إن التجربة كشفت له أن الكثير منهم لا يكلّفون أنفسهم قراءته بتأنٍّ) ولا بد من أن يُقال لهم ما فيه شفاهاً. يدعو الكُرّاس أساساً إلى ضرورة الابتعاد عن إثارة المواضيع السياسية والدينية والجنسية مع الطلبة أو داخل القسم لما يمكنُ أن يترتبَ على ذلك من إشكالات ونزاعات، فضلاً عن تحذير السيدات من كشف مفاتنهن أو ارتداء الملابس الضيّقة. وهنالك بالطبع تأكيد ضرورة احترام تقاليد البلاد وأعرافها وتجنّب الخوض في أي نقد أو مساءلة لها.

أدركتُ وأنا أستقبلُ أفواجَ الأساتذة الجُدد أن موقعَ الاستقبال يختلفُ اختلافاً جذرياً عن موقع الوصول لأول مرة. يتمتّعُ من يشغل موقع الاستقبال بنوع من الثقة التي ترفعه درجةً على من يصل حديثاً لأنه يعرف

Twitter: @ketab_n

المكان ويتحركُ فيه بدراية واسترخاء، أما القادمُ الجديد فمضطرب متسائل يزدحمُ رأسه بكل أنواع الأسئلة التي يفترضُ خطأً أن من سبقه إلى المكان يعرف الإجابة عنها. وقد أظهرتني تجربةُ الاستقبال لأول مرة على تلك النظرة الحائرة المتسائلة على وجه غربي ارتبط دائماً بالتَّمكن والدراية، وهو يواجه مكاناً غريباً عنه كل الغرابة. لم يكن سهلاً تحديد إن كانت تلك النظرة موقفاً متعمّداً مدروساً لاستكشاف المكان أم إقراراً بالعجز والحاجة إلى الدعم؟ فضلاً عن ذلك فقد أعفاني موقعُ الاستقبال إلى حدّ كبير من عناء التعرض لأسئلة مبسّطة مباشرة وذلك أن ما يشغل القادم الجديد هو شروط حياته المنتظرة وتفاصيلها الصغيرة أكثر من أي شيء آخر. لكني اكتشفتُ وأنا أرافقُ الأساتذة الجُدد وألاحظ نظرة القلق والفضول والدهشة في عيونهم أن صُور تمثل بالنسبة إليهم منفى مُزدوجاً فهم لا يتحركون بعيداً عن ديارهم فحسب بل يتحركون في مدينة لا يعرفون لغةَ أهلها وتقاليدهم وكل ما يحملونه من معلومات آخرها كارثة بُرْجَي التجارة في نيويورك تزيد من قلقهم واغترابهم.

وصل إلى القسم في خلال الأسابيع الأولى من الدوام حوالى عشرين أستاذاً وأستاذة تولى استقبال الكثيرين منهم عضوا لجنة الاستقبال الآخران إبراهيم الساسي وجين كلارك. لكني أتذكّر على نحو خاص مجموعة الأساتذة التي كانت تضمّ ساندرا. قد تكون هذه مصادفة أخرى تُحَوِّلها حكايتي إلى سَبَب. لا أدري! هل كان مسارُ علاقتي بها سيتغيَّر لو أن من استقبلها كان إبراهيم أو جين بدلاً مني؟ المؤكّد أن استقبالي لها كان مصادفة، والمؤكد أنه صار سبباً لكل ما حدث فيما بعد. كانت ضمن مجموعة من خمسة أساتذة وصلوا تَوّاً من فندق شاطئ صُور واتصل بي الطاهر لأصطحبهم في جولة تعريف بخارطة الكلّية تتضمنُ تأكيدات مهذّبة على سياستها. ساندرا قادمة من بيرث في أوستراليا، تميلُ إلى القِصَر دون أن تكون قصيرة، ذات قوام ممشوق ممتلئ لم تؤثّر فيه كثيراً أعوامها التي شارفت الخمسين. وكانت ترتدي بذلةً بيضاء من الكتّان المُجَعَّد الذي يوحي

Twitter: @ketab_n

بارتياح الجسد تحته أضفت عليها بساطة وانبساطاً. أما وجهها فقد وشى بِسِنِيِّها الخمسين لما بدا عليه من ذُبول وإرهاق بعد سفرٍ طويل، لكن ملامحها ظلت تحملُ بصمة جمال باهر غابر. كان برفقتها أريك جونسون البريطاني القادم من اليابان بِجَسَدِهِ الضَّخْم، الذي دخل فئة البدانة، ووَجهِهِ المُشْرق بملامحه المتناسقة الذي لم تفارقه ابتسامةٌ واثقة. وكان يلازمه رالف فيليب وهو أبيض من جنوب أفريقيا يمتازُ برشاقةٍ ووسامة مميزة يزيد من بريقهما عينان خضراوان فيهما نظرة قلقة منزعجة. هنالك أيضاً لانك بيترسون الذي قدّم نفسه بأدب بوصفه أميركياً جاء من المملكة السعودية بعد أن أمضى فيها ثلاثة أعوام. كان أفريقياً أسود ترتسمُ على جبينه العَلامة الدالّة على كثرة السُّجُود وقد علمت أنه اعتنق الإسلام قبل مغادرته أميركا منذ سنوات وأن سبب عمله في الشرق الأوسط فضلاً عن حاجته الماسّة إلى المال رغبته في معرفة المزيد عن ديانته الجديدة. ظل يصطحبه خلال تلك الجولة شابٌّ في الثلاثينات فارع الطول أشقر ظلّ يتبادل وإياه التعليقات الجانبية. وقد عرفت أنه اعتنق الإسلام هو الآخر، وكان يدعى أبرامز هوفمنتال لكنه طلب مني أن أدعوه إبراهيم، وهو الاسم الذي اختاره بعد اعتناقه الإسلام أثناء عمله في اليمن وزواجه فتاة يمنية.

رحّبتُ بالمجموعة وأثار وجودي بين هذا الجمع المتنوع من الأساتذة حماستي فانطلقت بهم إلى المكاتب الإدارية، ثم مركز مصادر التعلم الذي يضمّ المكتبة، وعدت بهم إلى النادي والمطعم. لم تكن الكلّية كبيرةً وقد حرصت على التوقف قرب البنايات التي تضمّ الفصول الدراسية، وهي موزّعة بين ثلاثة أماكن من الكلّية ليعرفوا طريقهم إليها مستقبلاً. سألني لانك حين أعلنت نهايةَ الجولة إن كان ثَمَّة مُصلّى في الكلّية، وقد أحرجني ذلك كثيراً. فبينما كنت لا أكفّ عن الحديث عن تقاليد البلد وقيمه الدينية وضرورة مراعاتها كنت قد أغفلتُ الرمزَ الأبرز لهذه التقاليد. قدت المجموعة إلى الجانب الشرقي من الكلّية حيث يقع مصلّى صغير في بناية مستقلة تظلل مدخله شجرة كالبتوس كبيرة. سألني رالف وقد وقفنا نحن

Twitter: @ketab_n

الستة في ظل تلك الشجرة الوارف عن نوع الطلبة في الكلّية وإن كانت هنالك مشاكل في التعامل معهم، فتبرّعت بشرح نظريتي التي كَوَّنتُها بعد سنين طويلة من رصد مشاكل الأساتذة البريطانيين في عملي السابق في شركة النفط عن سُبُل التعامل مع الطلبة:

- المناهج الدراسية في الغرب تؤكدُ ضرورةَ أن يكون المدرس صديقاً لطلابه يمازحهم ويعلّمهم من خلال اللعب والترفيه، وألّا يلجأ إلى القسر والإكراه. وهي وصايا صحيحة دون شك ولو سألت رئيس القسم أو العميد لقال لك نعم هي معتمدة لدينا. لكنني أرى أن على الأستاذ الجديد في الأسابيع الأولى أن يقدّم نفسه بجدّية كاملة ويُظهر للطلبة بابتعاده عن المزاح واللعب والتنكيت أنه يأخذ مهمته التدريسية مأخذَ الجد. والسبب في ذلك أن الطلبةَ هنا اعتادوا طوال سِنِيّ دراستهم السابقة صورة للمعلم أقرب إلى صورة الأب في وقاره وجدّيته. ما يحدث كثيراً أن الأساتذة الغربيين يبدأون بالمزاح واللعب وهو ما يسيء الطلبة فهمه ويدفعهم إلى السّخرية من الأستاذ والشك في جدّيته. نصيحتي أن يبدأ استخدام الأساليب الحديثة بعد أن يُثَبِّتَ الأستاذ صورته الأبوية في عقول الطلاب.

لزم الجميعُ الصمت وهم يصغون بانتباه وحياد إلى ما أقول. كان صباحاً باهر السطوع قائظاً بالرغم من انقضاء أسبوعين من أيلول. قال أريك دون أن تغادره ابتسامته الواثقة:

- تكاد هذه الملاحظة تصحّ على الطلبة في اليابان أيضاً. يبدو أن لآسيا روحها المشتركة.

قال رالف وقد خالط الانزعاجَ في خضرة عينيه ترقّبٌ وأمل:

- وكيف يقضي الناس وقت فراغهم مساء؟ أهنالك بارات؟ مسارح؟ دور سينما؟

قلت وقد فاجأني ألّا يثير لديه ما قلت عن الطلبة تعليقاً:

- يقال إنهم بصدد افتتاح دار سينما حديثة قريباً. أما البارات فهي كما

Twitter: @ketab_n

تعلم غير مرخّص بها في بلد إسلامي يُمنع فيه احتساء الخمر، لكن الدولةَ تمنحُ الأجانب من غير المسلمين إجازات خاصة يمكنهم بها شراء ما يشاؤون من مشروباتٍ كحولية من محل خاص في مَسْقَط. هنالك أيضاً بارات تقدّم الخمر في فنادق ذات خمس نجوم في صُور. أما أهل صُور فإن راحتهم تتحققُ حين يقصدون الجوامع كلما حان وقتُ الصلاة، وصلاتهم واجتماعاتهم أثناءها المصدر الرئيس للترويح عنهم.

علّق رالف بابتسامة لم تمسح بريقَ الانزعاج في عينيه:

- هل تعني أن الجوامعَ تؤدّي دورَ البارات؟

ضحك أريك مازحاً وهو يضيف:

- الدين أفيونُ الشعوب.

قالت ساندرا وهي تتطلعُ إليهما بجدية:

- لدينا في الغرب صار الأفيون دين الشعوب.

وبدا على وجه لانك ارتياح لتعليقها فقال يساندها:

- مع فارق جوهري أن الدين لا يسببُ أمراضَ الكبد والعُتْه.

قلت أستغل الفرصة للتذكير بما قلت:

- الأهمّ من كل هذا أن نحترمَ الاختلاف وندرك أن مهمتنا في هذا البلد لا تتجاوزُ تعليمَ الطلبة اللغة الإنكليزية. أما ما نحمل من آراء وقناعات فتبقى شأناً شخصياً لا يُناقش مع الطلبة.

قالت ساندرا وهي تلتفتُ نحوي بنظرة مستطلعة من عينين سوداوين فيهما حذرُ الثعالب وحيويتها:

- هل صُور مدينة هادئة؟ آمنة؟

قلت مبتسماً وأنا أسترجع رتابةَ الصيف وسكونه:

- صُور توفّر من الهدوء أكثر مما يحتاجُ المرء، وهي آمنة تماماً.

Twitter: @ketab_n

عاد رالف ليسأل بجدية لم تنمّ عن أي استنكار وهو يتابع حوله حركة الطلبة في زيهم الوطني:

- هل الأبيض للبنين والأسود للبنات نوع من الزي الموحّد الخاص بالكلّية؟

قلت باسماً وقد بدأت أحذر ما يقول:

- هذا هو الزيّ الوطني العُماني؛ الدشداشة للبنين والعباءة الخليجية للبنات. ولكن الكلّية تحرصُ على ألّا يرتدي الطلبة الذكور أي لون آخر غير اللون الأبيض.

ارتسم على وجه أريك شيءٌ من الاستغراب لكنه لزم الصمت. كنا قد وصلنا إلى نهاية المشوار في جولتنا فسألتني ساندرا وأنا أعلن ذلك:

- هل يحقّ لنا أن نقصدك بأسئلتنا بعد الآن؟

قلت مشجّعاً بأريحية طافحة:

- بالتأكيد. أنا معكم في القسم وسأكون مستعداً لأية مساعدة أقدر عليها.

لم يخطر ببالي بعد ذلك اللقاء القصير أن تتطورَ حكايتي مع ساندرا بالطريقة التي تطورت بها. لكني بدأتُ ألاحظ بعد أيام من اللقاء أنها على خلاف بقية الأساتذة الجدد ظلت تترددُ كثيراً إلى مكتبي (وكنت لا أزال وحيداً فيه) لتسألَ عن التفاصيل وما أكثرها. عندما زاد عددُ الأساتذة صار لزاماً عليّ قبول مشاركة أستاذ أو اثنين لي في مكتبي، وهي مسألة تعني الكثير لأن من يشاركك في المكتب يصبح جزءاً دائماً من حياتك اليومية وأقرب إليك من أقرب أصدقائك شئت أم أبيت. لم أستغرب عندما قصدتني ساندرا ذات صباح بابتسامتها الذكية وقد بدأ وجهها يستعيدُ نضارته تطلب مني الموافقة على أن تشاركني في المكتب. قبلت دون تردّد لأني وجدتها متحدثةً بارعةً تحافظُ على ابتسامة متسامحة وحيوية طافحة مستمدة من طبيعتها غير آبهة لما يحدث حولها. وهو نوع من الحيوية يستهويني في الناس.

Twitter: @ketab_n

14

تبدو بداية عام دراسي جديد أقرب إلى بداية كرنفال. ظل هذا الانطباعُ يلازمني منذ كنت صبياً أقلّبُ الكتب الجديدة والكُرّاسات البيض الأنيقة في صباحات أيلول من كل عام، ولازمني حين صرت أستاذاً أكررُ تدريسَ المنهج نفسه عاماً بعد عام وتحوّل أيلول إلى سبتمبر. هنالك في الأسابيع الأُولى استثارة في الهمم وتطلع إلى جديد واعد غامض لا يقلل من شأنه أن الأعوامَ السابقة قد أثبتت دائماً أنه غير موجود. توصّلت بعد أعوام طويلة أن تَوَقُّع الكثير من مكان العمل علامة على ضمور الحياة الخاصة، وأن من يرتكزُ ثقل مسرّاتهم على الحياة خارج نطاق العمل لا يجدون في العودة إليه ذلك الوعدَ الكرنفالي الذي يصبو إليه من أمضى أيام العطلة الأخيرة في عدّ تنازلي مُمِلّ.

لا يكون الكرنفال كرنفالاً دون عرض باذخ للجمال. ومن المؤكّد أن وجودَ الجميلات في مكان يُضفي عليه نضارة وحماسة حتى وإن كُنَّ لا يقعن في نطاق وجودنا الخاص. أتذكرُ أني رأيت بَتُول وأريكا في يوم واحد، بل وفي صباحه تحديداً، لا تعدو الفاصلةُ الزمنية بين حديثي مع الأولى ورؤيتي الثانية أكثر من ساعة. كنت أقصدُ مكتبَ الدكتور سعد جبور الذي يقعُ في الطابق الأرضي لأعيدَ إليه رسالة بالإنكليزية طلب مني تدقيق لغتها. وبدلاً منه وجدت خلف مكتبه فتاةً لا تعدو ربيع العمر نحيفة نحافة الصِّبا الذي ينتظرُ امتلاء الأنوثة المكتملة وقد أضاء وجهَها انتباهٌ حادّ وبرقت في عينيها فطنةٌ متأهّبة. وكانت تقفُ أمامها امرأة في العقد الرابع ترتدي العباءة الخليجية السوداء وقد أضاء وجهها الوضّاح انفعال مشبوب.

Twitter: @ketab_n

أدركت أني قطعتُ حديثاً خاصاً متأزماً. كانت عينا السيدة الواقفة السوداوان النجلاوان تلتمعان بشيء يتجاوزُ فتنتها الآسرة وسرعان ما تبينتُ فيهما التماعةَ دمع لا يفيض. سألت عن الدكتور سعد فبدت الإجابةُ أقرب إلى الصحو الذي أعاد المرأة إلى العالم المحيط بها وكانت لهجتها عراقية. وهكذا تعرفتُ إلى الدكتورة بَتُول هادي أستاذة الرياضيات التي وصلت حديثاً من كلّية أخرى في عُمان وإلى ابنتها شذى التي كان مستقبلها الدراسي يتقررُ في تلك اللحظة. قالت الدكتورة بَتُول إن الدكتور سعد قد تحول إلى مكتب آخر وإنها تسلَّمت مكتبه.

حين أستعيدُ ذلك اللقاء الأول مع بَتُول أجد من المدهش أنني ودون أية مقدّمات صرت طرفاً في الحوار الساخن بين الأم وابنتها. بدا أن الأم قد أُسْقِطَ في يدها واستنفدت كل ما لديها من وسائل لإقناع الفتاة. وكان الخلافُ يتعلّق برغبة الفتاة الجامحة العنيدة في دراسة الطب بينما جامعة السّلطان قابوس لا تمنحُ مقاعد التخصصات الطبية لغير العُمانيين وهو ما يعني أن على الفتاة الالتحاق بجامعة خاصة لتضمن دراسةَ الطب. البديل الذي كانت الأم تدافعُ عنه هو أن تستفيدَ الفتاة من فرصة تفوقها في الثانوية وتقبل مقعداً متاحاً لها مجّاناً في جامعة السلطان قابوس التي تعدّ أفضل صرح تعليمي في عُمان وأن تقبل بدلاً من الطب تخصّصاً هندسياً. بدا جلياً أن مصدرَ الشّحنة العاطفية المشبوبة يتجاوز مصدر الخلاف الماثل. إنها الدراما العائلية المألوفة التي تُبطِنُ فيها الخلافاتُ تعايشاً مشتركاً طويلاً وتقارباً قلبياً حميماً. قررتُ أن أهبّ لنجدة الدكتورة بَتُول. دفعني تأثرها الشديد وجزعها أمام عِناد الفتاة وذكائها المتفوق إلى التعاطف معها. وخطرت لي فكرة أريك فروم في أن حب الأم غير مشروط وفيه تواطؤ مع الخطأ على عكس حب الأب الذي يكون مشروطاً بتوفُّر القبول وتحقيق شروط الاستقامة وأن الحبّين متكاملان. أن تؤدّي الأم دور الأب مهمة شاقة بالتأكيد. لم أدرك حينئذٍ أني توليتُ مهمةَ الأب الغائب بكل معانيها. كان أمام الفتاة على المكتب نماذج شرعت في تعبئتها. سألتها بحياد وهدوء:

Twitter: @ketab_n

- لماذا الطب تحديداً؟

قالت دون أن يبدو عليها أو على أمها أن وجودي وتدخلي في الحوار يعدّان تطفلاً. بدا أن حاجتهما إلى رأي ثالث يساعد على حسم الخلاف قد غَطّت على الاعتبارات الأخرى كافة. والواقع أنني اندفعتُ إلى المشاركة بحماسة نسيت معها أن الأمر لا يخصّني:

- الطب تخصص محترم وله المكانة العُليا في المجتمع.

كان ذلك كافياً لأندفعَ في حديث مُتَّصل طويل:

- بالنسبة إلي لا يقاس مقدارُ احترام أي تخصص ومكانته الاجتماعية بطبيعته. الطبيب الذي يخفقُ في أداء عمله وإتقان تخصصه يكون أشدّ عُرْضةً للوم من صاحب أي تخصص آخر لأنه يتحكّم في صحة الناس وحياتهم. ولكن، دعيني أقص عليك حكاية حقيقية وقعت لي وأنا في مثل سنك. كنت حينئذٍ في السنة الأولى من الدراسة الجامعية أدرس الإنكليزية وتعرفت إلى فتاة لطيفة تدرس الإسبانية. كانت كلما التقينا تُكَرِّر الشكوى من تخصصها وتسأل ما مستقبل من يجيدُ الإسبانية في العراق؟ قلت لها يوماً إن عليها أن تحمدَ الله على هذا التخصص النادر، فأعداد المتخصّصين بالإنكليزية لا حصر له بينما لا يدرس الإسبانية إلا بضع عشرات. وهذا يعني أن الحاجة إلى مترجمين عن الإسبانية مهما صَغُرت ستجعل المتخصّص بها عملةً نادرة. فضلاً عن ذلك فإن المتفوقَ في الإسبانية سيحصلُ على فرصة الدراسات العُليا دون أن يضطرّ إلى خوض التنافس الضاري الذي سيجد المتخصّص بالإنكليزية نفسه مضطراً إلى خوضه. الخلاصة أن الأساسَ لا يكمنُ في طبيعة التخصص نفسه وما يكون، الأساسُ الأوّل والأخير هو الشخص الذي يتخصص فإذا كان شخصاً ذكياً متفوقاً، كما هي الحال معك دون شك، فإنه سيجعلُ أي تخصص يقع عليه اختياره مهما بدا ثانوياً منصة للإنجاز والتفوق. هل تعلمين ما حدث لتلك الصديقة فيما بعد؟ ركزت كل جهدها على إتقان الإسبانية والتفوق فيها. وتأكدي، وأنا لا أبالغ هنا أبداً

Twitter: @ketab_n

وما أقوله هو الحقيقة المؤكدة، اليوم تحمل هذه الفتاة شهادة الدكتوراه في الأدب الإسباني وكان آخر مرة سمعت عنها خلال التسعينيات أنها كانت أستاذة في جامعة بغداد في القسم الذي درست فيه البكالوريوس. السؤال الآن كم ممن كانت تنظرُ إليهم بحسد وحسرة من خريّجي اللغة الإنكليزية قد حقّق هذا الإنجاز؟ الأغلبية العظمى منهم أمضوا حياتهم في مهنة التدريس الثانوي لا يعرفهم أحد. المؤكّد اعتماداً على ما فهمت من الخلاف أنك فتاة متفوقة وأي تخصص تختارين سيكون مادة لتفوقك. التخصص لا يمنحُ التفوق، التفوق هو ما يمنح التخصص مكانته.

كانتا تحدّقان إلى وجهي باهتمام فاق اقتناعي بما أقول، وبدا أن ما يمثل بالنسبة إلي رأياً طريفاً أعرض به خبرتي وحماستي لدعم عراقية فائقة الحسن كان يمس فيهما وتراً حسّاساً زادته جدالات طويلة معذبة توتُّراً واستعصاء. حوّلت الأم نظرها إلى الفتاة وقالت عاتبة:

- اسمعي ما يقول.

بادرتُ في محاولة لتثبيت ما قلت ولإبعاد الأم عن الجدل مُؤقتاً:

- المشكلة الثانية في حالة شذى أنها ستتجه إلى الكلّيات الأهلية بدلاً من جامعة ذات صيت واسع. وهو أمر في غاية الخطورة لأن التخصّصَ الطبي تحديداً يعتمدُ كثيراً على كفاءة المؤسسة العلمية التي تقدّمه. فإذا كانت ضعيفة لا تاريخ يُعْتَدّ به لها نزلت بمستوى الطالب الذي يقصدها إلى حضيضها. تذكّري أن المؤسسةَ التعليميةَ التي نتخرجُ فيها تصبح هوية التعريف الخاصة بنا شِئْنا أم أَبَيْنا. هكذا هو عالمنا. من يحظى باحترام أكبر، خريج كلّية أهلية تقبل الطلبة على أساس ما يدفعون من مال لا ما أحرزوا من معدل دراسي أم خريج جامعة كبيرة لا يقصدها إلا نخبة القادمين من التعليم الثانوي؟ أعتقد أن مهندساً من جامعة السلطان قابوس يفوق كثيراً مكانةَ طبيب اشترى شهادته من جامعة خاصة.

كانت الفتاة ذكيةً دون شك. حدّقت في وجهي بتركيز شديد والتمع في

Twitter: @ketab_n

عينيها فكر متوثّب جاد في الاستدلال واتخاذ القرار. سألتني لتقاوم جدالاتي التي تنأى بها عن ولعها بالطب فسارعتُ إلى إجابتها بخطبة أخرى، وتواصل الحديث بحماسة منقطعة النظير. حين التقطتْ مجسّات الأم المرهفة ومضة تراجع في موقف ابنتها وبدأت تتبين أملاً في ثنيها عن عنادها فاضت دموعها. كان الأمل في إحداث تحول في موقف الفتاة أمراً لم يخطر على بالها بعد جدالات عقيمة أرهقتها. ولم يكتمل التحول أمامي. علمت به فيما بعد لكنه خلق بيني وبين الدكتورة بَتُول وشيجة تضامن وتفاهم. تأثرت وأنا أشهدُ تلك اللحظة المتوهّجة كالجمرة على راحة اليد، لحظة اتخاذ قرار مصيري بعيداً عن البيت والوطن، وفي غياب الأب الذي علمت أنه لم يكن مع العائلة في عُمان، وأنه عاد إلى بغداد منذ أكثر من عام لمتابعة بعض مشاغل العائلة هناك.

لم ينقطع الحوار إلا بتلفون من الإدارة يدعو الدكتوره بَتُول. حين اتجهت إلى مكتبي في الطابق الثاني حملت معي وجهاً عراقياً آسراً لم أرَ مثيلاً له منذ عهد بعيد. كان في جمال ملامح بَتُول سرّ لم أدركه إلا بعد حين. قال لي الدكتور حاكم وقد جاء ذكرها معه إنه يعرف زوجها الذي كان ضابطاً كبيراً في الجيش قبل حلّه وإنه كان من أصدقائه المقربين. ثم أضاف أن الزوج عاد إلى كركوك لحل منازعات تخص عقارات تعود إلى والدة بَتُول في كركوك. علمت حينئذٍ أن سرّ الجاذبية الخاصة في وجه بَتُول وقوامها الممشوق الفارع أنها جمعت أجمل ما في دماء العَرَب والكُرْد.

حين تركت السُلّم واستويت على ممرّ الطابق العلوي وقع نظري في نهاية الممر على قوام رشيق في رداء وردي ضاحك لامرأة أوروبية تفيض أنوثةً وفتنة. وقد لعنت، أمازح نفسي، الحظَّ الذي لم يصطفني لاستقبالها بين من استقبلت. كانت تلك أريكا. أما مصادفة أن أرى أجمل سيدتين في الكلّية في صباح واحد فأمر يفقد تصادفيته البريئة في الحكايات. كما قلت من قبل، الحكايات تحوّل المصادفات إلى أسباب دون أن تسلبها فرادتها وغناها.

Twitter: @ketab_n

15

رشفتُ قهوتي التركية القوية وأنا أتطلعُ إلى البحر الذي توزع على ساحله بعض الأجانب، بينهم نساء يتحركن بالبنطلونات القصيرة هنا وهناك بحيوية ورشاقة. قال فرحان الذي وعدني وهو يدعوني إلى مَسْقَط بمفاجأة سارة:

- اسمع سليم، سأقومُ اليوم بعمل إنساني لوجه اللّه لا أريد عليه ثواباً ولا شكوراً.

سألت وقد قفز إلى ذهني أنه سيقترحُ التوجه إلى مَبْغَىً لما ظل يلحّ فيه من ضرورة أن أغسلَ عن جسدي أدرانَ العفّة والنفاق:

- ماذا تعني؟

- لا تقلق. سأعرضُ حالتك على طبيبة ساحرة. لا توجد دُوْر للمُتعة في هذه البلاد. الدعارة محرّمة ومستهجنة، لكن الحاجةَ إليها قوية كما هي في كل مكان تحت الشمس. هل تعلم؟ قال لي أحد زملائي العُمانيين في الشركة إن محلاً للتدليك والطب الصيني قد افتُتح في مدينته المُحافظة نَزْوَى. وكان موقعه ـ مصادفة أو عمداً ـ قرب جامع صغير. مرّ وقت طويل قبل أن يدرك شبابُ المدينة روعة الخدمات المَسّاجيّة التي تقدّمها الأيدي الصينية الناعمة الصغيرة فصاروا يتوجّهون إلى هذا المحل بالعشرات ويخرجون منه حالمين مبتسمين. ثم أدرك شيوخُ المدينة خطورة الأمر فتعالت الشكاوى خوفاً على أخلاق الشباب من رجس الشيطان الصيني وأُغلق المحل. لكن الرسالةَ وصلت إلى هؤلاء الشباب الذين ذاقوا العسل فصاروا يتوجّهون إلى مَسْقَط حيث تنتشرُ هذه "العيادات" في كل مكان.

Twitter: @ketab_n

قلت: وهل تزور هذه العيادات أيها العليل؟

قال: لولاها ما بقيتُ على قيد الحياة. كلما عدتُ من الحقول النفطية الصحراوية القاحلة قصدتُ طبيبتي الصينية صاحبةَ الأنامل السحرية وي أون في الخوير، وبعد ساعةٍ أخرج إنساناً جديداً نزع عنه كل غمّ في القلب وتشنّج في العضلات.

قلت: هل تعني أنك...

قال: عليك أن تجرّب. لن تخسرَ أكثر من عشرين ريالاً، وبالمقابل ستقضي ما بقي من عمرك في الدعاء لأخيك فرحان الذي حلّ عقدتك المستعصية.

لم يسمح لي بالرد (وهي عادته عندما يعرض عليك مسرّة تترددُ في قبولها) قال بجزم:

- أنا ذاهب اليوم عصراً، لدي موعد مع أون وإذا لم تأتِ معي فستبقى ضائعاً في زحام مَسْقَط حتى أعود إليك.

ابتسمت وأنا أفكّر في هذا العرض. كنت متعباً متوتّراً منذ وصولي إلى عُمان فقررت أن أجربَ الدخول في هذا العالم المجهول بالنسبة إلي. هتف فرحان ونحن نتجه إلى السيارة بنبرة مسرحية:

- إلى القارة الصفراء!

انطلقنا بسيارة فرحان الهوندا الأنيقة من منطقة كازينوهات الكورنيش إلى شارع السلطان قابوس الكبير المزدحم الذي تتجمعُ على جانبيه مدينة مَسْقَط بأسرها. قال فرحان يمهدُ للزيارة ويقدّم نصائحه الهيدونستية التي تضفي على نبرته جدّيةً مضحكةً لما فيها من تناقض بين محتوى النصيحة العابث اللعوب وجدّيتها الحاسمة الحازمة:

- هنالك في العيادة أمران لا بد من أن تجرّبهما هما التدليك والإبر الصينية. ستقدّم لك المساج فاتنةٌ صينية كريمة فلا تتردد في طلب المزيد.

Twitter: @ketab_n

سألت بفضول حقيقي:

- ماذا تعني بالمزيد؟

فالتفت نحوي بجدّية واستنكار:

- هل ستقضي عمرك غِرّاً غريراً؟ كم ساعة تمضي يومياً في سماع أخبار العراق وتحليلها وأنت مطروح على سريرك كالسقيم؟ أُخرجْ قليلاً إلى العالم. . . .تحرَّكْ!

قلت باسماً مطاوعاً:

- حسناً، ها أنذا أتحركُ معك وقد تركتُ سيارتي خلفي وأسلمت نفسي لك. ما هو المزيد؟

صمت قليلاً وهو يراقبُ حركةَ الشارع العصبية الهادرة، ثم أطلق ضحكةً قصيرةً كمن خطرت في رأسه نكتة:

- المزيد؟. . . المزيد هو كل شيء!

لم أعلّق ولزمتُ الصمت لأدفعه إلى مواصلة الكلام، لكنه صمت هو الآخر ثم التفت نحوي كأنه لا يتوقعُ أن أكون بانتظار المزيد لوضوح إجابته. قال:

- ما بك؟ كل شيء. . . من القبلة إلى الشيطان نفسه، على أن يتمّ ذلك بحسب اتفاق.

ثم أردف كمن تفطّن إلى شيء:

- ما عليك إلا أن تمدّ يدك وسَتُلقي المدلكةُ الناعمة إليك بشروطها ويمكن عندئذ التفاوض. لا تقبل دون تفاوض لأنها قد تطلب منك أكثر من المعتاد. شكلك يدلّ عليك!

قلت وأنا أتطلعُ إلى طابور السيارات الجديدة اللامعة أمامي:

- تبدو خبيراً.

Twitter: @ketab_n

- لا تمرّ إجازة دون أن أزور فيها هذا الصرحَ الإنسانيّ العظيم، إنه أعظم من سور الصين نفسه.

فكرت في إجابته وردّدتها:

- من القبلة إلى الشيطان... وهل وصلت إلى الشيطان؟

- هنالك ثلاثة شياطين في العيادة لم أصل حتى الآن إلا إلى الشيطان الأكبر.

- ماذا تعني؟

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ تعب من سذاجتي وقال:

- سأشرحُ لك ذلك بعد الزيارة. دعني أتبيَّن الطريق الآن.

كانت العيادةُ في الطابق الثالث من بناية عالية في الخوير. وقد رَفَعنا إليها مصعد ضيق يرافقه تسجيل بالإنكليزية يذكّر الصاعدَ بالطابق الذي يصل إليه. أضاءت الممرَ الذي يؤدّي إلى مكتب الاستقبال في العيادة مصابيحُ النيون بالرغم من أن ضوءَ الشمس كان ساطعاً في الخارج. استقبلتنا امرأة صينية في منتصف العمر رحّبت بفرحان ترحيباً حاراً وكان واضحاً أنه معروف لديها. مال فرحان عليّ وهو يشيرُ إلى ترمز ماء دعاني إلى أن أشربَ منه، ثم التقط كوباً صغيراً من صينية مزدانة بأزهار صينية دقيقة زاهية وصبّ فيه ماء. فعلت كما فعل وفوجئت أن الماء كان ساخناً فأطلق فرحان ضحكة خافتة وقال لي بالعربية:

- هكذا هي التقاليد الصينية، ولن تتغيرَ مهما كان حرّ السلطنة.

بعد انتظار قصير ظهرت امرأةٌ صينية تجاوزت الأربعين في معطف الأطباء الأبيض. كانت شاحبةً باهتةً رحبت بنا وقدّمها فرحان باسم وي أون. قادتني إلى غرفة صغيرة في ممرّ ضَيِّق خافت الإضاءة يحتوي صفاً من الحجرات. أما فرحان فقد اتجه إلى غرفته دونما حاجة إلى دليل وهو يودّعني بابتسامة تشجيع واستمتاع بفكرة أن أكون معه في هذا المكان.

Twitter: @ketab_n

كان يتوسَّط الغرفة التي دخلتها سرير طويل أشبه بالأسرة التي تستخدم في العيادات وقد لاحظت في طَرَفه عند موضع الرأس فَجوة مستطيلة مفتوحة على أرضية الغرفة. أعطتني الطبيبة وي شرشفاً أبيض وقالت إن بإمكاني خلع ملابسي كلها والتمدُّد على السرير واستخدام الشرشف كغطاء، ثم غادرتْ وعلى وجهها ابتسامة ودِّية. خلعت قميصي وتطلعتُ حولي. المكان هادئ تماماً لا يصله صوت من أيّ نوع، وفي الزاوية مِشْجَب لتعليق الملابس. خطر لي وأنا أُعلِّق بنطلوني عليه إن كانت محفظتي التي تحتوي هوياتي ونقودي في أمان حيث هي، ثم لُمْت نفسي على مثل هذا المزاج المُتشكِّك الذي اكتسبته خلال أعوام غربتي الطويلة. حين وصلت إلى السروال الداخلي تساءلت إن كان هو الآخر مشمولاً بالخلع، وتذكرت عبارتها "ملابسك كلّها" فخلعته وقد أسلمت نفسي للمغامرة. ولم تتأخر الطبيبة في العودة. قرّبت كرسيّاً من السرير الذي تمددتُ عليه وحدثتني بمَوَدّة خالصة. حين علمتْ أني أستاذ في كلية ازداد حرصها على إظهار المودّة والاحترام. سألتني أخيراً بنبرة مهنية لا تخلو من التعاطف:

- ما الذي تشكو منه؟

لم أكن أتوقع مثل هذا السؤال، وحين لاحظتْ ترددي قالت موضحة:

- أنت تعلم أن الإبر الصينية تعالج مختلف أنواع العِلَل ويعتمد مكانها من الجسد على نوع العِلّة.

كان في إنكليزتها لُكْنة صينية قوية أدت إلى حذف حروف صحيحة بأكملها، لكن ذلك لم يؤثر على التواصل بيننا. بدأت تعدد الأمراض المعروفة بتفصيل لا يخلو من دعاية للعيادة وقد فكرتُ في شكواي فلم أجد إلّا عِلّة واحدة:

- أشكو من التوتر والشد المستمر. عملي مُرْهِق وهنالك ضغوط نفسية كثيرة عليّ.

Twitter: @ketab_n

قالت ولم تغادر وجهها الابتسامة:

- هل أنت من العراق مثل فرحان؟

قلت وكأنها مسّت مكان العلّة في جسدي:

- نعم.

همهمت وهي تحرّكُ يدها على ظهري بشيء لم أفهمه، وكنت منبطحاً على بطني كما طلبت هي مني:

- مفهوم، مفهوم.

قامت من مكانها وجاءت بحاوية من الإبر وهي تقول:

- ضع وجهك في الفَجْوة التي أمامك في السرير وتنفّس بعمق.

فعلت ذلك فشرعت في تلمّس أجزاء من ظهري وصارت تغرزُ فيها إبراً صغيرة لم أشعر بها أو بوخزها إلا مرتين فانتفضتُ، وقد لاحظت هي ذلك فغيّرت مكانها. بقيت تتحدّث خلال ذلك عن الطريق الجديد بين مَسْقَط وصُور وهو طريقُ مرور سريع يمتدّ بموازاة البحر ويختصرُ المسافة إلى النصف. خطر لي أن سبب معرفتها به أن شركة صينية هي التي تتولى شَقّه وتعبيده. حين انتهتْ من عملها كانت الإبرُ قد انتشرت في ساقي وظهري وجبيني فقالت لي إنها ستعودُ بعد ثلث الساعة، وما عليّ إلا الاسترخاء وتجنّب الحركة العنيفة. ثم غادرَتِ المكان بهدوء فوجدتُ نفسي أحدّق في بلاط الغرفة بسكون كامل. حاولت أن أتجنبَ التفكير في شيء محدّد وأترك للإبر فرصةَ جمع التوتّر المُعَتَّق في كلّ مَسامِ جسدي. وقد أحسست بأثرها التدريجي فعلاً. كان نوعاً من الخَدَر الغريبَ الذي يحتضنُ الجسد ويرفعه إلى أثير ساهِم. لكنَّ عفريتاً في عقلي ظلَّ يشاكسني في تلك اللحظة ويهمس في أذني: عراق... عراق... ليس سوى عراق، فأغمضت عينيّ وطردته بعناد. لم أستسلم لغوايته السوداء فأنا أعرفُ ما يخفي في جَعْبته من تفاصيل بشعة وأسئلة محيرة. وبدلاً من أن يختفي العفريتُ العراقي أمام عنادي أو عناد الإبَرِ هادنني على حِين غِرَّة وارتسم

Twitter: @ketab_n

أمامي، لا أدري كيف!، وجُه الدكتورة بَتُول الذي ظلّ يلازمني منذ حديثي معها. لم أكن مُصرّاً عليه لطمع في اتصال أو أمل في شيء بعينه. كنت أعودُ إليه لأشعر بنوع من السُّمُوّ على جدب أيامي. كان وجهاً نفض عنه كل دلالات لا تمتّ إليه ولا إلى بَهائه بِصِلة. وهو ما ذكرني بحكاية صديق عراقي عمل مُضيفاً في السبعينيات، وقد اصطحبته فاتنة فرنسية إلى شقّتها في باريس فلاحظ على الحائط صورة لتشي غيفارا. عندما سألها عنه وقد ذهب به الظن إلى أنها قد تكون ذات ميول يسارية، أعلنت باستغراب أنها لا تعرفه وأن كل ما يهمّها في الصورة هو جاذبية الرجل الكبيرة ووسامته الاستثنائية. هكذا كان وجه بَتُول بالنسبة إلي، لم يكن رمزاً لشيء بعينه بقدر ما كان حضوراً غامراً لِطَيْفٍ مُفْتَقَد غائب. مع الإبر عشتُ حُلْماً لا يتركزُ في المخيلة أو العقل بل ينتشرُ في مسام الجسد كلها ويلفّه مثل حرير ناعم. ومع إغماضة عينيّ غِبْت عن الوعي تماماً وغرقتُ في نوم عميق.

استيقظتُ على حركة قربي. لم تتعمد الطبيبةُ إيقاظي أو أنها أيقظتني بطريقةٍ مهنية متقنة بدا معها وكأني استيقظتُ من تلقاء نفسي. أول ما شعرت به هو انتعاش عميق وراحة لم أشعر بمثلهما منذ سنين، بل ربما منذ عقود. كنت أستشعر تلك الحيوية اليقظة الراضية عما سبقها من منام آمن تدبّ في أطرافي وتبثُّ فيها نشوة مُسْكِرة. كانت الطبيبة منهمكةً في نزع الإبر من ظهري وأطرافي برشاقةٍ وهدوء دون أن تنبسَ بكلمة واحدة هذه المرة، كأنها لم تكن تريد أن تفسدَ ما حققت إبرها العجيبةُ من سِحْر. طلبت مني بعد أن انتهت أن أنقلبَ على ظهري ثم زرعت الإبر مرةً أخرى في الجهة الأمامية من جسدي ووجهي وغابت من جديد وهو تقول بصوتٍ هامس إنها ستعودُ بعد ثلث الساعة. تطلعت إلى السقف الحليبي البعيد مثل سماء صافية ونمتُ من جديد.

سألتني الطبيبةُ وهي تجمع عدّتها وتودّعني إن كنت أشعرُ بالراحة فأكدت ذلك بهزّةٍ من رأسي وابتسامة راضية. كنت أفيضُ حيوية وصفاء، أفكّر في آلاف السنين من الطب الصيني التي بلوَرت هذا الفن الشرقي

Twitter: @ketab_n

الشبيه بالسِّحْر. طلبتْ مني البقاء في مكاني والاسترخاء ريثما تأتي المُدَلِّكة لإجراء المَسّاج. كان عقلي قد اغتسل في سُبات الإبر فلم يبقَ فيه أثر لفكرة مُشاكسة أو مُزعجة. إنها حالة يذوبُ فيها الوعي في الجسد فيتحول إلى تَخَفُّف لاهٍ لا يأبَهُ لشيء وتتعطل قدرةُ الهَمّ على التسلل أو المناكدة.

انفتح بابُ الغرفة ودخلت المُدَلِّكة المنتظرة. كانت فتاة صينية لم تتجاوز العشرين كثيراً، رشيقة القوام بامتلاء يَشِي بالصحة والطاقة المُعافاة. عليها تي شيرت أزرق وبنطلون جينز قصير ضيِّق يصل إلى الركبتين لا يتجاوزهما وقد شدّت شعرها الأسود الناعم في ذيل ينتصبُ فوق رأسها كالتاج. حيّتني بابتسامة مهنية محايدة وطلبت مني أن أنقلبَ على بطني فعدت أواجه بلاطات الغرفة من خلال فجوة السرير، ولاحظتُ لأول مرة لونها الحليبي المائل إلى الاصفرار. بدأت كفاها تتحركان على ظهري وذراعي بمرونةٍ ثم نزلت إلى ساقي ولم تتردّد في تدليك الأليتين. أغمضتُ عيني وأسلمت نفسي لمزيدٍ من الارتياح، وكانت هي تتحرك بنعومة لا تخلو من الشدّة. عندما مِلْتُ برأسي جانباً وقع نظري على تَقَوُّس سُمانة ساقها اللذيذة الممتلئة وكانت يدي تتدلَّى مرتخيةً قربها. ولا بُدَّ أن شيطاناً صغيراً، ربما كان الشيطان الذي زرعته وصايا فرحان، دفعني إلى أن أحرك كفي المتهدِّلة قريباً من الأرض فلمست ذلك القوسَ النافر لمساً خفيفاً. لم يبدرْ عنها أي اعتراض واستمرت بعملها بصمتٍ كامل وكفاءة تثيرُ الإعجاب.

طلبت مني أن أنقلبَ على قفاي فواجهتها والتقت العيون. كانت ملامحها متناسقةً جميلةً أضفى عليها الشباب سحراً لا يقاوم، ولاحت في عينيها السوداوين نظرة متسائلة تخلو من الابتسام. واصلتْ تدليكي بشدّتها الناعمة، وحين وصلت إلى أسفل الحوض لم تتردّد في لمس الأعضاء التي تعطلت لسنين لمساً خفيفاً تصادفياً يدّعي البراءة، لكنه كان كافياً لبثّ الحياة هناك فرفع النائمُ في كهفِ الإهمال رأسه غير مصدّق وأدركتُ أنه لن يخجلَ أو يترددَ وقد سطع عليه نورُ الشمس القادم من خارج الكهف. كل

Twitter: @ketab_n

هذا دفع يدي التي حصلت على استقلالها التام خلال دقائق إلى لمس الذراع البضّة التي كانت تتحرك في انهماك تام فوق جسدي. قالت لي دون أن تتوقف عن الحركة وهو تصوّب نظرها نحوه:

- هل تريد أن ...؟

كانت إنكليزيتها ركيكةً جداً لكني فهمتُ ما تعنيه فأجبت بهدوء:

- نعم.

أعلن صوتها وهي مستمرة في انشغالها:

- عشرة ريالات.

سقط الرقمُ عليّ كماء بارد وأيقظني. لم أكن أهتمّ بالمبلغ نفسه ولكن بالحقيقة التي كشفها الإعلان، حقيقة أن هذه الراحة طِبِّيَة لا عاطفية. داخلني نوع من الانزعاج وجدته غريباً بعد ما جرّبت من استرخاء وتخفف، أجبت لمجرد المشاكسة:

- خمسة.

رَدَّت دون أي تردد: أوكي!

ولم تتأخر في مدّ يدها إلى هناك، إلى حيث سؤال الجسد المعلّق منذ سنين. كان يرفعُ رأسه وقد بثّ فيه الخدر المستريح طاقة خارقة فكأن تلك القوة المُدَمِّرة التي ظلت تعذّبُ الجسد وتشقيه تراجعت وتحولت إلى طاقة حميدة وهي تتجمعُ فيه. كان يقف منتصباً بانتظارها فغطّته بزيت كان معها ثم دلّكته بالطريقة نفسها التي دلّكت بها الساقين والذراعين، وبدا واضحاً أنها تستعجلُ التفريغ بينما أنا أتلوى تحت موجات الانتشاء المتصاعدة في جسدي كله. وقد لاحظتْ هي ذلك فأدنت رأسها مني ورفعتُ رأسي والتقت شفاهنا في قبلة لم تكن طويلة. فوجئتُ بطعم التبغ ورائحته في فمها، لكن ذلك لم يمنعني من بلوغ الذروة بين يديها، وقد التقطت هي شاشاً طِبِّيّاً لتحتوي الينبوعَ المتفجر.

Twitter: @ketab_n

لم يَطُلْ بقاؤها بعد ذلك. جمعت عدّتها من الزيوت والحاويات وظلت واقفةً تتطلع نحوي دون أن تبتسم. استغرق الأمر وقتاً لأدرك أنها تنتظر مني دفعَ الريالات الخمسة، فقمت من مكاني وارتديت السروالَ الداخلي (لم أجرؤ على المشي عارياً أمامها) وأخرجتُ من محفظتي عشرة ريالات. تساءلت عيناها عن المبلغ المتبقي فقلت دون أن أبتسم:

- كلها لك.

تقدّمت مني وقبلتني على شفتي قبلةً خاطفةً وهي تعبّر عن شكرها، وسرعان ما باشرتُ بارتداء ملابسي.

Twitter: @ketab_n

16

حين خرجتُ مع فرحان من العيادة كانت غُلالة من ضوء المغيب الحالم تلفّ بنايات الخوير الكونكريتية العالية، لكن صورةَ الأشياء في عينيّ بدت أوضح من المعتاد وأصفى. تخلل جسدي نشاط جديد وخفّة في الحركة نزعت عن العالم حولي رتابته وغسلته من غبار العادة المتراكم عليه. كان فرحان لا يقلّ عني خفةً وانبساطاً فكان سيرنا إلى السيارة يشبهُ القفزَ المرح. التفت فرحان نحوي ثم قال مخاطباً طرفاً ثالثاً تخيّلهُ يسير معنا:

- انظر . . . انظر إلى وجهه، ألم يخلق من جديد؟ كل هذا مقابل خمسة وعشرين ريالاً فقط.

قلت أصحح له:

- خمسة وثلاثون، لقد دفعت عشرة فوق الفاتورة.

تطلع إليّ وعلى وجهه ضحكة مندهشة:

- فعلتها؟ . . . الآن فقط يمكن أن أقول إنك بمستوى التحديات.

حين صرنا في السيارة طرحت عليه السؤال المؤجل:

- قلت إنك بلغت أحد الشياطين. أي شيطان كان حِصَّتك؟

- وي أون ذاتها لا سواها.

جاء الإعلان بما يشبه الهتافَ الفخور.

- هل أنت جادّ؟

- كل الجِدّ. الطريقُ إلى الصغيرات صعب فهن يخشين أي نشاط خارج العيادة، ورغم أني تماديت كثيراً داخلها فإن الأمر لم يصل إلى

Twitter: @ketab_n

المستوى الشيطاني الأقصى. لم يبقَ أمامي إلا جس نبض الشيطان الأكبر وي أون نفسها. وقد رأيتها أنت الآن، تبدو جادة حاسمة بالرغم من رقّتها ولطفها. أقنعتها في البداية بأن تكونَ هي دون سواها مُدَلِّكتي.

كانت السيارة تتلوى في شوارع الخوير الجانبية الضَّيِّقة. أطلق فرحان ضحكةً عاليةً وترنّم بعد عبارته الأخيرة بأغنية أم كلثوم محوّرة بحسب مزاجه "مُدَلِّكتي بالوصلِ والموتُ دونَهُ" ولم أجد صعوبةً في مشاركته في الضحك وقلت أستزيده:

- وهل وافَقتْ؟

- بكل سرور! لقد عدّت ذلك الطلب غزلاً لذيذاً بها، فأن أطلب امرأة اعتصرت أفضل ما في الأربعينات بدلاً من فتيات ما زال الصبا يتقافزُ حائراً في أجسادهن لهو غزل وأي غزل.

- وهل دفعت لها العشرة الإضافية؟

نظر إلي وقد لزم صمتاً مفاجئاً ثم هتف:

- غشيم! ستبقى مبتدئاً. لم أدفع شيئاً، لكني لمستُ ساقها عن طريق المصادفة، ثم بتعمُّد. وقد لاحظتْ هي ذلك ولم تعلّق إلا بضحك متواصل وحديث ناعم عن ضرورة رعاية الجسد. وهكذا انتهى الأمر في العيادة فهي تحترمُ مهنتها كثيراً.

- هل حدث أمر آخر خارجها؟

- في تلك الليلة بلغني منها اتصال تلفوني من العيادة حوالى التاسعة ليلاً واعتذرت لإزعاجي لكنها طلبت مني أن أوصلها إلى شقّتها لأن السيارة ليست معها ولا تريد أن تقصدَ البيت بتاكسي في هذه الساعة المتأخرة.

بقيت أنظر إليه متوقّعاً المزيد، لكنه صمت وظل يتابع الطريق. حين لاحظ انتظاري صاح:

- ما بك؟ ألا تملك خيالاً يساعدك ويساعدني؟

Twitter: @ketab_n

كان الزحام شديداً في شارع السّلطان قابوس، ومع التأخير تشعّب الحديثُ فقال فرحان على حين غِرَّة:

- هنالك خبرٌ سعيد من العراق.

كان فضولي شديداً لمعرفة هذه الأعجوبة، فالأخبار من العراق بالنسبة إلي أبعد ما تكون عن السعادة. قال:

- أخي عدنان هل تتذكره؟

- بالطبع. هل تزوج أخيراً؟

- تزوج ورزق طفلاً. ولداً!

ارتسمت على ملامح فرحان لأول مرة فرحة ممزوجة بالجدية، وكنت قد لاحظت أن أفراحه السابقة كانت كلها وليدة لهو ولامبالاة متعمَّدة. أدركتُ طرافة الخبر الخاصة لأني أتذكرُ أحاديث فرحان في سنوات عملنا في ليبيا عن أخيه عدنان الذي ولد فاقداً القدرة على الكلام يعاني بُكْماً تاماً. انشغل فرحان بأمره حيناً انشغالاً يومياً لأنه كان يتابعُ من صحراء البُرَيقة خطوات زواجه. عرض عليّ ذات مرة صورة شاب وسيم وسامة مميزة بعينين عسليتين وتسريحة ناعمة، بدا طويلاً رشيقاً تملأُ الصورة نظرته الصامتة الواسعة، وكان ذلك هو عدنان. قال إنهم أرسلوه إلى معهد الأمل في بغداد ليتعلّم لغةَ الصُّم والبُكم وإنه أبدى تَفَوُّقاً في سرعة التعلم ومهارة الحديث بيديه وأصابعه. لكن النجاحَ الأعظمَ كان لقاؤه فتاة رائعة الحسن (أكّد عدة مرات أنها شقراء زرقاء العينين بفخر ورضا)، وبالطبع كانت هي بَكْماء مثله.

قال فرحان كمن يفكّر بصوت عالٍ:

- كلنا متشوقون لمعرفة ما سيحدث.

أدركت ما يعنيه، فلا بد أن ولداً من أبوين لم ينطقا يوماً كلمةً واحدةً سيكون بالنسبة إلى الأبوين أملاً في استعادة النطق بلسانه بعد الصمت الذي كبلهما عمراً بأكمله. قلت:

Twitter: @ketab_n

- الأمل كبير في أن يكون كعمه بلسانين.

قال فرحان بجدّية وتقوى لا يجد صعوبة في الانتقال إليهما:

- إن شاء الله.

ساد صمت قصير انشغلت فيه بتأمل الاحتمالات أمام هذا الوليد. كان أول صمت جادّ في لقائنا. قطع الصمتَ صوتُ فرحان الهادئ:

- يقال إن أصلع تزوج امرأةً صلعاء، وعندما رُزِقا طفلاً لوحظ أن في رأسه شعرتين فقط. هل تعلم ما اختاروا له من اسم؟

- ماذا؟

- سُمّي "أبو كفشة".

ضج جوف السيارة بضحك صاخب، متخفِّف لاهٍ. لا أعرفُ شخصاً له قدرة فرحان على التنقل بين مختلف الأمزجة بهذه السرعة والمرونة.

ودّعت فرحان واستويت على مقعد القيادة في السوناتا وبدأ عزف محركها. لم يتمكن التوفّز الذي يصاحبُ السياقة عادة من تبديد ذلك الإحساس المستريح الذي تملّكني. هنالك صفاء من ذلك النوع الذي يعقب نوماً عميقاً ويسبق السقوط في شبكة المشاغل اليومية. وهي حالة اعتدت أن أَمُرَّ بها مروراً خاطفاً إذ سرعان ما تتبخرُ كأنها لم تكن. هذه المرة لزمني الصفاء والصحو كأنه صار صفةً دائمةً في إحساسي بالعالم. وقد عجبت لذلك وأمضيت الطريقَ الطويلَ إلى صُوْر مستغرقاً في تداعيات مستريحة عن فحوى هذه النشوة مدفوعة الثمن. من المؤكد أن ما حدث في عيادة الطب الصيني كان تمثيلية غايتها الترفيه وقد قام الممثلون بدورهم على أحسن وجه. لكنّ ما فاجأني هو عمقُ الراحة التي حققتها تلك الصفقة الصغيرة في العيادة. كنتِ أعتقدُ دائماً أن مثل هذه الأحاسيس الطيبة لا تتحققُ إلا بفعل تجربة صَمِيميّة عميقة، وأن المتعةَ التي يشتريها الناسُ بالمال وممارسة القوة والنفوذ تبقى معطوبة بخلل جوهري يفقدها القدرة على الإشباع. أما ما حدث فدليل على أن لأجسادنا منطقها البدائي الأعمى وهي تستجيبُ لِلَّمسة

Twitter: @ketab_n

والهَمْسة والمُواساة المُصْطنعة دون أن تعبأ بسؤالِ المصداقية. أتذكر في مراهقتي أني كنت أكررُ باستنكار شديد، كلما شاهدت فيلماً مصرياً يصرّ فيه رجل قوي قبيح على إجبار حسناء رقيقة على الزواج به، سؤالاً غاضباً "ما فائدة الفوز بامرأة ضد إرادتها؟". الآن أدرك بعد عمرٍ طويلٍ أن أولئك الأقوياء الشرسين كانوا أعرف مني بأسرارِ الأجساد حين تلتقي. إن لها منطقها الشيطاني الأعمى.

أتاح لي الطريقُ الممتدّ في اللانهاية وقد تكاثفتْ عليه ظُلمةُ المساء وكاد يخلو من السيارات أن أنصرفَ عنه إلى متابعة تداعياتي تلك إلى زواياها الصغيرة. لقد قدّم فرحان دون أن يدري إجابته الخاصة عن سؤال تدجين المنفى، المغامرة هي ما يُدَجِّن المنفى، لا بد من قبول تقلباته وسبخ تُربته التي تعجزُ جُذورنا الضامرة عن اختراقها والرُّكون إليها. هنالك شيطان في المنفى لا يكشفُ مفاتنه إلا لمن يدخل اللعبةَ معه ويألفه. أعلم الآن بعد انقضاء مغامرتي في صُور أن هنالك كتّاباً وشعراء أدمنوا المنافي حتى صارت وطناً بديلاً لا يبررُ نفسه عبر ما يوفِّر من رتابةٍ مستريحة تترسّبُ في نفوس مطمئنة في أوطانها، بل عبر حياة المغامرة والتقلُّب وإطلاق العَنان للجسد كي يستقل عن هموم العقل في مُتَعٍ عمياء باهرة. أليس هذا ما كان يقصده الروائي التشيكي الفرنسي ميلان كونديرا في مقالة كان يُعلِّق فيها على رأي الشاعرة التشيكية فيرا لنهارتوفا التي ترى في المنفى نوعاً من التحرير، عيشاً خارج القيود التي تفرضها المجتمعاتُ على الفرد وأنه يناسبُ الأديب على نحو خاص لأنه يتحرَّر به من أعباء الحياة في الوطن الأصلي ومن الأعباء التي تُثقلُ وجود مواطني البلد الذي حطّ فيه رحاله؟ المنفى بالنسبة إليها وإلى كونديرا نوع من اللاانتماء يطلق الروح في مغامرة أزلية. يعلقُ كونديرا في مقاله ذاك أن هذا السببَ هو ما منع المهاجرين التشيك من العودة إلى وطنهم بعد سقوط الشيوعية. لقد استهوتهم مغامرةُ المنفى وارتضوها وطناً بديلاً. كنت قد عثرت أثناء زيارة لدمشق أواخر التسعينيات على ديوان صغير للشاعر العراقي سعدي يوسف الذي أدمن

Twitter: @ketab_n

المنافي طوال حياته حتى مُسِخَ الوطُن لديه ثيمةً شعريةً تُحَرِّك مُخَيِّلته لا كياناً واقعياً يفرض عليه التزاماً يُقيِّدُ روحه المغامرة. كان عنوان الديوان "أيروتيكا" وقد كُتبت قصائده خلال التسعينيات، في أثناء مِحْنة الحصار التي توّجت حربين مدمّرتين قتل فيهما مئات الآلاف وشُرّد الملايين، وكُرّست لمَسَرّات الجسد العمياء وزيّنته رسوم أيروتيكية لأجساد أنثوية عارية بريشة الرسّام العراقي المعروف جبر علوان الذي أدمن المنفى هو الآخر لعقود حتى صار الوطن بالنسبة إليه همّاً للرأس لا يفسدُ على الجسد غوايته العذبة. أتذكر صدمتي وأنا أتصفّح الديوان في غرفة ضَيِّقة في أحد فنادق دمشق الرخيصة. شعرت حينئذٍ وأنا أقرأ الديوان كمن يراقبُ عجوزاً طاعناً يمارس الجنس. إذ بينما تثير مراقبة الشباب شهيتنا إلى الحياة والوصل فإن المشاعرَ التي تثيرها مشاهدة الشيوخ في فعل كهذا لا تحمل أية شحنة أيروتيكية. الغريب أن شهاب دافع عن سعدي يوسف وجبر علوان وردّ على ملاحظتي، كنت يومئذٍ في دمشق وكان لا يزال في لوفن، قائلاً إن الديوان يرفعُ رايةَ الحياة في وجه الموت. كانت المناسبة لتعليقه أني شعرت بعد أيام في دمشق بالضِّيْق بالرغم من زحام المدينة وحيويتها. وقد اقترح عليّ شهاب اثنين من أصدقائه يمكن أن يوفّرا لي صحبةً طيبة. كان أحدهما الفنان جبر علوان وهو ما أثار سؤالي عن الديوان، لكنني اخترتُ الآخر، شاكر الأنباري، وهو روائيّ عراقي مهموم قلّبت معه كل وجوه المأساة. يومها أقنعني دِفاع شهاب عن الديوان؛ ربما تكون الأيروتيكا ذروةَ التنكّر للموت، أما الآن فأنا أجدُ هذا الميل إلى تصعيد الأسئلة من مستوى الشعور الإنساني الفردي البسيط إلى ذُرْى استعارات بعيدة تختزل الوجود ضرباً من القسوة.

حين أُحصي سنوات غربتي التي سبقت وصولي إلى صُور ومغامرتي فيها، أكتشفُ أنها كانت ثلاثة عشر عاماً، وهو رقم يتطيَّرُ منه الكثيرون. كان موعد ذلك التخمر الغريب في كيمياء المنفى الذي يحرر الجسدَ من أغلال الهَمّ قد آن أوانه.

Twitter: @ketab_n

17

دخلت مكتبي الذي انتقلت إليه ساندرا قبل أيام محمولاً على نشوة زيارتي الأخيرة إلى مَسْقَط. كان المكتب مُعْتِماً يعتمدُ كثيراً على ضوء شموع النيون الأربع في السقف، ولولاها لكانت شجرةُ الكالبتوس التي شبكت أغصانها على نافذته الوحيدة قد حَوَّلته إلى كهف مظلم. لم أنتبه إلى هذه العلّة في المكتب إلا بعد حين. وجدته في البداية بعتمته الشفيفة ومنظر الأوراق الخضر على نافذته في مدينة قاحلة يندرُ فيها مشهد الأشجار مكاناً منعشاً هادئاً أستظل به من حرّ صُور وضَياعها القاحل بين البحر والصحراء.

ولم يبدُ على ساندرا نفسها ما يدلّ على أنها لاحظت عيباً في عتمة المكتب الخانقة في البداية، لكنها أعلنت عندما ثار غضبها فيما بعد وقررت الانتقال إلى مكتب آخر أن المكتبَ يبدو مثل حانة مظلمة دون خمر.

وجدتُ ساندرا تقف في الزاوية التي وضعنا فيها آنية إعداد الشاي، وكانت تسكب ماءً ساخناً على كيس صغير من شاي عشبي لم أتبَيَّنه. انفرجت أساريرها عندما رأتني، وهي عادة لاحظتُ أنها تستقبلُ بها كل من تصادفه، يضيء ملامِحَها انطباعٌ حيوي بالدهشة والفرح ثم تطلق تحية كالهتاف. قالت وهي تتطلع نحوي:

- تبدو منشرحاً.

جلستُ إلى مكتبي بنشاط ولم أشأ ذكر مغامرتي المَسْقَطِيّة أمامها. قلتُ بحياد إنه صباح جميل. التقطت كوبها وجلست أمامي إلى مكتبها. لم تكن منذ انتقلت إلى المكتب تفوّت فرصةً لتبادل المعلومات معي. بالنسبة إليها كما هي الحال مع كل قادم جديد إلى مكان غريب، تُعَدُّ أبسط التعليقات، كقولي مثلاً صباح الخير بنبرة منشرحة، معلومة مهمة تعني شيئاً.

Twitter: @ketab_n

أتخيل الآن أن امتداحَ الصبح مثلاً قد نقل إليها معلومةً أني في مزاج منبسط يسمحُ لها أن تطلب مني بنعومة وتواضع أن تضعَ رقم هاتفي النقّال في معاملاتها الرسمية والتجارية في صُور، واستدركتْ أنها لا تتوقعُ اتصالات كثيرة عُمُوماً وأن الأمرَ لا يعدو الروتين. وافقت في الحال وبدأتُ أرشدها إلى كيفية الحصول على تلفون بأسرع وقت في محاولة للتعبير عن تعاطفي معها في البقاء دون تلفون، لكنها فاجأتني بموقف متشدّد من جهاز الهاتف النقّال يصل إلى حد القطيعة بالرغم من التعقيدات التي يسبّبها ذلك في مجال التواصل بينها وبين العالم المحيط بها. قالت حينئذٍ وهي ترشف شايها وتلمعُ في عينيها نظرة شك وتحذير:

- الهاتف النقّال هذا لا يختلفُ كثيراً عن التدخين. في البداية أَصَرَّ دُعاةُ التدخين أنه يخلو من الأضرار الصحية حتى انتشرت العادة بين الناس كالنار في الهشيم. اليوم تأكّد بالدليل القاطع أن التدخينَ مصدرُ هلاك أكيد للإنسان وصارت شركاتُ التبغ تدفع تعويضات بالملايين للمتضرّرين منه. صدّقني لن يمرّ وقت طويل حتى يأتيك الإقرار المُبَرْقَعَ بأسف منافق أن هذا القاتل الأنيس مِعْوَلٌ يهشّم دماغَ الإنسان.

قالت ذلك وهي تشيرُ إلى تلفون نوكيا الرمادي الذي وضعته أمامي على المكتب. قلت مازحاً:

- وما ستفعلين لو نجحتِ في إقناع كل معارفك بصحة هذا الرأي؟

تلاشت نظرةُ التحذير من عينيها وعاودتها ابتسامتها اللاهية:

- عندئذ أكون قد أعدت الاعتبار إلى التلفون الثابت ويكون بإمكاننا إقناع شركة فكتوريا أن تزود الشقق بخطوط تلفونية.

انتبهت وأنا أتابعُ حديثها أنها كانت ترتدي قميصاً أزرق باهتاً من الكتان، وتحمل في يدها شاياً عشبياً، وتهاجمُ بمرارة أحدث ابتكار في ثورة الاتصالات. قلت وأنا أستندُ إلى المكتب في استرخاء وتخفف:

- يبدو أنك من أتباع روسو والعودة إلى الطبيعة.

Twitter: @ketab_n

هتفت بفرح وفخر:

- أكيد. أنا أعشقُ الطبيعةَ والطبيعي وأكره تذاكي الإنسان الذي صار يُسرع بنا نحو الهاوية. انشغلت لسنوات بموضوع البيئة والاحتباس الحراري، لكن ذلك كان مدفوعاً بضجري كأمّ وحيدة خلال تلك السنوات. لم أجد ما أفعل غير ذلك.

ابتسمت وهي تقول ذلك. يمكنُ لساندرا أن تسخر مما تفتخر به، تهبط بما تُعلي من شأنه من عليائه إلى حقائق الحياة اليومية البسيطة. وهو أمر أعجبني فيها وجعلني أصغي بفضول لما تقول. قالت وقد تحولت النظرة الثعلبية الماكرة في عينيها إلى تأمل مستكين:

- عشتُ لخمس سنوات متفرِّغة للعناية بابني بيلي في مدينة صغيرة في بيرث. لا يمكن أن تتخيلَ هذه المدنَ الأوسترالية الصغيرة؛ رتابة الحياة وولع الناس بالصغائر، والأدهى برود الرجال الذين تعفّنت البيرة في عروقهم. هل تصدّق أني عشتُ تلك السنوات أتنقلُ في المدينة طولاً وعرضاً دون أن أسمعَ كلمة إطراء أو غزل من رجل قط؟ وعليك أن تتمهل ولا تقفز إلى النتائج. كانت تلك شكوى كل من التقيت من النساء في المدينة. الرجال مَلّوا كل شيء ولم يبقَ لهم إلا أكواب البيرة وثرثرة الحانات. المرة الوحيدة التي سمعتُ فيها إطراءً يشارفُ حدود الغزل كانت في مطعم صغير، وقد صدر عن النادل. ولا أدري إن كان يعنيه أم أنها كانت مجرد مجاملة يحاول بها تحسينَ الخدمة التي يقدّمها.

ضحكت وهي تضيفُ العبارةَ الأخيرة. سألتُ لإظهار تضامني:

- وكيف كنت تمضين وقتك؟

- القراءة ومحاولة الكتابة.

- هل أنت كاتبة؟

قالت بتواضع وهدوء:

- لم أنشر شيئاً مما كتبتُ. لدي رواية أمضيتُ عاماً في كتابتها بعد أن

Twitter: @ketab_n

حصلت على معونة من مجلس المدينة لدعم الكتّاب الجُدُد لكن الناشرين يبحثون عن شيء آخر عدا حياة إنسانة وحيدة معزولة. سأعرضها عليك يوماً ما دمت تعشقُ القراءة أنت أيضاً، وأتمنى أن تفصلَ بيني وبين الناشرين.

رحبت بذلك وأردفت هي بنبرتها التأملية:

- القراءة والانتظار... هل قرأت "في انتظار غودو"؟

- مسرحية بيكيت؟

- نعم! تعجبني سعةُ اطلاعك. لقد عشقت تلك المسرحية لأنها تُعَبِّر تعبيراً دقيقاً عن حالتي المضجرة في تلك المدينة الصغيرة. الانتظار قَدَرُنا جميعاً... حياتنا انتظار طويل تتوزع عليه محطات براقة خاطفة من تجارب غنية متوهّجة نتزوَّد بها لتحمّل انتظارٍ جديد.

- هل تقصدين بالمحطات الخاطفة المغامرات؟

برقت في عينيها نظرةُ اكتشاف:

- بالتأكيد. الانتظار والمغامرة. أليسا خلاصةَ الحياة بأسرها؟

سألتها وقد استهوتني الفكرةُ بعدما خطر لي في طريق العودة من أمسية الطب الصيني:

- هل أفهمُ من هذا أن ما دفعك إلى صُور سَأَمٌ من الانتظار ورغبة في المغامرة؟

لم تأتِ الإجابة مباشرة. ظلت تُحَدّق إلى بقعة أمامها وتفكر ثم قالت:

- هذا صحيح. لكن ما دفعني إلى هنا، إلى الشرق، أكثر من ذلك. هل تعلم أني أمضيتُ صِباي في اليمن؟ عودتي إلى هنا تعدّ نوعاً من البحث عن الجذور. كان أبي يعمل مرشداً زراعياً للأهالي في عَدَن أثناء فترة الحكم الاستعماري البريطاني لليمن. وقد أمضيت في عَدَن كلَّ صِباي مع أخوتي الثلاثة وغادرتها عندما اندلعت الاشتباكاتُ بين القوات البريطانية والأهالي. كانت أياماً مرعبة. لم يصدّق أحد من العائلة أن ينقلبَ الأهالي

Twitter: @ketab_n

ضدنا بتلك الطريقة. لقد هوجم بيتنا وحاولوا إحراقه. لكني بقيت أحمل معي صوراً كثيرة أخرى لحقول اليمن الخضراء وسمائه الصافية. أحلم بزيارة اليمن وعَدَن على وجه التحديد، لكن الأوضاعَ هناك ليست آمنة تماماً بالنسبة إلى السُّيّاح الأجانب كما يبدو.

قلت أشاكسها:

- لكن مثل هذه الزيارة ستكونُ مغامرةً حقيقية.

قالت تعترض:

- هل تسخرُ من حاجة الإنسان إلى المغامرة؟ أَلَمْ تشعر أنت نفسك بالحاجة إلى تغيير حياتك في صحراء شركة النفط التي كنت تعمل فيها؟ ألم تكن حياتك هناك انتظاراً، ألم تكن تنتظرُ غودو المغامرة أنت الآخر؟

- لا أنكر ذلك، لكني لا أعرفُ نوع المغامرة التي يمكن أن تحقق التغييرَ بالنسبة إلي. حياتي سلسلة من مغامرات تعسة مفروضة عليّ، حروب وإخفاقات وقلق على ما يمكن أن يحدثَ للعراق. ربما تكون حالتي معكوسة، ربما يكون ما أسعى إليه هو النقيض تماماً. ربما أكونُ بحاجة إلى حياة رتيبة خالية من القلق وخشية وقوع الأسوأ.

قالت ساندرا وقد بدا أن الحوارَ يقدّم لها صحناً شهياً من التأملات:

- هنالك مصدر واحد يجمعُ النقيضين.

- أي نقيضين؟

- الرتابة التي تسعى إليها وروح المغامرة.

- وما هو؟

- المرأة. أنت بحاجة إلى امرأة تحتمي بها من همومك ومشاغلك.

ضحكتُ بفتور وقلت بحسم:

- هذا أبعد ما يكون عني. نقاهتي من مُعضلة الزواج لم تتم بعد. ولتعلمي أن المرأة صِنْو المغامرة والتقلُّب ولا يكون للعلاقة بين الرجل والمرأة طعم

Twitter: @ketab_n

ولذّة إلا إذا تخللها شدّ وجذب. ولأني أشعرُ بالتعب من كل أنواع الشدّ والجذب وأبحث عن الاستقرار والرتابة فقد شطبت هذا الاحتمال.

قالت باستنكار:

- هل أنت متأكد أنك ستقضي ما تبقى من حياتك دون امرأة؟

- هذا ما أنا مقتنع به الآن.

خطر لي وأنا أشدّد على زُهْدي بالمرأة أن في ما أقول شيئاً من النِّفاق. هل كنت سأدَّعي هذا لو كانت المرأة التي أحدّثها تحمل بَهاءَ بَتُول وسِحْرَها مثلاً؟ وماذا عن أصابع المُدَلِّكة الصينية التي زرعت في جسدي بذورَ الرغبة المحمومة؟ ارتسم على وجه ساندرا استغرابٌ أقرب إلى الغضب. هل كنت أسيء إلى أنوثتها كما كان يفعل رجالُ مدينتها الذين تعفّنت البيرة في عروقهم؟ لم تتمكّن ساندرا لسبب ما أن تدفعني إلى الشروع في المغامرة المنتظرة. ربما لأنها تفتقدُ مستوى الجمال الذي اعتدت الاستجابة له، أو ربما لأنها كانت تتقدمُ نحوي بسرعة ودون حواجز. كنت راغباً في مزيد من الانتظار وأنا أتحسّس حاجتي إلى المرأة، تلك الحاجة التي ظلت مدفونةً لسنوات بعد الطلاق في عزلة الصحراء الليبية وتحت شظايا الانفجار العراقي التي ظلت تتساقطُ فوقي دون توقُّف وتَرْجَمَ الجسد فَتُسكت شكواه. كنت بعد الطلاق كمن تخلّص من ضرس مسوّس أذاقه مُرّ العذاب، لكنه بالرغم مما لاقى من عذاب بسببه يبقى يتحسس بلسانه الفراغ الفاغر الذي تركه بين حين وآخر. وقد ملأني حدسٌ غريب أن المغامرةَ تنتظرني عند أول مُنْعطف على الطريق. وهذا ما حدث في نهاية الأسبوع نفسه. ختمت ساندرا حديثنا بسؤال يخص سَفْرةً إلى رأس الحدّ رتّب لها بعض الأساتذة ودُعيتُ إليها. سألتْ ولم يَخْلُ صوتُها من خيبة:

- هل علمت بسَفْرة رأس الحدّ؟

قلت نعم وقد دُعيت إليها، فأجابت باسمة:

- سأكونُ هناك أيضاً.

Twitter: @ketab_n

18

صحوتُ صباح الجمعة وأنا أستشعر انتصاباً غير مفهوم ورغبةً حائرةً لا تعرف لها هدفاً. صار هذا يحدث له مؤخَّراً منذ أيقظته تلك الأصابعُ الصينية المحايدة. لم أكد أنتهي من فطوري حتى اتصل جورج حداد وقال إنَّ سَفْرة رأس الحَدّ قد تقرَّرت اليوم. وقد عجبت لذلك وسألته عن سبب تغيير الموعد فقال إن الأساتذةَ اجتمعوا أمس في المطعم السوري واتفقوا على الانطلاق اليوم. حدستُ أن السببَ في هذه المناورة قد يكون استبعاد بعض الأشخاص غير المرغوب فيهم من قبل منظّمي السفرة، خصوصاً وأن العددَ تزايد حتى كاد الجمع يصبح زحاماً لا يُعرف رأسه من قدميه. أبديت استعدادي للذهاب دون تردد، فطلب مني جورج أن آتي بسيارتي إلى فندق شاطئ صُور المُطِلّ على البحر في العاشرة صباحاً، وهو مكان التجمع والانطلاق.

يقع الفندقُ في نهاية كورنيش صُور المرصوف ببلاط ملوَّن يمتدّ بموازاة الساحل بانتظام وَدَعَةٍ. والفندق أحدُ المعالم السياحية للمدينة يقصده الكثير من السُّيّاح، وهو المستقرّ الأول للأساتذة الأجانب الجُدُد الذين يصلون بعقود مع شركة فكتوريا النيوزلندية/العُمانية المشتركة المتخصصة بالعقود الخاصة. كان يوماً صحواً تنطلقُ فيه الشمس في سمائها دون عائق وتبث حرارةً عُمانية مميّزة تشارف حدودَ القيظ. جَوُّ صالة الانتظار منعش خافت الإضاءة تتوزَّع فيه مقاعد جلدية فاخرة، انتشر عليها الأساتذة في أماكن متباعدة. ولا أدري ما الذي جعل أريكا جونز أول من وقع عليه نظري؟ ألأنها كانت الأوفر جمالاً وصِباً أم هو وهمٌ لاحق وأن

Twitter: @ketab_n

نظري وقع في البداية على شيء آخر؟ المؤكد أن أريكا البريطانية القادمة من نوريتش كانت محطَّ الأنظار في تلك السَّفْرة. قوامها الممشوق الطويل الذي لم تمنع عنه الرشاقةُ الامتلاءَ الصحيح حيث يكون مطلوباً، وبشرتها الصافية الناعمة البيضاء التي لا تشوبها شائبة، وملامحها التي، بالرغم من أنها لا تعدّ استثنائيةً بمقاييس الجمال الأنثوي، كانت تفيضُ حيويةً وصحةً وشباباً واستجابة. ثم أنها كانت ترتدي ثوباً يغلبُ عليه اللون الأحمر! كانت مدهشة في محيط تُختزل فيه الألوان كلها إلى الدشداشة البيضاء والعباءة السوداء. وكانت الدهشة بالنسبة إلي مُضاعَفة، فأنا قادم من الصحراء الليبية ذائعة الصيت بعد أعوام من العمل في محيط ذكوري بحت. ثم الإبر الصينية اللعينة! ولكن يجب أن أتوقفَ عن التبريرات لأن الحالةَ تبقى أكثر تعقيداً مما ذكرت.

لاحظت في الصالة ماثيو كلارك وزوجته جين يجلسان معاً، ثم ساندرا في ركن بعيد تتحدثُ إلى جورج وروجر هوبكنز. على مقعد جلدي طويل جَلَسَتْ ستورمي غريف مع رالف فيليب. أحصيتُ بعد نظرةٍ سريعة ثلاثة من الموجودين لم أكن قد تعرّفت إليهم من قبل بالرغم من أني صادفتهم في الممرّات. وقد جذب نظري روجر هوبكنز حين تبادلتُ وإياه التحية لأول مرة لِما بدا عليه من أدب شديد ودماثة في ردّ تحيتي وتقديم نفسه فعرفت أنه قادم من نيوزلندا. يتميزُ روجر بأنه أكثر أساتذة القسم أناقةً وحرصاً على آداب التعامل مع الناس. يحافظُ على صورة الجنتلمان الذي يتقنُ كل فنون التعامل مع الآخرين. كان نحيفاً دون أن يخرج من فئة الرشاقة ولم أصادفه قبل يوم السَّفْرة تلك دون ربطة العنق. بالمقارنة برالف فيليب الذي لا يفارق بنطلون الجينز والتي شيرت في الكلّية ويبدو مثل صعلوك وسيم تعوّد حياة مثيرة ثم وجد نفسه في قرية وادعة مملّة، يُعدّ روجر مديراً تنفيذياً لا وقت له للصغائر. كلاهما يرتدي الجينز والتي شيرت وإنْ ظلَّ روجر حريصاً على أناقة ملابسه ونظافتها.

ستورمي غريف صديقة مقربة من أريكا، وهي أميركية جامايكية

Twitter: @ketab_n

الأصل عَلِق اسمُها بذاكرتي حالما سمعته لأول مرة لدلالته الطريفة على العصف ولأن إثقال الفاء في لقبها يجعله يعني الحزنَ والكمد. لا تَخفى على أحد ليس لأنها قمر بل لطولها الفارع ورشاقتها الممتلئة المثيرة، أما ملامحها السمراء الأفريقية الكاريبية فيشوبها شيء من الشدّة يقتربُ من الفُحُولة. شعرها الكثيف المُجعَّد تجمعه في عقصة ينطلق منها دغل كَثّ منفلت يوحي بإقدام بدائي.

هَبَّ جورج لتحيتي وأعلن لماثيو وجين أن وصولي وفّر سيارةً أخرى، لكنه كما علمت كان قد اتصل قبل وصولي بصديق عُماني تعرّف إليه مؤخراً ليشترك معنا في الرحلة بنفسه وسيارته. وهو ما يعني ثلاث سيارات كانت أكثر مما نحتاج.

الواقع أن هذا الصديقَ العُماني الذي دعاه جورج في اللحظة الأخيرة أخّرنا نصف ساعة، ثم ظهر على مدخل الفندق بتي شيرت وبنطلون جينز قصير يكشف ساقين قويتين مشعرتين بكثافة. حين رأته جين دَنت مني برأسها وقالت إنها لا تتفاءلُ خيراً بعُماني لا يرتدي الدشداشة. وسألتها عن السبب فقالت إن من يرتدي الزي الغربي من الشباب العُماني يكون صَلِفاً ومُزْعِجاً وإنها تعرضت إلى الكثير من المضايقات من هذا الصنف الهجين. لكن ظهورَ حَمَد البلّوشي بملابسه الغربية وسمرته الدكناء أثار ردة فعل أشد وأعنف لدى ستورمي صديقة أريكا. تركت أريكا مكانها قرب صديقتها وطلبت من ماثيو أن يأتي إلى ستورمي لأن ثَمَّة مشكلة. علمت من جورج، الذي لا يطيقُ استبقاء خبر في سريرته مهما كان خاصاً، أن ستورمي بعد وصولها بأسبوع خرجت تستكشفُ المدينةَ وتتجول في أنحائها، وكان حَمَد هذا نفسه قد أوقف سيارته قربها ودعاها إلى التجوال معاً فاستجابت له، خصوصاً وأنه كان حينئذٍ يرتدي الدشداشةَ العُمانية والكِمة (وهي لدى ستورمي "كاب"). ولأنها سمعت الكثيرَ عن التقاليد العريقة في البلاد والأمان الكامل فقد استجابت لدعوة منه إلى توسيع نطاق الجولة وسرعان ما اتفقا على الانطلاق إلى منطقة رأس الحد نفسها التي كنا نقصدها. لكنه

Twitter: @ketab_n

بدأ في الطريق يهذي بكلام غير مقبول واجترأ عند الوصول إلى الساحل فمدّ يده إليها، وقد ردعته بشدّة وطلبت منه إعادتها في الحال، فأمضيا طريقَ العودة في شجار ونزاع. سألها ماثيو إن كانت متأكدة أن الشخصَ الذي حضر إلى الفندق هو نفسه من أخذها إلى هناك فقالت إنها متأكدة من ذلك ولا يمكن أن تخطئه. وقد عجبت لهذا الحادث ولم أكد أصدّقه بالرغم من تأكيد حَمَد نفسه لجورج أنه أخذها إلى هناك بطلب منها، وسبب عجبي أن ستورمي تمتازُ بقوة وخشونة لا تَدَعُ لطامع فيها مطمعاً. ولكن يبدو أن حَمَد، كشأن صديقي فرحان، يحمل شبكة في سيارته ولا يهمُّه ما تطرح عليه ما دام سمكاً.

استغرق إقناع ستورمي بالمشاركة في الرحلة بعض الوقت لأنها أصرّت على العودة. وقد خشيت عودتها لأنها قد تعني غياب شمس أريكا معها. أخيراً تقرَّر أن تستقلّ سيارتي مع جورج، بينما تعمدت أريكا مصاحبة حمد نفسه في سيارته، إذ يبدو أن فضولها إلى التعرف إليه غلب رغبتها في إعلان التضامن مع صديقتها. وقد قصد سيارة حمد معها رالف فيليب وروجر هوبكنز. أما ساندرا فقد التحقت بماثيو وجين.

طلب مني جورج أن أسمعه بعض ما لدي في سيارتي من الموسيقى، ولا بد أن ستورمي التي جلست في المقعد الخلفي كانت تتطلع بفضول لمعرفة ذوقي الموسيقي، وهي الميّالة في مظهرها واختياراتها من الملابس إلى لمسة ما بعد حداثية غريبة تجعل مظهرها عَصِيّاً على التصنيف. كنت أحمل كاسيتات لأم كلثوم وعبد الوهاب، ثم ناظم الغزالي وكاظم الساهر، وأحدث ما كان لدي كاسيت حصلتُ عليه في ليبيا للمغنية المغربية الساحرة رجاء بن مليح. لكني كنت أعلم أن شيئاً من هذا لن يروق جورج أو ستورمي، فاستعنتُ بأم بي ثري صغير لا يتعدَّى نصف الإصبع وضعت عليه معزوفات كلاسيكية لباخ وبرامز مع تسجيلات صوتية لبعض سونيتات شكسبير حصلت عليها من موقع على الإنترنت للكتاب المَسْمُوع. أدركت من نظرة خاطفة إلى وجهَيْ مرافقيَّ أنَّ باخ لم يكن الخِيار المناسب لمثل

Twitter: @ketab_n

هذه الرحلة، ولا بد أن مُخَيِّلة ستورمي كانت تضجّ بالألحان الكاريبية الصاخبة الراقصة وهي تنتظرُ مني عرض ما لدي. تحولت إلى تسجيلات شكسبير وكانت نوعية التسجيل ممتازة تامة الصفاء بأصوات متطوّعات أميركيات تعودت أن أُصغي إليهنَّ بطرب حقيقي، لكنني فوجئتُ بستورمي تعلن بدهشة مؤدَّبة أنها لم تفهم شيئاً من الكلام! أما جورج فقد تطلع نحوي بفضول وسألني بحيادية كاملة إن كنت أهوى الشعر الكلاسيكي، كأني قد تورَّطت في أمر لا يريد هو أن يتورَّط فيه. شعرت بالإحراج فلجأت إلى غناء أم كلثوم بحجة أنها تمثل خصوصيةَ المنطقة العربية التي لا بد أن يطّلعا عليها. فقلت اسمعا هذا الشريط! فأصغيا بأدب واهتمام وتركيز لا يتناسب مع استرخاء لحن أغنية "ذكريات" التي كنت أهواها. حين انتهت المقدّمة الموسيقية الهادئة المتأنية الطربية وبدأ صوت أم كلثوم يتعالى بالغناء شَجِيّاً ساحراً سمعت من ورائي صوت ستورمي القوي الصاحي كل الصحو يسألني: هل هذا صوتُ رجل أم امرأة؟ لم تطرح ستورمي سؤالها بدافع السخرية، كانت جادةً في العجز عن تقرير ذلك!

الطريق إلى رأس الحدّ لم يكن أفضل حالاً مما عرضتُ من تسجيلاتي فهو خط الالتقاء المُباشر البسيط بين صحراء ممتدّة في اللانهاية من جهة وبحر فسيح ضائع في اللانهاية من جهة أخرى. وحتى مدينة رأس الحد التي لم ندخلها بل اتجهنا إلى الساحل المُعَدّ للسياح بدت ضائعةً في بحر الرمال حولها. تبعت سيارة ماثيو الذي سبق أن زار المنطقةَ عدة مرات، وقد اتجه إلى فندق سياحي هناك وتوقّف في مرآب صخري للسيارات عند مدخله. حين تركنا السيارات كانت الحركة نشطة والضحكات الأنثوية تُطَرِّز صمت المكان. انتهت بنا الحال إلى تعريشةٍ كبيرة تتوزَّع تحتها طاولات من مختلف الأحجام وكراسي ومصاطب، وكانت تُطِلّ على شاطئ رملي نظيف مُمهَّد أُعِدَّ للسابحين يجثمُ على الماء القريب منه بعضُ الصخور الكبيرة التي لاحظت سابحاً أشقرَ يجلس على إحداها عندما وصلنا.

بدا أن الجميع كانوا في لَهْفة إلى السباحة، وقد اعتذرتُ عن ذلك

Twitter: @ketab_n

لأني لا أجيدها وجلستُ إلى إحدى الطاولات في ظلّ وارِف مُنعش فانضمّ إليّ جورج وحمد، بينما اتجه الآخرون جميعاً بملابس السباحة إلى الشاطئ. سألت جورج عن سبب امتناعه عن السباحة فقال شيئاً لم أفهمه. أما حمد فقد جلس قربي وبقينا لحين نتطلّع إلى مجموعة السابحين المبتعدة نحو الماء تشكل مع الشمس الساطعة والزُرْقة الفسيحة مشهداً واسعاً باهراً. انبثقت الأجسادُ الأنثوية العارية كالمفاجأة في المحيط الرملي القاحل الساكن. ولا جدال في أن أريكا التي تقدمت بثقة وبهاء نحو الماء كانت محطَّ أنظارنا نحن الثلاثة المُعَرِّشين في الظل الوارِف. كانت ترتدي بكيني أحمر لا يخفي الكثير، وظل يلازمني وأنا أحار في تأمل مفاتنها إحساس بأن وجودها في المكان يعدّ مفاجأة، كما لو أنها حورية قذفها البحرُ في لحظة مشاكسة لنفوسنا الظامئة إلى الحُسْن. اكتشفتُ وأنا أتطلع إلى حركة الأجساد المبتعدة نحو الماء أن لساندرا جسداً فتياً مُمْتلئاً رشيقاً هي الأخرى بالرغم مما يبدو على وجهها من عَبَث السنين. أدركت أن الوجهَ في الغرب يهرمُ قبل الجسد على عكس الحالة الشائعة في الشرق.

اختفت الأجسادُ في الماء وصار مُتاحاً للنظر تذوُّق روعة مشهد البحر وشاطئ السباحة المسترخي في شمس ساطعة ضاحكة. كان الهدوء يلفّ المكانَ والطاولاتُ المحيطة بنا تخلو من أي زبون. بقينا نحن الثلاثة وحدنا في ظل التعريشة مصرّين على ملابسنا وجمودنا.

سألني حمد بالعربية:

- هل تعمل معهم في الكلّية؟

قلت نعم، فسألني عن العراق فسارعت إلى القول لأقطعَ عليه فرصةَ إطلاق المعزوفة العراقية في تلك اللحظة بالذات إني قادم من ليبيا حيث أمضيت عقداً من السنين وإني بعيدُ عهدٍ بما يحدثُ في العراق، ثم أردفتُ دون أن أعطيه فرصةَ طرح سؤال آخر بسؤال عن نفسه وعمله، فأجاب بغموض أنه يعملُ في التجارة، فلم أتوقف وأردفت بسؤال آخر إن كان

Twitter: @ketab_n

متزوجاً، فأسرع إلى تلفونه الجوّال وعرض عليّ صورة ابنه التي يضعها على شاشة التلفون قائلاً باعتزاز هذا ابني خليل، ورأيت صبياً أسمر نحيفاً في حوالى الخامسة من العمر يرتدي الدشداشةَ العُمانية والكمة ويقف قرب شخص لم تظهر إلا ذراعه المُغطّاة بِكُمِّ دشداشةٍ أعتقد أنها كانت ذراع حمد نفسه. سرعان ما انطلق حمد يتكلمُ عن ولده وأسرته في محاولة لرسم صورة ربّ العائلة الوقور لنفسه. ولا أعتقد بالرغم من ذلك أنه كان يعلم بالدراما الصغيرة التي أعقبت وصوله لأنه لم يأتِ على ذكر ستورمي طوال فترة وجوده. كان متحمّساً للتعرف إليّ وأدركت أن السببَ قد يكون رغبته في التعرف إلى شخص يصل عبره إلى عالم الخواجات الفاتنات. سألته لأشرك جورج في الحوار عن كيفية تعرّفه إلى جورج فقال إنه رآه ينتظر قرب أسواق كمجيز مع حملٍ ثقيل من التسوُّق باحثاً عن تاكسي لينقله فتوقّف قربه وقرَّر أن يساعده بنقله بسيارته وقد أبدى امتنانه لأن جورج أصرّ على أن يقدّم له قدحاً من العصير. ابتسم جورج بطيبة ومودّة وأثنى على حمد وبدا متحمّساً له. ما عرفته عن جورج يجعل عجزه عن إدراك حقيقة تصيّد حمد لمغامرة بين الأجانب أمراً مفهوماً، فجورج يتأخَّر في إدراك الحقائق، وهي صفة ربما تكون متأصّلةً في ضعف حاسة السمع لديه، العلة التي لم أعرفها إلا عندما اشتركت معه في إجراء الامتحان الشفوي لطلبة السنة التأسيسية.

حين ظهر النادل بعد أكثر من نصف ساعة بدا ظهوره مثيراً للدهشة، فالمكان خالٍ مهجور تماماً. طلبت شاياً لكن جورج طلب بيرة، وتردَّد حمد قليلاً وهو ينظر نحوي قبل أن يطلبَ بيرة هو الآخر. كنت أعلم أن احتساء الكحوليات في عُمان محصور بالأجانب من غير المسلمين وهو ممنوع تماماً ومخالف للقانون بالنسبة للمسلمين، أما حمد ببنطلونه القصير وتي شيرته الأزرق الفاقع تحت تعريشة البحر وأمام الأجساد العارية المتقافزة فقد قرر أن يمارسَ حُرِّيته دون رقيب.

بالرغم مما سمعت عن معرفة جورج بالعربية فإنه لم يخاطبني بها

Twitter: @ketab_n

يوماً. وكان يميل بشغف حين نتحادثُ إلى طَرْق أسئلة السياسة ومشاغلها. وبينما كانت تَتنَاهى إلينا صيحاتُ الانتعاش وصرخات منتشية من الماء انطلق جورج دون مناسبة للحديث عن الحرب الأهلية في لبنان (بالرغم من أن عائلته تركت البلد وهو في الرابعة من العمر)، وعرض عليّ أن يعرّفني بصديق عميق الثقافة من اللبنانيين الدروز التقاه في صُور، وهو يحملُ الجنسية الأميركية. قال إن لصديقه هذا نظرية طريفة عما حدث في لبنان خلال السبعينيات. وسألته إن كان يقصد السبب في اندلاع الحرب، فأجاب نعم. يرى صديقه هذا أن لبنان كان واحة الأمن والجمال في المنطقة العربية المشتعلة بالنار والاضطراب، وقد أودع الخليجُ العربي جُلَّ أمواله في البنوك اللبنانية لهذا السبب. عندما بدأت الحربُ الأهلية فرّت هذه الأموال الطائلة إلى أوروبا فاغتنت بنوكها بالمليارات وصار للغرب مصلحة أكيدة في استمرار الحرب لكي يمنعَ عودة الثقة ببنوك لبنان. قلت إن هذه فكرة طريفة حقاً وأنا أستعيدُ ولع جورج الدائم بالتواريخ السرّية للكنيسة والعالم أجمع. ظلَّ حمد أثناء الحوار يحدّق إلى الماء بحثاً عن الحوريات وهو يعبّ قدح البيرة بشراهة. لم تكن إنكليزيته لحسن حظه تسمح له بمتابعة حديث جورج.

Twitter: @ketab_n

19

حين خرج السابحون من الماء توقّف حديثنا تحت التعريشة الساكنة واتّجهت الأنظار ناحيتهم. ثمّة حيوية في حركتهم زادت عن ذي قبل، وعلا صوت الضحكات الأنثوية مرةً أخرى دون أن نتمكنَ من تمييز ما يحيط بها من تعليقات. حين عادوا من مَنازِع الملابس لاحظت أن أريكا قد اكتفت بلفّ خصرها بوَزْرة حمراء وتركت الكثيرَ من مفاتنها مكشوفةً بسخاء. ستورمي وساندرا اتجهتا إلى مكانين منعزلين فوق الصخور. قالت ساندرا بمودّة إنها جاءت معها بسندويشات تناسبها ولا تريدُ أن تأكلَ من طعام الفندق (في خليط من الرغبة في الاقتصاد والميل إلى الطعام الصحي والعُزْلة)، أما ستورمي فقد كانت عُزْلتها تعبيراً عن الاحتجاج على وجود حمد بيننا. ومن المؤكد أنه كان يعلمُ ذلك، لكن سلوكه لم يَنمّ عن إدراكه أنَّ الأمرَ قد انكشف للجميع قبل الانطلاق.

توزَّع القادمون من البحر حول طاولة الطعام الطويلة. جلست أريكا وماثيو وجين أمامي فصار البحر خلفية زاهية لهم. أما رالف فقد قفز إلى مكان جوار جورج بينما واجه روجر حمد عند طرف الطاولة. كانت تلك أول مرة أجالسُ فيها أريكا عن قرب، وقد لاحظتُ فضلاً عن الجمال أن في شخصيتها ثقةً وإقداماً وفضولاً لم أكن قد اعتدتها فيمن عرفت من النساء. حاول حمد أن يستحوذَ على انتباهها، وظل يخاطبها بعبارات إنكليزية ركيكة دلّت على عجزه عن مواصلة حوار جادّ من أي نوع معها. وقد ساعدتُ على الترجمة أحياناً، ثم فوجئتُ به يُخرج تلفونه النقّال ويعرض صورة ابنه عليها وعلى الجالسين. راقَهُم وجه ابنه خليل بكمته المُوَشّاة الجميلة وابتسامته اللاهية. عُدّ ذلك دليلاً على حسن نِيَّته ورغبته في

Twitter: @ketab_n

تقديم نفسه رجلَ عائلة مسؤولاً، وهو ما زاد من نبرة المَوَدّة التي خاطبه بها الجالسون. إلّا أنّه سُرعان ما التفت على غير توقّع إلى أريكا وطلب منها أن يلتقطَ لها صورةً لوحدها ثم أُخرى معه. شعرتُ بإحراج شديد وبدا لي أننا نوشك أن نشهدَ مشكلةً جديدةً موضوعها حمد نفسه. ولكن أريكا ضحكت ووقفت بطولها الفارع وبياضها المضيء كأنها تعرضُ رشاقتها باعتداد علينا جميعاً. التقط حمد صورتها بكاميرا تلفونه في حماسة مُتَّقدة ثم وقف قربها وطلب من جورج أن يلتقط لهما صورة معاً. علّقت جين كلارك ضاحكة:

- هل تستطيعُ عرض هذه الصور على زوجتك؟

قالت عبارتها بسرعة ولُكْنة أميركية أُرِيغونيّة خالصة أفضت إلى أن يطلب حمد إعادة السؤال. قلت له ضاحكاً بالعربية:

- هل سترى أم خليل هذه الصور؟

فردّ بالإنكليزية منشرحَ الأسارير لِما حازَ من لقطات:

- بالطبع... بالطبع.

طلبنا طعاماً فكانت المأكولات كما هي العادة في المطاعم العُمانية أغلبها من المطبخ الهندي، وأمضى الجالسون وقتاً طويلاً يدقّقون في القائمة ومُكَوِّناتها وقد فَتَحَت السباحة شهيَّتهم. طلبتُ سمكاً، وانضمَّت إلي أريكا في ذلك، أما حمد فقد طلب ساندويش هامبرغر، ومال الكثيرون إلى أطعمة بحرية متنوعة. قال رالف فيليب لماثيو وهو يحتسي كوبَ البيرة التي طلبها على خلاف الآخرين الذين اكتفوا بالعصير، وبدا أنه يستكملُ حديثاً بدأ في البحر:

- السياحة ثلاثة أنواع. هنالك سياحة خطرة، وأخرى متوسِّطة الخطورة، وثالثة آمنة. رأس الحد هذه سياحة آمنة لا تعدو زيارة مسبح. بالنسبة إلي لا أفهم ما يدفعُ الناس إلى السياحة الآمنة. السياحة دون إثارة وجديد لا تكون سياحة.

قال ماثيو وقد حرّكت السباحة الدم في وجهه الساهم عادة:

- لكنك مُوْلَع بالسياحة في تايلاند، هل تقصدُ أن تايلاند سياحة خطرة؟

Twitter: @ketab_n

هتف رالف ضاحكاً:

- تايلاند هي قلبُ الخطر والنَّشْوة.

سألتْ جين وكانت قد ارتدت قميصاً مورّداً على طريقة فان كوخ فوق شورت أزرق:

- حقاً رالف، ما الذي يجعلُ رجال أوروبا مُوْلَعين بالآسيويات؟

قال رالف:

- مسألة ذوق أولاً، ثم مهارة الآسيوية في فهم حاجات الرجل.

قال جورج الذي كان يتابعُ الحوار بانتباه شديد وبحرص على سماع ما يقال:

- وربما لأن الآسيويةَ توفِّر للرجل الأوروبي الإحساس باستقرار البيت ورتابة الحياة، فضلاً عن علاقة تخلو من التوتّر.

صوّبت أريكا نظرةَ انزعاج إلى جورج الذي كان يجلسُ إلى جواري قبالتها وقالت:

- المرأة الآسيوية فرصةٌ سانحةٌ ليثبت الرجل الضعيف الذي يفتقد الجاذبية والحيوية في شخصيته أنه قادر على الفوز بامرأة مستعدة لتقديم كل فروض الطاعة مقابل المال. إنه أمر أقربُ إلى العبودية.

كان حمد يركّز نظره في وجه أريكا المتألق بحيوية السباحة وطعم السمك المُتَبَّل دون أن يبدو عليه فهم ما يقال. بالنسبة إليه كانت أريكا صورة حية لجمال أسطوري. ردَّ رالف دون أن تتغير نبرةُ المزاح والمشاكسة في صوته:

- اسمحي لي أريكا. ما يحدثُ في الغرب أن الفوز بامرأة جميلة أمر يزداد صعوبةً يوماً بعد يوم لما يترتب عليه من عناء المطاردة والغَزَل ثم تحقيق الشروط المُحَيِّرة العَصِيّة لإحراز الفوز. وبالرغم من كل هذا العناء فالعلاقة تنتهي إلى دراما غير محسوبة النتائج وسرعان ما يتغيرُ الشريك.

Twitter: @ketab_n

ردّت أريكا بهدوء وصوت رقيق:

- هل تعني أن العلاقةَ مع الآسيويات دائمة؟

قال رالف باختصار:

- العلاقة بالآسيوية مغامرة.

قطع روجر الحوارَ بابتسامته المهذبة:

- أوروبا توصّلت إلى ضمان كرامة الطرفين.

قلت وأنا أتذكرُ حكاية سمعتها من كريستوفر بالمز الزميل البريطاني في شركة سرت:

- أعتقد أن هنالك مبالغةً في طاعة النساء الآسيويات وانصياعهن لأزواجهن. علمتُ من صديق بريطاني قابلته في ليبيا كان يُمضي كل إجازاته في تايلاند أن أحد البريطانيين تزوج فتاةً تايلندية وقصد قريتها لزيارة أهلها. انقطعت أخباره حتى لحق به بعض أصحابه لمعرفة ما يحدث له. هل تصدقون؟ وجدوه مُكَبَّلاً بسلسلة إلى سرير في غرفة النوم بعد أن سُلب كل ما لديه من مال، وكان يُعامل بازدراء وقسوة.

قال ماثيو بهدوء:

- أعتقدُ أنه رجل ضعيف.

هتفت أريكا وقد سرّتها حكايتي:

- هذا ما كنت أقوله تَوّاً. الأوروبي الذي يهربُ إلى تايلاند بحثاً عن المرأة المناسبة رجل ضعيف.

صادقت جين على كلامها مبتسمة:

- هذا صحيح. أعرف أوسترالياً كانت زوجته التايلندية تضربه عندما تغضب.

ثم أردفت وهي تلتفتُ إلى ماثيو:

Twitter: @ketab_n

- هل تتذكره ماثيو؟ كان معنا في بنايةٍ واحدةٍ في صُور، وكنا نهبّ لنجدته دائماً لننقذه من بين يديها.

عَلَت ضحكة أريكا العذبة لسماعها ذلك وطربت له. قال رالف يدافع عن رأيه:

- صُور مدينة صغيرة خانقة ولا يمكن القياس على ما يصدر عن الناس فيها من أفعال مُتطرِّفة. لا أكاد أصدّقُ بعد ما قرأت عنها من مُبالغات على الإنترنت أن فيها إشارةً ضوئيةً واحدة. تصوّروا ذلك، إشارة ضوئية واحدة!

قال روجر بسماحة:

- أنت في بلد يطمحُ إلى النمو، ولولا ذلك ما طلبوا خدماتك وخدماتي. أمام هذا البلد الكثير ليحقّق التقدُّم.

قلت بحياد:

- تذكر روجر أنك في دولة خليجية، والدول الخليجية هي النُّخْبة المحظوظة بين دول المنطقة العربية. هل رأيت مَسْقَط؟

ابتسم روجر بتهذيب كبير وقال:

- هذا أمر مفهوم. الهُوّة واسعة في الحقيقة.

اتجهت السياراتُ بعد الغداء إلى ساحل رملي أبيض يمتدّ حتى الآفاق البعيدة صادحاً لانهائياً. كان رمله نظيفاً خالياً من الشوائبِ والنُّفاياتِ غَسَلته الأمواجُ والرياح. خلعتُ حذائي وقررت أن أمشي حافياً على الرمل. بعد خطواتٍ قليلة وجدتُ نفسي أسيرُ قرب أريكا فالتفتُّ إليها وقلت:

- جَرِّبي السيرَ حافية!

التفتت نحوي برقة متناهية وابتسامة عذبة:

- لماذا؟

- ألا تعلمين السبب؟

Twitter: @ketab_n

الْتَمَعَ في زُرْقة عينيها فضول أقرب إلى الغُنْج وقالت بصدقٍ آسر:

- قُلْ أنت.

- يقال إن حركةَ باطن القدم على الرمل تُعدّ نوعاً من التدليك يساعد الجسم على الارتخاء. نوع من المسَّاج يمارسه الرمل على أقدامنا.

بادرت إلى خلع نعليها (الأحمرين أيضاً) وسِرْنا معاً. كان الآخرون حولنا يجولون على الرمل ويلتقطون الصورَ بكاميرات التلفون في الغالب. روجر هوبكنز اصطحب معه كاميرا كبيرة ذات عدسة متحركة وبدا أنه يسجلُ لقطات فيديو أيضاً. لفت انتباهي صوت ساندرا تجول مع جورج غير بعيد عنا وكان أقرب إلى الصياح لكي تُسمعه ما تقول. لم يكتفِ رالف بالسير على الرمل بل اتَّجه إلى الماء بقدمين عاريتين وشورت قصير وخوّض فيه مطلقاً صيحات انتشاء بينما وقف ماثيو وجين يتطلعان إليه بفضول. بدت أريكا متألقةً في ضوء الشمس المنحدرة نحو الماء بِتَسارُع. سألتها عن حياتها في بريطانيا فقالت إنها تعيشُ مع عائلتها في نوريتش وإن لها أخاً مراهقاً. حين تساءلتُ عن سبب عزوفها عن الاستقلال عن العائلة قالت:

- هذه مشكلة حقيقية. هل تعلم أني سأبلغُ الثلاثين هذا العام؟

- لا أُصَدِّق.

- بل صدّق. وأنت تعلم ما تعنيه الثلاثون من قلق بالنسبة إلى المرأة. شعور بالوحدة والحاجة إلى استقرار.

قلتُ ملاطفاً:

- لكنك جميلة رائعةُ الجمال. هل يعقل أنك وحيدة؟

أسعدها الإطراء وشعّ وجهها بالامتنان. قالت بانشغال جِدِّيّ:

- أحد أسباب قراري العمل خارج بريطانيا في مكان بعيد كهذا هو قلقي وأنا أقترب من هذه السن ورغبتي في الخروج من روتين وجودي هناك.

Twitter: @ketab_n

ثم التفتت إلي وسألتني بِمَوَدّة:

- هل أنت وحيد هنا؟

قلت: نعم، انفصلتُ عن زوجتي قبل سنوات ومنذ ذلك الحين لم اقترن بامرأة أخرى.

- هل أصبحت عدوّاً للمرأة؟

- هذا مستحيل. لا سعادةَ دون المرأة.

قالت بتعاطف عذب:

- لابد أنك تعاني الوحدة أيضاً.

خطر لي أن الوحدةَ هي أهونُ ما أعانيه، وتساءلت إن كانت شراكتي لها في معضلة الوحدة ستجمع الغريبين. ألا يقال إن الغريب للغريب نسيبُ؟

تواصل الحديثُ بيننا فبدأت تصف لي حياتها في مدينتها نوريتش، لكن جُلّ حديثها انْصَبَّ على قطّتها التي تفتقدها كثيراً. قلت متسائلاً:

- هل يمكن للقطة أو الكلب أن يساعدا على حل مشكلة الوحدة؟

- لا أدري، ولكن لو كانت قطتي معي لخفّ شعوري بالوحدة.

قلت أواسيها:

- زميلتنا صفية مولعة بالقطط ويمكن أن توفّر لك قطةً جميلة.

التفتت إلي وقالت بنبرةٍ لا تخلو من لَوْم:

- سليم! لم أقصد عُمان بحثاً عن القطط.

لم يكن سهلاً الامتناع عن النبش بين السطور.

كانت قدماها الحليبيتان ترسمان خلفنا على الرمل آثاراً صغيرة متصلة واثقة، وبالمقارنة بآثار قدمي العميقة الكبيرة بدت آثار قدميها وكأنها نغمات البيانو قد صاحَبَها عزفٌ صاخب على الطبل. عدتُ معها إلى السيارة وأنا غارقٌ في بُحَيْرة من التداعيات اللذيذة. لم تعد معي في سيارتي لكنها ودّعتني بابتسامة ساحرة ونظرة تفاهم وليد.

Twitter: @ketab_n

20

كنت أصعدُ السلّم إلى مكتبي بعد حصّة مرهقة بُحَّ فيها صوتي وأنا أحاول أن أقنعَ طلبة من المجموعة سي، الأضعف، بأهمّية استخدام أَس الشخص الثالث مع الأفعال، عندما رأيت أمامي فجأةً غادة رأس الحد أريكا. كانت باهرةً في ثياب غَطَّت ما ثَبَت في مخيلتي من مفاتنها، لكنها وهي تغطّي المفاتنَ بألوانها الزاهية أبقتها ماثلة أمامي. لم نكن قد التقينا خلال أكثر من أسبوع بعد السَّفْرة فارتسمت على وجهها ابتسامة دهشة سعيدة لرؤيتي، وهو أمر دغدغ ما تبقى لي من ثقة بقدرتي على اجتذاب الحسناوات. سألتني عن حالي فأجبتُ مازحاً وكان مزاج السَّفْرة يتفاعل طوال الوقت ويلُفُّني في غلالة من اللاواقع الأقرب إلى الأحلام:

- لدي شكوى أرجو أن تنقليها إلى بريطانيا يوماً.

اقتربت مني وتطلعت نحوي بفضول. لقاء الأعين مصيدة. قالت برقّة وابتسام:

- ما هي؟

- شكوى من أس الشخص الثالث. إنها تسببُ لي الكثير من الإرهاق والتعب. هل يمكنُ الاستغناء عنها؟

ضحكت وقالت:

- لو كنت أعلم لمن أشكوها لشكوتها قبلك لأنها تتعبني أنا أيضاً.

تحوّلتُ برشاقة لم أعتدها من قبل إلى سؤال مباشر:

- كيف حالك بعد تلك السَّفْرة السعيدة؟

Twitter: @ketab_n

تنبّهت إلى موقفنا معاً وكان الممرّ المؤدّي إلى السلّم الذي وقفنا عليه يزخر بحركة الطلبة الدائبة. قالت إنها تشعر بحيوية كبيرة وإن أصداء من حديثنا لا تزال تترددُ في رأسها. أنا واثق أنها قالت ذلك بشكل من الأشكال وهو ما جعلني أبادرُ إلى خطوة أخرى أتقربُ بها:

- أعتقد أن لدينا الكثير لنتبادل الحديثَ عنه. ما رأيك في عشاء لذيذ في بيتزا هت؟

أشرق وجهها بالترحيب لما تنطوي عليه الدعوةُ من إطراء، لكنها قالت بحذر:

- هل أدعو صديقتي ستورمي أيضاً؟

لولا مزاجي اللاهي المتسرِّع حينئذٍ لكنت قبلت هذا الاحتياط الأولي، لكني كنت يومئذٍ مندفعاً تتلبسني جسارةُ الساعي إلى اللذّات. قلت باسماً أذكّرها بمَثل إنكليزي:

- اثنان رفقة، ثلاثة زحام.

فضحكت وقالت: حسناً.

ثم اتفقنا على الموعد. سألتُ إن كانت السابعة تناسبها فقالت السابعة والنصف. وافترقنا على أمل اللقاء في الغد.

يحدث في مثل هذه المواقف أن مُعضلات معقّدة وأسئلة حائرة تجد حَلاً بسيطاً خاطفاً غير متوقّع. لم أُصدق أنني أبدأ مغامرةً كهذه مع حسناء شابة من نوع أريكا بعد خيباتي المريرة في الزواج وقراري الحاسم أن أتجنَّبَ المرأة ما حييت. لكن للرغبة منطقها الخاص الذي يسخرُ من منطق العقل، وللفعل منطقه الخاص الذي يغلبُ الترددَ ويسبقه نحو التحقُّق في موجة جارفة لا تحكمها قوانين. ما حدث بعد هذه البداية الواعدة جعلني أقاسي ندماً طويلاً على تسرّعي ووقوعي في فخّ لم يَبْدُ عليه ما يدلّ على الكذب أو الحيلة. ولكن أليست الفِخاخ هكذا دائماً؟

حين دخلت مكتبي صباح الأحد كانت ساندرا تتحدّثُ إلى طالبة

Twitter: @ketab_n

لم أَرَ منها إلّا عباءتها السوداء. جلستُ إلى مكتبي وضغطت زرّ الكمبيوتر، وبانتظار تحميل برامجه الكثيرة لمحت على مكتبي ورقةً عاديةً كتب عليها بالقلم الجاف الأحمر ما يلي:

" عزيزي سليم

شكراً على دعوتك للعشاء أمس وقد كنت متحمّسةً جداً للاستجابة لها، لكني تذكرتُ حين عدت إلى البيت أني كنت قد اتفقت مع صديقاتي على الخروج معاً للتسوق مساء اليوم. لقد حاولت جهدي العثور عليك لإخبارك باعتذاري عن الحضور ولكن يبدو أنك مشغول مثلي.

أتمنّى لك مساءً جميلاً.

أريكا "

شعرت للحظة بنوع من التخفُّف، وقد فاجأني ذلك الإحساس. أدركت أن إقدامي على الشروع في علاقة مع امرأة صار يسببُ لي مُرَكَّبات من القلق والخِشية لم أكن أعيها من قبل، لكن ذلك الشعورَ اختلط بخيبة حقيقية أيضاً. إن من مشاكل العلاقة العاطفية مع المرأة، وأقصد هنا العلاقة الهوليودية المبنية على النظرة والابتسامة والسلام والكلام، مبالغتنا في أهمّيتها إذ نحن نضع كل ثقلنا فيها فإذا ما حدث أي إخفاق شعرنا أن الفشل فشل وجودي شامل.

تأملت خطَّ أريكا فكان أنيقاً لا يخلو من فن وبدا واضحاً أنها اهتمت بأمر هذه الرسالة فكتبتها بحذر وعناية. مع ذلك فالورقة التي كتبت عليها الرسالة مأخوذة من أوراق الطلبة كما يبدو، فهي ليست ورقةً كاملة. كانت قد قطعت جزءاً منها وكتبت على الجزء المتبقّي. أَخْرَجَني من تأمُّلاتي في تلك الورقة الصغيرة البسيطة صوت ساندرا:

- هلو سليم. كيف حالك اليوم؟

تطلعت إليها كَمَنْ فَزَّ من نوم. كانت تمسكُ كوبها من شاي الأعشاب وتتطلع نحوي بمودة خالصة. قلت لأُداري ارتباكي:

Twitter: @ketab_n

- أهلاً ساندرا. كيف أنت اليوم؟

رَدَّت بما يشبه الهتافَ الحماسي:

- بالنسبة إلي أنا بخير. على أحسن ما يرام.

بدا كأن هتافها ينطوي على سؤال عن حالي بعد أن قرأت الرسالة الحمراء. زادت خيبتي وامتزجت بسخطٍ غامضٍ عندما أدركت أن ساندرا لابد قد قرأت هذه الرسالة واطلعت على محاولتي المجهضة، لكني لم أشأ دعوتها إلى التدخُّل. غمغمتُ "حسناً" ثم استدرت نحو كمبيوتري، لكنها قالت بهدوء ماكر:

- كانت أريكا تبحثُ عنك في الصباح الباكر.

التفتُّ إليها لأرى ما يصاحبُ عبارتها من انطباع على الوجه. كانت تستقرّ على وجهها ابتسامة محايدة لا تزول، وهي علامة الرغبة في الاستزادة والمشاركة. أُسقِط في يدي. لابد أن أُوضح لساندرا أو ربما أُبرِّر. ولكن أي توضيح أو تبرير؟ قلت وأنا أستدير نحو الكومبيوتر:

- نعم. قرأت رسالتها.

لكن ساندرا عنيدة وقوية. قالت وابتسامتها الثابتة معلّقة على وجهها:

- هل كانت دعوة عامة؟

أدركت أن عليّ التفرُّغ لهذا التحقيق الصغير. قلت ولا أدري إن كان ارتباكي قد طَفا على السطح:

- لا، لم تكن كذلك. أرادت أريكا أن تتذوقَ بيتزا صُور فتبرّعت بمصاحبتها إلى هناك.

سألت ساندرا وإصرارها يتزايد:

- مع ستورمي؟

كان تحقيقاً غريباً في ضوء ما قرأت عن احترام الغربيين

Twitter: @ketab_n

للخصوصيات. لم أكن أعلم أن ساندرا كانت تَعُدُّ نفسها جزءاً من خصوصياتي. قلت بغموض:

- لا أدري. لم نحدّد ذلك.

كنت أكذب وزاد ذلك في انزعاجي. ويبدو أن ساندرا أدركت ذلك فقد أطلقت سَراحي ولزمت الصمت. . . ولكن إلى حين.

كان لا بد من أن أبادر إلى ردّ على اعتذار أريكا. وخطر لي ألّا أرد، لكن ذلك بدا تراجعاً غير مبرّر. لم أصدّق أن أريكا نسيت موعدَ التسوق هذا في مدينة صغيرة تكاد تخلو من المواعيد، ولكن دخولَ الكلّية يشبه الدخول في زوبعة رملية عاصفة تلفّك وتشتّت انتباهك بين عدد لا يُحصى من الطلبة والمنسّقين والزملاء. لم يكن سهلاً تحديد دوافع أريكا فقررت أن أقصد مكتبها بنفسي وأكلمها على أمل أن تكشف عيناها وطريقتها في استقبالي دوافعها إلى الاعتذار.

كان مكتبها على الجانب الثاني من البناية وتشاركها فيه ستورمي، لكنني حين دخلت المكتب، إذ لم يكن بابه مقفلاً بمفتاح بل مُوارِباً فقط، لم أجد فيه أحداً. كان مكتباً أنيقاً تتناثرُ عليه لمسات نسائية لا تخطئها العين. في الركن طاولة مخصّصة لأكواب الشاي ودَوْرَق تسخين الماء وهي مُرَتَّبة بعناية ونظيفة، وعلى الحائط فوقها رسم وَجه كاريكاتيري باسِم على طريقة وجوه "ياهوو" الجاهزة في الدردشة وقد كُتب تحته "Help! yourself". كان مكتب أريكا يلتصقُ بالحائط تحت النافذة الكبيرة وسط الحجرة وهو ما يسمح لها بأن تولي ظهرها للداخلين وتواجه شجرة الكالبتوس الكبيرة التي تُلقي بظلالها الأزلية على نافذتي. على المكتب أوراق متناثرة كثيرة تحمل خطّها المميّز. قفز إلى رأسي سؤال متهكّم في تلك اللحظة يسخرُ من وجودي في هذا المكان. كنت كمن سقط في شبكة صيد كبيرة فأدركت أن عليّ الاكتفاء بترك رسالة قصيرة والانسحاب بأسرع وقت. سحبتُ قُصاصة ورق من على المكتب وخربشت عليها عبارة قصيرة

Twitter: @ketab_n

" هاي أريكا، تسلمت اعتذارك وأقبله من القلب. أتمنى أن تسنح فرصة قادمة. سليم"

أسرعت إلى مغادرة المكان. لم أكن أشعر بالارتياح لوجودي في مكتب أنثوي بحت. لم أكد أصل إلى نهاية الممرّ حتى لاح أمامي رئيسُ القسم أحمد الطاهر وبرفقته زكي خليل. لم أكن ألتقي الطاهر كثيراً وكل حواراتي معه تركّزت على مشاكل العمل وعلى تكليفاته لي ترجمة بعض الرسائل الصادرة عن العِمادة باللغة العربية لتكون في متناول الأساتذة الأجانب، وهم الأغلبية. كان ودوداً معي منذ الاجتماع مع ممثّلي الوزارة، يقدّر تقديراً جلياً رغبتي الصادقة في مساعدته وعدم رده. والواقع أن الأستاذ العراقي الوحيد في القسم، د. حاكم نشمي، بدأ يبدي فتوراً نحوي لعدم استجابتي لدعوته التي ظل يكرِّرها لمقاطعة الرجل. لم يكن تضامني مع الطاهر يعني إعجابي به، فالمهمة التي أوكلت إليه أكبر منه دون شك، وهو رابض خلف حاسوبه لا يكاد يترك مكتبه إلا لحدث يستدعي ذلك. بدا لي أن أحد هذه الدواعي قد وقع اليوم. بادرني الدكتور الطاهر بالسؤال:

- هل صادفت رالف فيليب اليوم؟

قلت: لا، لا أتذكر أني رأيته.

وقف الطاهر حائراً وكان وجهه ساهماً كالعادة، مهذّباً حد السلبية التامة. قال كأنه يكلِّم نفسه:

- لقد حيّرني هذا الأستاذ!

- لماذا؟

- إنها المرة الثانية التي يتغيبُ فيها عن الدوام خلال شهر واحد.

- لعل له عذراً؟

- هَذَيان دون معنى. تارةً صحته، وأخرى اضطراره إلى البقاء في الشقة لاستقبال عمال الورشة. ولا أدري ما السبب اليوم؟

Twitter: @ketab_n

كان زكي يتابعُ الحديث باهتمام، وقد لاحظت أنه يميل إلى الصمت عندما يكون الحديث متعدّد الأطراف بينما هو يكاد يحتكر الحديث إذا ما اختلى بأحد. علمت من أحاديثي المتواصلة مع ساندرا أن رالف سكّير أَشِر وأنه يقضي نهاية الأسبوع كلّها في احتساء الخمر والعربدة والصياح حيث يجتمع مع بعض سُمّاره من الأساتذة على سطح البناية ويقلّد قراصنةَ البحر مطلقاً الصيحات في بئر السلّم مما يزعج الأساتذة الآخرين. وقد شكاه بعضهم إلى الدكتور الطاهر وطلبوا منه أن يردعه عن ذلك، لكن الطاهرَ كما علمت من ساندرا، اعتذر بأن الكلّية غير مسؤولة عن تصرّفات الأساتذة في السكن لأنها شأن خاص، وما دام الرجل يأتي إلى الكلية صاحياً فليس من حقّ أحد محاسبته إلا جيرانه. لم يذكر الطاهر شيئاً من هذا بالرغم من علمه به، وبدلاً من مواصلة الحديث هتف بغضب وهو يتجه نحو مكتبه:

- لابد من إنذاره هذه المرة!

غادر الطاهر دون أن يمحو غضبه علامات الحيرة والارتباك عن وجهه. لم يكن يرغب في معاقبة أحد بل حتى محاسبته، ولابد أن ميله الفطري إلى الدَّعَة والانتظام والهدوء كان يتعرض لامتحان عسير في أجواء القسم المتقلِّبة ومجموعة أساتذته الطريفة المتمرّدة.

وجدتُ نفسي أسير في رفقة زكي خليل الذي انفرجت أساريره عندما بقينا وحدنا وسحب ذراعي بِمَوَدّة وحرارة ومال برأسه عليّ هامساً بابتسامة ماكرة:

- أراك خارجاً من خلية الدبابير.

- أي دبابير؟

- لا تحاول الإنكار. رأيتك تخرج منزعجاً. هل حدث شيء؟

كان عليّ إقناعه أن شيئاً لم يحدث، ولم يَبْدُ أن تلك مهمة سهلة. عجبت حينئذٍ لقوله إني خرجت منزعجاً من مكتب أريكا لأني لم أكن كذلك بالتحديد، لكني اكتشفتُ فيما بعد أن لزكي طريقته الخاصة في

Twitter: @ketab_n

الوصول إلى آخر الأخبار وأطرفها، وهو مرجع دقيق في تقصّيها ومعرفتها. أما هذه الطريقة فهي أن يُبادر كل من يراه بسؤال متعاطف ودود "ما لي أراك منزعجاً؟ خير إن شاء الله؟" ويحدث في الغالب الأعمّ أن الشخص، حتى وهو بعيد عن الانزعاج، سيلجأ إلى ذاكرته فيسترجع آخر ما أزعجه ويقصّه على زكي ممتناً لفرصة التنفيس عن همومه. حاول زكي جاهداً أن يستدرجني إلى مكتبه مصرّاً أن أحتسي الشاي معه. لقد شمّ دخان حدث غامض ولن يطلق سراحي قبل أن يتبيَّن ما هو؟ لكني بقيت مصرّاً على تأجيل الزيارة وتمكّنت بصعوبة من الإفلات.

Twitter: @ketab_n

21

حين تخلّصت من زكي خليل لاحت لي من بعيد في نهاية الممرّ أريكا نفسها تمضي مسرعةً رشيقة إلى مكتبها. لم يخطر لي التوجُّه إليها ومحادثتها. الورقة التي تركتها تكفي الآن. تولّد لدي شعور غامض بأن عليّ أن أتأنّى وأكفّ عن التمادي في مغامرتي هذه.

لم أتمكن من البقاء في الشقّة مساء. كان الحرّ في الخارج يتخلل كل شيء ويهوي به في بركة من الرُّكود. ارتديت تي شيرت خفيفاً وتمشيت على الرصيف المؤدّي إلى أسواق كمجيز وهو مساري اليومي تقريباً عندما أنوي الحركة والرياضة. المدينة هادئة. وبالرغم من أن المساء قد خفّف شيئاً من حرّ الظهيرة، كانت شدّة الحَرّ كافية لمنع الناس من الحركة خارج منازلهم أو سياراتهم المكيَّفة. لم أتخلَّص من شعوري المزعج بأن ما حدث من اتفاق على الدعوة ثم نقض مفاجئ للاتفاق كان بداية سقوط حُرّ في هُوَّة لا أعرف أبعادها. بحسب ما قال دكتور حاكم فإن العربي والمسلم هنا ممنوعان من المغامرة، وإن الأمر إذا ما خرج عن نطاق السيطرة يمكن أن ينتهي إلى إلغاء عقد عملي وتسفيري من البلاد. العربي المسلم الأعزب في صُور مفارقة لن يفهمها أحد وهي تثيرُ الشكوك والحذر. أول إجراء يتخذه الزملاء العرب إزاءه هو العَزْل، وتجنّب دعوته إلى بيوتهم واختلاطه بعوائلهم. لكنه من جانب آخر لا يُترك لشأنه. هنالك رقابة مشدّدة على حركاته وسكَناته لأنه صِنْو الشيطان ويقف على حافة خطرة تقود إلى هاوية الزّنى والرذيلة.

لعنت الإبر الصينية والمُدَلِّكة الصينية وكدت ألعن فرحان نفسه لِما بثَّ

Twitter: @ketab_n

فيّ من خفة لم أتعوّدها. بدلاً من اللعنة أخرجتُ تلفوني من جيبي واتصلت به. كنت قد وصلت إلى دوار المنطقة الصناعية الذي تشتدّ فيه الضوضاء وحركة السيارات. جاء صوت فرحان جاداً هادئاً لا يخلو من وقار، وهي طريقته في الابتداء دائماً. حين تعرّف إلى صوتي تغيَّرت نبرته وهتف بحماسة:

- أهلاً سُلُم! كيف أحوالك أيها القادم من القارة الصفراء؟

قلت له مطلقاً العنانَ للتعبير عن قلقي:

- قطران!

ثم أخبرته بمغامرتي الصغيرة المحبطة. فاجأني فرحان بهتاف سعيد:

- هذه أخبار رائعة. لقد وضعت قدمك على الطريق وما عليك إلا مواصلة السير. ما حدث يؤكّد القاعدة: يتمنّعن وهنّ الراغبات!

- هذه القاعدة تصحّ على الشرقيات. البريطانية لا تتمنّع حين ترغب.

- من قال لك هذا؟ ألا تقرأ كتبهم؟ الأنثى هي الأنثى أينما كانت.

- كيف تفسِّر انقلابها ضدّي بهذه السرعة؟

- هنالك احتمالان لا ثالث لهما. إمّا أنها راجعت تسرّعها في قبول الدعوة وأدركت أن شرقياً مثلك قد يفسّرها على أنها علامةُ التهتُّك والاستهتار فقررت أن تجاريك في دورة الماء الطويلة في طبيعتك المُمِلّة، أو أن أحداً حذّرها من الخروج مع رجل شرقي إلى مكان عام. قد تكون إحدى صديقاتها اللواتي لسعتهن الغيرةُ من نجاحاتها.

- لا أعتقد أنها يمكن أن تتأثّر بما يقول الآخرون.

- لكنك أخطأت في أمر واحد.

- ما هو؟

- كان الأجدر بك أن تدعو معها صديقاتها أولاً. مثل هذه الأمور تحتاج إلى وقت ولا تحلو إلا إذا طُهيت على نار هادئة.

Twitter: @ketab_n

- لكنك من دُعاة الدُّخُول الجَسُور دون تردّد!

- في الوقت المناسب! تذكّر: الجَسارة في الوقت المناسب.

قلت وقد لاحظت أن فرحان يميلُ إلى مناقشة الخطوات المطلوبة لمواصلة المغامرة:

- اتصالي بك للشكوى وللبحث عن طريقة أخرج بها من هذا الموقف دون خسائر.

- هذا خطأ كبير. أنت توشكُ على الانطلاق إلى آفاق تُحسد عليها.

كنت أقول لفرحان شيئاً عن حاجتي إلى صبره وحماسته لأواصل الدرب عندما واجهني على الرصيف نفسه زكي خليل يتصبّبُ عرقاً. قطعت الاتصال مع فرحان عندما وقف زكي وصافحني وكأننا افترقنا دهراً. أدركت أن لديه ما يقول. قلت لفرحان إني سأعاودُ الاتصال به قريباً فقال لي: شدّ حيلك! بالنسبة إلى فرحان المغامرة (والمغامرة النسائية تحديداً) هي سرّ الوجود!

اتَّضَح أن زكي لم يكن يملك ما يقول، وأنه توقف ليصاحبني في مسيري فهو خارج للرياضة أيضاً. لكننا ما إن قطعنا خطوات قصيرة حتى صدمني بعبارة لاهية لم أتوقّعها:

- يقال إنك تهوى السيرَ على الرمل حافياً.

التفت إليه في دهشة وقد ارتسم أمامي مشهد سيري السعيد مع أريكا على رمل رأس الحد. سألت دون أن أفكر:

- من قال لك هذا؟

قال دون أن يردّ على سؤالي:

- هل أعجبتك السَّفْرة إلى رأس الحد؟

كان لسان حاله يقول باعتزاز وفخر إن شيئاً لن يفوته مما يحدث في هذه المدينة الصغيرة وإن امتناعي عن إخباره بما يحدث لا يعني أنه سيبقى في جهل عنه.

Twitter: @ketab_n

صار جلياً فيما بعد أن زكي يعيش باقتناع تام فحواه أن العالم اليومي الرتيب الذي يأخذ بِخُناقه في صُور ما هو إلّا حِجَاب ثقيل يُخفي تحته أسراراً شَيِّقة مثيرة وفضائح لا تترك مجالاً للملل والرتابة. وهكذا جعل دَيْدَنه نبش سطح الحياة اليومية وتقليب وجوهها بحثاً عن مفتاح يقود إلى انفجار المفاجأة/الفضيحة. وقد تعلّمت لاحقاً الوسائل التي أُناورُ بها وأُفلت من قبضة تساؤلاته الخانقة، لكنني في تلك اللحظة شعرت وكأن أحداً قد جرّدني من ملابسي أمام أسواق كمجيز المزدحمة. سارعت إلى التشبّه به وردّ السؤال بسؤال:

- ولمَ لَمْ تأتِ معنا إلى السَّفْرة؟

قال ضاحكاً دون أن يتخلّى عن نبرة التشكيك:

- هذه سَفْرة عُزّاب وعازبات. نحن المتزوجين لا مكان لنا فيها.

قلت بحياد وأنا أتطلعُ إلى امتداد الشارع حتى معارض مازدا التي تتجمعُ أمامها سيارات لامعة أنيقة:

- كانت سَفْرة ممتعة.

حمدتُ اللّه لأن زكي لم يواصل تحقيقاته، ويبدو أنه قرر ألّا يُسْرِف في مضايقتي حتى تتجمعَ لديه خيوطٌ كافية، لكنني بقيت أتساءل إن كان يعلم أيضاً أن المسيرَ الحافي على الرمل كان برفقة أريكا؟

حين صحوتُ صباحاً كانت أصداء نشرة المساء الحافلة بالعنف والدم في العراق تختلط بصورة أريكا الآفلة قبل أن تكتمل وبأسئلة زكي خليل المُبطَّنة بسلطة التلصُّص. وضعت بضعَ ملاعق من الشّوفان في حليب مَغْلِيّ وأكلت المزيج الباهت دون حماسة. فتحت راديو عُمان وأنصتُّ إلى نشرة الأخبار الصباحية الهادئة المطمئنة التي لم تخصص للوضع في العراق إلا دقائق معدودة تناولت مصاعب الحكومة في اختيار وزيرين للداخلية والدفاع. لم يكن إحساسي باختلاط تلك الأصداء والصُّوَر مُؤَطَّراً بشكل معلوم أو مفهوماً، كان حالةً ضبابيةً من الجزع والتعب واليأس تلفني

Twitter: @ketab_n

وتحوّل كل شيء أراه إلى شكل باهت دون معنى. كنت قد قرأت ذات مرة في كتاب عن التاريخ الأخلاقي للقرن العشرين أن مشاهد الدم والعُنْف والكوارث عندما تتوالى لوقت طويل في أوقات المِحَن تجعل المرء أقل إحساساً بفظاعتها. التكرار يكسبها قبولاً بوصفها جزءاً من الوجود اليومي لا مردّ له. وقد مضى ربع قرن على العراق لم يخلُ يوم من الموت أو الألم أو الجوع والمعاناة حتى صارت هذه الكوارث رُكْناً مُكَوِّناً من أركان الوجود العراقي الشَّقِيّ. ولكن هل تنجح محاولتي الإفلات من رَبْقة هذا الوجود؟ هل يمكن للمنفى أن يستحمّ بماء المغامرة؟

قصدت الكلّية ساهماً، وحين ابتلعتني جموعُ الطلبة ومضيت في الممرات إلى مكتبي بدأت التفكير في حصّتي الأولى وما يلزم من إعداد لها. كنت ألتقي خلالها مجموعةَ الطلبة الضُّعَفاء الذين تخرَّجوا في الثانوية بمعجزة غامضة فهم لا يجيدون الأبجدية الإنكليزية فضلاً عن عزوفهم الكامل عن العمل الجادّ لتلافي النقص. سألت أحدهم أن يشرح لي الأُحْجِية التي قدّمها الدكتور الطاهر في اجتماع الأَزْمة مع ممثّلي الوزارة وهو يعرض كتب الثانوية المتقدِّمة ويقارنها بضعف الطلبة الملتحقين بالكلية إلى حَدِّ الجهل بالأبجدية. كان طالباً نحيفاً له أسنان بارزة تجعله يبدو مبتسماً أو ضاحكاً على الدوام، وقد تلقّى سؤالي بشيء من الإحراج لم يمنعه من الابتسام وقال: "بالبَرَكة!". فهمت ذلك على أنه يعني إمكانية النجاح بفضل "إنسانية" المدرسين الأجانب وغالبيتهم من الهنود والمصريين الذين يَخْشَوْن فقدان عقودهم ويُبْدون استعداداً كاملاً للخضوع لأي ضغط من قبل الإدارة أو الأهالي لمنح الدرجات دون حساب. قال ذلك الطالب إن بعض هؤلاء الأساتذة كان يكتب الإجابات على السبّورة أثناء الامتحان!

حين دخلتُ مكتبي وجدت ساندرا مشغولةً في رُكْنِها ببعض الأوراق فبدأت معها حديثاً عن هذه المشكلة بالتحديد. ردّت هي أن مدارس البنات تختلف كما يبدو فَهُنَّ يُبْدِينَ معرفة بالإنكليزية تفوق ما لدى الأولاد كثيراً، ثم أردفت أن مستقبل هذا البلد ستصنعه النساء! وبدت راضية

Twitter: @ketab_n

عن هذا الاحتمال. قالت وهي تتطلعُ إليّ بعينين تلتمع فيهما الحماسة والتحدي:

- أنا أعشق الطلبة العُمَانيين. فرحهم وإقبالهم على متع الحياة، والأمل الذي يملأ نفوسهم في أن القادم سيكون حافلاً بالمسرّات والأعاجيب! هذه الروح المطمئنة العالية مفقودة في الغرب. الشباب هناك يعانون الملل والتعب من الملذّات، ولا همّ لهم إلا السعي إلى المتع الممزوجة بالمخاطرة. المُتعة الآمنة كالجنس أو الأكل أو اللهو البريء لم تعد تثيرهم، شبعوا منها. ما يستهويهم الآن المخدّرات بأنواعها والعلاقات السريعة الزائلة التي يتبدل فيها الشريكُ قبل معرفته معرفة كاملة. والنتيجة أنهم ناقمون ساخرون متهكّمون!

استمعت إليها باهتمام وقد اعتدت آراءها المُنْشَقّة المُضادّة، قلت:

- لكن الكثير من أساتذة الغرب يدعون طلبتهم العُمَانيين إلى قيم الغرب ونَمَط حياته. قبل أيام سمعت من الدكتور الطاهر أن أستاذة لن أُسَمِّيَها دعت الطالبات إلى البحث عن شريك وأعلنت استغرابها أنهن يعشن في عُزْلة تامّة عن الذكور. قال لي ذلك بوصفي أحد أعضاء لجنة الاستقبال وكأني مسؤول عن مثل هذا السلوك ودعاني إلى ضرورة توضيح مثل هذه الأمور للأساتذة الجُدُد.

رَكَّزت ساندرا نظرتها في عيني وقالت:

- أستطيع أن أخمّن من تكون هذه الأستاذة، لأنها غالباً ما تشكو من جلوس الطلبة على جانب إلى الأمام وجلوس الطالبات على الجانب الآخر إلى الخلف. وقد أكّدت لها أن الطلبة جميعاً سعداء بهذه الحالة، وأن محاولة جمعهم معاً ستسبّب لهم ارتباكاً وإحراجاً. نعم، أكدت لها أنهم سعداء والمهم أن يكون الإنسان سعيداً راضياً. لا يهمّ سبب السعادة، المهم السعادة نفسها.

Twitter: @ketab_n

حاولت أن أعلّق ولكن ساندرا كانت متحمّسةً لما تقول فأردفت باستغراب:

- أمر غريب حقاً. تأتي إلى شخص وتقول له: إني سعيد، فيقول لك: سعادتك زائفة لأن سببها لا يقنعني! هل تعلم؟ أنا أحمل ثلاثة جوازات سفر: جوازاً أوسترالياً، وبريطانياً، ونيوزيلندياً.

قالت ذلك ثم استدركت باسمة:

- أرجو ألّا تعلن هذا للأساتذة لأنهم قد يتصوّرون أني أبحث عن زوج عربي بإعلاني هذا. المهم، أنا عِشْتُ في دول غربية كثيرة فلم أَرَ مثل حالة الرضا التي يعيشها هؤلاء الشباب العُمانيون والحماسة التي أراها لدى فتيات عُمان خصوصاً.

كان وقت الحصّة الأولى قد أَزِفَ فخرجنا إلى الممرّات التي بدأ الهدوء يترسبُ فيها تدريجاً بعد أن انسحب الطلبة منها إلى فصولهم. بدا الصباح وضّاحاً مشمساً وشعرت بنسماته المنعشة بالرغم من افتقادها البرودة. حين قطعنا الممرّ المكشوف على الجانبين بين مكاتب الأساتذة والفصول الدراسية قالت لي ساندرا فجأةً بما يشبه المزاح:

- ما أخبارك؟

نظرت إليها مستفهماً: أية أخبار؟

تطلَّعت أمامها وعلى وجهها استنكار ودّي لرغبتي في ادِّعاء الجهل:

- هل أكلت البيتزا؟

كنت قد وصلت إلى ممرّ نفترق عنده فأجبت بعدم اكتراث:

- لقد نسيتُ الموضوع.

لم أكن أعي حينئذٍ أن المغامرةَ عندما تبدأ يصبح من الصعب السيطرة عليها.

Twitter: @ketab_n

22

مضى أكثر من أسبوع على اعتذار أريكا والردّ الذي تركته على مكتبها دون أن نلتقي وجهاً لوجه. قلت لفرحان الذي بدأ يتابعُ هذه المغامرة باهتمام سعيد إن هذا الأسبوع من الجمود دليل على أن الوليد قد وُئِدَ في مَهْدِه، ولكنه ظل يهتفُ نافد الصبر أن ما أفعله يضيّع عليّ فرصةً ذهبيةً لن أحظى بمثلها وأن كل ما أحتاج إليه هو الصبر والثقة بالنفس، وأفاض في شرح نظريته التي يُصِرّ على أنها خُلاصةُ تجربة طويلة بالرغم من أنها قيلت كثيراً من قبل، وتفيد أن المرأة تقول نعم حتى وهي تقول لا. وكنت أجد ذلك مربكاً وأجد ارتباكي إزاءه دليلاً على جهلي فنون التعامل مع النساء، لكنه يصرّ على أن المسألة أكثر من سهلة مُيَسَّرة فهي مُمتعة ومُجدية أيضاً. طلب مني أن أذهب إلى مكتبها وأسأل عنها وأحدثها لأن المرأة لا تبادر، المبادرة تقع على عاتق الرجال. قلت له إن صحفية بريطانية تنكّرت بلباس رجل وقصدت البارات للتقرب إلى النساء وقد وجدت التجربة شاقة ومربكة إلى أقصى حد حتى قالت إنها لا تقلّ صعوبةً عن آلام الولادة، فلم يأبه لكلامي وأطلق هُتافه المُعتاد : ليتني كنت مكانك! كان آخر ما اقترحه عليّ جاداً أن يرسل لي كتاباً ثميناً لا يفارقه في السِّحْر والرُّقَى يمكن أن يساعد على حل أعقد العُقَد. تلقيتُ المُقْتَرَح كواحدة من نِكاته المعتادة وقلت إن في المغامرة من السّحر والحتمية ما يكفي.

وجدت نفسي وجهاً لوجه قبالة أريكا على حين غِرّة بينما أنا أتجوّل بين رفوف أسواق كمجيز. وكانت مفاجأة حقيقية لكلينا. حدث اللقاء بين صفوف طويلة من علب البسكويت الملونة الزاهية بكل أنواعها وكانت هي

Twitter: @ketab_n

مستغرقة في استعراضها عندما دخلتُ الممر ووجدتها. بادرتُ إلى القول مازحاً إن الاهتمام بالبسكويت يهدّد رشاقتها. كانت سعيدةً باللقاء دون شك وحيّتني بحرارة وسألتني عن أحوالي. قلت إني حاولتُ الاتصال بها طوال الأيام الماضية دون جدوى، فأسرعت تسأل عن رقم تلفوني ثم قالت إنها ستتصل ليظهر رقمها على جهازي، ورحّبتْ بالاتصال.

كنت أحدس أن حديثنا لن يطول فلا بد أن ستورمي تكمن في مكان قريب ووصولها لن يساعد على التفاهم المطلوب، لكن الحديثَ انقطع لسبب آخر لم أتوقّعه. سمعت تحية خلفي بصوت عراقي وقور والتفتّ لأجد دكتور حاكم يتجوّل دون عربة تدلّ على التسوق. حين بادلته التحايا انسحبت أريكا بتأدب رقيق وتركتني معه. قال إنه يأتي إلى أسواق كمجيز يومياً قبل أن يقصد المقهى وإن مكانه المفضّل الآخر هو مَعارِض السيارات، فهو يهواها ويهوى الحديثَ مع الوكلاء المستعدين دائماً للترحاب والحوار عن أسعارها ومواصفاتها. وهكذا لَفَّنِي في سُحابة ضجره ووجومه وخرجنا معاً من الأسواق حيث كان الدكتور موفق قد سبقنا إلى المدخل فَحَيّاني بوِقار عابس. كنتُ قد جئت الأسواق ماشياً فهي لا تبعد كثيراً عن سكني وقد اجتزنا دوار المنطقة الصناعية في مسير مُتَّئِد يشبه طريقة رفيقيّ في الكلام. بدا أن الدكتور موفق كان يستأنفُ حواراً سابقاً بينهما حين قال:

- أعتقد أنه سيعود إلى عُمان عن قريب.

سأله الدكتور حاكم:

- كيف سيتمكنُ من الحصول على الفيزا إلى عُمان وقد أنهى عقده؟

- لقد احتفظ بتأشيرة العمل في جوازه دون إلغاء، وهي لا تزال نافذة.

- كم مضى على عودته إلى العراق؟

- حوالى ستة أشهر، وقد حذّرته من الإفراط في التفاؤل. كنت أعلم أن الأطباء مستهدفون في البلاد.

Twitter: @ketab_n

- كل الكفاءات، والآن صار القتل على الهوية.

استمعتُ بانتباه وصمت. كان واضحاً أن الحديثَ يتصلُ بطبيب عراقي قرر العودة مع أسرته إلى العراق لكنه يعاني الآن تدهور الوضع الأمني في بغداد وقد تلقّى تهديداً بالقتل وجده على باب عيادته. قال الدكتور موفق:

- لا حل لورطة العراقيين.

أجاب دكتور حاكم بنبرة حادة:

- بل الحل موجود!

- وما هو؟

- جيش المهدي سيُلَقِّنهم درساً لن ينسوه. لقد استهتروا وأوغلوا في إراقة الدم بينما الحكومة عاجزة عن اتخاذ أي إجراء حاسم. لم يبقَ إلّا أن يأخذ الأهالي زمامَ الأمور لكي يصحو الطرفُ الآخر من غِيِّه وتماديه.

قلت متدخّلاً لأول مرة في الحوار:

- لكن هذا سيُدخل البلاد في أَتُّون حرب أهلية ويهمّش الدولة.

التفت إلي د.حاكم بنظرة غاضبة وقال:

- وهل تعتقد أن الحربَ الأهلية لم تقع بعد؟ دَعِ الدكتور موفَّق يحدّثك عن الطبيب العراقي الشهم الذي يصدّر السيارات المستعملة من هنا، من عُمان، ليفجّرها الزُّبانيةُ في بغداد بين الناس في الأسواق والمساجد والباصات. لا بد من التصدي لهذا الاستهتار.

لم أشأ التوسُّع في الحوار. خطر لي وأنا أفكر في تاريخ الدكتور حاكم الحافل بالإنجازات في صفوف حزب البعث وحماسته القديمة لحماقات الديكتاتور أن البعثَ قد أنتج الخامة التي يعتمدُ عليها حمّام الدم في العراق اليوم، وهي خامة تَرْفد الطرفين بالوقود اللازم. أضاف الدكتور موفق معلومة جديدة مخاطباً د.حاكم:

Twitter: @ketab_n

- هل تعلم أن هنالك جمعَ تبرُّعات في عُمان بين الأطباء العراقيين لدعم المقاومة الشريفة في العراق، وما المقاومة إلا قتل العراقيين العُزَّل.

كنت أشعر بعُزلة تامة عن كل الأطراف سبّبت لي كَمَداً واضطراباً. هنالك مُعضلة يصعب حلُّها، وما يحدث من تفاقم للمُعضلة يزيدها تعقيداً. كان رفيقاي يزعقان بغضب في الشارع وقد تصاعد الحوار كالنَّبْش في النار. حين افترقنا ووصلتُ إلى شقّتي أخرجتُ جهاز التلفون من جيبي لأضعه على الطاولة في الصالة فلاحظت نداء لم يَرُدّ عليه. كان من أريكا التي وَفَتْ بوعدها لأطّلع على رقم تلفونها. تطلّعت إليه بنوع من الذهول والحياد وقد اختلط بأصداء حوار حاكم وموفق، كأني لم أسعَ إليه وكأنه يصل إليّ من مخلوق يحيا في كوكب آخر. خلعتُ ملابسي ساهماً وأنا أنتظر محاولة المُكَيِّف ترطيب جو الشقّة الراكد.

ربما كانت رغبتي في الهرب من الأرض وشباكها التي تكبّلني هي ما دعاني بعد ثلاثة أيام من تبادل أرقام التلفونات إلى الاتصال بأريكا. حدث ذلك بعد اتصال من فرحان الذي أبدى حماسة ربما فاقت حماستي لاستكمال المغامرة. حين علم أني لم أتصل مباشرةً لامني وقال إن ما حدث يثبت حدسه الأكيد أنّ المغامرةَ محمودةُ العواقب وأن أمامي فرصة أُحْسَد عليها، واقترح أن أدعوها إلى رحلة خلال عطلة نهاية الأسبوع إلى مَسْقَط للتسوُّق وتناول الغداء. قال إن عليّ أن أحذر هذه المرة الإصرار على اصطحابها وحدها، لا بد أن أبدأ بالانفتاح على كل من حولها ثم يأتي موعدُ الخَلْوة وحينئذٍ يجب علي أن أرضى بصُحبة من نوع آخر. ولم أفهم قصده فقال إن الشيطان ثالث كل زوجين من أنثى وذكر، وإذا لم يحضر فلا بد من استدعائه، ولكن العَجَلة من الشيطان!

بعد كل حديث مع فرحان عن أريكا يداخلني شعور بأن الأمر كُلّه لا يعدو المزحة أو اللعبة أو المغامرة. لم أقترب من امرأة بهذه الطريقة قبل طلاقي قَطّ. كنت لا أقترب إلا من المرأة التي تسحرني وحوار قصير معها

Twitter: @ketab_n

يكفي أن يكون سبباً لأيام من الخيالات الهانئة. وقد سألت نفسي قبل أن أتصل بأريكا أين تقعُ من سجلّي المتواضع في عشق المرأة. هل هي معشوقة بالفعل؟ ما الذي أعرفه عنها؟ هل يكفي بهاء جسدها ورِقّة صوتها ليكونا سبباً لما أفعل؟ خطر لي أن ما أفعله لا يعدو محاولة للفرار من شيء ما، أو تعبيراً جَمُوحاً عن غريزة ظلت مهملةً طوال سنوات وحدتي وحرماني من المرأة في الصحراء الليبية الأسطورية في اتساعها وجفافها، أو افتتاناً بعالم الغرب المُلوَّن الهيدونستي البعيد. كل هذا راودني وَثَنَى عزيمتي عن الاستمرار لكن للرغبة منطقها الأعمى.

جاء صوت أريكا رقيقاً هادئاً. سألت عن أحوالها وأخبارها فلاحظت أن رقّتها امتزجت بقلق وبُرُود. ألقت عليّ السؤال الروتيني عن أخباري فاهتبلتُ الفرصةَ لأعلن مشروعي الفرحاني لزيارة مَسْقَط والتسوُّق هناك، وسارعت إلى دعوتها وأضفت أننا يمكن أن نمضي يوماً رائعاً نتوّجه بوجبة غداء شهية في السبايسي فيلج (هو المطعم الهندي المفضَّل عندي هناك). لم يُثِرْ عرضي حماستها وعجبت عندما سمعتها تقول:

- اسمح لي سليم، أودّ أن تعرف أني لا أستطيع أن أقبل دعوات كهذه، لأن لي من الأصدقاء ما يكفي لصحبتي عندما أريد.

شعرتُ بإحراج وارتباك. قلت في محاولة أخيرة للتغابي:

- ألستُ أحدَ هؤلاء الأصدقاء؟

- أنت زميل عزيز وصديق أيضاً، لكني لا أستطيع أن أقبل مثل هذه الدعوات منك. نحن في مدينة صغيرة ومجتمع محافظ. وإن شئت الحقّ أجد نفسي في مكان لا أفهمه إطلاقاً وبدأت أخشى كل شيء فيه.

لم أجد سبيلاً إلى الانسحاب في تلك اللحظة. لا أدري لماذا تشبَّثت، ربما لكي لا أبدو بليداً:

- لكنك سبق أن قبلت دعوة مني من قبل؟

جاء صوتها حاسماً هذه المرة:

Twitter: @ketab_n

- كان ذلك خطأً ارتكبته، وقد أدركتُ خطئي قبل التمادي فيه.

حاولت أن أحافظ على كرامتي وأنا أنسحب:

- على أية حال. أعتذر إن كان في دعوتي ما سبّب لك الإحراج أو الانزعاج. تذكّري أني زميل مخلص لن أتردّدَ في تقديم العون متى شئت .

- شكراً لك. هذا لطف منك.

قالتها بتأدب بارد جمّ وذكّرتني بشكوى جورج من التهذيب الذي يلفّ به البريطانيون أنفسهم بشرنقةٍ عازلةٍ لا سبيل إلى اختراقها. كنت أقف في شُرْفة غرفة النوم فوق دوّار الشرية الزاعق، لكنني لم أسمع لحظتئذٍ إلا أصداء عبارات أريكا المُسنّنة الجارحة. ثم بدأت أنتبه تِدريجاً إلى نداء قادم من أسفل، من على الرصيف المقابل لشقّتي أمام مكتب عُمان موبايل. كان اسمي يترددُ في الهواء ويطفو، وقد وقع نظري حين خفضته لأرى المصدر على قامة زكي خليل الفارعة الرياضية. تكلَّفتُ ابتسامة ولوّحت له فصاح وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- من صاحبة الحظ التي تشغلك إلى هذا الحد؟

دعوته إلى الصعود دون أن أردّ على سؤاله، فشكرني ودعاني إلى التمشي معه، لكني اعتذرت ودخلت شقّتي فيما يشبه الدُّوَار. كنت أشبه بالصياد الحزين الذي وصفه السيّاب وهو يجمع الشباك ويلعن المياه والقدر .

لم يتأخر إدراك ما حدث مع أريكا كثيراً. قالت لي ساندرا في بداية الأسبوع اللاحق وهي ترشف شايها العشبي في هَناء كامل:

- عمارتنا هذه التي جمعت أساتذة القسم عالم عجيب يفوق أي مسلسل تلفزيوني في عجائبه وغرائبه.

كنت أحتسي الشاي وأنا أقلّبُ كتابات طلبة المجموعة سي الضعيفة التي لا تعدو التعبير عن أفكار بدائية في عبارات مهلهلة. تعيش ساندرا في بناية من خَمْسة طوابق خصّصتها شركة فكتوريا للأساتذة الغربيين المتعاقدين

Twitter: @ketab_n

معها، وهي البناية التي تضمّ الكثير من معارفي في القسم مثل أريكا وستورمي وماثيو وجين ورالف وآخرين. وقد زُرْت هذه البناية مرةً واحدةً وحرصت ألّا أبقى فيها طويلاً. لاحظت في تلك الزيارة أن أبواب الشقق مغلقة يلفّها سكون عميق. وكانت الزيارة استجابة لطلب من ساندرا أن أساعدها على نقل دولاب كبير لم يكن يعجبها مكانه. وقد دفعناه معاً وعبّرت ساندرا حينئذٍ وهي تلتفتُ نحوي مسندةً كَفَّيْها إلى الدولاب عن إعجابها بقوتي وردّدت اعتقادها أن طاقتي شبابية تثيرُ الإعجاب. لمحت وأنا أهبط من الطابق الثالث أن شِقّة أريكا تقع في الطابق الثاني، إذ لاحَ اسمها على الباب مكتوباً على ورقة ملوَّنة بخط كمبيوتري كاريكاتيري. كانت الشِّقّة صامتة.

سألتُ ساندرا بفضول حقيقي:

- ماذا حدث هذه المرة؟

قالت وقد شاقها أن تثيرَ فضولي بهذه الطريقة:

- إنها الديفا مرةً أخرى!

زاد فضولي لأن ديفا هو اللقب الذي بدأت تُطلقه ساندرا على أريكا منذ علمت أني وجّهت إليها دعوة إلى العشاء. والحق أني لم أفهم معنى الكلمة مباشرةً فعدت إلى ما لدي من قواميس لأعلم أنها تعني الراقصة أو المغنية الأولى في الأوبرا وأن اللقبَ يطلقُ على المرأة التي تتصرَّف وكأنها محطّ اهتمام الجميع وأميرة المكان. أدركت أن ساندرا وهي تطلق عليها هذا اللقب كانت تُعَبِّر عن غَيْرة منها وغضب من اهتمامي بها. ابتسمتُ وأنا أسمع اللقب فأجابت ساندرا بابتسامة لا تخلو من تهكّم:

- تبدو أكثر اهتماماً بالخبر الآن! أعتقد أنك طرف فيه أيضاً.

- كيف؟

لقد فوجئت حقاً.

Twitter: @ketab_n

- دعني أحدثك أولاً عن سلمان المعمري ابن صاحب البناية التي نعيش فيها.

برقت في رأسي صورةُ سعيد المخيني واستجوابه لي في أول لقاء بيننا، فتساءلت ما عسى أن تكون تسلية هذا المحظوظ الآخر من العُمَانيين؟ قالت ساندرا:

- هذا الشاب يعيش الحياة بالطول والعرض. ظل يترددُ إلى البناية في البداية ويعرض خدماته على الأساتذة (الإناث على نحو خاص، بالنسبة له الذكور لا يحتاجون إلى مساعدة). وقد زارني مرتين أو ثلاثاً وسألني عن الشقّة التي أسكنها. كان يأتي مرةً بالدشداشة والكمة وأخرى بالبنطلون الغربي. وقد لاحظت أنه يميل إلى المزاح كثيراً، ثم بدأ يُسمعني كلمات الغزل والإعجاب. أدركت نواياه في الحال. ليس ذلك بالأمر الصعب علينا نحن النساء، وقد أفهمته بأدب أني أحتاج إلى الراحة والهدوء وأني لا أستقبل الضيوف كثيراً. ويبدو أن الفتى أدرك ما أعنيه فخفّف زياراته.

- حسناً فعلت.

اتسعت ابتسامتها الساخرة:

- ولكن الديفا لم تفعل مثلي. كانت تستقبله بالودّ والدفء ولا يعنيها سَتْرُ جسدها عندما يزورها. كنت معها ذات يوم أشرب الشاي مساء عندما وصل ليتفق معها على تصليحات في الحمّام. بالمناسبة مثل هذه التصليحات ليست من اختصاصه، هنالك شاب بنغلاديشي وديع هو المسؤول عنها وقد أعطانا تلفونه لنتصل به عند الحاجة. لكن سلمان لا يعجبه ذلك ويريد أن يكون المنسّق الموجود دائماً للتصيد في شقق البناية الخانقة. على أية حال، زارها عندما كنت معها وكانت ترتدي شورتاً قصيراً وقميصاً يكشف عن أخدود صدرها الغائر [تسميته الإنكليزية كلمة واحدة هي "كليفج" وهي لا تتضمّنُ فكرة الغائر هذه]. تصورت أنها ستقوم وتغير ملابسها عند استقباله. دخل كمن اعتاد المكان واستقبلته هي بِالْها ها والهي هي!

Twitter: @ketab_n

لم أستطع منع ضحكة انطلقت مني وأنا أرى جدّيتها في إطلاق هذه الأصوات الساخرة، لكنها لم تبتسم. كانت غاضبة.

قالت بحسم:

- لم يعجبني الوضعُ واستأذنت لأخرج فبقيا معاً يتحدثان. هل تعلم؟ سارع الفتى إلى الجلوس ما إن دخل الشقة ببنطلون جينز وتي شيرت، وبدا كأنه في بيته تماماً.

- حسناً، بالنسبة إليها.. ربما تكون قد فعلت ذلك بحُسْن نِيّة.

بادرتني بالرد دون تأخير وهي تحدّق إلى عيني:

- هل من حُسْن النِّيّة أن تتسامر معه حتى ساعة متأخّرة على كؤوس الخمر؟

- هل شربت الخمر معه؟

- نعم، هذا ما أكدته هي بعد ما فعل.

- وما الذي فعله؟

- لعبت الخمر برأسه وهجم عليها ليقبلها كالوحش. قالت لي هي نفسها إنها خافت منه وهدّدته بالصراخ لكنه كان قد فقد السيطرة على أفعاله وضغط جسدها بالحائط، فاضطرت هي ـ وأريد منك أن تلاحظ ذلك ـ، اُضْطُرَّت أن تسمح له بالقذف بعد تلامُس محموم فوق الملابس. قالت إنها أرادت أن تنجو من الاغتصاب ولم تكن أمامها من وسيلةٍ تحمي بها نفسها إلا أن تدعه يقذف ليهدأ.

لم أدر بمَ أُعَلِّق. غمغمت لأقول شيئاً:

- أمر مؤسف.

- لم يخرج من الشِّقّة بعد أن قذف واضطرت إلى الصياح فحضر ماثيو الذي يسكن في الطابق الثاني جوارها ودقّ الباب واصطحبه إلى الخارج. كانت فضيحة وكانت هي تُبدي الارتعاب والفزع.

Twitter: @ketab_n

- أعتقد أن سبب المشكلة هو سوء تفاهم. ما تعتبره هي تأدُّباً وكَرَم ضيافة يراه هو محاولة لإغوائه. الناس هنا لم يتعودوا التعامل مع المرأة إلا في البيت، عندما تكون أما أو أختاً أو زوجة.

صمتت ساندرا وابتعدت بنظرها عني. لا بد أنها منعت نفسها بصعوبة من الشروع مباشرة في هجوم عليّ أنا الآخر. بقيت أنتظر ما تقول فتطلعتْ نحوي مرةً أخرى وقالت:

- أمس كنت أحدّثها عما حدث. كانت غاضبة وقد ذكرت قائمة من تحرشوا بها في المدينة ومن بينهم باعة في السّوق، وسواق تاكسي، وشباب متسكّع. لقد أسفت لأنها ذكرت اسمك في هذا السياق أيضاً.

لا بد أن وجهي قد احمرّ لشدّة انفعالي وحَرَجي. سألت مستنكراً:

- اسمي؟

- نعم. قالت إنك عُدْتَ إلى دعوتها إلى سَفْرة إلى مَسْقَط قبل يومين وإنك اتصلت بها بعد يوم من اعتداء سلمان عليها .

لم أَدْرِ ما أقول. دافعتُ عن نفسي دون جدوى. بقيت نظرة ساندرا نحوي تطفح شَكّاً، ثم قالت بِمَوَدّة:

- سليم أنا أحترمك كثيراً وأقدّر كثيراً مساعداتك السخية لي منذ وصلتُ إلى هنا. لذلك أريد منك أن تعرف أمراً مهماً يريحك ويريحها.

- ما هو؟

- لدي اقتناع تام أن خيار أريكا في الحب قد حُسِمَ منذ أول أيام وصولها.

لم أقل شيئاً. بدا أن السؤالَ في مثل هذه الحالة سيكون إدانة لي وتأكيداً لاتهاماتها. قالت ساندرا:

- هل تعلم مَنْ خِيارُها؟

- لا، ولا يهمني أن أعلم.

Twitter: @ketab_n

كنت قد بدأت أعبّر عن سخطي أنا أيضاً.

- لتعلم إذن، إنها ستورمي!

- ستورمي؟

- نعم، وهما تقضيان معظم ساعات النهار والليل معاً.

لم أقل شيئاً بالرغم من أن سؤالاً ظل يلحّ عَليّ، وقد حَدَسته ساندرا فقالت:

- نعم، قد تسأل ولماذا يروقها إغواء الرجال إذن؟ فأقول لك إنها لعبة تستهويها وتستهوي الكثير من الداعيات إلى المساواة بين الجنسين. يروقهن رؤية الرجل ذليلاً أمامهن لإثبات تفوُّق المرأة.

لم أُعلِّق ولم أستطع إخفاء غضبي واضطرابي. ولا بد أن ساندرا لاحظت ذلك، فقد قالت بما يشبه المواساة:

- إنه أمر يثيرُ القَرَف!

Twitter: @ketab_n

23

انشغلتُ لأيام بعد ذلك الحوار مع ساندرا بترميم اضطرابي وحرجي. كنت كمن وقع في فخّ لغفلته ولم يجد من يلوم إلّا نفسه. تعلّمت في مثل هذه المواقف ألّا أدفعَ اللوم إلى غيري فالناس يقترحون كل ما يخطر بالبال من الأفكار والاحتمالات لكن الفعلَ فعلُ المرء نفسه ومسؤوليته تقع عليه أولاً وأخيراً. لقد دعاني فرحان إلى عالمه اللاهي وكانت استجابتي السريعة دليلاً على الوَهَن في داخلي وحاجتي إلى الخروج من سجن همومي الصخري القديم. ما زاد من حَرَجي أن سِحْرَ الأنامل الصينية قد تبخّر تماماً بعد أسابيع وعادت هُمُومي المُعَتَّقة تُثقل وجودي وتخدّر الإحساس في جسدي. والأطرف أني استبعدت أي احتمال للعودة إلى تلك العيادة، لم تكن هي الحلّ بالنسبة إلي.

حين علم فرحان بما حدث أطلق ضحكةً زاعقةً كأنما سمع نكتةً وقال إن عليّ أن أحذر ساندرا فقد تكون أقاويلها ملفّقة لتدخل هي على الخط. لكني لم أُصْغِ إليه وقررتُ على نحو قاطع الانسحاب من هذا الميدان الزَّلِق، سقطةٌ أخرى وأكسر عظماً دون أن أدري!

ساندرا من جهتها لم تنسحب وقد صارحتني يوماً بما يحيّرها. قالت:

- إن بك حاجة إلى امرأة كما أرى!

صاحب عبارتها وجه يَعِدُ ويدعو. قلت:

- مَن مِن الرجال لا يحتاج إلى المرأة؟

ضحكت وقالت: بعضهم!

Twitter: @ketab_n

ثم أردفت بنظرة متأملة لم تبتعد عن عيني:

- لكنكَ قلتَ يوماً إنك منذ الطلاق اتخذت قراراً بتجنّب النساء وكأن زوجتك كانت خُلاصتهن جميعاً.

قلت دون أن أنجحَ في التخلص من نبرة الدفاع عن النفس:

- قصدت النساء كمشروع للزواج. لم أعد مستعداً لزواج جديد بعد تجربة مريرة.

- حتى إن التقيت المرأة المناسبة؟

- مشكلتي أني لا أدري من هي المرأة المناسبة وما مواصفاتها؟

ابتعدت بنظرها وهي تقول:

- عفواً لذكر الأسماء، ولكن ألم تكن أريكا امرأةً مناسبةً بالنسبة إليك؟

انتفضت بما يتاخمُ الغضب:

- إطلاقاً. لقد شرحت لك حكايتها. لم يعدُ الأمر مجاملات وزمالة عمل.

عادت تُحدّق إلى وجهي بنوع من اللوم:

- وهل هي الوحيدة التي تحتاج إلى زيارة بيتزا هت أو مَسْقَط؟ انظر حولك وستجد أُخريات.

حاولت أن أختصر الطريق لتكفّ عن نبرة التعريض:

- هل تودّين الذهاب إلى مَسْقَط؟

هتفت ضاحكة:

- بالتأكيد! متى؟

وجدت نفسي أدخل فخاً جديداً دون أن أعلم، وقد سارعت إلى محاولة الإفلات منه في الحال. قلت محذّراً:

Twitter: @ketab_n

- تعلمين أن رؤيتنا معاً في مَسْقَط قد تثيرُ الأقاويل.

ردّت بتهكّم سافر:

- هل تقصد أن رؤيتك مع أريكا أمر مختلف؟ ربما لفرق العمر بينكما!

كتمتُ امتعاضي من سخريتها فأسرعَتْ إلى القول:

- اطمئن سليم. ستكون زيارة من أجل التسوق في أماكن عامة، وتأكد أني لن أفعل شيئاً لإغوائك.

كان في عبارتها الأخيرة نبرة إغواء سافرة. تساءلت إن كانت ساندرا قادرة على أن توفّر لي ما وجدت من وعود في جسد أريكا وشبابها. إحساسي بما يحدث وتخبُّطي بين ساندرا وأريكا دون أن أمتلك القدرة على كبح رغبتي في التمادي، جعلني أتحرك في محيط غريب عني.

كنا قد بدأنا الترتيب لسَفْرة مَسْقَط عندما دخل المكتب على نحو غير متوقَّع تماماً الدكتور حاكم في زيارة مفاجئة. حيا ساندرا ببرود وجلس على كرسي أمامي وقد ارتسم على وجهه ما يدلّ على أن الزيارة لا تعدو رغبة منه في كَسْر رَتابة المكان التي طبعت ختمها الجامد على ملامحه. تكلّم بالعربية، وهو أمر همّش ساندرا تماماً وتركها لأوراقها. دعوته إلى الشاي ففضّل القهوةَ كعادته، وقال إنه بعد أن دخن سيجارة فوق سطح البناية لن ترضى نفسه بغير فنجان من القهوة. وكان الحظر على التدخين في الكلّية صارماً جداً بحيث أن المدخّنين يلجأون إلى سطح البناية لممارسة غوايتهم. لم أقتنع أن زيارته عفوية لا تهدف إلى شيء بعينه فبقيت أنتظر وأنا أتبادل وإياه مجاملات باهتة. وسرعان ما اقترب من غايته فطفق يحدّثني عن تاريخ القسم والفترة التي كان هو يشغل فيها منصب رئيس القسم، ثم قراره ترك المنصب وأنه هو من اقترح على العميد الدكتور الطاهر ليخلفه في رئاسة القسم. انتقل بعد ذلك إلى الشكوى من الفوضى التي تضرب كل أوجه الحياة في أعمال القسم وافتقاد الطاهر الكفاءة في تسيير الأمور، ثم أضاف

Twitter: @ketab_n

بمرارة أن الأدهى من ذلك أن يناصبه الطاهر العداء بعد تزكيته له ويدسّ ضده لدى العمادة، وختم قهوته وكلامه بالقول:

- نصيحتي لك إن أردت راحة البال في هذا القسم أن تنزوي في مكتبك ولا تشجّع الطاهر على استغلالك في كل شاردة وواردة. الرجل ضائع وسيضيّعك معه.

كنت أحاول جهدي قراءةَ ما بين السطور. هل يسعى الدكتور حاكم إلى كسبي إلى معسكره؟ وهل هناك في القسم معركة بين فريقين لا أعرف عنها شيئاً حتى الآن؟ قلت ببراءة كاملة:

- أتفق معك أن القسمَ يعاني الفوضى والارتباك. تعليمات متضاربة وإشراف ضعيف. لكن عقدي كما تعلم هو العمل للكلّية وليس لشخص بعينه ولا بد من أداء واجباتي التي نصّ عليها العقد.

قال مقاطعاً:

- بكل تأكيد. أنا لم أقصد هذه الواجبات، أنا أقصد الأعمال الإضافية التي تجعلك شريكاً له في المسؤولية عما يحدث في القسم.

- لم يطلب مني شيئاً من هذا.

قام الدكتور حاكم وهو يقول بصوته الرزين حَدَّ الوُجُوم:

- شكراً على القهوة. ما دفعني إلى هذا الحديث أن كلينا عراقي وأنا حريص على أن أجنّبك صداعَ الرأس.

حين خرج وأغلق الباب خلفه بقيت صامتاً أتأمل ما قال. وأهمّ ما كان يشغلني التوقيت، لماذا اليوم تحديداً وهذه الزيارة الغريبة؟

جاء صوت ساندرا صافياً:

- من هذا الأستاذ؟

قلت إنه الأستاذ العراقي الآخر الوحيد معنا في القسم. قالت إنها تراه

Twitter: @ketab_n

في الممرات بين حين وآخر وإنه يبدو في مشيته وسيمائه مثل هتلر صغير. ضحكت لهذا التشبيه الطريف وقلت لها:

- لكِ عين حادة. لقد كان الرجل ضابطاً في جيش الطاغية في العراق. وهو الآن متحمّس كبير للمليشيات في بغداد.

قالت بصوت خافت وقد التمع في عينيها ذكاء حادّ:

- لا تخطئه العين.

وجدت في بريق عينيها شيئاً يسحبني نحوه بيسر لم أتوقّعه.

Twitter: @ketab_n

24

لم أتأخَّر في استقصاء وصايا د.حاكم الغريبة وزيارته المفاجئة. فكّرت في شخص يَدُلُّني على معرفة ما حدث، وقد سارعتُ إلى استبعاد الطاهر نفسه لما يمكن أن يثير سؤاله من مضاعفات. وخطر لي زكي خليل فلم أتردّد في التوجُّه إلى مكتبه ليقيني أن الرجل مستودع لأخبار القسم وتاريخه من جِهة، ولأنه أمضى فيه حتى الآن خمس سنوات دون انقطاع. استبعدت الأساتذة الأجانب تماماً لأن افتقادهم العربية يجعلهم غافلين عما يحدث في الكواليس، ولم أكن أعدّ جورج ممن يتقنون العربية.

اعتاد زكي باتفاق مع زميله في المكتب أريك جونسون، البريطاني البدين الذي استقبلته ذات يوم، ترك باب مكتبه مفتوحاً حتى نهاية اليوم. وهو بالنسبة إلي دليل على أن المكتب لا يحتوي ما يَحْرِصان عليه. بالنسبة إلي اتفقت مع ساندرا على إغلاق باب مكتبنا بالمفتاح لأني أضع فيه الكثير من الأوراق المُهمّة والكُتُب التي لا أريد أن أفقدها، كما أن المكتب يعدّ بالنسبة إلي امتداداً لما أفعله في شقّتي. قد أبدأ كتاباً في الشقة ثم أُنْهي قراءته في المكتب، وقد أعمل على ترجمة نص ما أو البحث في موضوع يهمّني فيتوزَّع ذلك كلّه بين الشقة والمكتب. لم يكن الاختلاف ملحوظاً بين الشقّة والمكتب بالنسبة إلي. وقد وافقتْ ساندرا حين اقترحت عليها ذلك لأن لها خصوصياتها هي أيضاً. الحال مختلفة مع مكتب زكي وأريك إذ يمكن الدخول إليه في أية لحظة، وقد لا تجد فيه أحداً. كان الباب مفتوحاً وأريك جونسون يفترشُ مقعده بوجهه العريض الذي لا تفارقه ابتسامة ودّية واثقة عريضة. قال إن زكي يمكن أن يعود في أية لحظة ودعاني إلى الجلوس وقدح من الشاي.

Twitter: @ketab_n

قال أريك وقد استبشر وجهه بقبولي دعوته:

- الحوار والمُسامرة من المُتَع القليلة في صُور.

كان توّاقاً إلى الحديث حتى ظننت أنّه ترك الباب مفتوحاً بانتظار من يمرّ فيقبل دعوته. وقد قال ما أكد ظني:

- صُور بِرْكة ماء راكدة. هل تعلم؟ أمسِ احتفلتُ احتفالاً صغيراً بحدث سعيد.

لزم الصمت ليدعوني إلى السؤال، وحين سألت أجاب:

- عدتُ لأجد أن قفلَ باب شقّتي لا يكاد يعمل. يبدو أن الرمال قد تسرّبت إلى داخله وصار لزاماً تنظيفه.

لاحظت أنه يصمت ليصنع نكتةً طريفةً فطاوعته وسألت:

- وما الداعي إلى الاحتفال بهذا؟

- كيف؟ هذا الحدث يكسر الروتين، إنه يعني ببساطة أن تتصل بمرتضى البنغلادشي الموسوعي في تصليح كل أنواع العطلات، وأن تتّفق معه على موعد في الصباح فتُعفى من بعض الحِصص المُمِلّة، وتتابعه في عمله ثم تأتي إلى المكتب في وقت استثنائي يكسر القاعدة.

صمتٌ جديد بانتظار ضحكة جديدة، مني هذه المرة. وقد أطلقتها بالفعل وأردفتها بسؤال عنه:

- أين كنت تعمل قبل مجيئك إلى صُور؟

- كنت في اليابان. عملت هناك في تدريس الإنكليزية ثمانية عشر عاماً تزوجت في خلالها امرأةً يابانية وأنجبت منها طفلين جميلين.

صمتَ قليلاً وأردف قبل أن أعلّق بشيء كأنه يكلّم شخصاً آخر:

- لكنَّ شيئاً حدث، لا أدري ما هو، جعل المرأة تنقلب ضدي وتمقتني. كنت أعمل في بريطانيا ممرّضاً في عيادة نفسية وعايشت الكثير من المرضى النفسيين وأكاد أجزم أنها أصيبت بعاهة نفسية. لم تعد تتحمَّل

Twitter: @ketab_n

النظر إلى وجهي، قاطعتني وتعاملت معي كما لو كنت عدواً لها. وحين طَلَبَت الطلاق اضطررت إلى مغادرة البلاد لأبتعد عنها، وها أنذا في صُور.

لم أكد أصدق انتقاله المفاجئ من المزاح الضاحك إلى الشكوى المُرة بهذه السرعة والسهولة. قلت لأنه كان ينتظر مني تعليقاً ما:

- هل تَحِنُّ إلى اليابان؟

- أَحِنُّ إلى أولادي، وإلى الرعاية الطبية الرائعة، لكن كراهية زوجتي التي تنتظرني هناك، نعم كراهيتها وهي غير مفهومة... إنها تدفعني بعيداً. اليابانيون لا يشبهونها. هل تعلم؟ أجريت عملية انسداد الشريان في اليابان. كنت أعاني اضطراباً في نبضات القلب وكانت حالة انسداد الشريان خَطِرة صعبة، ومكمن صعوبتها العثور على الشريان وفتحه. كنتُ مهدّداً بالموت، لكن طبيباً يابانياً متفانياً أمضى تسع ساعات، نعم تسع ساعات يبحث عن مكان العلة بمجسّين أدخلهما إلى القلب عبر الشرايين وقد نجح بما يشبه المُعجزة. نجاحه جاء نتيجة صبره، غيره من الأطباء لا يصبر أكثر من ثلاث ساعات. وهل تعلم؟ في اليابان يفقدُ المريض مسؤوليته عن صحته. عندما قلت للطبيب الياباني إن صحّتي هي مسؤوليتي أنا وإنه غير مسؤول عما يحدث، قال غاضباً إن هذا كلام مرفوض وإن صحةَ المريض مسؤوليةُ الطبيب وعليه أن يتدخّل لمنع المريض من الإضرار بنفسه. حدث ذلك عندما علم أني أتناول السندويشات السريعة ولا أتقيدُ في طعامي بعد العملية. في بريطانيا لا يغضب الطبيب إذا علم بشيء كهذا بل يلقي نصيحته ويترك لك الخيار، هكذا هي بريطانيا. أمس كنتُ خارجاً من البناية أسعى إلى تاكسي ينقلني إلى الكلّية، عثرت قدمي بِحَجَر فسقطت على الأرض سقوطاً عنيفاً سبّب لي بعض الرضوض. انظر!

كشف عن ذراع يظهر عليها خَدْش محمرّ وأضاف:

- هل تعلم؟ مرّ ليس بعيداً عني أستاذ بريطاني من القسم لن أذكر اسمه، رآني ملقى على الأرض وكان في سيارته، فلم يكلّف نفسه عناء

Twitter: @ketab_n

التوقف ومساعدتي. المشكلة ببساطة مشكلتي أنا وتعثّري مسؤوليتي.

قلت لأواسيه:

- للجار حقوق على جاره. نحن نقول جارك ثم جارك ثم جارك ثم أخاك. لا بد أن جارك هذا حالةٌ خاصة.

كان أريك يتطلعُ نحوي ساهماً، ثم قال فجأة:

- هل تعلم؟ الأطباء في اليابان قالوا لي إني لن أعيش أكثر من ثلاثة أعوام بعد العملية.

تطلَّع نحوي صامتاً بانتظار إثارة سؤال مني فسألته:

- كم مضى على تلك العملية؟

قال وهو يتطلَّع نحوي متوقّعاً دهشتي:

- مضى عليها ثلاثة أعوام!

ثم مال برأسه فجأةً بحركة كاريكاتيرية حادَّة كمن أُصيب بنوبةٍ قلبية وأطلق ضحكةً وقال:

- قد تجدني ميتاً في مكتبي في أية لحظة.

- لكنك قلت إن الطبيب أنقذ حياتك.

- نعم زاد فيها ثلاثة أعوام.

- ألا ترى وأنت معرّض لهذا الخطر أن بك حاجة لأن تكون قريباً من أسرتك وأهلك في بريطانيا أو في اليابان؟

سأل بابتسامة ساخرة ولم أفهم إن كانت السخرية مني أم من أسرته وأهله:

- لماذا؟ إذا متّ هنا قُضِيَ الأمر. تبقى جثّتي وستكون مسؤولية الآخرين، أما أنا فوداعاً، أكون قد تخلّصت من كل عناء وخلّصت أسرتي من عناء مراسيم الجنازة والدفن أيضاً.

حين وصل زكي كنت قد أدركت أن الحديثَ مع أريك جونسون يشبه

Twitter: @ketab_n

محاولة حلّ عِقَد وَشِيعة مُتشابكة. وقد دخل زكي يسبقه صخبه وتلفّه حيويته المتوثّبة مثل زوبعة صغيرة. ما إن رآني حتى هشّ وارتفعت تحيته إلى صيحة عالية. قال وهو يُلقي نظرة متسائلة على أريك:

- ألم يقدّم لك هذا البريطاني المحتال شيئاً سوى الكلام؟

وسارع إلى تحضير كوب الشاي البلاستيكي وهو يتبادل وأريك مناوشة ضاحكة. قال زكي:

- هل حدّثك عن اليابان والجرائم التي ارتكبها هناك؟

فردّ أريك ضاحكاً:

- لو كنت ممن يرتكبون الجرائم لارتكبت واحدةً هنا في هذا المكتب لأتخلّص من الثرثرة.

حين بدأت باحتساء الشاي تحوّل زكي إلى الحديث بالعربية بالرغم من أن أريك ظل يتطلعُ إلينا متوقّعاً حديثاً مشتركاً. لكن زكي كدأبه دائماً يتجنّب الأحاديث الجماعية ويفضّل عليها كثيراً الحوار المنفرد مع شخص بعينه. قال لي أريك وهو ينهض لمغادرة المكتب:

- إياك أن تنخدع بواحدة من مرشّحاته للزواج، فهو يعرضهن على كل من يراه دون نجاح يُذكر.

وقد عجبت لهذه الملاحظة، إذ بدا أنه عرض مرشّحاته على أريك أيضاً، ولم أفهم السرّ في وَلَع زكي باقتراح الزواج على كل من يراه. خطر لي أن زكي يحاول بهذا السؤال أن يدخل إلى قلوب الناس وقصصهم العاطفية، وهو بذلك يشبه سؤاله الذي يبادر به كل من يراه "خير إن شاء الله؟ أراك شاحباً!"

حين انفرد بي زكي انفرجت أساريره وأغلق باب المكتب. كان فتح الباب على ممرّ مفتوح من الجوانب على الهواء الطلق يعني دخول حرارة خانقة إليه ولكن زكي وأريك اتفقا على تحمّل الحرارة بحثاً عن مسامر يمرّ قرب المكتب ويوفّر لهما حديثاً شَيِّقاً. الآن وقد حصل زكي على رفقتي

Twitter: @ketab_n

أغلق الباب ليتجنَّب تجمُّعاً يسلب الحديث خُصُوصياته وطرافته. بادرني بالسؤال:

- هل فكرت في موضوع الزواج؟ مازلت أنتظر والمرشَّحات يسألنني عنك.

كان لا بد من كبح اندفاع زكي نحو الزوايا الخاصة وطرح السؤال الذي جئت من أجله. وقد استغرق ذلك بعض الوقت لأني حرصتُ على ألّا يكون سؤالي مباشراً عن د. حاكم ونواياه. حين ذكرت اسم د. حاكم عجبت لردّ الفعل، فقد ارتسم غضب أقرب إلى الاشمئزاز على وجه زكي وقال:

- مع احترامي للعراقيين الأبطال، هذا الرجل صعلوك لا غير.

- كيف؟

- هل تعلم أنه كان رئيساً للقسم قبل الدكتور الطاهر وبقي في منصبه ذاك عامين ذُقنا في خلالهما الويل. لم يكن يكفُّ عن القفز إلى مكتب العميد حاملاً التقارير التي تُدين الأساتذة لسبب ودون سبب.

فكرت أن هذا من نتائج تربيته البعثية في العراق حيث مِيم خط مائل هي التسمية التي أطلقها العراقيون على مثل هذه التقارير الغادرة. لكني لم أعبّر عن فكرتي لما أعلم من عشق زكي للبعث وحرصه على التعبير عن فخره بموقف الطاغية في القفص. حاولت أن أركّزَ الحديث على تاريخ القسم الصغير المعزول في زاوية من صُور وأترك التاريخ العالمي الكبير ومتاهاته. قلت لأتعرَّف على بعض الأمثلة أو التفاصيل:

- ربما كان حريصاً على أداء مهمّته على أحسن وجه. هنالك الكثير من الإهمال واللامبالاة لدى الأساتذة في القسم الآن.

هتف زكي كأنه يقاطعني:

- لا، لا وانتبه إلى ما تقول. لم يكن حريصاً على القسم أو العمل، ولكي تتأكَّد من ذلك انظر إلى سيرته الحالية في القسم. يعتكفُ في مكتبه لا يكاد يغادره، ويمتنعُ عن حضور أيّ اجتماع للقسم أو المشاركة في أية

Twitter: @ketab_n

ورشة أو فعالية. بينه وبين الطاهر عداوةٌ مستفحلة سببها ببساطة أن الطاهر الذي صار رئيساً للقسم بوصية من حاكم ومباركة كاملة، وكانت العلاقة بينهما يوم ذاك كالسّمن على العسل، تجاسر في منصبه الجديد وبدأ يطلب من حاكم الالتزام بساعات الدوام وأداء الواجبات المطلوبة منه. كان حاكم يعتقد أن على الطاهر تركه وشأنه وعدم مطالبته بشيء لا يروقه عمله رداً على الجميل الذي فعله بحقه. عُموماً تحقَّق لحاكم ما سعى إليه، فهو يعزل نفسه تماماً ويغادر الكلّية متى شاء ويقاطع الطاهر مقاطعةً تامة. فكّر في الأمر، هل هناك أجمل وألطف من أن تعمل في قسم تقوم بينك وبين رئيسه قطيعةٌ تامة؟ ذلك يعني أن أحداً لن يقف على بابك يذكّرك بواجباتك. وأكاد أقسم أن حاكم افتعل القطيعة مع رئيس القسم لا لشيء إلا ليستمتعَ بهذه الحرية الكاملة.

لم أجد صُعُوبةً في ملاحظة الانفعال العنيف الذي كان يغلي على وجه زكي وفي نبرته. قلت بهدوء وحياد:

- وهل ثمة قطيعة بينك وبين حاكم؟

- ليست قطيعة. نحن نحافظ على التحية لا غير. كان لي معه موقف عنيف كدت أُجهز عليه.

تساءلت بدهشة:

- هل تعني العِراك بالأيدي؟

أطلق زكي ضحكةً عاليةً وقال:

- شيء أقرب إلى هذا حدث عندما كان رئيساً للقسم. كنت بحاجة إلى السَّفَر إلى مَسْقَط لمتابعة أوراق تخصّ أحد أولادي في السفارة الأردنية هناك، طلبت منه الإذن بذلك أثناء موسم الامتحانات فوافق وقال إني لا أحتاج إلى كتابة طلب رسمي إذا كان الأمر لا يعدو يوماً واحداً. حدث ذلك يوم الأربعاء، أي نهاية الأسبوع. باشرت العمل يوم السبت لكنّي فُوجِئْتُ بعد يومين برسالة تنبيه من العميد لغيابي يوماً واحداً. لم أتمالك

Twitter: @ketab_n

نفسي فهُرِعْتُ إلى مكتبه وكان يجلس بسحنته الشاحبة وملامحه الكئيبة مثل مقبرةٍ مهدّمة. سألته عن الأمر فقال ببرود كامل ألم تتغيّب يوم الأربعاء؟ قلت له لكني جئتُ إليك وأخبرتك بذلك فأنكر إنكاراً كاملاً. لم أصدق ما أسمع. تجادلنا وارتفعت أصواتنا فلم أجد بُداً من الانقضاض عليه والإمساك به من ياقته.

سألت وقد زادت دهشتي:

- هل تعني ما تقول؟

- أقسمُ بالله. هذا ما حدث. أمسكتُ به من ياقته وهززته هزّاً عنيفاً. هل تعلم ما كان رد فعله؟

- ماذا؟

- هَبَّ من مكانه في رُعْب كامل وهو يصرخ سأذهب إلى العميد، لقد اعتدى عليّ، هذا اعتداء! نعم، هو جبان رِعْدِيد أعجب كيف جاء من العراق! سحبني الأساتذة الذين تجمّعوا على الصياح وهُرِع هو إلى مكتب العميد يشكو.

- وماذا فعل العميد؟

- فتح تحقيقاً في الحادث. الأساتذة الذين وصلوا إلى المكان كانوا يمقتون حاكم حدَّ الموت، وامتدّ التحقيق دون شاهد يُثبت شيئاً من ادعاءاته. أخيراً أرسل العميد إلينا معاً إلى مكتبه، وأنت تعرف العميد بلحيته السوداء الوقورة وميله إلى الهدوء والوئام حتى لو كان على حساب الحق. قال لنا دون أن يسمع منا شيئاً لأنه عرف التفاصيل من لجنة التحقيق: سأمنحكما أسبوعاً واحداً تصفّيان فيه خلافكما، وإن عجزتما عن ذلك فسأنهي عقديكما في الكلّية حالاً ولن أتردّد في ذلك. وهكذا أدرك الفأر العنيد أن أمامه خياراً واحداً هو قبول الصُّلْح، لأن فكرة أن يخسر عمله في الكلّية لم تكن تخطر على باله، فتصالحنا بتدخُّل فاعلي الخير من الأساتذة، وانتهى ذلك الفصل كما شئتُ له أن ينتهي.

Twitter: @ketab_n

- وهل أثر ذلك في رئاسة حاكم للقسم؟

هدأت نبرةُ زكي وانخفض صوته. قال متهكّماً:

- الخلاف مع أستاذ عربي لا يؤثّر في رئيس القسم. خسر منصبه عندما اجتمع الأساتذة الشقر زرق العيون على أن يشكوه إلى العميد ويشكوا إساءاته إليهم. لم يجد العميد أمامه من حل إلا استبداله.

- وهل تعتقد أن حال القسم الآن أفضل من قبل؟

قال دون أن يغادره تهكّمه:

- حال القسم هذا لا علاج لها. هنالك فوضى واضطراب اليوم وبالأمس وستبقى غداً، لكن الفرقَ بين حاكم والطاهر أن الأول كان يدّعي القدرة على الإصلاح، بينما الثاني يتعايش مع الخلل ويعدّه من طبائع الأشياء.

Twitter: @ketab_n

25

كانت سَفْرتي مع ساندرا إلى مَسْقَط مغامرةً بكل المقاييس. أبدت ساندرا حماسة منقطعة النظير وأعدّت للسَّفْرة بطريقتها الخاصة، فهي تحرص في مثل هذه السَّفْرات على أن تحمل في حقيبتها الفطائر الصغيرة والعصائر والمكسّرات والماء، ولا تنسى فرشة الأسنان ومعجونه فهي حريصة على غسل أسنانها بعد كل وجبة مهما صغرت. كان حرصها هذا يثيرُ اهتمامي ويدفعني إلى التساؤل إن كان مبعثه ثقافتها الغربية التي تعدّ لكل شيء عدّته وتحكّم العقل حتى في الإعداد لسَفْرة لاهية أم هو أنوثتها وحرص الأنوثة على الحاجات الصغيرة التي لا يتحقق بدونها الإحساس بالبيت؟

اتفقنا على أن تنتظرني في الشارع القريب من بناية الأساتذة قرب دوّار المحارة. وقد فسّرت هي ذلك برغبتي في الإسراع بالانطلاق إلى مَسْقَط. بينما كنت أحرص به على تجنّب الدخول في البناية وإعلان هذه السَّفْرة على الملأ مِمَّن يسكنها من الأساتذة. كانت حكاية أريكا قد أيقظت في داخلي شبكةً معقّدة من التحوُّطات. بدت ساندرا أكثر مرحاً من المعتاد وهي تجلس جواري على المقعد الأمامي بعد أن شدّت حزامَ الأمان بعناية، وكنت مشغولاً بمراقبة الطريق الضَّيِّق الممتدّ إلى مَسْقَط وقد ملأت أذنيَّ تعليقاتُها الفرحة الاحتفالية. نعم، كنت أشعر بأنها بتعليقاتها تلك كانت تحتفل بشيء ما، وعجبت لم لا أكون مشاركاً في الاحتفال؟ هنالك بالتأكيد بداية حكاية جديدة/ قديمة، بالرغم من حرص ساندرا على تكرار عبارة "لا تقلق، لن أحاول إغواءك". كنت أفهم بوضوح ما يعنيه ذلك، أفهمه بوصفه نداء الأنوثة الأزلي إلى الذكورة. نداء ملتبس مُحَيِّر يقبل كل الوجوه ويختفي تحت مختلف الأقنعة ويفاجئنا كل مرة بالرغم من أن

Twitter: @ketab_n

محتواه واحد لا يتغير. وكنت أتساءل وأنا أصغي إلى حديثها وأشاركها في الضحكات عن السبب الذي يجعلني متردّداً في الاستجابة لهذا النداء بالرغم من انقطاعي عن مسرّات الأنوثة لسنوات. هل السبب أريكا وخيبتي معها التي أبقتني سجيناً في مِحْراب شبابها وجمالها البارع، أم الشعور بأن الاستجابة لساندرا بهذه السرعة بعد فشل المحاولة مع أريكا سيُعّد نوعاً من العبث الفجّ قد يشوّه صورتي في عيني ساندرا نفسها فأكون مغامراً رخيصاً دون أحاسيس؟ كنت ألتفتُ إلى ساندرا قربي بين حينٍ وآخر فتلتقي أعيننا للحظات وأرى النداء واضحاً بالرغم من حيادية النكات.

امتدّ الطريقُ طويلاً تتخلله مناطقُ صحراوية شاسعة وتتوزَّع عليه هنا وهناك مُدُن صغيرة ساكنة. ساد صمت وهدأت ساندرا فحطّت على تلّة صغيرة تستكشفها وسألت:

- حدّثني عن زوجتك؟

فاجأني السؤال فالتفتّ إليها بسؤال نمّ عن عَجَبي:

- ما المناسبة؟

قالت باسمة لاهية:

- لا تَخَفْ، لا أنوي شغل مكانها. أرجوك أن تكفّ عن الغرور. لا تعتقد أن كل من تسألك سؤالاً تنوي الإيقاع بك. يهمّني معرفتها لأني مولعة بقصص الطلاق. طلّقني رجلان وكان لكل طلاق قصة طريفة شيِّقة.

قلت إن قصّتي لم تكن شيِّقة بل مُؤلمة سبَّبت لي صدمةً لم أصحُ منها بعد، فسألت وقد برق في عينيها ذكاؤها وميلها إلى الابتكار:

- هل كانت ترتدي الحِجاب؟

لم يكن من السهل تحديد ما كانت ساندرا ترمي إليه من سؤالها، فأنا أعلم أنها ليست ضد الحِجاب والخصوصيات العربية الإسلامية. فكرت أنها قد تكون تسعى إلى تكوين صورة محدّدة عن هذا الشبح الحاضر في قراراتي بهذه القوة. قلت:

Twitter: @ketab_n

- لا، لم تكن محجّبة. كانت تحرص على ملاحقة الموضة الغربية والواقع أنها جاءت من عائلةٍ عَلمانية تماماً. ذكرت لي مراراً جلسات إخوتها وعوائلهم التي لم تكن تخلو من الخمر، وهو أمر غير معتاد في بيوت العراقيين أو عرب الخليج تحديداً.

قالت بحياد وتفهّم:

- ذلك لأن الخمرَ محرّم في الإسلام؟

كدت أضحك للجدّية التي ذكرت بها هذه البديهة لكنني اكتفيت بالقول:

- بالطبع.

ساد صمت قصير دفعني دون تدبير مسبق إلى مراجعة العلاقة الغابرة ومحاولة حشرها في صيغة مفهومة موجزة فقلت:

- هل تعلمين ساندرا؟ الحداثة الغربية أخرجت الناس من سِرْداب التقاليد إلى متاهة يكاد يضيعُ فيها الإنسان.

- كيف؟

- كان زواجي علمانياً. بدأنا من فرضيات بسيطة واضحة بدت لنا بديهية مثل المساواة التامة بدلاً من ولاية الزوج على زوجته، واعتماد المشاعر والقناعة العاطفية بدلاً من القانون المُلْزم، والحوار المنطقي للتوصّل إلى اتفاق بدلاً من القرارات الذكورية المُلْزِمَة. بدا كل ذلك ساحراً وجميلاً في البداية وقد أتى لنا بثمار طازجة لذيذة، ثم مضى العامان الأولان وبدأت الحياة تعودُ إلى مجراها الاعتيادي وظهرت مزاجية زوجتي المتطرفة إلى السطح. أصبحت أحاورها بالعقل فتتهمني أن عقلانيتي تبطن رغبةً في الهيمنة عليها، أستحضر المشاعر والعواطف فتعدّ ذلك أمراً لا علاقة له بالموضوع لأن الخلافات لم تكن على المشاعر بل على شؤون الحياة اليومية أو العلاقات مع الآخرين. بعد حين أدركت أن الاتفاق متعذّر والحياة صعبة.

Twitter: @ketab_n

قالت ساندرا وهي تحاول أن تلتقي بعيني لترى ما أفكر فيه لكني لم ألتفت ناحيتها:

- ألم يكن الحوار مفيداً؟

- الأمر لا يتعلّق بمشكلة محدّدة، هنالك في الحياة مئات الحالات التي تتكررُ في كل زواج وقد وضعت الديانات والتقاليد حلولاً جاهزة لها. ما إن تتفق مع زوجتك على أن زواجكما تحكمه الشريعة الإسلامية أو المسيحية أو البُوذية حتى يصبح لكل خلاف صغير إطار معلوم يوفّر الحل ويسهّل الاتفاق. أما الزواج الحديث والاحتكام إلى مبدأ الحوار العقلي للتوصُّل إلى اتفاق فأمر محفوفٌ بكل أنواع الفشل. كنتُ أحاورها ساعات أحياناً ثم أدرك بعد انقضاء كل ذلك الوقت الطويل أن المنطقَ هو آخر ما يمكن أن ينفع في الحوار. كانت انفعالاتها قويةً وغامضةً بالنسبة إلي، ولأننا جعلنا المشاعر والحماسة للعلاقة أساساً للاستمرار فإن المزاجَ المتقلّبَ دفعنا إلى اليأس من الإصلاح.

- لاحظْ أنك لم تذكر مثالاً واحداً. هذه أفكار فلسفية أحترمها لكن التجربة شيء مختلف.

قلت دون أن أحوّل نظري عن حركة السيارات أمامي:

- هذه الأفكار خلاصة التجربة كما أفهمها، أما التخبّطُ في رواية الأمثلة الصغيرة فسينكّد عليّ سفرتي هذه.

- أعتذر عن إثارة الموضوع.

كان اعتذارها صادقاً يطفح بالتعاطف. التفتُّ نحوها ونظرت في عينيها. كان فيهما صدق يفوق التعاطف. قلت:

- لا بأس. أنا لا ألومك، لا مفرّ من مواجهة معنى تجاربنا مهما كانت مجنونة وعشوائية.

قالت بنبرة صافية متفلسفة:

Twitter: @ketab_n

- دعنا منها، ما قلته أمر مهم. أتفق معك أن الحياةَ الحديثة التي تعتمد العلاقة الحُرّة تعاني مشاكل كثيرة، لكن التقاليد تصبح إذا ما منحناها السلطة المطلقة مصدراً للمعاناة والألم. الهدوء الذي يميّز العلاقات التقليدية مظهر خادع يُخفي تحته انصياع طرف لطرف وخنق شكواه ومعاناته بأصابع التقاليد الغليظة المتجبرة. التقاليد تسلب الفرد تلقائيته وحريته في ابتكار حياته.

- الابتكار!

هتفتُ بجزع وأنا أتطلعُ أمامي:

- الابتكار هو المشكلة، فكّري في الأمر جيداً. أن نظلّ في حياتنا نبتكر الحلولَ لكل ما يواجهنا، ولا نتوصل إلى الابتكار هذا إلا بعد جدالات طويلة لا تقلّ صعوبةً عن جدالات بَرْلمان بخصوص الميزانية! أي حياة شاقّة هي. ما أسمعه منك ينفع في علاقة حب تتخذ شكل المغامرة بين شابين يعيشان حلم الشباب. الزواج شأن آخر.

- لكنك تنسى أن سعادةَ هذين الشابين بعلاقتهما هي أسمى ما يطمح إليه الإنسان. إنها سعادة حيّة باهرة تفتقدها تماثيل الشمع في الزواج التقليدي، حيث كل شيء شاحب نَزَفَ كُلٌّ ما فيه من حياة.

لم أشأ الإجابة. أدركتُ أني عبّرت أمام ساندرا لأول مرة عن الأسئلة التي حيّرتني منذ فشل زواجي وأن ما قلته وما تقوله هي يمثلان كلاهما شيئاً مما شغلني طوال تلك السنوات. سألتُ ساندرا في محاولة لاستعادة نبرتها المنبسطة:

- هل تبحث عن زوجة ترتدي الحجاب؟

قلتُ بابتسامةٍ باهتة:

- ليتني كنت كذلك. لقد قلت لك إن قراري هو ألّا أبحث عن زوجة. إنه طريق مسدود بالنسبة إلي وأنا في سنّي هذه.

- ما زلت شاباً، وأنا شابة أيضاً. الخمسون هي البداية ونحن لم نبلغها بعد!

Twitter: @ketab_n

- ألم نُولدْ بعد؟

- لم نُولدْ بعد!

كان تكرار كلمة "بعد" yet في حديثنا قد اكتسب شحنةَ الغنج على لسانها. لقد استعادت سعادتها من جديد ولم أستبعد أن تقفزَ لتطبع قبلةً على وجهي! قالت:

- بالمناسبة، أنت تتكلمُ عن الزواج وكأنه الصيغةُ الوحيدةُ للعلاقة بين الرجل والمرأة.

- قد يسوء المرأة غير ذلك.

- كيف؟ هل تعني المرأة الشرقية؟ هنالك في الحياة صِيَغ مختلفة للعلاقات كما أن هنالك أصنافاً من النساء مختلفة كل الاختلاف عن زوجتك.

- مهما كان شكل العلاقة فإنها تعني بالنسبة إلي تحمّل المسؤولية عن سعادة شخص آخر. قد تبقى المرأة شقيةً طوال حياتها قبل أن تلتقي الرجل لكنها ما إن ترتبط به حتى تختفي كلّ أسباب الشقاء ويكون هو السبب الوحيد لشقائها. حالة مقرفة!

سألتني بمكرٍ ضاحك:

- هل أنا شقية الآن؟

- أراك سعيدة.

- حسناً، أنا لست مرتبطةً برجل وأنا سعيدة ومستعدّة للارتباط بالرجل المناسب فإذا ما شقيتُ بعد ذلك صار السبب واضحاً!

ضحكنا ولم أشأ التعليق. لم تكن ساندرا تلتزم قواعد الغواية المتعارف عليها؛ صوتها ظل دائماً يصدح عالياً بالحماسة، وهي لا تكفّ عن تحريك يديها بعصبية وتجسيد تامّ لِما تقول، كما أنها لم تكن تُطيل النظر إلى عيني كثيراً. لعينيها نظرة متقافزة مشغولة بجمهرة من النوايا والاعتبارات.

Twitter: @ketab_n

26

خطر لي قبل الوصول إلى مَسْقَط أن أتصل بفرحان لينضمّ إلينا في تسوّقنا في كارفور لعلمي أنه غالباً ما يكون في مَسْقَط مع عائلته في نهاية الأسبوع. وكنت أفكّر أيضاً أن حضوره وظهوره معنا في المكان سيمنع من يرانا في مَسْقَط من نسج القصص والأقاويل في صُور. علت دهشة مرحّبة في صوت فرحان وقال إنه قادمٌ للقائي دون شك ولكنه قد يتأخر لانشغاله بالتسوّق مع عائلته هو أيضاً. وقد سرّني ذلك وأخبرت ساندرا به فرحّبت دون حماسة. حدَستْ أن دعوةَ فرحان لا تعدو محاولةً مني لخلق مسافة عازلة بيننا. لم يكن يخطر ببالها تحوطاتي ضد الوشاية. ولكن ربما كانت على حقّ، ربما كنت أحاول بهذه الدعوة أن أعبّر عن تردّدي في الاستجابة لندائها.

تبدو أسواقُ كارفور في مَسْقَط حدثاً كبيراً أشبه بالمهرجان. لكنه يوحي لي دائما بالجِدّية، كما لو أن ما يحدث فيه تَجَمُّع على مستوى الأُمّة لمناقشة شأن عظيم يهمّ الجميع، أو كما لو أنه معركة تتقرَّر فيها مصائر الناس. على الوجوه اندفاع وانبهار ونَشْوة تعلو بالمتسوّقين على رتابة أيامهم وحرارة هوائها وتُنسيهم عناء أعمالهم وتعقيداتها وهي تذكّرهم بالجائزة. غالبية المتسوّقين من الأجانب، مما يجعل المكان ميداناً تجتمع عليه كل الأمم في تقديم فُرُوض الولاء داخل مِحْراب التسوّق. هنالك غزارةٌ في اللون تملأ العين بعد فقر الألوان في صُور حيث تختزل المشهد زُرْقة البحر وشحوب لون الرمال. زاد حماسة ساندرا وهي تستعرض المكان، إنه مكان مألوف بالنسبة إليها، قطعة من أوطانها الثلاثة جاءت لتحيتها في غربتها. ما

Twitter: @ketab_n

أثار تساؤلي أن ساندرا التي زارت أكبر الأسواق في أوروبا وأوستراليا كانت تُبدي انبهار الطفل بهدية منتظرة، لم تحاول الادعاء بأن المكان لا يَرقى إلى توقّعاتها وتلك سجيّة ظلت تقرّبها مني كثيراً.

ملأنا عَرَبَتَي التسوّق بما لذّ وطاب وكنا لا نكفّ عن مقارنة ما نراه بتواضع أسواق كمجيز في صُور التي تحتكر عالم التسوق وتغطي على الحوانيت المتواضعة الصغيرة في المدينة. علا صوت تلفوني فوق صَخَب المكان وكان فرحان. قال إنه في الأسواق فاتفقنا على اللقاء في منطقة المطاعم الواقعة في رُكْن قَصِيّ منها. كان الزحامُ هناك أشدّ وكرنفال الضوضاء والتدافع صاخباً مما أكد لي أن ما يحدث أمر جدّي بل في منتهى الجدّية. عثرنا على فرحان بصعوبة وقد سرّني مرآه كثيراً. لقد ارتبط وجهه الممتلئ الباسم بالنكتة والمغامرة والإصرار على عدم تأجيل مُتعة الجَسَد مهما ثقلت الروح. صافحني بوقاره المعهود في بداية كل لقاء كما لو كان شيخاً من شيوخ عشائر الفُرات الأوسط. الطريقة التي يبدأ بها اللقاء لا تنمّ أبداً عن مهرجان الضحك الذي يعقبها. قدّمت له ساندرا فتفحصها بأدب جمّ. بدا على ساندرا بعض الإحراج لم أفهم سببه لكن ابتسامتها تواصلت وسرعان ما علت ضحكاتها وهي تسمعُ تعليقات فرحان الذي تكلم الإنكليزية بلكنةٍ عراقيةٍ أصيلة. كانت نغمة صوته عراقية بالرغم من أن الكلمات إنكليزية مما زاد في طرافة ما يقول.

لم يكن العثورُ على مكان لثلاثة بالأمر الهيّن في زحمة المكان بالرغم من سَعَتِه الكبيرة. تدافعنا مع المتدافعين نستعرض أكشاك الأكلات السريعة وهي تمثلُ غالبية الماركات العالمية المعروفة فاتفقنا مع فرحان على اختيار كشك للمأكولات اللبنانية تحمّست له ساندرا التي قالت إنها تبحثُ عن خصوصية المكان فلا تكاد تجد شيئاً يدلّ على عُمان في هذه الزحمة. قال لها فرحان إن الطعام العُماني لا ينسجمُ مع فكرة المأكولات السريعة لأن تناوله يحتاج إلى آنية أقرب إلى الصينية الكبيرة ولا بدّ أن تفترش الأرض وتسترخي وتجامل من معك بهدوء ومزاج مستريح ثم تنزل بالخمسة. وقد

Twitter: @ketab_n

سألته ساندرا عما يعني بالخمسة فأحالها علي فقلت إنه يعني الأصابع الخمس بدلاً من الملعقة. حين جلسنا أخيراً واصل فرحان حديثه عن المطبخ العُماني، قال وهو مُسامِر من الطراز الأول:

- دُعيت ذات يوم إلى عرس في نزوى وكان في بهو استقبال كبير فأتوا لنا بخُوانٍ كبير فيه لحم مشوي هَشّ لذيذ وتخيلوا ما كان معه!

سألناه فأجاب:

- خُوان آخر من العسل. نعم، كنا نغمس اللحم المشويّ بالعسل. ولن تصدقا كم كان ذلك لذيذاً. فكرة مدهشة ونتائجها شهية حتى إني بقيت أطلب من زوجتي أن تعدّ لنا تلك التوليفة العجيبة ولكن محاولاتها باءت بالفشل. لا شيء في المطبخ العراقي يُشْبِه هذا. فهل هو معروف في المطبخ الأوسترالي؟

قالت ساندرا وكانت تُصغي باهتمام شديد لا يقلّ عن اهتمامها بتناول قطعة الدجاج المشوية أمامها. لاحظتُ أنها لا تفعل شيئاً دون حماسة:

- لم أسمع بمثل هذا في أي مكان. لم لا يقدّمون مثل هذه المأكولات في كارفور؟

قال فرحان:

- كارفور سَقَطَ من السماء على أرض عُمان.

سألت ساندرا:

- كيف؟

قلت إنه يقصد أن كارفور نسخة مكرّرة أينما حلّ وإنه لا يمتّ إلى المكان بصلة، فهزّت رأسها موافقة.

سألتُ فرحان عن أخيه عدنان الأبكم ووليده فقال إن الجميع يرقبون اللحظة الحاسمة يوم يحلّ موعد الكلام. حين عرفت ساندرا القصة قالت بجدية وثقة:

Twitter: @ketab_n

- لا تقلق، سوف يتكلم. كل ما هو مطلوب أن يسمع كلاماً حوله.

قال فرحان:

- من هذه الناحية لن أقلق، هنالك جوقة من المتحدّثين البارعين حوله لا يكفّون عن التعليق والشكوى وتبادل القصص عن العجائب التي تجري في بغداد. ولكن ألا يوجد احتمال أن يكون ثمة عِلّة في قدراته تمنعه من التقاط الكلام كما حدث لأبيه وأمه.

قالت ساندرا وهي تلتقطُ حبةَ زيتون سوداء من صحنها:

- إنه احتمال ضعيف جداً. . . أعرف طفلاً وُلِد لعائلة شبيهة بعائلة أخيك في مِلْبورن تكلم قبل أن يبلغ السنة الثانية من العمر.

قال فرحان ضاحكاً:

- مِلْبورن ليست بغداد. في بغداد يصاب من يقدر على الكلام بالبكامة والصَّمَم جَزَعاً ممّا يسمع.

كانت الوجبة شهيةً والحديث متدفّقاً. دفعنا عربتَي التسوق إلى السيارة وودّعنا فرحان في موقف السيارات الشاسع. كانت ساندرا ترتّب حاجياتها في صندوق السيارة عندما تحدث فرحان معي بالعربية لأول مرة. قال بجدية واهتمام:

- إلى أين وصلت معها؟

- ماذا تعني؟

- إنها شهيةٌ حارة.

- لا أجدها كذلك.

- يا إلهي، لماذا يكون الجوز لِلْما عنده سنون؟ ما عيبها؟

- لا أدري.

قال فرحان إن الذبولَ في الوجه لا يعني ذبول الجسد، ثم انبسطت نبرته كما هو شأنه حين يلقي نكتة:

Twitter: @ketab_n

- يقال إن حشّاشاً كان يمشي في شارع فوجد امرأةً ملقاةً على الرصيف تحت بناية عالية. اقترب منها وتأملها. كانت غائبة عن الوعي فقبّلها فردت قبلته بمثلها. حينئذٍ رفع رأسه ونظر إلى أعلى البناية متسائلاً: ما بكم أيها الأغبياء؟ لماذا ترمون بها على الرصيف؟ ما زالت تعمل!

ضحكنا ووجدتنا ساندرا نضحك فابتسمت بتهذيب ولم تسأل عن سبب الضحك. ودّعني فرحان بهُتاف من هتافاته الحماسية الضاحكة:

- لا تنكّس العقالَ العراقي، وإلا سوف يعتب عليك أهلها كثيراً.

قبل أن ننطلق إلى صُور اقترحت ساندرا عليّ مغامرة صغيرة كما وصفتها. قالت وهي تفتح عينيها الماكرتين كالطفل: ماذا لو اتخذنا في عودتنا إلى صُور طريقَ البحر الذي طالما سمعنا عن أخبار إنشائه بدلاً من الطريق الطويل المُمِلّ المُعتاد؟ قالت إنها سمعت أن الطريق يكاد يُفتح وستكون مغامرة طريفة أن نكون أول من يستكشفه. قلت إني أخشى ما دام تحت التشييد أن نكتشف أنه مُغْلق في مكان ما وقد يضطرّنا ذلك إلى العودة فيضاعف المسافة. قالت إن ماثيو وجين استخدماه قبل أسبوعين وعادا إلى صُور من دون عائق. لم أشأ البُخْل عليها بهذه المتعة الإضافية بالرغم مما خطر لي من أن سيارة ماثيو ذات دفع رباعي بينما سيارتي صغيرة. وهكذا انطلقنا منشرحَيْن بعد زيارة لعيادة التسوق (ذكّرني التخفّف الذي أعقب كارفور بما أحسست به بعد زيارة عيادة الطب الصيني!). اتجهنا من روي إلى طريق قريات وكان ممهداً جاهزاً لم تصل إليه أعمال الهدم والتجديد. أخرجت ساندرا من حقيبتها قطعاً لذيذة من الشيكولاتة وقالت لي:

- أنا أهوى المغامرةَ والاستكشاف.

قلت بحياد:

-لا ألومك على ذلك. لولا المغامرة ما احتمل الإنسان وجوده.

أضافت بعد صمت:

Twitter: @ketab_n

- الحياة السعيدة مغامرة!

- في الشرق الحياة السعيدة ثمرةُ الانتظام، وموطن السعادة المُخَيِّلة لا الجسد.

- المُخَيِّلة وحدها في سِرْداب مظلم بعيداً عن انهماك الجسد في تجربة حية لا تعدو سِجْناً موحشاً. لا سعادة دون الجسد.

لم أشأ الجدال. بدأت ساندرا تتحدّثُ بنبرة هادئة مسترسلة:

- في أوستراليا، في مدنها الصغيرة، يعيش الناس كما قلت لك من قبل حياة محليّة ضَيِّقة. الخلافات الصغيرة والرتابة والانطواء والملل من كل شيء. كان زوجي الثاني من هذا النوع، يعود من العمل مرهقاً فلا يمكث في البيت إلا ساعات يسرع بعدها إلى البار فلا يعود إلا في وقتٍ متأخّر لا يأبه لشيء مما يحدث في البيت. عرضتُ عليه ذات مرة أن نشتري بيتاً جديداً أوسع من الرُّكْن الضَّيِّق الذي نعيش فيه فأصيب بحالة هستيرية وقال عني إني أعاني ضجراً سبّبه المكوث بالبيت للعناية بالطفل وإن ضجري هذا سينكّد علينا راحتنا.

- ما عمله؟

- كان يعمل في مستودع لمواد البناء. عمل روتيني سَمِج وحياة روتينية راكدة. بعد الانفصال بيننا علمت أنه صار يرافق فتاةً تصغره بعشرين عاماً تعاني إدمان الكحول وأنها حوّلت حياته إلى جحيم. هل تعلم؟ لقد قدّم شكوى ضدها لدى الشرطة واستصدر قراراً يمنعها من الاقتراب من بيته أقل من خمسمائة متر. ومع ذلك، عاد إلى لقائها بعد أسابيع من صدور القرار. يبدو أنها اعتذرت له بطريقةٍ ما، ربما لقيته في بار أو مكان عام، وأنا واثقة أنهما سيختلفان من جديد وسيقصد الشرطة من جديد. إنها دوّامة من التفاهات والرتابة. ما إن دخل ابني المدرسة الداخلية حتى قررت الهرب من أوستراليا كلها.

سألت وقد بدأ اهتمامي يتزايد بحياتها:

Twitter: @ketab_n

- وما حكاية زواجك الأول إذن؟

- تقصد جوزيف؟ لقد أحببت ذلك الرجل. كان وسيماً ذكيّاً مَيّالاً إلى الابتكار. عملنا معاً لبعض الوقت في تجارة التحف والهدايا وكان له ذوق راقٍ وعين حادة في انتقائها.

- حسناً. يبدو الأمر مشجّعاً، ما الذي حدث إذن؟

- لا أدري. كنا نعيش في وئام ونرعى ابنتنا ثم فجأة بدأ يتغير. لم أفهم السبب في البداية ثم علمت أنها القصة ذاتها دائماً. امرأة أخرى تصغره بعقدين، ولكنّ هنالك فرقاً عن الحالة الأولى. بدلاً من المُدْمِنة الضائعة التي استحوذت على حياة توني اندفع جوزيف إلى أحضان امرأة من شمع، شديدة الوَرَع والتديُّن، ذلك النوع من النساء اللواتي يثبت على وجوههن قناع واحد لا يتغير من الصفاء الكاذب والفُتُور. رأيته معها ذات مرة ولم أشعر تجاهها بشيء، بدت بالنسبة إلي أشبه بالتمثال، قلت لنفسي إنه لقي عقابه الذي يستحقّه. نعم، الارتباط بمثلها عقاب وأيّ عقاب. كُنْ واثقاً بما أقول وأنا لا أبالغ! لقد رأيت على وجهه قناعها نفسه. إنها عدوى، عدوى الجُمُود وجفاف الحياة. لن تصدّق إذا قلت إني تعاطفتُ معه وأنا أراه معها، تذكّرت حيويته وروحه المتوثّبة كما عرفته، ثم ها هو ذا جامد واجم يتحرك معها متشبهاً بها. بدا وكأنهما يقصدان مقبرة.

لاحظت أن حماسة ساندرا الدائمة قد تحوّلت الآن إلى نظرة راضية متشفّية، كأنما هي تعلم شيئاً يخفى عن زوجيها وأن علمها به يعلو بها عليهما معاً. قلت معلّقاً على موضوعة المغامرة التي سيطرت على ساندرا:

- هل قرأتِ عن الشَّكْلانيين الرُّوس؟

سألتْ بنوعٍ من الاستنكار:

- مَنْ؟

- الشكلانيون الروس. ألم تحصلي على شهادة الماجستير في الأدب؟

- لا أعرفهم ولم أسمع بهم من قبل.

Twitter: @ketab_n

- حسناً، لا يهم. لقد جعل هؤلاء من الرغبة في كسر الرتابة غريزةً دائمة لدى البشر يفسّرون بها ما يحدث في الفنون وتلقّيها. يرون أن الأديبَ يحوّل إحساسنا الرتيب بالعالم إلى مغامرة مدهشة عبر ابتكار منظور جديد في النظر إلى الأشياء. لم يخطر على بالهم أن شعباً كالشعب العراقي سيعيش ثلاثة عقود من الحُرُوب والفواجع والدراما تجعله توّاقاً إلى الرتابة كما يتوق عدّاء المسافات الطويلة إلى التقاط الأنفاس. أتذكر ما كان يحدث لزوجتي عندما كنا نسافر للسياحة في العُطَل، كانت تصاب بحالةٍ من الاكتئاب الشديد والقلق المرضي، وكنت أفسّر ذلك بأنه من نتائج ما عانينا من قلق ومخاوف حين خرجنا من العراق لأول مرة. بالنسبة إلى العراقي السفر خارج البلاد سقوط في المجهول لا رجعة منه والمغامرة رُعْب لا مُتعة تجديد.

قالت ساندرا وهي تتطلع إلى شوارع قريّات المنتظمة الهادئة:

- لا بدّ أن تنسى زوجتك وتنسى رعب العراق. المغامرة هي الحياة وكل ما نفعل بين مغامرتين هو الانتظار.

عندما خرجنا من قريّات ودخلنا طريقَ المرور السريع قيد الإنشاء قرأنا في بداية منطقة العمل يافطة حمراء كتب عليها بخطّ واضح يحذّر من ينوي اتخاذ الطريق الجديد إلى صُور من أنه يجازف على مسؤوليته الخاصة وأن العملَ لم يتمّ بعد. قرأنا اليافطة وانفجرت ساندرا ضاحكة:

- هذا رائع. سنكون من الروّاد الأوائل.

صادفتنا على الطريق الجديد بعض سيارات النقل التي تحمل عمّالاً ذوي ملامح صينية أحرقتها الشمس وبدا عليها التعب والمَلَل. كان طريقاً سَلِساً ممتداً بانسيابية تامة تحيطه تلال صَخْرية ومسافات شاسعة من الرمال، لكنه سرعان ما تحوَّل إلى ممرّ واحد لأن الممرّ المجاور لم يكتمل العمل به بعد، ثم وصلنا إلى منطقة يشقّها وادٍ عميقٍ تنتصب فيه أعمدة لا بد أن جسراً سيمتدّ فوقها ليربط الجانبين. لم أجد بُداً من دخول الطريق الترابي

Twitter: @ketab_n

الذي يخترق الوادي، وحين خرجتُ إلى الجانب الآخر بعد صعود محفوف بالمخاطر في أرض وَعِرة وجدت أني أواصل السياقة على طريق ترابي آخر وأني فقدت أثرَ الطريق المعبّد. هنا بدأت المغامرة تنقلبُ إلى كابوس، فالطريق يصعد تلالاً وَعِرة ثم يهبط إلى وديان مرقّشة بالحصى، والسيارة تهتزّ بعنف ما إن أزيد السرعة وتكاد تغطس في الرمال إذا ما أبطأت. سمعت قرع اصطدام دعائم السيارة السّفلية بصخرة ثم تعالى بعده صوت زاعق. أوقفتها قرب تلّ ونظرت تحتها فلم ألاحظ أي شيء، وأشارت ساندرا إلى الشارع المعبّد الذي يمتدّ على مبعدة كيلومترين على اليسار فقالت هو كل ما نحتاج إليه للوصول. شابَ صوتها بعض الفتور وقد أدركتْ أن اقتراحها انتهى إلى عكس ما كانت ترجوه. كنا في مأزق، فالمكان خالٍ وقد بدأت الشمسُ تميل إلى الغروب. قررت أن أواصلَ السير بحثاً عن منفذ إلى الشارع المُعَبَّد، وقد استغرق ذلك وقتاً عسيراً من التدحرُج على الصخر والرمل قبل أن أهتدي إليه. ولم يتوقّف الصوتُ الزاعق. لم يمر وقت طويل حتى دخلت طريقاً ترابياً منحدراً إلى وادٍ جديد قرب قرية طيوي، ثم كان علينا صعود تل شاهق شديد الانحدار. حين خرجنا منه بعد زوبعة من القلق والمخاوف بدأت ساندرا تعتذر إليّ، ولم أشأ أن ألومها، لكن الصعوبةَ الشديدةَ التي كنت أعانيها في شقّ طريقي كانت كافية لتعرض عليها الحالة دون تعليق. لزمت ساندرا الصمت وظل تركيزها مُنْصَبّاً على مُنْحنيات الطريق ومفاجآته بينما تواصَل زعيقُ السيارة دون انقطاع. حين بلغنا دوّار المحارة أخيراً ودّعتني وقد غلبها الحرجُ وقالت قبل أن تغادر السيارة:

- أرجو أن تقبلَ مني دفعَ تكاليف تصليح العطل.

ضحكتُ بصعوبة وكانت المطبات والمجازفات قد هدّتني، وقلت لها:

- لا عليك. لا تكون المغامرة مغامرةً من دون خسائر.

Twitter: @ketab_n

27

أصبح واضحاً بالنسبة إلي أسلوب الدكتور الطاهر في إدارة القسم. فهو يميلُ إلى التهدئة ويتجنّبُ أية مواجهات حادة مع الأساتذة أو الطلبة، وهو يضع تحقيق حالة الهدوء والرضا فوق أي اعتبار آخر. لكنه بالرغم من ذلك يسعى ما أمكنه إلى تحقيق غايات الوزارة العسيرة. والتناقض بين هاتين الغايتين جعله يلتقط بعينٍ حاذقة كل من يُبدي استعداداً للعمل الجاد فيثقله بكل صغيرة وكبيرة حتى يسبّب له الإرهاق والقرف بينما يُبقي من يهوى التكاسُل في مأمن من تكليفاته دون أن يتعرض له بِلَوْم، بل ربما تمتّع بامتيازات يُحرم منها المثابر كمغادرة الكلّية مبكراً والمرونة في الالتزام بالمواعيد المحدّدة للأعمال المختلفة.

زارني الدكتور الطاهر يوم السبت وبدأ بتحية شديدة التهذيب على طريقته المميزة التي يشارفُ فيها التهذيب التردّد وحتى الشعور بالإحراج. وقد حدستُ أنه يقصدني لعمل يكلّفني به. وسُرعان ما اتَّضَح قصده لأن وقته أضيق من أن يضيّعه في المقدّمات. بدأ بقصيدة مديح مرتبكة. قال إنه يقدّر عالياً حرصي على أداء واجباتي على أفضل وجه، وعلاقاتي الطيبة مع الأساتذة في القسم، ومعرفتي الوافية بمشاكل تدريس الإنكليزية. أوجست خيفةً وأنا أستحضر تحذيرات الدكتور حاكم المفاجئة في الأسبوع الماضي. أما التكليف فهو أن أتولى منصبَ مُنسّق المرحلة التأسيسية، وهو ما يعني متابعة أعمال أكثر من خمسة عشر أستاذاً وأن أكون حلقةَ الوصل بينهم وبين رئاسة القسم. قلت له إني وصلت حديثاً إلى القسم وهنالك أساتذة مضت عليهم سنوات طويلة فيه فما يدعوه إلى اختياري دون غيري؟ قال إن

Twitter: @ketab_n

الآخرين يفتقدون حماستي للعمل وقدراتي، ثم بدأ يشكو من عزوفهم عن التعاون معه وتَلَكُّئِهم في تنفيذ المهام التي يوكلها إليهم. قلت متعمّداً معرفة المزيد إن د. حاكم أولى مني بهذا المنصب، فقال إنه لا يدرّس المرحلة التأسيسية أولاً، كما أن مستوى التعاون بينهما منخفضٌ جداً.

ليس من السهل معرفة أي شيء عن الخصوصيات عبر الحديث مع الطاهر فهو يتلفّع بدثار سميك من الرسمية والتهذيب. قال إن هذا التكليف سيخفّض الساعات التي أدرّسها لتكون اثنتي عشرة ساعة بدلاً من ثماني عشرة، وإنه سيُسجَّل لي عند تقويم الأداء. أدركت في تلك الجلسة أن أمر هذا التكليف قد نُوقش من قبل وعجبت كيف أمكن للدكتور حاكم الذي يَنْزَوي في مكتبه لا يكاد يغادره، والذي يقاطع رئيسَ القسم مقاطعةً تامة، معرفة الأمر قبل أسبوع على الأقل؟ لكن كلّ المؤسسات التي تنعمُ بقائد كالطاهر تضمّ فئة من العاملين تنسحب وتنطوي عندما يحين موعدُ العمل، بينما هي تفتحُ العيون والآذان على اتساعها عندما يتعلقُ الأمر بالقيل والقال. وقد لاحظت فيما بعد ازدواجيةً غريبةً في شخصية الدكتور حاكم وتصرّفاته في الكلّية فبينما هو معزول لا يكاد يعرفه أحد من الأساتذة، عابس لا يردّ التحية في القسم حتى ليبدو كمن حلّت به مصيبة كبرى، كان عندما يخرج من منطقة القسم إلى الجزء الإداري من الكلّية، حيث مكاتب شؤون الموظفين والمالية والمخازن وحيث يكثر الموظفون العُمانيون، ينقلبُ إلى شخصٍ آخر لا تفارق وجهه الابتسامة ولا يتبادل كلمتين مع موظف إلا وترنّ ضحكاته في الممر، وإذا لقي عُمانياً حيّاه على الطريقة العُمَانية بمسح الأنف بالأنف وبَشَّ له وهَشّ. وهي سيرة تقرّبه من مركز القرار ومن الأشخاص المسؤولين عن تقديم حقوقه إليه بينما هي تنأى به كل النأي عن مِضْمار التنفيذ وعن الأشخاص المسؤولين عن متابعة أدائه لواجباته. تواصل مونولوغ الدكتور الطاهر دون تركيز أو تسلسل ذي معنى:

- تعلم أستاذ سليم أننا نعمل في هذا البلد ولا نملك ما يزكّينا إلا عملنا. الحياة بحاجة إلى التنازلات والتعاون والقبول. والواجبات واضحة

Twitter: @ketab_n

وبسيطة. الخبرة مطلوبة أيضاً وبالنسبة إليك تعدّ هذه تجربة مفيدة. دعني أصارحك بما يتعبني في هذا القسم. هنالك أساتذة يرفضون العمل، وهم يفعلون ذلك بطرق مختلفة، لكن موقفهم هذا سيؤثّر عليهم وعلى عوائلهم. الكلّية تحتاج إلى الأساتذة المُخْلِصين لها.

قلت مُجادلاً:

- ولكن إذا كنا نترك من لا يرغب في أداء واجبه لشأنه بينما نثقل بالأعمال من يبدي استعداداً للعمل فإننا نكون قد كافأنا الكسول على تكاسله.

قال الطاهر وقد قطّب جبينه:

- العقوبةُ أمر يسير وسوف يحين موعدُها إذا تمادوا في غيّهم. أنا أفكر دائماً بعوائلهم وغربتهم وأتجنّب الصراعات والمشاكل. كل ما أرجوه أن تساعدني على إنجاح العمل وألّا تردّني خائباً.

ربما تكون نبرةُ الرجاء والتواضع هي الدافع الأهمّ إلى قبولي التكليف. غير أن أحد أسباب إسراعي إلى القبول رغبتي في تحدّي توجيهات الدكتور حاكم المتغطرسة اللامسؤولة. وافقت ولم أكن أدرك أن موافقتي تلك ستقلبُ حالي في القسم بطريقةٍ جذريةٍ لم أتوقّعها قَطّ. وها أنذا أدرك متأخّراً أن تحذيرات حاكم من أن الانخراط في أعمال القسم سيوقعني في دوامة لا أوَّل لها ولا آخر كانت صحيحةً بالرغم من أنها لم تكن أخلاقية. وأفكِّر الآن في مفارقة الوضع الذي وجدت نفسي فيه عندما فاتحني الدكتور الطاهر بأمر التنسيق. كان الرفض يعني التقصير في عملي وهو ما لم أعْتَدْه طوال حياتي، أما القبول فقد قادني إلى نهاية لم تخطر لي على بال.

هنّأتني ساندرا على قبول المنصب الجديد وقد سألتني عن سبب زيارة الدكتور الطاهر بعد أن رأته يخرج من مكتبي، ثم سألتني إن كنت قد أصلحت عطل السيارة بالأمس فقلت إن تعبي جعلني أؤجل زيارة المنطقة

Twitter: @ketab_n

الصناعية بعض الوقت، فتطلّعت نحوي باعتذار ومحبة وقالت إنها تقدّر كثيراً استعدادي لقبول المغامرة من أجلها.

لم يمضِ اليوم الأول من التكليف إلا وقد ازدحمت على مكتبي ملفّاتٌ كبيرة تتعلق بأعمال التنسيق. هنالك جداول الأساتذة لتسهيل متابعة أدائهم، وملفّ التعليمات التي تصل من الوزارة في مَسْقَط حيث مقر وندي وليامز المُشرفة العُليا على برامج الكلّيات كافة، وهنالك مَلَفّ الاختبارات والتعليمات الخاصة بوضع الأسئلة، ومَلَفّ يحتوي مقارنة بين اختبارات الكلّية واختبار آيلتس الدولي وهي مُقارَنة سبّبت الكثير من الجدل لتداخل الحدود وتبايُن الآراء فيها. لكن ما أثار انتباهي هو مَلَفّ يحتوي السِّيَر العلمية لأساتذة القسم. ألقيت نظرةً على تخصّصات الأساتذة وتأكد لي ما كان يتردَّد من لَغْط بين الأساتذة العرب من أن الأساتذة الأجانب الذين يتوفَّر لديهم شرطُ التحدُّث بالإنكليزية بوصفها لغتهم الأم يفتقدون التخصُّص التربوي اللازم لتدريس اللغة الإنكليزية على وَفْقَ أُصول مدروسة، وأن غالبيتهم ليسوا أكثر من سُيّاح عجزوا عن الحصول على عمل مُناسب في بلدانهم فتحوّلوا إلى تدريس الإنكليزية في الدول الطامحة إلى تعلُّمها في آسيا والشرق الأوسط تحديداً. كشفت السِّيَرُ العلمية الأساس الصُّلب لهذه الادعاءات. قرأتُ سيرة أريكا فوجدت أنها تحمل شهادةً في السفر والسياحة، وقد عملت في عدة مكاتب سياحية في بريطانيا كما تشير هي نفسها قبل أن تقرر الحصول على شهادة السلتا خلال شهر واحد لتتحوَّل إلى مدرّسة للغة الإنكليزية، وهو ما يصحّ على زميلتها ستورمي التي تحمل شهادة في الإدارة (التسويق تحديداً)، وماثيو المتخصّص في الأدب الإسباني، وزوجته جين التي درست تاريخ الفنون والمتاحف، وأريك الذي دَرَس علم النفس والجريمة، أما رالف فقد أضاف إلى شهادته في الجغرافية دبلوماً في الطيران وتُشير سِيْرَتُه العلمية إلى أنه عمل مساعد طيار في عدة شركات في جنوب أفريقيا قبل أن يقرر التحول إلى تدريس الإنكليزية فيبدأ في الصين ثم كوريا الجنوبية وتنتهي به الحال إلى عُمان. بحثت عن سِيرة

Twitter: @ketab_n

جورج فوجدت أن درجة البكالوريوس التي حصل عليها كانت في مجال القانون، ثم هنالك دبلوم في العلوم التربوية، وعجبتُ لِمَ يتحول إلى تدريس الإنكليزية والقانون من المِهَن المربحة في بريطانيا؟ كانت ساندرا وأستاذان آخران فقط يحملون شهادات في اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي وهو أقرب تخصُّص إلى نوع العمل المطلوب في الكلّية. أتاحت لي حقيقة أن ساندرا مؤهّلة لتدريس الإنكليزية أن أطرحَ عليها ملاحظتي عن ابتعاد تخصُّصات الأساتذة عن حقل التدريس وتدريس الإنكليزية تحديداً. قالت إن الأعمال المُتاحة لهم في العالم الغربي كاسدة في الغالب وتشهد تنافُساً شديداً، وحتى الحصول على عمل لا يوفّر لهم الراتب الكافي للتوفير بسبب ارتفاع الضرائب التي تأكل ثُلث الراتب على الأقل ولأنّ الحياةَ الغربية مُغرية بالإسراف. وأضافت بتهكّم أن المرء في عُمان، وصُور تحديداً، ليحار كيف ينفق ماله، فالمدينة صغيرة والمطاعم رخيصة نسبياً فضلاً عن أن الراتب لا يخضع لأية ضريبة عدا ما يَقْضُم منه مكتب فكتوريا. وهكذا يتحمَّل هؤلاء الأساتذة مشاقّ العيش في بلد مختلف وثقافة مختلفة من أجل توفير بعض المال وتسديد ما عليهم من ديون تراكمت بسبب الاستخدام المنفلت لبطاقات السحب الآلي.

مررتُ بأسماء عربية قليلة في مقدّمتها زكي خليل الذي يحمل شهادة الدكتوراه في علم اللغة من جامعة فيليبينية لم أسمع بها من قبل، وأستاذان شابان من تونس يحملان شهادة الماجستير من جامعة تونسية وهما متخصّصان في اللغة أيضاً، أحدهما إبراهيم الساسي الذي حرصت على تجنّب أي حوار مُطَوَّل معه منذ خلافنا في المطعم وكان يدرس للحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة بريطانية على هامش عمله في الكلّية. كان وجود سيرة الساسي في الملف دليلاً آخر على فوضى الطاهر، فالساسي مُنَسِّق هو الآخر ولا علاقة له بي أو بالسنة التأسيسية.

عندما انتهيت من تصفّح الملفّات الخاصة بالتنسيق داخلني شعور بالندم لتعجُّلي في الموافقة على أداء هذه المهمة. وسرعان ما كشف لي

Twitter: @ketab_n

الأسبوع الأول تشابك المُهمات المُوكلة إلي وأنا أتنقل بين الدكتور الطاهر بتعليماته الغائمة المضطربة التي تفتقر إلى التنظيم والكفاءة من جهة وبين الأساتذة الساعين إلى أداء مهامِّهم بأقل جهد ممكن. والواقع أن الأساتذة الغربيين الذين نشأوا على تقاليد تقديس العمل والتفاني في أداء واجباتهم لأنه وسيلتهم الأولى في المحافظة على وظائفهم، تَتَلَبَّس غالبيتَهم بعد أشهر من الوصول حالةٌ من الفتور والتواني سببها ما يجود به من سبقهم من نصائح تدعو إلى تقديم أدنى قدر من الجهد لأنه يكفي للحفاظ على الوظيفة، فضلاً عن إدراكهم أن هنالك وفرةً من الفرص في أماكن أخرى تستميتُ لاجتذابهم إليها. أما المجموعة التي تسعى بصدق إلى بذل الجهد فكثير من أفرادها تُعْوِزُهم الخبرة في مجال تدريس الإنكليزية والتعامل مع الطلبة. كشف لي حديث عابر مع أحدهم أنه بالرغم من أن الإنكليزية لغته الأم لم يكن قادراً على تمييز الفرق بين أزمنة الماضي المختلفة: البسيط والمستمر والتام. المشكلة أن من يسعى إلى بذل الجهد يعاني قِلّة الخبرة في مجال تدريس الإنكليزية والتعامل مع الطلبة.

لم يكد الأسبوع الأول من دخولي شرنقةَ التنسيق ينقضي حتى تقدّم رالف فيليب إلى الواجهة. زارني بعد منتصف النهار وكنتُ غارقاً في بُحَيْرة المكتب المُعْتِمة أحدّق إلى شاشة الكمبيوتر في محاولة لمتابعة جداول مراقبة امتحان فصلي قريب. حَيّاني بمودّة لم يؤثّر فيها غضبه وانفعاله وقال إنه جاءني من مكتب الدكتور الطاهر الذي طلب منه عرض مشكلته عليّ والتعاون معي على حلّها. سألته عن المشكلة فعرض عليّ تقريراً كتبه إلى رئيس القسم يشكو فيه طالباً في إحدى المجاميع الضعيفة ظلّ يسبّب له الكثير من الإزعاجات ولا يكفّ عن مشاكسته في الفصل، وأنه سبق أن شكاه لإصراره على استخدام تلفونه المحمول في الفصل لكنه لم يتَّخذ إجراء ضده فتمادى وصار يستمع إلى الموسيقى أثناء الحِصّة. أما آخر أعماله الجنونية فإشعاله ناراً في الفصل أثناء انشغال رالف بالكتابة على السَّبُّورة وقد فُوجئ حين التفت بدخان يتصاعد من الصفّ الأخير في الفصل. سأل عن السبب فأنكر

Twitter: @ketab_n

الجميعُ علمهم، ولكنه وجد رماد الأوراق المحترقة في الزاوية التي يجلس فيها هذا الطالب مع بعض زملائه المشاكسين. كان غضب رالف يكسّر عباراته ويدفعه إلى تكرار صيغة السؤال الاستنكاري. سألته عن ردّ الطالب في توضيح ما حدث. قال إن الطالب أنكر أي علم له بأمر تلك الأوراق المحترقة، وقد رفض مغادرة الفصل عندما طرده رالف وتحدّى موظفةَ التسجيل العُمانية التي استنجد بها رالف لإخراجه. حاولت أن أهدّئ غضبه بالتعبير عن سخطي واستغرابي، وعجبت لردّ الفعل الذي صدر عن الدكتور الطاهر، فمثل هذا الفعل المُسْتَهْتِر يحتاج إلى تدخُّله هو بوصفه رئيس القسم ليفهم الطلبة فظاعة هذا العمل. أما أن يُحيل المسألة علي وينزوي هو بعيداً عنها فإنه أسوأ ما يمكن أن يفعل. سألت رالف إن كان الدكتور الطاهر في مكتبه فقال نعم فاصطحبته إلى هناك ودخلنا معاً المكتب فوجدنا الطاهر مستغرقاً في كمبيوتره تعلو مكتبه أكوامٌ من الأوراق ويوحي المكان كله بحالة ضياع كاملة. حين التفت الطاهر ورآنا ندخل عليه ارتسمت على وجهه ابتسامته المهذّبة الهادئة المعهودة وقال:

- مشاكلنا مع هذه المجموعة لا تنتهي. الطلبة يعانون الضعف الشديد في الإنكليزية والتفاهم بينهم وبين أساتذتهم يكاد يكون مستحيلاً.

سألت باستغراب حقيقي:

- وما المطلوب إذن؟

قال دون أن تفارقه الابتسامة:

- أن تقصد الفصل وتحدّثهم بالعربية، تذكّرهم بالتعليمات والعقوبات المحتملة ولا بد من التحدث إلى هذا الطالب نفسه وتهديده بأن تكرار مثل هذا العمل قد يؤدي إلى فصله من الكلّية.

تعمّد الدكتور الطاهر أن يوضح لي هذه التعليمات باللغة العربية وكأنها إجراءات لا تخصّ رالف أو تقع في نطاق قدرته على الفهم، وهو أمر أزعج رالف لأنه تدخّل في الحوار مقاطعاً وقال معترضاً:

Twitter: @ketab_n

- هذه ليست المرة الأولى التي يسبّب بها هذا الطالب مشكلة. هل يمكن التحدث بالإنكليزية لأفهم ما يجب فعله لحل هذه المُعضلة؟

اعتذر منه الطاهر، فقلت بالإنكليزية:

- أعتقد أن الإساءةَ كبيرة ولا بد أن يظهر رئيس القسم بنفسه في الفصل ليُفهم الطلبة أن مثل هذه الأمور لا تمرّ دون عقاب. ويصحّ الأمر نفسه على محاسبة الطالب. أفضّل أن تستدعيه إلى مكتبك ونكون نحن الثلاثة في مواجهته ليعلم أن ما فعل إساءة كبيرة.

التفت الطاهر إلى رالف وطلب منه أن يستدعي الطالب إلى مكتب رئيس القسم بأسرع وقت ممكن، وحين اتجهنا إلى الباب لنخرج طلب مني البقاء لشأن بيننا فوجدت نفسي وحيداً معه. دعاني الطاهر إلى الجلوس على كرسي يقابل مكتبه وارتسمت على وجهه الجدّية وهو يتطلعُ إليّ مركّزاً نظره في عيني في دعوة لأن أترك سخطي المُتَعَجِّل وأتفاهم معه.

قال بهدوء:

- أستاذ سليم، مؤكّد أن هذا الطالب مُشاكس لعين، وله سوابق مع رالف، لكن ما أودّ أن أوضحه لك أن المشكلة تكمنُ في رالف نفسه أيضاً. هنالك ضعف في قدرته على التواصل مع طلبة لا تكاد إنكليزيتهم تسمح لهم بتركيب جملة بسيطة وهو لا يبذل جهداً في حلّ هذه المشكلة. لدي شكاوى كثيرة من الطلبة الذين يقوم بتدريسهم وكلها تتّفق على أن التواصل معدوم. أضف إلى ذلك أن لدي تقارير تؤكّد أن رالف يصل في كثير من الأحيان إلى الكلّية ورائحة الخمر تفوحُ من فمهِ وأن علاقته بالطلبة تتذبذبُ بين المزاح وإضاعة الوقت من جهة والعصبية المنفلتة من جهة أخرى.

سألت وأنا أحاول الفهم:

- هل كلّمته في هذا الشأن؟

- نعم، وبلغ الأمر أني وجّهت إليه إنذاراً خطّياً قبل أسبوع لتكرار تغيُّبه عن الدوام.

Twitter: @ketab_n

- وماذا كان ردُّ فعله؟

- غضب واحتجّ بتوعُّكٍ صحي وما إلى ذلك. أحاول قدر الإمكان الوصول إلى نهاية العام الدراسي كي أطلب عدم تجديد عقدهِ، لكن مشاكله متواصلة لا يمرّ أسبوع إلا ويصل إلى مكتبي مع طالب مشاكس أو شكوى منه أو ضده.

في صباح اليوم التالي كان بانتظاري قرب باب مكتبي طالب عُماني طويل يحدّق إلى لوحة الإعلانات غائباً عما حوله. ما إن دخلت المكتب حتى سمعتُ طَرْقاً على الباب، ودخل الطالب الذي لمحته بهدوء وتردُّد. عرفت أنه المُتَّهم بإشعال النار في فصل الأستاذ رالف فتجهّم وجهي وسألته:

- من أرسلك إلى هنا؟

قال بهدوء وقد حافظ على أدبه بالرغم من نبرة الزَّجْر في صوتي:

- رالف.

- قل الأستاذ رالف. انتظر لحظة.

اتصلتُ تلفونياً بالدكتور الطاهر وحمدتُ اللّه على وجوده في مكتبه. اتفقتُ معه على أن أصطحب الفتى إلى مكتبه فقصدناه في مسير هادئ بين جموع الطلبة في المَمَرّات. لم ينبس الفتى بكلمة ولم ينمّ شكله عن طبع عدواني. وجدت في مكتب الدكتور الطاهر حشداً من الطلبة بدا أن لديهم شكوى مُرَكَّبة من أستاذة أميركية، وكان فحوى كلامهم المنفعل أنهم لا يفهمون شيئاً من أستاذتهم وأنها لا تجيدُ ضبط سلوك مجموعة مشاكسة من الطلبة إلى حد يضيّع الوقت على الآخرين.

جلستُ على كرسي أمام مكتب الطاهر بينما وقف مُشْعِل الحرائق صامتاً. سأله الطاهر عن اسمه فقال:

- خلفان الكاسبي.

Twitter: @ketab_n

قال الطاهر بحياد:

- هل تعلم سبب وجودك هنا في مكتبي؟

قال ببراءةٍ مفتعلة:

- لا.

قال الطاهر:

- لدي تقرير من الأستاذ رالف يقول إنك أشعلت ناراً في الفصل.

بادر إلى الرد في الحال:

- هذا غير صحيح. لا علاقة لي بتلك النار.

استمر الطاهر يستعرض عليه فحوى التقرير:

- ويقول إنك رفضت أن تترك الفصل عندما طردك منه، وقد استدعى موظفين من التسجيل في الكلّية فعصيت أمرهم في الخروج من الفصل وجادلتهم.

- كيف أخرج من الفصل وأنا لم أفعل شيئاً؟

- كان مصدر الدخان قرب مقعدك.

- لا علاقة لي بالأمر.

- من فعلها إذن؟

- اسألوا الطلبة.

- ما مشكلتك مع الأستاذ رالف؟

- لا مشكلة لي معه. الأستاذ رالف يمازح الطلبة كثيراً، ويضيّع الوقت في الكتابة على السبّورة ثم يطلب إلينا أن ننسخ ما يكتبه دون أن نفهم شيئاً.

- إذا كانت لديك مشكلة معه يمكن عرضها عليّ، أما هذه الأعمال الصبيانية فلا تليقُ بطلبة جامعيين. هذه ليست المرة الأولى التي تصل إلي شكوى منه ضدك.

Twitter: @ketab_n

- ولكني لم أفعلْ شيئاً!

ردّ الطاهر وقد بدا متعباً غير راغب في المزيد:

- سأكتفي هذه المرة بتحذيرك شفوياً، لكنَّ الإجراءَ سيكون أشدّ في المستقبل. عُدْ إلى فصلك الآن.

لم يتحرك الطالب من مكانه وواصل إصراره على الدفاع عن نفسه:

- الأستاذ رالف يأتي إلى الفصل مخموراً.

قال الطاهر بنبرةٍ أقرب إلى الزَّجْر:

- كيف عرفت ذلك؟

حاول الطالب أن يقول شيئاً لكن الطاهر قاطعه قائلاً:

- هذه ستكونُ المرّة الأخيرة في الاكتفاء بالتحذير. إن عدت إلى مكتبي مرةً أخرى فستكون عقوبتك شديدة.

لزمتُ الصمت أثناء ذلك التحقيق القصير. حين خرج الطالب قال الطاهر بمرارة:

- خلفان هذا من قبيلة كبيرة وقد زار أخوه العميد من قبل. مشاكله مع الأساتذة الأجانب محصورة في عجزه عن فهم حرف واحد مما يقولون وهذا العجز هو السبب الرئيس في ميله إلى التحدّي والسّخرية. لم تأت شكوى ضده من الأساتذة العرب حتى الآن.

قلتُ اعتماداً على السِّيَر العلمية التي اطلعتُ عليها إن المشكلة كبيرة عندما يضاف إلى حاجز اللغة أن المدرِّس طيّار في الأصل تحوّل في خلال شهر واحد من مهنة الطيران إلى تدريس اللغة. صمت الطاهر ثم قال كأنه يكلّم نفسه:

- ربما يكون إدمانه سبب طرده من الطيران.

لم أشأ الاستطراد وسرعان ما غادرت المكان.

Twitter: @ketab_n

28

كان أسبوع التنسيق الأوَّل ثقيلاً تركني حين بلغتُ نهايته يوم الأربعاء وقد لازمني شعور بالارتباك واللاجدوى كأني أتخبَّطُ في بركةٍ بلا قَرار. وجدتُ فجأةً أن وقتي يزدحم وقدرتي تُقَصِّر عن المُطاولة بينما الأساتذة الذين أتابع أعمالهم يتثاءبون وراء مكاتبهم ويشكون من الفراغ والمَلَل. لاحظت أن أريك على سبيل المثال كان يلعبُ الورق على كمبيوتره ساهماً غائباً عما يدور حوله حين زُرْته في جولة تبليغات تخصّ امتحانات منتصف الفصل، ووجدت جورج يقرأ على شاشته موقعاً رياضياً، وهنالك مكاتب مَلَّ مَنْ فيها الكلامَ فكنت أشعر وأنا أدخلها كأني في كنيسةٍ مهجورة. وقد تخلّلت الأسبوعَ زيارةٌ إلى المنطقة الصناعية لإصلاح عطل السيارة الذي لازمني زعيقه كلما تحركت بها وجعلني قلقاً من أن ينتهي بي إلى كارثة على الطريق. تعمّدت أن أتجنّب شركة هيونداي الرسمية بالرغم من أن خدماتها مضمونة وموادها الاحتياطية أصلية، ذلك أن الفواتيرَ التي أدفعها بعد كل زيارة تتجاوز أسوأ توقّعاتي. قصدت بدلاً منها ورشة بائسة في المنطقة الصناعية دلّني عليها الدكتور حاكم الخبير بِعِلَل السيّارات وعلاجها لأن في بيته سيارتين متعبتين يتناوب عليهما أربعة هم الدكتور نفسه وأولاده الثلاثة، وقد ذكّرتني الورشة التي يعمل فيها ثلاثة ميكانيكيين هنود بالوِرَش العراقية في المنطقة الصناعية قرب البيّاع؛ الهياكل الحديدية الصدئة، والأحشاء المبعثرة من محركات السيارات، وأرضية الكراج الترابية التي تتكومُ عليها السيارات العاطلة بانتظار دورها. استقبلني الميكانيكي بأدب هندي جمّ وأبدى حرصاً كبيراً على إصلاح العطل دون تأخير، واتضح أن معنى عدم التأخير انتظار ساعتين غيّر فيهما عَتْلة مكسورة اختفى بعدها

Twitter: @ketab_n

الصوت الناعق فحمدت الله أن يتمخّض أسبوعي ذاك عن ثمرة ملموسة.

بالرغم من تعبي حرصتُ يوم الأربعاء على اصطحاب محمود المُنَظِّف البنغالي في الكلّية لينظف شقّتي التي مضى على آخر تنظيف لها أكثر من أسبوعين. جلس محمود قربي في السيارة محاولاً التواصل في حديث عن الكلّية وعن عمله لم أفهم منه الكثير. كان يتكلّم خليطاً غريباً من العربية والإنكليزية، وكان يثيرُ عجبي أن يتمكّن العُمَانيون دون عناء من التواصل مع العمال الهنود والبنغاليين باستخدام هذه اللغة الخليطة. قال محمود إنه جاء عبر شركة تعاقدت مع الكلّية على توفير خدمات التنظيف وإن الشركة توفّر له المسكن ووجبات الطعام، لكن راتبه لا يتجاوز الأربعين ريالاً (حوالى مئة دولار فقط) في الشهر. حين وصلنا إلى الشُّقّة اندفع محمود في عمله على تنظيفها بحماسة وحِرْص وبقيت أنتظره في الصالة وأحرص بين حين وآخر على ملاحظة ما يفعل وتذكيره ببعض الزوايا والمواضع التي قد يغفل عنها، وكان يردّد بإخلاص كامل أن كلّ ما عليّ أن أطلب منه ما أريد. حين انتهى من عمله بدت الشقة مكاناً مختلفاً منعشاً. تركت المراوح تدور بأقصى سرعتها لتجفيف الأرضية وعدت بمحمود إلى سَكَنه في منطقة بلاد صُور المزدحمة. ظل محمود في طريق العودة يتكلم دون توقف ليشرح لي حادثاً شهده في الكلّية ويودّ إطلاعي عليه. قال وقد غطت وجهه جدّية لا تخلو من رَهْبة:

- هذا في واحد مكتب . . . رالف.

كنت في العادة أتظاهرُ بفهم الأفكار التي يجهد محمود في توصيلها إلي عبر خليطه اللغوي العربي البنغالي الإنكليزي لكي أوفّر عليه وعلى نفسي عناء التدقيق في التفاصيل، لكن اسم رالف والتأثر البادي على وجه محمود دفعاني إلى التدقيق هذه المرّة. وقد بذلت جهداً مضنياً لأفهم المشكلة، إذ يبدو أن محمود قد عثر أثناء جولته المسائية لتنظيف المكاتب على نسخة من القرآن الكريم في سلّة القُمامة التي تخصّ مكتب رالف وأن محمود لم يصدّق ما

Twitter: @ketab_n

رأى وظل حائراً فيما يتوجّب عليه أن يفعل. أخيراً قَرَّ قرارُه على إبلاغ مندوب شركة التنظيف الذي يشرف على عمله، ووعده الأخير بإثارة الموضوع مع العميد. سألت بفضول عن ردّ فعل العميد فقال إنه لم يسمع رداً وقد طلب المشرف نسخةَ المصحف التي وجدها محمود وتفحّصها جيداً ثم قال له إنها تخلو من أي دليل على وجود إساءة. قال محمود إن رالف هذا مستهتر لا يحترم أحداً وقد وجده ذات مرة في مكتب أريكا يقبّلها، وحين فتح محمود الباب بما معه من مفاتيح في نهاية الدوام لم يتحرَّكا من مكانهما وظلّا يتمازحان بينما محمود يحمل القُمامة إلى خارج المكتب. كان محمود حائراً وغاضباً لكنه طلب مني وهو يترك السيارة قرب مَتاهة من الأزقة الضيِّقة المظلمة في منطقة البلاد أن أُبقيَ ما سمعت سراً بيننا لأن المشرفَ طلب منه ألّا يأتي على ذكر ما رأى أمام أحد.

حين عدتُ إلى الشُّقّة كنت أشعر برغبة مستميتة في الاسترخاء والاستحمام، وهكذا بدأتْ، نهايةَ ذلك الأسبوع الذي لن أنساه، المفاجأةُ التي جاءني بها. لا أتذكّر أني فعلت الكثيرَ بعد الاستحمام، فتحت التلفزيون فطالعني وجه زين سليم المذيعة في القناة الأميركية "الحُرّة عراق" المخصّصة للعراقيين، وكان يفسد بهاء الوجه ما تصف من مشهد فاجع على الصُّعُد كافة في العراق. الأخبار السياسية تدور حول نفسها في سعي السياسيين إلى تشكيل حكومة تُرضي المِلَل والنِّحَل والطوائف لا الأفراد العاديين المشغولين بشؤون حياتهم اليومية، وفي أخبار الوضع الأمني هنالك أصداء تفجير جامع براثا الذي قُتل فيه سبعون عراقياً وجرح أكثر من مئة وثلاثين. كنت أتمدّد على أريكة في الصالة أستمع إلى هذه النِّصال الحادّة تمزّق مسائي المرهق بطعنات متلاحقة ضاغطة، لكني لم أتمكّن من تغيير القناة سعياً إلى برنامج ترفيهي أو أغنية خفيفة، كنت كمن خضع لتنويم مغناطيسي قاهِر سَلَبَه إرادته. انتهت نشرةُ الأخبار بمشاهد تكشف البؤس الذي تعيشه مناطق واسعة في أطراف بغداد؛ أطفال بملابس بالية ينبشون القُمامة وطُرُق ترابية يخنقها الغبار، وكاتب التقرير يحرّض

Twitter: @ketab_n

المشاهدين على مَن تسبّب بهذا البؤس دون أن أفهم من المقصود؟ فالشكوى تَرد على لسان مذيع الحُرّة عراق، أيكون التحريض ضد الإرهابيين أم السياسيين الذين فازوا في الانتخابات؟ لم أجد إجابةً وتعطّل فكري حتى صحوتُ على الأريكة وأنا أشعر بألم في عنقي فقطعت الخطوات القليلة إلى سريري متطوحاً في غَيْمة من النُّعَاس والقَرَف.

بدأتُ صباح الخميس بطقس أسبوعي اتفقت عليه مع والدتي في بغداد، هو أن أتصل بها كل خميس لتحيتها وسماع أخبارها. جاء صوتها هادئاً فاتراً في البداية. لقد تجاوزت الثمانين وشهدت كل أنواع الحروب والمصائب منذ تزامنت بداية زواجها مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. هتفتُ بصوت عالٍ:

- كيف حالك حجية؟ أنا سليم، سليم.

أشرقت في صوتها تهليلةُ فرح وردت تحيتي بحماسة، قالت لي إنعام إن انقطاعي عن الاتصال بها يجعل نومها مضطرباً ويسدّ شهيتها للطعام، وهو ما جعلني أحرص مهما حدث على ابتداء صباح الخميس بحديث معها. سألتها عن الأحوال في بغداد والبيّاع فقالت وقد انكسرت نبرتُها وانخفض صوتُها:

- الأحوال؟ لا أدري كيف هي الأحوال. فوضى، السياسيون الذين جاءوا مع البرلمان الجديد يتناحرون ويتشاتمون والناس ستفنى فناءً كاملاً. هل تتابعُ الأخبار؟ هنالك يومياً عشرات الجثث لرجال في عنفوان الشباب، قَتْل لا يرضى به اللّه ولا الرسول.

كنت قد طلبتُ من إنعام أن تحاول حصر الفترات التي تتابع بها الوالدة الأخبار في أضيق نطاق ممكن، ولكن إنعام شَكَت من أن الوالدة تُصِرّ على عدم تضييع نشرة الحُرّة عراق التي تمتدّ ساعة كاملة يومياً، وهي كافية لأن يشيب لها الوليد لِما يُعرَض فيها من دمار ونكبات.

قلت أحاول أن أخفّف عنها قلقها:

Twitter: @ketab_n

- ما يحدث من خلافات بين السياسيين أمر مفهوم ومتوقّع. لا عليك سيتوصلون إلى اتفاق في نهاية المطاف.

ردّت بصوت واضح يغلب عليه غضب مرير:

- وأرواح الناس؟ هل تتذكر إبراهيم الحلّاق في الرُّكْن في شارع 13؟ وضعوا سيارة مفخّخة قرب محله قبل أيام وكانت فاجعة. تمزق جسد رجل كان يجلس على كرسي الحلاقة. إبراهيم نفسه فقد بصره ومازال في المستشفى يعالج من جراحه. قال أبو صلاح إن صاحبَ السيارة المفخّخة جاء بها إلى مَحَلّ الحلاقة فوجد المكان مشغولاً بسيارة أخرى، اتجه إلى بائع فلافل قريب وطلب منه عشر فطائر وواحدة مقدماً يأكلها وهو ينتظر. المشكلة أنهم يقترفون هذه الجرائم بهدوء واستمتاع. حين تحركت السيارة الواقفة أمام محل الحلاقة اتجه المجرم إلى سيارته ووقف بها أمام المَحَلّ، وقد لاحظ حمزة، الميكانيكي المجاور، هذه الحركة المشبوهة فهتف لإبراهيم بأعلى صوته "مفخّخة!" ولكن السيارة انفجرت قبل أن يفهم معنى التحذير. لقد دُمّر المحلّ تدميراً كاملاً، وقُتِل ثلاثة أشخاص. ما ذنب هذا الحلّاق المسكين؟ له أربعة أطفال، وزوجته مفجوعة لا تدري ما تفعل. هذه جرائم لا يُقدم عليها أعتى الكَفَرة. ليش؟ ليش؟

لو كان المتحدث إنعام أو غيرها من أفراد العائلة لطلبت المزيد من التفاصيل لكني أعلم أن تمادي الوالدة في مثل هذا الحديث سيرفعُ ضغطها ويزيد من حدّة شعورها بالكارثة. قطعتُ كلامها بسؤال عن أخبار البنات في الحلّة وعوائلهن فانتبهت إلى وجودي وهدأت نبرة صوتها قليلاً وهي تتذكَّر وتعلن بامتنان لِلُطف اللّه أنهنَّ بخير ولم يُصَبْنَ بمكروه. قالت لي إن مشكلتها إنعام حين تكون في دائرتها. تبقى الوالدة طوال النهار تصغي إلى ما يتناهى إليها من أصوات الانفجارات سجينة البيت، ومع كل انفجار تدعو الله ألّا يصيب إنعام أيُّ مَكْرُوه. مشكلة الوالدة أنها بالرغم من شيخوختها لا تُبدي أية رغبةٍ في الانسحاب من العالم المحيط بها. لقد

Twitter: @ketab_n

أمضت حياتها تتحمَّل مسؤولية عائلة كبيرة حتى صار تحمل المسؤولية طبعاً متأصّلاً فيها. حين تتحدَّث عن السياسة العراقية تذكر اسم السياسيين الجُدُد واتجاهاتهم وتصرّفاتهم وتعلّق عليها بدقّةٍ مدهشة. وهو وعي لا تتحمَّله صحتها الواهنة وصراعها مع ارتفاع الضغط والربو وأعباء الشيخوخة. كنت أحرص دائماً على إنهاء الحوار مهما اشتدّت شُجُونُه ومَواجِعُه بسؤال أحاول به أن أخفّف عنها:

- ما وجبة الغداء التي أعددتها لهذا اليوم؟

فأُحِسْ بارتخاء مفاصل صوتها وهي تصف لي ما أعدّت من أكلات عراقية أعجز عن طبخها.

تعوّدت بعد سنين طويلة من التعثُّر في الفواجع ألّا أستسلم لِمَيْلي إلى تخيل حالة والدتي بتفاصيلها. وهو مَيْلٌ يشتدّ بعد كل حديث معها، خصوصاً الأحاديث التي تكون فيها حزينة شاكية. كانت الساعةُ تقترب من الحادية عشرة صباحاً وقد اشتعل الحَرّ في الخارج معلناً اقتراب حالة منع التجوال الطوعي التي تسودُ المدينة في حَرّ الظهيرة. تطلَّعت من شُرفة غُرفة النوم المعلقة في هواء الصباح الساخن إلى الدوّار والمستشفى وقفز نظري إلى البحر الشاسع الذي يَلُوح في البعيد. لم تفارقني صورةُ والدتي على سريرها الضَّيِّق المحشور في زاوية من الصالة ترصد منه فواجعَ البلاد عبر شاشة التلفزيون المُعَلَّقة على معرض خشبي يملأ الحائط المقابل، لا تطمح إلا إلى خبر تطمئن إليه، لا أكثر! ثم خطر لي شهاب فجأة. انقطعت أخباره بعد رسالته الأخيرة ولم يصل إلي منه رَدّ يوضح لي أحواله في غمرة الدوّامة المُحتدمة حوله. عدتُ إلى الغرفة وجلست إلى مكتبي الذي يحتلّ مركزه جهاز الكمبيوتر المحمول الذي قررت بسبب ترحالي الدائم الاكتفاء به والامتناع عن شراء كمبيوتر ثابت.

في البريد كما توقّعت رسالة جديدة من شهاب يردّ بها على سؤالي القلق عنه. كتب فيها بالإنكليزية:

Twitter: @ketab_n

*عزيزي سليم

أعتذر كثيراً عن التأخّر في الردّ فأنا أجد نفسي ضائعاً في محيط العمل المشتّت. بعد فترةٍ من الخُمْول والكسل بدأت وتيرة العمل تشتدّ في الوزارة وقد ازددت قرباً من الوزير الجديد الذي توفَّرت لي فرص للحوار معه والاطلاع على آرائه المُتَدَيِّنة الجامدة.

تناولتُ الغداء مع حبيب وهاني الذي وصل في زيارة سريعة من الدانمارك. يبدو حبيب مَيّالاً إلى مغادرة العراق بعد تلقيه تهديدات من بعض المليشيات. أتفق معك أن الحالةَ صعبة والحياة محفوفة بالمخاطر وهشّة، حتى إنني أفكر جِدّياً في الابتعاد إلى حين. لقد فكرت مراراً فيما تقترح برسالتك وسألت نفسي إن كنتُ بإصراري على البقاء وسط هذا الوضع المتفجِّر أحاول أن أجترح بطولةً أو أحقّق خلاصاً لا يتحقّق بدوني. أؤكد لك أني لا أحمل أية أوهام عن قدرتنا نحن الذين لا سلاح لنا إلا الكلمة على حسم الموقف. يداخلني أحياناً يأس كامل من الحالة ولكني أؤمن أن الفعلَ هو الدواء الناجع لليأس. أن أعود إلى بلجيكا أعدّ الأيام المتشابهة وأتابع الأخبار الفاجعة كمن يعاني نوبات مَرَض مُزْمِن لا يتحملها ولا يملك وسيلةً للخلاص منها، هذه الحال لا تسعدني. لقد جربتها طوال ربع قرن من الاغتراب وعرفت متاهات سراديبها الموحشة. نعم، أحببت الحياة في بلجيكا وعشقتُ الكثير فيها، لكني لم أتمكّن من التخلص من عراقيتي هناك. ظلَّ منظر العراقيين في الأسواق والشوارع وقد هدّتهم الفجيعة بعد انفجار غادر يُثير في نفسي الرغبةَ في المشاركة والبحث عن حلٍّ مهما كانت تلك المشاركة متواضعة. لكن لا بد أن أصارحك بدافع آخر يُبقيني في العراق. لقد قرّرتُ منذ عامين العودة والمشاركة في محاولة الإصلاح بعد عُقُود من الدمار والألم، والآن وقد اتضح أن عملية الإصلاح مَحْفُوفة بالمخاطر وشاقّة لا أجد في هذه الحقيقة عذراً يُبَرِّر لي التراجع. إن ما نفعله - شئنا أم أَبَيْنا - يتخذ معنى رمزياً بالنسبة إلينا وإلى الآخرين. عودتي إلى العراق كانت إيماءة بعثت الأمل في نفوس الكثير من أصدقائي ورفاقي

Twitter: @ketab_n

المثقفين الذين لا يجدون الخروجَ من البلاد أمراً ممكناً أو مرغوباً فيه. الآن صار لزاماً عليَّ الحفاظ على هذا الأمل حتى وأنا أشعر بدعائمه تتهاوى حولي. نحن سجناء مواقفنا ببساطة. وعندما تكون النِّيّة في هذه المواقف نبيلةً وخاليةً من الأنانية يصبح هذا السجنُ مسكناً نتحصَّن فيه من رياح الغربة.

أعانقك

شهاب"

أغمضتُ عيني وتساءلت إن كان شهاب ينوي الانتحار. لم أفهم أن يتعرّض مُثَقَّف مثله أمضى عقوداً من حياته في إعداد نفسه وشحذ عدّته المعرفية لخطر التصفية لمُجَرَّد أن يكون موجوداً في بغداد، مشاركاً في عمل إداري في وزارة الثقافة. تساءلت إن كان إيمانه الماركسي هو السبب في هذا الموقف، إيمانه بأنّ التاريخَ يتحرك كالسهم صاعداً إلى ذُرَى العدالة والحقّ دائماً؟ لماذا يصرّ على فكرة التقدّم الحتمي بينما التجربة تعلِّمنا باستمرار أن التاريخَ حركة متخبِّطة لا ينتظمها إلا فعل القوة وشهوتها العمياء.

مشيتُ إلى الصالة وواجهني التلفزيون فلم أفتحه. كنت أشعر بغضب لا أعرف له مصدراً محدّداً. قررت أن أكتب لشهاب رسالة مطوَّلة ولكن بعد حين.

Twitter: @ketab_n

29

تمدّدتُ على أريكة الصالة في صمت لا يقطعه إلا أنينُ جهاز السبليتْ. أغمضت عيني وأنا أستعيد أحداثَ الأسبوعين الأخيرين. كنت قد قرأت لا أدري أين، لم أَعُدْ أتذكر مصدر الأفكار التي تتقافزُ في عقلي بين حين وآخر، أنَّ لجسدنا وجوده المستقلّ عنا وعن نوايانا. تجربة الألم دليل قاطع على هذا الاستقلال، فأجسادنا تُناصِبنا العداء عند المرض والشعور بالألم وتتطلع إلينا بنظرةٍ جريحةٍ عاجزةٍ تطلب العَوْن. ونودّ بالعقل لو تخلصنا من الألم، لكنه وهو الكامن في أجسادنا يعلن العصيان ويتواصل بعناد غير مفهوم. لو كان بالإمكان اختزال وجودنا إلى العقل لأمكن للعقل دَحْر الألم والمرض و . . . الرغبة أيضاً. بهذه التداعيات كنتُ أحاول أن أغسل عني الارتباك والخجل من مغامرتي الصغيرة التافهة في التقرُّب من أريكا، وتوصّلتُ إلى أن اللومَ يقع على الأنامل الصينية التي أيقظت جسدي المُهْمَل وذكّرته بحقوقه المهدورة على مذبح نشرات الأخبار. أقسمت بعد أخبار الليلة الماضية الدموية وحديثي الحزين مع الوالدة ورسالة شهاب التي فتحت أبوابَ تساؤلات جدّية بدأت أستعدّ بالفعل لكتابتها أن أُجْهِزَ على نَزْوة الجسد العابرة تلك وعلى فكرة المغامرة بوصفها أملاً في خلاص ما. خطر لي أن أريكا تنتمي إلى جسدي الذي يعرفها جيداً ويهنّئني على الالتفاتة الطيبة التي تذكرتُ بها حاجاته فأقدمت على التقرُّب منها، ويطلب مني المزيد. ولأنه مستقلّ عني وعن همومي الكبيرة فقد قرّرت ألّا مزيد. قلت له تبّاً وتصوّرته قطةً تموء بالرغبة على نحو مزعج بينما أنا مشغول بالموت والعقم وجنون التاريخ.

Twitter: @ketab_n

قصدت المطبخ وفتحت الثلّاجة أحاول إعداد شيء للغداء. كان المكان حارّاً خانقاً لا تكاد تصل إليه أو تؤثّر فيه أجهزةُ التبريد. أخرجت خلطةً من الخضروات مع قطع من الدجاج نُزع عنها الجلد والعظم تكاد تخلو من الدسم اعتدتُ طبخها بسرعة تخلو من المَهارة، وقد اهتديت إليها اعتماداً على قراءات في أفضل طعام يساعد على تخفيض الضغط، لا على مِثال مطبخ معروف. وضعتها على الكاونتر وعدتُ لأُمضي ساعتين في القراءة على الكمبيوتر، لم أعد أعتمد كثيراً على الكتب الورقية منذ مغادرتي بغداد قبل أكثر من عقد من السنين. تركت خلفي مكتبةً عامرةً في الطابق العلوي لم أفرّط فيها حتى وأنا أبيع كل ما لديّ من أثاث لأجمع مبلغاً يُساعدني على السفر. لابد أنها جمعت الكثير من الغبار في وحشتها وهي تواجه غرفةً خاليةً مهجورة طوال أكثر من عَقْد من السنين. رغبة العقل في التهام الورق أكثر أمناً من رغبة الجسد في التهام الحياة. الإنترنت أتاح لي عبر مواقع المشاركة في الملفّات استعادة مئات الكتب التي تركتها خلفي، لكنها بدلاً من الوجود الورقي الملموس صارت صوراً رقمية على شاشة الكمبيوتر المحمول. وقد تعوّدتُ على ذلك واحتفيت به لأنه حَلَّ مشكلة عانيتُها كثيراً هي الحَنِين إلى كتب قديمة قرأتها ذات يوم واختفت إما لضياعها وإما لبقائها في متحف الغبار في بغداد. حاجتي إلى إعادة قراءة كتب من الماضي بدأت تتزايد في السنوات الأخيرة، ربما لرغبتي في جمع ما كنت عليه بالأمس بما صرت إليه اليوم، وربما سعياً إلى كشف قد تضيئه قدحة لقاء ماضي الكتاب مع حاضره في مخيلتي. لهفتي إلى حوار طويل مع شهاب لم تكن إلا جزءاً من هذه الرغبة الكُبْرى في استجماع الشِّتات وتنقيته من وحشة المسافات وعَبَثِها بالمعنى.

أدركت أن للكتب الرقمية مزايا لم تخطُر لي من قبل، فهي تتيحُ تكبير الحرف حتى يصبح مُرِيحاً للعين. صرت أُبْعِد الشاشة عني إلى طرف السرير وأستند إلى وسائدي لأستغرق لساعات طويلة في القراءة دون أن يعقب ذلك تعب للعين أو صُداع مُزعج كنت أعانيه بعد كل نوبة قراءة ورقية وهو

Twitter: @ketab_n

أشبه بالصداع الذي يعقبُ سكرةً لذيذةً فيحولها إلى ذكرى مُزْعِجة. كنت أدرك أن القراءة في السرير انتهاك لميدان مخصص للجسد وراحته، ولا بد أن الجسد كان يتطلع إلى مشهد سُكوني وصَمْتي مع شاشة مُسْوَدّة بالكلمات على سرير مُخصَّص له بغضب ويأس. ولكن موعد الجسد فات ولا مفر من تنمية مَسرّات لا يخجل منها ألمي وحزني.

بعد وجبة القراءة والطعام الصحي الباهت تمدّدتُ على سريري الضَّيِّق الذي تعمّدت أن يكون لِنَفَر واحد حين اخترت أثاث الشقة كأني باختياري هذا أقطعُ الطريق على إمكانية ارتكاب هَفْوة الزواج مرةً أخرى. لم أكن قد شفيتُ من محنة الطلاق التي امتدَّت أعواماً ونزفتُ على مسرحها الفجّ كل أشواقي إلى الأنوثة. بعد غَفْوةٍ قصيرةٍ صحوت لأجد أني أعاودُ القراءة في كتابي الذي بدأته قبل الغداء، وكان رواية حصلت على تصوير مُضَبَّب لصفحاتها قام به أحد المستخدمين لشبكة الإنترنت وطرحه مَجّاناً لمن يهوى القراءة، هي "مَوْسِم الهِجْرة إلى الشَّمال". شدّتني رواية الطَّيِّب صالح إليها لأني طالما تمنيتُ معاودة قراءتها منذ قرأتها لأول مرة قبل أكثر من ثلاثين عاماً. كنت حينئذٍ مُراهقاً ألتهم الكتب سعياً إلى شيء لا أعرف كُنْهَه، ومنذ ذلك الحين ضاع الكتاب مني ولم أعاود قراءته من جديد. حين انتهيتُ من قراءتي الجديدة للرواية وجدت فيها فكرةً مِحْورية لم أكُن قد قرأتُ عنها أو خطرَتْ لي من قبل. بطل الرواية مصطفى سعيد العائد من بريطانيا إلى ريف السودان شخصية مركّبة حيّرت النُّقّاد. الآن وقد انتهيت من الرواية أدرك أن الطَّيِّب صالح تعمّد الالتباس وخلط الأوراق على القارئ. إنه يمجّد ما لبطله من عقل حاد كالسكين ونبوغ مُبَكِّر، ثم يصوّره في بريطانيا وقد تشرّب الثقافة العلمانية الغربية فأصبح جزءاً منها. لاحظت أن مصطفى سعيد قد عانى الجفاف العاطفي منذ طفولته كما يتضح من علاقته بأمه، وفي ذلك إشارة إلى أن العقل الحادّ يجفّف القلب. في بريطانيا يتحول هذا الجفاف العاطفي بفعل الثقافة العلمانية إلى قسوة ويصبح مصطفى سعيد شخصية مدمّرة لمن تعرّف إليهنَّ من عشيقات. أما الجُرْثومة المُدَمِّرة في شخصية

Twitter: @ketab_n

سعيد فتتمثَّل في عقلانيته الأنانية المفتونة بذاتها والتي تدفعه إلى التجريب العاطفي في حقل الهَوَس البريطاني بفحولة الإفريقي وتلقائيته، أي إن العلاقةَ بين سعيد وعشيقاته كانت قائمةً منذ البداية على سوء تفاهم جوهري: عقله الحاد الأناني تَجَرَّد في بريطانيا من كل أعراف إفريقية أو عربية جاهزة، وقلوبهن التي تهفو إلى صُورة مفترضة لا أصل لها في الرجل نفسه. في هذا الإطار تُعَدّ عودته إلى القرية إقراراً منه أن العقلانية قد وصلت به إلى طريقٍ مسدود وأن المعنى لا يتبَلْوَرَ إلا في وجود جمعي راسخ يتعالى على التجريب الفردي العابث. لكن مأساةَ سعيد أنه لا يستطيع الانخراط في حياة القرية، وهذا هو السرّ في اختفائه، وأما المأساة التي تنتهي إليها زوجته السودانية حسنة بنت محمود حين تقتل ود الريس الذي فرض نفسه عليها زوجاً ثم تنتحر فهي إشارة إلى انتقالِ جُرْثومة العقل ونَقْدِ الأعراف إليها من سعيد. توصلتُ وأنا أدفع جهاز الكمبيوتر المحمول بعيداً عني وأغادر السرير أن مصطفى سعيد شخص ضائع بلا هوية.

كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة عصراً، فوضعتُ كيساً من الشاي في قدح كبير وسكبت عليه ماء مَغْلياً. لم أكن قد استمتعت بالشاي المعد إعداداً بطيئاً مسترخياً، أي ما يسمّى في العراق "تخدير" الشاي على إيقاع مُسامَرات العصر، منذ عشتُ وحدي. أمسكت كوب الشاي ووقفت في الشرفة أتطلع إلى الشارع وأنا أفكّر في شخصية مصطفى سعيد الضائعة. تردّدتْ في رأسي عبارةُ الراوي في طريقه إلى الخُرْطوم عبر صحراء جافّة حارقة: "اليوم هنا لا قيمة له، مُجَرَّد عذاب يتعذبه الكائن الحَيّ في انتظار الليل". وكنت قد نقلت بخطّ اليد وصف الراوي لِجَدِّه المُعَمِّر إذ يقول "نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي، فَلّاحون فقراء، ولكني حين أعانق جَدِّي أُحِسُّ بالغنى، كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه". أما هذا الجَدّ فقد استحضرت حديثي مع والدتي صباحاً وأنا أقرأ تعليقَ الراوي عليه "إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض مَنَّت عليها الطبيعة بالماء والخصب، ولكنه كشجيرات السيال في صحراء السودان،

Twitter: @ketab_n

سميكة اللِّحاء حادّة الأشواك، تقهر الموت لأنها لا تسرفُ في الحياة".
نعم، حياة والدتي وأهلي منذ عقود طويلة لا تعدو غريزة البقاء البدائية الزاهدة في كل شيء، من هنا قُوَّتها وتشبثها وفجيعتها.

كنت أتحرك في سحابة كلمات الطيب صالح عندما سمعت جرس الشقة يزعق وهو نادراً ما يفعل ذلك.

Twitter: @ketab_n

30

خطر لي أن جورج قد يكون قَرَّر زيارتي، لكني كنت على خطأ تام. لم أسأل مَن الطارق؟ دفعتني المفاجأة إلى فتح الباب بصمت وتسرُّع. لم أتعوَّد محاولة لاختراق عُزْلتي في نهاية الأسبوع من قبل، ولم أكد أصدق وأنا أرى أمامي وجه ساندرا الذي ارتسمت عليه ابتسامة عريضة يشوبها شيء من القلق لئلا تكون الزيارة سيئةَ التوقيت. كانت ملامحها مشرقةً براحة يوم كامل تَحْمل لَمْسة مكياج خفيف، وبدا قوامها رشيقاً في بنطلون الجينز وقميص ضيق عند الخصر أبيض مُوَرَّد. رحّبت بها دون أن أتمكّن من إخفاء دهشتي. كنت في بيجاما النوم يحمل وجهي أثار نهار طويل تمرّغت فيه على صفحات الطيب صالح. قالت وهي تدخل بحذر:

- أعلم أن اعتذاري صار مُرَكَّباً.

- كيف؟

- أن أزورك بهذه الطريقة المفاجئة دون إخطار مُسبق هو ضرب من انعدام اللياقة، وأنا أعتذر عن ذلك. لكن الطريفَ أن ذنبي هذا صادر عن رغبتي في زيارتك للاعتذار عن ذنب آخر.

لم أفهم ما تعني مباشرةً ويبدو أنها فَكَّرت في ما تقول كثيراً قبل أن تأتي. قلت:

- أي ذنب؟

- عما سببّت لك من عناء ومتاعب عندما دفعتك إلى العودة على الطريق الجديد إلى صُور. لقد بقيتُ طوال الأسبوع أشعر بالإحراج كلما التقيت بك.

Twitter: @ketab_n

ثم فتحت حقيبةَ اليد قبل أن تجلس فأخرجت منها كِيساً احتوى على صندوق صغير من الكارتون أزرق غامق قدّمته لي بلطف شديد:

- هذه هدية متواضعة أعتذر بها إليك.

قلت وأنا أتسلّم الهدية وأفتحها على مهل كأنما محاولة استيعاب المفاجأة تشغلني عن الاهتمام بها.

- ألا ترين أنك تبالغين؟ ما حدث أمر غير محسوب. يحدث كثيراً.

كان داخل الصندوق جَرّة فَخّارية مزركشة ذات لون أزرق سماوي خفيف وعليها رسومٌ دقيقة لشجرة يسعى تحتها فَتَى يفيض حيوية ورغبة ماداً يده إلى فتاة تعدو أمامه في غنج ورشاقة. كانت أصابعه المشتعلة بالرغبة قريبة لا يفصلها إلا مليمتر واحد عن ذراعها العارية تكاد تلمسها. بدت أشبه بتحفةٍ فنية وقد أسعدني النظر إليها وتأمل أشكالها وألوانها القوية الصافية. جاء صوت ساندرا مُعَلِّقاً بهدوء:

- إنها من شركة ستانلي الشهيرة في أوستراليا.

بقيت أتأمَّلها وأنا أستعيدُ قصيدة جون كيتس "أغنية إلى جَرّة إغريقية" ووصفه الحماسي للَّحظة التي تَسْبق الوصل مباشرة بوصفها أجمل لحظات الحب. قلت باستغراق:

- هل هي الجرّة الإغريقية التي كتب عنها كِيْتس؟

ابتسمت وهي تقول:

- من قصائدي المفضّلة.

دَعَوتُها إلى الجلوس في الصالة واستأذنْتُ لأغيّر ملابسي. لم يَتَّسِعْ وقت تبديل الملابس لمحاولتي استيعاب المفاجأة. حين عُدْتُ وجدتها تقف خلف زُجاج شرفة الصالة تتطلّع عبر الستارة المُخَرّمة إلى الشارع ومن خلفه ضباب ماء البحر في الأفق. ارتديت بنطلوناً من الكتّان وتي شيرت أزرق غامقاً فقالت وهي تنظر إلى ملابسي:

Twitter: @ketab_n

- تبدو رائعاً في الملابس غير الرسمية.

شكرتها وسألتها إن كانت ترغب في شراب بارد أو دافئ، فقالت إنها تريد أن تبدأ بالماء. حين قصدتُ المطبخ لحقت بي وتطلعت في المكان مستطلعةً مدقّقة. شربتْ ماءها في المطبخ وحين خرجنا منه صِرْنا في مواجهة غرفة النوم وشرفتها المُعلقَّة في هواء المساء الساخن، فدعوتها إلى إلقاء نظرة. حين اقتربت من الشرفة ومدّت يدها لفتح بابها قلت محذّراً:

- عذراً ساندرا، لن نستطيعَ الوقوف في الشّرفة أمام المارة. أن يراك أحد معي وعلى شرفتي ممن يعرفنا مشكلة كما تعلمين.

ضحكت وتطلعت إلى المشهد وهي تقفُ على مَبْعَدَةٍ من الزُّجاج. عبّرتْ عن إعجابها بحماسة، ثم التفتت إلي وقالت إن هديتها لم تكتمل. تساءلت عما تعني؟ فرفعت رأسها وطبعت قُبلةً سريعةً على خدّي. كانت القُبلة مفاجأة أخرى. وقد سبقت استجابةُ جسدي لِمَسِّها الناعم قدرة عقلي على فهم ما يحدث. كانت تلك أول لمسة من جسد آخر غير جسدي أتلقّاها منذ سنين. وقد استقبلتها حواسي باحتفاء كبير بعد يوم طويل من المَلَل والسُّكُون. قلتُ باسماً دون تدبير مسبق، وربما قال جسدي، وأنا أركّز نظري في عينيها الجريئتين الثعلبيتين:

- هل من مزيد؟

أعقب ذلك لقاء طويل مُحْتدم صامت للشفاه، تواصل وقتاً طويلاً لا يخضعُ لحساب الزمن. ولم نخرج من غرفة النوم. تواصلت القُبلةُ على سريري الضيق المخصّص لجسد واحد، وانتهت الحال أن صرنا جسداً واحداً. فتحتُ أزرارَ قميصها ودعتني هامسة إلى خَلْع التي شيرت. حين انكشف جسدها الأبيض الشهيّ الرشيق المتماسك مَرّت أصابعي عليه في ارتياح الرمل اليابس لانسياب الماء في ظَهِيرة قائِظة.

للسرير لغته الخاصة التي طال عهدي بها. كان السرير وجسدي وحواسّي تحتفل وتمدّ لسانها لصباحي الذي امتَهَنْتُ فيه حرمةَ السرير

Twitter: @ketab_n

بأوراقي الرقمية الباردة. السرير مكان تتعطَّل فيه لغةُ الكلمات، تفقد خاصيتها العملية في توصيل الفكر لتتحوَّل إلى تابع هامشي مُهْمَل لحركات الجسد وسَكَناته. وقد احتفل جسدانا برعشةِ الغطس المفاجئ في حُمّى اللقاء وتَوَهَّجا حتى صارا مثل جمرتين تعصف بهما ريحٌ مجنونة... ثم حدث ما لم أتوقّعه وعلى نحو مفاجئ: انكمشت آلتي الصدئة وانسحبت من السباق المحموم. وبالرغم من أني بقيتُ أحرك يديّ وشفتي على محيط جسدها الموّار فقد وَخَز وعيي كمِسْمار حادّ إدراكي لما حدث، وعجزي عن التحكّم فيه. تساءلتُ عن السبب؛ هل تمكّن عقلي المشغول بأثقاله ومصائبه من وثبات الجسد اللاهي فشلّها وسلّط عليها أنواره السَّمِجة الفاضحة؟ هل انطفأت رغبتي قبل أن تكتمل؟ مُحال! كنت أشتعل رغبة، وكنت مفتوناً بنعومة الجسد الأنثوي التي تملأ ذراعيّ وساقيّ بثقلها المريح. وسرعان ما أدركتْ ساندرا ما حدث، فلم تأبَهُ له ولم تَقُلْ شيئاً، لكنها فتحت عينيها في غمرة قُبلة طويلة ونظرت إلى عيني نظرة تفحّص وتساؤل. وقد زاد ذلك في ارتباكي فابتعدتُ عنها قليلاً وهمست بانصياع كامل:

- إنَّه الصدأ!

فما كان منها إلا أن أطلقت ضحكتها العالية الصافية وتطلعت إلى وجهي الخائب وهي تقول بِرِقّة باسمة:

- لا عليك. لن أخرج من هنا قبل أن أغسل عنك كل الصدأ. متى استخدمته لآخر مرة؟

كان ذلك سؤالاً مُحرِجاً بالنسبة إلي. لا يمكن لامرأة غربية أن تصدّق فضيحةَ السُّبات الحسي التي يعيشها عراقي مأزوم منذ عقود. لَزِمْتُ الصمت كمن يحاول أن يقدّم إجابة دقيقة، لكني كنت في الواقع مشغولاً بالتستُّر على فضيحتي. كيف أقول لها إني لم أمارس الجنس طوال أربع سنوات أعقبت طلاقي، وإني أمضيت هذه السنوات الشاقة في متابعة شاشة التلفزيون وهي تصفعني كل مساء بصور الجُثَث المُحْتَرِقة، والدماء المَسْفُوكة

Twitter: @ketab_n

على الأرصفة وفي الأسواق، والوجوه المفجوعة الحائرة لنساء مُجَلَّلات بالسواد والهمّ، ثم وجوه السياسيين التي مسّتها نعمةُ التسلُّط حديثاً فحبست نفسها بين جدران من مرايا المصالح والطائفية والكراهية والتَّخَنْدُق. كيف تفهم ساندرا أن هذا الجسد الذي تحتضنه وتنتظره قد ظلّ لأربع سنوات كالمقبرة التي لا ينعقُ فيها إلا غرابُ العقل المَفْجُوع؟

قلت وأنا أستدير برأسي على الوسادة:

- قبل وقتٍ طويل، ولا تطلبي مني التحديد.

حدجتني بنظرة ماكرة. لا يمكن لها أن تتخيل! بدا وكأنها تسأل مشاكسة إن كان الوقت الطويل يعني أسبوعاً أو أسبوعين. وقد تركتها لظنونها وقلت بما يقرب من المزاح:

- زمن يكفي لخنقه. إن بقيت تنتظرين فلن تخرجي هذه الليلة.

- من قال إني أنوي الخُرُوج. سريرك هذا الضَّيِّق يُغريني بالبقاء لضيقه. أعشق الأسرّة الضَّيِّقة!

ثم أردفت قبل أن أتكلَّم:

- كما أني لن أنتظر ساكنة، سأعبث كثيراً حتى أرى بريقَ الصاعقة.

ثم ضحكت من جديد. سألتُ بجِدِّيّة:

- لكن جيرانك في السكن سيقلقون إن افتقدوك هذه الليلة في شقّتك.

- جيراني منشغلون بمشاريعهم الصغيرة. أغلبهم خرج من صُور إلى مَسْقَط لقضاء العُطلة؛ ولي الحقّ أن أبيتَ خارج شقّتي مثلهم. لا تقلق، ما بك؟ أترك الهَمّ.

أغمضت عيني وكانت ذراعي تحت رأسها. سألتني بهدوء:

- كيف أمضيت يومك؟

- لا شيء. قرأتْ ثم قرأتُ ثم قرأت.

- هل هذا كل ما تفعل في عطلة نهاية الأسبوع؟

Twitter: @ketab_n

- تقريباً.

- كيف؟

- أحياناً أفعل أشياء أخرى. أغسل ملابسي، أطبخ لبقيّةِ أيام الأسبوع، أتمشّى على الأرصفة.

كدت أقول إني أفعل ما يمكن أن يخطر ببال رجل يمرّ بفترة حداد.

أطلقت ضحكةً لاهيةً وتطلعت نحوي بدهشة واستمتاع:

- أنت حافل بالطرافة، طرافة وأصالة. ماذا كنت تقرأ؟

- رواية لكاتب سوداني عن حياته في بريطانيا وغرامياته ثم عودته إلى قريته متعباً من المغامرات.

- تبدو فكرتها شائقة.

سألتها بفضولٍ حقيقي:

- لمَ تعشقُ الشقراوات الرجلَ الأسود؟

لم يتأخر الجواب وكان مُوْجَزاً:

- ماكنة للجنس.

- هل تقصدين أن العلاقةَ لا تعدو الجنس؟

- قطعاً. يمكن لامرأة أن تكون عنصريةً حاقدةً على الجنس الأسود ثم تختار رجلاً أسود لتنام معه.

لم يخطر مثل هذا على بالي من قبل.

- لكن الرجلَ الأسودَ يشعر بالزُّهو لفتوحاته في عالم الشقراوات. بطل الرواية التي كنت أقرأها يشعر أنه يثأر لشعبه المسحوق من أسياده البيض.

- دَعْه يشعر بما يشاء. الأمر لا يعدو بالنسبة إلى الشقراء في غالب الأحوال نَزْوة عمياء لا يترتب عليها أيّ ارتباط جادّ.

Twitter: @ketab_n

قلت متأملاً:

- يبدو لي أن هذه العلاقةَ تختصُر ما آلت إليه حال العشق في زمن الحداثة. لم يبقَ إلا الجسد وغرائزه العمياء.

قالت ساندرا بما يشبهُ الاحتجاج:

- العشق موجود ولن يموت ولكنه علاقة أنداد.

- وهل نحن نِدّان؟

- بالتأكيد. أنت تُثير إعجابي الشديد بكلماتك وأفكارك وصدقك، وهذا هو السبب في وجودي معك الآن.

- وماذا عن الصدأ؟

لم تَقُلْ شيئاً. رفعت جسدها السخيّ فوقي وكشف وجهها عن ذلك الجمال الأنثوي الذي لا يتوهّج إلّا على نار الرغبة وقبلتني من جديد. تقلّبنا دقائق ولم أصدق ما حَقَّق جسدها في محاولته التفاهم مع جسدي من نجاح. سطع بريقُ الصاعقة المنتظرة فملأ رأسينا بالدوار. وكان الليل قد انتصف عندما غفونا بِعُمْق.

صحوتُ على هَمْس ناعم وفتحت عينيّ على وجه ساندرا يتأمل نومي. لم يحدث لي هذا منذ سنوات. كان الليلُ قد مَضَى في سرير ضَيِّق وتلاصُق حميم وهو ما جعل ساعات النوم أقلّ من ساعات اليقظة. أما اليقظةُ فكانت صامتة أخرستها دهشةُ جسدين اكتشفا بعد طول انتظار مستوحد حضورهما السعيد. أقبلت ساندرا دون تردّد وانهمكت في صناعة ليلتها بِجِدّية عابثة ضاحكة.

حين فتحتُ عينَّي سمعتُ ضحكتها تنفضُ عني آخر رقائق النوم وسارعتْ هي تطلب مني أن أقصّ عليها حلمي. لم أتذكر شيئاً من نومي ولم أكد أصدق أني كنت أحلم، لكنها أكدت أني كنت أتكلّم العربية في نومي بصوت خافت. سألتها إن كان خافتاً أم حزيناً؟ أطرقت وعادت تنظر إلى وجهي وأكدت أنه صوت خافت وأنكرت عليّ أن أتوقّع الحُزْن بعد ليلة

Twitter: @ketab_n

كتلك. قلت وأنا أتطلّع إلى السقف المُضْطَرِب بحركة ريشات المروحة السريعة إن العربية في أحلامي غالباً ما تقترن بالحُزْن. قالت بفضول حقيقي إنها سمعت اسمها يتكررُ مرّتين في نِثار الكلمات العربية، وقد زاد ذلك من فضولي لمعرفة الحُلْم أيضاً. لم أتذكر شيئاً مما قلت في نومي عنها وتمنّيت بقوة لو تمكّنت من ذلك. الأحلام القليلة التي تبقى بعد اختراق حاجز النوم إلى اليقظة تكون في الغالب مفتاحاً يفضحُ قناعاتي ويعينني على معرفة مشاعري الحقيقية. كانت رغبتي شديدةً بالفعل في تحديد من تكون ساندرا بالنسبة إلي وما حقيقة اضطراب مشاعري وتضاربها منذ وصول ساندرا المفاجئ.

حين تركنا غرفةَ النوم وجدتُ نفسي في شِقّة مختلفة. لقد غسل عنها حضور ساندرا الدافق غُبار الصمت والحياد، وصار كل شيء فيها موضوع سؤال وحوار. رويتُ لها حكاية شرائي لكثير من قطع الأثاث في الشقّة، وهي قصص صغيرة لم أكن قد فكرّتُ فيها أو سردتُها على أحد من قبل. كنت أفكر أساساً حين اشتريت الأثاث في تحقيق هدفٍ واحد هو قدرة هذا الأثاث على أن يؤدّي بكفاءة ومتانة مهمته، لكن ساندرا كانت ترى فيه جوانب لم تخطر لي وهي تتفحَّص شكله ولونه وتناسُبَه مع مساحة الشقة وتصميمها. أعجبها اللونُ الأخضر الباهت الذي اخترته للستائر والأرائك في الصالة، واللون البنفسجي الغالب على ستائر غرفة النوم. قالت إن الأخضر لونها المفضّل لأنها تعدّ نفسها من حُماة البيئة ودُعاة الطعام العضوي البعيد عن سقم الكيمياويات، ثم عقّبت على بنفسجية ستائر غرفة النوم فقالت إن في اختيار هذا اللون نرجسيةً وانفراداً تعشقهما فيّ، وإنها غالباً ما رصدت غيابي عن نشاطات نهاية الأسبوع التي ينهمكُ فيها الأساتذة وعجبت لما يمكن أن أفعل وحيداً في شقتي، ثم أضافت أن مَيْل المرء إلى الوحدة علامة نُضْجه واستغنائه عن القُشُور. علّقت بتواضع أنه يمكن أيضاً أن يكون علامةَ انتهاء صلاحيته للحياة فاستنكرتْ ذلك وقالت "إن كل حيّ يصلح للحياة والميِّت وحده هو من تصف".

Twitter: @ketab_n

أَعْدَدْنا الفُطور معاً. أدهشني احتفاؤها بطقس الفطور واختيار ما سنتناوله في أول فطور مشترك. لم يكن إعدادُ الفطور يستغرق مني أكثر من بضع دقائق؛ كيس الشاي يتلوّى في حريق الماء المغلي، وقطع من الجبن الباهت قليل الدسم أو كأس من الحليب أغلي فيه بعض الشوفان أو الفواكه المُجَفّفة. في الغالب يرافق فطوري نعيق نشرة أخبار ويشغلني عما آكل. بالنسبة إلى ساندرا الفُطور وجبة رئيسة استغرق إعدادها في المطبخ أكثر من نصف ساعة وقد اشتركنا في ذلك معاً ونحن لا نكفّ عن الحديث عن طباعنا في التعامل مع طقس الفُطور. خرجنا بعدها بخليطٍ شهيّ مقلي من البصل والطماطم وشرائح القرنبيط والبَيْض. وقد حرصت ساندرا على وضع صَحْنَي التفريغ في فُرن الطبّاخ ليسخنا كي لا يُفْسِدا سخونة الطبق الشهي. عجبتُ لذلك وقلت لها إن صُور فُرْن كبير فأجابت أنها اعتادت ذلك منذ نعومة أظفارها وأن بردَ بريطانيا عوّد أمها تسخين كل الصحون قبل الأكل. ذكّرني ذلك بإصرار عيادة الطب الصيني على تقديم ماء ساخن للضيوف. كنت قد اقترحتُ عليها الطبقَ الذي ابتكرته أثناء تخبُّطي في السعي إلى طعام لا يرفع ضغط الدم، لكنها خلصت إلى أنه طبق عراقي شائع وكان لابد أن أُصَحِّح لها وأوضح أن الطبقَ الرئيس الذي أعددناه لا ينتمي إلى أي مطبخ معروف وأنه من ابتكارات تخبّطي في المطبخ. أما العراقيون ففطورهم القيمر أو اللحومُ المشوية بأنواعها، وهنالك من يفضّل الباجة. وقد أمضيت وقتاً طويلاً في وصف هذه الأكلات وطريقة إعدادها وحين أعلنت خيبتها لأني لم أقدّم ما يدلّ على بلدي تعمَّدت إضافة حَبّات من الهيل إلى الشاي وقلت لها إن من عادة العراقيين تطييب الشاي بنكهته، فرشفت قدحها بِتُؤَدة واتسعت عيناها دهشةً وانتشاء وأعلنت أنها لن تشربَ الشاي بعد اليوم دون حَبّات الهيل هذه.

كنا نتطلعُ إلى رفوف الكتب القليلة التي حرصت على نقلها معي حين قدمت إلى صُور عندما لاحظتُ أن على وجهها بعض البثور الصغيرة. سألتني عما يثيرُ انتباهي فنبهتها إلى ما رأيت. قصدت الحمّام وتطلّعت في

Twitter: @ketab_n

المرآة لثوانٍ ثم عادت لتقول إنَّها حساسية تطفحُ على الجلد كلما واجهت تجربةً مثيرة. لم تَبْقَ وقتاً طويلاً بعد ذلك. ودّعتني بكلمات امتنان رقيقة وقالت إنها ستغادرني دون قُبلة طمعاً في لقاء قريب.

طلبت منها ونحن نقف قرب باب الشقة أن تتذكّر دائماً أن اللقاء بيننا في صُور ليس بالأمر الهَيِّن المقبول لدى الناس. ولم تفهم ذلك. قالت بدهشةٍ صادقة:

- ما علاقة الناس بنا؟ الأساتذة يلتقون ويسافرون معاً.

قلت مُتَذَرِّعاً بالصبر:

- قد لا تكون للناس علاقة بك لكن لهم علاقة بي. أن يروك مع أستاذ أجنبي من الغرب فهذا لا يعني شيئاً بالنسبة إليهم، لكن الأمر مختلف إذا كنت معي. ما سمعت من قصص يُثْبِت ألّا منفذ أمام العربي المسلم للقاء امرأة والخلوة بها إلا الزواج. عدا ذلك يُعَدّ جنايةً قد تؤدّي إلى إلغاء عقد عملي مع الكلّية.

بدا أنها كانت تُمْعِن التفكير في ما أقول وتجد صعوبةً في الفهم. قالت بهدوء وحرص على التأني قبل إصدار الأحكام:

- في الأسبوع الماضي سافرتْ أريكا مع رالف إلى مَسْقَط لسهرة في محلّ ديسكو، وباتا معاً في غرفة واحدة ثم عادا في اليوم التالي دون أن يخطر لهما أن ما يفعلان مخالفٌ للقوانين.

- إنه لا يخالفُ القوانين. قلت لك إن للقادمين من الغرب حريتهم في فعل ما يشاءون. ولكني عرفت منك ذات مرة أن أريكا تلازمُ صديقتها ستورمي.

نظرت نحوي بفضولٍ وقالت:

- هذا صحيح. هل تقصد سفرها مع رالف؟ كانت الغاية أن يكون معها رجل في مَسْقَط لأن امرأة وحيدة هناك لا تأمن المُشاكَسات، كما أن رالف دفع نصف أُجرة الغرفة في الفندق فوفّر عليها بعض المال.

Twitter: @ketab_n

- هل تقصدين أنهما أمضيا الليلة في غرفةٍ واحدةٍ لمُجَرَّد الاقتصاد بالنفقات؟

- بالطبع. هذا يحدث كثيراً، كل ما هو مطلوب غرفة ذات سريرين.

ثم أردفت قبل أن أعلق:

- ولكن ما سِرُّ اهتمامك بأريكا وأخبارها؟

- لا سِرَّ في الموضوع. أنتِ من ذكرها أولاً.

اتفقنا على ألّا تزورني ساندرا مستقبلاً من دون ترتيبُ مسبق، وأن تحرص على دخول البناية في أوقات يقلّ بها الزحام في الشارع. ذكّرتها أن جورج يسكن معي في البناية نفسها فقالت باسمة غير آبهة:

- جورج لا يهم. لا أعتقد أنه سيسيء الفهم أو يشي بنا.

قلت ونحن نتقدم من الباب:

- هذا ما أتمنّاه.

Twitter: @ketab_n

31

هدأت الشِّقّةُ وسَكَنَتْ بعد مغادرة ساندرا. كانت ساندرا أول امرأة تدخلها بعد عام أو أكثر وقد تركت بصمات حضورها الأنثوي على كل الأشياء فيها. لكني شعرت لسبب غامض لم أفهم كُنْهَه أن ثمة شيئاً في حياتي وفي شِقّتي قد انتُهك. تمدّدت على السرير رغبةً في الاسترخاء والنوم، وتساءلت عمّا أفتقده في هذه العلاقة المفاجئة الخاطفة وما الذي يجعلني أشعر بالتعب والتوتُّر بعد الزيارة؟ من المؤكّد أن مشاعري تجاه ساندرا لا تشبه في شيء علاقات الحب التي عشتها من قبل في العراق. قد يكون سرّ الاختلاف تطورها السريع وصراحة ساندرا في التعبير عن نفسها دون لَفّ أو دوران. كما أن ما حدث كان مفاجأةً لم أَسْعَ إليها أو أُرَتِّب لها. من المؤكد أنه لم يكن حُبّاً بالمعنى المعتاد للكلمة في قاموس تجاربي السابقة. ينقصه رُكْن أساس في الحب لا أستطيع تحديده. أو ربما كان ذلك الشيء ينقصني ويجعلني غير مستعدّ للتجربة كما هي. وقد لُمْتُ نفسي على إحساسي اللئيم بأن حُلم وِصال أريكا قد تحقَّق بصيغة متواضعة في وِصال ساندرا، فلساندرا الأقل شباباً وجمالاً واقعيتها واندفاعها واستعدادها لقبول مطالبي دون تذمُّر. سرعان ما غرقت في غَفْوة عميقة خَلَت من الأحلام.

عندما اقترب المغيبُ وصار بالإمكان الخُرُوج من الشِّقّة لمواجهة الجَوّ دون خسائر اتجهت بالسيارة إلى الكورنيش القريب من فندق شاطئ صُور. كنت بحاجة ماسّة إلى الحركة في الهواء الطلق بعد يومين من الاعتكاف في البيت. وقد زادتني زيارة ساندرا المُفاجئة المطوّلة رغبةً في المشي على حافة البحر وتأمل ما حدث وما يمكن أن يحدث مستقبلاً معها.

Twitter: @ketab_n

تمتدّ بمحاذاة كورنيش صُور القصير هياكل دائرية الشكل متباعدة مخصّصة لجلوس المُصطافين. وهي مَبْنِيّة من الكونكريت تعلو كل واحدة منها قُبّة تقوم على ثلاثة أعمدة يوفّر الجلوس تحتها زاوية نظر وادعة تنقل المرء بكلّيته إلى امتلاء زُرْقة البحر واتساعها بينما هو ساهمٌ في قمرته الأسطوانية المريحة. كنت أقضي هناك بعض الأوقات الهادئة بين حين وآخر حين أقررُ قطع مسافة الكورنيش التي لا تتعدى الكيلو مترين مرةً أخرى فأستريح قبل مُعاودة المَسِير. قَرَّرْتُ أن أقصد المكان قرب المَغِيب لأنه يكاد يخلو حينها بعد أن ينسحبَ الشبابُ الصاخبون في ملاحقة كرة القدم على الرصيف المجاور، ويتجه الكبار إلى الجوامع من أجل صلاة المغرب.

استهوتني المسيرةُ الهادئة المنفردة. كنت منشغلاً بتأمل لقائي مع ساندرا وحلّ مَغاليق المشاعر المتداخلة التي تركتها في نفسي حين تَبَيَّنت على الكورنيش المضاء بمصابيح حليبية داخل كُرات بلاستيكية ساطعة شخصين يتجهان نحوي وصوت صاخب يتناهى إليّ لم أخطئه. كان صوت الدكتور زكي خليل. حين اقترب مني عرّفني بصاحبه فقال إنه من بلدياته من جنين معقل المقاومة والشهادة. وكانا يتحدثان كما يبدو عن نِيّة صديقه هذا، وقد قدّمه باسم خالد، شراء سيارة من أحد الأساتذة الأميركيين الذين لا ينوون تجديدَ عقودهم، وهم مستعدّون في الغالب لقبول أسعار متواضعة جداً تقل عن معدّلات البيع في السوق. وقف زكي مع صديقه يسألان عن معلوماتي عن تلك السيارة فقلت إني لا أعرف عنها شيئاً. ولا أدري كيف انتقل الحديث إلى مشكلة العراق السياسية. أعتقد أن خالد، وهو رجل بلغ آخر أشواط الكُهُولة ويعمل محاسباً في شركة استثمارات، قد شاقه معرفة شيء عن العراق من عراقيّ. هتف زكي بطريقته المسرحية الساخرة يمجّد الدكتاتور ووقفته الشجاعة وراء القُضْبان. ولم أُعلِّق، لكن خالد سألني بأدب:

- كيف الأحوال في العراق؟ يقال إنها تسير من سَيِّئ إلى أسوأ.

Twitter: @ketab_n

قلت إنها سَيِّئة وأدركت أن أمسيتي ستنقلبُ رأساً على عقب. فكّرت في طريقة أناقش بها ظروف العراق مع فلسطينيين قادمين من جنين. كنت أدرك أن سوءَ الفهم واقع لا محالة. قلت متفلسفاً:

- القضايا الكبيرة التي تهمّ الشعوب وتقرِّر مصيرها صارت تُختزل إلى صراعات جانبية لا معنى لها. لدينا اليوم في العراق صراع الأحزاب الدينية التي لا يعلو فكرها السياسي على ثنائية سنّية وشيعية، ومثيلها في فلسطين صراع عقيم لا أرى له معنى بين منظمة التحرير ومحمود عباس من جهة وحماس وإسماعيل هنية من جهة أخرى.

أدهشتني سرعةُ الاستجابة المطلوبة وتحقُّق ما كنت أرمي إليه، إذ انعطف الحوار مباشرةً بعيداً عن المُعْضِلة العراقية. سرعان ما اندفع زكي يهاجمُ محمود عباس واستسلامه للإسرائيليين وخيانة القضية، أما خالد فقد حرص بالرغم من معارضته إياه على عدم التعبير عن أفكاره بطريقةٍ حادة. قلت وقد وجدت نفسي مندفعاً إلى حديث السياسة دون إرادة مني، وهو أمر يحدث لي دائماً ويعقبه في الغالب ندم على الانسياق وراء استفزازات المحاورين:

- دعني أوضح لك وجهة نظري.

بدأنا نسير معاً إذ قَرّرا الاستمرار معي إلى نهاية الكورنيش المسائي الهادئ. كانت حركةُ الأمواج وادعةً مستريحة سُرْعان ما غَيَّبها الظلام واحتدام الجدال. أصْغَيا بانتباه شديد:

- أصبح واضحاً بعد عقود من المآسي العراقية والعربية أن مشكلتنا الكبرى التي تمثل نقطة ضعفنا هي انسياقنا خلف التطرُّف والشعارات الزاعقة الفارغة. وهذا التطرف هو تحديداً ما تحلم به إسرائيل وكل القوى الغربية الطامعة في خيراتنا. الأمثلة كثيرة؛ ثورة عُرابي المجيدة انتهت إلى سيطرة بريطانيا العسكرية على مصر، قيادة عبد الناصر التاريخية منحت إسرائيل القدس وسيناء وغزّة والضفّة الغربية، بن لادن قَدَّم إلى أميركا العذر

Twitter: @ketab_n

لغزو أفغانستان، وصدّام قدَّم لها بتخبُّطه السياسي والعسكري الحُجّة لاحتلال بلد غنيّ كالعراق. في هذا الإطار أرى أن حماس تقدّم اليوم لإسرائيل العذرَ للتنكُّر لكل وُعُودها بحلّ القضية الفلسطينية حلاً سلمياً بحسب اتفاقات أوسلو مع عرفات. عندما تعلن حماس أنها غير مستعدّة للاعتراف بوجود دولة إسرائيل فإنها تجعل العالَمَ بأسره يرى في إسرائيل ضحيةً مستهدفةً، وهو أمر تسعى إليه إسرائيل وتتمنّاه. أَلَمْ تطلق سراح الشيخ ياسين في الثمانينيات وهو القائد الروحي لحماس الداعي إلى إزالة دولتها، بينما انتهت إلى وضع ياسر عرفات الذي اعترف بوجودها ووقّع اتفاقات معها تحت الإقامة الجبرية؟ ألا تتفقان معي أن تَطَرُّفنا مطلب حيوي يخدمُ مصالحَ عدونا؟

كانا يُصغيان إلي بصمت وجديّة. بالنسبة إلى زكي كان يسمع رأيي هذا لأول مرة. سأل خالد برغبة خالصة في الحوار:

- لكن عَرَفات لم يحصد شيئاً من تنازلاته الكبيرة لإسرائيل. لقد ظَلُّوا يناورون ويضعون العراقيل أمام أي تقدّم حقيقي حتى انتهت الحال إلى إطلاق رصاصة الرحمة على مجمل عملية السلام.

قلت أستكمل ما بدأه:

- وهذا بالذات لأنهم لن يرضوا بالتنازُل عن أي شبر من فلسطين للعرب. الاتفاق مع عرفات يعني إعادة الكثير من الأراضي للفلسطينيين من وجهة نظر إسرائيل، وإسرائيل تتمتعُ اليوم بالقوة المطلقة في منطقة حائرة في فهم أُحْجِية ما يحدثُ في العراق. سيبقون يضعون العراقيل ما داموا أقوياء.

قال زكي جاداً:

- ما الحل إذن؟ إن كانوا غير مستعدّين لقبول أية تسوية ويطمعون في الاستيلاء على كل الأراضي فإن الحل الوحيد أمام الفلسطينيين هو المقاومة والرفض وحماس.

Twitter: @ketab_n

قلت وأنا أدرك قسوةَ ما أقول:

- ما تقوله تحديداً هو ما يسعى الإسرائيليون إلى دفعك إلى الاقتناع به. مادمت ضعيفاً عاجزاً عن التأثير في أمنهم فإن تطرُّفَك وشعاراتك الصاخبة هي أقصى ما تتمناه إسرائيل. الحصار على غزة لأن حماس تَحكُمُها يُشبه الحصار على العراق لأن صدّام يحكمه. هذه مقدّمات لهزيمة ساحقة!

كان خالد يحاول تحديدَ ما أرمي إليه. سألني:

- هل تعني أن على الفلسطينيين الخضوع التام ومشاركة عباس في قدرته على قبول الذُّلّ؟

- أعتقد أن هنالك موقفاً وسطاً بين منظمة التحرير وحماس هو الموقف الأصح. إنه التفاوض مع إسرائيل دون استعداد للخضوع. إحراج إسرائيل بالعمل ضمن الشرعية الدولية والإصرار على الحقوق. عندئذ سيقف العالمُ مع الفلسطينيين وتزيد فرصتهم في الاحتفاظ بما تبقّى لهم من أَرْض. ما أراه اليوم من حِصار لغزة يدفعُ الفلسطينيين إلى هجرة جماعية جديدة وهو عين ما تسعى إليه إسرائيل، والفضل في ذلك يعود إلى ثورية حماس!

سألني زكي:

- من يُمَثِّل هذا الموقف الذي تدعو إليه؟

- لا أحد. وحتى لو وُجد من يمثله فسوف تسعى إسرائيل إلى تهميشه وحصره في الإقامة الجبرية كما فعلت مع عرفات. هل كان عرفات خائناً؟

قال خليل: عرفات قدّم ما لديه بصدق ولكنه لم يُفْلِح.

قال زكي محاولاً الوصول بآرائي إلى نهايتها المنطقية:

- هنالك تناقُض فيما تقول: أنت تدعو إلى التفاوض مع إسرائيل وتقول في الوقت نفسه إن إسرائيل لن تقبلَ أيّ حَلٍّ سِلْمي. ما قيمة

Twitter: @ketab_n

التفاوض إن كان عدوك طامعاً في كل ما تملك وغير مستعدّ لمنحك أي شيء بالمقابل؟

أجبت بشيء ما لا أتذكره الآن. كنت أدرك التناقُضَ في كلامي وعُمْق فجيعة الفلسطينيين وأعلم أن الحل معقّد وأنهم في موقف لا يحسدون عليه. بالرغم من أن الحوار امتدّ بعد ذلك حتى وصلنا إلى سياراتنا فإن ندماً حقيقياً انتابني على السقوط مرةً أخرى في فخّ جدال سياسي. هنالك عُقْم سقيم في كل هذا. حين عدت إلى سيارتي وفتحتُ التبريد لاح القمرُ على ماء البحر معلَّقاً أزلياً لا يعبأ بشيء. لا أتذكر أني عاودت التفكير في ساندرا في طريق العودة.

Twitter: @ketab_n

32

قرأتُ رواية ساندرا "سباحة حُرّة" بعد لقائنا الأول بأيام. كانت قد وعدت بعرضها عليّ من قبل ولكنها لم تَفِ بوعدها إلّا بعد أن انعطفت العلاقةُ بيننا إلى خصوصية التلامس الحَيّ. ربما تكون قد نَسِيت وذَكَّرَتْها بأمر الرواية تلك الرغبةُ التي تُساوِرُنا في مغامرة الحب إلى كشف أقصى ما نستطيعُ من خصوصياتنا لتتحول إلى وقود يصل بنشوة العلاقة إلى كل زوايا وجودنا. لم تتعدَّ الروايةُ سيرة ذاتية تلاحق بتفصيل حميم علاقاتها مع من قابلت من رجال في حياتها من قبل. وبالرغم من أن الرواية/السِّيْرة لا تتجمعُ في بُؤرةٍ دالّة وهي بالفعل سِباحة حُرّة في بحر وجودها الرحيب فقد تمكّنتُ بعد قراءتها من استكمال صورة ساندرا التي عرفتها خلال الأسابيع الماضية. لكني إذ أستخدم كلمة استكمال لا أعني بها أن ساندرا قد أصبحت كتاباً مفتوحاً أمامي بعد الاطّلاع على روايتها. لا يمكن لإنسان حَيّ أن يُستكمل لأنه يبقى عُرْضةً لمفاجأة نفسه والمحيطين به في أية لحظة. ما أعنيه بالاستكمال هنا أن انطباعاتي الأولية عن ساندرا تحوّلت إلى صُوَر نابضة بالحياة والحركة.

عرفت من الرواية أن ساندرا عاشت رَدْحاً طويلاً يزيد على عشرة أعوام وحيدة في مدن صغيرة تتلقّى إعانات من الحكومتين الأوسترالية والنيوزيلندية، وأن هذه الحالة، مع ابنتها أولاً ثم ابنها، ولَّدَتْ لديها شعوراً بالعُزْلة عن محيطها وشحذت لديها حسّ التهكّم المرير والسخرية الحادة من المحيط الذي تعيش فيه. زوجها الأول آسيوي الأصل من بنغلاديش التقته في أحد بارات لندن، وهي تَشُنّ في الرواية هجوماً لاذعاً

Twitter: @ketab_n

على والديها لأنهما بالرغم من ادعاء التحرُّر والليبرالية في أحاديثهما العامة اعترضا على زوج من بعيد، ولم تهدأ ثائرتهما إلا بعد أن تأكدا أن ابنتها منه بيضاء لا تمتّ بصلةٍ إلى آسيا. ثم تَشُنُّ هجوماً أكثر مرارةً على زوجيها لأنهما أظهرا الغدر وتركها كل واحد منهما مع طفل منه لم يكن يعني الكثير بالنسبة إليه. أما سببُ الانفصال في الحالتين فقد كان واحداً: ظهور امرأة أكثر شباباً تنأى بهما عن مسؤوليات الزواج والأبوة.

حين ناقشتُ الرواية معها قالت إن التهكّم في شخصيتها ظل دائماً وسيلتها لتجنُّب السقوط في فخّ الرِّثاء للنفس، وتوسَّعَتْ في تلقيني درس السُّخّرية في مواجهة المآسي. والواقع أن روايتها تكشف، دون قصد منها كما يبدو، أن السّخريةَ التي قابلت بها خيبتها في الناس قد تحولت إلى حاجز منيع بينها وبينهم وخلقت لها بين جيرانها في المدن الصغيرة التي عاشت فيها صورة امرأة هيبية غريبة الأطوار. قالت لي ساندرا إن السنوات الطويلة الشاقة التي أمضتها مُنْصاعةً لنداء الأمومة قد أسفرت عن شيء واحد شدّ من عزيمتها وساعدها على الانطلاق في مغامرة العمر إلى الشرق، وذلك هو ابنتها الجميلة سارا التي منحتها حفيدها الذهبي بيلي وهو أجمل من أمه وجدته، ثم ابنها جوني الذي يشقّ طريقه الآن في مُعْتَرَك المراهقة بشجاعة وإقدام.

يحدث في الغالب أن شوائبَ كثيرة تترسَّبُ في قاع النهايات السعيدة. بدأت أستكشف ما ترسَّب في أعماق ساندرا من إشكالات بعد أسابيع قليلة وتواصلت اكتشافاتي حتى بلغت لحظة الصدمة. تتلخّصُ مشكلة علاقتي بساندرا في ضعف ثقتها بالرجال بعد إخفاقات متكرِّرة تمثلت دائماً في انتقالهم بعد حين إلى نساء أخريات، وهو ضَعْف اتّسع بفعل تكرار سَبَبِهِ كلَّ مَرّة ليهزّ ثقتها بنفسها أيضاً وبقدرتها على الاستحواذ على الرجل وقتاً طويلاً. أما الطرفُ الثاني الذي فاقم المشكلة فهو ما التقطته مجسّاتها المُرْهَفَة الحَادة من قلّة حماستي وشغفي بها. لم تَنْسَ قَطّ أنها هي من بادر إلى تحقيق الوصل، ولم تَنْسَ أيضاً أن خياري الأول كان أريكا وأني لم

Twitter: @ketab_n

أَكُن لأستجيب لها لو أن أريكا كانت أكثر رحمةً بي. كنت من جهتي أجد في زياراتها الأسبوعية مُتَعاً متنوِّعة لم تكن أريكا نفسها قادرةً على توفيرها بكل هذا التَّنَوُّع والغزارة. هنالك فضلاً عن التلامُس الحَيّ الذي يترك الجسد راضياً محايداً، قدرة ساندرا على المُسامَرة والإصغاء، ونجاحها الباهر في تجنّب الإفراط في العاطفية والمَسْكَنة. لقد حسمت ساندرا أمرها وقررت الاحتفال دون أن تعبأ بالمناسبة الداعية إلى الاحتفال والمُبَرِّر. ربما يكمن سرُّ قدرتها الفريدة على الضحك الصافي من القلب بعد كل ما خبرت من خيبات في إدراكها أن أحداً لن يرثي لحالها وأن الاحتفال بالوجود قرار شخصي في المقام الأول.

دعتني يوماً إلى زيارة رأس العيجة على أطراف مدينة صُور. وهي شبه جزيرة صغيرة يحيط بها البحرُ من ثلاث جهات وتسود شوارعها القليلة الخالية نداءات البحر التي تتواصل دون أن تكسر الصمت. عبرنا إليها في زَوْرَق صغير يقوده شاب عُماني فَتِيّ أسمر مع مجموعة من سُكان المنطقة المنزوية من العُمانيين، وتَجَوَّلْنا في شواطئها المسترخية في موسيقى عناق الأمواج المتكرِّر لصخور الساحل. وصعدنا إلى قلعة قديمة على قِمّة تَلّ فيها. كان وقتاً هنيئاً تحدّثنا فيه بانسيابية. حين عُدْنا بالزَّوْرق نفسه واتجه كلّ واحد منا إلى سيارته فاجأتني ساندرا بسؤال لم أتوقّعه: "هل أنت سعيد بهذه الجَوْلة؟". ارتسم على ملامحها شيء من القلق كأنها تلاحظ ما ينفي ذلك فأكدت لها أني أمضيتُ وقتاً طيباً وأن فكرتها في ضرورة الخروج من بين حيطان شقتي إلى هذه الجزيرة الحالمة المفتوحة على كل مباهج البحر كانت رائعة. لم تُعَلِّق واكتفت بالابتسام ولسان حالها يقول إنها لا ترى في وجهي ما يدلُّ على قولي هذا. سألتها عن السبب في طرحها سؤالها لكنها لم تُفْصِح عن مخاوفها حينذاك. قلت أحاول توضيح الحالة لها:

- تذكّري ساندرا أن همومي كثيرة وكل تلفون إلى بغداد يزيد من ثِقَل حملي منها. لا تتوقّعي مني فرحة العشق الغامرة التي لا تأبه بشيء.

Twitter: @ketab_n

كنا نقف قرب مِظَلّة على الساحل مقابل مجموعة من الكافيتريات وضوء الصباح الباكر منهمك في متابعة الأمواج اللاهية. قالت وهي تتطلّع نحوي بتعاطف صميم:

- لا حلَّ أمامك إلا أن تنسى العراق. دَعْهُ جانباً وعِشْ حياتك. وسوف أساعدك إن شئت بتوفير ثلاث جنسيات بديلة تختار منها ما تشاء.

قالت عبارتها الأخيرة ضاحكةً دون أن يفقد قولها جدّيته. فكَّرت في ردّ مناسب، لكنها سارعت إلى القول:

- لا تقلق سيكون زواج مصلحة ينقذك من هذه البقعة المشتعلة من العالم. ستكون حُرّاً بعدها لتعيشَ كما تشاء، حتى لو قررت البحثَ عن شابة بدلاً مني.

لم يكن التفاهم سهلاً بيننا. ظلَّت مصرّةً على أن ما تراه من فُتُور في وجودي لا يعدو حُلْماً في امرأة بديلة. كانت تحاول بين حين وآخر أن تُبْدِي اهتماماً بما يجري في العراق لكنها تبدأ حين أسترسل في الحديث عنه بالتثاؤب والسعي إلى موضوع أكثر خِفّة ومرحاً. ما ظلّ يزعجني نظرة الشكّ التي كانت تقيس بها موقفي منها. وصار جَلِيّاً أنها تطمحُ إلى أكثر من الصُّحْبة الطيِّبة التي تدرأ خطرَ الوحشة عنا، حتى ازدادت قناعتي أنها قد تكون على حقّ في ما ترى من فُتُور من جانبي.

حدث بعد أيام ما أكَّد أن خلافنا هذا سيتفاقم. وصلت إلى الكلّية صباحاً وأنا أستعدّ ليوم آخر من مشاغل العمل، وقد استقبلتني ساندرا بابتسامة سعيدة مُنتعشة. بادرتني ما إن جلستُ بالقول:

- زارتك قبل قليل أستاذة من قسم الرياضيات. قالت إن اسمها...

وبدا أن ساندرا لم تلتقط الاسم فسألتها:

- بَتُول؟

هتفت نعم، فلم أعلّق وإن كنت قد استغربت هذه الزيارة من الأستاذة العراقية الوحيدة في الكلّية. لم أكن قد تبادلت مع بَتُول منذ تدخلي غير

Twitter: @ketab_n

المتوقَّع في خلافها مع ابنتها أكثر من تحيَّات مُؤَدَّبة ودّية في المَمَرّات. ظلّت تبدو في ثيابها التي يغلب عليها اللونُ الأسود الغامق ميّالة إلى الانسحاب والتَّمَتْرُس خلف تهذيب مُبالَغ فيه. أما وجهها فعلى النقيض من ملابسها وطبعها الساهم ظل صَبُوحاً تمنحه بشرتها البيضاء وعيناها السوداوان النجلاوان بهاءً لا يسمح لِمَنْ يلقاها أن يمرّ بها مرورَ الكرام. لكني بقيت أشعر دائماً أنها بعيدة لا تخصُّني. ما قاله الدكتور حاكم عن زوجها كدّر تلقائية دخولي الحميم في ذلك الحوار العائلي الساخن بينها وبين ابنتها. خمّنت بناء على قُرب الزوج من النظام البائد أنها تنتمي إلى مجموعة العوائل العراقية المُشَتّتة في الخارج التي فقدت بعد سقوط النظام مزاياها الذهبية فظلّت تتقلَّبُ على أشواك سُخْطها من كل شيء.

تركت ساندرا المكتب إلى حصّتها وأمضيت دقائق في ترتيب فوضى الأوراق الدائمة. قبل أن أفتح الكمبيوتر خطرت لي زيارة الدكتورة بَتُول الغريبة فقررتُ أن أقصدها في مكتبها لمعرفة ما وراءها وأنا أشعرُ بفضولي يزداد كلما فكرت في الأسباب المحتملة.

قصدت الممرّ المخصّص لقسم الرياضيات في الطابق الأرضي وكانت حركة الطلاب تتلاشى وتنسحب إلى الفصول بعد انتهاء فترة الاستراحة القصيرة. كان صباحاً منعشاً بالرغم من سخونته. نقرتُ البابَ بهدوء فسمعت صوتاً أنثوياً ناعماً يدعوني إلى الدخول. تلقَّتني الدكتورة بَتُول بابتسامة سعيدة مَشُوبة ببعض الإحراج وأضاءت وجهها المُحاط بحجاب أخضر غامق فرحة عذبة. كانت معها زميلتها التونسية التي تشاركها في المكتب وقد سبق أن صادفتها في ممرات الكلّية مراراً دون أن أتعرف إليها. بادرت بَتُول إلى تقديمي لها فحيّتني بأدب ويبدو أنها حدست أن تكون لزيارتي غاية خاصة فاستأذنتْ في الحال وغادرتْ المكان.

تنزوي الدكتورة بَتُول بين نافذتين صغيرتين تقعان على جانبَي الحَيِّز المخصَّص لمكتبها الذي يبدو أشبه بِرُكْن ناتئ في تصميم المكتب المربع.

Twitter: @ketab_n

كان على يمينها شاشة جهاز الكمبيوتر وأكواب القهوة ودَوْرَق لتسخين الماء. اجتذبتني في رُكْنها الصغير لمسةُ الأنوثة التي لا تُخطئها العين. حين جلست أمامها داخلني من جديد إحساس مفاجئ بتقارُب غير مفهوم بيننا ربما يكون هو ذاته ما دفعني إلى التدخُّل في الحوار من قبل.

بدت د. بَتُول مرتبكةً قليلاً، كما هي حال من يميل إلى العُزْلة حين يَطلبُ عوناً من إنسان آخر، وقد بالغت في الاعتذار عما تُسَبِّب لي من تأخير، فقلت إن من دواعي سروري أن أتمكن من تقديم خدمة إلى العراقية الوحيدة في الكلّية. دعتني إلى قَدَح من القهوة وقالت إن لديها قهوة ماليزية لذيذة ذات نكهة مميزة أسمتها "قهوة علي" وهي القهوة التي انتهيت إلى إدمانها بعد ذلك اللقاء، وبقيت أتساءل إن كان تعلُّقي بتلك القهوة ناجماً عن إضافة عُشْب الجنسنغ إليها أم لذكرى الجلسة اللذيذة التي عرّفتني بها؟ سألتُ الدكتورة بَتُول عن أخبار ابنتها فقالت إن كلماتي كان لها أثر السِّحْر فيها وشكرتني على اهتمامي بموضوع الخلاف حينها وما بذلتُ من جهد لإقناعها. ثم انتقلت إلى توضيح غايتها من لقائي. قالت وهي تنهمك في إعداد القهوة:

- لقد قصدتُك طلباً لمساعدة جديدة. لديّ هذه المَرّة مراسلات بالإنكليزية أرجو أن تُراجعها لغويّاً. بالرغم من أني متخرّجة في جامعة بريطانية فهنالك احتمال هَفوات في النحو وتركيب الجُمَل لا أريد لها أن تظهر في مراسلاتي.

قلت بسماحةٍ كاملة:

- على الرَّحْب والسَّعة.

لم تقلْ شيئاً عن نوع المراسلات ولكنها سلّمتني رسالةً طويلةً مكتوبةً بخط يدها بقلم الرصاص مُوَجّهة إلى ضابط الهجرة الكندي المسؤول عن طلب تقدّمت به للهجرة إلى كندا. تناولتُ الرسالة وشرعت في قراءتها دون تأخير. كانت تتعلَّق بخلاف بينها وبين الهجرة بخصوص حاجتها إلى تقديم

Twitter: @ketab_n

نتيجة امتحان معتمد دولياً يُثْبت تَمَكُّنها من الإنكليزية، وكانت في رسالتها تُحاجِج بأن حصولها على شهادة الدكتوراه من بريطانيا في مجال الرياضيات لا يَدَعُ مجالاً للشك في تمكّنها من الإنكليزية. أدركت اعتماداً على طبيعة الخلاف أن استعانتها بمتخصص في الإنكليزية ليراجع رسالتها أمر مفهوم، فهي لا تريد أن ترتكبَ أي خطأ يمكن أن يوحي لضابط الهجرة أن في لغتها الإنكليزية أيّ عَيْب. لم تكن الرسالة تتجاوزُ الصفحةَ الواحدة فانتهيت من قراءتها في الحال وطلبت منها قلماً لكتابة الملاحظات. كانت صياغةُ الرسالة جيدة عموماً بالرغم مما شابها من أخطاء صغيرة هنا وهناك. أَتْمَمْتُ مهمتي في دقائق وكنت سأغادر لولا القهوة التي استبقتني بعض الوقت وأتاحت لي أول إطلالة على عالمها المحتجب الغريب.

داخلني وأنا أجلس أمام د. بَتُول شعور بالتخفّف من عبء ما. كنت في بداية الحديث أخاطب فيها هويتها العراقية ورمزيتها. وهي أمور متأصلة في لهجتها العراقية وإن تخللتها كلمات دخيلة التَقَطتها خلال سنوات اغترابها، ثم في أصول الضيافة العراقية وما يرافقها من قهوة ومجاملات صغيرة وإن كانت القهوة ماليزية. والأهمّ من ذلك ما أحاط الجلسة من أُلْفة وتدفُّق لا توفّرهما إلا امرأة لها جمال بَتُول ووقارها. كان احتمال الغزل بعيداً كلَّ البُعْد عني لأسباب كثيرة أولها أني يومئذٍ لم أكن متأكداً من نهاية الآفاق التي فتحها لقائي المفاجئ مع ساندرا، وثانياً لأنها امرأة متزوجة يغلب عليها الوقار بل وحتى الحزن. وهكذا مضى الحوار في استرسال وتلقائية تَغِيب عن حوارات الرجل والمرأة عندما تكون مثقلةً بالنوايا. سألتها وأنا أرشفُ القهوة وأستشعر نكهتها القوية المحبَّبة:

- كم مضى عليك خارج العراق؟

قالت ضاحكة:

- عُمْرٌ بأسره، أكثر من خمسة عشر عاماً.

- كلها في عُمان؟

Twitter: @ketab_n

- لا بالطبع. عملت في عدة دول ولكن عملي في الأردن والمغرب كان له حِصَّة الأسد. لا يبدو أن حال العراق يمكن أن تتحسَّن.

- هل اقتناعك هذا هو السبب في سعيك إلى الهجرة؟

ركَّزت نظرها في عيني كأنها تقيسُ مدى قدرتها على كشف خططها ونواياها لي. حين امتلأ نظري بعينيها السوداوين الثاقبتين هزّتني أنوثتها الفريدة. قالت بصراحةٍ لم أستغربها في جَوّ حوارنا التلقائي:

- هنالك أسباب كثيرة. أريد أولاً أن أعيش في بلد بعيد عن مآسي العراق ومآسي العرب أجمعين. نحن نعيش في عالم خانق هنا، وحتى لو عُدْتُ إلى العراق وضُمِنَتْ سلامتي فإن الخرابَ الذي حلّ بالبلاد لم يترك لي أملاً في إمكانية السعادة هناك.

استرجعت المعلومات القليلة التي عرفتها من الدكتور حاكم عنها وحاولت أن أفهمَ ما تقول في ضوء القليل الذي أعرفه عنها. هل العودة صعبة بسبب تورّط زوجها المعروف مع النظام السابق وما يعنيه الرجوع من مخاطر؟ سألت لأفهم:

- هل عائلتك معك؟

- معي شذى فقط. زوجي وولدي وابنتي يعيشون في العراق الآن.

لم أشأ طرح سؤال آخر. قد يبدو ذلك فضولاً سافراً، لكن ما قالته زاد الصورة غموضاً. سألتني هي عن عائلتي بحياد فقلت:

- أعيش وحدي. انفصلت عن زوجتي قبل أربعة أعوام وليس عندي أطفال.

تطلّعت نحوي باهتمام وهتفت:

- كم أنت محظوظ!

- كيف؟

- تخلصتَ من كل مصادر وجع الرأس وتحقّقت لك الحرية الكاملة.

Twitter: @ketab_n

- لكني أعيش وحيداً. الوحدة مُتْعبة.

- الوحدة هي السبيلُ الوحيد إلى الراحة والمشاعر السعيدة. أنا أعشق وحدتي الآن وهي مُنية لم تتحقَّق إلا قبل عام واحد فقط عندما انتهت شذى من دراستها الثانوية وحصلتْ على مقعد في جامعة السّلطان قابوس. ومع عودة زوجي إلى العراق لمتابعة مصالحنا هناك تذوّقتُ الوحدة لأول مرة.

سألت ولا أدري كيف منحت نفسي الحق في الوصول إلى مثل هذه الأسئلة بهذه السرعة:

- كيف تقضين وقتك وحيدة؟

ثم أردفتُ لتلافي الإحراج:

- عفواً، أنا أسأل لأستفيد لأن حماستك للوحدة تشوقني.

- لاشيء. أنا أعيش في بناية بالبرّ تطلّ على البحر مباشرة. عندي نافذة عريضة تطلّ على منظر الماء الأزرق الرائع. أجلس لساعات أتطلع إلى البحر، أشاهدُ التلفزيون، أهتمّ بترتيب شِقّتي... أمور صغيرة قد لا تعني شيئاً بالنسبة إليك.

ضحكت وأنا أسأل:

- هل درست الرياضيات أم الشعر؟

نظرت نحوي باهتمامٍ وسألت:

- هل هذا شعر؟

- بالتأكيد.

النظرات مصيدة في مثل هذه اللحظات. لكن وصول مجموعة من الطالبات ذكّرني بضرورة المغادرة وقد طلبت الدكتورة بَتُول منهن الانتظار في الخارج، فاستأذنتُ وكررتُ شكرها وامتنانها. قلت لها وأنا أكتب عنواني الإلكتروني على ورقة صغيرة إن بإمكانها إرسال ما تشاء إلكترونيّاً لأراجعه، فقالت إنها سترسل رسالتها هذه إلكترونيّاً بعد أن تطبعها مساء

Twitter: @ketab_n

اليوم لأُدَقِّقَها للمرة الأخيرة فهي تريد أن تسدّ الطريق على ضابط الهجرة. حين نهضتُ من مكاني نهضتْ معي وكان لها قَدٌّ رشيق فَتِيّ. قالت بجدية لم تمسح ابتسامتها الوضّاحة:

- أرجو أن يبقى أمر هذه الرسالة سراً بيننا. لا أحد يعرف في هذه الكلّية أني أنوي الهجرة.

نظرت إليها لبرهة وجيزة وقد فاجأني الطلب. لم أسأل عن السبب وقلت بمودّة خالصة:

- بكل تأكيد. يمكنك الثقة التامة بهذا.

حين غادرتُ مكتبها كان طعمُ القهوة المُحَلّاة يختلط بإحساس غريب؛ كأني زرت بيتي في بغداد في حلم خاطف. وظل يشغلني ذلك الإحساس الذي بدا من القوة وكأنه يُخفي ما يفوق لهو الأحلام بنا.

Twitter: @ketab_n

33

لم أكن أتوقّع أن يؤدِّي ذلك اللقاء القصير مع د. بَتُول إلى رد الفعل المُنْفَعِل المُسْتَرِيب الذي بدر من ساندرا. شاءت الصدف أن خروجي من مكتب د. بَتُول في الطابق الأرضي تزامن مع عودة ساندرا مع حشد من الطلبة من حِصَّتها، وكان يلحقُ بها طالبان يحمل أحدهما حقيبتها الثقيلة التي تحرص على عدم الافتراق عنها، والثاني رُزَماً من الكتب الخاصة بالتمارين يبدو أنها تنوي تصحيحها في المكتب، وكانا يتحدثان بحماسة معها وقد لاح على وجهيهما فرح للقدرة على التواصل مع متحدّثة أجنبية بالإنكليزية على الرغم من بساطة العبارات. التقيتها قرب السلّم المؤدّي إلى الطابق العلوي فصعدنا معاً، ولم تخاطبني إلّا حين أصبحنا لوحدنا في المكتب. قالت بابتسامة تداري بها قلقها:

- هل كنت تزورُ أحد الأساتذة.

قلت وأنا أقلّب أوراقي الكثيرة المختلطة:

- نعم. زرت الأستاذة العراقية لأرى ما تريد.

ثم سقط سؤالها الغريب كالصاعقة:

- هل تُحبها؟

لم أصدق ما سمعت. سألتُها لأتأكد:

- عفواً؟

ظلت تتطلع نحوي وقد كفّت عن كل حركة أُخرى وكرَّرت السؤال. وقفت حائراً أبحثُ عن الإجابة لا لصعوبتها ولكن لغرابة السؤال. قلت مازحاً:

Twitter: @ketab_n

- ما بك؟ هل تعانين حُمّى؟

قالت وقد ارتسم نوع من الانكسار على وجهها:

- أنا غير مرتاحة لهذه المرأة، وزيارتك لها غريبة.

أعقب ذلك جدل طويل حاولت فيه أن أدافعَ عن مبادرتي لزيارة د. بَتُول. قلت إن من الأصول أن أستجيب لطلب المعونة من أحد الزملاء، خصوصاً عندما يكون الطلب من السيدة العراقية الوحيدة في القسم، وإن المرأة متزوّجة ولها عائلة كبيرة. وقد زاد استغرابي حين قالت ساندرا باستنكار لا يخلو من التشفّي:

- من قال لك إنها متزوجة؟ لقد انفصلت عن زوجها منذ زمن بعيد.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- عرفت بالمصادفة من أحد الأساتذة.

- لكنها حدّثتني عن زوجها وأولادها؟

- ما المناسبة؟

لم أشأ أن أعلن خبر رغبة بَتُول في الهجرة بعد طَلَبِها مني أن يبقى الأمر سِرّاً، لكني بدأت أشعر بضيق من الاستجواب. قلتُ وقد لاحظتُ أن شيئاً من الغضب قد بدأ يشوبُ نبرتي:

- هل هو استجواب؟

انتبهت ساندرا إلى أنها قد تمادت في اتهاماتها فابتسمت وعاودها ودّها المعتاد. قالت ببساطة تامة:

- أنا أحبك وأغارُ عليك.

لم أكن أعلم أن ذلك الحوار سيصبح حدثاً يومياً تقريباً. كانت ساندرا تعاني شَكّاً متأصلاً في ولاء الرجال ونواياهم لا يمكن أن يُغيِّره شيء. ساد صمت كنت أحاول خلاله أن أتجاوز ما حدث، وقد سارعت هي إلى مساعدتي على ذلك، فقالت بحماسة وابتسام:

Twitter: @ketab_n

- سليم، هل قرأت مقالتي في جريدة "الأسبوع"؟

كانت "الأسبوع" صحيفة أسبوعية تصدر بالعربية والإنكليزية وتوزّع في محالّ التسوُّق الكبرى، تحتوي على تحقيقات صحفية سريعة تمس قِشْرة الحياة العُمانية وتلاحق الموضة والمشاغل الاستهلاكية المحمومة للمغتربين. وهي مَجّانية تعتمدُ في مواردها على حشد الإعلانات التي تنشر فيها. عبّرتُ عن دهشة حقيقية وطلبتُ أن أقرأ المقال، فأعطتني الصحيفة باعتزاز. وضّحتْ أن المقال ردٌّ على رأي نشره روجر هوبكنز في عدد سابق. اتضح لي أنها لم تكن مقالةً بل رسالة إلى المُحَرِّر نشرها في زاوية الرسائل. سألتها إن كانت تملك العدد الذي نَشَر فيه روجر رسالته فناولتني عدداً آخر. لم أكن أميل إلى قراءة هذه الصحيفة لضمور نزعتي الاستهلاكية، لكنّ انتقالَ جدالات صُور إلى صفحاتها كان دافعاً كافياً إلى اهتمام مُسْتَمْتِع بما وجدتُ بين يديّ. استحضرت أناقة روجر هوبكنز وحرصه على التهذيب والمجاملة وأنا أقرأ ما كتبه. طلبت مني ساندرا أن أساعدها على تصوير الصفحتين على جهاز الماسحة الضوئية عندي لتحتفظ بهما، وهو ما أتاح لي الاحتفاظ بنسخة من الرسالتين أجد مناسباً لحكايتي أن أقدّم ترجمةً لهما. كتب روجر تحت عنوان "مكافحة الجراثيم":

"وصلتُ حديثاً من نيوزلندا للعمل في مدينة صُور الساحلية الوديعة. وكما يعلم الكثيرون فإن نيوزلندا بلاد جميلة تدعو صورتها "النقية مئة بالمئة" إلى الفخر. ولأني واحد من الكيوي Kiwi فأنا أعتزّ كثيراً بما حقّقه بلدي من سُمْعة عالمية. وقد نشرت صحيفتكم في عدد الأسبوع الماضي مقالاً يحثّ على النظافة بوصفها مسؤوليةَ الجميع، وهو أمر أرحّب به بحماسة فالبيئة مسؤوليتنا أينما عِشْنا واستنشقنا الهواء.

يدعوني إلى الكتابة إليكم ما رأيت أثناء سَفْرتي خلال نهاية الأسبوع الماضي من صُور إلى مَسْقَط، حيث توقّفتُ في محطة بترول في مدينة القابل. حينئذٍ لفت نظري وأثار اشمئزازي أن أرى عامل تعبئة البترول ينظف

Twitter: @ketab_n

حنجرته ويبصق محتوياتها على الرصيف في موضع لا يبعد أكثر من متر واحد عن مقدّمة سيارتي. ولم يكتفِ بذلك بل تمادى فنظف أنفه دون استخدام منديل على البقعة نفسها. كان هنالك العديد من السيّاح على مقربة من المكان وقد أصابتهم الصّدمةُ هم أيضاً لمثل هذه الأفعال. مثل هذا السلوك غير مقبول، ومن المؤكد أن ثَمَّة مكاناً قريباً يستطيع هذا العامل أن يتخلّصَ فيه من جراثيمه.

أتساءل إن كان الناس واعين بما يمكن أن تنشر مثل هذه الأفعال من أمراض خَطِرة. لنتذكر أن ملايين الجراثيم تنتشر عبر التخلُّص من المخاط والبِصاق على الأرصفة. لابدّ من نشر العلامات الإرشادية التي تمنع الناس من البِصاق، ولا بد من فرض غرامة على كلّ من يفعل ذلك. وأنا واثقٌ أن الولايات ستجني ثروات طائلة بين ليلة وضُحاها إن تمّ تطبيقُ القرار تطبيقاً صحيحاً. والأهمّ أن خطرَ الجراثيم الذي يتهدّدها سيتوقف، وستعلو صورة عُمان في عيون الكثير من السيّاح والعاملين الأجانب. حافظوا على نظافة عُمان.

روجر هوبكنز، عبر البريد الإلكتروني".

انتقلتُ بعدها لقراءة ردّ ساندرا عليه في العدد اللاحق، وقد جاء تحت عنوان "كُنْ سعيداً":

"أمتعتني رسالة روجر هوبكنز المنشورة في العدد السابق والتي يمتدح فيها صورة نيوزلندا النظيفة ويستهجن عادةً سيئةً في عُمان. لقد كنت مُؤَخَّرا في نيوزلندا، وكان سبب زيارتي لقاء أحبَّتي هناك وإطلاع ولدي على بلاد أجداده الجميلة بعد غياب أكثر من عقد من السنين. لنبدأ بالطبيعة. نعم، نيوزلندا خضراء. لكن المطر فيها قد يبقى يهطل دون انقطاع لشهرين متواصلين وهو ما يكفي لدفع أي شخص إلى حافة الجنون. أما العُمْران والتقدّم فقد طِرْتُ مع ولدي إلى "كرايست تشرتش" في "الساوث آيلند" فأثار فضولنا أن كل الأعمال يشرف على إدارتها يابانيون. بعد أن أثارت

Twitter: @ketab_n

مُكَبِّرات الصوت رُعبنا من احتمال وجود قنبلة في موقف الباص في ساحة الكاتدرائية، عُدْنا إلى مقاعدنا ووجدنا الباص الذي سيعبر بنا "الهاس باس" عبر جبال الألب الجنوبي. كان سائقُ الباص مُعْتَكِر المزاج لأن أحداً منا لم يستخدم عرّافاً يكشف له مواقف الباصات قبل الوصول إليها.

حين وصلتُ مع ولدي إلى بيت جدّه خرج لاصطياد السمك في نهر القِرْم الصافي وهذا أمر حسن، ولكننا ما إن استأنفنا الرحلةَ إلى الجُزُر الشمالية والجنوبية حتى بدأت تصادفنا العديد من المحالّ العامة التي تلطّخ أرصفتها الألوان المختلطة القبيحة لشوربة الشوفان تقدمّ الدليل على مدى قناعة الناس ورضاهم عن حياتهم. لا أدري ما نسبة عدد الجراثيم بين هذا القَيْء وبِصاق عُمّال محطات البترول في عُمان. في المرافق الصحية العامة لاحظنا الصناديقَ الصُّفْر التي كُتِبَ عليها "أدوات حادّة"، وهي عبارة لا تُشير إلى التخلّص من أمواس الحلاقة بعد الانتحار، إنما إلى حُقَن أولئك الذين يستعينون بالمخدّرات في سعيهم إلى السُّلْوان.

وصلنا إلى أوكلاند لحضور عيد ميلاد ابن عمي. كانت ابنته الجميلة ذات الأربعة عشر ربيعاً حزينةً منطويةً على نفسها. لقد أقدم أحد زملائها في المدرسة على الانتحار، وهو الخامس الذي يفعل ذلك. وهؤلاء المنتحرون جميعاً لا يتجاوزون السادسة عشرة وينتمون إلى فريق للركبي، كما أن مدرستهم واحدة من المدارس الخاصّة المُنْتَخَبة. وقد شكا لي ابن عمي من تكرار حضوره مآتم أصدقائه الذين أقدموا على "تصفية أنفسهم". تعاني نيوزلندا أعلى نسبة انتحار بين الذكور في العالم. كما أنها تفخر بوجود أعتى داعيات الحركة النسوية وأكثرهن سَماجة.

أنا أمارس التدريس في كلّية صُور مع زميلي روجر، ويثيرُ عجبي ما أجد من صعوبة في تفسير معنى كلمة "كآبة" لطلبتي السّعداء الأصحّاء بين الثامنة عشرة والعشرين الذين لا يبدو أنهم قد جَرّبوا هذا الوباء العالمي قطّ. يمكننا دائماً أن نتفادى بصقةً صغيرةً على الأرض، لكن من الصعب

Twitter: @ketab_n

عبور جثة وتجاوزها. اخلعْ جزمتك البلاستيكية روجر، وأهلاً بك في الفِرْدَوْس.

ساندرا. عبر البريد الإلكتروني".

حين رفعت رأسي عن الصحيفة وجدت عيني ساندرا تحدّقان إلي وقد التمع فيهما مزيج حَيّ من التهكّم والجدية. لم يفاجئني جدالها مع روجر لأن حواراتنا المُطوَّلة كشفت لي موقفها الساخر وخيبتها في العالم الذي تركته وراءها. سألتُ وقد أمتعتني ملاحقةُ تفاصيل الخلاف:

- ما موقف روجر من رَدِّك هذا عليه؟

قالت دون أن يختفي التهكّم من نبرتها:

- كما توقّعت، جاءني وهنّأني على جمال الأسلوب واستطاع بنفاق منقطع النظير أن يُخفي أي أثر للانزعاج. هكذا هم أمثاله في نيوزلندا يقبلون ما تقول بِسَعة أُفُق واستعداد للتعايش لكن موقفهم المتسامح هذا لا يعدو محاولة دفن المشكلة ونسيانها.

تأملت ساندرا وهي تواصل جدالها مع روجر أمامي. كانت ترتدي قميصاً وردي اللون ضاحكاً وتنّورةً زَرْقاء اتفقتْ مع خيّاط باكستاني في السوق وسط البلد على أن يجعلها طويلة ما أمكن كما قالت لي، وقد دفعت له أكثر مما طلب تقديراً لعمله المُتْقَن. كانت صُور بالنسبة إليها محاولة أخيرة لدفن مخاوفها وشكوكها في الناس وتحويل المرارة التي خَلَّفَتْها تجاربُ شبابها الحُلْوة إلى شيء مُسْتَساغ. انهمكت منذ وصولها بمداعبة الأمل وانتشاله من مستنقع التهكّم والخَيْبة. وواجهت مصاعب العيش في مكان غريب بعزيمة لا تَلِين. مشاغل الحياة اليومية الصغيرة ابتداء بالتسوق وحتى شؤون التدريس والتعامل مع الطلبة العُمَانيين وإدارة القسم والكلّية كانت أَحاجِيَ مُرْبِكَةً بالنسبة إليها. كنت أُمضي ساعات طويلة من لقاءاتنا أحدّثها عما يتوقّع الناس منها في صُور، ومعظم كلامي بديهيات لم أكن قد توقعتُ يوماً أن تمثل معلومات مهمة يمكن تبادلها. لكن قلقها ظل يتصاعد ويتراجع دون أن

Twitter: @ketab_n

يختفي. كان من عاداتها أن لا تغادر المكتب إلى أية وجهة دون أن تنظر في مرآتها وتجدد مكياجها، وقد علّقت ضاحكة وهي تراني أراقبها بفضول ذات مرة أنها لن تخرج لمواجهة النفاق إلا بعد أن تضع القناع. قلت لها حينها إن الجاحظ قد ذكر في رسالة الحنين إلى الأوطان «مرآة الغريبة» التي تبقى دائماً مجلوة لا تشوبها شائبة لكثرة تحديق الغريبة إلى وجهها لما يعتريها من قلق وتحوّط، فأجابت أن «الجاهز» هذا رجل عميق الإحساس، ولم أشأ أن أحدثها عن أمجاد المعتزلة التي دفنها غبار السلفية والجمود. وقد بقيت أفسّر ارتباكها بأنه ناجم عما اتَّفق الأساتذة الأجانب، اعتماداً على الكُرّاسات السياحية على ما يبدو، على تسميته الصّدمة الثقافية. ثم انتهيتُ وأنا أرصد حقيقة أن قلقها لم يتضاءل بمرور الوقت، إلى أنه قد يكون ناجماً عن الانتقال الدرامي الذي مرّت به على حين غِرّة من حياة رَبّة البيت المشغولة بتربية طفل صغير لا تتعدَّى حياتُها مشاغله إلى امرأةٍ عاملةٍ في بلد غريب يتكلّمُ لغة لا تعرف عنها شيئاً. سألتني ذات مرة إن كنت قد عِشْتُ في بلد لا أعرف لغته فقلت لا، قالت إياك أن تفعل لأن الأمرَ يشبه أن يصحو المرء فيجد أنه فقد القدرة على الكلام وأصيب بالصّمم. كانت ساندرا تقف بين عالمين لا يقدّمان لها دعماً لاستئصال القلق والحَيْرة من نفسها. وأرى في رَدّها على روجر صورة عالم يتداعى في مخيلتها يقابله عالم آمن تفترضه وتدافعُ عنه دون أن تتخلّص من قلقها فيه.

حرصتْ ساندرا بالرغم من ارتباكها على تأكيد قدرتها على اتخاذ قرارات مستقلة تدلّ عليها. لم أفهم في البداية إصرارها على شراء احتياجاتها من المحالّ الصغيرة المُنْزَوِية في أزقّة صُور الضَّيِّقة، فوضّحت لي أن المحالّ الكبيرة مثل كمجيز التي تحتكر السّوق تسحقُ الباعة الصغار في الأَزِقّة ولا بد من تشجيع هؤلاء. وتوسّعت في شرح فلسفتها في التسوّق فقالت إنها تبدأ بشطب شِراء أية بضاعة تحتاج إليها من مَسْقَط إذا ما توفَّرت في صُور لأن صُور المدينة الصغيرة بحاجة إلى رفد اقتصادها وأهلها قبل غيرهم وهي مدينتها الآن. ثم هي تشطب في صُور الأسواق الكبيرة مثل

Twitter: @ketab_n

كمجيز إذا ما توفَّرت المادة في الدكاكين الصغيرة. وهي أمور لم تخطر لي من قبل إذ تعوّدت أن اقتصاد البلد كتلة واحدة تنتهي عوائدها لنظام واحد. لم تفقد ساندرا حماستها لاستكشاف المحالّ الصغيرة وقد أخذتني إلى أزقّة لم أصل إليها يوماً ونبّهتني إلى بساطة الباعة الصغار وهدوء عالمهم الذي يشبه عَزْفاً ناعِساً في كواليس مسرح صاخب واستعدادهم للابتسام الصادق دون سبب والتفاني في إظهار المودّة.

اقترحت عليّ ذات يوم أن نقصد سوق السمك في صُور. وهي هيكل كونكريتي كبير يزيد من أُبَّهته سقفُه العالي الذي يستقر على أعمدة كونكريتية ضخمة. في أيام الجُمَع تشهد السوقُ حشوداً كبيرة من العُمَانيين والأجانب فيعرض ثروة صُور السمكية الطازجة المُتنوِّعة من الهامور والضعرة والقِرْش والتُّونة. في زَحْمة السّوق والتجمُّعات المتحلّقة حول الباعة شقّت ساندرا طريقها إلى رُكْن تحتلُّه عجوز من أهل صُور تلفّ خصرها بعباءة سوداء وتستند إلى وِسادة كبيرة فتبدو كمن يجلس على شاطئ للترويح عن نفسه. وقعت عليها ساندرا دون تأخير. قالت لي لنقصد هذه السيدة الطريفة. أما طرافتها فاتَّضح أن سببها فقدان المرأة البصر واعتمادها على حواسها الأخرى في أداء عملها. كانت تنشر أمامها قطعاً كبيرة من لحم التُّونة الأحمر الطازج. حين سألتُها عن السعر محاولاً استخدام اللهجة العُمَانية طلبت سعراً يقل عن أسعار السّوق وقالت لي: أنت عراقي، أليس كذلك؟ ولم أصدّق قُدْرتها العجيبة على تمييز اللهجات، ثم لم أصدّق الحركة الواثقة التي قطّعت بها اللحمَ بسكّين حاد. قالتْ لي ساندرا حين نقلتُ لها انطباعاتي: "إنَّ هذه المرأة هي صُور لمن يريد أن يعرف المدينة"، وأسهبتْ في الثناء على شجاعة هذه العجوز العُمانية الخارقة لأنها لا تأبه بالعَوْق وتستمدّ الثقةَ من رغبتها القوية في العيش والتحقُّق. أعتقد الآن أن ساندرا لم تَرَ في تلك المرأة شبيهاً لها بل مثالاً ظلَّت تسعى جاهدةً لبلوغه في منفاها.

Twitter: @ketab_n

34

أَدَّتْ تَحَوُّطات ساندرا وشُكُوكها إلى موقف غريب. لكن عليّ أن أجمع ما أحاط به من مصادفات تحولت وهي تتجمّع فيه إلى أسباب مُوْجِبة، وربما لم أكن لولاها لأبالغَ في التعبير عن سُخّطي على ضعفها بتلك الطريقة المجنونة. كنت قد أمضيتُ ليلةً طويلةً في كتابة رَدّي المؤجَّل على رسالة شهاب الأخيرة. قادني إليها وإلى الرد تَعَثُّري أثناء تصفّح مَلفَّات الحاسوب المُتكاثِرة التي لم يَعُد التبويب والتصنيف قادرين على اللحاق بفوضاها، بملفّ خصصته لتصوير سكانر بعثته إنعام من بغداد قبل عامين ليوميات كنت أحرص على كتابتها منذ السبعينيات. حين وصل إلي أمضيت شهوراً في عُزْلة الصحراء الليبية أعيدُ قراءته بل وبدأت طَبْعه لسبب لم أفهمه، لكني سُرْعان ما انشغلت عنه. ليلتئذٍ فتحت الملفّ وقرأت لساعة بعض ما كتبتُ قبل عُقُود فوجدت اسم شهاب يتردّد أمامي واستعدت بعض الحوارات الفكرية والأدبية معه التي كنت أتابع تسجيل خطوطها العريضة حينئذٍ. أفضى بي كل ذلك إلى مِزاج تأمُّلي لا يخلو من الحُزْن والحَيْرة فكتبتُ لشهاب رسالةً مطولةً أشعر وأنا أعيد قراءتها الآن كأني كتبتها لنفسي أيضاً:

"أخي العزيز شهاب

عَوْدَتُك ومَنْفاي يمثّلان بالنسبة إلي مفارقةً عجيبةً لا أكفّ عن تأملها، فالعودة تأتي بعد عُقُود من مَنْفاك ومُكْثي بالعراق، ومَنْفاي يتواصل بينما أنت قد عدت إلى العراق. أعتقد أن الوسيلة المُثْلى لحلّ مَغاليق هذه المفارقة هي النظر إلى ما يحدث لنا اليوم من منظور منتصف السبعينيات،

Twitter: @ketab_n

عندما كُنّا نلتقي في كازينو "الرفاه" على أبي نُواس ونُمضي الساعات الطويلة بمعزل عن بقية الأصدقاء نتحاور ونسعى بكل السُّبُل إلى حلّ خلافنا الذي بدا مُستعصيّاً على الحل حينئذٍ. كنتُ أنا متحمّساً للسياسة يومئذٍ، أعمل في جريدة الحزب ولا أرى للفكر معنى دون اقتران بالممارسة، بينما كنت أنت تصرّ على أن المُثَقَّف لا يحققُ استقلاله وقدرته على النقد إلا إذا تعالى على التجربة الحزبية واحتفظ بحريته واستقلاله. وبالرغم من اتفاقنا في الكثير من الأفكار والمواقف فقد شئتَ يومئذٍ أن تنحتَ بأصالة كاملة تسمية جديدة وجدتها يوم ذاك أقرب إلى ما أسماه العرب الإرداف الخلفي أو ربما ما أسماه البلاغيون الإنكليز oxymoron فكنتَ تصف نفسك بالمُلتزم الديمقراطي. حين جمع بيننا حبيب محمود عام 1975 قال إنه يجدنا وجهين لعملةٍ واحدة ولا بد أن نتعارف. كلانا يلتهمُ الورق أكثر من الماء والطعام. وكلانا مُولَع بتلك اللحظة المتوهّجة التي يغادر بها الفكر كهوف الانطواء وينتمي إلى صَخَب التجربة الإنسانية والتاريخية المدهش. وقد قلت لك يومئذٍ إن المثقّف المستقلّ عن التنظيم السياسي يبقى هامشياً لأن الوجود داخل تنظيم مُعيَّن لا يعني المشاركة في نشاطاته فقط، ولكنه يعني معرفة من نوع خاصّ لا يوفّرها إلّا الفعل السياسي والانخراط فيه. قلتُ حينئذٍ إن التنظيمَ يوفّر للمثقف مرصداً تَتَّضَح منه، ومنه وحده، الصورة العامة وتتبلْوَر الأسئلة. حين اتفقنا كان قرارك الانتماء صعباً وصميمياً، من هنا أصالته.

اليوم أتأمل مسارينا الغريبين منذ عام 1979 وأنا أتمشى على صخور البحر في مدينة صغيرة لا تهمها كثيراً حماقاتُ التاريخ ونوبات جنونه. بينما كنت أنت تبدأ خطواتك الأولى في المنفى خلال ذلك العام تحمل معك حلماً تحوَّل إلى عقيدة، بقيت أنا في مواضع الحرب العراقية الإيرانية غريباً في مهرجان القسوة والحماقة والاستبداد. كان حلمي يتفتّتُ مثل نُصْب من رمل. أفكر أحياناً أن وجودك في أوروبا قد وفّر لك استمرارية تقطّعت أوصالها لمن عاش محنة الحروب في الداخل. أتذكّر استعارة مرّت عليّ في كتاب قديم مفادها أن شخصاً شبّ منتصباً دون أدنى انحناء كما تشبّ نبتة

Twitter: @ketab_n

في وادٍ عميق تحتمي بما حولها من جبال من العصف الذي يهدّد استقامتها. أنا أفهم نُبْل ما تفعل وأجد صعوبةً في تخيُّل الطريقة التي حافظت فيها على حماستك للفعل والمشاركة في الحياة العامة والتنظيم السياسي. كم تمنَّيْتُ لو استطعت أن أناقش معك الطريقةَ الفاجعةَ التي صهرت فيها المواضع أحلامي، لكني سجَّلْت يوميات كثيرة حينئذٍ. وقد طلبت من أختي إنعام في بغداد أن تصوّرها على السكانر وترسلها لي منذ كنت في ليبيا. أعود إليها الآن بين حين وآخر في محاولة لتبيُّن الطريقة الخفية التي نزفت بها كل ما تجمّع في عروقي من دماء حَيّة خلال السبعينيات. كانت الطعنة الأولى فشل الحزب الشيوعي في تبرير ما فعل بحق أعضائه وجماهيره. أتذكر أني التقيتُ مصادفةً في بغداد أثناء إحدى إجازاتي رفيقاً سابقاً في الحزب، وكان متحمّساً لفكرة العودة إلى العمل السرّي لمُقارعة الاستبداد البعثي. أغضبتني حماسته. أغضبتني لأني كنت أعرف أسماء المثقّفين الشيوعيين الكبار الذين قَرَّر البعث تصفيتهم عندما انهارت الجبهةُ الوطنيةُ سَيِّئةُ الصِّيت، وأعرف الذُّلَّ الذي واجهه آلاف الشيوعيين وهم يوقّعون ورقة الانتماء إلى حزب البعث قَسْراً ويتعهّدون قبول عقوبة الإعدام إذا ثبت انتماؤهم إلى حزب آخر. كل هذا العذاب وكل هذه المآسي كانت ثمن قرار خاطئ اتخذه الحزب عام 1973 تحت ضغط سوفيتي أكيد للتحالف مع البعث وغسله من أدران جرائمه في مجازر 1963. لم أتمكّن من قبول الخطأ. كنتُ غاضباً يومئذ وكنتُ أردّد أن البعثَ أخطأ في كل شيء إلا في اتهامه الشيوعيين بأنهم يأتمرون بأوامر الكرملين.

الطعنة الثانية، وأنا أحاول هنا تَلَمُّس الجراح التي نزفت منها أحلامي القديمة، كانت الحرب العراقية الإيرانية. وهذه المرة لم تكن الطعنة موجّهة إلى اقتناعي بحزب سقط في خطأ، كانت طعنة أعمق وأخطر. خلطت الحرب عليّ الأوراق واكتشفت لأول مرة أن الصيغَ المريحة الجاهزة التي ظلت تحل كل مغاليق السياسة أمامي قبل عام 1980 قد بدأت تتداخل وتترنّح وتفقد معناها. كنت أواجه الموت يومياً في خندق عراقي مُتقدِّم في

Twitter: @ketab_n

ديسفول بيدقاً في جيش بعثي يحارب حكومةً إسلامية. بحسب الصيغ الجاهزة حتى الأمس القريب بدا الأمر كله أقرب إلى مسرحية دادائية مُرْبِكة. البعثيون والشيوعيون والإسلاميون جميعاً يُرَدِّدون ليل نهار نشيدَ العداء للإمبريالية وعملائها الإسرائيليين في المنطقة في كورس واحد، ثم هاهم يُمَزِّق أحدهم الآخر في حفلة قتل جماعي تفتقد أي منطق أو معنى. البعث يذبح الشيوعيين والإسلاميين على السواء، والإسلاميون يذبحون الشيوعيين والبعثيين، والشيوعيون وقد تحولوا إلى خارجين على القانون في العراق وجدوا أنفسهم ضائعين في خنادق حرب لا تخصّهم في شيء ولا تعني شيئاً بالنسبة إليهم. كنت أسأل في جَوْف الخَنْدَق المظلم الخانق عن إجابة لسؤال بسيط: من يمثّل قوى التقدّم ومن يمثل قوى الرجعية والتخلّف؟ ألم نتفقْ يوماً أن أي صراع في التاريخ يحتوي على بذور حركة صاعدة وأن سُنّة التقدم تمنح الصراع معناه الأكيد دائماً؟ كنت أتابعُ أخبار الطرفين، البعثي والإسلامي، وأكاد أحطّم الراديو على حَجَر من أحجار ديسفول. الطرفان يشتمان أميركا وإسرائيل ويفخران بأنهما رمز النضال وأمل المستقبل بينما الجُثَث تتراكمُ والدمار يتسع على الجانبين، وأميركا تبيع السلاح للطرفين!

أنا لا أكتب مقالاً سياسياً هنا. أعلم أن هنالك من البعثيين والإسلاميين والشيوعيين من سيجادل بشتَّى السُّبُل لخلق نوع من المعنى في هذه المهزلة التاريخية، لكني أكتب عن أزمة تخصّني عشتها بتفاصيلها لسبعة أعوام في مواضع الحرب ومعسكراتها وتركتني خاوياً عاجزاً عن الفهم ضاعت مني بوصلتي في أحد المواضع، ربما دفنها القصفُ المضاد. ما يهمّني الآن وأنا أُسْهِب في رسالتي أن أحدّثك عن افتقاد الفَجْوة، وأعني هنا فَجْوة من هدوء نسبي يلتقط بها العراقيون أنفاسهم ليدركوا معنى ما يحدث لهم، ليتحاوروا ويتعاونوا على تحويل اضطراب التاريخ وحماقاته إلى "كلام مفهوم وله مَعْنًى" (رحم اللّه الشيخ إمام). لم يَعُد المسعى اليوم إلى حلم مثالي من الكمال والعدالة المطلقة بل الحُلْم هو الحصول على

Twitter: @ketab_n

فَجْوة لالتقاط الأنفاس تتيحُ لمن يصرّ على فهم العالم إعمال فكره واستعادة ثقته بأن للعالم منطقاً قابلاً للكشف. ولكن هيهات! تعرف الحكاية: قبل أن نلتقط أنفاسنا ونحن نضع أثقال حرب إيران على الأرض وقبل أن نصحو من الذهول والاضطراب اللذين سبَّبَتْهما تلك الحرب، دخلنا حرباً جديدة لا تقلّ فوضى وبلبلةً عن سابقتها. لقد قرر البعث هذه المرة أن يسخر من نفسه ومن الصيغ الجاهزة التي أَسَّس عليها تاريخه الاستبدادي وحاضره الدموي فطعن العروبة في عُقْر دارها عندما احتلّ دولةً عربيةً ظلت تدعمه بحماسة منقطعة النظير طوال حربه مع إيران ونهب مدنها وهجّر أهلها واستعبدهم. لن أطيل. غايتي هي كشف الطريقة التي أصابني بها فيروس الاضطراب والصمت الذي بقيت أصارعه طوال هذه العقود المجنونة. لقد اكتشفت فجأةً أن العالم لا يَنْصاع دائماً لمعادلات ماركس الخَيِّرة، وأنه أقرب إلى تهكُّم نيتشه وارتعاش كيركغارد أمام لاعقلانية الوجود. وجدت أن قراءة كيركغارد لقصة النّبي إبراهيم وتضحيته بالكبش بدلاً من ابنه اسحق بليغةٌ وصادقة. فالربّ يطلب من إبراهيم أمراً يتنافى مع كل مَنْطق وعُرْف إنساني، يطلب منه أن يذبحَ ابنه دون توضيح أو تبرير. وبدلاً من إعمال الفكر والمَنْطق، بدلاً من الحتميّة التاريخية ووحدة الأضداد وصراعها، انصاع إبراهيم ومن بعده كيركغارد لهذه المِحْنة الرهيبة من انعدام المعنى وتقرَّب من مصدر المعنى الوحيد الأخير وهو الرَّبّ كيفما فهمناه. لم يبقَ أمام الإنسان بحسب كيركغارد إلا ممارسة "القفزة إلى الإيمان" leap of faith لتخفّف من رُعْبه وارتعاشه أمام فوضى العالم. هل تلومُ العراقيين بعدما عاشوا في فوضى سياسية وجنون تاريخي إذا ما وضعوا أملهم في رَبّ لا يمتّ إلى التاريخ بصلة غارق في وجود أزلي ثابت مطمئن؟ لقد تلفَّتوا حولهم بعد عقود من الجنون والانتحار السياسي الذي مارسه طُغاةُ البعث فلم يجدوا ما بقي كما هو إلّا وَجْه رَبِّك ذي الجلال والإكرام. فإذا كان التاريخ لا يسمح بفَجْوة التقاط الأنفاس التي ظلّ العراقيون يصلّون من أجلها فإن الحلّ الأوحد هو تحويل موضع البحث عنها من التاريخ إلى

Twitter: @ketab_n

عالم الغَيْب. هنالك من الشيوعيين من يعمل اليوم في أجهزة الإعلام الأميركية، وهنالك من انضمّ إلى فُلُول البعث وصار مقاوماً يذبح الناس في الأسواق والجوامع، وهنالك منهم من أسلم نفسه للتصوّف أو لحل مشكلة الوجود التي حَيَّرت هيدغر. لقد مزّق التاريخ رصانتهم ووعيهم وشتّتهم. وكما قلت لك في رسالة سابقة التاريخ سَوْرة عنيفة لا مَنْطِقَ لها، وقدر الإنسان أن ينزف فيه أحلامه الأخروية في نهاية موعودة حتى آخر قطرة. لا أمل للإنسان إلا بقبول الفوضى ودخول اللعبة التاريخية بمكر الخيبة، ذلك المكر الذي مارسه جوليان سوريل في رواية ستاندال "الأحمر والأسود" (ألا يكرر التاريخ نفسه على نحو فَجّ؟ الأحمر والأسود هما العسكر ورجال الدين بعد انهيار الطاغية!)

حين أقارن مساري المضطرب الذي مَزَّق خامة مواقفي القديمة كما تَعْرِفُها بِمَسارِك الأوروبي منذ عام 1979 أفتقد أحاديثي الطويلة القديمة معك. كنت أتمنى أن أحدّثك عن كل هذا في لقائنا المُؤَجَّل في عَمّان، لا لأشكو أو أتفجّع، ولكن لأسمع منك وصفاً لِما حدث في العراق من مرصدك الأوربي البعيد قد يلمُّ شظايا كأسي. الوصف المأزوم لن يكون محايداً ولن يخلو من القسوة أبداً. قد أجد في وصفك المحايد هذا جواباً عن سؤالي المُحَيِّر الذي بدأت به رسالتي هذه: كيف تبادلنا المواقعَ في كل شيء فصرت أنا سجين المنفى وأنت مشتبكاً في فوضى الوطن؟ وصرت أنا مُصِرّاً على النأي بنفسي عن أية تجربة حزبية لاقتناعي أن المثقف يخسر داخل الأحزاب أثمن ما يملك وهو القدرة على النقد (تماماً كما كنت تُرَدِّد على مسمعي في السبعينيات: كنتَ على حقّ!)، بينما أنت تصرّ اليوم على أن الحزبَ هو وسيلة الفعل الأمثل وأن أي نشاط فكري مُنْفرد لا قيمة له ولا أثر؟ هذه مفارقات يسخر بها التاريخ من قدرتنا على الحسم ويذكّرنا أن الإنسان لا يمكن أن يتخلَّى عن الرغبة في مواقع يأمن إليها، وأن البشر يتبادلون المواقعَ في اضطراب نبيل.

لقد أمضيت حوالى العام هنا في صُور وحاورت الكثير من الأساتذة

Twitter: @ketab_n

من مختلف الجنسيات، فأنا أعيش تجمّعاً كوسموبوليتياً عجيباً في مدينة صغيرة وادعة، فهل تعلم ما توصّلت إليه؟ الناس جميعاً في حالة اضطراب وبلبلة. التاريخ يمسخهم بِعَصاه السحرية إلى كائنات تاريخية أسطورية تعلو على فرديتها الضَّيِّقة ومشاغلها الصغيرة وهم لا يعلمون كيف يمكن لهم الارتقاء إلى هذا المستوى. الأوروبيون والعرب والعراقيون سَواسِية في مواجهة صُعُوبة الارتقاء من فرديتهم الضَّيِّقة الضائعة إلى ذُرَى الكائن التاريخي المسؤول عما يحدث حوله، وبينما تجدهم ينتفضون بين حين وآخر لترديد بعض الشعارات السياسية المبسّطة بل والساذجة، فإنهم سرعان ما يهبطون إلى وجود يوميّ رتيب يخلو من المعنى.

أعلم أن انشغالك لن يسمحَ لك بكتابة ردّ مُطَوَّل على رسالتي. أنت في المكان الذي لا يُفسح فَجْوة لالتقاط الأنفاس ولا يواسي أحداً. كُنْ حَذِراً وماكراً وأرجو أن تعدني بقراءة "الأحمر والأسود" من جديد.

لك أصدق تحياتي وليحفظك الربّ لا التاريخ.

سليم"

عاودت قراءةَ الرسالة قبل أن أضغطَ وصلة الإرسال وتحيّرت في أمرها. تبدو مشتتة، حائرة، متلعثمة بينما هي تخاطب رجلاً حزم أمره بقوة وثبات. شعوري المتحيِّر بوجود خطأ ما في مكان ما دفعني إلى الضغط على وصلة الإرسال.

Twitter: @ketab_n

35

لفّتني الرسالة بمزاجٍ متأمِّل سقيم، وهو ما يحدث عندما تُتاح لمشاعر طال أمد السيطرة عليها فُرصة التعبير عن نفسها بكلمات تستجمعها وتكثفها في بُؤْرةٍ حارقة. ما إن دخلتُ المكتبَ حتى التقطت ساندرا بمجسّاتها الدقيقة أني قد وقعت ضحيةَ فيروس من نشرات الأخبار يخص العراق واكتفت بسؤال مؤدّب، بصوتٍ ناعم لا يُستخدم عادةً إلا لمخاطبة المرضى والأطفال، إنْ كان أهلي في العراق بخير. أجبتُ باقتضاب أن كلّ شيء على ما يُرام وساد صمت انشغلنا فيه بأوراقنا. لم نتبادل في ذلك الصباح المزيدَ وغلبت علينا عتمةُ المكتب وصمته. بعد أكثر من نصف ساعة سمعت طرقاً خفيفاً على الباب ودخلت على غير توقّع أريكا وستورمي. كان ظهور أريكا في مكتبي لأوَّل مَرّة منذ آخِر حديث صدّتني به بفظاظة مفاجأة أخرجتني من وجومي. ولا بد أن أؤكّد هنا أن الفضول والوجوم لا يكونان في نفس واحدة، وربما كان ميلُ بعضهم إلى احتراف الفضول رغبة منهم في تجنّب الوقوع في شبكةِ الوجوم. لم أكن أتخيّل دقّة الرصد الغاضب الذي كانت تخضع له كل كلمة قلتها وكل حركة بدرت عني.

حيتني أريكا بابتسامةٍ كالسحر وكانت تفيضُ حيويةً ورقّة. قالت إنها تشعر بالحرج لأنَّ أوَّل زيارة لمكتبي تبدو مدفوعةً بطلب المساعدة لا لمجرد التحية والمجاملة. وكنتُ بعد آخر اتصال بيننا قد قررت أن أتجنّبها كما لو أنها هَفْوة يحرجني تذكُّرها فيما ظلت هي تحييني بابتسام وانشراح كلما صادفتني حريصة على ذكر اسمي في تحيتها. ربما تكون ندمت على فظاظتها معي كما ندمت أنا على نَزْوتي التي لا تشبهني معها.

Twitter: @ketab_n

بينما عكست ملابس أريكا البسيطة المحايدة، البنطلون الخاكي والقميص البيج الذي أبرز ضيقه رشاقتها ورغبتها في مُهادنة المكان، لكن ستورمي ظلت تُرْبِك من يتطلَّعُ إليها بخياراتها الغريبة من الأزياء، تنوّرة ضيقة من الجينز لا تتجاوز الركبة كثيراً وقميص يسبّب الدوار لكثرة ما جمع من ألوان. والواقع أن ستورمي صارت تلفتُ الأنظار في مدينة صُور الصغيرة لا لِما تختار من أزياء وتسريحات فقط، ولكن لأنها عمدت إلى شراء درّاجة بخارية صغيرة. كان قرار ستورمي هذا قد سَبَّب في مدينة صُور الصغيرة زَوْبعة متنقّلة، فرأى الناس في مجتمع لا تظهر فيه النساء في الشارع إلا نادراً وإن ظهرن فإنهنّ يكنّ ملفّعات بالسواد، امرأة سمراء تشبه الكثير من العُمَانيات ترتدي الجينز والتي شيرت وترفع شعرها الغزير الشائك كالتاج، تَتَجَوَّل في الشوارع على درّاجة بخارية. تَعَرَّض لها بعضهم بتعليقات لم تفهمها كما عرفت منها فيما بعد، وحتى الزملاء في الكلية لاطفوها بتعليقاتٍ ضاحكةٍ لكنها عدّت المسألة أمراً روتينياً وكانت سعيدة بما توفّره لها درّاجتها من حرية التنقل وتوفّر لها من مال.

ما حدث في اليوم السابق للزيارة أن ستورمي قَصَدَتِ الكورنيش مساء ورَكَنَتْ درّاجتها قرب كُشْك مهجور على الساحل ثم انطلقت إلى هرولتها اليومية. وحين عادت لم تجدها، سألت الواقفين فقال أحدهم بإنكليزية ضعيفة إنَّ شابين عُمانيين وصلا في سيارة بِيكأَپ تويوتا بيضاء وحملا الدراجة فيها وغادرا في الحال وإنه لا يعرفهما ولم يسبق له أن رآهما من قبل.

كانت الغايةُ من زيارة أريكا وستورمي إذن طلب مساعدتي في اصطحاب ستورمي إلى مركز الشّرطة لتقديم شكوى بخصوص هذا الحادث. وقد أثار الأمر كلّه فضولي، ولا أقصد هنا حادثة سرقة الدرّاجة فحسب، ولكن فرصة أن أصطحب ستورمي وأتعرف إليها وإلى ما تخفي غرائبها. حدث كل هذا وساندرا تقبعُ في زاويتها تراقب وتشارك بتعليقات متعاطفة مع ستورمي ومِحْنتها. لم أتأخّر في الاستجابة فنهضتُ أصطحبهما إلى

Twitter: @ketab_n

مكتب الدكتور الطاهر الذي عبّر هو الآخر عن تعاطفه مع ستورمي وارتسم على وجهه ذلك التعبيرُ الطريف الذي يميِّزه عند الشدائد، وهو مزيج من الاهتمام الشديد كما لو أنه يسمعُ أمراً جللاً ومن الابتسامة الساخرة التي تستهينُ بالأمر وتراه مزحة. وأعتقد أنه بذلك يضمن لنفسه موقعاً وسطاً يُقَرِّر منه بعد الاطِّلاع على التفاصيل اعتماد أحد الوجهين فإما الجدّية التامة إن كان صاحب الشأن متأثراً أو السّخرية اللاهية إن كان هازلاً. كانت بوصلته مَعْطُوبةً هو الآخر. طلبت ستورمي الإذن لها فقط، وسرعان ما انسحبت أريكا إلى مكتبها بعد أن ضمنت لزميلتها تعاوُناً حماسياً مني. فانطلقتُ مع ستورمي إلى مركز الشّرطة الذي يقعُ في بناية من طابق واحد تجثم على تلّ مُطِلّ على البحر. خاب أملي في الفوز بحديث تفصيلي مع ستورمي عنها إذ أمضت المسافة القصيرة بتفاصيل الحادث ونوع الدرّاجة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها مخفر الشّرطة في صُور، وقد عجبت لهدوء المكان النسبي. الاستعلامات باردة ناعسة يجلس فيها شرطي كَهُل وَقُور بدا كالسّادِن في مَزار وجّهنا إلى مكتب الشكاوى وكان بِناءً ضَيِّقاً على نحو خانق يتكوَّن من مكتبَيْن أحدهما شاغر. استقبلنا مفوّض شرطة في الثلاثينات كان يضع أمامه نُسْخةً من القرآن بدا أنه اعتاد قضاء ساعات فراغه في قراءتها. حيّانا بأدب وحاول أن يكلّم ستورمي بعبارات إنكليزية لم تتجاوز التحايا والمُجامَلات. حين وصلنا إلى موضوع الشكوى بدأ يطرح على ستورمي أسئلته التفصيلية، وكان واضحاً أن الحوار بأسره يمثل بالنسبة إليه تجربةً طريفة:

- متى اشتريت هذه الدرّاجة؟

- قبل ثلاثة أسابيع.

- من أين؟

- سافرت إلى مدينة نزوى لشرائها بعد أن سمعت أن أسعار الدرّاجات هناك مناسبة ونوعيّاتها جيدة.

Twitter: @ketab_n

- هل تعرفين صاحب الدرّاجة الأصلي؟

- لا.

- كيف وقع الحادث؟

وصفت ستورمي الحادث بدقة مُتَناهية وما سمعتْ من الشهود الذين لم تكن تعرف أحداً منهم، فنقلتُ حديثها إليه وسجّله في محضره. حين خرجنا لاحظتُ أن ستورمي كانت ساهِمةً صامتة. سألتها كيف ذهبت إلى نزوى فقالت إنها استأجرت سيارة تاكسي إلى هناك وأعطت السائق مبلغ خمسين ريالاً لبُعد المسافة بين المدينتين، فعجبتُ للأمر لأن سعر الدرّاجة كان مئة ريال، لكنها وضّحت أن زيارتها لنزوى كانت تهدفُ إلى استكشاف عُمان فضلاً عن شراء الدرّاجة. حين جلسنا في السيارة أعلنت استغرابها لهدوء مركز الشّرطة وقارنته بما يجري في مراكز الشرطة في أميركا حيث القضايا على قدم وساق، والشّرطة في عجلة من أمرهم دائماً. قلت لها إن الحياةَ في مدينة صغيرة تسودها روح القبيلة لا تحتاج إلى الشّرطة كثيراً.

ساعدتني تلك الزيارة على تجاوز الفُتُور الذي كان يتلبّسني منذ الصباح. كنت أسعى إلى الحصول على مزيد من الوقت لتصحيح أكداس من كتابات الطلبة وكنت قد وعدتهم بإعادتها مع ملاحظات وتصحيحات وافية بعد أن شكا بعضهم من التأخير. وهي شكاوى بدأت تتزايدُ بعد أن تولّيتُ مهمّة التنسيق وصار وقتي مزدحماً بمتابعات روتينية لا يعقبها ما يعقب الروتين من هُدُوء وتثاؤب، بل كانت تتركني في نهاية النهار في مزاج مُستثار منزعج كأني أمضيت اليوم في شِجار صغير تافه. أصبح دخولي إلى مكتب أستاذ إيذاناً بتكليف جديد أو تذكير بواجب ما، ولأن غالبية الأساتذة اعتادوا أداء عملهم بأقلّ جهد ممكن فقد صارت مهمّتي مصدر شدّ لي ولهم. قال لي الدكتور الطاهر إنه لاحظ خلال سنوات عمله في رئاسة القسم أن الفصل الثاني الربيعي هو موسم المشاكل في حياة القسم. يمتاز الفصل الأول بالهدوء الذي يصاحبُ عودة الأساتذة منتعشين مستعدّين

Twitter: @ketab_n

للعمل من الإجازة، والكثير منهم يكون قد وصل إلى صُور للمرة الأولى ممّا يجعل الفصل الأول موعداً مع استكشاف المدينة وما حولها من مناطق سياحية. كما أن اعتدالَ الجوّ خلال الفصل الأول سببٌ آخر في الهدوء النسبي. الفصل الثاني يشهد ارتفاع درجات الحرارة وصيف عُمان يبدأ منذ أواخر آذار، ومع ارتفاع درجات الحرارة يكون الأساتذة قد استهلكوا المدينةَ الصغيرةَ المتواضعة وبدأ يظهر عليهم التعب من مشاغل الفصل الأول. الكثير منهم يكونون قد وفّروا لأنفسهم عقود عمل جديدة في دُوَل أُخرى، وهو ما يدفعهم إلى التعامل مع المكان على أنه موضع مؤقّت صودف أن وجدوا فيه إلى حين وسيغادرونه قريباً.

كنا قد اقتربنا من نهاية الفصل الأول، لكن بوادرَ التدهور المنتظر في الفصل الثاني بدأت تنبثقُ هنا وهناك مُبَكّرة. زادت الخلافات بين الأساتذة والطلبة من جهة وبين الأساتذة أنفسهم. كان عليّ التدخل في كل حالة لإصلاح الضرر ولا بد من توخّي الحذر الشديد لأن الأمزجةَ مشدودة غاضبة. وقد بقيت كَفّة رالف تُعادل كلَّ من سواه مجتمعين. كانت آخر مشاكله أنّي اكتشفت وأنا أُعِدّ قوائم درجات الطلبة في الاختبار الشفوي الخاص بالمحادثة أنه لم يُقَدِّم درجاته. وقد قصدته ولاحظت في عينيه ارتباك المذنب الذي يعرف أنه يقترفُ الذنوب حتى وهو يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى النأي بنفسه عنها. بدلاً من الاعتذار ادّعى أني لم أحدّد موعداً دقيقاً لتقديم الدرجات، وكان عليّ الجلوس إلى جهازه الحاسب وعرض الرسالة التي عمّمتها على الأساتذة وتحتوي الموعد باليوم. بالرغم من ذلك اكتفى بأن وعدني أن ينتهي من الأمر قبل نهاية الأسبوع دون أن يكلّف نفسه الاعتذار. وهكذا وجدت أن عليّ تأخيرَ تقديم الدرجات أسبوعاً كاملاً في انتظار رالف، وما زاد من انزعاجي أنه عاد بعدَ أسبوع بقائمة من الدرجات السخية أَحْرَزَ فيها أضعف الطلبة خمس عشرة علامة من أصل عشرين، أما الغالبية فقد أحرزوا الدرجة كاملة أو كادوا. وقد حاولتُ أن أتغاضى عن هذا الخَلَل لكني كنت أعلم أن الملاحظةَ قد تأتيني من الطاهر

Twitter: @ketab_n

أو المُشْرِفة على البرنامج نفسها، فسألته كيف يمكن لطالب في مجموعة ضعيفة أن يحرز درجةً كاملةً في المحادثة وهو عاجز عن تركيب جملة واحدة؟ وقد أزعجه ذلك بالتأكيد واندفع يردّ التهمة عن نفسه وعن طلبته حتى قررت أن أتركه وشأنه.

صادفت ساندرا بعد الظهر فبدا عليها انزعاج وغضب، وهي نادراً ما تكون كذلك. سألتها باهتمام حقيقي:

- ما بك؟ هل من مشكلة؟

أجابتني وهي تحرك أوراقاً على مكتبها بأنها بخير، فلم أشأ الإلحاح لكنها بادرتني بالسؤال:

- هل ذهبتْ أريكا معك إلى مركز الشّرطة أمس؟

كان واحداً من أسئلتها الاستفزازية غير المتوقّعة. وقد كثّفت تفاهةُ ما يعنيه السؤال كلَّ ما بنفسي من مشاغل لم أغفل عنها إلا على نحو مُؤقّت وضاعفت إحساسي بالتعب والهم. تطلعت إليها صامتاً لبعض الوقت وقد بدا واضحاً سَأَمي من مُبالغاتها، ثم قلت وقد نجحت في المحافظة على الهدوء:

- لا، لم تذهب.

- ظننت أنها ستفعل. كانت تبدو في منتهى الانشراح والحماسة وهي تتراقص أمامك وتتغنج صباحاً.

- أنت تعلمين سببَ الزيارة.

- نعم، أعلم السبب لأني أعرفها. هي تعتقد أن ظهورها في مكتبك سيضمنُ الاستجابة لطلب ستورمي. ما أريد توضيحه لك أن هذه الديفا لن تملّ من التلاعب بمشاعرك تجاهها. إنها مريضة، تهوى هذه اللعبة السقيمة وتجدها مصدر متعة كبيرة في هذه المدينة الصغيرة المُمِلّة.

لم أجد ما أقول. سألت نفسي بغضب إن كان هذا التنكيد ملازماً

Twitter: @ketab_n

لعلاقة الرجل بالمرأة. إزاء صمتي تواصل حديثها المرير:

- هل تعلم أنها بعد أن شَكَتْ لكل من تعرف من معاكساتك لها، وتحرّش سلمان المعمري بها، وسواق التاكسي، وأصحاب الحوانيت في صُور، صارت الآن تشكو من تحرُّشات أستاذ آخر في القسم.

تصاعد غضبي. لقد تعمدتْ عدم ذكر الاسم لأسأل، لكني لزمتُ الصمت واكتفيتُ بالتحديق إلى عينيها الناقمتين:

- إنه إبراهيم الساسي هذه المرة. تدّعي الآن أنه يلحّ عليها في إرسال المسجات على التلفون والتعرض لها أينما ذهبت.

انفجر غضبي:

- ما علاقتي بكل هذا؟

- أنت لا تزال مولعاً بها.

- كيف عرفت ذلك؟

- عرفته وأنا أرى الإشراق الذي أضاء وجهك وأنت تتحدّث إليها بعد طول عُبُوس، وسعادتك الكبيرة وأنت تراها تقصدك في مكتبك.

كان لا بدّ من وضع حدّ لهذا الهَذَيان. جمعتُ أوراقي وقمت استعداداً للخروج. قررت أن ساندرا تعاني عقدةً لا حل لها، وأن شكوكها القهرية هذه لن تتوقّف مهما فعلت.

سألتني وقد تغيرت نبرةُ صوتها وأصبحت أكثر نعومة:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لديَّ حصة الآن.

- ما زال أمامك وقت.

خطر لي أنها لا تريد أن تفرّط في دقيقة واحدة من تعذيبي، لكني لم أقل شيئاً وخرجت. سألت نفسي في الممرّ وقد عجبت لشدّة سُخْطي بالقياس على تفاهة السبب إن كنت في استجابتي لها قد ورّطت نفسي في

Twitter: @ketab_n

فخّ جديد يدلّ على تفاهتي أنا الآخر. صادفتُ جورج حدّاد متجهاً نحوي، حيّاني وسأل إن كانت ساندرا موجودة في المكتب، قلت نعم فاتجه إليها، وحمدت الله على مغادرتي المكان قبل وصوله.

نزلتُ السُّلَّم المؤدّي إلى الطابق الأرضي وأنا أدرك أن أمامي أكثر من عشر دقائق ريثما يحينُ وقت الحِصَة. لاحظت أن بعض الأساتذة بدأوا يتجهون إلى فصولهم بالفعل فقررتُ أن أصل مبكراً إلى الفصل. حين خرجت إلى ممرّ الساحة المكشوفة بين مبنى مكاتب الأساتذة ومبنى الفصول الدراسية، صادفني الدكتور الطاهر قادماً من المكاتب الإدارية وحيَّاني. قال لي وهو يرى أني مُتَّجه إلى حصة مسائية متأخِّرة:

- أرجو أن تمر عليّ بعد انتهاء حصّتك مباشرة. لديّ أمر مهم لا بد أن نتحدَّث فيه.

وعدته بذلك وقد داخلني قلقٌ مفاجئ. أشدّ ما أخشاه أن يواجهني بفضيحة لقاءاتي مع ساندرا. كنت أعلم أن المكانَ ضَيِّق والوشاية والنميمة هما التسلية الأولى للكثير من الأساتذة، والمشكلة أن ساندرا لم تنظر يوماً إلى احتمال الفضيحة نظرةً جادة. الأمر بالنسبة إليها يمثّل حقاً طبيعياً تمارسه دون أن تصيب أحداً بضرر كما ظلت تردّد، حتى إنها اقترحت عليّ ذات مَرّة أن نتمشى مساءً على الكورنيش معاً بدلاً من أن أمارس هذه العادة الجميلة وحيداً دون رفيق، وقد أمضيتُ وقتاً أشرح لها المخاطرَ التي ينطوي عليها عمل كهذا بالنسبة إلي، لكنه كلام مُكرَّر لا يزيده التكرار إلا غموضاً بالنسبة إليها.

Twitter: @ketab_n

36

قصدتُ مكتب الدكتور الطاهر في نهاية النهار بعد الحصة وكان تعبُ اليوم قد أثقل خُطاي وأسلمني إلى حالة من الانصياع لما يأتي دون فهم أو تدقيق. لم أجده في مكتبه فوقفت أقرأ ما عُلّق على لوحة الإعلانات من بلاغات ومواعيد امتحانات وتحذيرات من التأخير والغِشّ ومخالفة ألوان الزّيّ بالنسبة إلى الطلبة. كانت الحركةُ في الممرّات قد تلاشت تقريباً وكادت أروقةُ القسم تخلو من الأساتذة والطلبة. لمحت إبراهيم الساسي يقترب من المكتب هو الآخر بمشيته العسكرية المندفعة حتى ليوحي لمن يرصده أنه سيصطدم بحائطٍ أو شخص أمامه دون أن يدري. يخطر لي كلّما رأيت زَهْوَه بنفسه أنه قد مارس في منتجعات تونس مهنة مرافقة العجائز الأوروبيات اللواتي يقصدن بلده بحثاً عن السياحة والمغامرة. وخطر لي ما جاء في حواري الصباحي مع ساندرا عن شكوى أريكا من تحرُّشه بها فلم أكد أصدّقه لما أعرف من حرصه على عدم تجاوز القوانين وصلاته الودّية مع العُمَانيين. منذ حديثي الأول معه عن الحالة في العراق حاولت أن أتجنّبه. ويبدو أنه أدرك رغبتي في النأي بنفسي عن مُهاتَرات الحماسة المتسرِّعة والشعارات الخاوية فصارت التحية بيننا حين نلتقي في الممرّات بين حين وآخر أقرب إلى إعلان هُدْنة وبُرُود. حين جمعتنا اجتماعات التنسيق مع الدكتور الطاهر (والساسي مسؤول عن تنسيق المرحلة الأولى) صارت حواراتي القليلة معه تقتصرُ على مشاغل العمل وشؤون الأساتذة. وقد نمّت أحاديثه مع الطاهر أن العلاقةَ بينهما وثيقة تتجاوزُ أسوارَ الكلّية.

خَمَد اندفاع إبراهيم حين اقترب من باب المكتب ووجده مغلقاً.

Twitter: @ketab_n

حيّاني وسألني عن الدكتور الطاهر فقلت إني أنتظره منذ حين. تمشَّينا إلى حافة الممرّ المفتوح على الهواء الطلق من الجانبين فأتاحت لنا وقفُتنا رَصْدَ حركة الطلبة في الطابق الأرضي من علُ. انشغلت بما يمكنُ أن يشكل حديثاً محايداً عندما قال وهو يتطلعُ إلى الأسفل:

- وقتي ضائع في مشاغل أستاذين لا غير لا يكاد يمرّ يوم إلا وتكون قصتهما قد طوت فصلاً جديداً.

- من؟ هل تقصد . . .؟

- لانك وإبراهيم، ومن غيرهما؟

كنت قد استقبلتُ لانك وإبراهيم في بداية العام وعرفت أنهما اعتنقا الإسلام وتزوَّجا امرأتين مسلمتين الأوَّل باكستانيةً والثاني يمنيةً. صادفني لانك ذات مرة عند موعد صلاة الظهر وكان يقصدُ جامعَ الكلّية فسألني إن كنت ذاهباً إلى المُصَلّى معه لأنه متجه إلى هناك فقلت إني منشغل الآن، فردّ بأدب يُبْطن لَوْماً: أتمنّى أن ألتقيك هناك. في لقاء ثانٍ في غرفة التصوير وكُنّا وحدنا بادر إلى حديث طويل عن الأزمات الاقتصادية في الغرب ونظريته أن سببها واحد لا غير هو قبول مبدأ الرِّبا في التعاملات المصرفية. سألته حينئذٍ إن كان اعتماد ذلك المبدأ قد بدأ في العقود الأخيرة أم ظلَّ مُتَّبَعاً طوال قرون فصمت وقد أدركَ اعتراضي على نظريته، وبدلاً من الردّ سألني إن كان شيوخُ الشّيعة يقبلون الرِّبا فكأنه يعزو اختلافي معه إلى سبب طائفي. وقد جَزِعتُ وأنا أرى شاباً قادماً من نيويورك ينكفئُ إلى بدائية النَّعرات الطائفية. أما إبراهيم هوفمنستال فقد سادت حواراتي القليلة معه مَوَدّة ظاهرة وكان يتحدّثُ عن حياته في أوستراليا أكثر من أي شيء آخر. قال لي ذات مرة إنه قَرَّر أن يترك أوستراليا ويتَّجه إلى التعليم في الخارج لأنه كان مُلزماً بتعليم الطلبة المراهقين معلومات جنسية تتضمّنُ الطريقةَ السليمة لممارسة الجنس دون أن ينجم عنه حَمْل غير مُتَعَمَّد. توقّع الكثيرون أن تكون العلاقةُ بين هذين الغربيين اللذين اهتديا إلى الإسلام علاقة المَوَدّة

Twitter: @ketab_n

الإسلامية الخالصة، لكنهما سرعان ما اختلفا بعد تبادل بعض الزيارات العائلية وصار كل منهما يكيدُ لصاحبه. ولم يكن سهلاً فهم ما كان يحدث بينهما وكيف وقع الخلاف. سألت الساسي باهتمام:

- وما الجديد؟

- لا جديد، الخلافات المُستمرّة ذاتها. اليوم قدّم لي إبراهيم تقريراً يتّهمُ فيه لانك بالتحرُّش بالطالبات.

- هل تمزح؟

التفت إبراهيم نحوي وكان جاداً:

- أبداً. جاء ذلك رداً على تقرير لانك الذي ذكر فيه أن إبراهيم يساعد طلبته على كتابة تقاريرهم فيتدخَّل في صياغتها لتحسين النتائج ولإثبات أنه أستاذ ناجح.

- غريب. ما السرّ في هذه العداوة؟

قبل أن أسمع إجابة إبراهيم عن سؤالي وصل الدكتور الطاهر حاملاً مجموعةً من الأوراق وقد أحاط به طالبان يتحدَّثان بتأثر شديد عن أمرٍ ما. قال لي إبراهيم ونحن نتَّجه إلى المكتب الذي فُتح بابه:

- سأختصرُ عليك الأمر. الخلاف يا أستاذ ببساطةٍ هو نفسه خلاف الوهّابي القادم من السعودية مع الزَّيْدي القادم من اليمن.

- هل تعني الطائفية؟

- نعم، وماذا غيرها؟ أليست هي الموضة الآن؟

وقفنا قرب الباب بانتظار خروج الطالبين اللذين دخلا مع الدكتور الطاهر وواصلا حديثهما المشحون بالتأثر. قلت لإبراهيم:

- لكني كنت أعتقد أن الأجانبَ من غير المسلمين يفهمون الإسلام على أنه قيمة تعلو على الخلافات الطائفية، أقصد أنهم يأخذون منه قِيَمه الإنسانية الشاملة وجانبه الروحي.

Twitter: @ketab_n

تطلع إبراهيم إلى وجهي بتركيز خاص وقال:

- لا أستطيع أن أتخيل شخصاً يتعمّق في الدين ويتحمَّس له دون أن يصاب بِعِلّة الطائفية.

لم أستغرب ذلك الرأي من الساسي فالحماسة للطاغية في العراق ليست حِكْراً على الإسلاميين. لكن الساسي كان يمثل مفارقةً في رفضه ذاك للطائفية، فقد سمعتُ من الدكتور حاكم ذات يوم أثناء حديث عن الشعبية التي يتمتّع بها الساسي بين العُمانيين أنه يستخدم إباضيته في التقارب معهم. قال الدكتور حاكم ذلك بعد حديث مُطَوَّل في مقهى "الخروف التركي" عن الحرب الطائفية في بغداد أعلن فيه حماسته للدور الحاسم الذي تقوم به الميليشيات الشّيعية.

عندما صرت مع إبراهيم الساسي في مكتب الدكتور الطاهر دعانا إلى الجلوس بنبرةٍ تحمل أصداء حديثه المنزعج مع الطالبين. حين عاد أحدهما وفتح الباب ليضيف شيئاً طلب منه بما يشبه الزَّجْر إغلاق الباب والانتظار في الخارج. كان يبدو متعباً مشتّتاً وبدأ بالشكوى من الطالبين اللذين أمسك بهما روجر هوبكنز في حالة غِشّ، ثم أردف:

- حسناً إنكما معاً. لديّ تبليغ مهم للمنسّقين جميعاً يتعلّق بتدقيق شهادات الأساتذة في القسم.

سألت دون أن أفهم:

- كيف؟

- لا بدّ من مراجعة السِّيَر العلمية للأساتذة جميعاً وتدقيق أسماء الجامعات التي تخرّجوا منها، وهل هي جامعات مُعْتَمَدة؟

قال إبراهيم بانزعاج يستمدّ القدرة على التعبير عنه من علاقته الوثيقة بالطاهر:

- ألم يأتِ هذا الإجراء متأخِّراً؟ نحن في نهاية الفصل الأول.

Twitter: @ketab_n

ارتسمت على وجه الدكتور الطاهر جدية نادراً ما يبديها ليؤكد بها أن الأمر خطير ولا مكان للمزاح. قال:

- هذه المشكلة بدأت في الرستاق. يبدو أن خلافاً نشأ بين أستاذين أميركيين تطور إلى صراع وعداوة. وقد كتب أحدهما رسالة إلى مديرة البرنامج يدّعي بها أن زميله لا يحمل شهادةً حقيقيةً وأنه حصل على شهادة الدكتوراه التي يحملها من جامعة بدفورد. حين تم التدقيق في اسم الجامعة اتضح أنها موجودة على شبكة الإنترنت وتمنح الشهادات من ماجستير ودكتوراه مقابل بضع مئات من الدولارات. كل ما يحتاج المرء إليه أن يدّعي خبرة في مجال اختصاصه فتقوم الجامعةُ بمعادلتها وتحويلها إلى شهادة عليا برّاقة. ما زالت الوزارةُ تبحث موضوع الإجراء المناسب في مثل هذه الحالة.

سأل إبراهيم:

- وهل يحتاج الأمر إلى بحث؟ إنها شهادة زائفة؟

قال الدكتور الطاهر بهدوئه المعهود الذي لا تهزّه أية غرابة:

- المسألة أن هذا الأستاذ لم يدّع كذباً. لقد وضع اسم الجامعة في سيرته العلمية دون تغيير وكان على الوزارة أن تحدّد في إعلانها الوظيفة أنها لا تقبلُ الشهادةَ التي تُمنح عن بُعد.

سألتُ إن كان الأستاذ يعمل بعقد مباشر مع الوزارة أم أنه تعاقد مع وكالة التشغيل فكتوريا. قال:

- عقده مع فكتوريا، ولكن الأمر يخصّ الوزارة في نهاية المطاف. هنالك جدال حول الموضوع وحملة لتدقيق الشهادات في كل الكلّيات. وقد علمت صباح اليوم من رئيس قسم الإنكليزية في صُحار أن لديهم حالتين من شهادات غير صحيحة حتى الآن.

قال إبراهيم وهو ينفض يده من جدوى الإجراء:

- لن يؤدّي هذا إلى إصلاح الحال. معظم الأساتذة الذين يعملون

Twitter: @ketab_n

معنا لا يفقهون شيئاً في التعليم وأصوله. شهاداتهم تقع في تخصُّصات بعيدة عن التعليم والإنكليزية.

علّق الطاهر:

- لقد كرَّرْنا مراراً أن تعليمَ لُغة ما مِهْنَةٌ متخصِّصة لا يكفي لأدائها أن يكون الشخص متحدّثاً باللغة بوصفها لُغته الأمّ. هل يستطيع أي عربي يحمل اختصاصاً جامعياً بعيداً عن العربية تعليمها؟ لا فائدةَ من الكلام.

قلت أُدلي بدَلْوي في الحديث معبِّراً عن فكرة طالما خطرت لي:

- هنالك مِيزة واحدة للمتحدِّث الأصلي باللغة هي معرفته بلهجتها وقدرته على التنكيت بها والمُزاح. أمّا إعداد أمثال الطلبة الذين لدينا في الكلّية بمستواهم الضعيف وماضيهم الثانوي القاصر فيحتاج إلى أستاذ مُتخصِّص قادر على التواصل معهم وتعليمهم لُغة تنفعهم في دراسة العلوم المختلفة. نحن لا نعلّمهم الإنكليزية ليعيشوا في أوروبا ويتجوَّلوا في باراتها بل لاستخدامها لأغراضٍ أكاديمية.

قال الطاهر يختمُ الحوار:

- على أيَّة حال، أمامنا مهمّة حساسة ولا بد أن نتذكر أن تدقيقاً مُوازِياً يجري في الوزارة فلا أريد أن تُكْتَشَفَ حالة هناك قبل أن نكتشفها نحن هنا. لا بد من زيارة مواقع الجامعات على الإنترنت لأنها في كثير من الحالات تضع قوائم بأسماء المُتخرِّجين فيها على الشبكة، ويمكن أيضاً أن نطلب وثائقَ أصلية مصدّقة عند وجود ما يدعو إلى الشَّكّ.

عندما نهضنا لنغادر المكتب، تذكّرت ما قاله الطاهر لي من أنه يريد محادثتي في موضوع مُهِمّ فسألته إن كان لديه ما يريد طرحه عليّ عدا ذلك فقال إنه قد تحدَّث في الأمر فعلاً.

Twitter: @ketab_n

37

أسرعتُ وقد استهلكني اليومُ تماماً إلى المكتب استعداداً للتوجه إلى البيت. حمدت اللّه أن ساندرا لم تكن موجودة فيه، لكنَّها تركت على طاولتي قُصاصةً صفراء قصيرةً تفيد أن حديثنا الصباحي لم ينتهِ وأن لديها المزيد. داخلني قَرَف يخلو من التعاطُف لإصرارها على اللوم والشكّ والعِتاب كأنها تتسلَّى بذلك. حين ارتميتُ في السيارة الساخنة كنت أشعر بصُداعٍ خفيف وتوتّر عضلي أكثر منه عصبياً. وصلت إلى الشُقّة في حوالى الساعةَ الرابعة مساءً فوجدتها تختنق بالسكون والوحشة. دخلت المطبخَ فوجدت أني لم أُخْرِج من مَجْمَدة الثلاجة شيئاً للغداء وهو ما يعني ضرورة اللجوء إلى المايكروويف ليُذيب قطعةَ الثلج المكونة من خلطة من الخضروات واللحم المفروم والإصغاء إلى زعيقه المحتج على غفلتي وتقاعُسي. لم أفتح التلفزيون أو الراديو. كنت أحاول تصفية رأسي من اضطرابات النهار ودوار مشاغله الصغيرة وأستعدّ لقيلولة تعيد لي بعض قواي وتنقذ المساء من السقوط في مستنقع التعب والذُّهُول.

جلستُ مُتهالِكاً على كُرسي الطعام وراء ستارة الشُّرفة المُسْدَلة، أمامي الوجبة التي لم تتجاوز صحن مَرَق الخضروات وإلى جواره بضع أوراق من الخَسّ بديلاً من السَّلَطة التي لم أجد الوقت أو المزاج لإعدادها. قبل أن أتناولَ لقمتي الأولى سمعت نقراً خفيفاً على الباب. من يمكن أن يكون الطارق؟ لم أكن مستعداً لاستقبال أحد أياً كان. خطرت لي ساندرا فهتفتُ في داخلي بغضب "وحتى ساندرا نفسها!" ساد صمت قصير لم أتحرك خلاله فعاودت الطَّرَقات إعلان نفسها بهدوء. لم أتحرَّك. كنت أفكر بغضب

Twitter: @ketab_n

أن للمرء الحق أن ينزوي في جُحْره ويُترك لشأنه ليستريح. ما الذي تريده ساندرا؟ أن تواصل التعبير عن شكوكها وغَيْرتها المرضية الغريبة؟ أن تطلب مني الحُبّ في هذه اللحظة؟ حتى هذا لن أكونَ مستعداً له. بدأت أمضغ طعامي ببطء غير آبهٍ لشيء وأنا أقلّب استنكاري وأتأمل تفاصيله. تواصل الطَّرْق وكان أعلى هذه المرة. لن أفتح. صار الطَّرْق غضباً زاعقاً. لم أتحرك. لاحظت من مكاني قرب الشرفة بعد فترة صمت قصيرة ورقة صفراء تُدسّ تحت الباب. لم أتحرك وتوقّعت أن يغادر من ترك رسالته بهذه الطريقة، لكن الطَّرْقَ تواصل بعد حين. قمتُ من مكاني وأنا أَلُوك لُقْمةً باهتةً دون طعم وتقدّمت من الباب بهدوء فالتقطت الورقة لأقرأها: "أنا أعلم أنك في الداخل. افتح الباب!". كانت الحروف الإنكليزية تحمل بصمة ساندرا وخطّها المميَّز. فكرت قليلاً وقررت بعناد الأطفال ألّا أفتحَ الباب.

كنت أعلم أنَّ ساندرا قوية وعنيدة بالرغم من حَيْرتها وضعفها في بلاد غريبة عنها. لكنني لم أتوقّع أن يصل بها العناد حدّ الإصرار على طَرْق الباب كل ذلك الوقت. عُدْتُ إلى المائدة بصمت وسُخْط، لم أكُنْ حينئذٍ قد ابتسمت بعد، واستأنفت الأكل على صوت طَرْقها العصبي المتصاعد. توقف الطَّرْق قليلاً وظهرت ورقة صفراء أخرى لم أقترب منها لأقرأها إلا بعد أن انتهيتُ من طعامي. كانت أشدّ من سابقتها "إن لم تفتح الباب فستحدث فضيحة، وهو ما تخشاه!". لئيمة، كتبتْ كلمةَ فضيحةٍ بحروف كبيرة! لم يعد فتح الباب ممكناً. حين أدركتُ ذلك ابتعدت خطواتها فحمدتُ الله. اتجهتُ إلى غرفة النوم وتمدَّدْتُ على السرير الضَّيِّق أتأمَّل جنون ساندرا. لمَ لا تنتظر حتى الغد؟ ماذا تريد؟ لو كان لديها أمر عاجل لكتبته على أوراقها الصُّفْر المُتناثرة من تحت الباب. لا شيء سوى البحث عن تسلية حتى لو كانت خِلافاً سَمِجاً.

قطع أفكاري سُقُوط حَجَر على شُرفة غُرفة النوم، فلم أفهم. اقتربتُ

Twitter: @ketab_n

من باب الشّرفة الزجاجي المغلق فرأيت صخرةً قُذف بها من أعلى، سُرْعان ما أعقبتها صَخْرة أكبر تكسّرت على أرض الشُّرْفة. لم أكد أصدق أنها صعدت إلى السطح وواصلت محاولاتها من هناك. ماذا لو خرج جورج من شقته ورآها تفعل ما تفعل؟ جنون كامل. بعد صمت قصير سقط حَجَر آخر بقوة كأنما هي ترجمني لسبب اجهله. كدت أطلق ضحكةً عاليةً وقد بلغت دهشتي أقصى حدودها. ثم جاء صوت جسم زجاجي يتحطّم على الشرفة فبدا أن أمراً جَلَلاً سيحدث. لا أكاد أصدق! هذا جنون! لكني لا أَقُلُّ جنوناً عنها. كانت آخر ورقة صفراء دسّتها ساندرا تحت الباب قصيرة وحادة. كتبت عليها بحروف كبيرة "أنت تكرهني. أعلم ذلك!" بعدها ابتعدت وغادرت المكان. عدتُ إلى الفراش أتمدّد عليه وقد اختلط ضحكي بتساؤلات أدهشتني. ما نَوْعُ علاقتي بساندرا؟ أنا أفهم ما تعانيه من شكّ في الرجال جميعاً بسبب تاريخها المُتقلّب معهم، ولكن هل ما أشعر به تجاهها يُشبه في شيء ما عشتُ من قبل من علاقات الحُبّ؟ لم أتردّد في الإجابة: ليس حُبّاً. ما هو إذن؟ هنا بدأت أتردّد. الإجابة عن هذا السؤال معقّدة. ربما تكون الإجابةُ حاجتي إلى المرأة. المرأة دون ملامح ودون وجود حقيقي بوصفها مغامرةً أقاوم بها المنفى لا غير. تأملتُ وأنا أتطلّع إلى السقف الذي ذابت عليه حركة ريشات المَرْوَحة السريعة في معنى ما يحدث: إنه الدليل على أن ساندرا لم تخترق عُزْلتي ولم تفتّت صخرة همومي. كدت ألوم نفسي على صدّها بهذه الطريقة لكن التعب غلبني قبل أن أتأكد من ذلك وسرعان ما غَفَوْتُ.

تضاعفت دهشتي في صباح اليوم التالي. كنت أتوقّع مواجهةً صاخبة مع ساندرا بعد نوبة العناد الصبياني التي تلبّستني أمس، وقد وطّنت نفسي على قبول أسوأ التوقّعات وأعددت اعتذاراً مرتبكاً. لكني وجدت من جهة أخرى أني مستعدّ لقبول القطيعة إن أصرّت عليها وقد عجبتُ لسرعة قبولي فكرة القطيعة مع ساندرا وأدركت لأول مرة أن مشاعري محايدة تجاهها تماماً. كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي أعيش فيها علاقة من هذا

Twitter: @ketab_n

النوع. لم يسبق لي أن وجدت الجنس معزولاً عن الحبّ بهذه الطريقة بالرغم من شدّة حاجتي الجنسية إليها. والأدهى من ذلك أن علاقتي بساندرا كشفت لي لأوَّل مَرّة أن فكرة الحب بسيطة ساذجة تنتمي إلى اندفاع الشباب وغفلته. يبدو أن العلاقة بالمرأة قد دخلتْ بالنسبة إلي ميدانَ العلاقات العامة مع الآخرين. لم تعد تختلفُ عن العلاقة بزملاء العمل ورئيس القسم وحتى الطلبة، علاقة تجمع الناس لسدّ حاجة محدّدة معروفة. أين سرّ الحب وعالمه المُلْغِز الفاتن الذي تتوقُ إليه الروح وتتوقع أن تطمئنّ في حِماه وتَسْعَد؟

حين وصلت ساندرا كانت متألقةً تتحرك بحيوية وعلى وجهها آثار ابتسامة التقطتها مِنْ تَبادُل تحيّة في المَمَرّ كما يبدو. كان أول ما فعلتْ وهي تجدني في زاويتي من المكتب مُنكبّاً على شاشة الكمبيوتر بوجه جادّ متأهِّب أن أطلقت ضحكةً منشرحةً وهتفت وهي تقف أمامي بقميصها الوردي الذي تركته ينسرحُ على تنوّرة زَرْقاء غامقة تُخفي ركبتيها:

- ها أنت ذا هنا إذن!

نظرت إليها ولم أتمكّن من أن أمنع نفسي من الابتسام:

- كما ترين!

- هل أمضيت ليلتك في المكتب؟

سألتُ وأنا أتوقع أن المواجهة ستبدأ:

- ماذا تقصدين؟

قالت وقد احتفظ وجهها ببشاشته:

- سليم، أنا مجنونة. أعلم ذلك. لم أعد أثقُ بأحد. لقد غدر بي كثير من الرجال.

سألتُ مُشاكساً:

- كم؟

Twitter: @ketab_n

- كُفَّ عن هذا. كثير، سأعدّهم يوماً وأقدّم لك كشفاً بالحساب. لكنهم جميعاً ينتهون إلى طعنة غادرة يسبقها تكذيب متواصل لكل ما أعبّر عنه من شكوك.

- لن ينفع دفاعي عن نفسي إذن؟

تطلعتْ إلى وجهي بشكّ مازح وقالت:

- الأدلّة ضدك غير كافية حتى الآن.

ثم ارتسم تأثر جادّ على وجهها وأردفت كالطفل:

- لكنّي أخشى الغدر!

- ما الحل إذن؟ هل أمتنع عن أي اتصال مع امرأة؟

- لقد فكرت في ذلك كثيراً أمس وتوصّلت إلى حلّ قد تجده غريباً. لا أرى حَلّاً إلا في خروجي من هذا المكتب إلى مكتب آخر كي لا أرى أو أسمع تفاصيل تواصلك اليومي مع النساء.

- يبدو هذا أقرب إلى ما يفعل ماثيو وجين، ولكنهما متزوّجان يُمضيان أيامهما الطويلة معاً في البيت ويفترقان في مكتبين في الكلّية بحثاً عن التغيير.

- قصة جين مختلفة. بالنسبة إلي أعرف نفسي؛ بقائي هنا سيضيّع حُبَّنا. وأنا أُحِبُّك كما تعلم.

كانت متأثرةً وهي تطلق دون تردُّد كلمات الحب هذه. عجبتُ لها كيف تبقى متمسّكةً بالحب ومعانيه بعد كل تجاربها المريرة الفاشلة. ألم يدفعها الإحباط المُتكرِّر إلى شطب هذه الكلمة القديمة الصدئة من قاموسها؟ تواصَلَ كلامها بتأثُّر جادّ لكني اندفعتُ أفكر في هذه الأُحجية، وبرق في ذهني استبصار غريب لم يخطر لي من قبل: لا بد أن عَطْب قدرتي على الحب نتيجة ترتَّبت على مُجمل حياتي، وهي أعقد من أن تكون ناجمة عن فشل زواجي وحده، أو حتى فشل حالات العِشْق التي عِشْتها

Twitter: @ketab_n

من قبل حيث بقيت أجد نفسي بعد كُلّ واحدة منها وحيداً لسببٍ أو لآخر. كانت ساندرا تتحدثُ كالمُراهقة عن الحبّ ولا تتردّد في استخدام الضمير "نحن" كثيراً في حديثها عنه، لم يَخْبُ أملها في الحب بالرغم من سِجِلّ خيباتها فيه الذي يمتدّ أطول من سِجِلّي عشرات المرات. لابد أن ما قتل الحب في نفسي أمرٌ أكبر من نساء لم يقدّرْنَ محبتي لَهُنّ. قد تكون الخنادق، والغربة الطويلة، وتغيير الأوطان المُستمرّ، ذلك التغيير الذي يمنعني من مدّ جذور في تُربة مستقرة ثابتة. رنّت في رأسي صيحة برترولد برخت المَفْجُوعة "مَضَيْنا نغيّر أوطاننا كما نغيِّر أحذيتنا!". سمعت ساندرا تقول:

- أنت لا تصغي إلى ما أقول.

- لا، أنا معك.

- سأبدأ اليوم البحثَ عن مكتب آخر.

حيرّني عزمها على هذه الانتقالة المفاجئة. هل هو اختبار لمدى تمسكي بها؟

قلتُ في حِياد كامل:

- هل أنت واثقة برغبتك هذه؟

قالت بحسم:

- نعم. أنا أعرف نفسي ولا أريدُ أن أخسرك.

حاولت بجهد إخفاء اتفاقي معها. لقد راقتني الفكرة لأن وجود ساندرا معي ورصدها المُسْتَمِرّ لكلّ ما أفعل وأقول، ذلك الرصد القلق الذي يغذّيه اقتناع مُتهكِّم بفساد الناس دعمته خيبات متتالية، كان يستفزّني ويشيع في المكان توتّراً دائماً. لكن خروجَ ساندرا من المكتب يؤكّد بشكل قاطع أن علاقتنا لن تصمد لشروط العيش الدائم المشترك، وأنها لا تعدو لقاءات عابرة نطمئنّ فيها إلى وجود من يخاطب حاجتنا إلى الرفقة السعيدة. تعالت

Twitter: @ketab_n

ضحكةُ ساندرا وهي تعدّ شايها العُشْبي في الزاوية ثم التفتت نحوي وقالت:

- أطرف ما في الأمر أني لاحظتُ وأنا أرجُمُك بالحجارة من على السطح رجلاً هندياً كَهْلاً وقوراً يقف جامداً أسفل البناية يرفع نحوي نظرةً مندهشةً حائرة. كدتُ أهتفُ به أن يلتحق بي في جهودي لإخراج القنفذ من مكمنه.

لم أستطع منعَ نفسي من الابتسام. اقتربت مني تحملُ كوبها وقالت بنبرة جادة:

- لكنّ لخروجي من المكتب شرطاً واحداً.

قلتُ بعد صمت مستغرباً:

- أنت تخرجين بإرادتك، أما الشروط فتوضع عندما أكون أنا من يطلب ذلك.

قالت دون أن تنثني عن عزمها في تحديد الشرط:

- أفهمُ ما تقول، ولابد أن تعلم أني أخرج ضدّ إرادتي. فهل تتفضّل بسماع شرطي؟

قلت مبتسماً:

- تفضّلي، كلّي آذان صاغية.

- لا أريد أن تحلّ مَحلّي أنثى أيّاً كانت.

قلت وكنت أقصد ما أقول:

- ساندرا، أنت تتحدّثين معي كما لو كنت دون جوان لا تقاومه النساء. أنا كَهْل مُتْعَب، أَشْيَب، تساقط جلّ شعره وذبلت ملامحه، وتقوَّس ظهره. ما بك؟ هل أنت جادّة فيما تقولين؟

وقفت أمامي وفي يدها كوبُ الشاي تلفّ عليه أصابعها، ابتسمْت بعناد وكانت ملامحها تدلّ على أنها بدأت تتحصّن في قلعة تهكّمها وأنها ستطلق سهماً حادّاً:

Twitter: @ketab_n

- لقد اخترتك لهذا، كنت أظنّ أن كَهْلاً مثلك لن يمثّل خطراً عليّ لأنه لن يجتذبَ النساء إليه. لكني ارتكبتُ خطأً في ظنّي هذا، مخاوفي مستمرة وجنوني لم يتوقّف.

- المشكلة فيك إذن؟

- نعم.

بالرغم من أن قولها بَعْثَر كل ما تبقّى من ريش نرجسيّتي فقد شعرت بتعاطُف وتشارُك معها في مِحْنة لم أحدّدها يفيضان في نفسي نحوها وهي تواجهُ مصاعبها بهذه الشجاعة أمامي. قلت مُخْلِصاً:

- أحبّ فيكِ هذه الشجاعةَ والصراحة.

نظرت نحوي بتأثُّر وقالت:

- ساعدني سليم على أن يدومَ حُبُّنا.

سقطت كلمة "حُبُّنا" على طَبْلِ حِياديَ الأَجْوَفِ كبيرة خاوية، لكنها كبيرة على أية حال. قلت بهدوء:

- لا تقلقي.

Twitter: @ketab_n

38

بدأت الدكتورة بَتُول تبدي انشغالاً بامتحان آيلتس لاختبار الكفاءة في اللغة الإنكليزية. في المصادفات القليلة التي جمعتني بها في ممرّات الكلية كنا نقف لبعض الوقت نتحدّث عن طبيعة هذا الامتحان المُحَيِّر وشروطه وأفضل السُّبُل للاستعداد له. لم تكن بَتُول تتوقّع أن يُعفيها ضابطُ الهجرة الكندي من خوض مُعْتَرَك هذا الامتحان. حين أستعرضُ من عرفتُ من الناس في صُور أجد أن امتحان الآيلتس هذا كان أشبه بشارةٍ يحملها الجميع. أساتذة الإنكليزية في القسم كانوا يعانون الأمرّين في التعرُّف إلى طبيعته وشروطه وقد عجبت لأنهم وهم الناطقون بالإنكليزية كانوا يختلفون أحياناً في الحلّ الصحيح لبعض أسئلته المتقدّمة. الطلبة يواجهونه بشجاعة أقرب إلى التَّهَوُّر لأنها لا تكفي عدّة لمواجهته وهم يتقهقرون مُحْبَطِين على أعتابه العالية. لقائي مع أطباء المدينة انتهى إلى استغاثة منهم لمعرفة أسرار هذه الكلمة السّحرية التي يمكن أن تفتح أمامهم أبوابَ الهجرة إلى الغرب الأنغلوسكسوني. خطر لي أن الإنكليزية صارت في عصرنا هذا مغامرةً هي الأُخرى، أو ربما المسرح الذي لا تنطلق مغامرات المنافي إلا على خَشَبَته. وبهذا المعنى فإنّ إصرارَ الكلّية على اعتماد الإنكليزية لغة دراسية يعدّ مغامرةً أيضاً. كان اختبار الآيلتس مغامرةً ينخرطُ فيها الجميع مندفعين إلى المجهول بعيداً عن إخفاقات وجودهم الفردي والسياسي والثقافي.

أرسلتْ بَتُول الردّ الذي كَتَبَتْه إلى ضابط الهجرة على بريدي الإلكتروني بعد طبعه. وأسرعتُ في مراجعته وإعادته إليها دون إبطاء، ثم وجدت دعوة منها إلى إضافة اسمي إلى قائمة معارفها على هوتميل مسنجر

Twitter: @ketab_n

فأسرعتُ أيضاً إلى الموافقة دون أن أجد في ذلك ما يُثير الانتباه. لقد ظهرت بَتُول مثل همسة وسط زحام صاخب. لم أَنْتَبِهْ لوجودها فعلياً إلا بعد حين ولم يكن ذلك لأن الهمس ارتفع وأعلن الصوت نفسه بوضوح. لقد ظلّ صخبُ العمل ومشاغله المُتَّصلة وتقلّبات ساندرا يدفع تلك الهمسات إلى الوراء، إلى هامش مُعْتِم. ما دفعني إلى الانتباه إلى تلك الهمسات تواصلها الغريب وإصرارها دون أن تفصحَ عن شيء بعينه. حين صرتُ في قائمة المعارف تلك أصبحتُ قادراً كلما دخلت المسنجر أن أرى في قائمة معارفي اسمها مضاءً بشذرة خضراء تعني أنها موجودة على الخط أيضاً. لكنّ اللونَ الأخضر الذي يُعَدّ دائماً علامةَ الشروع والسماح لم يدفعنا إلى بدء الحوار. ثم حدث بعد أسبوع تقريباً أن وجدتُ نافذة صغيرة تقفز على الشاشة تحمل اسمها ولا تحتوي إلّا عِبارة صغيرة "مساء الخير" بالإنكليزية. لم تكن هي موجودة على الخَطّ فأرسلتُ رداً على التحية وأغلقت النافذة. في تلك الجلسة نفسها لاحظت ظهور بَتُول على المسنجر وبَرَقَتِ الشّذرة الخضراء فوجدت أن عليّ المبادرة والسؤال، كتبت سؤالاً محايداً عن أحوالها وانتظرتُ فلم يصل ردّ منها بالرغم من وجودها على الخط. لم أفهم ذلك، وقرّرت أن أتوخّى الحذر فلا أبدو كمن يحاول التحرّش بها. فكرت أن تلك التحية لم تَعْدُ مجاملة مؤدّبة. لكنني عندما شَبَكْتُ كمبيوتري في مساء اليوم التالي عجبتُ لانبثاق نافذة صغيرة منها كُتب عليها بالإنكليزية "أنا بخير. شكراً"، هل يأتي الردّ بعد يوم كامل على سؤال بسيط كذاك؟ تلك المُناوشات البريئة ولقاءاتي المتباعدة بِبَتُول وجهاً لوجه جعلتني أستشعر في تواصُلي معها تيّاراً خفيّاً من تواصل مختلف صامت. لكني كنت أردعُ نفسي وأذكّرها أن ذلك الإحساس أمرٌ معتاد مفهوم عند التحاور مع امرأة لها عينا بَتُول المشحونتان بكل أطياف الجمال والحساسية، وأن الرجل يُسيء إلى المرأة الجميلة كثيراً عندما يسعى إلى تحميل حواراته معها بكل أصناف النوايا والإمكانات الوهمية.

إن كنت أتطرقُ إلى بَتُول أثناء حديثي عن انتقال ساندرا إلى مكتب

Twitter: @ketab_n

آخر فالأمر لا يعدو محاولتي منذ بدأت الحكاية أن أحوّل مَتاهة مَساراتها المُتنافرة إلى خارطة دالّة على شيء بعينه لا أدري حتى هذه اللحظة ما يمكن أن يكون. لم تؤثّر كل المُناوَشات في لقاءاتي الأسبوعية مع ساندرا. أتذكَّر جيداً آخر لقاء بيننا في ذلك العام فقد تصادف ليلة رأس السنة. كنت منشغلاً عندما وصلت ساندرا بأخبار تنفيذ حكم الإعدام بحق طاغية العراق بعد مرور ثلاثة أعوام على إخراجه من جُحْره وانطلاق جلسات محاكمته الطويلة التي ظلَّ خلالها يحتضنُ القرآن لا يفارقه ويردّد شعاراته المعروفة التي أَدَّت بالبلاد بعد سِلْسِلة الكوارث إلى مِحْنة الاحتلال. كان أول ما فعلته ساندرا أن طلبت مني التَّحَوُّل إلى قناة الأفلام ونِسْيان الأمر برمّته، فاليوم هو رأسُ السنة وهي لا تريد أن تفسده لأيّ سبب كان. لم يكن قَبُولي طلبها انصياعاً لرغبتها بل استجابة لهاجس أوحت لي به في تحدّي قدرة هذا الرجل العِلّة على إفساد المزيد من أيامي على الأرض. قررتُ أن أحتفلَ برأس السنة مع ساندرا التي لم يَبْدُ أن خبرَ تنفيذ الإعدام كان يعلو في أهمّيته على حقيقة وجودنا معاً. بل هي بالغت فألحَّت عليّ أن تعلّمني في مطلع العام الجديد أصولَ الرقص وكانت تحمل معها مجموعة منتخبة من الأغاني التي تستهويها، لم أتخيَّل جسدي راقصاً ورفضت رفضاً قاطعاً.

أعلنتْ في تلك الليلة أنَّها تنوي التبادُل في المكتب مع جفري ويفر الأستاذ الأميركي الذي يشارك جورج في مكتبه. قالت ذلك وهي تتمدّد على الأريكةِ في الصالة وتسندُ رأسها إلى فَخْذي دون أن تلتفت إلى فيلم بوليسي أميركي تعرضه قناة أفلام إماراتية. كنت أعبثُ بخصلات شعرها الأسود الناعم وأمدّ ساقيّ على زجاج طاولة الشاي أمامي في هدنة مُؤَقَّتة مع الهَمّ. سألتها مازحاً عن السبب الذي يجعلها تحرصُ على أن يشاركني في المكتب رجل لا أُنثى بينما تنتقلُ هي للإقامة في مكتب شاب جمع وسامة أهل لبنان وهناء أهل بريطانيا. قالت ضاحكة:

- لا تدَّعِ الحماقة. إنه في عُمْر ولدي.

Twitter: @ketab_n

- لكنه أعزب، يعاني الوحدة والمَلَل.

قالت باسترخاء لاهٍ دون أن تفتحَ عينيها:

- أعلم ذلك. لقد حاورته مراراً وهو يشكو بالفعل من الوحدة ومن فشله في العثور على امرأة ترضاه زوجاً.

- وهل اخترته لاستئنافِ تلك الحوارات؟

فتحت عينيها وتطلعت إلى عيني مشاكسةً وهي تقول:

- نعم إنه شاب ممتاز. طيب، وسيم، حسن النوايا، صريح.

لم أَرُدَّ عليها وتطلعتُ إلى الشاشة أراقب مُخَبِّراً سِرّيّاً ذا معطف أسود يتحدثُ بهدوء ومكر. قالت ساندرا وقد أغمضت عينيها من جديد:

- منذ عصر جين أوستن والأعزب الذي يمتلك هذه الخواص لا تنقصه إلا الزوجة الصالحة. وقد خطر لي وأنا أستمع إلى شكواه من الإخفاق في العثور على زوجة أنَّ أمام ابنتي التي تشكو هي الأخرى من خيبتها مع صديقها سكوت فُرْصةً لنقلةٍ تَخْرُج بها من مصاعبها. هل تعلم؟ بدأت سارا تُمضي مساءات برمّتها في السهر مع صديقاتها تاركةً ابنها الرائع جوني يرعاه سكوت في البيت. أنا قلقة بشأنها. بين صديقاتها نساء لا أثق بهن يتباهينَ كلما أضفنَ رجلاً إلى قائمة عشاقهن. إحداهن قالت لي ذات يوم مازحةً إنها تحتفل اليوم بالعشيق الستين، وكان وجهها يطفح بِشْراً وانتصاراً. بدأت أخشى على سارا مِنْهُنّ. هي نفسها بدأت تفتخرُ بأن سهراتها تمتدّ إلى ساعات الصباح الأولى وأنا قلقة أشدّ القلق مما يمكن أن يحدث في مثل تلك السهرات.

كان صوتها جاداً الآن ولكنني لم أَكُفّ عن العَبَث بشعرها. سألتُ وأنا أجد صعوبةً في تخيُّل الحالة التي تصفها:

- وماذا عن زوجها أو صديقها سكوت هذا؟ ألا يستطيعُ أن يضع حداً لما تفعل؟

Twitter: @ketab_n

- إنها تفعل ما تفعل لأنها تستطيع أن تفعلهُ. هذا ببساطة هو واقع الحال.

- هل تعنين أنه لا يعترض؟

- إطلاقاً. يُمضي المساء مع ابنه يلاعبه ويتنزه معه. المشكلة أن رضاه بالحالة هذه يزيدها ابتعاداً عنه. لو أنه اعترض وتماسَك لاستطاع أن يؤثّر فيها، لكنها ابنتي وأنا أعرفها جيداً.

- كيف؟

- مشكلة سارا أنها درست في الجامعة مُقَرّراً مطولاً في النزعة النسوية الداعية إلى حُرية المرأة واستقلالها، ومن مساوئ المصادفات أن الأستاذة التي درّستها ذلك المقرر كانت تتقنُ عملها فأدخلت في عقلها قَناعات خطيرة لن تَتَزَحْزَح.

- مثل ماذا؟

- أخطر هذه القناعات أن الأمومةَ قيد على حرية المرأة وسعادتها. هل قرأت دوريس لسنغ؟

رجعت إلى مخزوني من القراءات أستعرضه فلم أجد لها إلا روايةً قرأتها مترجمةً في العراق خلال التسعينيات عنوانها "مذكّرات مَنْ نجا"، ولكني لم أتبيّن لهذه الرواية علاقةً بما تقول ساندرا. قلت بتواضع:

- القليل مما كتبت.

- ذات يوم أثناء ذلك المُقَرّر الشيطاني جاءتني سارا بقصة قصيرة كتبتها دوريس لسنغ عنوانها "الغرفة 19" وطلبت مني أن أقرأها. قالت إنها من روائع الأدب الحديث. قرأتها بفضول كبير. لم يكن فضولاً إلى معرفة القصة نفسها أو كاتبتها ولكن إلى معرفة ما يستهوي سارا بعد سنوات من الدراسة الجامعية. وكانت صدمتي شديدة.

- لماذا؟

Twitter: @ketab_n

- القصة باختصار تقدّم أماً لأربعة أطفال تعيش زواجاً هادئاً عقلانياً تؤدّي فيه واجباتها كأم وزوجة على أحسن وجه. وحتى عندما يعود زوجها ذات يوم ويعترف لها أنه نام مع إحدى المدعوّات إلى حفلة شارك فيها مؤكداً أنها مغامرة عابرة، تقبل الأمر وتتناساه لتمسّكها بحياتها وبيتها. إنها المرأة المضحية، الأم كما عرفناها دائماً التي تكرّس كل طاقاتها لأولادها وزوجها. تبدأ المُشكلة عندما يقصد أولادها المدارس وتتخفَّف من مسؤولية متابعتهم ليلَ نهار. تحلّ أخيراً لحظة التحرُّر من المسؤوليات المُرْهِقة الطويلة. لكنها بالنسبة إلى سوزان بطلة القصة (ما زلت أتذكر اسمها ولن أنساه) لحظة صعبة تضعها وجهاً لوجه مع مشكلة جديدة. فهي تجد صعوبةً في الاسترخاء. وجودها في البيت يعني أن تكلِّم الخادمة وتردّ على التلفونات وتعيش خُوَاء حياة رَبّة المنزل. حين تخلو إلى نفسها في الحديقة تشعر أن شياطين تُحيط بها وتُوَسْوِس لها باللامعنى. تميلُ إلى العُزْلة في المنزل بحثاً عن الراحة ولكنها لا تجدها في البيت فتقصد فندقاً رخيصاً قذراً تستأجر فيه الغرفة 19 لتجلس فيها أربع أو خمس ساعات يومياً لا تفعل فيها إلا مواجهة حالة الخَوَاء التي انتهت إليها حياتها الطويلة النبيلة. هل تستطيع أن تتوقّع نهاية هذه القصة؟

- لا أدري. تبدو قصةً شَيِّقة.

- تستدين هذه السيدة في نهاية القصة نقوداً من خادمتها وتقصد غرفتها تلك في الفندق لتفتحَ الغاز بعد إغلاق النوافذ و تنتحر.

- تنتحر؟

- نعم. تخيّلْ، الأمومة هذا الإحساس النبيل الذي لا تضاهي مُتْعَةَ تضحياته أيّة مُتْعة أُخرى في الحياة، تصبح مصدر خَوَاء وشعور سقيم باللامعنى.

- قد يكون تأويلك للقصة مبالغاً فيه. لا يعقل أن تذهب أديبة كبيرة مثل لسنغ هذا المذهب. بالمناسبة يقال إنها أوفر المرشحين حظاً في الحصول على جائزة نوبل للآداب هذا العام.

Twitter: @ketab_n

هتفت ساندرا بمرارة وقد فتحت عينيها على اتساعهما:

- تلك هي الكارثة. سوف يؤدي هذا إن تحقَّق إلى اتساع نطاق تأثيرها الخطير في النساء. ولكن مهلاً قد لا أكون قارئةً نموذجيةً للأدب لكني قرأت لقاء مع لسنغ هذه قالت فيه بوضوح كامل إنها لا تجد أحطّ للمرأة من أن تُكَرِّس حياتها في البيت لتربية طفل مشاكس يحول حياتها جحيماً ويضيّع أجمل أيامها.

- هل قالت ذلك؟

- أُؤَكِّد لك ما أقول. قالت ذلك وجعلت من الأمومة مفهوماً مُشَوَّهاً. بالمناسبة هل تعلم أني تكلّمت مع أريكا ذات يوم حول انطباعاتها عن دوريس لسنغ فوجدت أنها تضمرُ لها إعجاباً منقطع النظير. قالت إنها كاتبتها الأولى في بريطانيا.

خطرت لي قصة لكاتبة سورية مغمورة بالقياس على لسنغ وفيها تراود أمّاً مِثْلُ هذه المشاعر بالتعب من مشاغل الأولاد والزوج فتطلب من عائلتها إجازة تقضيها في لبنان. إجازة من أمومتها. حكيت القصة لساندرا وقلت:

- لكن النهايةَ مختلفة تماماً، تُقَرِّر هذه المرأة العودة إلى بيتها نادمةً على ما أنفقت من وقت بعيداً عن أولادها وزوجها وتكتشف أن كيانها ومعنى وجودها يتمثَّلان في ذلك البيت.

قالت ساندرا وقد أصغت باهتمام كبير:

- ذلك هو الشرق الذي لا يكفّون عن السّخرية منه والتباكي على الحُرِّيّات فيه. هل تعلم بالنسبة إلى داعيات جنون المرأة تبدو هذه القصة ساذجة بينما تستحقّ عَرّابتهن الشيطانية جائزة نوبل.

حين أقارن هجوم ساندرا على الحركة النسوية بهجومها، في طريق العودة من مَسْقَط عبر الطريق الجديد، على الرتابة والتقاليد أجدُ نفسي حائراً في تصنيفها. وقد قلت لها ذلك فسحبت رأسها من بين يديّ واسْتَوَتْ على الأريكة قربي وقد ركّزت عينها في عيني في تساؤل حائر. قالت بنبرة متأمِّلة:

Twitter: @ketab_n

- لماذا تُصرّ على تصنيف الأشياء وعقلنتها؟ لا أرى تناقُضاً في الموقفين. التقاليد عندما تحيطُ بها القُدْسية وتتحنَّط تكون خطراً على جوهر الحياة، وجوهر الحياة هو المغامرة. أما العبث بغرائز الإنسان باسم الحرية فأمر لا يقلّ خطراً.

توصّلتُ حينئذٍ إلى أن آراء ساندرا تمثل في الغالب أمزجةً تولّدت من تجارب بعينها لا نظراً عقلياً منهجياً، لكني توقّفت عن التفكير وأنا أتحسَّس شفتيها اللَّيِنَتَيْن على فمي.

Twitter: @ketab_n

39

قلتُ لساندرا إنها عندما اختارت مكتب جورج بديلاً من الدراما الصغيرة المتكرِّرة في مكتبنا إنما قررت بشكل غير مباشر الشخص الذي سيحلّ محلّها وأنها بذلك قد صادرت حقّي في الاختيار. كانت تقف قرب الباب وقد سبقها المُنَظِّف محمود إلى مكتبها الجديد بآخر متعلّقاتها فأغلقت الباب واقتربت مني بحركةٍ خاطفةٍ وطبعت قبلةً سريعةً على خدّي وهي تقول: "ستشكرني على اختيار جفري ويفر لصحبتك، كلاكما يسعى إلى بار دون كحول كهذا المكتب". لم أَكُنْ أعرف جفري عن كثب فهو من مدرّسي السنة الأولى يشرف على عمله إبراهيم الساسي، لكني صادفته في الممرات واجتماعات القسم القليلة وتبادلت وإياه تحيات مجاملة عابرة. كنت قد تعلّمت من تجارب كثيرة سابقة أن لشريك المكتب أثراً كبيراً في من يشاركه، وأن المِزاج الذي يسود المكتب يكون في العادة خليطاً يعكس التقاء مِزاجين ولا يمكن أن يتقرَّر بمِزاج واحد فقط. وهو ما يهدّد بأن تختزل هذه الشراكة حياة المكتب إلى ثرثرة دائمة لا هدف لها إلا قتل الوقت والترويح عن النفس حيث يستخدمُ الشريك ساعات الوجود في المكتب لينفضَ عن نفسه ما يتجمعُ من أدران المَلَل والشكوى على نحو يومي.

كان جفري أميركياً متخصّصاً في الدراسات الآسيوية، وقد عمل قبل قدومه إلى صُور في تايلاند لمدة ثماني سنوات درّس خلالها الإنكليزية في معهد عالٍ وأتقن اللغةَ التايلندية فصار يتقنُ لغتين آسيويتين لأنه كان قد تعلم اليابانية قبلها كجزء من متطلّبات دراسته. كان طويلاً نحيفاً نحافة تَلْفت الانتباه، بلغ منتصف العقد الرابع من العمر دون أن يشيب شعره أو يتزوج.

Twitter: @ketab_n

أبرز ما يميز ملامحه حاجبان كثّان يُضفيان على نظرته شيئاً من البراءة والصدق. وكان يضطر بين حين وآخر أثناء الحديث إلى تعديل الشعر النافر فيهما فكأنه يذكّر محدّثه أنه يدرك ذلك.

أمضيتُ الأيام التالية كما هو متوقّع في حديث متواصل معه. كان لا بد من التأسيس لرتابة التعايش في المكتب بساعات من حوار شَيِّق. وقد بدا توّاقاً إلى استعراض حياته كلها معي فكأن انتقاله إلى مكتب جديد يمثل مناسبة ثمينة لتحقيق تلك المراجعة. قال إنَّ أباه أميركي لكن أمه من مونتريال في كندا. ولأن أمه كندية فقد عاش معها هناك عشرين عاماً من عمره وأحب كندا. قال إنه يفكر أحياناً في الهجرة إلى كندا والتمتّع بما تقدّم من ضمانات صحية ودعم لمواطنيها وهي أمور أصبحت تتراجعُ في أميركا بسبب الحروب والأزمات الاقتصادية. كان أبوه عسكرياً شارك في حروب كثيرة وعندما أصيب في إحداها واضطرّ إلى التقاعد لم يحصل إلا على راتب قليل لم يكد يكفي العائلة، وقد اضطر بسبب العَوَز إلى العمل كسائق تاكسي وكانت طفولة جفري صعبة. قال بنبرة تأمُّل ومراجعة لمشاغل شديدة الخصوصية صُودف أنها تتمّ أمامي أن راتب والده لم يتحسَّن إلا في وقت متأخِر، كان هو حينئذٍ قد تجاوز الثلاثين بينما أصيبت أمه بالسرطان وتُوفِّيت قبل أن تقطف ثمارَ التحسُّن. حتى والده لم يستمتع بالزيادة في راتبه طويلاً إذ سُرْعان ما توفّي بعدها. ثم قَصَّ عليّ حكايات عن اضطراره إلى التوجُّه إلى سوق العمل في طفولته إذ اضْطُرَّ بسبب شِحِّ مَوارد العائلة إلى العمل في محلّ للتسجيلات لإعالة نفسه. أمّا أخوه فقد شدّ رِحاله إلى اليابان ودعاه بعد حين إلى الالتحاق به هناك لوجود فُرَص كثيرة لتدريس الإنكليزية. وقد عشق الثقافة اليابانية أثناء عمله هناك وتعلَّم لغتها فما إن جمع بعض المال حتى بدأ دراساته الآسيوية مدفوعاً إليها برغبته في التعرُّف إلى الفكر الشرقي.

قبل أن ينقضي الأسبوع الأول وجدت نفسي منهمكاً في حوارات طويلة مع جفري عن موضوعات متشعّبة بلا ضِفاف. كان أولها خبر إعدام

Twitter: @ketab_n

الطاغية في العراق وقد أثاره دخول زكي خليل إلى المكتب بلحية مُرْسَلة يعلنُ بها الحِدادَ على فقدان بطله الأشمّ. وبالرغم من أنه أنكر أن بين الأمرين صِلة لخشيته من أن تُعَدّ لحيته إقحاماً للسياسة في عمله الأكاديمي فقد همس لي قبل أن يخرج بتحدٍّ مازح إن البطلَ ينعمُ في عِلّيّين. لكن الخبر لم يُثِرْ لدى جفري مشاعر قوية. وسُرْعان ما تحوَّل إلى حديث عن الاستشراق وتعدُّد الثقافات. أمضى أكثر من ساعة في مُقارَنة كتابات إدوارد سعيد وبرنارد لويس فرأى أنَّ الأوَّل لم يكن في الحقيقة مستشرقاً بل مختصّاً في الدراسات المُقارَنة، وهو ما يجعل معرفته بمشاكل الاستشراق نظرية أكثر منها تطبيقية. وكان مُقْتنعاً أن إدوارد سعيد قد تراجع عن الكثير من آرائه في الاستشراق في مقال نَشَره قبل وفاته لم أكُنْ قد سَمِعْتُ عنه أو اطَّلعتُ عليه من قبل. ومال كثيراً إلى برنارد لويس ورأى أنه يمتلك رؤية ناضجة لحقيقة العلاقة بين الشرق والغرب. حين تحدّثنا عن الحضور القوي للدين في الحياة العُمانية ورد ذكر كارين أرمسترونغ التي كنت قد اطَّلعت على بعض كتبها في الديانات وتاريخها فتحفّظ عليها وقال إنَّه قرأ كتابها عن الحروب الصليبية واستنكر أن تلومَ المسيحيين على ما فعل أجدادهم.

في آخر أيام الأسبوع دعاني جفري إلى تناوُل الغداء معه في فندق شاطئ صُور بعد نهاية الدوام، وكنت متعباً غيرَ راغب في إعداد طعامي بنفسي فصحبته إلى هناك. وقد أعجبني المكان إذ يقع المطعم في الطابق الثاني ويطلّ على البحر عبر نافذة واسعة من الزجاج النظيف الذي أضفى على منظر البحر هُدُوءاً ووُضُوحاً وقُرْباً لم أعهدها فيه من قَبْلُ. حدّثني جفري في جلستنا تلك عن علاقاته مع الأساتذة في القسم فقال إنه يميل إلى العُزْلة عموماً، وإن علاقاته مع الآخرين محدودة لاختلاف في الاهتمامات. بالنسبة إليه يُعَدُّ وجوده في عُمان مناسبة لتعلم المزيد عن الثقافة العربية، ورُبَّما سيشرع قريباً في تعلُّم اللغة العربية نفسها.

عندما باشرنا تناول الطعام وكان طعامه نباتياً بسيطاً قال على غير توقّع:

Twitter: @ketab_n

- تراودني هذه الأيام فكرة الاستقالة في نهاية العام، والعودة إلى تايلاند.

- لماذا؟

- لقد تركت هناك كل متعلّقاتي وكُتُبي في شقّة صغيرة مازلت أدفع إيجارها وأنا هنا، وعليّ أن أحسم هذه الحالة فإمّا العودة إلى تايلاند وإما شَحْن كُتُبي إلى مكان إقامة دائم والتخلّص من إيجار الشِّقّة. المشكلة أني لا أملك حتى الآن مكاناً ثابتاً أعود إليه ويمكن أن أسمّيه بيتاً. حين أزور أميركا، وهو أمر نادر، أجد نفسي مُضْطَرّاً إلى الإقامة في فُنْدق. لكني بدأت مؤخَّراً باستخدام الإنترنت للاتصال ببعض أقاربي، والطريف أنهم أبدوا اهتماماً باللقاء وبدأنا نستعدّ لجلسة لَمِّ شَمْل في الصيف... حالة القلق والتقلُّب هذه تزعجني. أتمنى العثور على مكان مستقرّ.

- ولماذا لا تكون صُور ذلك المكان؟ عملك مضمون مع فكتوريا.

قال بأدبه الجمّ ورغبته الدائمة في التعبير عن إعجابه بالشرق ولم أكن بالنسبة إليه رفيقاً محايداً بل ناطقاً بلسان الشرق وهويّته:

- لقد أحببتُ صُور وعُمان عموماً، ولكني غريب هنا. لم أستطع تكوين صداقات مُهِمّة مع زملائي ... معظمهم مشغول بنفسه وشِلَّته التي لا تجتمع إلّا ويكون الزَّيْت الاجتماعي حاضراً.

- ماذا تقصد بالزَّيْت الاجتماعي؟

- الخَمْر. المشكلة أني لا أشرب الخَمْر إطلاقاً وذلك لأسباب صحية وربما نفسية أيضاً. لا يروقني احتساؤه ببساطة، لكن التفاعلَ الاجتماعي في صُور لا يتحقّق إلا وهذا الزيت المُرَطِّب يتصدّر الجلسة. هنالك مجموعة رالف وأريكا التي تقضي عطلةَ نهاية الأسبوع على سطح البناية في شُرْب وصَخَب يصل إلى حَدِّ الصِّياح.

- هل أريكا واحدة من هذه الشِّلّة؟

Twitter: @ketab_n

قال وهو يلوك طعامه بشهية كاملة:

- بالطبع، هي ورالف متقاربان كثيراً.

- ظننت أنها قريبة من ستورمي أكثر.

تطلع نحوي بفضول وسأل:

- هل حدّثتَ ستورمي يوماً؟ إنها بحاجة إلى علاج نفسي من عُقَدها. كلّما تحدَّثْتُ معها اندفعتْ تشكو لي معاناتها بسبب بُعدها عن امرأة التقتها في فيينا خلال عملها هناك. ثم تندفع إلى سَرْد مُكَرَّر تفصيلي للخلاف الذي وقع بينهما، ولانهيارها العصبي وسفرها إلى السعودية للعمل في جدّة، وعذابها هناك لأن حاجتها إلى تلك المرأة تستحوذُ عليها. لا أعتقد أنها ستبقى هنا في العام القادم.

قَرَّرْتُ أن أتمادى في النَّبْش والتحقُّق وقد أثارت معلوماته التي لم أسمعها من ساندرا اهتمامي على نحوٍ خاصّ، فقلت:

- ولكن يبدو أنها وَجدت في أريكا بديلاً من تلك المرأة.

قال دون أن يتوقّف عن الأكل:

- لا، وفي هذا مبالغة. أعتقد أنها حاولت التقرُّب منها ولكن الثابت الآن أن أريكا هي حصة رالف.

هتفت دون أن أعي ارتفاع صوتي:

- لكنه سكّير أَخْرَق.

ضحك جفري، ونزلت بعض الشُّعيرات من حاجبيه حتى اضطر إلى التحديق إلي من خلالها وهو يقول:

- رالف شخصية طريفة، له قدرة فريدة على التنكيت دون توقف. الخَمْر والنُّكْتَة: هل من شيء يجتذبُ المرأة أكثر من ذلك؟ لقد حضرتُ معهم جلسةً واحدةً على السطح وضحكت كثيراً للبهلوانيات التي صدرت عن رالف، خصوصاً عندما لعبت الخَمْر برأسه. كانت أريكا تلازمه طوال

Twitter: @ketab_n

الوقت ولا تكفّ عن الضحك. في الواقع إني أفكر في العودة إلى ذلك التجمُّع مرةً أخرى. رالف شخصية طريفة.

لم أجد ما أُعَلِّق به. هل كذبت عليّ ساندرا وبالغت؟ أردف جفري وقد انخفض صوته قليلاً:

- معروف لدى الجميع أن أريكا تبيت في شقّة رالف بين حين وآخر. إنها مُولَعة بالضحك والكأس.

غمغمت وأنا ألُوك ملعقةً من الرُّز:

- مفهوم!

Twitter: @ketab_n

40

مضى على طلب الطاهر مراجعة شهادات الأساتذة أشهرٌ طويلة كِدْتُ أنساه معها. لكني حرصتُ بين حين وآخر على أن أقتطع وقتاً لمراجعة السِّيَر العلمية للأساتذة. وكنت قد قرأتها قراءةً عابرةً من قبل، القِراءات التالية كانت أكثر تدقيقاً وحَذَراً. استعرضتُ أسماء جامعات كثيرة حلمت ذات يوم بالدراسة فيها وسعيت بكلِّ ما أُوتيت من قوة ورغبة وموارد مُتواضعة إلى التقديم إليها ثم تحطّم كل شيء على صخرتين: الأُولى صعوبة حصول العراقي على فيزا إلى دُوَل مثل بريطانيا وأميركا وأوستراليا وغيرها من الدول الناطقة بالإنكليزية بسبب خَشْيَة هذه الدول أن يكون التقديم للدراسة ذريعةً للهجرة إليها وطلب اللجوء السياسي فيها، وكان آخر رفض صَفَعَني بفظاظة في السَّفارة البريطانية بطرابلس في ليبيا إذ وقع بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرةً فكان ضابطُ الهِجْرة يكلّمني بعدائية سافرة جعلت كَفَّه ترتجف وهو يُلَوّح بالكشف المصرفي الذي قدّمته لإثبات قدرتي على تغطية تكاليف الدراسة حتى شَعَرْتُ أني لا بد قد ارتكبتُ جُرْماً دون أن أعلم. منذ ذلك الرفض توقّفت عن المحاولة بعد أن أدركتُ ظهور الصخرة الثانية أمامي التي لم أحسب لها حساباً لزمن طويل وهي دخولي الكُهُولة وإدراكي أنَّ السعي إلى شهادة دكتوراه في الأدب الإنكليزي بعد ثلاث أو أربع سنوات من إنفاق المال والجُهْد أَمْرٌ متأخِّر لا معنى له. قرأت في السِّيَر العلمية لأساتذة القسم أسماء جامعات مثل تكساس وبورتسموث وجنوب إفريقيا ودبلن ومانشستر ولنكولن وغيرها وتساءلت هل يمكن أن يكون تزوير الشهادات قد أصبح وباءً عالمياً يضرب أميركا وأوروبا كما هو في دول الشرق المأزومة؟

Twitter: @ketab_n

لم ألاحظ ما يدعو إلى الرِّيْبة، فطلبتُ من ساندرا مساعدتي على التدقيق لثقتي الكبيرة بها وبمعرفتها الواسعة بالجامعات في ثلاثة بلدان غربية. كما أنَّ حِواراتي المُطَوَّلة معها قد أكّدت لي صدقَ وثائقها وما ورد في سيرتها من حصولها على الماجستير في الأدب الإنكليزي. وكنتُ قد طلبتُ من ساندرا أن تُبقي الأمر سِرّاً بيننا فلا يعلم الأساتذة أن هنالك جَرْداً لأوراقهم، وهو ما دعاها إلى الضحك والقول إن حكايةَ تزوير الشهادات قد أصبحت على كل لسان منذ أمدٍ طويل، وعجبت لدِقّة معلوماتها عن مُشكلة الشهادات غير المعترف بها في الرُّسْتاق. لكنها تحمّست لمُساعدتي على المراجعة واتفقنا أنْ تحرص على ألّا يُذاع الأمر بشكل يُثير استياء الأساتذة.

قبل أن تنتهي ساندرا من مراجعتها تلك استدعاني الدكتور الطاهر إلى مكتبه. كُنّا قد تحدّثنا تلفونياً في وقت مُبَكِّر من ذلك اليوم عن حالة طالب فتح باب فصل كانت تُدَرِّس فيه ستورمي وقذف بِمَزْهَرِيّة فيها شجرة صغيرة خضراء من البلاستك حصل عليها من مكانٍ ما في الكلية ثم أغلق الباب. وقد جاءت ستورمي ثائرةً وكتبت تقريراً عن تزايُد مُشاكسات الطلبة المُتَجوِّلين في المَمَرّات وعَبَثِهم وضوضائهم ليُضاف إلى تقارير أُخرى لم يفعل الطاهر الكثير للتصدّي لها. ظننتُ أن اللقاء يتعلّق بهذه المشكلة لكني وجدت الطاهر أكثر جدّية من المُعتاد وطلب مني إغلاقَ الباب. كان يولي ظهره لنافذة تطلّ على مَسْجِد الكلّية لم تكن مُغَطّاة بستارة وكان ضوء النهار باهراً. بادرني إلى السُّؤال إن كنت قد انتهيت من مراجعة السِّيَر العلمية فقلت إني قمتُ بمراجعة أولية ولم ألاحظ شيئاً يدعو إلى الشكّ. فقال بصوته الخافت المُستريح حتى وهو مُنْزعج، إنّ الوزارة طلبت صباح اليوم أن يتصل الأستاذ أريك جونسون بمديرة البرنامج وندي وليامز مباشرةً لأمر خاصّ. وقد تمّ الاتصال وعادت وندي لتتصل بالدكتور الطاهر وتخبره أن شهادة أريك في علم النفس مزوّرة. هتفتُ بدهشة غلبتني:

– كيف عرفوا ذلك؟

Twitter: @ketab_n

قال الطاهر دون أن يتخلَّى عن هدوئه:

- يبدو أن الوزارةَ شكلت لجنةً هي الأخرى لمُراجعة شهادات الأساتذة، وقد قالت لي وندي إنّ أحد أعضاء اللجنة كان بريطانياً من خِرِّيجي الجامعة نفسها التي ذكرها أريك، وقد لاحظ أن أريك ذَكَر في سيرته العلمية عام 1988 على أنه عام تَخَرُّجه بينما الجامعة لم تبدأ بتخريج طلبتها إلّا في العام 1990، وهو ما أثار شَكّه.

- لا أكاد أصدق. هل علم أريك بذلك؟

- لقد طلبتُ منه أن يأتي إلى مكتبي. ويبدو أنه منشغل بحِصّة الآن فلابد من انتظاره.

قلت وقد تذكّرت حديثي مع أريك قبل أسابيع:

- لكن أريك عمل في اليابان ثمانية عشر عاماً. هل يعني هذا أنه غَشَّ اليابانيين أيضاً.

لا يميلُ الطاهر إلى التعبير عن أفكار مُتطرفة عادة، لكنه تطلَّع نحوي بابتسامة متهكّمة وعبّر لأول مرة عن مُيُوله الفرانكفونية قائلاً:

- لا أحد يشكّ في رعايا بريطانيا العظمى!

تذكّرتُ آخر مرة حدّثت فيها أريك. كان في زيارة إلى جفري في مكتبنا وقد لاحظتُ صداقةً وطيدةً بينهما ربما نَجَمَتْ عن روابطهما الوثيقة باليابان، إذ عاش كلاهما رَدْحاً طويلاً هناك. كان جفري يعاود طرح حَيْرته في اتخاذ قرار الاستقالة في نهاية العام مع أريك هذه المرة، ويُعبِّر عن الصعوبة التي يجدها في حسم أمره. ردّ عليه أريك ضاحكاً أن ما يفعله هو نفسه عادة في مثل هذه الحالات أن يحتسي زجاجة من النبيذ المُعَتَّق وينام نوماً عميقاً ثم يعتمد أول قرار يخطر على باله عندما يصحو في الصباح، ثم أردف وهو يلتفتُ نحوي إن المشكلةَ في انتفاعنا أنا وجفري من هذه الطريقة الرائعة في حسم التردُّد أنّنا كلينا لا نشرب الخَمْر؛ أنا لكوني مُسْلِماً وجفري لطموحاته الأكاديمية فهو لا يريد أن يخسرَ صفاء ذهنه ساعةً واحدة.

Twitter: @ketab_n

حَدَسَ أريك وهو يدخل مكتبَ الطاهر ويجدني معه أن الأمر يتعلّق بالخبر الذي عرفه من مُديرة البرنامج. كان يتحركُ بثقةٍ تامةٍ وبادر الطاهر بالسؤال إن كان قد طلبه إلى مكتبه. دعاه الطاهر إلى الجلوس أمامي مما أتاح لي ملاحظة ابتسامته التي تشارفُ السّخرية الواثقة وقد شابتها جدّية لم أَتَعَوَّد رؤيتها في ملامحه. بادر الطاهر إلى القول:

- أعتقد أنك تدرك السببَ في استدعائك بعد حديثك مع السيدة وندي وليامز.

حدّق أريك إلى الفراغ قليلاً كأنه يحاولُ تركيز فكره والتقاط معنى ما يقال ثم أجاب بصوتٍ باهت:

- نعم لقد تكلّمتُ معها.

- وهل صحيح ما يقال من أن هنالك مشكلةً في شهادتك؟

لم يَبْدُ على أريك الارتباك وأدركت أنه فَكَّر طويلاً في الأمر منذ عرفه من وندي. قال بهدوء:

- نعم هو أمرٌ صحيح وليس أمامي إلا الاعتذار.

لم أكد أصدق أذني ولزمتُ الصمت وأنا أُحَدِّقُ في وجه أريك الذي وطَّنَ نفسه لأسوأ الاحتمالات. كان قد قال أمامي يوماً إن من طباعه أن يفعل ما يشاء ثم يأتي الاعتذار لاحقاً بعد أن يكونَ قد حقّق ما يصبو إليه، وألّا ضَرَرَ من الاعتذار. قال الطاهر وهو يحاول أن يخاطبَ أريك كزميل عرفه طوال أشهر العام المنصرمة:

- كيف حدث هذا؟ لا أكاد أصدق.

عجبتُ وأنا أرى أريك يطلقُ ضحكةً قصيرةً ويعلّق غير آبِهٍ:

- هذا ما حدث. لقد مللتُ عملي في التمريض، كنت أعمل مُمَرِّضاً في مستشفى للأمراض العقلية في لِيدز وقد سئمتُ عملي، نشبت خلافات بيني وبين مدير القسم الذي أعمل فيه فقررت أن أبحث عن مَنْفَذ.

Twitter: @ketab_n

سألته محاولاً تصفية سؤالي من العدائية:

- هل استخدمت هذه الشهادةَ نفسها في عملك في اليابان؟

نظر نحو الطاهر ليتأكَّد أن سيماء الزمالة مازالت غالبةً على وجهه وقال بابتسامة لا تخلو من الإحراج:

- نعم.

عجبتُ لسرعة الوصول إلى حائط الصمت. لم يَعُدْ أمامنا الكثير لنقوله فشكره الطاهر وطلب منه أن ينتظر الإجراءات التي ستقرّرها الوزارة وأن يواصلَ عمله حتى تصل التعليمات. قام أريك بخفة لا تتناسب مع بدانته واتجه إلى الباب بصمت. حين أغلقه خلفه سألت الطاهر إن كان من المقبول استمراره في التدريس بعد ما عُرف من عدم حصوله حتى على شهادة بكالوريوس، فقال إن سدّ شَواغره أمر صعب ونحن نقترب من نهاية الفصل الدراسي الثاني، ثم أردف بحيادٍ لا يخلو من التهكّم:

- كما أن هذه هي تعليماتُ الوزارة.

Twitter: @ketab_n

41

حَدَثَتْ فضيحةُ أريك في بداية أيار ومضى الشهر بعدها ينتفض بالمشاكل كدَجاجة مقطوعة الرأس، حتى شَهِدَ منتصفُه مأساة أريكا. كانت توقّعات الطاهر عن تفاقُم المشاكل في أواخر الفصل الثاني دقيقة وتصدر عن خبرة أعوام في إدارة هذا الكرنفال العجيب. يكفي حلول أيار في عُمان ليندلع حَرِيقُ الصيف ويصبح الاقتراب من الطبيعة ذاتها دون وساطة أجهزة التبريد ودِرْع المباني المُكيّفة مهمّة شاقّة. وقد تزامن الحريق مع تزايد مشاكل الأساتذة والطلبة في القسم وقد بانَ التعبُ عليهم وصاروا يعدّون الأيام بانتظار العطلة الصيفية التي تطلقهم من إسار الفصول الدراسية. أما المفارقةُ الصعبةُ فهي أن تفاقم الحَرّ والتعب تزامن أيضاً مع اقتراب موعد الامتحانات النهائية بكل ما تتضمّنه من إعداد ومتابعة وتحدّيات. شكا لي الطاهر من تصاعُد مشاكل الأساتذة قَبْلَ الطلبة؛ حالات الغياب وترك الكلّية قبل نهاية الدوام، بل وترك الفُصُول الدراسية قبل إتمام وقت الحصّة المُقَرَّر فضلاً عن العصبية في التعامُل مع الطلبة. ماثيو الذي ظل حتى وقت قريب خارج يوميات رئيس القسم صار يتصدّر الواجهةَ فجأةً عندما سَبَّ أحد الطلبة بكلمات نابية. وقال الطاهر إنه أصرّ على تقريع الطالب أمامه وفي مكتبه بألفاظ تدعو إلى العَجَب. لقد فقد الرجل السيطرةَ على نفسه ويبدو أن لديه هَمّاً في حياته الخاصة الحاضرة أو المستقبلية لا يعرف عنه الطاهر شيئاً.

خلال تلك الفترة نفسها ساءت علاقتي بالدكتور حاكم دون أن أدري لذلك سبباً. لم ألاحظ إلى حين أن الرجلَ لم يكن يردّ تحيتي حين نلتقي في زِحام الممّرات وهو يتبخترُ واجِماً إلى وجهته، وكنت أعزو الأمر إلى

Twitter: @ketab_n

الزِّحام الذي يشغل المرء عن نفسه، كما أني لم ألاحظ أيضاً امتناع الدكتور حاكم عن تحيتي حين أكون واقفاً ويمرّ هو قربي. نَبَّهني إلى تلك الحالة الغريبة زكي خليل إذ كنت أقف معه في ممرّ هادئ فمر د. حاكم ولم يكلّف نفسه إلقاء التحية. سألني زكي إن كان ثَمَّة خصام بيننا فنفيتُ ذلك، فقال إن حاكم يلقي عليه التحية حين يمرّ به بينما يمتنعُ عن ذلك حين أكون أنا معه. علّقتُ مازحاً حينئذٍ على دِقّة الرصد الذي يمارسه زكي والذي لا يُخطئ شاردة أو واردة، لكني أدركتُ فيما بعد أن حاكم قد قَرَّر مقاطعتي تماماً. عجبتُ في البداية لأني لم أقع على خلاف محدّد بيننا يُبَرِّرُ ذلك، ثم توصّلتُ بعد أيام إلى ترجيح أن يكون السبب قراري التعاون مع عدوه اللدود الدكتور الطاهر وتردّدي إلى مكتب الأخير بوصفي مُنَسِّقاً بالرغم من تحذير حاكم لي من هذا التعاون. أزعجني ذلك إلى حين، حتى إني ناقشت الأمر مع فرحان الذي ظلَّ يتصل بي بين حين وآخر ويسألُ عن آخر أخبار مُغامراتي الدون جوانية. قلت له إن العراقيّ الوحيد في القسم أصبح عدواً لي دونما سَبَبٍ مُباشر، فقال فرحان إن كل ما عليّ فعله هو تجاهله وتناسيه ودفن رأسي في صدر ساندرا وبين فخذيها. حين شكوتُ له أن علاقتي بساندرا تُراوِح مكانها وأن مشاعري تجاهها بدأت تترسبُ في قاع المحيط المُرهِق للعمل وتمكثُ راكدةً فيه، سأل باهتمام عن المشكلة فقلت إن ساندرا تعجزُ بالرغم من كل جهودها الصادقة عن السيطرة على ميلها إلى التصرف كعَجُوز متذمّرة متشكّكة، وقد صارت لقاءاتنا تمضي متثاقلةً تحت رُكام شكواها من برودي الذي تعزوه دائماً إلى سيطرة صورة أريكا عليّ وأحلام الكُهُولة المتأخّرة في امرأة شابة تحلّ محلها. سأل فرحان باستمتاع حقيقي لمتابعة هذه المغامرة الصغيرة: وماذا عنك، ألم تَعُدْ تجد مُتعةً في هذه اللقاءات؟ قلت إنها فقدت طعمها وصارت لقاءاتنا في نهاية الأسبوع عناءً بالنسبة إلي، فأنا أجهدُ في ادّعاء الحماسة لوجودها معي وهي ترصدني بعينٍ حادّة بحثاً عن علامة في سلوكي تدلُّ على البُرود والمَلَل. سأل فرحان بنبرة الخبير إنْ كان ثمة طَيْرٌ آخر في الأفق أصوّب نحوه

Twitter: @ketab_n

بصري؟ فنفيتُ ذلك في الحال وقلت إن كل ما أتمناه الآن أن أستعيدَ عُزْلتي وأعود إلى كتبي. علّق فرحان على ذلك بأن رغبتي في العُزْلة لا علاقة لها بساندرا فهي من وجهة نظره أنثى شهية وأنه يتمنّى في صحراء شركته النفطية لو كانت ساندرا من حصّته هو لرفعها إلى منزلة الأميرات، فذكّرته بنظرية الشبكة والصنّارة وأننا مختلفان بالرغم من كل جهودي للتشبُّه به.

تساءلت في أعقاب ذلك الحديث مع فرحان إن كانت بَتُول هي الطير المُحَوِّم في الأفق. كانت همساتها الضائعة في ضجيج الكرنفال تتعالى، وقد صارت بعد أقلّ من أسبوعين حوارات على المسنجر تمتدّ لدقائق لا تتجاوزُ التحايا والسؤال عن الحال، لكنّ ما أزعجني فيها أن بَتُول كانت تنسحب من الحوار على حين غِرّة بينما نحن في غمرة حوار عن مسألة معينة. ظننت في البداية أن السببَ عيب في الاتصالات، لكنّ الأمرَ تكرر وزادني حَيْرة. حاولت أن أسألها عن سبب انسحابها المفاجئ هذا فلم توضح سبباً وتمكّنتْ من تفادي الإجابة. والواقع أن بَتُول كانت تزدادُ غموضاً وإثارةً للفُضُول كلما ازددتُ قُرْباً منها. قادتني عادة التجوال بالسيارة مساء في شارع البَرّ المُوازي للساحل إلى المرور بالبناية التي تعيش فيها. وكانت تقع في منطقة مفتوحة على مشهد التلال والمساحات الصخرية الجَرْداء التي تتوزعُ عليها بنايات قليلة مُتفرِّقة هنا وهناك توحي بسبب الفراغات غير المأهولة بينها بالوحشة والعُزْلة، وهو إحساس لا يخفّفُ منه إلا مشهد البحر الذي يمتدّ أمامها. أثار دهشتي أن سيارة د. بَتُول التويوتا ظلت رابضةً في موقف سيارات البناية كلما مَرَرْتُ بها لا تتحرك، والأدهى من ذلك أن هذه الحالة لم تكن تتغيرُ في نهاية الأسبوع إذ يبدو أن بَتُول تمضي يومي الراحة الأسبوعيين في عُزلةٍ تامةٍ بين حيطان شقّتها لا تغادرها إلى أي مكان فالسيارة تبقى في البقعة نفسها لا تتحرَّك من مكانها بوصةً واحدة. الطريف أني لم أنتبه حينئذٍ وأنا أرصدُ زوايا وُقوف سيارة بَتُول إلى أني دخلت أنا الآخر تدريجاً لُعبة الرَّصْد المُتبادل في محيط صُور الضَّيِّق. وقد وجدت صعوبة في تخيُّل الطريقة التي تُمضي بها بَتُول كل هذه الساعات الطويلة من

Twitter: @ketab_n

العُزْلة. ربما تكون هواية لا أعرف عنها شيئاً. قالت لي يوماً إنها تمارس طقوساً صغيرة قد لا أجدها ذات معنى، لكن ذلك لم يكن كافياً ليجعل حالتها مفهومة بالنسبة إلي.

كنت أصادفها في مَمَرّات الكلّية بين حين وآخر وتكون عندئذٍ مُتلفِّعة بالسَّواد جادّة مشغولة بأمر يخصُّها يصعب تخيُّله هو الآخر. حين تراني على البُعْد يشعّ وجهها داعياً ببشاشته إلى حِوار مهذّب مهما قَصُر. دعتني ذات يوم إلى تناوُل القهوة معها مرةً أخرى. حدث ذلك لأني كررتُ الشكر في أحد اللقاءات العابرة على القهوة التي قدّمتها لي وسألتها عن المكان الذي تحصل منه عليها، قالت إنه ببساطة أسواقُ كمجيز لكن بإمكاني التَّمَتُّع بفِنْجانٍ جديدٍ منها إن شِئْتُ. وقد اتفقنا على صباح يكون فيه كلانا متفرّغاً من العمل. حدّثتني في لقائنا ذاك عن حياتها في الأردن والمغرب وانطباعاتها عن الناس والمُدُن إلا أنّ النَّبْرةَ والكلام لم يخرجا عن رسمية اللقاءات بين زميلين من بلد واحد يحاولان قتلَ الوحشة بحوارات صغيرة لا ترمي إلى شيء بعينه. بدت حريصةً في ذلك اللقاء على عدم ذِكْر حوارات المسنجر كأننا لا نمتّ بصلةٍ إلى الشبحين الرقميين اللذين يتبادلان الأحاديثَ عبر الشبكة العنكبوتية. انتقلتْ بعد ذلك إلى الحديث عن حلمها بالهجرة إلى كندا، وعرفتُ لأوّل مَرّة أن حجابها الأسود لا يمثل خياراً بل أمراً مفروضاً لمجاملة المحيط وأنها تخلعه حين تقصدُ مَسْقَط لكي تتمكّن من الاستمتاع بالهواء الطلق وتترك حرارته تتخلّل شعرها. وكان ذلك اكتشافاً طريفاً بالنسبة إلي فقد ظننتُ طوال الوقت أن بَتُول شديدةُ الوَرَع تنطوي في زاويتها لتتجنبَ مصادرَ الغواية.

إذا كانت زيارتي السابقة لبَتُول قد انكشفت لساندرا وسَبَّبَتْ لي خلافاً معها، فإن الزيارةَ الثانية كانت مرصودةً من دكتور زكي الذي سارع في اليوم التالي إلى إلقاء التلميحات عن إعجابه بتضامُن العراقيين في الغُرْبة، وزاد على ذلك فسألني عن سبب انتقال ساندرا إلى مكتب جورج، مبدياً استغرابه خروجها من مكتبي: خصوصاً وأن صداقتي معها وثيقة وتمتدّ

Twitter: @ketab_n

خارج حُدُود الكُلية، في تَنْوِيه خطر لي أنه يعرف أمر زياراتها لي. حاولتُ أن أدّعي جهل ما تنطوي عليه تنويهاته فسأل متهكّماً إن كنت لا أزال مُصِرّاً على حياة العُزّاب الشاقة فقلت نعم. كان يحرص طوال مدة الحوار على نبرة مازحة متخفّفة كأنما تنويهاته لعبة تستهويه ولا يرجو منها شيئاً يتعدى مُتْعةَ اللعب. حين ودّعني هتف بدعاء درامي مازح بحياة طاغية بغداد، وقال إنه سيبقى خالداً في عِلّيين (وهي مفردة يهواها البعثيون في العراق). كان زكي قد حَلَق حينئذٍ لحيته التي أطلقها طوال أسابيع حداداً على تنفيذ حكم الإعدام بِوَثَنِه الكبير.

لكن ما زاد من دهشتي وجعلني أشعر أني أعيش في قفص زُجاجي شَفّاف لا تخفى فيه خافية أن بَتُول اتصلت بي بعد أيام من لقائنا بالتلفون وقالت إنّها منزعجة لأمر لم تكن تتوقّعه. واتضح أن مصدرَ الانزعاج كان الدكتور حاكم الذي منح نفسه كما يبدو حقّ الوصاية عليها بسبب معرفته السابقة بزوجها وما يدّعي من صداقة عائلية. قالت إنه زار مكتبها ليحذّرها من التقارب معي بعد ما لمحني خارجاً من عندها، وليشنّ هجوماً سافراً عليّ فيصفني بالمُتَمَلِّق للأجانب سعياً إلى الحصول على جنسية غربية، ثم ليحدّد نقطةَ الهجوم بعلاقتي مع ساندرا التي تكشف أني شخص فقد كل قيمه وارتمى في أحضان الخطيئة. كنت أسمعُ هذه التفاصيل بصدمة وغضب سُرْعان ما اقترنا بشعور ضاغط بالاختناق. سألتني بَتُول بعد صمت قصير:

- هل حقاً ما يقول عن علاقة بينك وبين ساندرا؟

أربكني السؤال بالرغم من قناعتي التامة بعدالة علاقتي بساندرا:

- هذا غير صحيح. إنها مجرد صداقة وهي زميلةُ عمل.

جاء صوت بَتُول رقيقاً مازحاً:

- هل أنت متأكد؟

كان غضبي يشتدّ لما أسمع فلم أتمكّن من قبول دعوة المزاح. قلت لها وقد عجبت لشدّة تأثري:

Twitter: @ketab_n

- هل الدكتور حاكم أفضل من يدافع عن القِيَم والأخلاق؟

قالت بهدوء:

- لا، أنا أعرف ذلك. لا تشغل بالك.

قلت ساخطاً:

- بدأ هذا المكان يُشعرني بالاختناق. ألا يوجد ما يشغل هؤلاء الدكاترة التافهين غير القِيل والقال؟ لمَ لا يهتمّون بكتابة بحث أو معالجة مشكلة؟

صمتت بَتُول كأنما لتعتذر، مِمّا هدّأ غضبي ونَبَّهني إلى نفسي. جاء صوتها ناعماً مهذباً:

- آسفة إن كنت قد سبّبتُ لك كل هذا الإزعاج، لكني أردت أن تَعْلَم.

- شكراً لك. أنا أقدّر هذا.

ازداد صوتها نعومةً وهي تقول:

- وأردت أيضاً معرفة قصة ساندرا معك.

سألتُ في محاولة للمزاح غلب عليها انزعاجي:

- هل أنتِ معهم؟

ضحكت بهدوء حَسَدْتُها عليه:

- أبداً. أنا أمزح.

حين انتهى الاتصال، وكان أول اتصال تلفوني بيني وبين بَتُول التي ظلت حريصةً على عدم استخدام التلفون بيننا حتى ذلك الحين، شعرت بمزيج غريب من الغضب المستطير من حاكم والفضول لاستقصاء معاني هذه المكالمة الغريبة من بَتُول. وأيقنتُ أني فقدتُ الشعورَ بالأمان وأن كل ما أفعل مَرْصُود رصداً دقيقاً فكنت كالنائم وسط حلقة من الكاميرات الخفية.

Twitter: @ketab_n

42

كان منتصفُ أيار موعدَ المأساة التي هزّتنا جميعاً. ومنذ ذلك الحين حدث تَسارُعٌ غريب لم يَكُن متوقّعاً ولم أكُن قد عهدته في صُور، كأنّ الصيفَ وهو يتصاعد في حرّه ورطوبته ونُفُوره من الزوايا المُحَصَّنة بالتكييف إلى طلاقة الانكشاف والحركة قد قَرَّر أن يفضح كل شيء. بدأ ذلك الخميس بزيارة من ساندرا. وصلتْ متأخرةً حوالى منتصف النهار وقالت إنها جاءت مباشرةً من مسبح فندق صُور بلازا بعد سباحة صباحية غسلت عنها تعبَ الأسبوع وقد تخلل الماءُ كلَّ مساماتها وبَثَّ فيها رغبةً جامحةً في الوصل وأعدّها للقاء. لم تكن تلك أول مَرّة تفعل بها ذلك، وبالرغم من أن بعض المراهقين سَبَّبوا لها بعض الإزعاج بين حين وآخر، فقد أصرّت على ذلك التمهيد للقاء ووصفتهم بِأَقْران ولدها المُراهق بيلي، بل وبدت سعيدةً لأن جسدها قد احتفظ بما يكفي من الرشاقة والحيوية لاجتذابهم. علقتُ بسخرية بدأتُ أتعلّمها منها أن توقيتَ وصولها مضبوط ولو كانت تأخرت نصف ساعة أُخرى لوجدتْ الغداء جاهزاً. وبدلاً من الانزعاج منحتني قبلةً وشَمَّرت عن ساعديها مُبْدية الاستعداد لأية مساعدة في المطبخ.

أمضينا وجبةَ الغداء في حديث مُتَّصل من ساندرا كان جُلّه يتناول أخبار الأساتذة وطرائفهم، وساندرا مصدر غزير لتلك الأخبار. زاد حديثها أخيراً عن جورج وقالت إن انتقالها إلى مكتبه كشف لها زيفَ انطباعها الأول الذي تكوّن بإيحاء منه. لم تَكُن مُشكلة جورج صعوبة العثور على مرشّحة للزواج بل صعوبة المواصفات التي وضعها لعروسه. فهو يريدها صغيرةً لا تتجاوز الثالثةَ والعشرين، وكلما كانت أصغر زادت حظوظها،

Twitter: @ketab_n

كما أنه يسعى إلى الزواج من لبنانية مسيحية لم تَعِشْ في الغرب ولم تفقد إيمانها المسيحي. ثم تغمز ساندرا وتضيف أن من الشّروط أن تكون ثرية أيضاً من عائلة ترفع من شأن جورج وتوفّر عليه المتاعب التي تأتي مع عروس متوسِّطة الحال. سألت إن كان أملها في كسبه زوجاً لابنتها قد تبخَّر فضحكت منتشيةً بفخر وقالت إن الفتى عدّ تلميحاتها دعوةً لعلاقة معها هي مما اضْطُرَّها إلى السكوت، ثم ختمت حديثها عنه بهتاف ضاحك: الفتى ليس سهلاً كما يبدو للناس! ثم انعطف الحديث عن نوبة الغضب المتصاعدة التي استحوذت على ماثيو مؤخَّراً ومُعاناة زوجته جين معه. قالت بنبرة من يكشف سِرّاً إن جين تخشى ماثيو في الواقع وتعتقد اعتقاداً جازماً أنه قد يُقدم على قتلها إن هي هجرته. سألتُها إن كان ماثيو يعاني مرضاً نفسياً فقالت إن له سوابق كشفت عن نوازع عنيفة لديه، وكان آخر ما بدر منه وأقلق جين تَهَجُّمه على عميد الكلّية نفسه حين استدعاه الأخير إلى مكتبه قبل أيام لينبهه إلى ضرورة توخّي اللياقة وضبط النفس في تعامله مع الطلبة. قالت إنها تفسّر غلَيانه بشعور متزايد بالإحباط من ضيق الحياة التي يعيشها وإدراكه أن حاجته إلى مَوْرِد الرزق تُبقيه سجيناً في المكان. ثم أردفت وهي تلتقطُ زيتونةً سوداء من صحن السلطة: إنه يتداعى وأقصى ما تتمناه جين أن يبقى محافظاً على قدر مَقْبُول من التماسُك حتى نهاية العام الدراسي.

تواصلتْ تلك الأحاديثُ الصغيرة وغَيْرُها عن حياة القسم اليومية طوال النهار وكانت تتخللها هَبّات في الجسد يفتح الصمت فيها مملكة اللذة الخالصة. تعشق ساندرا القُبلة، وقد تلتقي الشفاه لنصف ساعة دون أن تبدي رغبةً في الانسحاب، كما أنها مُولعة بالتجريب الذي بدأ في لقاءاتنا الأولى مَحْمُوماً ومُلِحّاً ثم صار يتراجعُ وقد أدركتْ جغرافية جسدينا ونوع الحرائق التي يرتفعُ لهيبها أعلى من سواها. بالنسبة إليّ تأكَّد الفصل الغريب بين حاجة الجسد إلى التلامُس الحَيّ وحاجة الروح إلى مِثال مفقود، وهو ما أسلمني إلى ازدواجية لا تخلو من اللؤم إذ بينما أنا أقطفُ ثِمار تلك

Twitter: @ketab_n

الساعات الساخنة مع ساندرا كانت تترك فيّ عندما تغيب عن الشِّقّة إحساساً جاثماً بالخَواء والسُّخْط من شيء لم أحدّده. أما هي فكان اللقاء يُسَلِّمها إلى راحة شاملة ونوم عميق كما أخبرتني مراراً بامتنان. حاولتُ جاهداً فهم مشاعر الخَواء التي تلازمني بعد مغادرة ساندرا يصاحبها تَخفُّف أشبه بالانعتاق، وخطر لي يوماً أن ساندرا على خلاف من عرفتُ من نساء الشرق كانت وهي تمارس طُقُوسَها الباخوسية معي منشغلة بجسدها أولاً وبحاجاتها. لم يحدث لي من قبل أن أحسستُ أن المرأة يمكن أن تستخدم جسدَ الرجل لا العكس. تعلّمتُ مع نساء الشرق أن الرجل يأخذ والمرأة تمنح، أما ساندرا فأمر مختلف تماماً؛ إنها تأخذ على الدوام وتمنح بالمصادفة.

توّجنا اليوم بمشاهدة فيلم لعمر الشريف جاءت به معها هو "ماتيرلنك" حيث يظهر فيه بدور وليّ عَهْد أسلم نفسه للملذّات تنتهي به الحال إلى الانتحار لفشله في السيطرة على غواياته، وقد دفعني ذلك إلى مُنْزَلق الفَخّ العراقي فبدأت أقارن بينه وبين ابن طاغية العراق الذي اغتصب الكثير من الفتيات وبلغ حدّ قتل أحد الحَرَس المقرّبين من أبيه، مما اضطرّ الأخير إلى تقديمه للمُحاكمة. ثم حدّثتها عن الشاعر العراقي الذي كرّس موهبته الشعرية لمديح الطاغية وتخصَّص في ذلك الغرض حتى أهدر كرامتها، وقد نظم قصيدةً يرجو فيها الطاغية أن يعفو عن ابنه المستهتر. تابعتني ساندرا بفضول، وقد أثارها تدخُّل هذا الشاعر في مسألة كتلك فتساءلت "ما علاقة الشعر بهذه الأمور القانونية؟" فانطلقت أشرحُ لها هامشية القضاء وتبعيَّته للمُستَبِدّ بمرارة دفعتها إلى الاعتذار عن طرح السؤال لأنه نكّد الحوار وأسكتتني بقبلةٍ طويلةٍ بثّت في جسدي توثّب القِطّ فسقطنا نائمين لا يعلم لنا الناسُ مَصْرَعاً.

كان نومنا حوالى الواحدة ليلاً. نِمْتُ بعُمْق وقد نَزَعتُ عني شبكة التعب التي قيَّدتني طوال الأسبوع وأثقلْت حركتي كمن يرزحُ في أصفاد. احتضنتُ جسدَ ساندرا التي أولتني ظهرها وتَكَوَّرت مُقَوّسة في تقوُّس

Twitter: @ketab_n

جسدي مطمئناً راضياً حولها. ولابد أن التلفون قد رَنّ مطولاً قبل أن أنتبه وأردّ عليه، لأن المُتَّصل، وكان جفري ويفر، أطنب في الاعتذار لإزعاجي في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل. لم أفهم مباشرةً ما كان يقول. كانت ساندرا قد استيقظت هي الأُخرى وظلت تتطلعُ نحوي بعينين أرهقهما الحب ولم يستكمل النوم مشواره في إعادة الصفاء المعهود إليهما. سألتُ وأنا أحاول استعادة يقظتي كاملة عما حدث، فقال جفري بهدوء غريب:

- حادثٌ مروّع. لقد سقطت أريكا عن سطح البناية إلى الأرض وأعتقد أنها فارقت الحياة.

رغم قصر عباراته وجدت صعوبةً في استيعاب ما يقول. سألت وقد قَطَعتِ الدهشةُ أنفاسي:

- هل قُلْتَ فارقت الحياة؟

ظل صوت جفري يحتفظ بنبرته الهادئة:

- أعتقد ذلك. المهم أن هنالك فوضى هنا، وصلت سيارة الإسعاف ونقلتها إلى المستشفى، ثم جاء رجالُ الشرطة الآن ولكن لا يوجد من يجيد الإنكليزية بينهم. حاولنا الاتصال بالدكتور الطاهر لكنه لا يَرُدّ. أعتذر مرةً أخرى عن إزعاجك في هذه الساعة لكننا بحاجة إلى من يترجم لنا لنتفاهم مع الشرطة.

قلت دون تردُّد:

- سأحضر حالاً.

ما إن تركتُ التلفون جانباً حتى أمطرتني ساندرا بوابل من الأسئلة عَمَّا حدث. ولم يكن لديّ الكثير لأقوله، لكني قدّرت أن بقاء ساندرا في الشِّقّة أثناء غيابي أمر لازم وحقيقة أنها لا تمتلك تلفوناً سيقطع اتصالي بها ما إن أغادر الشِّقّة. سارت معي حتى الباب وقد ارتسم رُعْبٌ حقيقي على ملامحها دفعني إلى تقبيلها قبل أن أغادر. كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً.

Twitter: @ketab_n

لم أكن قد غادرت الشِّقّةَ في مثل هذا الوقت من قبل. وقد عجبت أنّ تكاثف الليل واقتراب الصباح لم يبعثا في الجَوّ برودةً من أي نوع. ظَلَّ الجَوُّ خانقاً بفعل الرطوبة وسكون الهواء. حين صرت داخل السيارة شغّلت التكييف لأصحو جيداً واستعدتُ ما قال جفري غير مُصَدِّق. صورةُ أريكا في مخيَّلتي بعيدة كل البعد عن فكرة المَوْت والفناء، بل بقيت أجد صعوبة في تخيّلها قريبة من رالف عاشقة له، تتطوَّح معه في قبضة السُّكْر والصَّخَب، فهي بالنسبة إلي أقرب إلى لوحة رسمها أحد فناني عصر النهضة أو أبدع تفاصيل ملامحها رسامو البورتريه الهولنديون. ظلَّ خيالي يستحضرها محاطةً بِسَكِينَةٍ غريبة. أتذكَّر أني عجبت أشدّ العجب وأنا أسمع ذات مرة ضحكتها العالية الصاخبة تتعالى في أثناء حديث عابر مع رالف في أحد المَمَرّات. لم تكن رَنّة ضُحكتها العالية تتناسُب مع صورتها المثالية في مُخيَّلتي، لكنها سذاجة أصبتُ بها من دراسة الشعر وقراءته طويلاً. أما ساندرا فكانت تمتدح سَذاجتي هذه وتعدّها ابتعاد الجنتلمان عن البذاءة والإسفاف.

كانت بناية أساتذة فكتوريا تقع قرب دوّار المحارة الذي لا يبعد إلا دقيقتين بالسيارة عن ميدان الشرية حيث أسكن. وصلت إلى البناية قبل أن يتمكّن التبريد في السيارة من إعلان كفاءته فوجدت أمامها الكثير من الدشداشات العُمانية البيض وصفوفاً من سيارات الأساتذة. تذكَّرت حكايات ساندرا المُطَوَّلة عن الخلافات المستمرّة بين الأساتذة الذين يسكنون البناية حول أحقية الوقوف في هذه المواقف التي كانت تصل إلى حَدّ الزعيق والقطيعة. لم أَرَ وجهاً أعرفه حتى بلغتُ بابَ البناية. كان يقف قربها شرطي بالزِّيّ العسكري سألتُه عن الأساتذة فقال إن معظمهم اتجهوا إلى المُسْتَشفى. عدتُ أدراجي إلى سيارتي واتجهت إلى المستشفى. كنت أسعى جاهداً إلى الاقتراب من أريكا نفسها لأصدّق ما سمعت، لأن ما يحدث كان أقرب إلى كابوس ثقيل لم أصحُ منه تماماً.

حَدَسْتُ أنَّ المقصودَ بالمستشفى العيادة الخاصّة التي يتردّد إليها

Twitter: @ketab_n

الأساتذة المتعاقدون مع فكتوريا لا المستشفى الحكومي الذي يقع مقابل البناية التي أقيم فيها. كان الظلام والسكون يَلُفّان المبنى الحكومي ولم يَبْدُ أنَّ حدثاً استثنائياً قد وقع فيه تلك الليلة. عند العيادة الخاصة التي بدت ساكنة هي الأُخرى انعطفتُ بسيارتي إلى مواقف السيارات الخالية تقريباً وقطعتُ الأمتار القليلة إلى الاستعلامات على عَجَل. لم أفهم ما كان يساورني من شعور بضرورة أن أقدّم كل ما أستطيع من مساعدة كأنما الحادث يخصّني. كان أول من صادفت في الداخل زكي خليل يقف في المَمَرّ مع إبراهيم الساسي. قالا إنهما وَصَلا قبل دقائق وإنَّ الجُثة في الداخل إذ تأكَّد وقوع الوَفاة. ولم أفهم منهما الكثير من التفاصيل. كان يلفّهما حِياد واضح ويغلب عليهما شُعُور الفضول أكثر من التضامُن، بل عجبتُ حين علّق إبراهيم الساسي متهكّماً إنَّ عَرْبَدَة منتصف الليل هي القاتل. سألتهما عن الدكتور الطاهر فقال إبراهيم وهو المقرّب منه إنه لا يردّ على التلفون في المساء عادة، ثم أردف بفتور "وما الحاجة إليه وقد قُضِي الأمر؟". لزم زكي الصمت، ربما لأن عدد المتحدّثين زاد واحداً عن اثنين، وخطر لي أنه سيُطْنِب في التعبير عن انطباعاته في أول لقاء مُنْفَرِد قادم. لم يكن إبراهيم الساسي مَيّالاً إلى الصمت، سارع إلى التعليق بأننا نرسل الانتحاريين إلى الغرب ونستقبل نوعاً غريباً من الانتحاريين بالمقابل. وقد وجدت في قوله ذاك قسوةً ربما كان سببها توقيته لا فَحْواه.

كنا لا نزال نقف في الممرّ عندما خرج ممرّض آسيوي يدفع سريراً متحركاً مغطى بشرشف أبيض. تحول ذهولي إلى ألم وشعور حادّ بالخسارة. تحت البُرْقع الأبيض جسد أريكا الذي أرخى قبضته المتشبثة بالحياة وبما تعنيه وأَسْلَمَ نفسه للجُمُود واللامُبالاة. خرج في أعقابها جفري وجورج، وقد حَيّاني جفري واتّسعت عيناه خلف دَغَل حاجبيه الكثيف ترحيباً بوصولي الذي بدا أنه يُوفّر له دعماً كان بحاجة إليه. أما جورج فقد غلب عليه الذهول والتشتُّت ولا بدّ أن الخَمْرةَ التي احتساها في تلك الليلة قد ساهمت في زيادة ذُهُوله. اندفعنا نحيط بالسرير الساعي إلى بوابة العيادة

Twitter: @ketab_n

الخلفية وقال لي جورج بوجه مُكْفَهِرّ إنهم سينقلون الجثة إلى المستشفى الحكومي الجديد حيث يتمّ توثيقُ الوفاة واتخاذ الإجراءات. لاحظتُ وجود شاب عُماني طويل في دشداشة بُنّيّة وكان حاسِرَ الرأس، وهو أمر نادر جداً بين العُمانيين. وكان مُنْهَمِكاً في دفع السرير المُتَحرِّك تشغله رغبته في تقديم يد العَوْن عن كل ما حوله. وجد الممرّض الآسيوي صعوبةً في عبور عَتَبة العيادة بالسرير فتحرَّكنا أنا وجورج وجفري للمساعدة على رفع العَجَلات عن النُّتوء فيها بينما تخلّف زكي وإبراهيم على الجانب الآخر دون أن يحاولا المُساعدة أو التعليق. أبدى الشاب العُماني حماسةً في رفع السرير معنا إلى سيارة إسعاف كانت تقف قُرْبَ الباب. ثم ظهر طبيب مصري خلفنا التحق بنا وأشرف على وضع الجثة في مكانها. سألتُه واجماً:

- متى حدثت الوفاة؟

التفت نحوي يستطلعُ من أكون، فقلت إني مُنَسِّق في القسم وأمثّل رئيسه. قال باهتمام وحِرْص على نَبْرة مهنيّة مُقْنعة:

- منذ أكثر من ساعة. لا بد أنها فارقت الحياة بعد دقائق من سُقُوطها. هنالك كَسْر في فِقْرات العُنُق وعِظام الكَتِف.

ابتعدت سيارةُ الإسعاف وغادرتنا أريكا إلى حيث لا رجوع. أدركنا جميعاً أنّ ما تبقّى لن يمثّل شيئاً كبيراً. ما تبقّى كلام ومحاولات شَتَّى للتعبير عن الأسف وتأمين الانسحاب إلى وَكْر الرتابة اليومية دون إحراج. وهذا ما سارع إلى فعله زكي وإبراهيم إذ انسحبا مباشرةً بعد ذلك، وسمعتُ زكي يقول لي بهدوء: "تُصْبح على خَيْر" بِنَبْرة من انتهى تَوّاً من تنظيف أسنانه قبل النوم.

Twitter: @ketab_n

43

تساءلتُ وأنا أقفُ مع جورج وجفري في الساحة الصغيرة خلف العيادة عن السبب الذي يدعوني إلى البقاء ومُواساة الموجودين والوقوف إلى جانبهم؟ ما نوع انتمائي إليهم؟ بل كيف تحقَّق إدراكي على حين غِرّة أن الصدّ الذي لقيتني به أريكا وتشهيرها بي كانا أمراً مفهوماً ومشروعاً تماماً وأني كنت على خطأ كامل. لم أستهجن عربدةَ الشلّة المُغتربة على السطح. كانوا يحاولون مواصلة البقاء في مدينة غريبة عنهم وعمّا تعوّدوا من تشبُّث بمتعة اللحظات العابرة السعيدة، مدينة أدمنت مُتعاً من طراز مختلف يقصدها الناس: الجوامع ودِيوانِيّات الضِّيافة والمقاهي التي تعرض مباريات كرة القدم على شاشات عملاقة كلّ ليلة وتملأ المكان بضجيج يجعل سَماع المُحاوِر صَعْباً. إنها مُتع مستمدّة من رتابة وجود مطمئن آمن. أما شلّة الأنس المغتربة المنكوبة هذه فلا ترضى بأقل من مُتعة تخترق الجسد كلَّه حتى أطراف الأصابع وتهزّه هزّاً عنيفاً يصل به إلى حافة الجنون، وهي إن لم تحقّق هذا لا تكون مُتعة. لكني لم أجد مكاني بين النَّمَطين. مَيْلي إلى الكُتُب والأفكار يقرّبني على نحو ما من عزوف أهل صُور في حياتهم العامة عن قَدح الجسد وانتظار المَسَرّة التي تنبثق من عُروقه وهي تَلْتَهِب، أما محاولاتي المتكرّرة اقتراف المُغامرة بديلاً وَخَوَري أمام استغاثة جسدي فتميل بي نحو شِلّة أريكا. المشكلة أني في الحالين لا أحقّق مُتعةً حقيقيةً تترك خلفها أثراً يُذكر. كتبي وقراءاتي التي تواصلت عُقُوداً طويلة لم تتكلَّل بإنتاج إيجابي مُبْدع أو بقدرة على كتابة أستجمع بها شَتات نفسي. وها قد صِرْتُ أقرأ من أجل القراءة بعد أن تأكد لي عُقْمها. حتى ساندرا التي استجبتُ لندائها في لحظة حُمّى واضطرار ومضيتُ معها إلى آخر شوط

Twitter: @ketab_n

الغواية بدأت تَضْمَحِلّ وتفقد قدرتها على بثّ الرعشة المُشتهاة في جسدي. وها هي ذي أريكا التي كانت حلماً عابراً في الأنثى الكاملة تدخل مملكةَ السُّكُون والنأي فكأنها لم تكُن.

قال لي جورج إنه سيعودُ إلى البناية بسيارة رالف التي كان يقودها روجر هوبكنز لأن رالف في حالة لا تسمح له بالسياقة، وحين سألته عن الآخرين قال إنهم عادوا عندما تأكَّدَتُ الوفاة وإنهم في حالة يُرْثَى لها. ظلّ جورج يرفض فكرة اقتناء سيارة في عُمان لحاجته الماسة إلى التوفير، أما جفري فكان قد كشف لي بشيء من الحَرَج أنه لم يتعلّم السياقة في حياته وأن فكرة أن يقود سيارة تصيبه بفزع ونُفُور غريبين. عاد جفري معي بينما سَبَقَنا جورج بسيارة رالف الفارِهة الحمراء من نوع سوبارو التي ظلّ رالف يفتخرُ باقتنائها من الشركة مُباشرةً ويحرص على تكليف محمود البنغلاديشي في الكلّية غسلها كل يوم تقريباً. قال جفري بأسف إن المَقْعَد الخلفي لسيارة رالف قد تلطّخ بدم غزير نزفته أريكا عند نقلها إلى العيادة، وكان حزيناً لم يَصْحُ من الصدمة بالرغم من أنه لم يكن مع الشّلّة على السطح وحافظ على صَحْوه وقطيعته التامّة للخمر.

لم تتسع المسافة بين العيادة ودوّار المَحارة لحديث طويل مع جفري. وصلنا بعد دقيقتين وكان الزّحام في الخارج قد خَفّ قليلاً. قرب المدخل بقي الشرطي واقفاً، وقد استوقفني حين اقتربت من الباب وحياني بِمَوَدّة قائلاً:

- أرجو أن تبلّغ الأساتذة في الداخل أن المُحَقِّق سيصل بعد قليل لإجراء اللازم. نريد من كل المعنيين البقاء في شِقَقِهم لأننا سنحتاج إليهم في التحقيق.

كان واضحاً أنه وجد صعوبةً في إيصال هذه الرسالة إليهم. أكدت له أني سأنقل رسالته بوضوح، ودلفنا إلى البناية فقابلنا مَصْعَدٌ إلى جواره سُلَّم ضَيِّق. على اليمين بقي باب الشّقّة الأرضية مفتوحاً وأصوات حديث تتناهى

Twitter: @ketab_n

من داخلها. قال جفري إنها شِقّة أريك جونسون، وحدست أنه اختارها في الطابق الأرضي لبدانته. كانت الصالة خاليةً بينما تَجَمَّع الأساتذة في غُرفة النوم مُتَوَزِّعين على كراسٍ مُتَفرِّقة وعلى السرير. في زاوية بعيدة إلى اليمين جلست ستورمي ولم أكد أتعرَّف إليها لشدّة اضطرابها وعمق ما تركت الصدمة على ملامحها من تأثُّر وذُهُول. رفعت رأسها وتطلَّعت إلى الباب حين دخلنا ثم أطرقت من جديد. كان جورج الذي سبقنا إلى المكان يجلس إلى جوارها، وقد لاحَ على وجهه نوع من الارتياح حين رآني، ربما لأني أعفيته من كشف قصور معرفته بالعربية على المَلأ. على السرير إلى الجانب الأيسر من الغُرفة تمدّد رالف بجسده الرشيق على عرض السرير مُستنداً بظهره إلى الحائط وقد أغمض عينيه. لم يَدْفَعْهُ وصولنا إلى فتحهما وقدّرت أن سُكْره بلغ من الشدّة أنه لم يكن قادراً على التواصل مع مُحيطه. رأيتُ أيضاً روجر هوبكنز ولانك وقد اجتمعا على أريكة ثُنائية مما يُدعى بالإنكليزية "مَقْعَد الحب"، وكان كلاهما صاحياً أتمّ الصَّحْو وقد ردّا التحية بتهذيب وهُدُوء. قرب الباب تكوّم جسد أريك الضخم البدين على كرسي بلاستيكي أبيض، وقد التفت نحوي حين دخلت وردّ التحية بيقظة تامّة. لم أرَ أثراً لابتسامته المتهكّمة. همّ بالقيام ليأتي لي بكرسي إضافي فقلت إني سآتي به بنفسي، وكنت قد لمحتُ كُرْسِيّاً بلاستيكياً آخر في الصالة. جئتُ به وجلست عليه قرب الزاوية المقابلة للسرير بينما استوى جفري قُرْبَ رالف على السرير يقظاً حريصاً على متابعة ما يجري.

بادرتُ إلى القول فور جلوسي إنّ المحقّقين سيصلون بعد قليل وإن الشّرطي على المدخل يطلب من كل المعنيين البقاء للإجابة عن أسئلة التحقيق. ثم طلبتُ أن يوضح لي أحد ما حدث لأتمكّن من إيصاله إلى المحقّق دون إبطاء. بادر أريك إلى الحديث وكان الانفعال يبثّ فيه حيويةً لم أعهدها من قبل. قال إنه كان معهم فوق السطح وانسحب إلى شِقَّته هذه قبل أكثر من نصف ساعة من الحادث. وكان في المطبخ يقصد الثلّاجة ليشرب ماءً عندما سمع صوت ارتطام جسم ثقيل على الأرض تحت نافذة

Twitter: @ketab_n

المطبخ. سألت إن كانت النافذة تطل على قاع بئر السُلَّم فدعاني لإلقاء نظرة. سمعت بُكاء ستورمي الخافت يتصاعد، ثم قامت وغادرت الغرفة دون أن تقول شيئاً، فلحق بها جفري لمُواساتها وعلَّق أريك أنها أكثرهم تأثراً لأنها انطلقت إلى شُبّاك المَطْبخ وعبرته إلى الجُثة محاولةً منح أريكا قبلةَ الحياة دون جدوى.

كان مطبخ أريك صغيراً يفتقد النظافة والترتيب. أشار إلى شُبّاك ذي دَرْفتين يُطلّ على بئر السُلّم. فتح الشُبّاك وأشار إلى البقعة التي سقط عليها جسد أريكا. قال بتأثُّر لم يمنعه من التدقيق في الوصف إنه سمعها تقول شيئاً لم يتبيَّنْه وإنها فتحت عينيها ونظرت إليه للحظات ثم أسلمت الروح. وبينما هو يحاول الوصول إليها اندفعت ستورمي إلى المطبخ وقفزت عبر الشُبّاك إلى الجثة وحاولت معها كل ما تملك من معارف في الإسعافات الأولية دون جدوى. قال جورج إنهم حاولوا الاتصال بالمستشفى لإرسال سيارة إسعاف فلم يستجب لهم أحدٌ ومَرَّ وقت طويل من الانتظار. بعد أن فقدوا الأمل في وصول نجدة طبية استقرَّ الرأي على نقلها بسيارة خاصة إلى العيادة، وقد حرصوا على ألّا يتقوّس جسدها أثناء النقل إلى السيارة لئلا تكون به كُسُور في الفقرات، فأتى أريك بِمَسْنَد كَيِّ الملابس وتَمَّ تمديد الجُثّة عليه وهي تنزف. حين اتصل جورج بالطوارئ وصلت الشّرطة خلال خمس دقائق ولكن الحاجة كانت ماسّة إلى إسعاف طِبِّي. مَدَدْتُ رأسي من شُبَّاك المطبخ وتطلَّعتُ إلى أعلى فامتدّ أمامي عمود طويل من الظلام تقطعه أضواء خافتة تفيض من بعض الشبابيك المُطِلّة على بئر السُلّم.

تركنا المطبخَ الذي تفاقمت فيه حرارةٌ خانقة، وسألت ونحن نقف في الصالة عن الكيفية التي وقع بها الحادث، فاصطحبني جورج وأريك بالمصعد إلى الطابق الخامس حيث شِقّة رالف. أما رالف فقد ظل خلال ذلك كله منطرحاً على السرير متكئاً على الحائط كما وجدته حين دخلت، بينما اقتعدت ستورمي الرصيف في مدخل البناية غير آبهة لمحاولات جفري لمواساتها.

Twitter: @ketab_n

كانت شِقّةُ رالف مُشَرَّعة الباب، قطعنا داخلها ممرّاً صغيراً تقع على يمينه غرفتان صغيرتان. الأولى غُرفة نوم تبعثرت محتوياتها، لمحتُ فيها على طاولة صغيرة قرب السرير كتاباً ذا غلاف ورقيّ بدا أنه من الروايات البوليسية الرائجة. قال جورج وهو يقودني إلى نهاية الممرّ إن في تصميم هذه البناية أمراً غريباً، إذ لا يمكن الوصول إلى سطح البناية إلا بالدخول إلى شِقّة رالف. والسبب أن صاحبَ البناية قرر لزيادة أرباحه أن يضيف شِقّة إلى السطح أدّى بِناؤها إلى عَزْل السَّطْح عن بقية البناية وتعذّر الوصول إليه دون المرور بشقة رالف. وقفنا في نهاية الممرّ نتأمل الشكل الغريب الذي يربط نهاية الممرّ بباب السطح إذ امتدّ بينهما لوح خشبي متين يطفو فوق بئر السُّلَّم دون أن يكون له درابزين يحمي من يقطعه لبلوغ السطح. قال جورج:

- كُنّا على السطح، وأنا لا أفضّل أن نعبر إليه الآن (كانت في عينيه نظرة قلق أقرب إلى الخوف وهو يصف المكان)، وحدث ما توقّعناه، أسرف رالف في الشرب وكذلك أريكا.

سألت للتدقيق:

- من كان معكم؟

- كان الموجودون رالف، وأريكا، وستورمي، وأريك، وروجر وأنا. وقد غادر روجر قبل أكثر من ساعة من الحادث لأنه انزعج من بعض العبارات التي كانت تصدر عن رالف وأريكا وانتقدهما وظل يردّد أن هذا لا يليق، ثم غادر أريك بعد نصف ساعة. ولم أجد ما يدفعني إلى البقاء. بدأ رالف يفقدُ السيطرة على نفسه وحاول أن يجردَ أريكا من بعض ملابسها ثم اتجه إلى زاوية من السطح وتبوّل أمامنا. نهضتُ وقلت لهم إن علينا العودة إلى شِقَقِنا فنزلتُ أولاً ثم تبعتني ستورمي ولحق بها رالف لأني سمعت أريكا تقول له إنها لن تسبقه لأنها لا تأمن ما يمكن أن يصدر عنه من حماقة إذا سار خلفها. لكني ما إن غادرت الشقّة حتى سمعت صيحةً عاليةً من أريكا وكان رالف وقربه ستورمي يقفان في الممرّ يتطلعان أسفل بئر السلم بذهول.

Twitter: @ketab_n

- ما الذي حدث بالضبط؟

- لا أدري. لم أرَ ما حدث لأني كنت قد غادرت الشُّقّة، ولكن يبدو أن أريكا قد فقدت توازنها وهي في حالة السّكر الشديد الذي كانت عليه فمالت إلى اليسار وهَوَتْ في بئر السُّلَّم.

دَنَوْتُ من حافة الممرّ وألقيتُ نظرة إلى أسفل، كان الظلام يمتدّ إلى باطن البناية لكنّ قاع البئر ظاهر بفعل الضوء الساقط عليه من شُبَاك مطبخ أريك في الطابق الأرضي. قال أريك كأنما يقيس المسافة لنفسه: "إنه عُمْق خمسة طوابق!"

قبل أن نغادر الشِّقّة وصل المُحققّون فاصطحبهم جفري إلى الطابق الخامس. كانوا ثلاثة عُمانيين يرتدون الدشداشةَ والكمّة. وبالرغم من أن المحقّق الذي تقدّمهم كان أصغرهم سناً فقد خاطبه الآخران بهيبة واحتفاء بدا معهما أن وجوده في المكان أكثر أهمّية بالنسبة إليهما من الحادث الذي وقع فيه. أمّا هو فقد تصرَّف بتواضُع وبساطة وبدا أنّه قد حَقَّق لنفسه هَيْبة لا يحتاج معها إلى إظهار أي نوع من الغَطْرسة والتعالي. تناهت إلى سمعي عندما اقتربوا تعليقات أحدهم عن طرافة دعوته في هذا الوقت المُتأخِّر من الليل، وردّ الآخر بأن أُم راشد لا بد ستفتقده. كانوا في مِزاج متخفِّف كمن يخرج إلى مغامرة شَيِّقة، وبدا محقّقهم الشاب (وكان الآخران يخاطبانه بلقب شيخ!) راضياً تماماً عن نفسه وهو يقف في مركز الاهتمام من هذه اللوحة المضطربة. دخلوا الشِّقّة وقدّمتُ نفسي لهم وعرضتُ عليهم ما عرفتُ من معلومات. التَفَتَ المحقّق (الشيخ) إلى أحد مرافقيه وكان يحمل كاميرا فطلب منه أن يصوّر المكان واللوح الخشبي المُمْتدّ بين الممرّ وباب السطح تحديداً. غمغم شيئاً عن جشع المالكين لأن إضافة درابزين إلى الممرّ لم يكن ليكلّف شيئاً يُذكر بالمقارنة بحياة إنسان، لكنه لم يُبْدِ رغبة في الانتقال إلى السطح وعبور ذلك الممرّ المهلك.

طلب مني المحقّق الشاب (الشيخ) أن أبلّغ الأساتذة الذين شهدوا

Twitter: @ketab_n

الحادث وشاركوا في السهرة ضرورة التوجّه إلى مركز الشرطة على شاطئ البحر لاستكمال التحقيق ثم غادر مع مرافقيه. كنت أتوقّع أن يتولى هو التحقيق في المركز لكني وجدت هناك شاباً آخر يرتدي الدشداشة وتبدو في عينيه آثارُ النوم التي أضفت على نظرته وسيمائه تعبيراً أقرب إلى الدَّهْشة. جلس الأساتذة الخمسة الذين حضروا السهرة مع أريكا في غرفة صغيرة صامتين يتجنّبون تبادُل النظرات. دخلتُ مكتبَ المحقّق وكان يتحدث إلى زميل له تَوَلَّى تسجيل الإفادات على ورقة وضع تحتها قطعة كاربون لتَنْسَخَ ما يُكتب على ورقة تحتها. كان المكتب ضَيِّقاً يحتوي ثلاث طاولات وكُرْسِيَّين في الوسط جلستُ على أحدهما بينما ظلّ الثاني مخصّصاً لمن سيُحقَّق معه. استقرَّت على مكتب المحقِّق الشاب نسخة مذهّبة من القرآن الكريم. كان شديد السُّمْرة يكاد يكون إفريقياً، ظلّت تلازمه طوال ساعات التحقيق حماسة لإتمام المهمة على نحو مِهني مقبول دون تعجُّل. لم أجد في سلوكه ما يوحي أنه يخفي أي شكّ في تفسير ما حدث، فالأمر بالنسبة إليه لا يتعدَّى أن أريكا كانت مخمورةً ففقدت توازنها فسقطت، كما أن ما حدث بدا أمراً بديهياً مع اقتران احتساء الخمر بوجود سُلّم غريب لا يحجزه درابزين يمرّ فوق هُوّة تَغُوُر في أعماق البناية إلى أكثر من عشرين متراً. كان سبب تأنيِّه في الإجراءات غرابة الحدث وطبيعته الدولية.

دخل أريك في البداية وكان يتطلّع حوله بقلق وَتَوَجُّس لوجوده في مكان كهذا لأول مرة. خطر لي أن حادثة اكتشاف شهادته المزورة قبل أيام لا بد أن تكون قد زادت من صعوبة توجّهه إلى مكتب الحساب والتحقيق هذا. قدّم هُوِيَّته الشخصية فنقل الكاتب اسمه وجنسيته ورقم الهوية إلى المَحْضَر وسأله أن يسرد بالتفصيل ما حدث. وقد كَرَّر أريك ما قاله لي عن مغادرته المكان قبل الحادث، ثم سُقُوط أريكا قرب شباك مطبخه. طلب منه المحقّق أن يوضح مصدر حصوله على الخمر فقال إن رالف هو من وفّر الشراب، فكتب المحقّق أن أريك اشتراه بإجازته. حين انتهى التحقيق طلب مني أريك أن أترجم له ما دوّن الكاتب فقرأت عليه محتوياته الرئيسة ثم

Twitter: @ketab_n

أتيتُ على ذكر الفقرة الخاصة بمصدر الحصول على الخمر فاعترض أريك وقال إنه لا يملك إجازة شراء خاصة به وإن رالف هو الذي يزوّده بالمشروب من حِصّته الشهرية. كان النظام في عُمان يمنع الخمر على المغتربين من المسلمين ويمنع أن يبيع من يمتلك إجازة من غيرهم حِصّته للآخرين أو يوزّعها. بذلك يكون المحقّقُ قد حاول حماية أريك من المُساءلة القانونية. طمأنه المحقّق قائلاً إنه سيغيّر هذه الفقرة فيما بعد، ولم يشأ أن يفسّر لأريك السبب في إدراجها. لكن أريك تردّد قبل أن يضع توقيعه على المحضر فأكّدت له أن الأمر مضمون العواقب وألّا حاجة به إلى القلق.

أعقب أريك جورج الذي دخل بقامته الطويلة وملامحه الوسيمة التي أربكها السهر والتوتّر، فأكد في إفادته أن أريكا كانت قد تمادت في الشرب وفقدت السيطرةَ على حركاتها وأنه سمعها ترفض نزول السُّلّم قبل رالف لأن الأخير كان قد بلغ حدّ السكر هو الآخر وصار يعابثها على نحو فاضح. سأله المُحقّق عما يعني بذلك؟ فقال جورج إنهما صديقان ولا كُلفة بينهما، ولم يشأ التفصيل. كانت عبارات الأساتذة تُختصر في المَحْضَر إلى جُمَل عربية قصيرة أقرب إلى العامية فقال المحقّق للكاتب: "أكتب أنها كانت آخر من نزل عن السطح". وقد حرص جورج على معرفة ما في المَحْضَر قبل توقيعه وطلب مني الترجمة فعجبت لعجزه عن قراءة العربية أو استخدامها في التحقيق وأدركت أن إتقانه لها لا يصل إلى مستوى استخدامها في مواقف جدية كهذه. وقد سألني المحقّق عندما خرج جورج إن كان عربياً وبدا أن خليط الهويتين العربية والبريطانية في شخص جورج كان يربك مُخَيِّلته المحلية.

كان روجر أكثر الخمسة تَماسُكاً وصَحْواً. وقد تصرف بتهذيب أنغلوسكسوني أصيل، وحاول جهده أن ينأى بنفسه عن حالة العَبَث والانفلات التي أحاطت بالحادث وتسبّبت به. قال إنه حضر السهرة بدعوة من جورج وإنها المرة الأولى التي يشارك فيها في سهرة رالف على السطح.

Twitter: @ketab_n

وأكد أن رالف تمادى في الشراب وصار يُطلق تعليقات سمجة وأن أريكا شاركته في سُكْره وتعليقاته بشكل أثار استغراب روجر ودفعه إلى مغادرة المكان إلى شِقّته قبل ساعة من حدوث المأساة. ولم يكن قد نام حين اخترقت سَمْعَه صيحةُ أريكا. ثم أضاف قبل أن يخرج أنه يأسف أسفاً عميقاً لخسارة زميلة ممتازة وأنه ظلّ دائماً يخشى أن تؤدّي تلك السهرات الجامحة إلى مُصِيبة ما، وهو تعليق لم يطلب المحقّق من الكاتب تسجيله. طلب مني روجر قراءة المَحْضَر له بالتفصيل لكن المُحَقِّق اتفق معي على عدم إثارة قلق الأساتذة بخصوص الفِقْرة الخاصة بمصدر الخمر لأن الغايةَ هي حمايتهم لا إدانتهم لكنه لا يريد أن يقول لهم ذلك بشكل مباشر.

جاء بعده دور ستورمي التي كانت ترتدي بنطلوناً من الجينز ضيقاً يُبرز مفاتن قوامها الممتلئ برشاقة وقميصاً مورّداً بزهور حُمْر كاريبية زاهية. لكن انشراح أناقتها هذه ضاع في الصدمة التي زادت من جِدِّيّة ملامحها السمراء. لاحت في عينيها نظرة يختلط فيها الألم بالغضب، وحين تكلمت بدا أثر الشراب جلياً في تَقَطُّع عباراتها. كانت قد غمغمت ونحن نتَّجه إلى مركز الشّرطة بسيارتي شيئاً عن كون تلك ثاني زيارة للمركز خلال شهر واحد، ثم قطعت عهداً على نفسها أن تغادر البلاد ما أن ينتهي عَقْدُها هذا العام. سأل الكاتب المُحَقِّق إن كان استجوابها ممكناً أو مفيداً لما يبدو عليها من أثر السُّكْر فقال المحقّق إنه ممكن وإن المطلوب سماع أقوالها قبل أن تصحو، دون أن يتمكّن من مُداراة نظرة حائرة في عينيه وهو يَرُدُّ على صاحبه. كان في تَوَتُّر المُحَقّق وحماسته ما يشي أن الحادث لم تكن له سابقة في صُور وأنه لا يريد ارتكاب خطأ أو هَفْوَة في قضية تتعلّق بجنسيات مُهِمّة كالأميركية والبريطانية والنيوزلندية.

تماسكت ستورمي وأبدت قوةً تُثير الإعجاب في تقديم رُدُود محدّدة مفهومة على الأسئلة بالرغم من أنها ظلَّت تتأخَّر بعض الوقت ريثما تتمكّن من استيعاب السؤال وترتيب أفكارها للإجابة. ولا أستطيع في ضوء ما كشفت لي ساندرا من أسرار الحادث فيما بعد إلا الدهشة لما أبدت

Twitter: @ketab_n

ستورمي من تماسُك وقُدْرة على إخفاء ما لديها عند التحقيق بالرغم من سُكْرها وغضبها وفجيعتها. قالت إنّ جورج نزل أولاً ثم لحقت هي به وفاجأها أن تسمع صرخة أريكا تدوّي في بئر السُّلّم فقفزت إلى الباب دون أن تعي ما تفعل ونزلت السُّلّم عدواً إلى مطبخ أريك وأجرت الإسعافات الأولية التي تعلّمتها في دورة خاصة ولكن دون جدوى، ثم رمقت المُحَقِّق بنظرة حادّة لم أكن أتوقّع أن السّكر يمكن أن يسمح بمثلها وسألته بِنَبْرة حاسمة مباشرة (وكانت تخاطبني أثناء حديثها السابق فأقوم بنقل ما تقول):

- كيف أمكن ألّا تصلَ سَيّارة إسعاف على الإطلاق؟

حدّجني المُحَقّق بنظرة متسائلة طالباً الترجمة فحاولت أن أجرّد السؤال من نبرة السُّخْط التي لَوَّنَتْه وقلتُ بحياد إنها تسأل عن السبب في عدم وصول سيارة الإسعاف. قال باقتضاب وكأنه لا يريد أن يتوسّع في مسألة لا تَخُصّ التحقيق إن هذا الأمر سيخضعُ للتدقيق. لكن ستورمي أصرّت على تأكيد احتجاجها فقالت إن وصول الإسعاف كان سينقذ حياة أريكا، ثم انخرطت في بُكاء جعّد ملامحها وعمّق الألم المُرْتَسِم عليها. بدا على المُحَقّق التأثُّر وقال إن علينا انتظار نتيجة الفَحْص الطبي لبيان سبب الوفاة لأن أقوالَ الأطباء تُشير إلى أن الوفاة حدثت بعد دقائق من السقوط. حين خرجت ستورمي قال المُحَقّق لي ولصاحبه إن مدير مستشفى المدينة أَمَرَ، في لحظة غَضَب من كَثْرة استدعاء سيارتَي الإسعاف الوحيدتين في المستشفى دون سبب وجيه، بعدم خروجهما مهما كانت الأسباب وأن على المريض الحُضُور بسيّارته الخاصة أو بتاكسي، ولا يكون استخدامُ الإسعاف إلا في إعادة المريض الذي تقتنع المستشفى أنه بحاجة إلى إسعاف! قال ذلك باستنكار لا يقلّ كثيراً عن ذلك الذي أبدته ستورمي.

حين جاء دور رالف نظر المُحَقّق إلى الكاتب باستفهام وعَجَب. كان واضحاً أنَّ رالف عاجز عن السير باعتدال، وقد جلس مُنَكَّس الرأس وقال إنه لا يحمل هَوِيّة أو جوازاً، ثم انطلق في هجوم أقرب إلى الهَذَيان على

Twitter: @ketab_n

المُحَقِّق لأنه لم يفعل شيئاً لحماية حياة أريكا. قلت للمُحَقِّق إن رالف في حالة لا تسمح له بالكلام فقال إنه سيستدعيه غداً للتحقيق.

وَقَّعْتُ المحضر بوصفي المترجم وشكرني المُحَقِّق بأدب جَمّ وكانت الساعة قد بلغت حوالى التاسعة صباحاً عندما غادرتُ المركز إلى سيارتي مع الأساتذة الخمسة. على وجوههم شُحُوب يختلط بسُخْط غير محدّد ولا سبيل إلى التعبير عنه. تبدو مِشْيَتُهم المتثاقلة المترنّحة تحت عناء ليلة من السَّهر والمأساة أشبه بمِشْيَة حظيرة من جُنُود أمضوا الليل في موقع متقدّم خطر وعادوا أدراجهم عند الصباح يَنُوءون بأثقال ليلة من سُهاد. وقد عجبت كيف تتحوَّل الرغبة في اللهو والتسلّي ونسيان الهموم إلى مأساة مجلّلة بجِدِّية تبعثُ الرَّهبة والجَزَع في النفس. لكن المُتعة أمر جادّ بالنسبة إليهم، بل ربما تكون الأولوية التي لا تعلو عليها أية فكرة أو أيديولوجيا أو مِثال. المغامرة التي تَعِنّ لي في المنفى كمنفذ تجريبي مؤقّت تتحوَّل بالنسبة إليهم إلى نمط حياة ومعنى وجود. لقد احترفوا المغامرة وهو أمر لم يخطر لي إلا في أعقاب تلك الليلة الطويلة، ولاحتراف المغامرة، كالعزوف عنها، مَواجِعُه وعَذاباتُه هو الآخر.

تَوَقفّنا قرب السيارات نتبادل تَحِيّات باهتة. تقدّم مني روجر هوبكنز وصافحني. قال بتأثُّر نَفَضَ عنه بعض التعب والسَّهر إنه يودّ أن يُعَبِّر لي عن جزيل شكره لأنَّ وجودي معهم خفّف الكثير من أعباء تلك الليلة، وهو ما دفع الآخرين إلى تصويب أنظارهم نحوي في امتنان شاحب حقيقي. قلت إن ما فعلته يفرضه واجبُ الزمالة والتَّكاتُف في المِحْنة، ودعوت جورج الذي أربكته مشاعرُ لم أفهمها إلى العودة معي في سيارتي بينما اتَّجه الآخرون إلى سيارة رالف يقودهم روجر. كان حَرّ الصباح قد بدأ يشتدّ مع ارتقاء الشمس تَلَّها العتيد وصوتُ اصطخاب أمواج البحر وهي تصفع صخور الساحل يتعالى فوق سُكُون المكان.

Twitter: @ketab_n

44

اتجهتُ إلى شِقّتي سابحاً في غيمة خانقة من التعب والتوتّر والنعاس، ظل جورج يلزم الصمت خلال الدقائق القليلة التي استغرقها وصولنا إلى البناية. صعدت التَّلّة الصغيرة المُؤدّية إلى موقف السيارات أمام عُمان موبايل وركنتُ السيارة وأنا أجد صعوبةً في التركيز والتحكّم في حركاتي. تذكّرتُ ساندرا في الشِّقّة وحدها طوال ليلة أمس وتمنّيتُ وأنا أصعد السُّلّم إلى الطابق الثالث لو أن ساندرا قد غادرت الشِّقّة ليُتاحَ لي الارتماءُ على السرير دونما حاجة إلى قول كلمة واحدة أُخرى. وجودها سيعني رغبتها المُلِحّة في معرفة التفاصيل وهو أمرٌ لم يكن ما تَبَقّى لديّ من طاقة يسمح بالقيام بجزء يسير منه. وَدَّعني جورج صاعداً إلى شِقّته على السطح دون أن يكسر صَمْته بأكثر من تحية أقرب إلى الهَمْهَمة.

انتظرتُ غيابه لأضغط على جرس الباب فقد أبقيت مِفْتاح الشقة معها، وهو ما يعني أن أمنيتي ألّا أجدها في الشقة كانت ضرباً من الهَذَيان. كشف الباب عن وجهها المَلْهُوف المُسْتَطْلِع وتَلَقَّتْني بين ذراعيها وهي تردِّد:

- أيها المسكين .. أيها المسكين، هل أمضيتَ الليل كلّه معهم؟

قلتُ بنبرة تَجَمَّع فيها كُلُّ ما لديّ من إرهاق ونُعاس:

- كان لابد من حضور التحقيقات للترجمة.

كان واضحاً أن الموقفَ مُحْرِج للطرفين، فهي تامة الصحو والتَّوَفُّز تَوّاقة إلى سَماع كلّ تفصيل صغير، وأنا لا أقوى على التفكير إلا في أمر واحد هو طريقة مُهذّبة أستطيع بها أن أطلب منها مغادرة الشقة لأتمكّن من

Twitter: @ketab_n

النوم دون تأخير. لم أكُنْ أنفع لشيء سوى النوم وهو أمر فَسَّرته ساندرا تفسيراً عجيباً صدمني. قالت بعبارة مُبَطَّنة:

- هل أنت حزين على خسارتها إلى هذا الحد؟

كانت تلك العبارة كافية لتستفزّ غضبي الذي لم يجد أعصاباً قوية تقدر على كَبْحه. سألتها باستنكار:

- مَن؟

أدركتُ أن سؤالها لم يكن في محلّه فحاولت الانتقال إلى موضوع آخر. سألتني بنبرة مختلفة:

- هل تناولت فطورك؟ لقد شربت أنا قهوتي حين صحوت.

قلت وأنا أنقل غضبي إلى موضوع الفطور أيضاً لأنه لم يتبدّد:

- لا أرغب في الفطور. كل ما أريده هو النوم الآن مباشرة.

أرادت أن تقول شيئاً فأردفتُ بِحَسْم:

- سأروي لك التفاصيل فيما بعد.

سألت بما يشبه الاستنكار:

- هل تريد مني مغادرة الشقّة؟

أزعجني أن أضطر إلى إخراجها من الشقة بهذه الطريقة وزاد انزعاجي من نفاد صبري فقلت دون أن أتمكّن من الابتسام أو التخفيف من نبرة التعب والملل:

- نعم. إن سمحت.

كانت لا تزال في ثوب النوم الخفيف فقصدت غرفة النوم وبدأت ترتدي ملابسها استعداداً للخروج، وقد لزمتُ الصمتَ خلال ذلك لتعبِّر عن انزعاجها. ساءني أن يصل بها ضيقُ الأفق إلى حدّ الاعتقاد أن تعبي ناجم عن الحُزْن على فُقْدان أريكا لا السهر الطويل في صَخَب مأساة مُرَوِّعة ولم

Twitter: @ketab_n

أَكَدْ أُصدّقه. حين أصبحتْ مستعدّة للخروج نهضتُ ورافقتها إلى باب الشّقّة وتبادلنا قبلة سريعة وهي تردّد برِقّة "نَمْ جيداً!".

شربت قَدَحاً من الماء وخلعت ملابسي على عجل لأرتمي على السرير. وسُرْعان ما غطست في نوم عميق دون تفكير في شيء، لكنَّ رنين التلفون أيقظني بعد أقلّ من نصف ساعة. كان الدكتور الطاهر يعتذر عن عدم تسلّمه النداءات المُتَكَرِّرة إليه ليلاً ويودّ معرفة التفاصيل. اضطررت إلى نقل صورة مختصرة له ووعدته أن أقدّم التفاصيل غداً، ثم أخرست التلفون نهائياً لأتمكَّن من النوم.

وجدتُ خلال الأسبوع الذي أعقب تلك الليلة أن عليّ تكرار تفاصيل ما حدث حتى مَلَلْتُها، إذ طلبها الدكتور الطاهر، ثم العميد، ثم مُعاون العميد. وقد دعا العميد الأساتذة إلى اجتماع في قاعة المحاضرات حضره بعض الطلبة أيضاً ألقى فيه العميد ورئيس القسم ومُمَثِّل عن الأساتذة هو روجر هوبكنز كلمات في مديح أريكا والتعبير عن الأَسَف على فقدانها. بدا واضحاً أن اجتماع الأساتذة معاً وسماعهم الكلمات خفّف من حالة الاضطراب والتساؤل التي سادت القسم عدة أيام.

ذلك الأسبوع نفسه شهد بداية اكتشافٍ شَغَلني لما تَبَقّى من الفصل الدراسي وقلب حساباتي على نحو لم أتوقّعه. رُبَّما هي مُصادفةٌ تَزامُنُ أُخرى، وربَّما أكثر. أحسستُ بعد يومين من مغادرة ساندرا الشقّة بتلك الحكّة الملحّة الغريبة في قِمّة القضيب لأول مرة. لم أعبأ بالأمر في البداية لكني قصدت الحمّام في الكلّية صباحاً وفتحت أزرار البنطلون لأتفحص مصدرها في ضوء الشمس الساطع فأجد بثرةً حمراءَ قانيةً كالحَرَق. نسيتُ الأمر لما تَبَقّى من اليوم وعدت إلى الشّقّة مساءً وأنا أشعر بالحَكّة تعاودني بين حين وآخر. بعد حَمَّام بارد استخدمتُ مُرَطِّباً لدَهْن المكان وحاولت أن أتناسى الأمر وإن اضطرب نومي. صباحاً اكتشفت أنَّ البثرةَ قد تحوّلت إلى ما يُشْبِه جُرْحاً صغيراً. حين صادفتني ساندرا في أحد الممرّات في ذلك

Twitter: @ketab_n

الصباح وحيّتني بوجه باسم استوقفتُها وعبّرتُ عن قلقي من تلك الأعراض. ارتسم على وجهها اهتمام شديد ثم قالت دون أن تشوب اهتمامها أية دهشة:

- أعتقد أنك ستحتاج إلى مَرْهَم زوفيراكس، وهو مُضادّ حيوي فَعّال في مثل هذه الحالات.

قلت مستغرباً:

- لكنَّها المَرّة الأولى التي أرى فيها مثل هذه البثور!

كانت في عَجَلة من أمرها تَتَّجه إلى إحدى الحصص فقالت بإيجاز دون أن تنظر إلى وجهي:

- ربما يكون الهربيز. لقد سبق أن أخبرتك بذلك. سنتحدّث فيما بعد.

وقد بقيت أُرَدِّد كلمة "هربيز" التي لم أكن قد سمعت بها من قبل كأني أقلّب مِفْتاحاً لا أدري أين يقع الباب الذي سيفتحه. وعقدتُ العَزْم على استشارة الشيخ غُوِغَل في المساء.

لم أصادف ساندرا بقية اليوم ولم تَسْعَ هي إلى لقائي. تحدَّث معي جفري عن الإجراءات التي اتُّخِذت بعد وفاة أريكا. بدا مَيّالاً إلى الحديث عن تلك الليلة في عَتْمة المكتب وصَمْته. تولّت الكلّية سدّ نفقات إعادة الجُثْمان إلى بريطانيا وتبرّعت إلى صندوق إعانة عائلة أريكا بمبلغ سَخِيّ. اتَّضحَ أن لأريكا والدة مُقْعَدة وأنها من أُسْرة محدودة الموارد. حين اتصلوا بعائلتها لمعرفة ما يوصي به أهلها قيل لهم إن العائلة تريد بَدَلاً من إرسال الجُثّة إلى بريطانيا حَرْقها وإرسال رمادها عبر السفارة البريطانية في مَسْقَط. وقد تمّ ذلك بعد أيام في مَعْبَد هُندوسي في صحار تتوافر فيه هذه الخدمة. قصد مجموعة من أصدقائها صحار ومرّوا في طريق العودة بمَسْقَط وزاروا مطعم "برافو ريل" الذي كان مكانها المفضّل فتناولوا غداءهم فيه وأحيوا ذكراها. وقد تولَّت ستورمي مهمة رَزْم حوائج أريكا وتنظيف شِقّتها حتى إن

Twitter: @ketab_n

جفري لم يتعرَّف إليها، كما قال، لما بدا على أثاثها من ترتيب ونظام ظلّ غائباً عنها من قبل.

عُدْتُ إلى البيت بعد الرابعة عصراً. كانت الاستعدادات للامتحانات النهائية على قدم وساق وكنت استلم يومياً عشرات الرسائل الألكترونية التي تحتوي تعليمات عن الامتحان وصِيَغ الأسئلة التي تقترحها الكلّيات المختلفة حيث تقرّر جَمْع ما تقترح الكلّيات من أسئلة ثم اختيار المناسب منها وتوحيدها قبل الامتحان بأسبوع، وكان وصولها في اللحظة الأخيرة قد سَبَّب الكثير من الإرباك في الفصل السابق دون أن يدعو ذلك أحداً إلى إعادة التفكير في هذه الطريقة.

حين تمدّدت بعد الغداء لأستريح في صمت الشّقّة الذي اتَّحَدَ به هَدِير أجهزة التبريد وصار جزءاً لازماً منه، رَنَّت في رأسي كلمة "هربيز" التي ذكرتها ساندرا فتركتُ السرير قبل أن أنام واتجهت إلى الكمبيوتر لأبحث عنها على الغوغل كما كان عزمي منذ الصباح، خصوصاً وأنَّ الحَكّة والوخز تواصلا حتى بعد الحمّام الذي أخذته عند عودتي إلى البيت. ولكن ما الذي يُقابل "هربيز" بالعربية؟ كنت أحمل معي أينما حَلَلْتُ قاموسين كبيرين هما "المورد" و"أطلس". فتحت مورد البعلبكي فوجدت أن "الهربيز" هو "الحَلأ" ثم تعريف قصير لا يعدو عبارة "مرض التهابي جِلْدي". كانت كلمة "حَلأ" لا تقل غرابةً بالنسبة إلي عن مقابلها الإنكليزي. انتقلت إلى قاموس "أطلس" الذي يزن عدة كيلوغرامات فوجدت أن المقابل هذه المرة هو "القَوْباء" والتعريف: "أي من الأمراض الفيروسية التي تسبّب ظهور بَثْرات صغيرة شبيهة بالتَّقَرُّحات على الجلد والأغشية المخاطية". زاد ذكر كلمة "فيروسي" من قلقي لأن الميكروب يمكن القضاء عليه بسهولة باستخدام المضادات الحيوية أما الفيروس فعنيد له عمر معلوم قد يطول أو يقصر ولا أثر للمُضادّات فيه. اتضح على غوغل أن المواقعَ العربية كانت تميل إلى اعتماد كلمة "حَلأ" فقرأتُ الكثير من

Twitter: @ketab_n

التعريفات التي فاقمت قلقي. حين انتقلت إلى المواقع الإنكليزية كان الوصف والشرح أكثر صراحةً ودِقّة. المرض من طائفة العِلَل التي تنتشر عبر المُمارسة الجنسية أساساً، ويمكن أن ينتقل من الأعضاء الجنسية إلى أجزاء أُخرى من الجسم كالفم والعينين إن لم يتوخَّ المُصاب الحَذَر. تبدأ المرحلة الأُولى بعد يومين إلى ثمانية أيام من الإصابة، وقد تحتاج الأعراض إلى وقت أطول لتعلن المرض. وهي في ظهورها الأول مجموعة من البثور والتقرُّحات المُحْتَقِنة التي تصبغ المنطقة المحيطة بها باللون الأحمر. ويمكن لهذه البثور أن تنتفخ بسرعة وتفرز سائلاً شفّافاً أو غامقاً. من الأعراض التي قد تُصاحِب ظُهُورَ البثور حَرْقةٌ في البَوْل، وحُمَّى، وحَكَّة، وأعراض أُخرى أقرب إلى أعراض الإصابة بالأنفلونزا. في المرحلة الثانية من المرض تختفي البُثُور، والتُّقَرُّحات، ويتحرَّك الفيروس من الجلد إلى الأعصاب القريبة من العَمُود الفِقْري حيث تتمّ عملية التقشّر فيتضاعف الفيروس في نهايات الأعصاب وقد ينتقل إلى السوائل التي يطرحها الجسم مثل اللُّعاب، والمَنِيّ، والإفرازات المَهْبَلية. وفي هذه الحالة تصبح العدوى أمراً ممكناً حتى بغياب الأعراض. وتبقى هذه الأعراض تتكرَّر بمعدَّلات متفاوتة، لكنها تكون أخفّ في حِدَّتها مما كانت عليه في المَرّة الأولى. يساعد على تكرار ظُهُور الأعراض الضغط النفسي، والمَرَض، والتَّعب، والتَّعَرُّض للشمس وقتاً طويلاً، كما أنها تزيد في فترة الحيض لدى المرأة. أما العلامات الدالّة على مُعاودةِ المَرَضِ نشاطَه فظهور حَكّة أو تنمُّل أو أَلَم في المناطق التي أُصيبت في المرة الأولى.

شعرتُ بالصدمة وأنا أقرأ هذه المعلومات. أبعدتُ نظري عن الشاشة قليلاً فوقع على كأس عصير البرتقال التي وضعتها قربي لم ألمسها. عدت إلى الشاشة كالمسحور فزادت من صدمتي عبارة إنكليزية فصيحة لا تقبل اللبس: "لا يوجد علاج للمرض. قد ينفع العلاجُ في التخفيف من الأعراض ومن الألم لكنَّه لن يقضي على الفيروس الذي يبقى يستوطن الجسم مادام حيّاً". وعرفتُ ما هو أدهى؛ أن حامل الفيروس يصبح

Twitter: @ketab_n

مصدراً للعدوى ما دام حيّاً. دَقَّقتُ في هذه المعلومة لأتأكد. بعض المواقع (العربية على نحو خاص) تفيد أن الاتصال الجنسي عند غياب الأعراض المُتمثِّلة بالبثور والتقرُّحات يمكن أن يحمي الشريك من العدوى (مع ضرورة استخدام الواقي) لكن مُعظَم المواقع تجمع على أن العدوى يمكن أن تنتقل حتى عند غياب الأعراض. وهنالك نصيحة مُتَكَرِّرة للمُصاب تطالبه بمصارحة شريكه بإصابته منذ البداية. انتفضتُ وقد صَعَّد من صدمتي غضبٌ واستنكار. لم تخبرني ساندرا بإصابتها! عُدْتُ إلى لقائنا الأول وتذكّرتُ تعليقها العابر صباحاً من أنها أخبرتني بالمرض منذ البداية. نَخَلْتُ ذاكرتي أبحث عن كلمة هربيز فلم أتذكر أنها جاءت على ذكرها كما ادّعت. ولكن قد تكون ذكرت اسم المرض ولم أنتبه له لجَهْلي به؟ حتى لو صحّ ذلك كان عليها توخّي الصراحة ووضع ما أقرأ اليوم من حقائق مروّعة أمامي دون لَبْس. تذكّرتُ البثور التي ظهرت على وجهها بعد ليلتنا الأولى وأنا أقرأ أن هذه البُثُور قد تظهر قُرْبَ الفم تحديداً في الحالات المتقدِّمة. كانت بيِّنة قرب فَمِها.

واصلت القراءة كمن يتشبّث بتلابيب طبيب أخبره أن حالته لا أمل فيها، بحثاً عن بصيص تُخْفيه الظُّلُمات. قدّم موقع أميركي نصائح للمُصاب:

- خذ أسبرين أو تايلنول أو أدفل لتخفيف حِدّة الأعراض،
- ضع كَمّادات دافئة أو باردة على المنطقة المصابة،
- خذ حَمّاماً دافئاً،
- حافظ على المنطقة المصابة جافة ونظيفة،
- عليك بملابس داخلية قطنية وتجنّب الملابس الضيقة،
- لا تلمس البُثُور بيدك لئلا تنتشر العَدْوَى إلى الوجه والعينين.

هنالك في البداية ذكر لمضاد حيوي ربما يكون ذلك الذي اقترحته ساندرا نفسه وإن كنت غير واثق من الاسم، وهو مَرْهَم ينصح به عند بداية المرض. واصلت القراءة في باب النصائح: "من المُعتاد أن يشعر المُصاب

Twitter: @ketab_n

بالذَّنْب أو الخَجَل لإصابته. قد تشعر أن حياتك الجنسية قد دُمّرت وأن شخصاً وضعتَ فيه ثقتك قد غدر بك، قد تشعر بالحُزْن والغَضَب، تذكَّر أنك واحد من ملايين المُصابين بالمَرَض (ينتشر المرض في الولايات المتحدة بنسبة 16.2 %، أي إن شخصاً من كل ستّة أشخاص بين سن الرابعة عشرة والتاسعة والأربعين يُعاني منه)، وتذكَّر أن حدّة المرض تقلّ بمرور الوقت، ويمكنك أن تحمي شريكك بالامتناع عن الجنس خلال ظُهُور الأعراض وباستخدام الواقي. تحدّث مع طبيب العائلة عَمّا يعتريك من مشاعر سَلْبِيّة". عدت إلى بداية الموقع وقرأت مرةً أخرى بذهول "لا يوجد وقت يمكنك فيه ممارسة الجنس دون وجود خطر انتقال العدوى".

أغمضتُ عيني وشعرت بدُوار. تصفّحت المزيد قبل أن أترك الجهاز. برقت أمامي عبارة جارحة "عليك التَّحَوُّط لأن المرض يسهّل الإصابة بالأيدز". حملت كوب العصير واتجهت إلى شرفة غرفة النوم المُعَلَّقة في هواء المساء الساخن الخانق برطوبته. كان يمشي على الرصيف تحت الشرفة ثلاث فتيات يرتدين الساري الهندي منهمكات في حديث صاخب يتخلَّله ضَحِك عالٍ يشقّ بُحَيْرة المساء الرّاكدة صاعداً نحوي كأنه سُخرية الحياة الخارجية مما آلت إليه مغامرتي الأُولى بعد سنوات من الرَّهْبَنة الخاوية. بقيت أُردِّد بانفعال أقرب إلى الدهشة منه إلى الغضب "كيف أمكن لساندرا أن تخدعني بهذه الطريقة؟ هل تصل بها الأنانية إلى هذا الحد؟"

Twitter: @ketab_n

45

تكاثَفَ ظلامُ المساء ودفعني إلى غرفة النوم مرةً أخرى فتركت هواء الشُّرفة الساخن وَلفَّني بردُ الغُرفة لكنه لم يخفّف من الحُمّى التي سرت في جسدي، ودون غاية بعينها وجدت نفسي أنصاع لنداء الإنترنت كالمأخوذ. امتدت يدي إلى الفأرة الجامدة فأضاءت الشاشة إذ تحرّكت وكانت المواقع الطبية المُختلفة تتزاحم في الشريط المُمْتدّ في الأسفل. عُدْتُ أستعرضها بسرعة قبل أن أُغْلِقها واحداً واحداً كأني أمزّق مجموعةً من أوراق اليانصيب الخاسرة. تمنّيت لو كان لساندرا تلفون أتَّصل بها منه وخطرت لي تَحَوُّطاتها الصحية الوسواسية وهجومها على التلفون النَّقّال والمايكرويف وإصرارها على شاي الأعشاب فتوصّلتُ إلى أنها دروس الفيروس الذي عَلِقَ بها، ولكنها دُرُوس متأخّرة. تباً لها! ظلَّت حقيقةُ أن الفيروس سيبقى في جسدي مادمتُ حَيّاً تُطبق على خِناقي وتتحوَّل تدريجيّاً إلى هَوَس مُسْتَحْكِم. لم أُجَرّب مثل هذا الإحساس ولم يعرف جسدي داء مُزْمناً من قبل. بعد كل المآسي التي شهدتها ظلَّ الأمل في الإصلاح، حتى وهو يتضاءل ويكاد لا يُحَس، ينزوي في رُكْنٍ ما مهما ضاق، أما هذه المُعضلة فلا أمل فيها ولا شفاء منها.

تركتُ الكمبيوتر بعد أن أغلقت آخر نوافذ المعلومات عن المرض، وانتقلتُ إلى الصالة. وقع نظري على التلفون فوق مِنْضَدة الشاي المُغَطّاة بلوح زُجاجي يشفُّ عن لون القُماش الأخضر الباهت تحته وإلى جواره مَزْهَرية ستانلي الإغريقية التي أهدتها إلي ساندرا في زيارتها الأولى. ركّزتُ نظري على أصابع الفتى المَلْهُوفة المُمْتدة إلى حبيبته تحت الأشجار توشك

Twitter: @ketab_n

أن تَمَسَّها، ولا تمسُّها، وخطرت لي في صمت الغرفة وتحت أنين التبريد أبيات من قصيدة كيتس كنت أظنّ أني نسيتها تماماً:

أيها المحبُّ الجَسُور، لن تقبّل حبيبتك أبداً

بالرغم من احتراقك شوقاً قرب بغيتك؛

ولكن لا تجزع فهي لن تتلاشى بالرغم من حرمانك،

ستبقى إلى آخر الحياة تهواها وتبقى هي جميلة!

غمرني حزن متهكّم وشعرتُ بحاجة إلى الكلام مع شخص أياً كان. استعرضت من أثق بهم وبرق في ذهني فرحان. ربما كان الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدّث إليه دون تَسَتُّر وتَكَتُّم. كيف أمكن لفرحان أن يدمن المغامرات النسائية من كل لون طوال سِنِيّ شبابه وكُهُولته وينجو بينما سقطتُ أنا بعد أول مغامرة اخترت فيها أن أترسّم خطاه؟ وما نوع المُساعدة التي يمكن أن يقدّمها لي؟ ما أحتاج إليه هو طبيب يفحصني ويقول كلمته الفصل. لكن أطباء صُور سقطوا في مستنقع النميمة وسُرْعان ما سيصل الخبر إلى الدكتور حاكم الذي سيتلقّفه بامتنان شديد ويجعلني عِبرةً لمن يَعْتَبِر. ربَّما كان فرحان يعرف طبيباً في مَسْقَط. استعرضتُ الأسماء وضغطتُ على اسمه أستدعيه لكني لم أحصل على رَدٍّ منه. ظلّ التلفون يدقّ في الفَراغ. ربما كان فرحان في جامع يؤدّي الصلاة فالوقت وقت صلاة العِشاء وهو حريص على التَّردُّد إلى الجوامع سواء في موقع العمل الصحراوي أم في البيت في مَسْقَط. تركتُ التلفون في الصالة وعدت إلى الكمبيوتر كأنما هذا الجهاز الذي لطّخني بكل هذه المخاوف والأحزان هو وحده من يمتلك القدرة على غسلها عني بطريقة سِحرية ما.

على الشاشة كان موقع الدردشة المسنجر متصلاً طوال الوقت فهو يرتبط ما أن أفتح الجِهاز. هنالك على الشاشة نافذة صغيرة، تطلعتُ بفضول لأرى مصدرها فكان اسم بَتُول يعلوها. قرأت عليها عبارة إنكليزية مختزلة "مساء الخير". بدت بَتُول غريبة عني في سِياق اللحظة الغريبة التي كنت

Twitter: @ketab_n

أعيشها. لم تَبُثَّ تحيتُها الدهشة المعتادة والترقُّب القديم. لم أعد أَصْلُح لها أو لغيرها. لكن رغبتي في الاتصال بشخص آخر يخرجني من حُمّى ذهولي شدّتني إلى النافذة فكتبت "مساء الخير. كيف حالك؟" بقيت أنتظر لثوان فلم يأتِ الرَّدّ. وامتدت الثواني إلى دقائق فأدركت أنها عادت إلى لعبة الكَرّ والفَرّ القديمة، وقبل أن تمتدّ يدي لإغلاق النافذة وجدت أنها خرجت من الموقع وأضاءت اسمَها نقطةٌ حَمْراء بدلاً من نقطة الحضور الخَضْراء. تَبّاً لها هي الأخرى!

فتحتُ بريدي الإلكتروني قبل أن أُغلقَ الجهاز. كانت رسائل الكليات كما توقّعتُ قد تكاثرت خلال الساعات الماضية. بعض المنسّقين ورؤساء الأقسام، وقبل هذا وذاك، منسّقة البرنامج وندي نفسها، يمضون أماسيهم الرتيبة في كتابة المقترحات ومتابعة مشاغل الامتحانات القريبة. لم أفتح أيّاً من الرسائل الخاصّة بالعمل لكن عيني وقعت قبل أن أُغلق البريد على رسالة من شهاب تندسّ بين قائمة رسائل العمل. سَعَيْت إليها بفُضُول ولَهْفة. أي شيء من شهاب سيساعدني على الخروج من عالمي الضيق وصدمتي. كانت سطوراً مُوْجَزة يشكرني بها على رسالتي المُطَوَّلة التي تناولت فيها موقفي من مسألة الالتزام والأمل وعبّرت فيها عن ضياعي بعد عقود من المِحَن العراقية. قال إنه سيكتب ما إن تسنح له الفرصة والوقت الكافي تعليقاً مفصّلاً على ما ورد في رسالتي وإن لديه الكثير ليقوله لي، لكنه يضع بين يدي حتى يحين ذلك الوقت مَقالاً سبق أن نشره في آب 2005 تحت عنوان "العودة من المَنْفى" وفيه خطرات قد توضح لي موقفه من بعض ما جاء في رسالتي. فتحت المُرْفَق فوجدتُ مقالاً من ثلاث صفحات قرأته باستغراق كامل وجاء فيه:

"عودة من المَنفَى

عدتُ إلى العراق قبل عامين، تاركاً ورائي قُرابة خمسة وعشرين عاماً من الهِجرة القَسْرية. تلك العودة إلى ما حسبته ملاذي الآخر أو الأخير،

Twitter: @ketab_n

عَلَّلْتُها لنفسي بأن فصلاً من حياتي صار ماضياً ينبغي طَيُّه فطويته، وأن فصلاً آخر قد فَتَح احتمالاته، على مِصْراعيها، أمامي فاستجبتُ له. لم أقصد أن أكون مغامراً حين مضيتُ في رحلة العودة التي لم أتخيَّلها منذ البداية نُزْهة في عالم الأحلام، ولم تأخذني إليها حماسة رومانتيكية. لقد شعرتُ فقط أنني مدعو إلى رِحْلة نحو المجهول، وفي ذلك يكمن سِرّ انجذابي إليها.

رحلة العودة وضعتني شيئاً فشيئاً إزاء اختيارات صعبة لم أَكُنْ أَعِي دلالاتها أو أُقدّر أبعادها، وحرّرتني من الارتباط بمكان محدّد على حساب الزمن الخاص للتجربة الذاتية، وأوقفتني بعيداً عن الأفكار المُجَرَّدة حول التاريخ العام لأكتشفَ تنوّع التاريخ المَحَلّي وتعقيده والْتِواءه. ومن يبحثْ. . . . يَجِدْ!!

بجانب التجربة الفعلية والتاريخ الحَيّ، وضعتني هذه الرحلة وجهاً لوجه أمام مَوْت جارف، وشيك وعبثي. لا أعني هنا بالطبع أفكاراً أو أَخْيِلةً أو هَواجسَ تَسْتَبق حدث الموت الرهيب، بل حقائق ملموسة يمتزج فيها الموتُ بالحياة ويتلازمان في كلّ لحظة. الموت في مدينة كبغداد يسعى إلى الناس مع كل خُطوة يخطونها، فيما تتواصل الحياة مذعورة منه أحياناً، ولامبالية إزاءه في مُعظم الأحيان. ما أكثر لافتات الموت السوداء في المدينة! كم من الناس واسيتُ بفُقْدان أبٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو قريب؟ كم مرة قصدتُ مجالس التأبين مُعَزِّياً؟ كم مرة وجدت نفسي عاجزاً عن إظهار تعاطفي مع ذوي الضحايا البريئة المجهولة لي؟ كم بكيتُ في سِرّي حُزْناً على مشاهد الدماء المَسْفُوكة في كل مكان؟

بعد هذا الانغمار المُكَثَّف في وقائع الموت وأخباره، يسألني بعضهم أحياناً، ألا تخاف من الموت؟ فأجيب، أنا الوافد أخيراً إلى دَوّامة الْعنف المُسْتَشْري، أعلم أنني قد أكون هدفاً لقَتَلة لا أعرفهم ولا أظنهم يبغون ثأراً شخصياً مني، وأعلم أنني أخشى بغريزتي الإنسانية لحظة الموت حين تأتي

Twitter: @ketab_n

بالطريقة الشنيعة التي تأتي بها، وأعلم أنني قبل ذلك كله كثير القلق على مصير أخي ومُرافقيّ الذين بملازمتهم لي في سُكُوني وحركتي يجازفون بحياتهم وحياة عوائلهم. رغم ذلك كله، وبمقدار ما يتعلّق الأمر بمصيري الشخصي، أجد نفسي مُطْمَئِناً عادة لأنني حين وَطِئْتُ هذا البلد الحزين سلّمت نفسي لحكم القدر باقتناعٍ ورضا. وما فعلتُ ذلك كما يفعل أي انتحاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثَوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة إلي تعني الحياة وليس الموت. وهذه الحياة ينبغي ألا تكون بالضرورة آمنة شرط أن تشبع الرغبة في الوجود والفعل والانغمار.

منذ سنوات وأنا أعتقد، رُبَّما بعد قراءة جان بودريار، أن النهايةَ حاصلة في الحاضر. إنها تلازمنا في كل لحظة نعيشها. وحين ندرك ذلك، لا يعود هناك ما يستحقّ الانتظار. غير أنَّ تسليمَ النفس للنهاية... ليس استسلاماً، إنه بداية السير نحو التُّخُوم أو بينها..... هناك حيث تتقلص المسافات. وعليّ أن أعترف أنني لم أَكُنْ غيرَ مُكْتَرِث للموت البَتّة. فبعد اغتيال بَشِع لأحد الرفاق في شِقّته، صرتُ للمرةَ الأولى أنام وبجانبي مُسَدّس جاهز للإطلاق. الأسلوب الشنيع لتعذيب ذلك الرفيق والتمثيل الوحشي بجسده، تركني لِليالٍ عديدة عُرْضةً لكوابيس مُرْعِبة. أي إرادة تمكّنني من إيقاف انْثِيالات العقل الباطن، والتشبّث غير الواعي بالحياة؟

عندما أتخيلُ الآن الحدودَ الدُّنيا والقُصْوى لهذه التجربة، أجد نفسي مسكوناً بروح مُتَقَشِّفة... رُوح بالحدّ الأدنى تَقْبَل الواقع كما هو، ولا تُسند إلى نفسها سلطةً معرفيةً كبيرةً أو تسقط عليه أوهامها أو تجرفها احتمالاته القُصْوى. هذا كما أعتقد ثَمَنُ الاقتراب من التاريخ كمادة حَيّة، كحالة هَشّة في طَوْر التشكُّل والاندثار. فلا تجربة حقيقية دون تفاصيل جزئية وملموسة.... دون إزاحة أو تأجيل.

للعودة من المنفى، في حالتي، سبب عاطفي أكيد. إذْ وجدتُ نفسي في علاقة لا أقوى على استبدالها أو تعويضها. إنها العلاقة مع الوطن كمجموعة من البشر، والتقاليد والأمكنة... كفضاء من ضوء وهواء، من

Twitter: @ketab_n

فَوْضَى وخَراب وأَلَم. بعد أن جَرَّبْتُ هذه العلاقة صِرْتُ متيقِّناً من جدواها ومعناها بوصفها حَقْلاً للمُمارسة اليومية والفكرية، لكنني لم أَزَلْ أشك بأن حُبَّ الوطن من صِنْف الفضائل!. فقد يهيم المرءُ حُبّاً بوطنه، المصنوع من صُوَر وخيالات، وهو بعيد عنه، وقد لا يُقيم لنفسه علاقةً أخلاقيةً معه وهو يعيش في داخله، وقد يخدم بعضنا الوطن من موقف مُتَجَرِّد إلّا من الوازع الإنساني، وقد يدمّره آخر يتشدَّق باسمه ليل نهار. ما هو ثابت في الوطن كأرض وتاريخ لا يُلْزِم الجميع بالتماهي التامّ معه أو التساوق مع حركته وتحولاته. وهكذا فإن ضَعْف الحماسة للوطن أحياناً لا يدخل في باب الرذيلة أو الخيانة.

الوطن مَحَطّة في حياة الإنسان تتفرّع منها جميع المَحَطّات الأُخرى التي قد تؤدّي إليها أو لا تؤدّي، لكنها تحكمنا، بقوة شبه قَدَرِيّة، بأن نظلّ متعلّقين بها رمزياً حتى لو هجرناها فعلياً، أن نظلّ مشدودين إليها بقرابة دم حتى لو أودعنا مصائرنا خارجها.

ليس في عودتي من المنفى نُكُوص نحو الماضي، استبدال نمط حياة "مُتَخَلِّف" بآخر مُتَطَوِّر، تفضيل عالم عنيف حدّ الهَمَجِيّة على عالم مهذّب ومُتَحَضِّر، وهجر السلامة والأمان لارتياد مكان مجهول في "قلب الظلام"... ظلام التاريخ. إذا كانت هناك عودة بالنسبة إلي فهي مغادرة تجربة استنفدت نفسها تدريجياً، كسر شرط حياتي غدا عادياً بغية اكتشاف ما هو غير مألوف أو مضمون. هذه الهِجْرة المُعاكسة لا تفترض مسارات محدّدة، ولا ترتكز على ثُنائيات ثابتة من قبيل الوطن/المنفى، الداخل/الخارج، الشرق/الغرب، الهوية/الآخر.... وهي كذلك لا تفترض حركة ذات اتِّجاهَيْن واحد للذهاب وآخر للإياب كما توحي قراءة رحلة يوليسيس التي يَعُدّها البعض الصورة النمطية للسَّرْد، ولا تأخذ طابع علاقة مغلقة للنفي ونفي النفي والتركيب. فلرحلة النفس في الزمن عدّة مستويات وتفرُّعات شَتّى. ولأنها مُقْبِلة دائماً على أُفُق مفتوح يمكن أن يمضي بها العدّ إلى أكثر من ثلاث مراحل.

Twitter: @ketab_n

عدتُ إلى العراق قبل عامين، لأدرك أنني بلغتُ غايةَ ما صَبَوْتُ إليه: إنهاء شعوري بالسأم من الاكتفاء بعدّ سنوات الهجرة، من البقاء بعيداً عن وطن طالما تَخَيَّلته جميلاً وأنيساً رغم جُنُونه وقَسْوته، ونزع ثوب الغُرْبة عن نفسي لأرى الواقع كما هو عارياً من أغلفته وبريقه، النطق بلغة المُقِيم في الوادي لا المُتَطلِّع من أعلى التَّلّ، والتعايُش بأدنى التوقّعات مع مَواطن البؤس والغرابة والقسوة.

عدتُ إليه فوجدته يمضي في متاهةٍ تاريخية. . . .لا يمكنها أن تكون إلّا مؤقّتة. وأنا أحد شهودها: أعيش تذبذباتها، أراقبُ تقلّباتها، أتفاعل مع تفاصيلها، وأثير أسئلةً حولها، وأراجع قناعات بشأنها، وأكوّن أحكاماً عنها. إنني مُنْغَمِرٌ بتجربة غيّرت حساسيتي إزاء كل ما يحيط بي. فما عادت تستوقفني كثيراً الأفكار المُسبقة والمقارنات الجاهزة والرغبات التي تَعِظُ بما ينبغي أن تكون عليه حالة الأشياء. ورغم أن الحلم السياسي الذي أسرني ظلّ هو هو، صرت أشعر بالقَرَف من كل خطاب سياسي يعمد إلى اجترار عذابات الضحية، التنصُّل من المسؤولية عن الماضي، استغلال الرِّضوض النفسية التي تستفزّ الأحياء أو تخطف منهم وعيهم.

كل ما أبحث عنه وسط هذا الضجيج الزائف هو الهدوء، الصدق، ورفعة الشأن العام.

العراق فتح ذهني وقلبي لسطوة الحاجة الآسرة القاسية على ناسه. وهو، كما يبدو لي الآن، حالة مثالية لفهم ما يجري في العالم بأسره. فلأنه بلغ القاع صار يُتيح، بشكل أفضل، رُؤية منابع الحُرُوب والهَمَجِيّة والمصالح الأنانية، الكَذِب والفَساد والعُنْف والنِّسْيان المُتَعَمَّد للحقيقة أو السَّهْو عنها. كُلٌّ، مِنْ مَوْقِعِه، مَهْمُومٌ بالعراق ومُتَورِّطٌ فيه: أميركا العظيمة المُتَجَبِّرة والسطحية، الديمقراطيات الغربية المُرْتبكة، الشعبويون من كلّ الأنواع، حاملو الشعار اليساري، اليمينيون والمحافظون، العروبيون، الأصوليون، تُجّار الموت، رجال الأعمال، حاملو ألوية العَصَبِيّات

Twitter: @ketab_n

الخادعة. . . كل خبر يأتيني عن بؤس هذا العالم وتعاسته يُحيلني على "مستعمرة" سُوء اسمُها العراق.. هي درجة الصفر التي لا موقع لها على خرائط المكان أو مقاييس التجربة، لكنّها تُتيح، في الوقت نفسه، فهم أوجه الزيف في عِمارة زمننا الماضي في مَسارات مجهولة.

عدتُ إلى العراق بعدما اكتشفتُ أنني شخص دون مشروع خاص. في السياسة كما في الثقافة مشروعي مرتبط بالجماعة. . . فلا فعل ولا حضور دون مشاركة وتضامن.

عدتُ من المنفى وأنا مدرك ألّا عودة لي منه لأنه يجدّد نفسه في كُلّ تماس مع ما هو مألوف أو غير مألوف. وسوف تلازمني أشباحه كما لازمتني أشباحُ الوطن.

كل رُجُوع عن المنفى تعميق لجُذُوره وإيهام بخفاياه. أي أوجاع سرية يُورِث المنفى، أي شفاء يحمل الوطن؟"

Twitter: @ketab_n

46

بعد أن انتهيتُ من قراءة المقال قمتُ بنسخه على ورق صُلْب أتاح لي الإمساك به والابتعاد عن الكمبيوتر. جلست على أريكة الصالة في صمت وأعدت قراءته. تردّدت في ذهني عبارته الأخيرة "أي أوجاع سرية يُورِث المنفى، أيّ شِفاء يحمل الوطن؟" لم يتحرَّك الفكر للسِّجال كما هي العادة مع رسائل شهاب ومقالاته. الفكر عاجز عن الفعل في حالتي، ما تحرّك في نفسي إحساس غريب بأن شهاب يعني ما يقول وأن بطولته ليست من النوع التقليدي. وعجبتُ لإصراره على أنَّ قرار العودة إلى العراق لا ينطلقُ من قناعات عقائدية أيديولوجية واضحة، فَرُوحه المتقشّفة " تقبل الواقع كما هو، ولا تُسْنِد إلى نفسها سُلْطة معرفية كبيرة أو تسقط عليه أوهامها أو تجرفها احتمالاته القُصْوَى. هذا، كما أعتقد، ثمنُ الاقتراب من التاريخ كمادة حية، كحالة هَشَّة في طور التشكُّل والاندثار" . ما يسعى إليه شهاب هو الخُرُوج من وهم المنفى إلى واقعية الوطن، من شَلَل المنفى إلى ماراثون الوطن مهما كان شاقّاً وعنيفاً. عجبتُ لأن شهاب يُشير إلى رواية "قلب الظلام" في مقالته التي كتبها قبل أن يتسلَّم رسالتي، ولأني أتيت على ذِكْر هذه الرواية نفسها في رسالتي دون أن أقرأ مقاله هذا. يبدو شهاب في شهادته هذه مستكشفاً تؤرّقه الأسئلةُ أكثر منه مُتَحَكِّماً يحتكر الحقيقة ويحاول فرض إجاباته على أحد، وهو يقدّم نفسه فداءً للعراق دون أن يمنعه ذلك من وصف العراق بأنه "مُسْتَعمَرة سُوء".

كيف يردّ هذا المقال على دعوتي إيّاه إلى مغادرة العراق؟ إنه يؤكد أولاً أن وجوده في العراق لا يرمي إلى إصلاح طوباوي تحرّكه أوهام إقامة المدينة الفاضلة. يعلم علم اليقين أن البلاد تعيش مأزقاً تاريخياً فضح الكثير

Twitter: @ketab_n

من الزَّيْف. تأمَّلتُ لبعض الوقت عبارته "وهكذا فإنّ ضَعْف الحماسة للوطن أحياناً لا يَدْخُل في باب الرَّذيلة والخِيانة"، عبارة تصدر عن رجل يجازف بوجوده كلّه من أجل الوطن. شهاب بعيد في مقالته هذه كلّ البُعْد عن الشعارات والأوهام واليقينيات. غير أن في المقال درساً بليغاً بدأ يتكشَّف لي بعد القراءة الثانية: غياب الأمل في الكمال لا يعني اليأس ونبذ الفعالية البَنَّاءة لأننا حين نسعى إلى الإصلاح، مهما تواضعت غاياتنا، نكون قد حَرَّرْنا أنفسنا من قُيود المنفى ومارسنا انتماءنا إلى الجماعة بوصفه مسؤوليةً محكومةً بالأمل. رُبَّما يكون تَمَسُّك شهاب بعقيدته الشيوعية بعد هزيمتها سياسياً أقرب إلى تَمَسُّك الوَرِع المُتَدَيِّن بعقيدته في مواجهة ثَوْرة داروين. في الحالتين يعدو السؤال الخطأ والصواب ويصل إلى ما يترتّب على الموقف من اعتبارات سياسية وأخلاقية. يقول شهاب: "عُدْتُ إلى العراق بعدما اكتشفتُ أنني شخص دون مشروع خاص. في السياسة كما في الثقافة مشروعي مرتبط بالجماعة... فلا فعلَ ولا حضور دون مشاركة وتضامن". لقد علّم المنفى شهاب أن المشروعَ الخاص مهما اتَّسعت آفاقه لا يكفي لتضميد جُرُوح المَنْفِيّ من أمثاله. تصفّحت الرسالةَ بحثاً عن ردّ على رسالتي المَهْمُومة وما جاء فيها من نَبْش في عُقُود الخيبة التي رصدها شهاب من بعيد بينما كنت أحترق بها في الخنادق. وجدت عبارةً بدت أقرب إلى الرَّدّ: "فما عادت تستوقفني كثيراً الأفكار المُسبقة والمُقارَنات الجاهزة والرغبات التي تَعِظُ بما ينبغي أن تكون عليه حالة الأشياء. ورغم أن الحلم السياسي الذي أسرني ظلَّ هو هو، صِرْت أشعر بالقَرَف من كلّ خطاب سياسي يعمد إلى اجترار عذابات الضَّحِيّة، التنصُّل من المسؤولية عن الماضي، استغلال الرُّضُوض النفسية التي تستفزّ الأحياء أو تخطف منهم وعيهم". لا يمكن لشهاب الذي أعرفه أن يسقط في حَلْبة الشِّعارات المَوْتُورة العمياء بل هو يَسْمُو بأيّ شعار إلى عَلياء الفعل ويبثّ فيه عِناد الحياة في مواجهة الموت. إنه ينفض عنه غروره ويغسله بماء التجربة الحية الدافق. علّتي إذن لا تكمن في حيرتي وحاجتي إلى فهم يقيني لأن الفعل هو المختبر الذي يتبلور فيه

Twitter: @ketab_n

اليقين. بينما انكفأت إلى زاوية الرصد المذهول الذي لا يجد مَعْناه إلا في فعل الرصد نفسه دون دافع إلى الاستنتاج وبَلْوَرة المواقف، ظلّ شهاب مُتَمسّكاً بالموقف لأن الفعل متعذّر دون موقف محدّد، وتمسّكه بالموقف هذا لا ينفي أنه يحمل شُكُوكي وأسئلتي. إنه تمسّك بمنصة ينطلق منها إلى الفعل. كم يبدو شهاب بعيداً عن ماركسية الأمس وعن أية صفة حزبية!

قصدت الثلّاجة وشربت قَدَحاً من الماء. خطر لي فرحان الذي يحيا مَسَرّات مشروع خاص لا يكاد يعدو رَغَبات جسده ومحيطه العائلي الضَّيِّق مُحاذِراً الاقتراب من تُخْوم الوطن المُسَنَّنة بأسلاك الدمار الشائكة الصدئة. لا يمكن للرجلين أن يتفاهما، والطريف أنهما لو اطّلع كلّ على موقف صاحبه لما استنكره. فرحان سيقدّر دون كثير عناء عودةَ شهاب إلى الوطن والأسباب التي يُوردها، لم أسمعه يوماً يتعالى على موقفٍ مهما اختلف معه مدفوعاً بليبرالية تصل إلى حَدِّ اللامبالاة. وشهاب سيبتسم لو سمع بفلسفة فرحان في الوجود ابتسامتَه المُتسامِحة التي تفتحُ أفقاً يستوعب كل شيء. ولكن، هل أحاول بهذا الافتراض أن أفسّر جَمْعي الصداقتين؟

تمدّدتُ على سريري وغفوتُ لا أدري كيف؟ صحوتُ بعد ساعتين لأجد ضَوْءَ الصالة مُضاءً فقمت لأُطْفئه، ثم عدتُ إلى الكمبيوتر لأغلقه قبل أن أعود إلى النوم. لاحظتُ نافذة من بَتُول عليها دعوة تقول "إن كنت لا تزال صاحياً، افتحْ قناة الطرب عند منتصف الليل". كان الوقت قد تجاوز منتصفَ الليل بدقائق فقصدت التلفزيونَ بفضولٍ واجم، ولم أكن قد تابعت هذه القناة من قبل. اكتشفتُ أن منتصف الليل هو موعد بثّ أغنية لأم كلثوم كل يوم على هذه القناة. تصاعد غناءُ أم كلثوم العريق الشَّجِيّ الذي طال عهدي به وكانت في تلك الليلة تغنّي قصيدة أبي فراس "أراك عصيّ الدمع". كان لحناً يمضي بانشراح مُتَمَهِّل غير آبهٍ لشيء. وقد تابعته حتى النهاية في سكون تامّ. كنت مُتَسَمِّراً على الأريكة يملأني إحساس غامض بأن وجودي أمام التلفزيون يؤخّرني عن شاغلٍ عاجلٍ مُلِحٍّ كَمَنْ ترك طعاماً على النار عليه ألّا يغفل عنه فيحترق. تركتُ صوت أم كلثوم يتسرّب إلى

Twitter: @ketab_n

الزوايا المذهولة الصامتة من نفسي تتردَّد أصداؤه مثل نداء يصل من بعيد ويشدهني عن كلّ ما عداه:

إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى　　　وأذللتُ دمعاً من خلائقِهِ الكِبْرُ

تكاد تضِيءُ النارُ بين جوانحي　　　إذا هي أذكتها الصَّبابةُ والفِكْرُ

حين انتهت الأغنية وأعقبها سيلٌ من الدعايات الفَجّة أغلقت التلفزيون وعدت إلى الكمبيوتر فأغلقته دون أن يخطر لي كتابة ردّ على دعوة بَتُول الغريبة لسماع الأغنية التي صاغتها لأول مرة باللغة العربية. تمدّدت على سريري الضَّيِّق وأنا أُحَدِّق إلى السقف الذي كانت تمزّقه حركة ريشات المروحة المَسْعُورة. تقافزت في ذهني مشاغل كثيرة متضاربة. عدت أولاً إلى مُعضلة المرض الذي أعطبني فانفجرت في نفسي رغبةٌ في مواجهة ساندرا وصبّ غضبي عليها أو أمامها. تساءلت هل يمكن لهذه العلاقة التي أعطبها المرض أن تستمر؟ هل أغفر الغَدْر من امرأة سعت إليّ واستجبت لسعيها دون حماسة لأكتشفَ أنها مصدر داء مُزْمِن خَبِيث؟ ثم تداخل وجه ساندرا المتقنِّع بابتسامة لاهية فقدت براءتها بوجه شهاب الذي طالما رأيت عليه ابتسامةً صافيةً لا أثر لعِلّة التهكّم فيها. انقلبتُ في سريري في محاولة للتوقُّف عن التفكير وقلب صفحة، لكني تقلّبت كثيراً قبل أن أنام.

صباح اليوم التالي وجدتُ أن روجر هوبكنز قد ترك على مكتبي رسالةً مهذّبةً أنيقة. قال جفري إن روجر انتظر ليكلّمني مباشرة ولكنه اضطر للمغادرة ليلحق موعد حِصّته. فتحتُ الظرفَ فوجدت كلمات امتنان تؤكد ما سبق وأن عبّر عنه بعد التحقيق من شكر على ما أبديت من استعداد للوقوف مع الأساتذة المَنْكُوبين في تلك الليلة المُسْهدة، وفيها تأكيد أن وقفتي تلك شدّت من عزمهم وخفّفت عنهم الشعور بالغُرْبة وذلّلت من صعوبات التفاهم كثيراً. قرأت في أسفل الرسالة إشارةً إلى أن نسخة منها قد أرسلت إلى مكتب العميد للاطلاع. علّق جفري أن روجر يبقى دائماً الجنتلمان المهذّب الذي لا ينسى أي فعل تستوجبه اللياقة. ثم أردف باسماً:

Twitter: @ketab_n

- هل قرأت خلافه مع ساندرا في جريدة "الأسبوع"؟

عجبتُ لاطلاع روجر على الخلاف. كنت أعتقد لسببٍ ما أنه أمر خاص بيني وبينها. قلت له:

- نعم. عرضت عليّ ساندرا الجريدة.

قال جفري متأمّلاً كما هي عادته عندما يفتحُ صمت المكتب وعتمته أُفقاً أمامه:

- أنا أفهم ما تريدُ أن تقوله ساندرا ولها بعض الحقّ بالتأكيد، لكن روجر لم يجانب الصوابَ في مسألة مهمة. مبادئ العصر الذهبي للنزعة الإنسانية التي نوّرت الغربيين وارتقت بحياتهم تبقى الملاذَ الوحيد. هنالك هجوم شديد على النزعة الإنسانية اليوم يقوده فوكو وديريدا وبارت وغيرهم من دُعاة موت الإنسان، وكتاباتهم رائعة بليغة دون شك، لا يملك المرء وهو يقرأ فوكو إلا أن ينحني لقدراته البحثية والعقلية الفذّة. السؤال الذي يبقى يلحّ عليّ كلما اطّلعت على واحد من هذه الكتب هو ما البديل لتسفيه النزعة الإنسانية؟ هل تدفعنا عيوبها إلى الاستسلام لعدمية اللامعنى ولنزعة التنكّر لكل المؤسسات والقيم لمُجَرَّد أن بإمكاننا تفكيكها وإثبات أنها من صنع الإنسان؟ أعتقد ألّا سبيلَ أمامنا إلا التمسُّك بقيم النزعة الإنسانية لا لأنها حقّقت وعدها كلّياً وصارت أوثاناً تُعبد، بل لأنهاَ ضرورية كأفق نبقى نسعى إليه وإن أخفقنا في إدراكه. إنها أملُ الإنسانية في التعالي على الضغائن العُنْصُرية و نوازع التسلّط الغريزية والتردّي في دَرْك العدمية.

كانت حماسة جفري تتصاعد مع تواصل خُطبته وقد أصغيت إليه بانتباه وحَيْرة. قلت وقد أدهشني ألّا تمنعني اكتشافات الأمس من الانخراط في جدال جديد:

- هنالك بين العرب والمسلمين عُمُوماً من يرى أنّ العدميةَ واللامعنى ليسا البديلَ الوحيدَ للنزعة الإنسانية الغربية. يمكن بحسب جدالهم أن تمثّل العودة إلى التراث الإسلامي والعربي بديلاً قويّاً فعّالاً.

Twitter: @ketab_n

كان جفري حذراً في تناول شؤون العرب والمسلمين وبالرغم من حِرْصِه الدائم على تأكيد احترامه لهم ظل يُصِرّ على الإيحاء بأنه احترام من يحترم ما يجهل. قال دون أن تخفت حماسته:

- لستُ مطلّعاً على هذه الجدالات، لكن لدينا في أميركا الكثيرون ممن يحملون مثل هذه الأفكار. هنالك اليوم تيار قويّ يحاول إحياء قِيَم القرون الوسطى وإعادة الاعتبار إليها وتجريدها من صفة "المُظْلِمة" التي عَلِقَتْ بها. هل قرأت ألاسدير ماكنتاير؟

لم أكن قد سمعت به من قبل:

- إنه فيلسوف بريطاني يعيش في أميركا الآن، ويدرّس في جامعاتها. وهو لا يكفّ في كتبه الكثيرة عن الهُجُوم على عصر التنوير مجادلاً أن للتقاليد المُتَوارَثة عقلانيتها الخاصة لأنها تجسّد جهودَ أجيال عديدة واجهت مُعْضِلات تُشبه التي نواجهها، وفكرتْ في حلول وتوصّلتْ إلى قِيَم تضمن الحدّ من الأضرار. إنها في نهاية المطاف محاولة لإعادة الاعتبار إلى تقاليد العُصُور الوسطى ولمكانة الدين والتقليد الغربي. هل تعلم أنّ ماكنتاير هذا بدأ حياته في صُفُوف الحزب الشيوعي البريطاني ثم بدأ يتراجعُ عن قناعاته القديمة ويتخصّص في نقد رُوح الحَداثة؟

قلّبت رسالة روجر من جديد. كانت نبرتها رسميّة تكاد تتحنَّط في عبارات الامتنان المُعتادة. خَطَر لي شهاب مرةً أخرى. مازال شهاب ينتمي إلى الحزب الشيوعي بالرغم من كل الخيبات وينشط في العراق لتحقيق إصلاح قريب مما تسعى إليه النزعةُ الإنسانية، بدلاً من النُّكُوص إلى تقاليد الماضي وكُهُوفه المُظْلمة استعاض شهاب عن أُفُول اليقين بالفعل والمُمارسة الحَيّة. قلت لجفري:

- لي صديق في بغداد عاد من أوروبا للمشاركة في جمع رماد العراق دون أن يحمل أية قناعات مطلقة. إنه يرمي بنفسه في التجربة وليس له من سلاحٍ إلا الأمل.

Twitter: @ketab_n

حين بدأ جفري بطرح الأسئلة الحائرة عمّا أعني أدركت أني كنتُ أكلّم نفسي فأمسكتُ عن الكلام. ولم تتسنَّ فرصة مزيد من الأسئلة لجفري إذ دَقَّ تلفون المكتب فرفعته وكانت ساندرا. قالت بصوتٍ مُرَنّم كالغناء:

- صباح الخير. كيف حالك اليوم؟

فكرت أني مهما بذلت من جهد في إخفاء ما بي لن أتمكّن من مُجاراة ما ينمّ عنه صوتها من انتعاش ورضا. قلتُ ببرود:

- أنا بخير.

سألت وقد حدست ما وراء نبرتي:

- ما بك؟ هل أنت مريض؟

كان جفري قد انصرف إلى أوراقه لكن وجوده منعني من التمادي في الحوار قلت:

- لا، لا. ربما سنتحدّث فيما بعد.

قالت باهتمام:

- أنا وحدي في المكتب. إن شئتَ تعال إلى هنا.

- سأرى، إن توفَّر لي الوقت سأفعل.

لكني قرّرتُ ألّا أذهب إليها. هنالك في داخلي سُخْطٌ عليها لا أعتقد أن بإمكاني السيطرة عليه أو التخفيف منه، وكنت أخشى أن يقودَ اللقاء إلى مشهد عاصف لا تصلحُ مكاتب القسم المَرْصُودة بأعين النَّمِيمة المُشْرعة مسرحاً له. قالت ساندرا بنعومة:

- حسناً. أنا أتصل بك لأني بحاجةٍ إلى مساعدة منك.

- ما هي؟

انتفضت وهي تردّ:

- يا إلهي! ما بك؟ تسألني وكأني أوجّه إليك اتهاماً.

Twitter: @ketab_n

رسّخ ثِقَتَها بنفسها سُخْطي غير المُبَرَّر أو المفهوم، قلتُ في محاولة لتغيير النبرة ذهبت سُدًى:

- حسناً. كيف أستطيع أن أساعدك؟

- هنالك صوت غريب في محرّك سيارتي وسأتركها في الورشة اليوم بعد نهاية الدوام. هل يمكنك أن توصلني بسيارتك من الورشة إلى البيت؟

- لا يهم.

اتفقنا على مغادرة الكلّية قبل نهاية الدوام فسبقتني إلى ورشة هيونداي.

Twitter: @ketab_n

47

تقع ورشةُ هيونداي خلف محلّ أوتوماتيكي لغسل السيارات كنتُ أتردّد إليه بين حين وآخر فأبقى داخلَ السيارة بينما هي تتقدّم على سِكّة صغيرة وسط نافورات من الماء تنهالُ عليها من كل صوب. بقيتُ هذه المرة في سيارتي خارج الورشة أنتظر ساندرا وسط أَلْسِنة حَرّ الظهيرة الحارقة، لم أشأ الاستماع إلى تفاصيل صفقة التصليح المُمِلَّة. فكرت في أي الخيارين أُفَضِّل؟ أصطحب ساندرا إلى شقّتي لنتحدّث هناك أم أكتفي بحديث قصير في السيارة ريثما نصل إلى بنايتها قرب دوّار المَحارة؟ حاولت التوصّل إلى طريقة أوجّه بها الاتهام إليها دون أن أبدو عدوانياً ودون أن يغلبني الغضب. حَرّ الظهيرة يُطبق على السيارة وجهاز التبريد يئنّ تحت ثِقَله.

كان أوّلَ ما صدر عن ساندرا حين عادت إلى سيارتي سؤال منزعج:

- لمَ لمْ تدخل معي؟

سألتها بِجَفاء:

- هل كنتِ بحاجة إلي؟ أعتقد أن الشاب الهندي على الكاونتر يعرف من الإنكليزية ما يكفي.

تَحرَّكت السيارة وبقيتُ أحدّق إلى نقطة تسبقني كلما أسرعت نحوها، قالت:

- ما بك؟

قلت بهدوء دون أن ألتفت إليها:

- لستُ على ما يُرام.

Twitter: @ketab_n

- ماذا تعني؟

التفتُّ نحوها والتقت نظراتنا للحظة فأدركنا مدى ما اشْتَجَر بيننا من جَفاء، قلت محاولاً المحافظة على هدوئي:

- أعني أني لست على ما يُرام. أشعر بتعبٍ من تصاعد وتيرة العمل ومشاكل الكلّية والتنسيق، كما أن ذلك التَّقَرُّح ما زال يسبّب لي الحكّة.. والقلق.

قالت وقد خفّ توتّرها:

- هل زرتَ طبيباً؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أستطيع أن أفعل هذا في صُور. لابدّ أن أذهب إلى مَسْقَط لزيارة الطبيب.

أعتقد أنها أدركتْ ما أعني، لكنها ادّعت الغَفْلة:

- لماذا؟

- غالبية الأطباء في صُور من العراقيين ونوع المَرَض الذي أحمله سيتحوَّل على أيديهم إلى فضيحةٍ خلال أيام.

- ماذا تعني بالمَرَض؟

- الهربيز.

كان للكلمة وقع صاعِقٌ عليها، قالت وهي تحدّق إلى وجهي المُتَّجِه لمتابعة الشارع أمامي:

- من قال لك إنك مصابٌ بالهربيز؟

قلتُ وقد خفّف الدخول في صُلب الموضوع من توتّري:

- قرأتُ عنه كثيراً على الإنترنت.

Twitter: @ketab_n

نظرت نحوي لشدّة تأثُّرها وسألت:

- هل هذا سببُ الجَفاء الذي تُبديه نحوي؟

- ما ترين أنه جَفاء هو في الواقع قَلَقٌ وحَيْرة.

كنت قد اجتزتُ دوّار المنطقة الصناعية الأول واقتربتُ من محالّ كمجيز على الطريق. قررتُ أنّ أَفْضَلَ ما أفعله هو التوجّه إلى بنايتها والتخلُّص من حِوار اكتشفتُ ما إن بدأ أنّه لَغْوٌ لا طائل فيه. قالت وانفعالها يشتدُّ مع كل كلمة تنطقها:

- ما أفهمه في حالة كهذه أن تحدّثني بوصفي شريكتك التي يهمّها مُساعدتُك على التغلُّب على القَلَق، لا أن تنسحب وتتجنّبني كأني غريبة عنك.

- ما قرأتُه على الإنترنت أثار عندي أسئلةً كثيرة.

- أية أسئلة؟

قلت دون محاولة للتَّمْوِيه:

- عجبتُ لأنك لم تتكلّفي عناء توضيح طبيعة هذا المَرَض بالنسبة إلي منذ البداية.

كنت أعلم أن طبيعةَ ساندرا المِقْدامة لن تقبل الاتهام وأنها ستلجأ إلى الهجوم، لكنها حاولتْ أن تتمالك أعصابها فقالت بهدوءٍ أدهشني:

- لقد أخبرتُك بالمَرَض منذ البداية.

كان عليّ أن أُقرِّر حينئذٍ إن كانت وهي تُخبرني بسبب البُثُور التي انتشرت على وجهها في صبيحة اللقاء الأوَّل قد ذكرت اسم المرض أم اكتفت بإشارة عابرة إلى عِلّةٍ ما لم تُحَدِّدها. قلت دون أن أعبأ بمُداراة نَبْرة الإدانة في صوتي:

- لم تكوني واضحة. لا أتذكّر إن كنتُ قد ذكرت اسم هذا المرض الخطير أم لا، لكني مُتأكِّد أن إشارتك إليه كانت عابرةً وكأنه علّةٌ بسيطة.

كنت وأنا أقول ذلك قد انحرفتُ إلى المَسار الأيسر في الشارع

Twitter: @ketab_n

استعداداً للانعطاف من دوّار المنطقة الصناعية الثاني باتجاه دوّار المحارة، وقد لاحظت هي ذلك فهتفت:

- إلى أين تمضي؟

سألتُ وأنا ألتفتُ إليها لأول مرة منذ بدأت حديث المرض، هالني التأثُّر الشديد الذي حَقَن وجهها بغضبٍ شاحب:

- ألستِ ذاهبةً إلى شقتك؟

ارتفع صوتها حتى كاد يشبه الصراخ:

- كيف أذهب إلى شقّتي وأنت توجّه إلي مثل هذا الاتهام؟

انطلقت عابراً دوّار المحارة نحو الكورنيش. صارت علامةُ المُرور الضوئية الوحيدة في صُور أمامي وشعّ ضَوْؤها الأحمر كالجَمْرة في حرارة الظهر. أضافت وقد بدأت سيطرتها على انفعالها تتهاوى:

- لقد قلتُ لك بوضوح ما أعانيه وذكرت اسم المرض، أما أن تكون جاهلاً بطبيعة المرض لا تكلّف نفسك تخصيص ساعتين من أيامك التي تستهلكها القراءة في الاطلاع على كتاب في الثقافة الجنسية فهذا أمر لم يخطر لي على بال. هل يمكن لإنسان متعلّم أن يكون جاهلاً بمرض شائع ومعروف كهذا؟

- من أين لي معرفة المرض وأنا أعيش أياماً تستهلكها القراءة؟ هنالك إجماع على كلّ المواقع التي زُرْتُها على مصارحة المصاب شريكه وتوضيح طبيعة المرض له.

انتفضت بألمٍ حقيقي وصاحت وهي تضرب بكفّيها على ساقيها:

- أنت تؤلمني بما تقول. أنت مجنون معزول عن العالم وما فيه. الكتب تُعمي بصيرتك بدلاً من تنويرك، وعُزْلتك تزيد من جنونك. لقد حاولت إنقاذك من عالمك الشمعي الذي لا تسكنه إلا المومياوات وأشباح الماضي.

Twitter: @ketab_n

لم أَقُلْ شيئاً. أدركت من خبرات سابقة بعد زواج عاصف أن ساندرا دخلت منطقةً لا ينفع معها الرَدّ. لكن صمتي زاد من غضبها فأردفت:

- كلّ هذه الكتب التي تتناثر في شقتك لا تساوي شيئاً. ما فائدتها إذا كنت ساذَجاً إلى هذا الحدّ، عاجزاً عن الفهم والتعاطُف، ميّت المشاعر. ما فائدة التعمُّق في الفلسفة إذا كنت تجهل أبسطَ المعلومات الصِّحّية عن جسدك؟ ولكن ماذا تعرف أنت عن الجسد؟

قلتُ وقد أوقفتُ السيارة في الساحة المجاورة لفندق شاطئ صُور على الكورنيش ولاح أمامي منظر البحر الفسيح الأزرق الضائع في اللانهاية:

- الهجوم خير دفاع.

جعل وقوف السيارة وصَمْت مُحَرِّكِها صوتَها يبدو كالصراخ:

- أنا لا أحتاج إلى الدفاع عن نفسي. أنت خَدَعْتَني وأنا أعلم ما يدعوك إلى ما تفعل.

- ما هو؟

- هنالك امرأة أُخرى في الطريق.

حين سمعتُ قولها ذاك شَغَّلْتُ المُحَرِّك وقفلتُ بالسيارة راجعاً من حيث أَتَيْتُ. أما هي فقد تواصل هجاؤها طوال الطريق وبقيت صامتاً. أمام البناية التي تسكنها وقفت أنتظر مغادرتها صامتاً. التفتت نحوي كأنها تهمّ بهتاف جديد لكنها صمتت وفتحت الباب مغادرةً مقعدها بما يشبه القفزة ثم أغلقته بشدّة خلفها، قبل أن أتحرك عادت وفتحته مرةً أخرى وهي تركّز نظرها في عيني بغضب مستطير وهتفت قبل أن تصفقَ الباب مرةً أخرى:

- اذهبْ إلى طبيب!

راقبتها تتعثَّر مبتعدةً وأنا أحاول أن أحدّد إن كان طلبها هذا حرفياً أم مجازياً. ماذا تعني؟ أطبيباً للأمراض الجلدية عليّ أن أراجع أم طبيباً

Twitter: @ketab_n

للأمراض العقلية؟ ساندرا وحدها ببلاغتها التهكّمية الحادّة تستطيع طرح مثل هذه العِبارات الملتبسة، وكانت قد صارحتني ذات مرة أن علاقاتها بالرجال غالباً ما تتدهور بسبب مَيْلِها الفِطْري إلى التهكّم.

تركني الحِوار حائراً بشأن مستقبل علاقتي بساندرا. هل يعني غضبها الذي شارف الهستيريا أن ما بيننا قد انقطع؟ لكن حتى لو كان مُقَدَّراً لهذه العلاقة أن تستمرّ هل يمكن أن أقترب منها وألمسها مرةً أخرى دون أن أشعر بأن ذلك التلامُس يلوثني وَيَنفَثُ في جسدي سُمُوم مرض لئيم غادر. كان الجوع يزيد من توتّري وعطشي إلى الماء يجفّف فمي وعينيّ.

Twitter: @ketab_n

48

قبل أن أدخل دوّار الشرية متّجهاً إلى شقّتي دَقّ تلفوني النَّقّال الذي وضعته بين المقعدين الأماميين. لا بُدَّ أنها ساندرا، فالرقم غريب غير مدرج في قائمة معارفي. قد تكون استلفت تلفوناً للاتصال بي. جاءني صوت لم أعرفه مباشرة.

- كيف حالك مستر سليم؟ أنا روجر هوبكنز.

ما الذي يدعو روجر إلى الاتصال بي في هذا الوقت المتأخّر من النهار؟ لم يَسْبِقْ أن تبادلتُ وإياه اتصالاً تلفونياً بالرغم من العلاقة الودية بيننا. هل يريد أن يشكرني بالصوت بعد أن ترك رسالةَ الشكر على مكتبي صباح اليوم؟

- أهلاً روجر. أنا بخير، كيف حالك أنت؟

- أنا بخير.

قال عبارةً أسمعها منه كلما تبادلنا التحية "ليست حالي شديدة السوء" not too bad وقد انتبهتُ لمعناها الحرفي لأوّل مرة. أردف قائلاً:

- لابد أن أعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت المتأخِّر من اليوم. لقد قصدتُ مكتبك عدة مَرّات فلم أجدك، وحاولتُ الاتصال بالدكتور الطاهر فلم أتمكّن من ذلك أيضاً. وأحمد اللّه أني أتحدّث إليك الآن.

سألت وقد اشتدّ فضولي وخشيت أسوأ الاحتمالات. قال روجر بتهذيبه النيوزلندي ووضوح نبرته:

- أنا أتصل لأخبر القسم أن مستر أريك جونسون بدأ يُعَدّ نفسه

Twitter: @ketab_n

لمغادرة البَلَد دون إشعار أَحَد. تعلم طبعاً المُشكلة التي يواجهها بعد افتضاح أمر شهادته المزوّرة. لقد تحدّث معي في الأمر وعبّر عن مخاوفه من العُقُوبات التي يمكن أن يواجهها، وخصوصاً احتمال أن تطلب منه الوزارة إعادة المبالغ كافة التي تسلّمها كرواتب خلال فترة عمله المُنْصَرمة. قال إنه أنفقها كلّها ولا يملك ما يدفع، وهو ما قد يعني تعرّضه لعقوبة السِّجْن. اليوم قال لي في لحظة ضعف وتوتُّر إنه قرر مغادرةَ البلاد مساءً وغادر الكلّية مُبَكِّراً لحَزْم حقائبه.

كنت أعلم أن بإمكان الأساتذة الغربيين دخول عُمان ومغادرتها وقتما شاءوا دون تعقيدات في الحصول على تأشيرات أو موافقات، وأن أريك يستطيعُ أن ينفّذ ما قال لروجر ببساطةٍ تامة. جاء صوت روجر وقد ازداد تهذيباً وصدقاً:

- أنا أتصل وأفعل ما أفعل لأن فضائح أريك تجعلني أشعر بالعار، وأودّ أن أؤكِّد لك أنه لا يمثّل إلا نفسه.

شكرته وكنت قد خرجت من السيارة ووقفت أمام مكتب عُمان موبايل وسط حَرّ الظهيرة الذي لَفَّني مثل حمّام بُخاري وضَبَّبَ عدستَي نظّارتي الباردتين بفعل تكييف السيارة. خلعتُ النظارة لأرى طريقي إلى مدخل البناية، وما إن دخلتُ شقّتي حتى اتصلت بالدكتور الطاهر. لم يأتِ رَدٌّ كالعادة. لا أدري أين يضعُ هذا الرجل الدائخ تلفونه؟ هل يُسكت صوت التنبيه فيه ما إن يدخل البيت؟ أغلقتُ تلفوني ووقفت لهُنَيْهَةٍ أفكِّر في ما يجب أن أفعل. قد يغادر أريك مساء اليوم، وقد يخبر روجر غداً الدكتور الطاهر وربما العميد نفسه أنه أبلغ وحذّر، فالأمر بالنسبة إليه أقرب إلى تثبيت موقف حضاري منه إلى وشايةٍ شخصية. كانت الساعةُ قد اقتربت من الثالثة ظهراً ودوام الكلّية الرسمي يستمرّ حتى الرابعة. لم أجد أمامي إلا التوجه إلى هناك من جديد بحثاً عن شخص يتولّى الأمر. مَسَحْتُ نظّارتَيَّ مِمّا عَلِق بهما من ضَباب وصعدت إلى الشّقّة لأفتح التكييف قبل العودة إلى

Twitter: @ketab_n

الكلّية وأنا أعلم أن أمامه وقتاً طويلاً ليتمكّن من دفع أثقال الحَرّ المُتَكوّمة في الشقة.

كانت الكلّية هادئةً بانتظار انتهاء الحِصّة الأخيرة. اتجهتُ عبر مَمَرّات خالية تقريباً إلى مكتب الدكتور الطاهر فصادفت رالف فيليب في طريقي إلى هناك ولم أكن قد رأيته منذ ليلة الحادث. بدا أكثر نحافةً من المعتاد وأقلّ اهتماماً بملابسه وقد تشعّث شَعْرُه. اقترب مني في الممرّ الخارجي المفتوح على حرّ الظهيرة اللاهب وكان يجرّ خطواته بفُتُور ملحوظ. ألقيت عليه التحية وسألته عن حاله أولاً. كنت أعلم أن الأيام الأخيرة شهدت تماديه في الشراب إلى حَدٍّ جعل وصوله إلى الكلّية متعذّراً. وقال لي جفري إنه لا يكاد يلتقي أحداً في السَّكَن ويزداد عدوانية كل يوم. نظر رالف نحوي بعينين ضاع لونهما الأخضر المُمَيّز في حُمْرة لا أدري إن كان سببها الحرّ أم الخَمْر وردّ تحيتي بصوت مَخْمُور. سألته لأختصر اللقاء إن كان قد صادف الدكتور الطاهر فأجاب بِقَرَف:

- إلى الجحيم هذا الأَبْله، الجميع يبحث عنه ولا شُغْلَ له إلا البحث عني؟

سألت أَحُثُّه على المزيد:

- لماذا يبحثُ عنك؟

- لا ادري. استدعاني اليوم وطلب مني توقيعَ رسالة إنذار ثانية، وكما في الرسالة الأُولى هنالك إنذار نهائي، لاحظ: نهائي!، إنذار بإنهاء العقد إن عاودت التغيُّب. لكني أتغيَّب وأُكَرِّر الغياب. إلى الجحيم كل هذه الكلّية. إنها الأشهر الأخيرة لي في هذه المدينة اللعينة.

أدركتُ أن رالف لن يتوقّف عن صبّ اللعنات لأي سبب فاستأذنته وصَعِدْتُ السلّم القريب من مكتب الدكتور الطاهر. طرقت بابه فلم يأتِ رَدٌّ ولم أجد بُدّاً من التوجّه إلى مكتب العميد وقد حَمِدتُ اللّه أنه لا يزال في

Twitter: @ketab_n

مكتبه. قال لي راشد الخروصي، سكرتيره الناحل الوديع الذي تلازمه ابتسامة دائمة يبدو أنه يَعُدُّها جزءاً من مَهامّ عمله، إنه في اجتماع وإن الدكتور الطاهر يحضر الاجتماع أيضاً. سألت عن موعد انتهاء هذا الاجتماع فقال إنه وَشِيك. جلست أمام راشد أنتظر وكان مكتبه مَطْمُوراً تحت أكوام من المُراسلات والكُرّاسات الترويجية لشركات القُرْطاسية والخدمات الأكاديمية بأنواعها. قال وقد لاحظ رصدي له إن العميد يضطر أحياناً إلى البقاء في الكلّية حتى الساعة السادسة، واتسعت ابتسامته المهنية الوديعة وهو يقول ذلك.

مضت عشر دقائق دون أن يخرج أحد من الاجتماع، ومما يُثير عجبي وأنا أستحضر تلك الدقائق الآن أني لم أعاود التفكير خلالها في الموقف المُلْتَهِب الذي انقضى قبل نصف ساعة مع ساندرا، كنت مشغولاً بإيصال رسالتي إلى الطاهر والعودة بأسرع وقت إلى شِقّتي. من المُؤَكّد أن خِلافي مع ساندرا وموضوعه الصّحّي أثارا في نفسي كلّ صُنُوف النقمة والجَزَع، لكنه لم يكن المصدر الوحيد لتلك المشاعر؛ مزيج النقمة والجَزَع هو مِهْنتي اليومية ونَمَط وجودي بِرُمَّته. حتى العِلَل الجديدة صارت تضيع بين سواها في لوحة خراب كبيرة. وهي كلّها عِلَل لا أملك قوةً تُتيح لي القدرةَ على التحكُّم فيها وفي آثارها. بدا أن كلّ ما يمكن لي تحقيقه هو السُّكْنَى في حَيِّها الخَرِب وإغلاق ما أمكن من نوافذ تُذَكِّرني بمن حولي.

تعالت الأصوات خلف الباب واندفع خارج المكتب رؤساء الأقسام في الكلّية. لمحتُ الدكتور الطاهر في الداخل يتبادل مع العميد حِواراً خاصّاً. قسم اللغة الإنكليزية هو أكبر أقسام الكلّية وضخامة القسم ومشاغله انعكست ارتباكاً دائماً في سُلُوك الطاهر وحالة من التشتّت والغَفْلة فهو يبدو مثل قُطْعة صغيرة من الخشب تتلاعب بها حركة التيار تنقلها ذات اليمين وذات الشمال دون أن تُغْرِقها. حين رآني الطاهر في مكتب السكرتير حياني واتَّجه إلى الباب لظنه أني أسعى إلى مقابلة العميد مباشرة. وكان من

Twitter: @ketab_n

المعتاد أن يتجاوزه أساتذة القِسْم لمقابلة العميد دون أن ينزعج هو من ذلك أو يُبادر العميد إلى ردّهم إلى القسم لاعتماد التَّسَلْسُل الإداري المعتاد. لحقت به وكلّمته خارج المكتب في المَمَرّ. شرحت له الحالة واتصال روجر وتحذيره إيّانا، فأصغى وعلى وجهه ابتسامته المحايدة وهو يركّز على بقعة في أرض المَمَرّ ثم قال وقد أدرك أني جادّ:

- هذا أمر غير مقبول. أعتقد أن علينا إبلاغ العميد ليتّخذ الإجراء المناسب.

عُدْنا إلى مكتب العميد. كان العميد يكلّم شخصاً عبر التلفون وهو يمسّد لِحْيَته الكَثّة السَوْداء بحركة مُطْمَئِنّة من أصابعه. بدا منشرحَ الأسارير وهو يتبادل المجاملات والنكات المهذَّبة مع محدّثه، وقد استغربت قدرته الفريدة على حماية صفاء مزاجه بعد يوم طويل من دُوّامة العمل واجتماع مُطَوّل انفض تَوّاً. حين انتهى من حديثه ونظر إلينا ارتسم على وجهه وقار راسخ امتزج بِفُتُور ملامحه وصار من الصعب تمييزه عنه. سأل حين علم المشكلة:

- أَلِحسابِ الوزارة يعمل هذا الأستاذ أم لفكتوريا؟

قال الدكتور الطاهر:

- فكتوريا.

داخل وِقارَ العميد ارتياحٌ وقال:

- نتصل بعبد اللّه إذن.

أعلم أن عبد اللّه هو مدير شركة فكتوريا للتشغيل. وهو مصري في الأصل يحمل جنسيةً أسترالية. كانت الساعة تقترب من الرابعة عصراً وهو موعد نهاية الدوام وقد ردّ عبد الله كما يبدو مُوضحاً أن الأمر يسير وأنه سيتصل بأريك ليحذّره من الإقدام على أي عمل أهوج لأن اسمه سيكون لدى سلطات الهجرة في المطار لمنعه من السفر.

Twitter: @ketab_n

غادرتُ مكتب العميد مع الدكتور الطاهر وقطعنا المسافة التي تُمَثِّل عُمْق الكلّية كلها من مكتب العميد إلى مكتبه. أطلق زَفْرة مُتْعَبَة وقال:

- لا أكاد أصدق أن هذا العام سينقضي بسلام. المشاكل تتزايد... وبالمناسبة، رالف وقّع اليوم إنذاراً ثانياً وقد حذّرته بشدّة من مُعاودة الغياب.

- رأيته قبل قليل. يبدو مخموراً.

- تدهورت حاله كثيراً منذ الحادث، وقد كلّمت العميد عنه فقال إن العام الدراسي على وشك الانقضاء وليس أمامنا إلا تَحَمُّلُه حتى النهاية. إلغاء عقده الآن سيسبّب إرباكاً شديداً. المشكلة أن العميد حريص على عدم التَّعَرُّض لرالف وأمثاله بِسُوء. ذكّرته بقضية تزوير أريك لشهادته فقال إن المسألة محصورة بين الوزارة وفكتوريا.

قلتُ غير مصدّق:

- لكن مرورَ أسابيع على الفضيحة دون اتخاذ إجراء يعكس صورةً سيئةً عن مدى جدّية القِسْم والكلية في التصدي لحالات الغِشّ والتزوير هذه.

قال الطاهر وهو يدفع الهواء بذراعه اليُمْنى:

- إذا استمرت الحال كما هي، وبقيت المسألة ضائعةً بين مختلف الأطراف فإن أريك سينهي العام الدراسي دون أن يَمَسَّه أحدٌ بسوء. قال لي العميد ليطمئنني إن عقد أريك لن يُجَدَّد في العام القادم وكأن المسألة تخصّ تجديد العقد.

تطلّع الدكتور الطاهر نحوي وظلّ صامتاً يجهد في تذكّر أمرٍ ما ثم قال وقد انفرجت أساريره لأن ذاكرته لم تُعْطَب كلّها بَعْدُ:

- بالمناسبة مطلوب منا إعداد قوائم بأسماء الأساتذة الذين ينوون تجديد عقودهم، وأولئك الذين لن يجدّدوا. كما طلب العميد أن نقترح أسماء الأساتذة الذين تسبّبوا بمشاكل لإنهاء عقودهم في نهاية العام.

Twitter: @ketab_n

كانت مَمَرّات الكلّية قد خلت تماماً الآن، وكنت أستعجل العودة إلى البيت. حين افترقنا سمعتُ الطاهر يناديني وقد قفز إلى ذاكرته أمر آخر:

- بالمناسبة سليم، أرجو أن تتابع حالة ستورمي أيضاً. لقد بدأت تتغيَّب عن بعض حِصَصِها هي الأخرى، وسمعت من بعض الأساتذة أن علاقتها مع رالف تَتَدَهْوَر.

لو كان قد قال ذلك في وقت آخر لكنت طلبت المزيد من التفاصيل، لكن التعب والمَلَل والجوع تضافرتْ في تلك اللحظة لدفعي خارج الكلّية دون إبطاء.

Twitter: @ketab_n

49

في نهاية ذلك اليوم أَنْهَك جسدي تعبٌ أقرب إلى التوتُّر أورثني شعوراً بالخَواء. لم أكن مشغولاً بشيء بعينه لكنه خَواء يملأ كل حَيِّز في النفس ولا يترك طاقةً تسمح بالاستمتاع بكتاب أو فيلم أو دَرْدَشة مع الأهل والأصدقاء. تمدّدتُ لدقائق في محاولة لتسليم أمري للنوم لكنه تمنّع ثم أبدى خُبْثاً عندما زارني لدقيقة أو اثنتين وهرب على حين غِرّة دون سبب مفهوم. فتحت عينيّ على فضاء الغُرفة المَكْلُوم بريشات المَرْوحة وفكرت ألّا حَلَّ إلا بجولةٍ على الكورنيش. خطر لي بالطبع أن مسيرةً على الكورنيش ستعني دون شك لقاء بأحد الأساتذة وهو أمر لم أكن مستعداً له. لكنه أهون من الوحدة وتأمُّل مشكلة لا يبدو أن لها حَلّاً. كل ما طمحت إليه تجنّب مزيد من التوتّر إلى حين.

غادرتُ الشّقة في السابعة والنصف مساءً وكانت الشمس تُرْخِي قبضتها عن الشوارع والناس. بدلاً من الكورنيش انطلقتُ يميناً باتجاه مركز المدينة، ربما لأنه المكان الوحيد الذي يوفّر زِحاماً مُتنوّعاً مشغولاً بنفسه ومقاصده. كان على يميني فَرْع بنك مَسْقَط في الشرية وقد خَفَّ زِحام السيارات قرب رصيفه ووقف شابٌّ في دَشْداشة عُمانية ينتظر دوره على ماكنة الصَّرّاف، ثم لاح لي من بعيد مقهى "الخروف التركي"، وكما توقّعت كان الدكتور حاكم يجلس على أريكته المعهودة كالتمثال تلفُّه سَحابةٌ من دُخان سجائره. كانت القطيعة بيننا قد تأكّدت دون سبب مُعْلَن أو مواجهة ما. امتناعه عن تحيتي ثم ما سمعت من قول بَتُول عن تعريضه بي أمامها لا لشيء إلا لأني رفضتُ الانخراط في حِلْف قبيلته المعادي للطاهر أمور نَأَتْ بي عنه وقد أغضبتني وِصايتُه علي. ولابد أنه رآني. تساءلت وأنا أتجاوزه وأقترب من

Twitter: @ketab_n

بنك عُمان الدولي وصيدلية مصيرة إنْ لم يكن قد أصاب في نصائحه لي. ها هو ذا يقطفُ ثِمار عُزْلته وإتقانه لعبة العلاقات في الكلّية، فهو لا يبقى فيها بعد الثانية عشرة ظهراً، أمّا جَدْول حِصَصِه الذي يضع نسخةً منه على باب مكتبه فيعجب المرء كيف تأتّى له ترتيبه بحيث تنتهي محاضراته كل يوم في منتصف النهار لا تتعدّاه بينما تتناثر ساعاتُ الأساتذة طوال النهار حتى الرابعة عصراً. ليس من شكّ أن هذه المِيْزة تعود إلى صِلاته العُمانية الوثيقة ومجاملاته اليومية لموظَّفي التسجيل حيث تتقرَّر جداولُ الأساتذة. لا أعرف أستاذاً آخر نجا من حصص ما بعد الظهر إلا هو. كما أن مغادرته الكلّية قبل أربع ساعات من نهاية الدوام امتياز تَوفَّر له بفضل القطيعة التامة بينه وبين الدكتور الطاهر، فالأخير لا يقتربُ من مكتبه ولا يكلّفه بشيء وأعتقد أنه ينفر من النظر إلى وجهه المُكتئب المُكْفَهِرّ طوال ساعات وجوده في القسم.

قلت لنفسي إن حاكم خارج من إحدى قصص تشيكوف دون شك، وتذكَّرت إصرار شخصيات تشيكوف وهي تصارع المَلَل والخَواء واللامعنى على أنّ العَمَل والعَمَل وحدَه هو العِلاج الناجع. وها أنذا اخترتُ العمل فماذا وَفَّر لي سوى الصُّداع الدائم والتخبُّط في فوضى الطاهر وهو يقذف بالمَهامّ على المُنَسِّقين دون أن يدري ما يفعل. هنالك إذن خياران لا تُوَفِّر صُور ثالثاً لهما فإمّا خَواء الحياة التي يعيشها حاكم، وإمّا فوضى العمل الذي يقدّمه الطاهر. وقد أصاب حاكم في ناحيةٍ أُخرى، ألم يحذّرْني من التمادي مع الأساتذة الأجانب ويتحدّث عنهم كما لو كانوا كائنات قادمة من كواكب أُخرى تحمل ما لا حصر له من المخاطر؟ ها أنذا ألتقطُ عبر اقترابي منهم فيروساً خطيراً سيلازِمُني مدى الحياة. هنالك لدى حاكم حكمة تصيبني بالغَثَيان. إنها الحكمة نفسها التي استخدمها أثناء سنوات المِحْنة العراقية ليتعايش مع استبداد النظام فيتماهى معه ويصبح جُزْءاً من آلته المدمّرة ويقطف منه كل ما يدعّم أركان وجوده الضَّيِّق الأناني. تبّاً له! وتبّاً لحكمته! وتبّاً لي ولتشبُّثي بالمعنى في مَتاهة التدافع من أجل البقاء الآمن.

ضاق الرصيفُ عندما اقتربتُ من مركز المدينة وأسلمتُ نفسي لِمَساره

Twitter: @ketab_n

المؤدّي إلى السوق الرئيس حيث مَحالُّ العُطُور والكهربائيات والمطاعم ووكالات السَّفَر والشحن ومزيد من فروع البنوك. هنالك حشد من شباب الهند وباكستان يتوزَّع على الأرصفة والمقاهي. مجموعة كبيرة كانت تقف أمام واجهة مَحَلّ لبيع المواد الكهربائية يعرض مباراة في كرة القدم على شاشة إحدى التلفزيونات المعروضة للبيع. يبدو أن صاحبَ المحل استخدم المُباراة وسيلةً لجذب الأنظار إلى محلّه، فالتجمع كبير والأعناق مشرئبة في اهتمام يُثير فضولَ المارة إلى أسبابه المُحتملة. يعيش معظم هؤلاء في غرف صغيرة مزدحمة لا تحتوي إلا الفراش وعُدّة بدائية للبقاء. التلفزيون بالنسبة إليهم رفاهية لا تجود بها جُحُورهم الضيقة الجَرْداء ومصدرها الوحيد هو المَقْهى أو واجهة مَحَلّ كهذا. مباريات كرة القدم هي المُتعة التلفزيونية الأولى في مقاهي صُور والحماسة التي تحصدها من متابعيها ظلّت دائماً مبعث دهشة فائقة في نفسي.

توقّعت أن خروجي من الشِّقّة سيعني لقاء أحد من الأساتذة؛ المدينة صغيرة وأساتذة القسم كثيرون. لكني لم أتوقّع أن يكون من سألقاه هو الدكتور الطاهر نفسه. كان يمشي نحوي في الشارع الرئيس حاملاً طفلةً صغيرةً على ذراعيه يصحبه ولدان مُتقاربان في العمر انشغل بمراقبة حركتهما. لم يبقَ أي أَثَرٍ لارتباكه وتَعَبه وجَزَعه في الكلّية ولم أَكُنْ قد رأيت على مُحَيّاه مثل هذه البشاشة الوادعة والتخفُّف التامّ من قبل. حين رآني سطعت على وجهه ابتسامة ودّية طَيِّبة وأطلق ضحكته المتواضعة حدَّ التَّردُّد وهو يردّ تحيتي. قدّم لي أولاده:

- هذه آخر العُنْقُود مديحة، وهذان محمد ومحمود.

- ربّي يصُون.

وهي عبارة شمال إفريقية تعلّمتها في ليبيا تُقال عند لقاء طفل. قال الطاهر إنه يسكن شِقةً قريبةً من السوق ودعاني إلى قَدَح من الشاي فشكرته وقلتُ مازحاً إن جلسة معي ستعيدُ إليه صُداعَ القسم من جديد. ودّعته

Twitter: @ketab_n

وواصلت المسير إلى نهاية شارع السوق. لقد نسج الطاهر هو الآخر شبكة حماية لوجوده جعلت الكُلّية هامشاً وضرورة طارئة.

وجدت نفسي أمام مَخْبَز الانشراح الذي يبيع خُبْزاً أسمر لذيذاً فدخلت لأشتري منه، وكان صاحب المحل الهندي والعامل الذي يقدّم الطلبات للزبائن مُنْهمكَيْن في عملهما بصمتٍ وانشغال دؤوب في حماية تكييف ضعيف. تذكّرت أن ساندرا هي من اقترح علي الخُبْز الأسمر لما فيه من ألياف تنفع الصِّحّة فباغتني التهكُّم كالطَّعْنة.

انتقلت في طريق العودة إلى الجانب الآخر من الطريق ومَرَرْتُ بمطعم زكي الذي نثر على الرصيف بعض المناضد والكراسي البلاستيكية، ووقف أمام نار الشاورمة في رُكْن مَحْجُوب بالزُّجاج عاملٌ هندي يعدّ الفطائر بحماسة منقطعة النظير. على الكراسي توزَّع بعض العُمانيين أمام صُحُون الحِمّص والشاورمة منهمكين في أحاديث حماسية. كان العَرَق والحَرّ قد سربلا مسيري بغيمةٍ لَزِجة. سعيت وأنا أتطلع حولي بحياد وفُتُور إلى فعل شيء يقدّم لي بعض السلوى. أخرجت تلفوني وطلبت إنعام في بغداد. لم أتصل بالأهل منذ أكثر من أسبوع وهو أمر لا أستطيبه، فغالباً ما يجعلني انقطاعي عن الاتصال مدةً طويلةً أغفل عن حدث كبير مُرَوِّع. كان الفرق في الوقت بين صُور وبغداد لا يزيد على ساعتين. رَدَّت إنعام بصوتها المطمئن الهادئ وبتلك النَّبْرة التي تعكس عُقُوداً من تعوّد المِحَن حتى صارت جزءاً من رَتابة الحياة اليومية. حين تبيّنت صوتي ارتفعت نَبْرة الترحيب في صوتها. سألتها عن الأحوال في البيّاع فقالت إن الأمور أفضل، ولم أقتنع فقد تعوّدتُ محاولات إنعام بثّ الطمأنينة في نفسي والنأي بي عن عذابات لا طائل في الاحتراق بنارها. قلت دون أن أعتمد في قولي على خَبَر مُحَدَّد:

- لكنِ الأخبار في القنوات الفضائية مُرْعبة. القتل مستمرّ وهو قتل على الهوية.

صمتت إنعام كأنها تُقَرِّر مقدار ما يمكن أن تكشف لي من المأساة ثم أطلقت ضحكةَ تهكّم خافتة:

Twitter: @ketab_n

- لا حاجة إلى الهويات كما يبدو، الصراع في البيّاع الآن انتقل إلى تصفيات دموية فيما بين الميليشيات الشيعية وحدها.

- كيف؟

- يبدو أن جيشَ المَهْدي قد حسم الأمر وسيطر على معظم مناطق البيّاع ولم يبقَ من مُنافس له إلا قُوّات بدر، وهكذا صار الصراع شيعة ضد شيعة.

- يا إلهي، هذا جنون!

قالت إنعام دون أن يغادرها اطمئنانها ورباطة جأشها:

- جارنا أبو محمود.

- ما به؟

- اتضح أن أحد أقربائه ينتمي إلى المجموعات الإرهابية، وصل اسمه إلى قيادة جيش المهدي فجاءوا إليه وطلبوا منه إخلاء داره خلال يومين أو أن يَدُلَّهم على مكان قريبه ذاك. بقي الرجل حائراً ماذا يفعل، فهو لا يعرف أين قريبه ولا مكان له ينتقل إليه. بعد يومين عادوا ورموا قنبلةً صوتيةً في بيته كسّرت زُجاج النوافذ وأدخلت الرُّعْب في قلوب أطفاله وزوجته. في اليوم التالي جاء بسيارة نقلت أثاثه إلى جهة مجهولة. بعد يوم واحد انتقل إلى الدار رجل كَهْل لا نعرفه مع أطفاله وزوجته بعد أن كسر الباب.

بقيت أُردِّد بذُهُول:

- هذا أمر غير معقول، وأين الدولة؟ الشّرطة؟

- أية دولة سليم؟ البلد بدون دولة، الميليشيات في كل مكان والصِّراع يقود إلى صِراع، لا يوجد حسم أو نتيجة يمكن انتظار الفَرَج منها.

أردفت إنعام فجأةً بصوتٍ ضاحك:

- هذه الوالدة . . . تريد أن تحدّثك، وهي غاضبة مني لأني أستحوذ على كل الوقت وقد تضربني. . .

Twitter: @ketab_n

كان الأهل يعلمون أن اتصالي بالموبايل قصير لا يتجاوز الربع ساعة فقد كنت أستخدم كارتاً لا يسمح بالرغم من ثمنه الباهظ بأكثر من هذا الوقت. جاء صوتُ الوالدة الذي لم يؤثّر في صفائه ونبرته الحَيّة عَبَثُ السنوات الطويل بجسدها الواهن:

- إنعام هذه لم تترك لي شيئاً. كيف حالك؟

- أنا بخير، كيف أنتم؟ ما مشكلة أبي محمود؟

قالت الوالدة وقد اختنق صوتها تأثُّراً:

- مُصيبة، المسكين سيموت. لا أعتقد أنَّه سيحيا طويلاً بعد ما حدث. المشكلة أنه عانى نوبةً قلبيةً قبل عامين! قالت لي زوجته حين جاءت تُوَدِّعني إنها تخاف عليه من الموت لأنه لم يَنَمْ خلال أسبوع كامل إلا ساعات قليلة.

قلتُ بانزعاج مما أسمع ومن نفسي لأني بادرتُ إلى إثارة الموضوع مع الوالدة:

- هذه طريقةُ صدّام في عِقاب الناس. كان يسأل عن الأقارب حتى الدرجة السادسة لمن أُعدم وسُجن بسبب معارضته النظام ليضع اسمه في القائمة السوداء، هل لجأت الميليشيات إلى أساليب الظالم نفسها؟

أردفت الوالدة وقد عادت اليقظةُ إلى صوتها:

- الجُثَث تجمع مع الزُّبالة كل صباح، وأنا أقضي النهار كله أتقلّب على نار القلق والتوقّعات السود بانتظار عودة إنعام من العمل بسلام . . . أنت كيف حالك؟

كانت الوالدة تنتقل إلى هذا السؤال كلما توسّعت في وصف المأساة المتفاقمة حولها كأنما لتذكّر نفسها أن ولدها الوحيد بخير. قالت:

- الناس جميعاً يهنّئونني لأنك خارج البلاد بعيد عن المصائب التي

Twitter: @ketab_n

تقع كل يوم. سألت الكثيرين عن إمكانية أن تزورنا خلال العطلة فحذّرني كل من سمع سؤالي. ابْقَ في مكانك سليم. وجودك بعيداً هو مصدر الراحة الوحيد بالنسبة إلي.

كان صوتها قد غصّ بالبكاء، وكان لا بد أن أقول كلمةً تشجّعها وتمنحها بعض الأمل. وقد وجدت صعوبةً في العثور على ما أقول:

- لا تيأسي من رحمة الله. لابد أن تنتهي هذه الحال.

قالت الوالدة باستنكار:

- ما علاقة المُتَديِّن بالسياسة وألاعيبها؟ لقد نشأتُ وأنا أسمع أبي يردّد دائماً أن على رجل الدين الابتعاد عن السياسة والدولة.

كان جدّي رجل دين يمتهنُ التعليم في المدارس الدينية. قاطعتها لأخفّف من البَلْوَى:

- كيف حال البنات في الحِلّة؟

طلبت مني إعادة السؤال وأكدت أنهن جميعاً مع عوائلهن بخير. حين أدركت الوالدة من نبرة صوتي المتعجلة في تلقي آخر الأخبار أن الخَطّ يوشك على الانقطاع قالت تختتمُ الحديث:

- ابني سليم. اسمعني، أريد منك أن تلزم الصّلاة والدُّعاء. أنا أدعو لك كل يوم ولقد استودعتك فاطمة الزهراء أن تحفظك في راحة كَفِّها من كلّ مَكْرُوه. كُنْ حَذِراً، الغُرْبة صعبة ووجودك وحيداً يشغلني كثيراً.

قلت:

- لا تقلقي يا أماه، لديّ أصدقاء كثيرون والحياة هنا مستقرة سَهْلة، لا مشاكل..

ثم انقطع الخطّ، وكنت أوشك على الوصول إلى دوّار الشرية المُزدحم بحركة السيارات الحَلَزُونية حوله فانعطفت إلى شقتي ساهماً أشعر بنوع من الاختناق.

Twitter: @ketab_n

49

صادفتُ صباح اليوم التالي أريك في الممرّ المؤدّي إلى الحَمّامات. لمحته بين زِحام الطلبة الأبيض والأسود، كان يتقدَّم باتجاهي بنشاط غير مَعْهُود. حين رآني ارتسمت على وجهه ابتسامة دَهاء وتسامُح. قال عندما مرّ قربي دون مقدّمات أو تحيات بما يشبه الهَمْس:

- ها أنذا مازلتُ في القسم. لا تقلق.

اكتفيتُ بالنظر إليه مستطلعاً وتعمّدت ألّا أردّ. واضح أن أريك مقتنع أني السبب في إفشال محاولته الهرب. قال لي جفري فيما بعد إن مدير فكتوريا قد اتصل بأريك بينما هو في الطريق إلى مَسْقَط يحمل حقائبه وحذّره من الاقتراب من المطار لأن الوزارةَ قد طلبت من إدارة الهِجْرة منعه من السَّفَر. لم يصدّق أريك ما قيل له وأن تُتَخَّذَ كل تلك التحوطات في أقل من أربع وعشرين ساعة، لكنه قَرَّر العودةَ إلى صُور وعدم المجازفة لئلا يزداد وضعه تعقيداً. عاد بعد السابعة مساء في تاكسي وأنزل حقائبه بعصبية وانزعاج لم يعهدهما فيه. لم يكن جفري متعاطفاً معه. كان يشارك روجر في الشعور بأن أريك لا يمثّل إلّا نفسه فحسب، وبأنه يعكس صورة مشوّهة عن زملائه القادمين من الغرب.

حين اقتربنا من الضُّحَى غادر جفري إلى حصته وبقيتُ وحدي في المكتب. انغمرت في كُدْسٍ من الأوراق والمتابعات استعداداً للامتحانات النهائية لبعض الوقت ثم سمعتُ دَقةً خفيفةً على الباب ومَدَّت ساندرا رأسها الذي كان يحمل ملامح مُستطلعة حَذِرة كأنها تدخل مكتبةً عامة. حين وجدتني وحيداً أضاءت وَجْهَها ابتسامةٌ وأغلقت الباب خلفها ثم وقفت تجاهي كطالب اقترف حماقة:

Twitter: @ketab_n

- سليم، أنا آسفة جداً على ما قلت. أرجوك أن تفهم صعوبةَ موقفي. أنا أتعذّب كثيراً. . أنا أحبك.

لم أتوقع يوماً أن أتلقّى إعلان حب من امرأة مثل ساندرا بكل هذا القَرَف والغَضَب. كان دخولها المكتب في ذاته كافياً لإثارة استياءٍ غريبٍ في نفسي. لم تعد ساندرا مُغامَرةً فرضت نفسها عليّ، صارت الآن تمثّل هفوةً كارثية النتائج، وعجبتُ كيف أنها لا ترى فظاعة الخِسارة الصحية التي أصابتني نتيجة تَكَتُّمها وأنانيتها. لم أجد ما أقول. كانت تقف ضعيفةً توشك على البكاء. حين قالت "هل تجد صعوبة في العفو؟" انخرطتْ في البكاء ولم أكن قد رأيتُ وجهها الطافح بِشْراً في العادة باكياً تشوّهه محاولة التغلّب على هَبّات الألم التي تعتصرها. كان لا بد من التنازُل والحِوار، قلت وأنا أتجنّب النظر إليها:

- أنا لا ألومك الآن، لكني ألوم نفسي وألوم جهلي.

هتفتْ بصوت أعلى مما قصدت أن يكون:

- لماذا؟

رفعتُ نظري إليها بنظرة لا تخلو من تأنيب:

- تذكّري أننا في الكلّية تحيط بنا جَوْقة من الباحثين عن خَبَر مثير.

انخفض صوتها وهي تقول:

- أنت تبالغ في الأمر. عليك أولاً أن تزور طبيباً لتتأكّد. يمكن ألّا تكون مُصاباً، ربما يكون خَدْشاً بسبب شدّة الاحتكاك.

قالت ذلك وانتبهت إلى ما تنطوي عليه كلمة "احتكاك" من معنى فأطلقتْ ضحكةً اختلطت بدموعها. ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام، شجّعها ذلك فأضافت:

- لا تضيّع أجمل شيء في حياتنا هنا من أجل وَساوِس مَرَضِية.

عاودني الكَدَر. قلت بوضوح:

Twitter: @ketab_n

- ساندرا، اجلسي أولاً ودعيني أكلِّمك بصراحة.

جلستْ على الكُرْسي المقابل لمكتبي دون أن تبعد عينيها عني وهي تتحرك كأنها تتوقّع مني حركة غير متوقّعة. قلت وأنا أجد صعوبةً في العثور على كلمات ونَبْرة منطقية مُتماسكة وسط هذا الجنون:

- بعدما قرأتُ عن هذا المَرَض وعن السهولة الكبيرة التي ينتقل بها حتى عندما لا تكون أعراضه ظاهرة، أعتقد أن علاقتنا لن تتعدّى الصداقة.

كانت ساندرا واقعيةً وعمليةً كما هي دائماً. قالت وقد جفّت دموعها:

- دعنا نفكِّر بعقل ودون انفعالات.

عجبتُ لهذا الرد لأنها هي من بادر إلى الدموع والانفعال. تركت لها المجال لأرى كيف يمكن للعقل أن يشقّ طريقاً في فَوْضَى المَرَض والكُهُولة هذه. قالت:

- هنالك احتمالان لا ثالث لهما. إمّا أن تكون إصابتك طفيفةً ولا علاقة لها بالمرض وفي هذه الحالة فإن العلاقة يمكن أن تستمرّ. . . وإما أن تكون مصاباً، وأنا أعتذر وأُبدي أسفي إذا صحّ ذلك، ولكن لنقل جدلاً إنك مصاب.

صمتتْ لِثَوانٍ ثم أردفتْ بما يُشبه الاعتذار عن عَبَثِية المُقْتَرَح بالرغم من منطقيته:

- في هذه الحالة لن يكون في لقائنا خطر جديد.

حدّقتُ إلى عينيها بنظرة حارقة. كان سُخْطي قد بلغ حداً لم يعد معه التحكّم سهلاً، قلت بانفعال:

- هل أنت جادة؟

قالت بهدوء:

- أرجوك أن تتجنّب الانفعال. قلت لك إن ما نحتاج إليه هو الهدوء والتعقُّل. ما البديل إذا كنت مصاباً؟ هل تعيش وحيداً ناسكاً كي تُجَنِّب

Twitter: @ketab_n

المرأة القادمة الإصابة؟ أحياناً أفكر أن هذا المرض يمكن أن يجمعنا إلى الأبد.

لم أَحِدْ بنظري عنها. كان ما تقوله مفاجأة أقرب إلى الصدمة. قلت بعدائية مَحْض:

- هل ما تقولين واحدة من سُخْرياتك المعروفة؟ هل هي سُخْرية سوداء؟

قالت باعتذار وجدية:

- إطلاقاً. أنا أعني ما أقول، وأرجو أن تردّ على محتوى قولي بدلاً من توجيه الاتهامات لي.

كنت أبحث عن ردّ يليقُ بمنطقها الغريب عندما انفتح بابُ المكتب وأطلّ منه زكي خليل. هل كان يتنصّت خلف الباب؟ ما إن رأته ساندرا حتى هَبَّت واقفةً وقالت إنها ستكلّمني في الأمر مرةً أخرى. لم تكن محاولتها الابتسام سَهْلة، وكانت ابتسامتها عندما خَرَجَتْ حزينة ضائعة.

يمكن لزكي خليل تقديم سَرْد عما يحدث في القسم يفوق ما أُقَدِّمه غزارة وطرافة وفضائحية. إنَّه المتلصّص الأزلي الساعي إلى إثبات حقيقة واحدة محدّدة خلاصتها أن لدى كل واحد من البشر فضيحة صَغُرت أم كَبُرت تؤكّد نقصه وضعفه أمام غرائز الجسد. وبالرغم من كثرة الأدلة التي جمعها خلال جهوده المتواصلة لاكتشاف المخفي فإن تَعَطُّشه إلى المزيد لم يَرْتَوِ، بل هو يزداد كلما أَحْرَز دليلاً يثبت نظرته السوداوية المستريبة إلى حقيقة الإنسان. تبقى حَماسَتُه تثير دهشتي، لأن ما يسعى إليه قد تحقّق له منذ زمن بعيد فهل يستهويه الاحتفال بفضيحة جديدة لذاته؟ إن ما أسعى إليه وأنا أكتب هذه الصفحات أمرٌ آخر لا يمتّ بصلة إلى دوافع زكي وغاياته. أما تحديد دوافعي وغاياتي فليس بالأمر الهَيِّن. أنا أسرد ما حدث كمن يتحرَّك في حَيِّز مظلم يحدس محتوياته ولا يعرفها معرفةً يقينيةً وما أبتغيه من وراء السَّرْد وربما بعد خاتمته شيء لا أعرف كُنْهَه الآن. كنت قد أسميته

Twitter: @ketab_n

تحويل المُصادفة إلى سبب، لكنني وأنا أصل إلى هذا الحَدّ من حكايتي أُواجِه خطر التَّشَظّي والسقوط في عشوائية الخامة التي أحاول تشكيلها. والطريف أنّ الْتِباسَ الغاية، شأنه شأن وضوحها في حالة زكي، لا يزيدني إلّا شغفاً في مواصلة السَّرْد، وعزائي أن ما أفعل يمكن أن يقدّم لي عَوْناً لا أفهم سِرَّه.

لم يَبْدُ على زكي أنه قد سمع شيئاً من حِواري مع ساندرا، لكنه حَدَس بحاسته السابعة (وهي مختصة بالفضائح، السادسة أقلّ تَخَصُّصاً منها!) أن ثمة أمراً سرّياً يُطبخ في هذا المكتب المُعْتِم المَعْزُول. ألقى نكاته الاستكشافية واتهمني بالدهاء والتَّسَتُّر لكني لم أشجعه على الاستمرار وذكّرته بأن التنسيقَ ومشاكله لا يترك لي وقتاً لمشاركته في هواياته التلصُّصِيّة. كنت أحاول تذكيره أن مشكلة وقت الفراغ التي يتنعّم بمزاياها بفضل عُزُوفه عن أية مسؤولية في عمل القسم (على طريقة الدكتور حاكم) ليست مما أعانيه بل ما أَتَمنّاه. لم أَجِدْ طريقةً أُبْعِد بها زكي عن أسراري وأدفعه إلى كشف ما لديه من أسرار في آنٍ واحد إلا الإيحاء له أن وجوده معي لا يعني الكثير وأني لا أحفل بما لديه، ذلك أمر يدفعه إلى الانطلاق في سَرْد ما لديه من عجائب ليُثْبت لي العكس. وهذا ما تحقّق حينئذٍ إذ بدأ بآخر فضيحة سمعها عن أستاذ أسترالي من أصل تُرْكي استدعاه الدكتور الطاهر قبل يومين بعد أن وَرَدَتْ شَكْوَى من بعض طلبته مَفادُها أن هذا الأستاذ يخزن على حاسوبه المحمول صوراً إباحية فاضحة وأنه عرض بعضاً منها على الطلبة في مكتبه. ولأنَّهم من طلبة السنة الثانية فقد كانوا يعرفون الطريق إلى مكتب العميد جيداً. لا بد من الإقرار أن هذه الفضيحة أثارت اهتمامي. وكان زكي يستقصي تفاصيلها في سلسلة من النُّكات القصيرة.

قدّمتُ له الشاي وكنت أنتظر أن يكشف عن غايته من الزيارة. قال وهو يرشف الشاي باستمتاع كامل:

Twitter: @ketab_n

- ما أخبار شِقّتك، هل أنت مرتاح فيها؟

مرّ السؤال خاطفاً في مجموعة مُرَشَّحات تأويلية متشكّكة. قلت:

- الحمد لله، ولكن سؤالك غريب.

لم يفقد شيئاً من سِيمائه المستريحة وقال:

- أبداً، هنالك شِقّة في البناية التي أسكن فيها فرغت أمس وقد زارني صاحبُ المِلْك واقترح أن أساعده على البحث عن أحد الأساتذة لينتقل إليها بدلاً من أن يفرض شخص غريب لا أعرفه نفسه عليّ وقد يسبّب لي بعض الإزعاج.

ضحكت وأنا أقول:

- ألا تكفي رقابة ساعات الدوام؟ هل تريد رقابةً أربعاً وعشرين ساعة؟

ردّ بضحكة مُجَلْجِلة وقد راقَه التهكّم واستهواه. قال:

- لكنك تردّد دائماً أن ليس لديك ما تُخْفيه.

أعقبت تعليقه نظرة مُعَلَّقة بوجهي تنتظر إقراراً بأمر خطير وإذناً عند سماع ذلك الإقرار بإطلاق ضحكة عالية، قلت:

- وهل وردتك معلومات تفيد خلاف ذلك؟

ظلّت النظرة تسعى في وجهي بحثاً عن ذلك الإقرار. خطر لي أن هوس زكي بالمُزاح يخفي مخاطر حقيقية. سألني بعد أن خَذَلْتُ تَطَلُّعاته:

- هل تحوّلت ساندرا إلى السكن في بنايتك؟

هذا هو لُبُّ الزيارة إذن. تماسكتُ وقلت بلامبالاة:

- ساندرا تعيش في شِقَق فكتوريا المؤنّثة وأنت تعلم ذلك.

تراجع بِمَكْر:

- لا أدري. أرى سيارتها قريبةً من بنايتكم بين حين وآخر. ولكن ربما تزور جورج فهما في مكتب واحد.

Twitter: @ketab_n

شعرتُ بجَزَع حقيقي وتساءلت لماذا أُعاقَبُ بكل صنوف الأذى هذه لاستضافتي ساندرا؟ وما موقف زكي لو عرف بعلّتي التي خرجت بها من هذه الاستضافة؟ قال لي زكي ذات يوم إنه يُفَضّل تناول غدائه بين حين وآخر في مطعم مستشفى صُور الحديث القريب من الكلّية بدلاً من مطعم الكلّية الذي يفتقرُ إلى الطعم والنظافة والتنويع، وقد دعاني لأصطحبه إلى هناك لكنني لم أتردّد في الرفض. الآن أُدْرِكُ خطورة ما أخبرني عن علاقاته الوثيقة مع الكثير من أطباء المستشفى بسبب هذه الزيارات. ويبدو أن المَلَل يدعو بعضهم إلى التندُّر بقصص مَرْضاهم فقد نقل لي زكي أخباراً عن تفاصيل الحالة الصحية لبعض الأساتذة صدمتني مَعْرِفَتُه بها. حتى قَسَمُ أبقراط يَعْجَز عن الصمود أمام ليزر فضول زكي.

بدا وهو يغادر المكتب قويّاً بما يحمل من أسرار، بينما اشتدّ إحساسي بأن شَرْنَقةً مُحْكَمَة النَّسْج تضيف كل يوم طبقة جديدة من الخيوط الدقيقة القاطعة حولي. قال وهو يقف قرب الباب دون أن يفتحه:

- تأكّد أن سببَ زيارتي الأول والأخير اعتزازي بك. الشُّقّة الشاغرة ذكّرتني بك مباشرة وتمنّيتُ لو كنت جاري بدلاً من ذلك الجار العُمَاني الذي كان يجمع في شِقّته كُدْساً من الأطفال الصاخبين.

- شكراً لك. هذا شعور أعتزّ به كثيراً.

حين فتح الباب قال بنبرة التهريج التي يلجأ إليها عند المُزاح:

- كما أنّ أولاد البطل، رَحْمة الله عليه في عِلّيين، أعزّاء مكرّمون عندي.

كان يعلم موقفي من بطله فلم أُعلّق، لكنه انفجر ضاحكاً بعد قوله ذاك واختفى في المَمَرّ.

Twitter: @ketab_n

50

يحدث في كثير من الأحيان عندما يتصدَّع وَعْيُ الإنسان في مواجهة كثرة مُرْبِكة من المَواجع أن يجد نفسه إزاء عِلّة تافهة غير متوقّعة تجمع بالرغم من تفاهتها كلَّ خيوط الوجع وتفجّره في جنون مُنْفَلِت. ربما أكون ميالاً إلى التفلسُف لتبرير تلك المواجهة العاصفة مع ساندرا، لكنّ سَرْد ما حدث قد يفسّر ما أعنيه.

في الأسبوع الأخير قبل الامتحانات النهائية وكُنّا في حُمّى اجتياز الامتحانات الشفوية، جاءني روجر هوبكنز ومعه ماثيو كلارك وكان الأخير يحمل في يده كمّة عُمانية مُزَرْكشة بخطوط منتظمة رصينة. قال إن أحد طلبة المجموعة سي قد أَرْسَل إلى قاعة الامتحان الشفوي أحد أصدقائه ليؤدي الامتحان بدلاً منه. ولأنهما (روجر وماثيو) يُصِرّان على تدقيق الهوية الشخصية لكل طالب فقد طلبا منه هُوِيّته، خصوصاً وأنه بدا أكبر سناً من طلبة السنة التأسيسية. أبرز هويةَ صديقه على أمل ألّا يُلاحظا الاختلاف في ملامح الصورة التي تحملها الهوية، وكأن جهلهما العربية ينسحب على جهل الوجوه والصُّوَر. لكن ماثيو وقع على الاختلاف في الحال وقال للطالب إن هذه الهوية ليست له، وجادل الفتى بإنكليزية غير متوقّعة لدى طلبة المرحلة التأسيسية مما زاد في الشكوك. حين هدّده ماثيو باستدعاء حرس الكلية قفز الطالب في حركة غير متوقّعة نحو الباب وانطلق يعدو في المَمَرّ، فما كان من ماثيو إلا أن قفز هو الآخر وعدا خلفه وقد تصاعدت عصبيته المعهودة. تواصلت المطاردة خارج البناية وواجه الطالب عصف ريح قوية طارت بكمته، فلم يلتفت إليها وغاب بين جموع الطلبة لا يلوى على شيء. وهكذا تتوافر الآن هوية الطالب الغائب عن الامتحان، وكمة الطالب الذي حاول أن يساعده على الغِشّ.

Twitter: @ketab_n

كتبتُ رسالةً عن الحادث وأرفقتُ معها الهوية والكمّة وسلّمتها إلى الدكتور الطاهر الذي اختلطت دَهْشَتُه بالضحك. ولم أستطع الامتناع عن الضحك أيضاً. كان ماثيو أكثر المعنيين ميلاً إلى الجِدِّيَة والاستياء حتى شعرت أنه يعدّ محاولة الغِشّ إهانةً شخصية له. قال الطاهر إن الهوية كافية وإن ماثيو بالغ كثيراً عندما طارد الطالب في المَمَرّات، هذه ليست من مَهامّه!

طفح أسبوع الامتحانات الشفوية بالمشاكل الصغيرة التي ظلّت تنبثق دون موعد مثل طَفْح ينتشر على الجِلد على نحو عشوائي: ستورمي تصل متأخّرة إلى الامتحان، ساندرا تشكو من مشكلة جورج في السَّماع وتشير إلى أنه يضع سمّاعة أُذُن لا تكفي لتأدية مثل هذه الامتحانات على أفضل وجه، بعض الأساتذة مَيّال إلى بَعْثَرة الدرجات على رؤوس الطلبة في احتفالية توديع للكلّية وبينهم رالف الذي سبق وأن كلّمته في الأمر فلم يَأبَهْ لكلامي. حين تركت الكلّية في نهاية النهار كنت منزعجاً من تعبي وتوتّري. وهنا وقعت العِلّة التافهة التي تحدَّثتُ عنها.

وجدت السيارة ساخنةً كحمّام بخاري مما اضطرني إلى إنزال زجاج النافذة ريثما أشغّلها وأسمح لتكييفها بالتخلّص من هوائه الفاسد. حين هممتُ بالانطلاق ضغطتُ زِرَّ رفع الزُّجاج فلم يتحرك، دفعته بالاتجاه المُعاكس فغطس تحت حافة النافذة وظلّ محبوساً هناك. لم أُصدِّق أن يحدث مثل هذا الأمر المُزْعج وبهذه البساطة، ولم أُدرك في البداية ما تعنيه قيادة السيارة ونافذتها مفتوحة إذ سُرْعان ما اندفع الهواء الحارق كأن مَرْوَحةُ شِواءٍ تعصف به فَلَسَع وجهي وزاد على تعبي شعوراً بانزعاج مُقِيم. لا بد من تصليح العُطّل بأسرع وقت. صُور في أواخر أيار لا تسمح بمثل هذه المواجهة السافرة مع الريح والشمس والرطوبة. في المنطقة الصناعية اعتذر الميكانيكي الهندي الذي أقصده عادةً عن التصليح لعدم توفّر المُحرِّك للزُّجاج، وكان لزاماً عليّ أن أتجه إلى ورشة هيونداي حيث قيل لي إن التصليح ممكن بالتأكيد لكن عليّ الانتظار ثلاثة أيام ريثما يصل المُحَرّك من مَسْقَط.

Twitter: @ketab_n

عدتُ إلى شِقّتي وقد جَفّفني الهواء الساخن وبلغ بي التَّعَبُ والجوع والعطش حَدّاً اضطرني بعد كأس من الماء البارد إلى أن أتمدّد لدقائق بكامل ملابسي على السرير بانتظار بُرُودة التكييف التي انطلقت بحياء في شرايين مارد الحَرّ المُهَيْمِن على الشّقّة. استويتُ على الفراش جالساً وأدركت أني بحاجة إلى حَمّام سريع، لكنني تذكّرت أن ماء الخَزّان القابع فوق البناية تشويه الشمس منذ الصباح الباكر سيكون قد بلغ درجة الغليان، وانتظار صُعُود الماء البارد من الطابق الأرضي سيتركُ لحرارة ماء الخَزّان أن تَسْلق جسدي دون رادع.

الأسبوع الذي أعقب تلك الظهيرة المَنْحُوسة كشف لي شقاء الحركة في جَوّ صُور دون حماية من أحدث تكنولوجيا التبريد. وعجبتُ كيف عاشت أجيال طويلة من العُمَانيين في مواجهة مكشوفة مع الحَرّ! الهواء الساخن الذي ظلَّ يصفع أُذُني اليسرى كلما تحركت السيارة سدّها بعد أن ذَوَّب الشَّمْع فيها واضطرني إلى مراجعة المستشفى واستخدام قطرة لتنظيفها. حين شارفتُ نهايةَ الأسبوع كان التقلّب بين حَرّ السيارة وبرودة المكتب ثم الشّقّة قد أصابني برشح صيفي لا يُحتمل فهو أبشع كثيراً من رشح الشتاء.

وضعني انسدادُ الأُذن والرَّشْح في بُؤرة حادّة التقت فيها عُرُوق الغضب والانزعاج: قلقي بشأن صحتي بعد عَدْوَى ساندرا، سُخْطي على الإشارات المُبَطَّنة التي أطلقها زكي خليل عن زيارات ساندرا، تعبي من مهمة التنسيق وقرفي من اكتشاف أن تحذير الدكتور حاكم قبول المسؤوليات كان صحيحاً وأنا أشهدُ ارتباك الدكتور الطاهر وما يسبّب من مضاعفة العَناء. فإذا ما ابتعدتُ عن عالم صُور المغلق الضَّيِّق واجهني أفقُ العراق المسدود ومآسيه الكبيرة.

كان صباح الخميس هو موعدي الأسبوعي مع ساندرا. وقد نجحتُ طوال أيام الأسبوع في تَجَنُّبها؛ لم أدرك أن نجاحي ذاك كان خطأً آخر

Twitter: @ketab_n

يُضاف إلى المُنَغِّصات. فبينما أنا أتمدّد صباحاً في حُمّى الرَّشح وانسداد بوصلة التوازن السَّمْعية اليُسرى دقّت ساندرا الباب فأدركتُ خطئي. كان لا بد من التحوُّط وإلغاء موعدنا لهذا الأسبوع. رَدَّدْت بصوت عالٍ "اللعنة!" كان عليّ أن أقرّر فتح الباب أو تكرار مشهد الأمس الفضائحي.

فتحتُ الباب مضطراً وقد سيطر عليّ شعور بأن هذه الزيارة مهدّدة بكل صُنُوف الإخفاق بسبب توقيتها. لُمْتُ نفسي ولَعَنْتُ سَهْوي وأنا أفتح الباب. ها هي ذي تقف أمامي بابتسامتها العريضة التي زادها حمّام الصباح في مسبح صُور بلازا اتساعاً. حين انتبهتْ إلى ما ارتسم على وجهي من تعب وما حمل صوتي من نبرة خافتة بائسة بادرت إلى القول مدفوعةً بميلها إلى الهجوم المباشر ونسج الظنون:

- هل أعود أدراجي من حيث أتيت؟ ألا تريد أن تراني؟

نظرت إليها نافدَ الصبر ووجدت صعوبةً في العثور على ما أقول. أردفت بنبرتها المُداعبة:

- لا تقلق. إنها زيارة أفلاطونية.

كانت تحمل معها كيساً بلاستيكياً يحتوي على قنينة ماء صغيرة ومناديل ورقية. تقدّمت من أريكة الصالة ووضعت كيسها أمامها وهي تجلس. وقد بقيت واقفاً أتطلّع إليها بعض الوقت قبل أن أجلس قربها. أدركتْ هي مقدار ضِيْقي بها فقالت:

- زيارتي أساساً لمناقشة أمر المَرَض معك.

سحبتُ منديلاً وجفّفتُ أنفي وكان تبريد الصالة يزيد من إحساسي بالحُمَّى. الغريب أنها لم تلاحظ رشحي، ربما لأن مشكلة المرض كانت تستحوذ عليها. كَرَّرَتْ سؤالها السابق:

- هل زُرْتَ طبيباً؟

قلتُ باقتضاب وكَدَر:

Twitter: @ketab_n

- لا.

سارعت إلى القول:

- لماذا؟ عليك أن تُسارع إلى استخدام الزوفيراكس لأنه فعّال جداً.

لم أتمالك الغضب الذي انفجر في رأسي وأفقدني صوابي. قلت دون أن أنظر نحوها:

- سارعي إذن إلى استخدامه أنت، رُبَّما يشفيك!

كانت تلك عبارة لئيمة فاجأَتْها كما فاجأَتْني. لم أكن قد انتويتُ التعبير عن غضبي بهذه العبارة الفَجّة، لكن ما بقيت أردّده أثناء الحُمّى من نيتي قطع كل علاقة بها مهّد السبيل إليها. كما أن حُمّى الرشح وانسداد الأذن قد ذهبا بكل توازن داخلي. ارتسمتِ المفاجأةُ على وجهها صدمةً فسألت:

- هل أنت ساخر؟

قلت في محاولة لتخفيف الهجوم:

- أنت تقولين إن هذا العلاج فعّال.

ارتفع صوتها:

- نعم، هو فعّال وخصوصاً في المراحل الأُولى من المرض.

ارتفع صوتي كما لو كان صدى لصوتها وأدركت وسط ضباب غضبي أن السيطرة على النفس أمر مستحيل:

- وماذا عن المراحل اللاحقة؟ ماذا عن المستقبل؟ هل حُكم علي أن أدفع ثمنَ لقاءاتي البائسة معك مدى الحياة؟

قالت بعدوانية سافرة:

- أنت تتكلّم دون لياقة. ما تقوله قاسٍ وفظّ.

تماديت في غضبي:

- وماذا عن قسوتك واستغفالك لي.

Twitter: @ketab_n

- لماذا تُصِرّ على ترديد الأوهام؟ لم لا تقول إنّك كنت مستعداً للمجازفة لكي تتخلّص من حالة الموت السّريري التي بلغتها. حياتك بين الكلّية والكتب وكوارث العراق والخَواء الكامل هي المرض وهي الموت البطيء. لم أفعل إلا أن انتشلتُك من بُؤْسِك وحاولتُ أن أبعث الحياة في جسدك المَيّت.

كان صوتها قد بلغ درجة الصياح وبرق غضب هستيري في عينيها. في غضب ركّزْتُ عينيَّ في عَيْنَيْها وقلت وأنا أشيرُ إلى باب الشقّة:

- رَدِّي الوحيد عليك هو أن تغادري الشِّقّة الآن، ودون رجعة.

صاحت دون تفكير:

- هذا أمر مستحيل. أنت تعبث بي وأنا أعلم أنك وجدت ضالَّتك في شبح عراقي آخر تريد أن تنزوي معه في بُؤس متبادل.

- أنت مجنونة بالتأكيد. أيّ شبح هذا؟

هتفت وقد ركّزت نظرتها الغاضبة في عَيْنَيّ:

- بَتُول!

شعرت بجزع حقيقي وخطر لي بجدية كاملة أنها لابد قد فقدت عقلها ولا سبيل إلى حِوار عاقل معها. صحتُ بِحَسْم:

- اتركي الشِّقّة في الحال!

- لن أتركها، واعلم أنك لن تفعل بي ما يروقك. لديّ من الرجال من لديهم الاستعداد لقتلك إن شكوتُك إليهم.

كان ذلك التهديد بداية تدهور شديد مُتسارِع في الحِوار، قلت وقد أعماني الغضب:

- هو تهديد إذن. حسناً، اذهبي إلى عصابتك هذه من الرجال دون تأخير. الآن، حالاً ودعيني أرى ما يفعلون. اخْرُجي من الشقّة، حالاً!

كان صياحي هستيرياً. ردّت بِعِناد:

Twitter: @ketab_n

- لن أخرج!

وجدت يدي تمتدّ إلى الكيس البلاستيكي الذي جاءت به معها، التقطته وقذفت به إلى باب الشُقّة وأنا أصرخ بها أن تخرج. ظلَّت هي تُكَرِّر:

- لن أخرج!

قمتُ من مكاني لفَرْط غضبي وكان عقلي قد توقّف عن التفكير تماماً وأمسكتُ بذراعها فصاحت "ابتعد عني!" وامتدت ذراعها الطليقة إلى مَزْهَرية ستانلي الإغريقية، هديتها الأُولى إلي، فقذفت بها زجاج طاولة الشاي بقوة، فانبثقت على صفحته مَتاهة من الخطوط المُتَعَرِّجة بينما تناثرت المَزْهَرية شظايا صغيرة على الأرض. حاولت أن تسحب يدها الأُخرى من قبضتي فلم تتحرَّر وانقلبتْ على الأريكة فانحسر الثوبُ عن فخذيها البيضاوين الرشيقتين. زاد ذلك من رغبتي في التخلّص منها. قالت وهي تنتزع يدها من قبضتي:

- لن أخرج حتى تُعيد إليّ رسائلي إليك.

- أية رسائل؟

- تلك الرسائل التي تركتها لك من تحت الباب.

رفعت رأسي إلى السقف وقلت:

- يا إلهي! أنت مجنونة فعلاً. هل تعتقدين أن رسائلك التافهة تلك تستحقّ الخُلُود؟ لقد مزّقْتُها في حينها. مَزَّقْتُ كل ما يخصّك بعد أن اكتشفت أنانيتك ومرضك. ليس عندي ما يخصك وعليك أن تخرجي الآن.

كان صياحي عالياً هستيرياً وقد أدركت هي أن خشية الفضيحة لم تعد تهمّني فقامت من مكانها والتقطت حقيبتها، وحرصت قبل أن تخرج على التقاط قنينة الماء من الأرض لتأخذها معها. أتذكر جيداً أنها أغلقت الباب بهدوء خلفها.

Twitter: @ketab_n

51

سمعت باسم غونو الإعصار الذي بدأت الأقاويل تتزايد عن اقترابه من سواحل عُمان في أمسية خانقة دار الحديث فيها عن فنّ العشق على كورنيش صُور. كان المَمَرّ المرصوف بعناية ينطلق بِمُوازاة الساحل ويكاد يكون خالياً بعد أن هجره المُتَجَوِّلُون إلى المساجد لصلاة المغرب ولم يعد الكثير منهم إليه بعد. رُكام من الهواء يتحرك بين حين وآخر فلا يكون أثره إلا تأكيد الإحساس بالحَرّ. وكنتُ قد تركت الكلّية مُبَكِّراً واقتنصت غَفْوَةَ ساعتين نزعت عني آثارَ الرشح الأخيرة وبَثَّتْ في أطرافي رغبةً في الحركة. وكما يحدث في الغالب لم يَخْلُ الكورنيش من بعض أرواح القِسْم الهائمة، فقد صادفتُ هناك زكي خليل وجورج حداد. كانت قائمة تجديد العُقُود للعام القادم طويلة حافلة بأسماء الساخطين والمُحْبَطِين والساعين إلى مغامرة جديدة بعيداً عن صُور، بينهم ستورمي ورالف وغيرهما ممن لم أعجبْ لرؤية أسمائهم، لكن ظُهُور اسمَيْ ساندرا وجورج وإعلانهما عدم التجديد لم يكن يخطرُ لي على بال.

انطلقت مع جورج وزكي على الممرّ الضَّيِّق وكانا، عندما اقتربتُ منهما، يتحدَّثان في موضوع مُهِمّ لِما بدا عليهما من حماسة وانشغال. لم أشأ التدخل، والواقع أني كنت أطمح إلى مَسِير هادئ منفرد بعيداً عن مشاغل العمل. قال زكي خليل لي بالعربية:

- يا سيدي، جورج قَرَّر أن يَتَّجه إلى العمل في قطر وهو بحاجة إلى بعض النصائح.

اتضح من المُوْجَز الذي قدّمه زكي أن جورج استقال أساساً لخيبته من

Twitter: @ketab_n

احتمال لقاء زَوْجة المستقبل في صُور المُحَنَّطة الضَّيِّقة. حقيقةُ أن غالبيةَ نساء القسم فاكهةٌ ذابلة فقدت رُواءها ولا يجد فيها ما يشجّعه على أية محاولة للتقارُب تُصيبه بإحساس خانق بالعُزْلة والمَلَل، الشابات القليلات اللواتي جادَ بهن القسم هذا العام لم يبدين اهتماماً به. أريكا أمضت أيامها القليلة في رِفْقة رالف، وستورمي لا تكفّ عن النُّواح على صديقتها التي تركتها في السويد. قال جورج مؤكِّداً كلام زكي إنه اصطحب ستورمي ذات يوم إلى رأس الحَدّ قبل حادث وفاة أريكا وفوجئ بما انكشف له من تناقضاتها وسوداويتها وهوسها بتلك الأُنْثى التي تركتها هناك. بدا أن زكي يعلم هذه الحكاية بتفاصيلها فلم يعَلّق، وقد أدهشتني الطريقة التي كشف بها جورج أمراً خاصاً كهذا أمامنا.

انطلق زكي يقدّم مُوْجَزاً بالعربية عن القَوْقَعة التي وجد جورج نفسه سجيناً فيها هنا وما يقابلها من تَنَوُّع كبير في هيئة التدريس المنتظرة في قطر. ظل جورج يصغي إلى الموجز بتركيز شديد فهو يجد صعوبةً في فهم العربية، كما أن مشاكل السمع لديه تجعل إصغاءه أقرب إلى الدهشة. حين تكلم جورج استخدم الإنكليزية وقال مُوَجِّهاً كلامه لي:

- طالما كَرَّر زكي أنك قادر على تقديم نصائح مُفِيدة في مجال التعامُل مع النساء وفنّ التقارب مَعْهُن.

لم يكن قد مضى على المواجهة الحادة مع ساندرا إلا أيام قليلة. نظرتُ باستنكار إلى زكي الذي انفجر ضاحكاً. قال ليتفادى نظرتي المتسائلة وهو يصرّ على العربية:

- ما قصدته أنك عِشْتَ كل أنواع العلاقات مع النساء من زواج وصداقة. والأهمّ أنك مَرَرْتَ بتجربة طلاق، وهذه كلّها تمثل مصدرَ خبرة فريدة. بالنسبة إلى جورج المشكلة أن المرأة تندفع نحوه في البداية ثم تنسحب بعد لقاء أو لقاءين، وهو منهمكٌ هذه الأيام في قراءة كُتُب عن فن

Twitter: @ketab_n

اجتذاب النساء وإثارة إعجابهن الدائم. تذكّرتُك وقلت له إن الخبرة تفوق أي كلام نظري.

لم يخفّف ذلك من التعريض الذي تنطوي عليه نصيحة زكي تلك. سألني جورج بطريقته المباشرة الصريحة:

- هل بينك وبين ساندرا خلاف؟

زاد إحساسي بالحَرّ وتَحَوَّل إلى انزعاج وقَرَف. قلت دون أن أكشف عن دهشتي:

- ساندرا تبالغُ في أسئلتها ومطالبها، أحياناً أكون مشغولاً ولا يتوافر عندي وقتٌ لمساعدتها.

رَدَّ جورج بجدية:

- لكنها تحبك كثيراً وتتكلّم عنك باحترام كبير.

علّق زكي بحياد:

- هذا ما لاحظتُه أنا أيضاً.

بقيت مُصِرّاً على إخفاء انزعاجي:

- أنا أحترمها أيضاً، لكنها تبالغُ في مطالبها. أحياناً تأتي إلى شقّتي لاستخدام بطاقة تلفونية مُخَفَّضة على الإنترنت عندي للاتصال بابنتها أو ولدها. لكن هذا الأمر يستغرق وقتاً أحتاج إليه للراحة.

أبدى جورج تفهماً لما أقول، بينما أطلق زكي ضحكةً عاليةً وردّد بنبرة مَكْر بالعربية:

- معلوم . . . . . معلوم!

قررتُ في تلك اللحظة أن زكي خليل يجمع في شخصيته مزيجاً غريباً من التلقائية الأنيسة الدافئة والنوايا المُبَطّنة المُرِيبة، وهو مزيج ظلّ دائماً يُثير قلقي. قال جورج:

Twitter: @ketab_n

- سليم، أنت حدّثتني عدة مرات. وأودّ بصدق أن أعرف انطباعاتك عن طريقتي في الكلام، عن شخصيتي. أنا مُقْبِل على مكان جديد يعمل فيه أكثر من مئة أستاذ وأستاذة من كل أرجاء العالم وأريد أن تكون بدايتي قوية.

من المُؤَكَّد أن جورج يحرص على سماع توضيح مني لما أصاب لقاءاتنا القليلة من عطب أدَّى إلى انسحابي منها وتَجَنُّبِي لِقاءَه. لم أجد في نفسي القدرةَ على تحمّل هذيانه المُستمِّر عن عوالم الغيب السرّية التي تتحكّم في حياتنا والعالم، كما أن النظريات التي لا يملّ تكرارها عن مادية الغرب وتاريخ الكنيسة لا تَدَعُ مجالاً لحِوار معه يُرْتَجى منه شيء جديد. أما زكي خليل فيبدو أنه نجح في تحويل دَفّة الحوار إلى حيث يطيب له النَّبْش والتقصّي وتمكّن من كشف ما تُخفي مشاغل جورج الحضارية السياسية الكبيرة من قلق وارتباك حائر على المستوى الشخصي. فكرتُ أن جورج يجمع نقائض أُخرى في شخصه. صِدْقُه وطريقتُه المباشرة في طرح ما يدور في رأسه يَدُلّان على ثقة بالنفس تُثير الإعجاب، وهي إذ تختلط بوسامته وقامته الفارعة يمكن أن تجعل منه أميراً مُتَوَّجاً بين النساء، لكنّ في شخصيته قلقاً دائماً، وارتباكاً حائراً ما إن يشرع بالكلام حتى يَطْفُوَا على السَّطح تهزّهما أمواج حَدِيثِه المتلاطمة المتصلة. لم يكن أمامي إلا قبول تصنيف زكي لي كخبير في المرأة بالرغم مما في ذلك من مرارة ساخرة. قلت بالإنكليزية وقد تعمّدت أن تكون نبرتي خليطاً من المُزاح والجِدّ:

- اسمع جورج، سأقدّم لك ملاحظاتي بقدر تعلُّق الأمر برغبتك في اجتذاب الجميلات. أعتقد أن لديك مَيْلاً شديداً إلى موضوعات لا تهمّ الشابّة الجميلة التي تبحثُ عنها. أنت مَيّال إلى التوسّع في التعبير عن آرائك في الدين والاقتصاد والحضارات وغيرها من الموضوعات الكبيرة. هل هذا ما تتحدَّث به أمامهن؟

قال جورج ببراءةٍ تامة:

Twitter: @ketab_n

- هذا ما يبدأ به اللقاء. إنه نوع من التسخين حتى نصل إلى الموضوع الرئيس.

قلت بما يشبه الهُتاف:

- هذا خطأ. الجميلات في الشرق والغرب يَسْعَيْن إليك بحثاً عن المُتعة والمُؤانسة. خفّف من تنظيرك المُطوَّل في هذه الموضوعات.

قال زكي مُنخرطاً في الحوار بالإنكليزية هذه المرة:

- لقد نصحته أيضاً ألّا يصبّ كل جهوده على اجتذاب أُنْثى واحدة بعينها إلى الحَدّ الذي يجعله مُتفرِّغاً لها. عليه أن يوّسع نطاقَ محاولاته ويتقرّب من عِدّة نساء في وقت واحد فإذا تحقّق له ما يريد مع واحدة يرضاها استقرّ معها وترك الأخريات.

علّقت مازحاً:

- هذه نصيحة خاطِبة من الطِّراز الأول.

قال زكي جاداً ليدافع عن رأيه:

- هذه أسلم الطُّرُق لتجنُّب الفشل. إذا أخفقت محاولة فثمة احتمالات أخرى في الأفق تبعثُ في نفسه الثقة والاطمئنان.

قال جورج وقد فوجئتُ بجدّية ملامحه وصوته، كان حِواراً يمسّ أدقَّ حاجاته:

- هنالك أمر آخر قرأتُ عنه في كتاب مُهمّ عن هذا الموضوع. لدي منه نسخه رقمية سأرسلها إليك سليم. الفكرة في هذا الكتاب أن المرأة الغربية قد مَلّت الرجل اللَّيْن المُتسامح الراضخ لطلباتها وصارت اليوم تبحث عن الرجل القوي، الواثق، الذي يفرض عليها آراءه واستقلاله. أنا أُبَسِّط الفكرةَ بالطبع، لكني سأرسل إليك الكتاب وقد نتحاور بعد أن تقرأه.

قلت أجامله:

- ابْعَثْهُ وسنرى.

Twitter: @ketab_n

هبت نَسْمة نَشِطة استعذبها زكي الذي كان يتصبَّبَ عرقاً في حَرّ المَساء فقال:

- أتصدّقون بعد هذا الهدوء أنَّ إعصاراً في الطريق.

تساءلت:

- أيّ إعصار؟

قال وقد أدهشته غفلتي:

- أَلَمْ تسمعْ عن غونو؟

Twitter: @ketab_n

52

كانت غرفةُ الكونترول المُخَصَّصة للَّجنة الامتحانية تقع في طرف قَصِيّ من ممرّ المكاتب الإدارية، وهو ما يتيحُ الوصول إليها بانعطاف إلى المَمْرّ المُحْتَجب عن أشعّة الشمس الصاهرة لتجنُّب لَسْعِها أو بقطع المسافة المَكْشُوفة بين المكاتب والفُصُول الدراسية بخطّ مُستقيم. أَصِفُ هذه المَمَرّات والطُرُق لأن لقائي ساندرا ثم بَتُول لم يكنُ متاحاً إلّا فيها. انسحبت ساندرا بعد زيارتها الأخيرة لي وأدركتُ وأنا أرى اسمها في قائمة الأساتذة الذين لا يَنْوُون تجديد عُقُودهم أنها صارت مستعدّة لقبول القطيعة. كنت أمضي إلى الكونترول عبر مَمَرّ المكاتب الهادئ عادة عندما سمعتُ خلفي صوتها يُلقي عليّ تحيةَ الصباح. كانت منبسطةَ الملامح ترتسمُ على وجهها نظرة راضية منشغلة بما هي مُقْدِمة عليه من مراقبة امتحانية. اقتربت مني وبادرتني بالقول:

- هل تطيقُ رؤيتي لدقائق بعد الامتحان؟

ثم سارعتْ وهي ترصُد تردُّدي إلى القول:

- لا تقلق. أحتاج إلى مساعدة منك في كتابة إعلان بالعربية. أنوي بيع سيارتي.

حين تلاشى الاندفاعُ الصباحي من وجهها شَفَّتْ ملامحها عن نظرة عتاب خفيف. اتفقنا على اللقاء وجلست إزائي بعد ساعتين في المكتب تشرحُ مطالبها للبيع. كانت تتحدّث بحيادٍ لا تشغله إلا المهمة التي تحاول إنجازها. بعد أخذ وَرَدّ انتهينا إلى الصيغة التالية: "سيارة هيونداي سوناتا، موديل 2003، السعر 850 ريالاً أو أقرب عرض إلى هذا السعر. السائق

Twitter: @ketab_n

سيدة أجنبية". تعلّمتُ منها المُخْتَصر ONO وهو يعني "أو أقرب عرض" Or Nearest Offer. حين سألتها عن معنى المختصر اهْتَبَلت الفرصة لتقترب من منطقة الخلاف:

- هل يعقل أنك لم تقع على مثل هذا المُخْتَصر من قبل؟

قلت دون أن أبتسم:

- لم أَبعْ سيارةً في أوستراليا.

قالت بحياد كأنها تتحدّث إلى صورة:

- ولكنك تبيع وتشتري المُصْطَلحات الفلسفية والأدبية الخاوية التي تستوردها من هناك؟

كنت أنوي تحذيرها من التمادي في الهجوم، لكنها بادرت إلى وضع حَدّ بالقول:

- هل أستطيع أن أضعَ رقم تلفونك على الإعلان؟ تعلم أني لا أستخدم الموبايل.

قلت بِجَفاء:

- لا وأعتذر عن ذلك. وقتي لا يسمح لي بتسلُّم عُرُوض المشترين. إنه موسم الامتحانات.

قالت بقبول كامل:

- حسناً، سأطلب ذلك من جورج.

شكرتني على المساعدة وقالت قبل أن تغادر المكتب إنها قد تزورني قبل سفرها للمرّة الأخيرة. لم أردّ فأكدتْ قولها وظلت واقفةً تنتظر فاضطررتُ إلى غَمْغَمة تنمّ عن الموافقة. بدا واضحاً أن ساندرا قد تعلّمت كل الدروس المطلوبة للتعامل مع حالة الخلاف التي تمرّ بها، وأولها أنها لن تسمح للصمت أن يَسُود بيننا. ظلّت حريصةً على استمرار الحوار مهما حدث، وطالما أدهشتني مرونتها في التعامل مع تقلّبات علاقتنا فلا يمتدّ

Twitter: @ketab_n

أي خلاف أكثر من يوم واحد تُبادر بعده إلى حديث عادي لا يظهر عليه أيُّ أثر لخلاف. كان لا بد أن أتوقّع ذلك، فهي بالرغم من مرارة تجاربها مع زوجيها السابقَيْن تحتفظُ حتى الآن بخطّ مفتوح معهما يتيحُ لها الاتصال والدَّرْدَشة وتبادل الأخبار.

شهد المَمَرّ المؤدّي إلى غرفة الكونترول نفسه بعد أيام لقاء آخر طال انتظاره. كانت بَتُول قد اختفت تماماً بعد تلك الدعوة المُفاجئة لسماع أم كلثوم وأثار فضولي أن أجدها حين نلتقي بين حين وآخر في مَمَرّات الكلّية ساهمة، مَعْزُولة عمن حولها لا يتعدَّى رَدُّها على تَحِيَّتي ابتسامة متكلّفة وغَمْغَمة لا معنى لها. لا أثر على مُحَيّاها يدلّ على وجود تلك القناة الرقمية المتقطِّعة الغريبة بيننا. وقد حيّرني أمرها، لكن انشغالي بامتحانات الكلّية وساندرا أبعدني عنها ودعاني إلى تعليق رَغْبتي في معرفة المزيد.

وجدتُ نفسي أسير خلفها في المَمَرّ، وسُرْعان ما لحقتُ بها فَسِرْنا معاً. ألقيتُ عليها التحية فجاء الرَّدُّ ابتسامةً عذبة يثقلها الْهَمّ. سألت لمُجَرَّد الحوار عن أخبار هجرتها إلى كندا وإن كانت قد تسلّمت رَدّاً فقالت إنها لا تزال تنتظر. وساد صمت غريب اضطرني إلى الاستئذان والابتعاد عنها. كدت يومئذ أشك أن دعوة سماع الغِناء قد صدرت عن هذه المرأة المَحْزُونة. حين اقتربتُ من باب الكونترول كان زكي بانتظاري. دخلت معه وأخذنا أوراق الامتحانات واتَّجهنا إلى القاعات. سأل زكي باستنكار:

- ما آخر أخبار أريك؟

قلت بلامبالاة:

- لا شيء.

سأل ساخراً:

- هل يعقل أن يشارك في مُراقبة الامتحانات وتصحيح الأوراق الامتحانية بعد ما أقرّ به من تزوير؟

كنت قد طرحتُ هذا السؤال على الدكتور الطاهر فقال إن الوزارة

Twitter: @ketab_n

صامتة ويبدو أن قرارها انتظار نهاية العام وعدم تجديد عقده.

بعد أيام كَرَّر جفري شكوى زكي خليل من التساهُل مع أريك. قال إن بقاء أريك ومشاركته في تصحيح الامتحانات النهائية والمراقبة الامتحانية يعدّ فضيحةً بعدما عُرِف من تزويره، وأكد أن كثيراً من الأساتذة يتساءلون عمّا يحدث وخَصَّ منهم روجر هوبكنز. عرفت منه أن روجر قد أبلغ الدكتور الطاهر أنه رأى أريك يحمل في نهاية الدوام جهاز كمبيوتر إلى سيارة التاكسي التي تقلّه إلى سَكَنِه وأنه ينوي بيعه في السوق كما يبدو. وصادق جفري على تلك الحكاية مؤكّداً وجود كمبيوتر مَحْمُول ثانٍ في شِقّة أريك يبدو أنه من كمبيوترات الكلّية. لم يفعل الدكتور الطاهر شيئاً حين وصلت إليه تلك الشكوى وقال لروجر بعد يومين إنّ العِمادة لا تستطيعُ أن تُوجِّه تُهَماً دون أدلّة قاطعة لأن أريك قد يتقدّم بشكوى إلى الوزارة وقد يَتَّسِع نطاق المشكلة فيدخل في مستوى العلاقات الدبلوماسية. كان روجر مُتَأثِّراً وغاضباً لما يرى من تَسامُح تجاه أريك، وظلَّ متشبّثاً برأيه فاقترح على الدكتور الطاهر التوجُّه بسؤال إلى سائق التاكسي الذي ينقل أريك ليعرف منه إن كان قد أخرج من الكلّية جهاز كمبيوتر أم لا. لكنّ الطاهر استبعد مثل هذا الإجراء وبدا مَيّالاً إلى إهمال الموضوع بِرُمَّته. خطر لي أنَّ العِمادة والدكتور الطاهر يتعاملان مع أريك وكأنه يمثل عظمةَ بريطانيا التاج حتى وهو يَغِشّ ويُقِرّ بغِشّه. أما عداوة روجر لأريك فهي لُغْز لم أفهمه حينئذٍ.

التقيتُ بأريك خلال أيام الامتحانات النهائية فكانت ابتسامته المتهكّمة قد عادت تستقرّ على ملامحه في اطمئنان وهدوء. كنا قد قَرَّرنا أن يشترك أُستاذان في تصحيح الورقة الواحدة ثم يُراجِع تصحيحهما أستاذٌ ثالث للتأكُّد من عدم حدوث سَهْو أو خطأ. وقد فُوجئتُ في ظهيرة يوم طويل من العمل والمتابعات الخاصة بالامتحانات باتصال تلفوني من أريك يطلب مقابلتي لأمر خاصّ ومُهِمّ على وجه السُّرْعة. دعوته إلى مكتبي إذ كنتُ وحيداً فدقّ الباب بأدب ومَلأَ المكتب بجسده الضخم وابتسامته الظافرة. كان يحمل معه

Twitter: @ketab_n

دفترين امتحانيين فدعوته إلى الجلوس وأنا أتفحّصه بفضولٍ شديد. قال بجِدِّيّة وهو يطرح الدفترين أمامي:

- هنالك أمر يُثير ريبتي في هذين الدفترين.

أخذتُهما من على المكتب وتصفّحت أوراقهما المُلَطَّخة بكتابات مرتبكة وتطلَّعْتُ نحوه بنظرة متسائلة. قال وهو يراقبني باهتمام:

- أكمل تَصَفُّحَك وستجد شيئاً يُثير الاستغراب.

سألت قبل أن أكمل التصفُّح:

- ما هو؟

ابتسم كمن يَعدُك بِنُكتة طريفة إن أنت واصلت ما يطلب منك، ولزم الصمت. تمعّنتُ في أوراق أحد الدفترين وعدت إلى بدايته، وسُرْعان ما بدأ يتَّضح أمامي ما كان يقصده أريك. في الدفتر خطّان يمكن التمييز بينهما بسهولة. خطٌّ مُرْتَبِك بحرف كبير وآخر مُتأنِّق بحروف مصفوفة بعناية. سألت بالرغم من معرفتي الإجابة:

- هل تعني الخَطَّين؟

هتف وقد اتسعت ابتسامته وكشف عن أسنان ناصعة البياض منتظمة:

- بالتأكيد. أُهَنِّئك على قُوة الملاحظة. هنالك شخصان اشتركا في كتابة هذه الإجابات.

سألته وقد اعتراني أسفٌ وانزعاج لما أشهد:

- من صحّح هذا الدفتر؟

- رالف وجين.

- هل لاحظا هذه المسألة؟

- لم يقولا شيئاً لي. لا أعتقد أنهما قد لاحظا شيئاً.

صمتَ أريك وحدّق إليّ بِمَكْر وثِقة. بدا كمن يوشك أن يخرج من كُمِّه أرنباً. قلت:

Twitter: @ketab_n

- لا بد أن نراجع جدول المراقبات لمعرفة الأساتذة المراقبين في تلك القاعة. كيف يحدث مثل هذا الغِشّ دون أن يلاحظه المُراقِب؟

قال أريك بهدوء وقد اتسعت عيناه:

- لم يحدث هذا في القاعة الامتحانية.

فاجأني بتحرياته. سألت:

- كيف؟

- إن شئت أن تراجعَ شيئاً فلا بد من مراجعة الخَطّ ومعرفة من يكون صاحبه.

كان عليّ استيعاب الكثير بسرعة؛ كلامه يعني أن الكتابةَ الإضافيةَ لم تحدث في القاعة الامتحانية، ثم هو يدعو إلى التدقيق في الخط لمعرفة صاحبه، فهل يعني ذلك أن الإضافة تمّت في مكاتب الأساتذة؟ كان أريك مُولَعاً بمشاهدة الأفلام البوليسية ومسلسلات الجريمة والتحرِّي. أخبرني زكي خليل أنه يُبقي حاسبه مفتوحاً لتنزيل هذه الأفلام من موقع التورنت طوال أربع وعشرين ساعة بالرغم من تحذير الكلّية من استخدام الإنترنت لمثل هذه الغايات لأنه يُضعف الخطوط ويزيد من شكاوى الأساتذة منها. سألت دون مُناورة:

- هل تقصد أن الخطّ يعود إلى أستاذ من أساتذة القسم؟

ظلّ لثوانٍ يُحَدِّق في عينيّ وأخذت ابتسامته تتلاشى خلال ذلك. قال:

- نعم.

- كيف عرفت؟

- لأني أعرف هذا الخط.

- من يكون صاحبه؟

- زكي خليل.

Twitter: @ketab_n

غاب كل أثر للابتسام عن وجه أريك وهو يستمرئ قدرته الفَذَّة على إثارة دهشتي. سألت بِذُهُول:

- هل أنت واثق من ذلك؟ كيف؟

- أنا واثق من ذلك لسببٍ بسيط هو أن زكي يشاركني في مكتبي وطالما قرأت ما تخطّ يده. له خطّ لا تُخطئه العين.

عدتُ إلى تصفُّح الدفترين وصار جَلِيّاً التفاوت في الخُطُوط. قلت لأحسم الأمر:

- حسناً أريك. أرجو أن تكتب تقريراً بما لاحظت وسأُرفقه مع الدفترين لنبدأ التحقيق.

قال أريك وهو ينهض بخفّة لا تتناسب مع ثقل جسمه:

- بكل تأكيد.

لم يتأخَّر أريك في كتابة تقريره كما أن ذُهُولي إزاء ما فضحه لي دفعني دون تأخير إلى مكتب الدكتور الطاهر أحمل التقرير. وكما توقّعت كان الطاهر مُنْهَمِكاً، فضلاً عن مُعْضلة الامتحانات الفصلية، بتصاعُد الخلاف بين إبراهيم ولانك. فتحتُ باب مكتبه ووجدت لانك جالساً إليه يتحدّث بتأثُّر وحماسة بينما الطاهر يتطلَّع إليه بفضول مُحايد. بدا الطاهر كمن استُدْعِيَ من بيته ليُزجّ به في خلاف لا يهمّه ولا يريد التدخّل فيه. أغلقت البابَ وعدتُ أدراجي. علمتُ فيما بعد أن إبراهيم كتب تقريراً ناريّاً ضد لانك يَتَّهِمُه فيه بالتقصير في عمله وإلقاء عبارات تُعْوِزُها الحِشْمة عن جمال الطالبات العُمَانيات والصعوبة التي يجدها في كبح الرغبة التي تدفعه إليهن وما إلى ذلك. وردَّ لانك بكتابة رسالة مطوّلة تحتوي تُهَماً مُضادة أهمّها أن إبراهيم يعاني عِلّة النَّعْرة العُنْصرية وأنه لا يتورَّع عن الكذب والتهويل. كان الرجلان في هياج شديد وقد ترك الصراع على وجهيهما آثاراً جَلِيّة من السُّخْط والتأهب ظلت تلازمهما كمن يعاني ألم الأسنان. لكني لم أشعر برغبة في معرفة تفاصيل هذا الخلاف. كنت أحاول قدر الإمكان

Twitter: @ketab_n

الانصراف إلى الحلقة الضَّيِّقة من مشاغلي الخاصة ومشاغل أساتذة السنة التأسيسية تحديداً التي لم تَتْرُكْ لي فسحة لبَطَر الفُضُول. لم يُتِحْ إيقاع العمل المُتزايد وقتاً لوقفة جَرْد متأملة لما يحدث وكان يُكثِّف إحساسي بأن الخُيُوط التي تربطني بالمحيط الذي أعيش فيه وأعمل قد تعقّدت واشتبكت ولا وقت عندي لحلّ عُقَدها. كل ما أستطيع أن أفعل هو التصدّي لما يَطرح نفسه عليّ من المَشاكل واحدة واحدة، دون أن أجد وقتاً لمَنْظُور واسع يجمع ما يحدث في دلالة مفهومة.

فَكرّتُ وأنا أعود إلى مكتبي بانتظار أن ينتهي لانك من فصله الجديد أن عرضي حالة الغِشّ على الطاهر مباشرةً دون سماع ما يمكن أن يقوله زكي خليل أمر فيه تَعَجُّل. أوحى إليّ بهذه الفكرة ظهور زكي في نهاية المَمَرّ يتجه إلى مبردة الماء حاملاً زجاجة يملأها. بدا كعادته نشيطاً، متألقاً، مُتَحَمِّساً لشيء لم أتمكّن يوماً من تَسْمِيته. حيّاني من بعيد وطفح وجهه بِشْراً لرؤيتي. كنت أبعث فيه فُضُولاً مستمتعاً يكاد يكون فرحاً وكان دائم الحماسة لمحادثتي. السبب الذي يكرّره دائماً أن ما بيننا من وشائج هو ما بين العراقيين والفلسطينيين من سِجِلّ تاريخي حافل بدأ منذ وصل أمين الحُسَيني إلى بغداد وأبلى الجيش العراقي بلاءً حسناً في حرب العرب الأولى مع إسرائيل عام 1948. ولم يَنتهِ مع "جريمة" إعدام البطل/ الطاغية. قررتُ أن أمنح زكي فرصةَ الدفاع عن نفسه بالرغم من أن الوصايا التي ألقاها علينا الدكتور الطاهر في اجتماع المنسّقين قبل الامتحانات تفيد بضرورة عرض الأمر عليه مباشرةً في مثل هذه الحالات.

حَدَسَ زكي أن لديّ أمراً جَلَلاً. حاسته التلصُّصية الحادة لم تُخطئ ما يجري. ألقيتُ عليه التحية بِجِدِّية لم يتعوّدها مني فقد بقيت أقابل بَشاشته بما يوازيها من ابتسام واستعداد لردّ النكتة بنكتة. انتقل نظره إلى الأوراق التي أحملها وَثَبَتَ عليها حتى كدت أظنّ أنه يعلم بالأمر. طلبت منه أن يوافيني في مكتبي فقال بما يشبه المُزاح إنه منهمكٌ في التصحيح فإذا تأخّر في إنجاز عمله أكون أنا المَلُوم. أعلنتُ قبولي اللوم وسُرْعان ما جلسنا وجهاً

Twitter: @ketab_n

لوجه وراء باب مُغْلَق. حين استوى زكي على المقعد الجلدي المقابل كان كل أثر للبشاشة والابتسام قد اختفى من وجهه. قلت له وقد وجدت بعض الصعوبة في افتتاح الحوار:

- هل لديك علاقات خاصة مع بعض الطلبة في القِسْم؟

ارتسم على وجهه اهتمام شديد وجِدِّية لم أرهما فيه يوماً. كانت عيناه تَشِيان بأن فكره يتحرَّك بسرعة الضوء لِيُلِمَّ بأطراف الموقف. قال بما يشبه الدهشة:

- لا أفهم.

كرّرت سؤالي بتغيير طفيف لقناعتي أنه سؤال بسيط واضح. قال وقد هدأ قَلَقه قليلاً، بدا كمن قَرَّر أمراً:

- إن كنت تقصد علاقات خارج الكلّية فهنالك حالات نادرة يقصدني فيها آباء بعض الطلبة الضعفاء لمساعدتهم في دروس إضافية. وأرجو أن يبقى الأمر بيننا سليم، فأنا أكلّمك الآن كصديق لا مُنَسِّق. وثِقْ أني لا أتقاضى نقوداً عن هذه الدروس الإضافية. يشهدُ الله على ذلك.

سألت وأنا أكتشف مودةً في نفسي تجاهه:

- ما الذي يُجْبِرُك عليها إذن؟

حدس مَوَدَّتي في الحال وأدهشتني رهافةُ مَجَسّاته. قال وقد بدأتْ تَلُوح على وجهه ابتسامة:

- تعلم ما يحدث. هؤلاء في الغالب من أعيان المدينة. هنالك ابن ضابط كبير في شرطة صُور وابن أحد الشيوخ الكبار وهكذا. بدأ الأمر كله لأن زوجتي التي تلزم البيت لتربية العيال تقدّم دروساً خصوصية مدفوعة الثمن لبناتٌ تلك العوائل، وهو ما عرّفهم بيّ أيضاً.

نظرتُ إلى الدفترين أمامي وكان فكري يكاد يلتقطُ سرعة الضوء هو الآخر. قرأت اسم الطالب الأول وسألته إن كان يعرفه فلاحظتُ شُحُوبَ

Twitter: @ketab_n

سَحْنَته وأدركت أني تمكّنت من مُفاجأته أخيراً. قال إن ذلك الطالب هو ابن ضابط الشّرطة، أما الطالب الثاني فهو ابن شيخ معروف. أدركتُ الصورة كاملة، وأدرك زكي أنه تمكّن بصراحته من أن يُبَطِّن اللقاء الودّي بيننا بتهديدٍ قبيح. كان بصراحته تلك قد وضعني في موقع الإحراج بدلاً منه حتى إني عجبت لما أصابني من ارتباك وأنا أنتقل إلى السؤال اللاحق:

- هل تصل بك العلاقة بهذين الطالبين وأبويهما أن تجازف بعملك وسمعتك من أجلهما؟

كَرَّر زكي ليمنح نفسه فرصة تحديد الردّ المناسب:

- لا أفهم.

كان جاداً واكتشفت أن الجدّية حين ترتسمُ على وجهه يبقى يَشُوبها دائماً شيء من العداء. قررت أن أقابل صراحته بصراحةٍ لا تقلّ عنها:

- لديّ هنا الأوراق الامتحانية للطالبين اللذين سألتك عنهما، ولديّ تقرير بأن بعض الإجابات فيهما مكتوبة بخطك أنت.

فأجابني زكي بسؤال:

- من كتب التقرير؟

- ليس مهماً من كتبه. المهمّ تحرّي صِحّة الادّعاء.

قال زكي وقد تحصنت جديته وعدوانيته باستياء سافِر:

- هل تثق بادعاءات مخادع غشّاش مثل أريك؟ وجوده في الكلّية فضيحة وهو لن يتركها قبل أن يسحب معه أكبر عدد ممكن من الأساتذة إلى الوحل. إنه كذّاب ماكر.

حين أتذكر الآن هذه الانتقالات في مناورة زكي للتخلّص من المأزق أكاد أُقِرّ بأنه أَحْذَق من صادفت. فقد بدأ كمن يوشك أن يعترفَ بذنبه وقدّم من المعلومات ما لا يدعُ مجالاً للشك في إدانته، ثم اتضح أن تلك المقدّمات لم تكن تمهيداً لاعتراف بل أدوات للتهديد. الآن وقد وصلت

Twitter: @ketab_n

رسالة التهديد التي حرص عليها انتقل إلى الإنكار التام وحوّل الحوار إلى تقويم شخصية أريك. أصبحتُ أرى الصورةَ بجلاء، وقد حَدَس زكي ذلك أيضاً فقال وقد هدأ قليلاً:

- لو كنت مكانك لأهملتُ ادِّعاءات هذا الصُّعلوك لمُجَرَّد أنها تصدر عنه.

قلت وقد تصاعد في داخلي غضب غير محدّد الأسباب:

- لا يمكن لي إهمال شيء كهذا قبل إجراء تحقيق، كما أني لا أفهم لماذا تصرّ على أن أريك هو من كتب التقرير.

قال يؤكّد أمراً بديهياً:

- سليم، تذكّر صداقتنا. أريك راجع تصحيح أوراق هذه المجموعة أمامي.

كدت أردّ أن رصده لما يراجع أريك وسعيه لمعرفة من راجع أوراق هذه المجموعة تحديداً أدلة إضافية على تورّطه. أنهيتُ الحوار حين عرضت عليه قدحاً من الشاي. قال إنه مشغول بالتصحيح وقام بحركة لا تخلو من عصبية. قبل أن يصل إلى الباب التفت إلي وقال بثقةٍ يُحْسَد عليها:

- فكر في الأمر سليم. إثارة زوبعة لن تنفع أحداً.

Twitter: @ketab_n

53

بقيتُ أحاول بين حين وآخر الاتصال بفرحان لأرتّب زيارتي المرتقبة إلى مَسْقَط لأزور طبيباً أعرض عليه حالتي. لكن فرحان اختفى حتى بدأت أقلق بشأنه وساورتني مخاوف شَتَّى وأنا أحاول أن أتخيَّل سبب صمته. قررتَ ما إن تنتهي الامتحانات أن أسارع إلى مَسْقَط لمعرفة أحواله وزيارة طبيب هناك. بدت الامتحانات بحُمَّى مشاغلها أقرب إلى قَطْعٍ في عَرْض سينمائي لا يسمح بالابتعاد كثيراً عن شاشة العَرْض الصامتة الخالية والانتظار. وكان من مظاهر هذا القَطْع أن ساندرا انشغلت هي الأُخرى فلم تَعُدْ تظهر خارج مكتبها كثيراً. صادفتُها مرةً أو مرّتين فكانت متعبةً واجمةً على غير عادتها. ولم أعرف إن كان ذلك بسبب تَعَب الامتحانات أم مشاغلها المتعلّقة بالاستقالة والعودة إلى أوستراليا. لم يخطر لي أن يكون الخلاف بيننا ذا أثر عميق فيها. تذكّرْتُ روايتها "سباحة حُرّة" التي عرَضتها عليّ يوماً وما تحتويه من تَخَبُّط طويل وسط شبكة معقّدة من العلاقات الجنسية التي يمثل الزَّوال جوهرها المشترك. كانت حياة ساندرا تمريناً مستمرّاً في التجاوز وإتقان البدايات. لكنني كلما أُقلّب إصابتي في صمت الحمّام وأتفحّص القَرْح الفاغِر الصغير الذي لم يَكُفَّ عن التسبُّب بحَكّة تُذَكّر به بين حين وآخر، تهجم عليّ حقيقة أن ما حصل وضع حداً لأيّة بداية جديدة. لقد مضى على ظُهُور النُّدْبة أكثر من ثلاثة أسابيع ولم يظهر ما يدلّ على أنها تتضاءل أو تنوي التراجُع. بحسب المعلومات التي قرأتها لابد أن يبدأ تراجُع المَرَض الآن، استمرار الأعراض قد يعني بعض الأمل بالنسبة إلي، ألّا تكون الإصابة من الهربيز وربما لا تعدو جُرْحاً سَبَّبَته شِدّة الاحتكاك كما قالت ساندرا. لكن الحَكّةَ التي تشتدّ أحياناً حتى تُصْبح أقربَ

Twitter: @ketab_n

إلى الألم وعِنادَ هذا الجُرْح، إن صحَّ أنه مُجَرَّد جُرْح، كان يؤكِّد أكثر ظُنوني تشاؤماً.

كان اتصال فرحان حين وقع أخيراً مَنْفَذاً أتاح لي لأوَّل مَرّة التحدُّث عن هذه الإصابة مع شخص محايد لديه استعداد للإصغاء والمساعدة. جاء صوت فرحان مُنْشَرِحاً وُدِّيّاً محمّلاً برغبة صادقة في استطلاع آخر أخباري، لكنه لم ينمّ عن إدراك حقيقة أننا لم نتواصل طوال أسابيع. والسبب كما يبدو لي الآن أن صداقتي مع فرحان لم تشغل إلا جزءاً صغيراً من شبكة علاقاته الواسعة في العمل والعائلة، وربما كنت أُمَثِّل بالنسبة إليه قَرِين بعض ساعات التخفّف والسعي إلى الترفيه. أتذكّر ما تعنيه الأسرةُ من انشغال دائم يُهَمِّش كلَّ ما عداه، وبدلاً من لوم فرحان على انقطاعه لُمْتُ الظَّرْف الذي انتهى بي إلى شِقّة خالية ووجود أعزل. قال فرحان إنه انشغل خلال الأسابيع الأخيرة بِسَفْرة إلى خارج عُمان زار خلالها مصر وتونس مع أُسرته. وتحدّث بحماسة عن مشاهداته وعَقَد مقارنات طريفة بين جَمال المِصْريّات والتُّونسيّات، ثم أكد أن الحراسة المشدّدة من زوجته (هو يدعوها الأخ الأكبر) لم تسمح له بتجاوز الانطباعات السطحية السريعة فعاد من سَفْرته دون خبرة مَلْمُوسة. يميل فرحان إلى الحديث المُتدفّق ويُعَدُّ الإصغاءُ من المهارات التي لا يجيدها ولا يبدو أنه سيتمكّن من إجادتها مهما بَذَل من جُهْد. وهو يعرف ذلك إذ قال لي يوماً إنه انتبه إلى مَيْله إلى احتكار مِنَصّة الحِوار في أي مجلس يحضره وإنه حاول مراراً أن يكبحَ شهوته إلى الكلام فلم يَصْبِر على الصمت أكثر من عشر دقائق. وهكذا انتقل بعد حديث مُطَوَّل عن أسفاره إلى وصف لقاء غير متوقّع في أسواق اللولو في مَسْقَط بامرأة هندية شهية وأعلن بظفر وحماسة أنه تمكّن من إعطائها رقم تلفونه لتتصل به إن شاءت الحصول على عَقْد عمل لأخيها في شركة الغاز التي يعمل فيها.

كنت أسمع كل هذه الحكايات السارة فيستجيب لها عقلي بالإصغاء من جهة وبتأمُّل ما تعنيه بالنسبة إلي من جهة أُخرى. خطر لي وأنا أسمع

Twitter: @ketab_n

حديث فرحان أن المرء يحصل على ما يسعى إليه ويناسبه. المُغامرة السريعة حاجة يستكمل بها فرحان هيكل وجوده التقليدي الرتيب، فهو يعلم أنها لا تكفي لِتَسْنُدَه وتبدّد وَحْدَته ويعلم أيضاً أنه بدونها سيختنق وسط جدران ذلك الوجود التقليدي. لقد رتّب فرحان حياته على وفق طبيعته الخاصّة وطَوَّر وسائله التي يُطَهِّر بها وُجُودَه من اليأس. لم يكن يضعُ العراق في خطة وجوده ومستقبله أو مستقبل عائلته. وكان قد حدّثني بالفعل عن نِيَّته الهِجرة إلى إحدى دول الشمال يوماً مُعْلِناً حماقةَ التطلُّع نحو العراق بأمل. الطريف أني سبقت فرحان إلى الخُرُوج من العراق، وأنه لم يغادر البلد إلا في السنوات الخمس الأخيرة. قال إنه ظلّ متمسّكاً بالعيش في بلده وإن جمال العراقيات فريد بين كل نساء الأرض (يدعم رأيه هذا بتكرار حقيقة أن شاعر المرأة نزار قباني تزوَّج عراقية)، وإن بغداد توفّر محيطاً ساحراً لكل أنواع المغامرات، لكن لوثةَ الحرب والحُمْق السياسي خَرَبا البلد ولم يعد ينفع شخصاً مثله. وتلك قدرة فذّة يختص بها فرحان فهو لا يقبل أي كِيان عداه هو نفسه مِقْياساً لما يجب. معه أُدرك أن كلمات مثل الوطن والحق والعدالة لا تعدو توصيفات لتوابع مركزها الفرد وحاجاته، فإن أخفقت هذه التوابع في توفير السعادة للمرء كان عليه أن ينزعها عنه كما يخلع ملابس صارت بالية لا تنفع. الأطرف من كل هذا أن فرحان لن يقبل الوصف الذي أقدّمه له هنا، فهو لا يتردّد في إعلان ولائه للوطن وألمه لما يحدث فيه من كوارث، ولا أعتقد أن في إعلانه هذا رِياءً أو زَيْفاً. ربما كان السِّرّ في قُدرة فرحان على اطّراح الهمّ والقلق أنه نبذ المنطق واكتفى بجمع خيوط وجوده مهما اختلفت ألوانها وتنافَر نسيجها في يد واحدة. الوجود بالنسبة إليه فعل حَيّ لا فكرة سليمة مُبْتَغاة.

بعد حديث مطوَّل أصغيت إليه صامتاً إلا من همهمات الاستزادة، طرح فرحان في نهاية المطاف سؤاله عن آخر أخباري. حين علم بأمر الإصابة المُقْلِقة هتف بقدرة فذّة على إخفاء أي أثرَ للقلق: "أهنئك، لقد نجوت! فكلُّ شيء عدا الأيدز يَسِيرٌ". واندفع يحدّثني عن طبيب باكستاني

Twitter: @ketab_n

أخصائي في الأمراض الجلدية والتناسلية يَثِق به ثقةً كاملة وتبرّع أن يحجز لي موعداً قريباً معه. اتفقنا أن يكون الموعد خلال الأسبوع الثاني من حزيران بعد أن تنتهي نوبةُ الامتحانات. أبدى فرحان اهتماماً حقيقياً صادقاً بمخاوفي واندفع يحدّثني عن حالة مشابهة مرّ بها في بغداد عُولجت خلال أسابيع من المُضادّات الحيوية. حين ذكرت له نتائج بحثي على الغوغل هتف بثِقِة تصل إلى حد الانشراح "لعن الله الغوغل وتهويلاته السَّمِجة. إنه يجمع كل قُمامة الإشاعات والأقاويل دون تمييز. لا تقلق وسترى أن كل شي على ما يُرام".

قبل أن يَغلق التلفون زَفَّ لي خبراً سعيداً جاءه من العراق، قال إن ابن أخيه عدنان قد بدأ بالفعل ينطق بعض الكلمات وهو ما يثير مَهْرجاناً من الفرح حوله. وجدت الخبر طريفاً وأنا أتخيل أباه وأمه العاجزين عن النطق يتلقيان كلماته البدائية الأولى كما لو أنها نقرات صغيرة مرحة على طبل وجودهما الأجوف الصامت.

Twitter: @ketab_n

54

تعالت نبرةُ التحذير من اقتراب إعصار غونو من سواحل عُمان، لكنّ حُمّى الامتحانات منعتني من التدقيق في ما يُقال. قالت لي إنعام في اتصال خاطف بالعراق إن والدتي بدأت تعاني إنفلونزا قوية وإن محاولاتها لإقناع طبيب بزيارتها في البيت ذهبت أدراجَ الرياح لأن الأطباء جميعاً اتفقوا على عدم مغادرة عياداتهم إلى أي سكن خاص رداً على ما يتعرَّضون له من حوادث الخطف والقتل. صارت العيادة حصنهم المنيع. ولم تجد إنعام بداً من قبول وصفة كتبها أحدهم لعلاج ما يتوقّع أن تحتاج إليه الوالدة اعتماداً على الوصف الذي سمعه منها. كنت أعلم أن الانفلونزا في مثل سنّ والدتي يمكن أن تكون قاتلة. ولم تتمكّن من الحديث معي لسوء حالتها.

بعد ذلك الحوار عن حالة الوالدة تمدّدت على السرير في سعي إلى تصفية فوضى النهار وشوائبه. كان المساء يتكاثف في الخارج واليوم هو الأربعاء، آخر أيام الأسبوع وآخر أيام الامتحانات. لم يكن يفصلنا عن العطلة الصيفية إلّا وضع اللمسات الأخيرة على النتائج وإرسالها إلى الوزارة في مَسْقَط، لكني لم أتحمّس للتفكير في خُطّة لقضاء العطلة. لم أجد ما يبرّر انتظار العُطلة بوصفها مناسبة تدعو إلى الاحتفال. كنت أسمع من الأساتذة سيناريوهات حافلة لما يَنْوُون عمله خلالها؛ ماثيو وجين سيقومان بجولة في تايلاند وماليزيا، جورج قَرَّر السفر إلى مَسْقَط رَأْسِه في لُبنان بحثاً عن عروس قد توفّر عليه عناء البحث والمجازفة في قطر، وعلمتُ من جفري أن ستورمي قَرَّرت السفر إلى السويد في سعي متجدّد للقاء صديقتها هناك، أما رالف فسيعود أولاً إلى بلده جنوب إفريقيا ثم يقرّر

Twitter: @ketab_n

مِنْ هناك خطوته القادمة. عرفت أيضاً أن غالبية الأساتذة المطرودين والمستقيلين أمّنوا لأنفسهم عقود عمل جديدة داخل عُمان نفسها أو في بُلْدان خليجية أخرى. الحاجة الماسّة إلى أساتذة الإنكليزية في كل مكان من الخليج تجعل التساهل في الشروط أمراً لا مناصَ منه. قال جفري إن للشرق الأوسط سُمعةً مخيفةً في الغرب فالصورة النمطية بعد أحداث سبتمبر الأميركية تعرض مكاناً مَحْفُوفاً بكل أنواع المخاطر، وقد خطر لي وأنا أسمع ذلك أن هذه الحقيقة تقلّص خيارات الخليج لقلّة المستعدّين للمُجازفة.

كدت أغفو وأنا أتصفّح هذه المشاغل الباهتة عندما سمعت طَرْقاً على الباب. توقّعت أن يكون الطارقُ ساندرا لأني لا أكاد أستقبل سواها في شقّتي، لكني وجدت حين فتحت الباب سعيد المخيني بابتسامته الدائمة وأسنانه الناصعة. حَيّاني بحماسة ودعوته إلى الدخول فقال إنه لن يبقى طويلاً وإنه يزور البناية ليعرض إحدى الشقّق الشاغرة على مستأجر جديد. تأهبتُ لجولة تحقيق سياسي أُخرى فأنا لم ألتقِ سعيداً منذ تلك المقابلة الأولى قبل أكثر من عام وقد حدث الكثير في تلك المدّة مما قد يُثير فضوله. قَرَّرْتُ أن أتولى التحكّم في زِمام الحوار فأسارع إلى طرح الأسئلة بدلاً من انتظار ما يقرِّر هو الاستفسار عنه. سألته إن كان يشرب شاياً أم قهوة فقال إنه لا يشرب أيّ نوع من الكافيين، فقدّمت له قَدَحاً من عصير البرتقال وسألته عن أخبار اقتراب الإعصار غونو من عُمان. قال وهو يرشفُ العصير ثم يعيده إلى الصينية:

- لا تقلق كثيراً، بعض الناس يميلون إلى المبالغة. أخبرني أحد جيرانك الهنود في الطابق الثاني أنه ينوي تحصين الشّرفة بتثبيت ألواح من الخشب على بابها فلم أمانع بالطبع، لكن في هذا مُبالغة.

نهض من مكانه واقترب من شرفة الصالة العريضة وأضاف:

- هذه الأبواب الزجاجية الفرنسية التي تحمي الصالة تبلغ من السماكة

Twitter: @ketab_n

ثمانية مليمترات ولا يمكن أن يؤثّر فيها أيُّ إعصار. أما باب شُرفه غُرفة النوم فهو مصنوع من حديد صُلْب وألواح زُجاجية صغيرة مؤطَّرة بالحديد فلا تقلق.

أخذته إلى المطبخ وأخبرته بمشكلة انتفاخ أرضيته إذ يبدو أن رطوبة قد وصلت إليه فبدت نَخِرةً، فوعد أن يتدبّر الأمرَ قريباً، وبادرني إلى السؤال:

- هل تنوي السفر خلال العُطلة الصيفية؟ يمكن إجراء التصليح حينئذٍ.

لم أكن أعرف إجابةً واضحةً عن السؤال، لكني سبق أن أخبرته أن لي أسرةً في العراق ولا يمكن إلا أن أزورها خلال العُطلة. قلت:

- أغلب الظن أني سأتَّجِه إلى العراق.

سأل وقد تسلّم زِمامَ طرح الأسئلة في غَفْلَةٍ مني:

- هل تعني أنك يمكن ألّا تسافرَ إلى العراق؟

- يعتمد الأمر على الحالة الأمنية هناك. إن استمرّ الأمر في التَدْهُور فقد أضطرّ إلى لقاء الأهل في الأردن.

جاء سؤال غير متوقّع من سعيد:

- اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً وأترك لك حرية ألّا تردّ عليه.

- تفضّل.

- هل أنت من السُّنّة أم الشّيعة؟

شعرت بتعب مفاجئ وتركّز كل ما عندي من شعور بالعُزْلة والضَّياع والمنفى في إحساس واحد طعنني كالسكّين. بَرَق في ذهني للحظة صديقي شاعر قصيدة النثر الحداثوي الذي وجد نفسه مُكبّلاً بقيود الحرب الطائفية في بغداد، قال لي في حديث تلفوني إنه كلما وجد نفسه وحيداً مع سائق تاكسي واجه هذا السؤال الفَجّ، والسبب أن السائقَ لا يستطيع أن يمنع

Twitter: @ketab_n

نفسه من الحديث في السياسة، لكنه لكي يتحدّث عنها لا بد أن يعرف أولاً هوية من يستمع إليه. بعد معاناةٍ طويلةٍ توصّل صديقي هذا إلى حلّ مريح لكل الأطراف. قال إنه صار يجيب عن السؤال بأنه من الديانة الصابئية وألّا علاقة له بهذا أو ذاك، وهو ما ظلّ يبعثُ الارتياح لدى محدّثه الذي ينطلق عادةً إلى التعبير عن مكنوناته القروسطية دون تردُّد أو تحفُّظ. قلت لسعيد بصوتٍ لم أتعرف إليه:

- أنا مسلم أولاً، وبودّي لو أدرك المسلمون أن ما يوحّدهم أكبر بكثير من أساطير الاختلافات التي سيطرت على العقول.

بادر سعيد إلى القول بنبرة اعتذار:

- أعتذر أخي العزيز سليم، كما قلت لك أنت حُرّ. . .

قاطعته بالقول:

- أنا من الشّيعة، وزوجتي من السُّنّة. وأخي الذي قُتل في الحرب العراقية الإيرانية كان شيعياً وكان متزوجاً امرأة سُنّية هو الآخر. أبي الذي كان شديدَ الوَرَع والتديُّن، وأمي التي لا تقلّ وَرَعاً عنه تَحَمَّسا لزواجنا ولم يُشيرا من قريب أو بعيد إلى مسألة الخلاف الطائفي هذه. لو راجعت تاريخَ العراق منذ تأسيسه حتى الآن لن تجدَ خلافاً طائفياً نشب بين الأهالي أنفسهم. لم يحدث ما نسمع عنه في رواندا من أن جاراً قتل جاره لخلاف طائفي أو قومي. كل المذابح القومية بحق الكُرْد والمذابح الطائفية بحقّ الشيعة ارتكبتها الدولةُ ولم تجد من يتحمّس لها بين الناس العاديين. وحتى في يومنا هذا القتل الطائفي يمارسه الإرهابيون والميليشيات ويتضامن الأهالي من مختلف المِلَل والنِّحَل للحدّ من آثاره المدمّرة. المشكلةُ اليوم أن أعوانَ البعث لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم تحت مُسَمَّى العقيدة البعثية لأنها فقدت كل مصداقية في البلاد، ولم يبقَ أمامهم إلا ارتداء لُبُوس الطائفية والتحالُف مع جماعات التكفير التي قتلت من المدنيين العراقيين أضعافَ ما قتلت من العسكريين والأميركان. بينما الشعار مُحاربة

Twitter: @ketab_n

الاحتلال، فإن الممارسةَ تدلّ على نحو قاطع أن الغاية هي مُعاقبة العراقيين جميعاً. كل ما أخشاه ويؤلمني أن يتمكّن سماسرة السياسة الجُدُد من نقل شهوة القتل إلى الناس أنفسهم.

أصغى سعيد باهتمام إلى ما أقول وأدرك شدّة تأثّري لكنه لم يشأ التفريط في هذه الفرصة التي سنحت بعد طول انتظار. بدا ما يحدث في العراق أمراً مُحيِّراً يمتلك سَطْوة غريبة عليه. قال بهدوء:

- أقدّر ما تقول وهنالك بالتأكيد شيعة في العراق يحملون روحاً وطنية حَقّة، ولكن القادّة الشّيعة الذين دخلوا العراق على دَبّابة الأجنبي يُثيرون عندي الكثيرَ من الشكوك.

أشعل استخدامه لكليشة "الدخول على دَبّابة" غضبي. طالما قرأتُ هذه العبارة وسمعتها. قلت دون حماسة:

- يبدو أن الدبّابةَ التي تتحدّث عنها دائمةُ الحضور في المشهد السياسي في العراق. في السابق كان هؤلاء السياسيون الذين تتحدّث عنهم يتّهمون البعث بالدخول على دَبّابة أميركية عندما دبّر الانقلاب ضد عبدالكريم قاسم عام 1963. واليوم يَتَّهِمُهم البَعْث بذلك. الثابت أن الأجنبي جزء أساسي من حياتنا السياسية شئنا أم أبينا ودبّابته لا تَأبَهُ لمن يركبها، للأجنبي حُضُوره الدائم الذي ظلّ يؤطّر كل صراع سياسي في تاريخنا الحديث.

لم ينقطع الحِوار بسهولةٍ وظلّ سعيد يسأل ويدقّق لأكثر من ساعتين. كان يحتفل بفرصة وضع النقاط على الحُرُوف التي أُتيحت له على غير توقُّع. عندما قَرَّر إطلاق سراحي ومغادرة الشّقّة أخيراً عاود الخَوْض في حياتي الخاصة من جديد. قال وهو ينهض من مكانه:

- هل تنوي أن تأتي بالأهل في العام القادم؟ الظروف في العراق صعبة وأن تتركهم هناك فيه مخاطر شديدة عليهم.

قلت لأختم الحِوار:

Twitter: @ketab_n

- سأرى. يمكن أن أعود بهم إلى صُور.

قُرْب الباب قال دون أن يلتفت نحوي:

- أتمنّى لك حياة أُسَرية مُسْتَقّرة، ونصيحتي أن تأتي بأسرتك معك لأن حياة العزوبية محفوفةٌ بالمخاطر.

ربما تعمّد بملاحظته الختامية تلك التلويح بمعلومة لديه تخصّ زيارات ساندرا، وربما كان يعني ما يقول. لم أحفل ووافقته دون تعليق، لم أجد بُداً من الإقرار مع نفسي أنه كان على حَقّ.

Twitter: @ketab_n

55

كان جفري يرشفُ قهوته راضياً بعد أن قَرَّ قرارُه على تجديد عقده في صُور للعام القادم. وكنت قد سئمتُ تقلّباته الدائمة بين البقاء في صُور والعودة إلى شقّته في تايلاند حتى خطر لي إمكانية أن يكون لتردّده جانب عُصابي غير مَفْهُوم. سألني ذات مَرّة إن كان مقبولاً منه أن يغيّر رأيه في اللحظة الأخيرة فلا يعود إلى صُور فقلت إن مشكلته الوحيدة عندئذٍ ستكون مع شركة التشغيل التي لن تمنحه مكافأة نهاية الخدمة. بدا جفري مَرِحاً أكثر من المُعتاد ومَيّالاً إلى المُزاح؛ حَسْمُه دُوّامةَ التردُّد في المغادرة أو البقاء، وطعُم القهوة، وإحساسُه أن الامتحانات قد انقضت ولم يبقَ أمامه الكثير للانطلاق نحو مباهج الصيف، كلُّها تضافرت لتَبُثَّ فيه سعادة استثنائية. قال لي وهو يتأمل ما يرى من طرائف في القِسْم:

- ساندرا هذه مجنونة حقاً.

أثار اهتمامي قوله هذا وسألت: كيف؟

قال وقد برزت شعيرات حاجبيه الكثيفة:

- رأيتها أمس تمازحُ روجر في مكتبه. تعرف روجر، كان منصرفاً بجدّية تامة لعمله وظلَّت هي تطلب منه أن يحكي لها عن المغامرات التي يخطّط لها في عطلته. وتخيل ما فعلت... لقد باغتته فطبعت قبلةً على خده وخرجت. وقد خرجت معها لأتركه لعمله وانشغاله. كان ذلك خطأً مني، لأن روجر خرج من المكتب وهو يحمل ختمَ تلك القبلة الأحمر على خده، وتخيل من صادف في الممر؟

- لا تقل إنه صادف الطاهر!

Twitter: @ketab_n

- هذا ما حدث بالتحديد. أنا لا أُبالغ.

- وماذا فعل الطاهر؟

- قال لي روجر وكان يغلي غيظاً من ساندرا إن الطاهر ظلَّ يحدّق إلى وجهه على نحو غريب ثم قال له بِجِدِّية واستياء عليك أن تغسلَ وجهك قبل أن يراك أحدُ الطلبة. هُرِع إلى الحَمّامات ليرى الختمَ على خدّه ويلعن الأقدار التي جمعته بساندرا.

ضحكنا لهذا الموقف، لكنّي شعرتُ بوخزة خَجَل من نفسي لأني لم أُدرِك منذ البداية خفّتها واندفاعها. هل تكون ساندرا رخيصةً إلى هذا الحدّ فتغازل رجلاً آخر قبل أن أتأكّد أنا ضحيتها من حقيقة الإصابة التي دَفَنَتْها في جسدي إلى الأبد؟

حين اتصلت ساندرا يوم الأربعاء وطلبت أن تزورني للمرّة الأخيرة لتشاركني في آخر غداء قبل رحيلها قَرَّرْتُ أن أضعَ أمامها هذه الحكايةَ الغريبةَ وأبذل محاولة أخيرة في اكتشاف حقيقة من تكون؟ وصلت كعادتها صباح الخميس قادمةً من مسبح صُور بلازا مُنتشيةً متألِّقة. فكرت أنها لن تسمح لشيء مهما عَظُم شأنه أن يضيّع عليها متعةَ صباح ساخن مُشْمِس كهذا يعقبُ آخر أيام العمل في عام دراسي حافل بالنسبة إليها ويسبق بداية عطلة واعدة في آنٍ واحد. يمكن دون عناء ملاحظة التخفّف والمرح الذي يَسِمُ من انتهى من إنجاز مهمّة صعبة في حركاتها ونبرة صوتها الحماسية. لم أكن أشعر بشيء من كل هذا، كان اقترابُ العُطلة بالنسبة إلي موعداً مع مجموعة من الأسئلة الحائرة: أين أقضي العُطلة؟ ومع مَن؟ وماذا عن إصابتي الأبدية؟ كل هذا يلتفّ بقلقي من أخبار العراق وأخبار مَرَض الوالدة الذي يهدّد حياتها وعجزي عن السفر إلى هناك لأن وصولي كما قالت إنعام سيضاعفُ قلق والدتي وقد يُودي بحياتها. حوادث اختطاف القادمين من الخارج، وخصوصاً من منطقة الخليج، سعياً وراء فديةٍ مُجْزِية صارت شائعةً ومعروفةً وكلما سمعت الوالدة واحدة منها حمدت الله على أني آمن في مكان بعيد.

Twitter: @ketab_n

انطلقت ساندرا تُحدّثني عن ابنها بيلي وهي تتناول البيتزا التي طلبتها بالتلفون من بيتزا هَتْ لأني لم أكن مستعداً أو قادراً على دخول المطبخ. لا بد أنها لاحظت فتوري ولكنها بقيت مصرّةً على انطلاقها ومَرَحها أملاً في أن تنتقل العدوى إلي بعد حين. قالت:

- هل تعلم آخر أخبار بيلي اللعين هذا؟ قال لي إنه ينوي التطوعَ في الجيش وبدا متحمّساً للفكرة. أنفق وقتاً طويلاً في محاولة إقناعي بالموافقة فقال إن الجيشَ سيوفّر له الرعايةَ الكاملة من سَكَن ومَأْكل فضلاً عن التدريب على ما يختار من اختصاص. الدعاية البرّاقة في استراليا لفكرة الالتحاق بالجيش تسري في عقول المُراهقين كالسُّم فلا تتركهم إلا وقد شغلتهم فكرة الخاكي عن كل ما عداها. هل تعرف كيف يتمّ ذلك؟

- كيف؟

- هنالك سيلٌ من مشاهد الجنود الذين يتقافزون كالقِرَدة على طريقة أفلام المغامرات. يبدو الأمر أشبه بالنُّزْهة التي تتخلَّلها فعاليات رياضية عنيفة، ثم هنالك مشاهد الجنود الذين يساعدون أطفال أفغانستان ويقدّمون لهم الطعامَ والعلاجَ وينهمكون في تعليمهم كل أنواع المهارات. وبيلي الغبي بَلَع الطُّعْم وها هو ذا يندفعُ كالمجنون. هل تعلم ما قلت له؟ أقسمت إن هو التحق بالجيش ووصل إلى أفغانستان أن أتصل بطالبان وأعطيهم اسمه لتصفيته بأقرب فُرصة ممكنة.

قالت ذلك وصدحت ضحكتها حتى وجدت نفسي أبتسم وأسأل:

- وهل لديك اتصالات مع طالبان؟

- ومع الجنّ. بيلي هو السبب الرئيس لاستقالتي. إنه في الخامسة عشرة وأبوه لا يلتفتُ إليه. الأب مشغول كما تعلم بعاهرته المُدْمِنة. ليس لبيلي إلّا أمُّه. سأحاول أن أجد له معهداً يتعلّم فيه حِرْفةً مفيدةً لا يضطر معها إلى ارتكاب الجرائم بحق الغرباء. لولاه لما تركتك وحيداً في صُور،

Twitter: @ketab_n

ولكن تأكَّد أني سأعود إلى هنا ما إن أنتهي من ترتيب أُمُوره وأطمئن إلى أنه صار على الطريق الصحيح.

واصلتُ الأكل دون تعليق. ساد صمت قصير. كانت ساندرا تعلم تماماً أن بيننا حِواراً صامتاً من نوعٍ آخر فيه لوم ومرارة واستياء، لكنها لم تكن لتستسلم أو تتيح له الإعلان عن نفسه. خِبرتُها في النزاعات مع الرجال علّمتها أن خيرَ وسيلة للإصلاح ألّا تقتربَ من التفاصيل وأن تواصلَ الحِوار وكأن كل شيء على ما يُرام. وهكذا طردت الصمت من لقائنا لأنه مَزْرعة مُريبة تُغْري بنبش تُربتها القاحلة. قالت وهي تشرب من قدح العصير أمامها:

- قالت سارة إن ابنها جوني رآى صورة جَمَل في عُمان فسألها إن كانت جَدّته ستأتي إلى أستراليا عليه. وبعد أن أقنعته أن جدته ستأتي بطائرة ظل يُلِحّ عليها أن تكون هديتي له جَمَلاً يُربّيه في البيت ويستبدله بكلبه تاكي الذي بدأ يَمَلُّ منه.

يمكن لساندرا أن تتدفّق في الكلام دون صُعُوبة وهي مَهارة مارسَتْها بكل ما لديها من قُدْرة لتحقّق بُغْيتها في جعل اللقاء الأخير وقتاً سعيداً. كنتُ حريصاً، ربما بدافع الفضول قبل أي شيء آخر، أن أسألها عن حكايتها مع روجر دون أن أذكر اسم جفري بوصفه مصدرَ معلوماتي. في صُور لا يحتاج المرء إلى كشف مصدر معلومته مهما صَغُرت ودَقَّت لأن كلّ الأسرار مُباحة في أُفُق التَلصُّص والنَّمِيمة. قلت وكنا نحتسي الشايَ أمام التلفزيون:

- هنالك من رأى روجر يمضي في المَمَرّات وعلى خدّه حَلْقة حمراء من أحمر الشفاه.

فوجئت بالمعلومة ونَدَتْ عنها ضحكة عالية من القلب. كانت سعيدة مطمئنة. سألت بنبرة من ينتظر مزيداً من الطرائف:

- من قال لك هذا؟

Twitter: @ketab_n

- لنقل إني رأيته بنفسي. ولكن كيف أمكنك تقبيل أستاذ في الكلّية بهذه الطريقة؟

أدركت الجدّية التي تُبَطِّن سؤالي الهازِل ولكنها استمرّت في مِزاجها اللاهي ورغبتها في سرد الطرائف:

- روجر هذا شخص طريف غريبُ الأطوار. عندما كتبتُ ردّي عليه في جريدة "الأسبوع" كنت أظنّ أنه شخصية جادّة تستحقّ الحِوار، لكنه كما أعرفه الآن لا يعدو مزحةً تُثيرُ الشَّفَقة. دعني أحدثك عن غرائبه. دعوته إلى تناول الغداء في شِقّتي مع ماثيو وجين. بالمناسبة دعوتك أنت أيضاً ولكنَّك كالعادة اعتصمت بِبُرْجك العاجي هذا. كان مساء ممتعاً لكن روجر فاجأني في اليوم التالي برسالةٍ وضعها تحت بابي يَشُنّ فيها هجوماً غريباً عليّ لأني قمتُ بإلغاء الضيوف. نعم، هذا هو التعبير الذي استخدمه "إلغاء الضيوف" لأني احتكرت الكلام ولم أُصْغِ إلى ما كان يقوله ضيوفي. ومضى يومان لم أصادفه خلالهما لأستوضحه الأمر، فتخيَّلْ ما فعل؟ ترك لي رسالةً ثانية، تحت الباب أيضاً، يطلب مني فيها أن أدفع له عشرة ريالات مقابل استعارتي مِكْنسته الكهربائية لتنظيف شِقّتي. تخيَّل!

- وهل دفعت له النقود؟

- إنه مجنون بالمعنى الحَرْفي للكلمة. عندما قابلته أخيراً وحدّثته عن أمر شكواه مني اعتذر بأدب وأصرّ على أن يقدّم لي المِكْنسة هديةً خالصة. أنا لا أُبالغ، هذا ما حدث. لكن أعجب طرائفه هو سبب استقالته.

- ما هو؟

- قال لي، وليبقَ هذا سِرّاً بيننا، إنه ينوي العودةَ إلى نيوزلندا والانخراط في سِلْك الكَهَنُوت. يقول إنّ المشكلةَ التي نعيشها اليوم أخلاقية في المَقام الأوَّل. تخيَّلْ! منذ عرفت هذا عنه صِرْتُ أداعبه بدلاً من الدخول معه في سِجالات. وقد وجدته ذات يوم حزيناً يَنُوء تحت حِمْل جدّيته المُضْحِكة فطبعتُ قُبلة على خدّه على سبيل المُزاح.

Twitter: @ketab_n

قلت بعناد:

- القُبَل لا تخلو من مُزاح دائماً.

صمتت وتطلّعت نحوي بتأثُّر مفاجئ. قالت برقّة:

- سليم، هل تغار عليّ منه؟

لم أشأْ مساعدتها على الانعطاف بالحديث إلى هذه الزاوية المُريبة. قلتُ في محاولة لإعادتها إلى نَبْرة التخفّف واللامبالاة:

- دعك من هذا، لكن قبلةً في كُلّيتنا يمكن أن تُثيرَ زوبعة.

قالت بجدية:

- مثل هذه القُبَل عادية ومفهومة في الغرب، وهي لا تعني أي شيء. أما أقاويل صُور فهي تعبير عن تهويل مَرَضي لأيّ تقارب مع الأنثى، سببه واضح دون شك، التباعُد والكَبْت والعُزْلة!! عموماً لا تهمُّني هذه الزوابع الصغيرة، هنالك إعصار حقيقي في الطريق!

انعطف الحديث إلى إعصار غونو وعرفت أنها تتابع أخباره بدقّة كبيرة. لكن حديث الإعصار قاد ساندرا إلى كشف سِرّ لم أكن لأتعرَّف عليه لولاها، وقد ذكّرَتْها به حقيقة أن اسم ستورمي يعني "عاصف". قالت إن إعصار ستورمي قد ضرب البنايةَ قبل غونو وصدم كل من عرفه. لكنها لزمت الصمتَ فجأةً كأنها تراجعُ حكمة نقل الخبر لي، وقد زاد ذلك فضولي لمعرفة الأمر. طلبت مني أن أقسم لها ألّا أُذيعَ السّر لأحد أيّاً كان فوعدتها بذلك. اتضح أنَّ ستورمي ظلت تقاطعُ رالف منذ ليلة مقتل أريكا حتى استفحل الخلافُ بينهما وبلغ حدَّ الانفجار قبل أسبوع فاتهمته أمام بعض الأساتذة بأنه هو من قتل أريكا وأَفْلَتَ بجريمته. فاجأني الأمرُ وطلبت التفاصيل خصوصاً وأني أتذكّر أن رالف لم يكن في تلك الليلة قادراً على الكلام فكيف أمكنه ارتكاب جريمة؟ قالت ساندرا وقد هَيْمَنت جِدّية لا تَخْلو من ذُعْر على ملامحها:

Twitter: @ketab_n

- في تلك الليلة الرهيبة يبدو أن أريكا رفضت أن تنزل السُّلَّم قبل رالف لئلا يُقدِم على واحدة من حماقاته.

قلت وأنا أتذكر تفاصيلَ التحقيق:

- هذا صحيح.

- ما قالته ستورمي يشيرُ إلى أن رالف نزل قبل أريكا بالفعل لكنه التفت إليها بينما هما معاً على السُّلَّم وبدأ يمازحها مُتَطَوِّحاً. وقد سمعت ستورمي صوت أريكا تطالبه أن يكفَّ عن سماجته وأن يبتعدَ عنها لكنه تَمادَى وعَلَتْ ضَحِكاته رَدَاً عليها ثم فجأة جاءت صرختها المذعورة وصوت ارتطامها بالأرض.

فكَّرْتُ مَلِيّاً في ما أسمع وقلت متأملاً:

- تبدو جريمة من نوع غريب.

قالت ساندرا تُؤمِّن على ما أقول:

- نعم، هي حادثة غير مقصودة وجريمة مُروِّعة في آن واحد. بالنسبة إلى ستورمي لن يُقنعها أحد ببراءة رالف. لقد تحدّثتُ إليها وكانت شديدة التأثُّر. قالت إنها مقتنعة بأن رالف قد ارتكب جريمةً لأنه لو كان قد بلغ من السُّكْر حَدّاً يُعفيه من المسؤولية عما حدث لسقط معها في بئر السُّلَّم، لكنه قفز إلى الرَّدْهة ونجا بعدما دفعها إلى التَّهْلُكة. بالنسبة إليها ذهبت أريكا ضحيةَ وَلَعها بما كان يُقَدِّم لها ذلك الصُّعْلُوك من صَخَب ضاحك. لكن رالف نفسه متأزِّم منذ الحادث وأعتقد أنه يشعر بطريقةٍ ما أنه مسؤول عما حدث.

أذهلتني المعلومةُ وقلت إن هذا الكشف إعصار حقيقي، فردَّت ساندرا أن غونو قد يكون أعنف، وهو على الأبواب لا تفصلنا عنه إلا ثلاثة أيام.

Twitter: @ketab_n

56

كما توقّعت ساندرا حدّدت الأرصادُ العُمَانية موعد الإعصار بعد ثلاثة أيام من زيارتها. وكان ذلك وقتاً كافياً لكي يُدرِك الجميع خطورةَ الموقف ويتّخذوا ما يلزم من الاحتياطات. إلّا أن الكثيرين، وأنا منهم، لم يفعلوا شيئاً يُذكر. منهم من لم يُصَدِّق أن الأمر يمكن أن يكون تهديداً حقيقياً، فالرِّيح في نهاية المطاف لا تعدو هواءً فَقَدَ صوابه. آخرون ذكروا الله وقَرَّروا أن قُلْ لنْ يُصيبنا إلّا ما كَتَبَ اللهُ لنا ونَسُوا الأخذَ بالأسباب. تابعت أخبار الإعصار على الإنترنت فرأيتُ على شاشة الكمبيوتر خرائط تمثل بحر العرب يخرج منه عَمْودٌ مُحْمَرّ يمثّل الإعصار على مساحات زُرْق ساكنة. قيل إنه من الدرجة الخامسة، أي إن سُرْعته تصل إلى 250 كم/ساعة، وهي سرعة جنونية فعلاً. لكن التوقّعات ذهبت إلى أن شدّته ستنخفض إلى الدرجة الثالثة عندما يصل إلى سواحل عُمان، وهو ما يعني 130 كم/ساعة، سُرعة تبقى خطرة. قيل أيضاً أن زَخْم الإعصار سيرفع ماء البحر إلى اثني عشر متراً في الأقل. وقد خطر لي موقعُ البناية التي تسكن فيها بَتُول والتي لا تبعد عن حافة مياه البحر أكثر من عشرة أمتار. لكن بَتُول انقطعت عني تماماً خلال فترة الامتحانات ولم تعد تتركُ لي تحيتها المُقتضبة المُعتادة. لم أستغرب انسحابها فهو كما قالت لي في أحاديثي المعدودة معها فِرْدَوْسُها الذي طالما انتظرت دخوله. لم يخطر لي الاتصال بها في مواجهة المِحْنة القادمة لئلا تظنّ أني أحاول التطفُّل عليها بعدما رأيتُ من عُزُوفها عن الاتصال طوال الأسابيع الأخيرة. بقيتُ دائماً أجد صعوبةً في فهمها وتحديد أفضل السُّبُل للتعامل معها.

Twitter: @ketab_n

تملّكني وأنا أتابعُ أخبار الإعصار وأرى الاستعدادات لمواجهته حولي شعورٌ غريبٌ باللامُبالاة. كنت لاحظت جاري الهندي في الطابق الثاني يستقدمُ بعض العُمّال لتثبيت ألواح كبيرة من الخشب السميك على باب شرفة غرفة النوم المواجه للشارع لحمايته من الإعصار. وهو ما يعني أنه لم يكن ينوي مغادرةَ البناية. دفعني الشعورُ باللامبالاة الذي اختلط بتعب آخر أيامِ الامتحانات إلى أن الإعصار إذا ما حطّم باب شرفة غرفة النوم فسأغلقَ بابَ الغرفة الداخلي الخشبي الثقيل المؤدّي إلى الصالة، وهو أسوأ الاحتمالات. قابلت جورج عند باب البناية حينها وتحدّثنا عن الإعصار. قال إنه قَرَّر أن يحجزَ غرفةً في فندق صُور بلازا المُحَصَّن البعيد عن الساحل يمضي فيه ليلة وصول الإعصار، قلت حينئذٍ إن الفندق يقع في شارعنا نفسه أي إنه يبعد عن الساحل مسافةً تساوي المسافة التي تفصل بين بنايتنا والبحر وإني سألزم شقّتي لهذا السبب. قال ببساطةٍ شديدةٍ إن الوجود في الفندق سيمنحه شعوراً بالأمان يحتاج إليه في ضوء ما يسمع من أخبار، وأضاف أن الصُّحُونَ الفضائية التي تزدحمُ على سطح البناية أمام باب شِقّته تمثّل تهديداً إضافياً بالنسبة إليه. وكنت أظنّ أنه يمزح فَضَحكْتُ، لكنه ظلّ يلزم جدّيته المعتادة وهو يتحدّث عن التهديد الذي تمثله الصُّحُون. لم يكن جورج يمتلك حسّ النُّكّتة، فهو لا يجيد التقاطها حين تُقال له (هل لمشاكله في السمع علاقة بذلك؟)، كما أنه لا يجيد إلقاءها. قال لي إن روجر وجفري سافرا إلى مَسْقَط وحجزا في فندق هناك، أما ستورمي ورالف وآخرون فقد تمكّنوا من الحصول على أماكن في صُور بلازا. أدركت أن الفندقَ امتلأ وأن الذعرَ بين الأساتذة حقيقي.

في الكلّية سمعت من الدكتور الطاهر شكوى من موقف المستشفى الكبير في صُور من طلبه التَّحَصُّن فيه مع عائلته بعد أن فتح أبوابه أمام المُسْتَجِيرين. قال إن المستشفى وفّر عدداً محدوداً من الغرف لأشخاص بعينهم ومن بينهم الدكتور حاكم وأسرته، وشدّد على أن العلاقات الشخصية لعبت دوراً في ذلك وأن الأطباء العراقيين الذين يحرص د. حاكم على

Twitter: @ketab_n

صداقتهم للحصول على أفضل الخدمات الطبية أثبتوا أنهم قادرون على توفير خدمات أُخرى لا تخطر على البال في هذا الظرف. حين قصد الدكتور الطاهر المستشفى اعتذر منه الطبيب المسؤول عن البرنامج وقال إن الغُرف قد شُغِلت كلها. سألتُ الطاهر عما ينوي عمله فقال إنه قَرَّر أن يلزمَ شِقّته لأنها تقعُ في وسط زحام البنايات في السوق وأنه يسكن الطابق الثاني، وكل هذا يمثل حمايةً كافيةً من الإعصار والغَرَق.

قبل يومين من الإعصار اتصلت بي ساندرا تلفونياً وسألتني عما أنوي عمله استعداداً لليلة الكبيرة فقلت لا شيء وإني سألزم شِقّتي، ما إن قلت ذلك حتى بادرت إلى القول إنها ترى أن تمضي الليلةَ معي لأن وجودنا معاً سيوفّر لنا شعوراً مضاعفاً بالأمن. لم أفكر للحظة في قبول اقتراحها، رفضته في الحال وطلبت منها أن تلزمَ مكانها لأن الإعصارَ قد يدمّر أبوابَ شُرُفاتي الثلاث ونوافذها، وأن وجودها معي إذا ما حدث طارئ سيُعدّ فضيحةً لدى الجيران من العرب والأساتذة، وأني أنوي تجديدَ عقدي للعام القادم ولا أريدُ المجازفة بفقدان عملي إذ يكفي ما أسمع حتى الآن من أقاويل وتعريضات. وقد انكسر صوتها وهي تحاول جاهدةً أن تنقل إلي انزعاجها من موقفي اللامسؤول هذا حتى أيقنت إصراري فتمنّت لي حظاً سعيداً بصوتٍ خائب.

بقيت خلال الأيام الثلاثة السابقة للإعصار أراجعُ إحساسي الغريب باللامبالاة تجاهه وتجاه الاستعداد له. وتساءلت هل السبب ما شهدت من مواجهات عديدة مع الموت في حياتي؟ استعرضت في لمحات خاطفة مواجهاتي المُرْعِبة مع الموت في خنادق الحرب مع إيران، ثم في مكاتب الأمن العسكرية بتُهَم سياسية لا تقلّ عقوبتها عن الموت بأي حال. ولكن ليلة الهجوم الأميركّي على بغداد عام 1991 ظلّت عالقةً بمخيلتي. كنا نتكدَّس في غُرفة المَخْزن في البيّاع، ولم يكن فيها إلا شُبّاك صغير أعلى الجدار أغلقناه بقطعة كبيرة من النايلون خشيةً أن تتحول الحرب إلى مواجهة كيمياوية، وكان الوالد والوالدة وإنعام وكريمة التي كانت تزورنا حينئذٍ

Twitter: @ketab_n

يُصْغُون بقلق إلى أصوات الانفجارات الهائلة حولهم تأتي من كل أنحاء بغداد ويُحدِّقون بِرُعْب إلى ظلام الغُرفة. كنت ليلتئذٍ أعاني حساسية مَقِيتة لزمني بسببها عُطاس متواصل طوال النهار حتى اضطرُرت إلى أخذ حَبّة اليرمين مساء. عندما بدأ القصف صحوتُ ونزلتُ من غرفتي والتحقتُ بالأهل في المَخْزن، وسُرْعان ما تمدّدتُ على الأرض ورُحتُ في نومٍ عميق على صوت الانفجارات. قالت كريمة في اليوم التالي إن خبرتي في مواضع الحرب نفعتني كثيراً تلك الليلة. لكن من بقي صاحياً ينتفض على إيقاع الانفجارات حوله لم يُغَيِّر شيئاً. قلت لكريمة حينئذٍ إن خبرتي الوحيدة التي خرجت بها من الحرب أن المرء في مواقف كهذه، حين يبدأ هجوم مدفعي أو جويّ لا يقوى على صدّه أو التحكّم فيه، لا يملك إلا الانتظار السلبي والاستسلام وإدراك أنه نَرْدٌ صغير تتقاذفه أيدي المصادفات والأقدار، وأن هذا الإحساس الغريب باللامبالاة الذي يولّده العجز عن التحكّم في الخطر هو ما كان يسيطرُ عليّ حينئذٍ. قالت كريمة إن ما تشعر به من الرُّعب والخَوْف يدفعها إلى إعداد نفسها لمواجهة الخطر، فسألتها: وكيف تكون مواجهة الخطر إذا كان مصدره طائرات تي 52 العملاقة؟ قالت إن ما يشغلها حماية أطفالها إذا ما أُصيبت البناية أو تحطّم الملجأُ الذي تتحصّن فيه، وإن الخوفَ ضروري لشحذ الانتباه والاستعداد للأسوأ. قلت ليس لديّ طفل يُنَبِّهُني إلى هذه الحاجة وإنها قد تكونُ على حقّ.

ظل الإعصارُ يتلازم في مخيلتي مع الهجوم الأميركي في تلك الليلة، وأعتقد أن سبب التلازُم هو ذلك الشعور المأساوي بالعجز الكامل إزاء قَدَر يُهدِّد الحياة برُمّتها. خطر لي أن ما يفعله الناس حولي استعداداً لمواجهة الإعصار هو نوع من التشاغُل عن هذه الحقيقة المُرّة، فكأن الانهماك في ترتيب حَجْز في فندق أو التوسُّط للحصول على غرفة في المستشفى أو تحصين النوافذ ما هو إلا استنزال لإحساس مُفْتَقد بالثِّقة والأمان. ولم يخطر لي أن ألومهم على ما يفعلون، كل ما في الأمر أن إجابتي على الخطر الداهم هي الاستسلام له والإقرار بحقيقة أني عاجزٌ عن التحكّم

Twitter: @ketab_n

فيه، وربما كان هذا الموقف السلبي العاجز يمَثّل خُلاصةَ ما تعلّمته من عُقُود من الخطر والمواجهات المُريعة مع الموت. كلما كانت المواجهة مع الموت نادرةً ازداد أملُ الإنسان في القدرة على تفاديه، أما تكرار المواجهة مع الموت فتثبت أن له قوانينه ومواعيده التي لا تخضعُ لتدبير الإنسان.

قررتُ في صباح اليوم المنتظر أن ليس عندي ما أفعل وأن الإعصار سيمرّ كغيره من الأعاصير. اتصلتُ بالأهل في بغداد وطمأنتُ إنعام أن الأمور على ما يُرام هنا ولم ألمس في صوتها ما يدلّ على معرفتها بحجم الخطر الذي يدهم البلاد، لديها ما يكفي من أسباب الخوف حولها. كنت قد أتقنتُ بعد عُقُود من المصائب لعبةَ الطمأنة المُتبادلة عندما يحل الخطب، والنجاح فيها يبعث الرضا لدى الطرفين. بدأتها خلال سنوات خدمتي العسكرية بعد مقتل أخي كريم في الحرب، صرتُ أكذب على الأهل وأؤكِّد لهم أن موقعي في الجبهة بعيد عن الخطوط الأمامية مهما اقتربت منها. ما فائدة التحذير والشكوى لدى الأهل وهم عاجزون عن التدخّل لمنع الخطر الداهم في الخنادق؟ لكن لتلك اللعبة نتائج سلبية منها أن الطّمأنينة التي تأتي من إخفاء اقتراب الخطر قد لا تكون طمأنينةً بالمعنى الدقيق للكلمة. إنها أقرب إلى تخدير آنيّ يجعل المُصيبة حين تحلّ كالطعنة الغادرة التي لا يُمَهِّد لها أي قلق أو استعداد. قالت إنعام إن صحة الوالدة تتحسّن ولكن ببطء (هل كانت صادقة؟) لكنها ما زالت غير قادرة على التحدُّث معي وهي تبعث لي أصدق تحياتها وتمنياتها. كلمات مكرورة لا تمتّ بصلة إلى احتدام مشاعر الوالدة.

بدأت الريحُ تشتدّ في الخامسة عصراً. وحدث ما لا يمكن أن يخطر على بال أحد في صيف عُمَان الساخن، إذ بدأت قَطَراتُ المطر تضرب النوافذ والشُّرُفات وتَسيل على الزجاج بغزارة. وصل عبر التلفون إخطار جديد من الأنواء العُمانية يحذّر من الخروج أو السفر ويذكّر بتوفُّر ملاجئ لمن يسكن المناطقَ القريبة من البحر، وتكرَّر تحذير الصيادين من الاقتراب من السواحل في هذا الوقت. جلستُ إلى الإنترنت أتابعُ الخرائط الرقمية

Twitter: @ketab_n

وأقرأ عن الإعصار حتى مَلَلْتُ الشاشة. انتبهت إلى أنها واحدة من المَرّات القليلة في حياتي التي أواجه فيها خطراً كهذا دون رِفْقة ما، نبهتني إلى ذلك حاجتي إلى تبادُل التعليقات عما يحدث مع شخص آخر. الكلام وسيلتنا إلى طرد الوحشة أمام الأخطار. رفعت التلفون ووقفت وراء زجاج شُرْفة الصالة أتطلع إلى الأفق المُكْفَهِرّ تُطَرِّزه حَبّات المطر المضطربة في حركة الريح. طلبت رقم فرحان لأطمئنّ إليه وأتكلّم. دَقَّ التلفون ولم أحصل على رَدّ. مَسْقَط معرضة للخطر هي الأُخرى ولا بد أن فرحان منهمك الآن في تأمين سلامة عائلته. خطر لي شهاب في بغداد لسبب لا أعرفه، فطلبت رقمه وفوجئت عندما أجاب دون إبطاء. بادرني بعد التحية بالسؤال عن أخبار الإعصار، قال إنه قرأ عنه في الصّحف وكان ينوي الاتصال. طمأنته وسألت عن أحواله فقال إنه منهمك في التحضيرات لمهرجان أدبي كبير وشكا من خُمُول الكثير من البعثيين السابقين في الوزارة وعُزُوفهم عن إنجاح أي مشروع. طلبتُ منه أن يتوخَّى الحذر لأن خُمُولهم في البناء يُخفي تحته حماسة كبيرة للتهديم والدمار. اتفق معي لكنه عاد كدأبه مؤخراً إلى الحديث عن شباب حوله يفيضون حماسةً للكتابة والإبداع. أثنيت على مقالته "عودة من المنفى" فقال إنه كتبها بعد أن كَثُرَ عدد من يسأله عن سبب عودته إلى العراق في الداخل والخارج، وصار بعضهم يُبَطِّن سؤاله بتعريضٍ يتّخذ أشكالاً متعدّدة فتارةً أنه عاد لتمسّكه بالأيديولوجيا الستالينية التي عفا عليها الزمن، وأُخرى أنه يسعى إلى تحقيق بطولة لم يَعُدْ لها مكان في عالم اليوم، بل ذهب آخرون إلى حدّ القول إنه طامعٌ في المناصب. قلت إن سؤالي يختلف عن كل هذه الأصناف وهو ينطلق من حِرْصي على مواهبه الكبيرة وفِكْره الثاقب الذي يحتاج إليه العراقيون حاجة استثنائية في هذه الظروف العسيرة. سارع إلى القول إني لا أحتاج إلى التوضيح وإنه ينتظر الوقت الكافي ليردّ على رسالتي الاستذكارية التي أثّرت فيه كثيراً رَدّاً خاصاً مُطَوَّلاً.

لم يدم الحوار مع شهاب طويلاً وقد ختمه بإشارة إلى الإعصار

Twitter: @ketab_n

المُرْتَقب فقال إن الأعاصير في كل مكان كما يبدو. أدخل الحديث مع شهاب في نفسي طُمَأْنِينةً ابتعدت بي عن صُور وأصوات المطر والريح في الخارج بكل ما فيها من وَحْشَة وتوعد. أكَّد لي حواري القصير مع شهاب أن ما أحتاج إليه الآن رِفْقة من نوعٍ ما. وخطر لي أن وجودَ شخص آخر معي، حتى لو كان قَلِقاً وخائفاً أتولّى مُهِمّة إدخال الأمن في نفسه سيكون عوناً كبيراً لي. أليست حمايةُ الأَحِبّة في مواجهة الخطر حماية لنا أنفسنا من وَحْشَة المواجهة المُنفردة معه؟ وجدتُ مواجهاتي العراقية مع الموت تنبثقُ بين حين وآخر في صَخَب العاصفة. كنت خلالها جميعاً أنعمُ بصحبة من نوعٍ ما وكنت أتكلّم وأستمع ويملأ الحوار الفراغ المُوْحِش الذي يلفّني الآن. الصُّحبة ظلَّت دائماً الردّ على فظاعة الخُطُوب والأمل في تطويعها وتكبيلها بحبال الكلام. قصدت جهازَ التلفزيون وفتحته فوجدت أنه قد توقّف عن البثّ بعد أن أطاحت الريحُ الصحون الفضائية على السطح. ثم بدأت حركة الريح بالأَنِين. نعم، كان صوتاً أقرب إلى أَنِين متوجِّع متَّصل فكأن كائناً خُرافياً هائلاً يتمسّح بحيطان الشِّقّة ونوافذها مستجيراً من وجع ما يطرده ويعذّبه، وكأني أخشى قبوله لما يبدو عليه من وحشية وتشرّد وعذاب.

تقدّمتُ من شُرفةِ الصالة مرةً أخرى وأحكمتُ إغلاق بابيها. فحصت زُجاجها فوجدت في الزاوية العُليا صَدْعاً صغيراً ربما سبَبَّته قطعة حَصىً قذفت بها عاصفة سابقة. اتجهت إلى غُرفة النوم وأحكمتُ إغلاق باب شُرفتها ثم باب شُرفة المطبخ. لقد فضح الإعصار أن كثرة الشُّرفات لا يُعَوِّض عن الرِّفْقة الحَيّة، وأنه لم يأتِ طوال أشهر إلّا بِضَوضاء الميدان المقابل ثم هاهو ذا يفتح منافذَ لأخطار مجهولة. سأحرص خلال العام القادم على الانتقال إلى شِقّةٍ جديدة، وسأختارها على البحر في منطقة البَرّ حيث الهدوء الكامل والأُفُق المفتوح على البحر وعلى مشهد الجبال الممتدّة خلف البنايات الواقعة على الساحل. صمت الطبيعة أو حوار حيّ مرغوب فيه، أما الضجة المجهولة التي يقذفها الشارع ليل نهار كالقُمامة

Twitter: @ketab_n

على شُرُفاتي فأمرٌ لا أُطيقه ولن أستسلم له. بعد أن أمّنتُ الشُّرفات فتحت الثلاجة وأعددتُ عشاء خفيفاً، قطع من الجبن وشرائح من الطماطم. لم أكن راغباً في الطعام لكني خشيت أن يدهمني الجوع بعد انقطاع التيار الكهربائي المتوقّع في أية لحظة. وقفت أمام شُرفة الصالة مرةً أخرى وأنا أحمل كوبَ الشاي أتطلع إلى الشارع الخالي إلا من سيارات تمرّ بين حين وآخر بحركة عصبية سريعة. كانت مصابيحُ الأعمدة قد أضيئت وزاد خُلُوّ الشارع من سَطْوتها على المكان. لم تفسد حركةُ الريح المتسارعة وزَخّات المطر المضطربة وقارها وهي تستقرّ على أعمدتها وتفيض على الشارع باطمئنان.

بعد الساعة السابعة مساء اشتدّ هزيمُ الريح وتمكّنتُ دون عناء من رؤية المسار الذي تَشُقّه على طول الشارع في اندفاعها نحو مركز المدينة. كان أنين الريح يتصاعد ويكاد يتحول إلى زئير مُدَوٍّ. المدينة تنتظر في استسلام كامل والشوارع خلت تماماً الآن كأنها مسرح يُعدّ لحدث كبير. لازمتني الرغبةُ في الكلام، في التعليق على ما يحدث وفي سماع تعليق يصدر عن شخص آخر يشاركني في هذه اللحظة. مثل هذه التعليقات لن تغيِّر شيئاً من مسار الريح وأنينها المتوجّع لكنها كفيلةٌ بتحويل التجربة بأسرها إلى موضوع مفهوم يؤطّره حوار مألوف تنزع كلماته المُكَرَّرة الغرابة عن موضوعها. كدت ألوم نفسي على رفضي عرض ساندرا أن تمضي الليلة وتساءلت إن كان ذلك قراراً متسرّعاً؟ لكني توصّلت بعد تأمل قصير إلى أن علاقتي بساندرا قد تعقّدت حتى صار وجودها جزءاً من وَحْشتي. لا تزال طاولةُ الشاي في الصالة تحمل صُدُوع شجارنا الأخير لم أفعل شيئاً لإصلاحها بالرغم من إدراكي أن إصلاحها يمكن أن يخفّفَ من غضبي على ساندرا.

لم يكن أمامي لإيقاف تلك التداعيات الموحشة إلا صوت يسحبني إليه بعيداً عنها. أخذتُ جهازَ الأم بي ثري من على المكتب وكنت قد حمّلته برواية توماس هاردي "بعيداً عن الزّحام المجنون" حصلتُ عليها من

Twitter: @ketab_n

موقع لبري فوكس. يقال إن خير جليس الكتاب، ومع الثورة الرقمية صار الكتاب ناطقاً. كانت فصول الكتاب مسجّلة بأصوات متطوعين من أميركا وبريطانيا وقد تناوبت على قراءة فصوله أصوات عديدة أبرزها وأكثرها مساهمة صوت امرأة تدعى لي آن هاوليت تَمَيَّز بهدوء لا ينطوي على أي قدر من اللامبالاة بما تقرأ. وهنالك صوت رجل يدعى سيمون أيفرز لا يفسد وقار قراءته مَيْله التمثيلي الطريف إلى تقليد اللهجات والانفعالات. كنت قد قرأت هذه الرواية قبل عقود ونسيت الكثيرَ من تفاصيلها، لكنّ توافر نسختها الصوتية على الإنترنت أغراني باستعادة الدخول في عالمها الحميم. ولعي بمعاودة قراءة الكتب القديمة التي طوتها كدمات الذاكرة صار يشتدّ في السنوات الأخيرة وصرت أجد فيها من الحياة أكثر مما أجد في الإصدارات الجديدة. ربما كانت تلك من علامات الكُهُولة. وغالباً ما تكون الاستعادة عبر الكتاب الصوتي، ربما لأنه يوفّر حضوراً إنسانياً محمّلاً بتأويل خاص تعجز عن نقله الأوراقُ الباردة الصامتة. الآن، وأنا أتسمَّع منذ ساعات إلى نُواح الرياح وَقَرْعها العنيف على الشبابيك والأبواب قررت أن أضعَ السمّاعتين على أذنيّ وأغيب عما حولي. لا أمل إلا في أن يستنفد الإعصار شِحْنة غضبه وجنونه ويهدأ. سُرْعان ما انساب صوت لي آن هاوليت يقرأ الفصل الثالث عشر وفيه نجد بطلة الرواية باتشيبا، التي يكون حُسنها مصدر اضطراب لمن حولها وسبباً يدفعها بعيداً عن الناس كما هي العادة مع اغلب بطلات هاردي، تُقَرِّر مع خادمتها أن تمزح مع الرجل الوقور بولدوود، الذي لم يُبْدِ كغيره اهتماماً بها في السوق. تتردّد في البداية وتنتهي إلى تحكيم لعبة الحظ والمصادفة في أمر المُضِيّ في المزحة أو الامتناع عنها، ويشاء الحظ أن يشجّعها فترسل بطاقة عيد الحب فالنتين غُفْلاً إلى بولدوود ومعها عبارة تحمل ختماً يقول: "تزّوجني". في الفصول اللاحقة يكون لهذه البطاقة أثرٌ عميق في هذا الأعزب الوحيد الذي بلغ الأربعين، وتشاء المصادفات (وهي كثيرة لدى هاردي، وجهوده المُحْبَطة لبثّ المعنى في عشوائيتها عميقة مؤثّرة) أن يتعرف بولدوود إلى خطّها

Twitter: @ketab_n

ويدرك أنها هي من أرسلت البطاقة. وبينما يزدادُ اهتمامه بها حتى يتحوَّل إلى عِشْق هَوَسِيّ مَشْبُوب تكون هي حائرة في كيفية الاعتذار له عن المزحة وتأكيد أنها لم تقصد شيئاً عدا المُزاح.

استغرقت مع شخصيات الرواية ووجدتُ نفسي أقارن بما أقرأ اندفاعي إلى دعوة أريكا بعد أن تبادلت وإياها كلماتٍ عابرة ومُبالغتي الناجمة عن عُزْلتي. يقول هاردي عن بولدوود إنه لا يعرف الوسط فإمّا عِشْق مَشْبُوب وإما إهمال كامل للمرأة. أتذكر أن نهايةَ بولوود تكون مأساوية بسبب هذه المزحة الخفيفة لكني لا أستطيع استحضار التفاصيل، وقد شغلتني لعبة انتظار التفاصيل عمّا حولي. أغمضت عينيّ وعشت في تلك القرية الإنكليزية البعيدة خلال القرن التاسع عشر حيث هاردي يرسم بريشته الدقيقة تقلّبات العواطف وإشكالاتها. كل ذلك أسلمني إلى نوم خفيف اختلطت فيه صيحاتُ الريح خلف النوافذ بإيقاع حكاية هاردي الريفية الحميمة. ولا بدّ أن نومي امتدّ بعض الوقت على الأريكة الطويلة التي دفعتها إلى الزاوية البعيدة عن الشرفة في حركة انسحاب غريزية من العالم الخارجي.

ثم صحوتُ فجأة. قطع نومي صوت ارتطام عنيف قادم من غرفة النوم. انتفضت واقفاً دون تفكير وأخرجت السمّاعتين من أذنيّ وأنا أقطع الممرّ القصير المؤدّي إلى هناك في خطوات سريعة متباعدة قبل أن أصحو تماماً. وجدت في غرفة النوم أن الريح قد اقتلعت اللوح الخشبي الخفيف الذي يسدّ الفتحة المخصّصة لجهاز التكييف، وكنت قد قمت بِسَدِّها عندما قررتُ أن أنصب جهاز سبلِت بدلاً من المكيِّف العادي. كشفت الفتحة الصغيرة هديرَ الغضب العارم خلفها واقتحمت الريح المكان من خلالها بصوت يشبه الصرير الحادّ محمَّلة بحبّات مطر غزير تناثرت في المكان وانطلقت مع الريح إلى الصالة. وقفت أمام الفتحة مغمض العينين مرتبكاً أفكّر في وسيلة تمكّنني من إغلاقها، لكن زخمَ الريح الجنوني ردّني من حيث أَتَيْتُ وقَرَّرْتُ في انصياع كامل أن أقبل ما يترتَّب على ذلك من خسائر وأهمها رُفُوف الكتب التي عانيت الأمرين في نقلها من ليبيا إلى عُمان. أغلقت البابَ

Twitter: @ketab_n

وقفلته بالمفتاح كأني بذلك أمنع الوحشَ المتوثّب من التمادي في اقتحام الشّقّة. عدت إلى الصالة وأدركت أن التيار الكهربائي قد انقطع فاستخدمت المصباح اليدوي لأرى الوقت. كانت الساعة تقتربُ من الثالثة صباحاً. في الخارج بلغ الإعصار ذُرْوته. الأصوات النائحة صارت تزعقُ وتهزُّ زجاج الشرفة بعُنْف مُستميت، والعصف المُعَرْبِد في الشارع المقابل دون اتجاه محدّد اكتسب كياناً غاضباً متخبّطاً قِوامُه حَبّاتُ المطر المَسْعُورة أمّا اندفاع الإعصار فقد بدا لشدّته مَرْئيّاً. انتبهتُ إلى أن الريحَ في غرفة النوم كانت تقرع البابَ على نحو متواصل عنيد، وعدتُ أفكر في الإجراءات الطويلة المعقّدة التي مررتُ بها في ليبيا للحصول على موافقات شَحْن الكتب خارج البلاد. القوائم الطويلة التي كتبتها بأسماء الكُتُب والمؤلّفين، والأوراق التي طلبتها الجمارك من العمل لإثبات أني مستقيل وأن خروجي نهائي. وتذكرت سالم الشبّة الصديق الليبي الذي ترك عمله ورافقني في تلك الرحلة الطويلة لإخراج الكُتُب. ها هي ذي تستحمّ بماء المطر الغاضب منها ومني، من محاولتي التصرُّف وكأن المَنْفَى بيت آمن يتيحُ صلابةَ الاحتفاظ بالخصوصيات وتجميعها على امتداد الزمن لتشكيل مخزون دالّ منها. فكّرت أن أفتح الباب وأحاول إخراج ما أستطيع منها إلى الصالة لكني عدلت عن ذلك وأنا أسمع القرعَ العاصفَ على الباب. جلست للحظات على الأريكة وقد صمّ أُذُنَيَّ الهَزِيم المَجْنُون حول حيطان الشّقّة ولم أجد بداً من وضع السمّاعتين عليهما. هاردي هو ملاذي الأخير في هذه الضجّة الفارغة. ضغطت على زِرّ الأم بي ثري فتصاعد صوتُ سيمون أيفرز صافياً وقوراً مشغولاً بنقل الحماسات الصغيرة لعالم باتشيبا ولعبتها مع بولدوود. لكن ارتطاماً عنيفاً آخر هَزَّني ودفعني إلى انتزاع السمّاعتين مرةً أخرى. كان الصوت قادماً من المطبخ هذه المرة، أسرعت إلى هناك فوجدت أن الشيء نفسه قد حدث. اقتلعت الريح اللوح الخشبي الذي يسدّ فتحة التكييف في المطبخ واندفعت تُقَلِّب الصُّحُون التي كانت على طاولة صغيرة فيه وتعربد. حاولت أن أقتربَ من الفتحة الجديدة فدفعتني الريحُ إلى الخلف وزعقت

Twitter: @ketab_n

في وجهي فلم أجد بداً من إغلاق باب المطبخ أيضاً. وقفتُ أُمْسِك بِرتاج الباب محاولاً التفكير في ما يمكن أن أفعل للحدّ من الخسائر في المطبخ فلم أجد ما يستحقّ العمل. كان الممرّ المحصور بين أبواب غُرفة النوم والمطبخ والحمّام ضَيِّقاً قصيراً لكنه شكَّل زاويةً هادئةً يُضيئها المِصباح اليدوي بهالة ساطعة. الريح خلف الأبواب المُوصَدة تَقْرَع نافدة الصَبْر غاضبة في سعي مَحْمُوم مندفع. إلى أين تريد الوصول؟ لم تبقَ إلا الصالة وقد عدتُ إليها وتطلعت إلى أفق الشارع المُزَلْزِل بصراخ الريح وانتثار حَبّات المطر المَجْنُون وهي تشقّ الظلام وتبرق بفعل شدّة حركتها في خِضَمّ حرائق الرَّعْد حولها. بدا وكأن القرع على زُجاج الشُّرفة في تزايد، وما زال الفجر بعيداً ينعم بغَفْوة المابعد الآثمة.

على الأريكة في الصالة مرةً أخرى، أطبقت العزلةُ وسيطر عليّ حدس بأن أمراً خطيراً سيحدث هذه المرة. هل أنجو من مواضع الحرب ومكاتب الأمن البعثية المرعبة لأقع فريسةً سهلةً لهذه الثورة الخالية من أي معنى إنساني؟ إن كان لها معنى فلا بد أن يُسأل عنه عالمُ الطبيعة أو رجلُ الدين. الإنسان بمشاغله ومعانيه بعيد كلَّ البُعْد عما يحدث، ليس أمامه وهو يواجه هذه القوة التي لا يعرف لغضبها سبباً إلّا المجازات والتداعيات المتجذّرة في وَحْل وجوده الشخصي. لم أكن مستعداً لقبول تدخل لاإنساني يُفاقم محنتي. يكفيني ما فعل الإنسان بي.

أغمضتُ عينيّ على الأريكة في مهرجان الهَزِيم والهُتافات الغاضبة عندما هزّني صوت تحطّم زُجاج شُرفة الصالة. تناثَرَ على مقربة منها، ولم يكن يَمُتّ إلى الصوت المعتاد لتحطُّم الزُّجاج بِصِلة، كان أقرب إلى سقوط جسم ثقيل على أرض رَطْبة. ولأن الفتحة التي انفلقت بسببه كانت واسعة فقد اقتحم الوحش المكان بِغِلٍّ أَهْوَج. كان أول ما صادفه جهاز التلفزيون الجاثم على طاولة خشبية صغيرة مَحْشُوّاً بالقسوة والأكاذيب فقلبه دون عناء وسمعتُ صيحةَ الشاشة وقد طعنتها الصُّدُوع. ثم شبّت الريح نحوي. لم يكن في الصالة الكثير من الديكورات وهذه هي حال بيت رجل أعزب مشغول

Twitter: @ketab_n

بِعُزْلته. ويبدو أن الفراغ زاد الريح غضباً فظلَّت تدور متخبِّطة بحثاً عن شيء تدمّره. وخشيت أن تقذفني بشظايا من زُجاج النافذة فقفزتُ إلى المَمَرّ الضَّيِّق المحصور بين الأبواب وتسمّرتُ هناك أُحَدِّق إلى اضطراب الظلام في الصالة تُمزّقه سُيُوف العصف. كنت في رُكْن لا يزيد عرضه على متر واحد وطوله عن متر ونصف، وكان آخرَ مَعْقَل لي في الشِّقة، بعده لن أجد ملجأً آخر أحتمي به. حولي الأبواب بالرغم من إغلاقها تُناطِح الجدران وترتج بفعل الرِّياح، وأمامي الصالة في هَرْج ومَرْج. سمعت صوت كراسي الطعام تنقلبُ وطاولة الطعام تتراجعُ عن الشُّرفة، وصوت اصْطِفاق ستائر حادّ ومتميِّز وسط الضوضاء العالية.

مرّ وقتٌ بدا طويلاً وأنا في وقفتي المُتَأهِّبة تلك لا أجدُ ما أفعله سوى الانسحاب والتوغّل في زاويتي المُسْتَهْدَفة من كل جانب. وداخلني تعب من الوقوف، ورُبَّما من الكثير عداه، فاندفعت إلى الصالة ألتقط أحد كراسي الطعام المُتناثِرة وعدت لأتكوَّم عليه في الزاوية. بقيتُ مُتَكوِّماً على نفسي، لا دفاع عندي سوى التكوُّر والعُزْلة، وحين سحبتُ قدميّ من على الأرض وجمعت ساقيّ على الكرسي برقت أمامي صورة قُنْفُذ مُنْكَمِش خلف أشواكه النافرة يتقاذفه الصِّبْية بأقدامهم فوق الرصيف ولا يملك إلا أن يقبل كل شيء... كل شيء مهما بدا بَشِعاً وخاليّاً من المَنْطق. كانت صورة قذفتها الريح من طفولتي البعيدة وأتذكر جيداً أنني شهدت حفلة الصِّبْية في تعذيبه لكنني امتنعت حينئذٍ عن المشاركة. اكتفيتُ برصد كرة الأشواك تتناقلها الأقدام وقد تلاشى كل أثر للحياة منها حتى داخلني الشك في أن ثَمَّة حياةً تحت أشواكها المتأهِّبة بدفاع يائس.

Twitter: @ketab_n

57

أمضى لسان الإعصار الذي اقتحم شقّتي عشرين دقيقةً لا أكثر ثم اندفع فجأة وعلى غير توقّعٍ مني إلى الخارج، من حيث اندسَّ. بدا وكأنه لم يجد ما يستبقيه طويلاً في هذا المكان الضَّيِّق الخاوي. حين انقطع صوت تلاطُم الأثاث في الصالة أنزلت ساقيّ من على الكرسي وفتحت عينيَّ لأرى. كانت الموجودات المُجَلَّلة بالظلام ساكنة مُبَعْثرة كأن تلك اليد الخُرافية هَزَّتها هزّاً عنيفاً حتى حولتها إلى أنقاض. أشعلتُ المصباح اليدوي وصوّبته نحو الساعة. كانت تقتربُ من الخامسة صباحاً. قُمْتُ من مكاني واتجهتُ إلى الصالة فوجدت اثنين من كراسي الطعام يَسُدّان المَمَرّ الذي أتكوَّم فيه. خلفهما وصل التلفزيون إلى منتصف الصالة وانقلبت طاولة الطعام عليه. على أرضية الصالة بركة ماء راكد. الغريب أن حركةَ الإعصار في الخارج لم تَخُفَّ وظل عُواؤه المَسْعُور يتصاعد، كل ما حدث أنه غير اتجاهه لسبب غير مفهوم فصار يُسابق نفسه على امتداد الشارع العام متّجهاً إلى مركز المدينة.

وقفتُ في المَمَرّ وفتحت باب غُرفة النوم فتحةً صغيرةً فاندفع الهواء يصفع وجهي كأنَّما هو يترصّدني طوال الوقت، سارعتُ إلى إغلاقها وأدركت أن فتحةَ التبريد المُشرعة تواجه الريح. تقدّمت من الصالة ودفعت الكراسي إلى منتصفها بقدمي. لم أشأ الانحناء واستخدام يديّ في إزاحتها فذلك ينطوي على رغبة في التنظيم والترميم وهو أمر لم يخطر لي حينئذٍ. ما الفائدة؟ قد يُعاوِد الإعصار اقتحام الشقّة متى شاءت له حَماقَتُه. شعرت بِدُوار خفيف وكشف لي المِصباح أن الأرائكَ قد تشبَّعت بماء المطر فلم

Twitter: @ketab_n

يكن أمامي إلا العودة إلى الكُرسي في زاويتي المُظْلمة في حالة ذُهُول وخَواء. لم أَعُدْ حينئذٍ أفكر في شيء محدّد يخصّ الحاضر أو الماضي، كل ما سيطر عليّ فراغ في الحَواسّ والعقل يتوزَّع على جسدي بُرمّته. وهو إحساس تمرّنت عليه طويلاً في الخنادق الأمامية عندما يشتدّ القصفُ المدفعي المضادّ وتَسْخَرُ الحَرْب من نفسها إذ لا يبقى أمام المتقاتلين إلا الاحتماء بالمواضع كالجِرْذان في انتظار مصادفة القتل أو النَّجاة. وهي دائماً المُصادفةُ! اللعنةُ التي أكتبُ سطوري هذه لمواجهتها. وصَكَّ أذنيّ صوت الرعد المَوْجُوع فأغمضت عينيّ وجلست دون حراك.

الشمس وحدها وهي تعتلي عرشها الأزلي بوقارها المعروف وعقلانيتها وضعت حداً لهذه النَّوْبة الهِسْتِيرية. طرد ضَوْء الشمس فلول الإعصار وشَعَّت خيوطها على المدينة فجفّفت آخر قَطرات المطر المذعورة في الريح. حين فتحتُ بابَ غرفة النوم وجدت على أرضيتها بِرْكةً من ماء المطر ولكن الأثاثَ لم يتحرَّك من مكانه كثيراً. كنت قد أدخلت جهاز الكمبيوتر المَحْمُول في أحد أدراج المكتب ففتحته ووجدت أن الماء لم يصل إليه. سريري الضَّيِّق الحزين كان يَنُوء بأثقال الفِراش والبطّانيات المُبَلَّلة الثقيلة، كنت أقلّبها وأنا أرثي لحاجتي الماسّة إلى النوم. فتحتُ بابَ الشُّرفة فغاصت قدماي في بِرْكة تجمّعت على أرضيتها. في الجانب المقابل كان الإعلان الكبير عن المنظِّف العُماني "بحر" الذي يعلو بناية صيدلية مَسْقَط قد تمزَّق في الريح وظلّ الهيكل المعدني الذي يحمله قائماً في سُكُون الصباح مثل شجرة تجرّدت من آخر ألوانها. تطلَّعتُ أسفل الشُّرفة نحو الساحة المقابلة للبناية فوجدت سيارتي في مكانها لم تتحرَّك يحيط بها نِثار من البلاط الأزرق الذي يغلّف شرفات البناية وقد اقتلعته الريح. هنالك سيارة رُباعية الدفع تقف قربها تلقت ضربةً على زُجاجها الأمامي تركت على سطحها صُدُوعاً واسعة. عدت إلى الشُّقّة، لا ماء أو كهرباء. التلفون لا حياة فيه. لم يبقَ أمامي إلا الإسراع إلى نشر الأغطية والفراش على سطح البناية لتتولى الشمس إصلاح شأنها. وقد أذهلني الهدوء الذي خيم

Twitter: @ketab_n

على المدينة بأسرها وأنا أتطلع من هناك إلى كل الجهات. بدت الشمسُ مثل زائر ذي شأن يضع وصوله حداً لخلاف عائلي مجنون. في أنحاء السطح ترك الإعصار على الصحون الفضائية كدمات قاسية وقد تخلَّع عدد منها وتناثر هنا وهناك. صحن أوروبي كبير، يستخدمه هواةُ الجَمال الأوروبي، ضرب باب شقة جورج واستقر عليها كالمستغيث المَخْذُول.

تسمّرتُ في مكاني أُجيل النظر في أفق المدينة الهادئ. الشارع المؤدي إلى مركز المدينة غارق ببحيرات من الماء لا تدنو منه إلا السيارات رباعية الدفع، والمؤكد أن طرقات السّوق غارقة هي الأخرى، فهي تغرق بعد زخّة مطر عادية. فاجأتني على غير توقع تحية صباح هادئة بالإنكليزية. كان جورج يحمل حقيبةً صغيرةً لا بد أنه وضع فيها بعض متعلِّقاته إلى الفندق يتقدَّم مني وقد بدا عليه بعض التعب هو الآخر. سألته عن أخبار الفندق فقال إن الليلة كانت صاخبةً هناك لم يَنَمْ فيها أحد، وإن شبابيك الفندق شأنها شأن سائر الشبابيك في صُور لم تكن معدةً لتأمين الغرف من دخول ماء المطر. ولأنها غرف مفروشة بالكاربت فقد تشبّع بالماء وصارت الحركة داخل الغرفة أشبه بالخوض في بُحَيْرة مُوحلة. قال إن أحداً لم يَنَمْ وإن رالف قد أمضى معظمَ الليل في بار الفندق، وحين عاد إلى غرفته أخطأها فوقف يحاول فتح باب غرفة ستورمي التي انتبهت إلى محاولاته حين بدأ يقرعُ الباب وفاجأها وجوده على بابها بعد الساعة الثانية ليلاً وقد بلغ الإعصار أشدّه، وبَخَتْه فردّ عليها بصوت مَخْمُور وانفجر الخلاف بينهما مرةً أخرى حتى علت أصواتهما وكانت ستورمي في حالة هِسْتِيرية كادت تهجم عليه لولا وجود جورج وأريك اللذين فصلا بينهما وأخذا رالف إلى غرفته الطافحة بالماء. تذكرت السرّ الذي أعلنته لي ساندرا عن طبيعة الخلاف بينهما لكنني لم أشأ المبادرة إلى تسمية الأشياء بأسمائها أمام جورج. سألته أنتظر منه المزيدَ عن السبب المحتمل للخلاف وكان هو مشغولاً برفع أحد الصحون المُحَطّمة أمام بابه فرفع رأسه نحوي وتأخر قبل أن يعلن جهله السبب. المؤكّد أن جورج الذي كان حاضراً تلك الليلة

Twitter: @ketab_n

المأساوية لم يشأ إثارة أسئلة جديدة أمام مُتْرجم الليلة وأحد المنسّقين. أدركت أن ما تحقَّق من تقارُب بيننا لم يكن كافياً للتواطؤ معي على سِرٍّ كذاك. قال وهو يستطلع باحة السطح المقابلة لبابه وقد ربضت عليها الصحونُ الفضائية مَكْدُومة مُعْوَجَّة إن الجميع قد عادوا إلى شققهم ما إن هدأ الإعصار صباحاً وكانوا قلقين من أن يكون شيء قد تضرَّر فيها. وضع حقيبته على الأرض وبدأ يرفع الصحنَ الأوروبي الكبير الذي التصق ببابه. سألته إن كان أحد من الأساتذة قد بقي في بنايتهم قرب دوّار المحارة فرفع رأسه وأحصى الكثيرين وكان اسم ساندرا بينهم.

أمضيتُ يومين في تجفيف أرضية الشِّقّة وإعادة الأثاث إلى مكانه وسَدّ فُتُحات المُكيِّف التي ظلَّت مشرّعةً تحمل حَرّ النهار إلى الداخل. نمت بعد يوم كامل في يقظة قلقة بمساعدة حبة أسبرين، واستعدت بعض قواي. في مساء اليوم الثاني زارني سعيد المخيني وبدا أنيقاً منتعشاً راضياً كعادته. سأل عن الأضرار بفضول نمّ عن استمتاع بالإثارة التي يمثّلها الحدث أكثر منه قَلِقاً بسبب الخسائر التي ترتَّبت عليه. زاد اهتمامه وهو يتفحّص نِثار زُجاج الشُّرفة وقد تناثر على الأرض خُضْرَة شَفّافة لم أكن قد لاحظتها وهو قائم في مكانه. قال إنه سيغطِّي تكاليف إصلاحه كافّة ودعاني إلى محاولة الحصول على عامل يُغَيِّره، أما هو فلا يظنّ أن ذلك سيكون أمراً سهلاً لأن مَحالّ الزُّجاج أصبحت مشغولةً إلى أقصى حَدّ بعد أن تجاوز الدمار في صُور كل التوقّعات. قال إن واجهات أسواق "كمجيز" و"بشرى الخير" قد دُمّرت تماماً وإن الإعصارَ اقتحمها وعاثَ فيها فَساداً وخَراباً، ودعاني إلى زيارتها لرؤية النتائج ولشراء ما أحتاج إليه لأنهم يحاولون تصفية المُتَضَرِّر بأسعار مُخَفَّضة. وكان سعيد قد أتمّ فحصاً كاملاً لمدينة صُور فقال إن الأمطار الغزيرة التي هطلت على المرتفعات المواجهة للبحر في منطقة البَرّ أدت إلى انحدار سُيُول عارمة، تُدعى في عُمان الوِدْيان، وإن ماء هذه السُّيُول تجمّع في المنطقة المَحْصُورة بين التلال والبحر وقد حَجَزَه الشارعُ المحاذي للساحل، ثم طفح فاندفع نحو المناطق السَّكنية القريبة من فندق

Twitter: @ketab_n

شاطىء صُور. ولم تجد فرقُ الدفاع المدني بُدّاً من تفجير النَّفَق الضَّيِّق المُخَصَّص لتصريف ماء الوِدْيان قرب الفُندق لتوسيعه والتخلّص من ماء السُّيُول الذي صار يهدّد بفيضان عنيف يُدَمِّر كلَّ البيوت. هذه الخُطْوة التي أنقذت البيوتَ عَزَلَتْ منطقة البَرّ عن المدينة لأن ماء البحر اندفع في الفتحة الكبرى الناجمة عن التفجير فكوّن حاجزاً مائياً واسعاً يعزل إحدى المنطقتين عن الأُخرى. سألت عن سُكّان البَرّ وكيف يمكنهم الوصول إلى بيوتهم أو منها إلى المدينة فقال إن الوسيلةَ الوحيدةَ هي الالتفاف عبر الشارع الرئيس باتجاه منطقة البلاد ثم كُلّيّتنا، واتخاذ الطريق الساحلي. وقد عجبتُ لبقاء ذلك الطريق الضَّيِّق القديم مفتوحاً فقال إن اجتيازه صعب جداً ولا بد من سيارة رُباعية الدفع وهو ما فعله حين نقل أحد أقربائه مع عائلته بعد الإعصار إلى بيته هناك، لكنه اضطرّ في نهاية المطاف إلى إعادته عندما وجد أن بيته طافح بماء المطر المُندفع من أعلى التلال.

كان سعيد يتكلَّم بحماسة واستغراق، يدرك خطورةَ ما حدث ولكنه إدراك يختلطُ بإثارة مُنْدهشة مُستمتعة إلى حدٍّ ما. سألني عن الماء والكهرباء فقلت إنهما مَقْطُوعان حتى الآن فأعطاني رقم تلفون سيارة حَوْضِية تبيع الماء في المناطق التي لم تصلها الإسالة في صُور، وذكّرته بأن التلفونات لا تعمل فقال مازحاً انتظر أيهما يعمل أولاً، فإن بدأ ضخّ الماء قبل وصول الحرارة إلى التلفونات فالحاجة ستنتفي إليه. وبدا راضياً عن نفسه لما يُبدي من لَماحية وانبساط. قلت لِأُشاكسه:

- يقال ثَمّةَ إصاباتٌ وقتلى هنا وهناك.

قال وقد ارتسم الأسى على وجهه:

- نعم. الكثير من الإصابات للأسف.

كنا نَقِفَ في شُرفة غرفة النوم المُطِلّة على الميدان، وكان هواء المساء دافئاً. قلت متأمّلاً الأُفُق:

- تخيل أن يتكرَّر هذا الإعصار يومياً طوال رُبْع قرن.

Twitter: @ketab_n

التفت نحوي وهو يجد صعوبةً في فهم ما أعنيه. سأل:

- كيف يا رجل؟ هل أنت تمزح؟

قلت وأنا أبحث عن عينيه الصافيتين:

- أبداً. في العراق عِشْنا سِلْسِلةً من الأعاصير اليومية منذ عام 1980 عندما اندلعت الحربُ مع إيران وهي أعاصير مستمرة حتى يومنا هذا. سبعة وعشرون عاماً بالتحديد، مئات الآلاف من القَتْلى، ملايين الجرحى والمُعَوَّقين والأرامل والأيتام، تدمير كامل للبُنْية التَّحْتِية والخدمات. والأدهى من هذا أن هذه الأعاصير تشتدّ كل يوم ولا يبدو في الأفق ما يدلّ على أنها ستهدأ. قد يبدو إعصار واحد أمراً مثيراً للدهشة، مغامرة، تجربة طريفة. هذا ما داخلني عندما بدأتْ أول الحروب. كنت أسجّل يومياتي في الخَنْدق كل يوم بحماسة منقطعة النظير لا تخلو من سعادة. نعم، كنت سعيداً لأني شهدت حرباً كبيرة في آخر المَطاف، وكنت أسجّل ما أراه بحذافيره كأني أسعى بذلك إلى الكشف عن سِرّ الحرب الأزلي. ثم قُتل أخي في الحرب. حدث ذلك في العام الثاني فكان أول رَدّ فعل مني أني توقّفت عن كتابة اليوميات. أعتقد أن تلك الخسارة الفادحة كشفت لي سِرّ الحرب التافِه المُشَوّه البَذِيء. لم يعد بعدها من سِرّ مَخْبُوء ولم تَعُد الكتابةُ ضرورية. ثم امتدّت الحربُ ثمانيةَ أعوام. تخيّل غونو لثمانية أعوام متواصلة من الدمار والخسائر. المدن مجلّلة بقطع قماش سوداء تنعى أفواجاً من الشباب ذُبحوا في خنادق حرب مجنونة يدّعي طرفاها أن عدّوهما الأول هو الإمبريالية والاستعمار. ولم يتوقّف غونو العراقي بعدها. هبّ على الكويت بعد الحرب ودمّرها، ثم عاد ليهبّ من الكويت على مدن العراق كلها فيزرع فيها المقابرَ الجماعية والفجيعة والحِرْمان، ثم عصف بحياة الناس اليوْمية عندما بدأ الحصار، وعاد ليستكمل دماراً شاملاً في آخر حرب للقضاء على رأس الأفعى.

كنت أتكلّم مدفوعاً برغبة تجاوزتْ مُشاكَسة سعيد، لكن ما رَشَحَ من

Twitter: @ketab_n

وَلَع الآمن بلذّة المُخاطرة في كلامه، ونظرته إلى الإعصار وكأنه كرنفال منتظر أثار غضبي وجزعي. سأل سعيد بهدوء:

- هل تقصد صدّام؟

كان يعلم أني أقصده ولكنه سؤال استنكاري. قلت مدفوعاً بالغضب ذاته والرغبة في مشاكسته:

- لو كان صدّام حَيّاً يحكم العراق لدفع العراقيون نصف ثروات البلاد لمن يؤمِّن لهم تَبادُلاً في الحكّام بين العراق والسّلطنة. لديكم سلطان أدرك كل الأسرار القبيحة لما يحيط ببلاده من عالم فقد صوابه، عرف أن أقصى ما نتمنّاه نحن العرب أن نجد من يؤمّن للناس حياة آمنة بعيدة عن المُغامرات الرَّعْناء التي تدّعي السعي إلى الحرية وهي تُكَبِّل شعوبها بمزيد من الهزائم والذُّلّ.

صارت نظرة سعيد إليّ مُتَفَحِّصة. أَقناعاتٌ حقيقية تلك التي أعبّر عنها أم هي مجاملة للبلاد وخوف من أن يكونَ سعيد مُخْبراً سرّياً للسلطان؟ قلت بحسم:

- أنا أعني ما أقول، ولا أقوله خوفاً من أحد أو مَلَقاً.

وجد سعيد نفسه في موقفٍ حرج. كنت أعلم أن مثاله الأعلى مغامر لا يتورّع عن تهديد كل شيء بالفَناء من أجل شَطَحاته الكبيرة، لكنه من جانب آخر لا يستطيع أن يتعرَّض للسلطان بكلمة سيئة أمامي. قال باسماً:

- كلنا فداء قابوس.

تفحّصته بدوري ووجدت صعوبةً في تحديد إن كان الهتاف صادقاً أو متهكّماً. تأكد لي أن سوَء التفاهم مُسْتحكم.

Twitter: @ketab_n

58

قررتُ في صباح اليوم الثالث بعد الإعصار أن أخرج في جَوْلة بالسيارة في أنحاء المدينة لأستطلعَ آثار خَبْطه العشوائي. كان الشارع المؤدّي إلى مركز المدينة طافحاً بماء المطر فلم أتمكّن من تجاوز الجامع الكبير ومطعم زكي. حركةُ السيارات بطيئة حذرة لما يمكن أن يكون الإعصار قد أحدث من حُفَر ومَطَبّات تحت بِرَك الماء المُتجمِّع. خطر لي الدكتور الطاهر فتصوّرته يقف في نافذة شِقّته وسط أسرته يتطلع إلى بحار الماء التي وفّرت له إجازة مطلوبة من صُداع القسم. عدتُ أدراجي إلى دوّار المنطقة الصناعية وانعطفت إلى أسواق كمجيز. الواجهة كما قال سعيد مدمّرة تماماً تغطّيها قطعٌ كبيرة من الكارتون وكانت الأسواق مفتوحة. رَكَنْتُ السيارة ودخلت وسط حشد من الناس. المكان مظلم على غير عادته بالرغم من سطوع شمس الصباح في الخارج. وهنالك الكثير من الرُّفُوف التي اعتدت التجوال بين معروضاتها المُلَوَّنة الأنيقة خَلَتْ تماماً كأنما كَنَسَتْها الريح. بعضها كان مائلاً ويبدو أن سقوطه قد تسبّب في اعْوِجاج هَيْكله. قابلني الخارجون من الأسواق محمّلين بقناني الماء الذي بدأ يشحّ ويسبّب قلقاً مُتزايداً. رأيت بعضَ الأساتذة من الكلّية مع عوائلهم وهو ما اختصر اللقاء إلى تحيّات مُقتضبة. إبراهيم هوفمنتال الأسترالي المُسْلِم كان يتسوّق وحيداً. لم يَرَهُ أحد مع زوجته اليمنية يوماً في مكان عام. حيّاني بحماسة فقدّمتُ له موجزاً عن ليلتي المُسْهدة، قال إن أحداً لم ينمْ تلك الليلة وإن شِقَقهم فاضت هي الأُخرى بسبب سوء تصميم النوافذ. سألته عن بقية الأساتذة من القسم فقال إنهم جميعاً بخير والحمد لله، وظل حريصاً على ترديد كلمات الدعاء بالعربية تَبَرُّكاً.

Twitter: @ketab_n

أخذتُ ماءً وبعض الفواكه والخُضْروات التي ذَبُلت وخُفّضت أسعارها مع مُعَلّبات أحتاطُ بها لاحتمال تأخّر عودة الكهرباء، ثم خرجت إلى السيارة غير راغب في العودة إلى الشِّقّة. كنت قد سئمتُ البقاء في مكان واحد مُخَرَّب طوال الأيام الماضية. انطلقتُ صَوْب منطقة فندق شاطئ صُور لأرى الممرّ المائي الذي يعزل البرّ عن بقية المدينة. كان الطريقُ المحاذي للكورنيش مفتوحاً بالرغم من البِرَك التي تجمَّعت عليه والحُفَر التي أحدثها الإعصار. أما الكورنيش نفسه فقد تناثرت بلاطاته المُلَوَّنة في خَراب كامل وتقطّع حتى صار السير عليه عناءً مزعجاً. حين اقتربتُ من الفندق واجهني الحاجزُ المائي الذي أحدثه ماء البحر وعَزَلَ منطقة البرّ. رأيت جمعاً من الناس تناثر على حافات نهاية الشارع يتطلَّع إلى الهوة العميقة التي اخترقها ماءُ البحر إلى الجهة اليسرى من الطريق مكوّناً بُحَيْرة صغيرة هادئة. قِطَعُ الإسفلتِ الكبيرة المُتصدَّعة كأنما بفعل زِلْزال انفلقت وتوزّعت على جانبي المَمَرّ المائي، رُبَّما بفعل الإعصار أو التفجير الذي أحدثه الدفاع المدني. بدا المشهد أشبه بما تُورِثُ الحروب من دمار وتخريب. هنالك مِظَلَة كونكريتية على الشاطئ المُجاوِر للفندق اعتدتُ التقاطَ أنفاسي تحتها تحطّمت تماماً ولم يبقَ منها إلا دَكَّة واحدة مكشوفة لسُطُوع الشمس. اصطحب بعض العُمانيين عوائلهم لمشاهدة هذا الخَراب غير المتوقَّع. كانت النِّسْوَة المُتَلَفِّعات بالسواد يقتربن بحذر من حافة الصَّدْع وينظرن إلى الهُوَّة العميقة بينما يتولَّى الرجال أمر التعليق.

لم يرقُني إطالةُ النظر إلى مَشْهد الخراب. التلفزيون ظل طوال عُقُود من الزمان يمزق بصري بمثل هذه المشاهد. مضيتُ إلى السيارة وكدت أصل إليها عندما لمحتُ امرأةً وحيدةً مجلّلة بالسواد هي الأخرى. وسرعان ما عرفتها. كانت الدكتورة بَتُول دون سواها. اندفعتُ نحوها دون تردّد وتبيّنتُ على وجهها شحوباً لم أعهده من قبل وهي تردّ على تحيتي باضطراب وقلق. هنالك نظرة حذر وخوف في عينيها. لكن لقائي أثار في

Twitter: @ketab_n

قَسَماتها حماسة وأملاً أعادا إليها بعض بهائها المعهود. سألتها عن أحوالها في الإعصار فقالت بتأثُّر شارف حدّ البكاء:

- كابوس بكل معنى الكلمة. لا أدري... أشعر كأني لاجئة مُشَرّدة فقدتُ كل شيء. لم أصل إلى شقّتي منذ ثلاثة أيام ولا أدري ما حلّ بها حتى الآن.

- وأين تقيمين الآن؟

- اسكت وخلّيها، بَهْذَلة كاملة.

- كيف؟

- أقيمُ في مدرسة ابتدائية تحولت إلى ملجأ خلال الإعصار وتخيّل الإقامة في فصل دراسي لا يحتوي إلا على أَكْداس من الرحلات المُكَوَّمة بعضها فوق بعض وشبابيك خالية من أية سَتائر، زُجاجها مهشّم لا يكاد يمنع الريح أو المطر والغبار.

- يا إلهي! ألم تجدي مكاناً أفضل من هذا؟

قالت وهي تَحْدُجني بنظرةٍ عاتبة:

- أين؟ الطريق إلى مَسْقَط مُغلقٌ منذ يوم الإعصار، وأنا امرأة وحيدة في هذه المدينة. في صباح يوم الإعصار قصدتُ الكلّية. كان آخر أيام الامتحانات في قِسْمنا. رأيت العميد هناك مع مساعده وبعض الموظفين. كانت الكلّية خاليةً تماماً.

سألت باهتمام:

- ألم تسمعي التحذيرات في نشرات الأخبار؟

قالت بما يشبه الاستياء:

- أنا أَكْرَهُ نَشرات الأخبار وسَماعها. نعم، علمت أنَّ إعصاراً يقترب لكني لم أتخيَّل أن يكون بهذه القُوَّة المدمّرة. ثم إن الكلّية لم تبلغنا أن نلزم بيوتنا ونتغيَّب عن الامتحان.

Twitter: @ketab_n

- حسناً. وماذا فعلت؟

قالت بِجَزَع:

- قصة طويلة ومُرْعبة. المُشكلة الآن أن شقّتي تقعُ على الجانب الآخر من هذا الشِّقّ العميق ولا أدري كيف أصل إليها. هذه المرة الثالثة التي أجيء بها إلى هنا، أتطلع إلى هذا الحاجز الذي قطع الطريق وأنتظر حَلّاً دون فائدة.

قلت لها وقد تذكرت عُبُور سعيد المخيني إلى البَرّ:

- أعتقد أن بإمكانك الوصول إلى البَرّ إذا ما اتخذت طريقَ الكلّية ثم اتجهت إلى الساحل. بعض العُمانيين استطاعوا اجتيازه بسيارات رُباعية الدفع.

قالت وكأنها تحدّث نفسها:

- سيارتي تويوتا كورولا.

ثم التفتت نحوي وقالت بحماسة:

- لكنها عالية وقوية.

- هل تنوين المحاولة؟

نظرت إلي بتصميم يختلطُ باستغاثة رقيقة:

- إنْ ساعدتني سأحاول.

لم أكن أتوقّع وأنا أتجه إلى البَرّ مع بَتُول أقود سيارتها أن تكون لغونو هذه القُدْرة الفذّة على اقتحام قَوْقَعة التَّوَحُّد والعُزْلة التي أحاطت بها بَتُول نفسها طوال الأشهر الماضية. عرفتُ عنها في ساعات ذلك الصباح القليلة ما لم أكن أطمحُ إلى معرفته طوال سنوات. بدا جَليّاً أنها تستميتُ في كَسْر حيطان عُزْلتها لتتمَكَّن من مواجهة هذه المِحْنة العصيبة، وأن حاجتها إلى سَنَد تطمئنّ إليه حطّمت كل دفاعاتها المعهودة. جلست على المَقْعَد المُجاور لي برضا مَشُوب بتوتّر. عباراتها المهذّبة المُعْتَذِرة عَمّا تُسَبِّبُ من

Twitter: @ketab_n

إزعاج لم تُخْفِ توتُّرها وإرهاقها، وقد وجدتُ أن خير وسيلة للتخفيف عنها هي تشجيعها على صَبّ مخاوفها ومواجعها في عبارات تتكوَّن من كلمات مألوفة مُطَمْئِنة تُعيدها إلى شبكة التشارُك والحماية.

تركنا الحاجزَ المائي العميق خَلْفَنا متّخذَيْن شارع الكورنيش. قرب أسواق العافية تجمّعت بحيرةٌ طافِحة عَزَلت الأسواق خلفها عَزْلاً تامّاً فأغلقت أبوابها. اضطرْرتُ إلى التوقُّف بعض الوقت أمام العلامة الضوئية اليتيمة في صُور وقد أصبح اجتياز التقاطُع صَعْباً بعد أن أوقفها انقطاع التيّار الكهربائي وعمد بعض الشباب إلى انتهاز الفرصة لاستعراض مهاراتهم في المجازفة بالعبور الخاطف.

قلتُ أقطع الصمتَ الذي ساد لحظات كأنما كنا خلاله نحاول استيعاب هذا الوضع الغريب وغير المتوقّع؛ أن نكون معاً في سيارتها نقطع شوارع صُور دون خَشْية من رقيب، وأن أكون أنا من يقود السيارة:

- حسناً. تقولين إنك قصدت الكلّية صباحَ الإعصار فلم تجدي أحداً سوى العميد وبعض الموظفين.

بدت على أتمّ الاستعداد لاستئناف الحكاية:

- نعم. قال لي العميد وقد أدهشه وصولي إلى الكلّية ما الذي جاء بك إلى هنا، كلّيتنا تقعُ في وادٍ عميق. وأعطاني تلفون زوجته وعرض عليّ أن أتوجَّه إلى بيته للبقاء مع عائلته أثناء الإعصار.

- فكرة ممتازة. لا بد أنه يقيمُ في قلعة مُحَصَّنة.

على الشارع الرئيس اضطرْرتُ إلى التَّمَهُّل في السِّياقة والهَجْس بعجلاتها في بِرَك الماء لئلا يكون الإعصار قد أحدث حُفَراً عميقة تحتها.

قالت متذمّرة من نفسها، راضية بحالها بالرغم من تَذَمُّرها:

- كالعادة، شعرتُ بِخَجَل وإحراج. لا أعرف عائلته ولا أعرف كيف أتفاهم مع الغُرَباء بسرعة. تعوّدت حياةَ الوحدة حتى صارت عبارات المجاملة والتَّعارُف تُرْهِقُني وتزعجني. المُهِمّ! تركتُ الكلّية بسيارتي

Twitter: @ketab_n

واتَّجهتُ صوبَ دَوّار البلاد فرأيت حَفّارات الشّرطة تقوم بإغلاق شارع الكلّية لتمنع السيارات من الوصول إلى المناطق المُحاذية للبحر. وهو ما اضطرني إلى الدخول في طريق ترابي فرعي قادني إلى طُرُق ضَيِّقة مَحْفُوفة بالزرع اليابس والفَراغ، لم أكن أعرفُ المكان واشتدّت حيرتي. لم أَدْرِ إلى أين أتَّجِه؟ بيتي يقع على البحر مباشرةً ولا سبيل إليه. اتصلت بتلفون الطوارئ 999 وسألت إن كان الطريق إلى مَسْقَط مفتوحاً حيث ابنتي تسكن القسم الداخلي وكنت قلقة بشأنها كثيراً. قالوا إن الطريق خَطِر جداً ومُغْلَق. ظلَّ المطر يشتدّ في هذه الأثناء والريح تعصفُ بِقُوّة. وقد بقيت في السيارة أدور في المدينة لا أدري إلى أين أذهب. كلما فكّرت في حلّ داخلني الإحراجُ من التطفُّل على الآخرين. تخيَّلْ أن ذلك استمر حتى نُزُول الظلام. الريح والمطر يشتدّان مع كل دقيقة تَمُرّ. ثم خطر لي بعد أن بلغتُ قِمّةَ اليأس أن أتوجّه إلى المستشفى الجديد. كنت خلال ذلك على اتصال دائم بابنتي في مَسْقَط وكانت هي مَن اقترح علي التوجُّه إلى هناك. قيل لي في المُستشفى إنهم ليس لديهم مكان شاغر. قالوا إن بإمكاني البقاء في الاستعلامات، وهي صالة انتظار كبيرة تنتشرُ فيها مقاعدُ خشبية. جلست هناك لساعة وسط الظلام أُصغي إلى هَدِير الريح في الخارج وقَصْف الرَّعْد المُرْعِب وأدركتُ أني لن أستطيع البقاء على هذه الحال طويلاً. خطر لي التوجّه إلى السيارة لسماع الراديو فيها. توقّعت أن أسمعَ من الراديو ما ينقذني، وبالفعل أعلنوا تخصيص مراكز إيواء لِسُكّان المناطق الخطرة فاتصلت تلفونياً بالطوارئ وعرفت أسماء الأماكن القريبة منا وكان معظمُها مدارس يفصلها عن البحر أكثر من كيلومترين. بدأتُ بعدها تَخَبُّطاً جديداً وسط الريح والمطر الغزير وظلام الليل للعُثُور على واحدة من تلك المدارس ولم أجدها إلا بِشَقّ الأنفس.

كنا قد شارفنا دوّار منطقة البلاد فكانت معالمُ الخراب أكثر درامية. الحيطان التي تسوّر البساتين القريبة من الشارع انقلبت كلّها في كُتَل كبيرة، وثَمَّة سيارة نقل كوستر طويلة تستلقي على سطحها رابضةً على الرصيف

Twitter: @ketab_n

وعجلاتها تواجه الشمس. بدت مشاهدُ الخراب غريبة لأن صُور مدينة هادئة مُطْمَئِنّة كما عرفتُها تمضي الحياة فيها على إيقاع الصلوات الخمس وخطوات كُهُولها المَحْسُوبة إلى الجوامع. لم أكن أتوقّع رؤيتها بهذه الفوضى والخراب.

قلت لبَتُول أخفّف عنها:

- حسناً، المدرسة حلٌّ معقول.

قالت باستياء:

- لم يكن حَلّاً. كان مأزِقاً. وجدت قرب تلك المدرسة خلقاً كثيراً. عوائل كبيرة من النساء والأطفال وكانت تقف قرب الباب سيارات تُوَزِّع البَطّانيات والأفرشة. كانت المدرسة كبيرةً بالقياس على عدد العائلات فحصلت كلٌّ عائلة على فصل خاص بها. وهكذا وجدت نفسي وحيدةً في أحد الفصول. كان خالياً إلا من كُدْس من الرحلات وقد تهشّم جزء من زجاج النوافذ فلم يُوَفّر حماية تامّة من العصف والمطر. عدت إلى سيارتي وأحضرت مجموعةً من الصُّحُف التي أعتدت تكديسها في صندوق السيارة.

- وما حاجتك إلى الصَّحُف؟

قالت دون أن تبتسم:

- هل تظنّ أني أحضرتها لأقرأها في ذلك الظلام والرعب؟ لقد قمت بلصقها على زجاج النوافذ.

- لماذا؟

- قد تجدُ هذا عجيباً. لكني لمحتُ مُراهقاً يقف قرب أحد الشبابيك ويتطلَّع إلى الداخل. لم أستطع التمدُّد على الفراش قبل أن أضمن عُزْلَةً كاملةً عن هذه الأعين. المهم! كلما تقدّم الليل زادت الأصوات المُرْعِبة، أصوات الريح والمطر، وكنت خلال ذلك أتصل بابنتي وأحاول أن أبعث الطُّمَأنينة في نفسها لأن مَسْقَط تعرّضت لريح أشد كما يبدو. لم أستطع النوم فَحَشَوْتُ أذنيّ بالقُطْن لكي أخفّف من شدّة الأصوات. ثم وصل

Twitter: @ketab_n

الإعصار. لن تتخَيّلَ ما حدث. تطاير في ساحة المدرسة كل ما فيها من رحلات وهياكل حديدية. وكانت وهي تتطاير تُحدث أصواتاً مفزعة كأنها تهمّ بالهُجُوم. كنت في حالة ذُهُول ورُعْب تُشبه الغَيْبوبة. لم أنم حتى الصباح.

كان لا بد أن أقول شيئاً أثناء صمتها المتأمل:

- هذا ما حدث لي أيضاً. النوم مستحيل.

استأنفت حكايتها بحماسة. كان الكلام هو ما تحتاج إليه:

- في الصباح خرجتُ إلى الساحة أسأل عمّا حدث ولم يكن أحد يعرف شيئاً. اتجهت إلى بوابة المدرسة، وسألت الحُرّاس عن جهة البحر وما حدث فيها فلم يكن لديهم أي خبر. كانت التلفونات مقطوعةً تماماً. خرجتُ إلى سيارتي فحمدت اللّه أنَّها سالمة وفتحتُ الراديو فسمعتُ أخبار الدمار الشامل في مَسْقَط وصُور، وزاد قلقي بشأن ابنتي. جاءت سيارات عسكرية إلى المدرسة وبدأت بتوزيع الخُبْز والجُبْن والماء على العوائل، لكني لم أتوجَّه إليها. كنت أحرصُ على عُزْلتي والابتعاد عن الأسئلة التي ستنهال عليّ إذا ما تبادلت حِواراً مع أحد. اتجهتُ بسيارتي إلى المدينة وحصلت على بعض الطعام. شعور صَعْب فعلاً وغير متوقّع. كنت كالمشرّدة بلا مأوى. لا أدري شيئاً عن بيتي. ماذا لو كانت البناية قد تهدّمت؟

صمتت بَتُول حين مَرَرْنا بالكلّية وبدأنا نتابعُ عُزْلة مدخلها خلف بِرَك الماء الواسعة. اختيار موقعها في مُنْخَفَض تُسَوِّره جبال عالية أمر يدعو إلى الاستغراب. لم يكن ثَمَّةَ أملٌ لها بالنجاة من أضرار تلك الليلة. قلت لبَتُول بتعاطف لا يخلو من لَوْم:

- دعي المبالغة. الريح لا تدمّر بنايات كونكريتية.

استتبعت كلامها وهي تستمرئُ المشاركة:

- في اليوم الثاني بدأ ماء الخزّانات في المدرسة يتناقص وزادت الأمور صعوبة. ولم أحتمل الحَرّ والعَرَق والتَّعَب دون حمّام، فتوجّهت إلى

Twitter: @ketab_n

المستشفى للاستحمام. هناك صادفت الدكتور حاكم. لَحِق بي عندما كنت أتّجه إلى سيارتي وعرفتُ أنه أمضى الليلة مع أسرته هناك. دعاني إلى الالتحاق بهم فلم أوافق وقلت له إني مرتاحة في مكاني. لم أكن أتخيل مصيبةَ الإعصار وقد أُضيفَ إليها تطفُّلي على أسرة مشرّدة.

حين وصلنا إلى الطريق الساحلي الضَّيِّق أصبحت السياقةُ مخاطرة متهوِّرة ولولا ما أحسست به من إصرار بَتُول على رؤية شِقّتها بأي ثمن لما تماديتُ في تلك الرحلة ولفاتَتْني عجائبها. هنالك حُفَر عميقة لا سبيل إلى تفاديها إلا بالخروج إلى مَمرّات طِينية رَسَمَتْها عجلاتُ السيارات الرُّباعية والناقلات، وهذه بدورها كانت قد تشرّبت بالماء وأصبحت رِخْوةً لا يُؤْمَن دخولُها. أدركت بَتُول صُعوبة ما نحن مُقبلون عليه فتوقّفت حكايتها وانشغلنا في رصد الطريق بينما عاودت هي اعتذارها لما تسبّب من إزعاج. ذَكَّرني ذلك باعتذار ساندرا عن دعوتها لي إلى مغامرة العودة على الطريق الجديد إلى صُور وقد انتهى إلى تفاهم غير متوقّع. لكن الاختلافَ بين المغامرتين كبير، فبينما ساندرا تتطلعُ إلى المغامرة من أجل المغامرة وتسعى إلى الصعوبة بوصفها دهشةً تغسل عن وجودها رتابته، جلست بَتُول قربي شاحبةً قلقةً بعد ثلاثة أيام شاقّة تسعى إلى مَلاذها الآمن من رياح غونو والمنافي.

قلت لها وأنا أتذكّر الضررَ الذي أعقب مغامرتي مع ساندرا إن السيارة هي أكثر ما يشغلني لأن هذه الحُفَر قد تُتْلِفُ دعائمها، فأجابت دون اكتراث: دَعْك من السيارة. المهم الوصول. لا تدري كم أنا بحاجة إلى بيتي، أشعر أني ضائعة بدونه!

بالرغم من مصاعب الطريق الساحلي وحُفَره ظلّ البحر على يسارنا يتلامعُ في ضَوْء الصباح ساكناً، هادئاً، حالماً. وكان أَدِيمه الأَزْرقَ الناعم نقيضاً كاملاً لوُحُول الطريق أمامنا وفِخاخه الطِّينية. لَزِمَتْ بَتُول الصمت ولكنه صمتُ مَنْ يتأهّب للتعليق لدى أي طارئ، فهي ترصد كلّ حركة للسيارة في تَأَرْجُحِ بين القلق والرجاء. حين بلغنا البنايةَ الوحيدةَ على يمين

Twitter: @ketab_n

الشارع وكانت تشغل الطابق الأرضي منها مَغْسَلَةُ الثَّلج الأبيض ارتسم على وجهها شيء من الارتياح والتخفُّف. لم تَعُدْ بنايتها بعيدةً الآن. وسُرْعان ما لاحت أخيراً قائمة في سُكُون الصباح لا يدلّ مظهرها على أنها تنطوي على أضرار كبيرة. أوقفتُ السيارة عند المدخل الخالي من السيارات ودخلنا البنايةَ فواجَهَنا مدخل رَطْب تجمّعت فيه بعض النّفايات والأشواك التي كوّمها الإعصار ثم صعدنا السُّلَّم إلى الطابق الثالث حيث تسكن بَتُول.

حين فتحت بَتُول الباب ودخلنا الشقّة بدا وكأنها نَسِيَتْ وجودي معها. اندفعت إلى الصالة فتعثَّرت في كُوَم من الكراسي وأَرِيكة طويلة سدّت الطريق إلى سائر أرجاء الشِّقّة. جهاز التلفزيون مَحْشُور في زاوية بعيدة من الصالة ولم تحاول بَتُول التأكُّد من سلامة شاشته. أسرعتُ إلى الغُرَف فوجدت أن فُتُحات التبريد قد انفتحت كما حدث عندي وأتاحت للإعصار ملعباً مفتوحاً في أثاث الشِّقّة وأدوات المطبخ وموجودات غرفة النوم. لا مُبالغة في القول إن شيئاً لم يَبْقَ في مكانه في هذه الشقّة ولابد أن ليلة الإعصار كانت رهيبةً في هذا الحَيِّز الصامت المحايد. عُدْنا إلى الصالة وقد ازداد شحوبُ بَتُول وهي تُرَدِّد أثناء تَفَحُّصها المكان أصوات الدهشة والصدمة لما ترى. ولم تُعلّق بشيء، ظلت صامتةً ولا بد أن صَمْتها كان إصغاءً إلى دفق نازف من المواجع كَثَّفته تلك المشاهد الفوضوية. خطر لي أنَّ ما شاع من أن مُعايشة العذاب تُعَدّ تحصيناً ضده عند الشدائد رأيٌ ساذَج. العذاب العراقي الطويل لمن عاش الحروب الطويلة القاسية ومنافي الشّتات والقلق لم يُبْقِ في الروح ما تتماسك به في مواجهة الجديد مهما صَغُر شأنه. من يُعانِ لعُقُود تَكُنْ أَدْنَى مُعاناةٍ جديدة مُناسبة كافية لاستعادة كلِّ ما مضى من عَذاب. وهذا ما حصل لي، وما شهدته في ذلك الصباح الغريب مع بَتُول في شقّتها التي طالما تطلّعتُ إليها وتساءلتُ عمّا تحتويه من فتنة تجعل امرأة رائعة الحُسْن نابضة الروح حبيسةً فيها راضيةً بها.

بادرتُ إلى تعديل وضع الأرائك في الصالة لأوفّر لها فرصةَ الجلوس لتستريح، لكنها اندفعت بينما أنا منشغل في ذلك إلى إحدى الغرف

Twitter: @ketab_n

وسمعتها تطلق كلمات تذمُّر وصَدْمة. لحقتُ بها فوجدتها تُقَلِّب أوراقاً في أحد الأدراجَ بلَّلَها الماء وأتلفها تماماً. بدا أن لتلك الأوراق أهمّيةً خاصةً بالنسبة إليها. أعادتها إلى مكانها واستندت إلى الأرض لتقوم فاصطدمت يدها بمِقْلاة طعام قرب سرير النوم حملتها وتطلعت نحوي بمزيج من اليأس والتهكّم بعد أن كاد منظر الأوراق المبلّلة يدفع الدموع إلى عينيها، وسألت:

- هاي شجابها هنا؟

اقتربتُ منها وأخذت المِقْلاة وأنا أقول بهدوء:

- هذه ستعودُ إلى مكانها. هوّني عليك واستريحي قليلاً.

لم أتوقّع ما كان لمحاولتي مُواساتها من أثر فيها فقد انخرطت في نوبة بُكاء هَزَّتها هَزّاً وسالت دموعها غزيرةً فغسلت وجهها. كنت أدرك صعوبةَ الموقف ولم أتردّد في مدّ ذراعي لأطوّق بها ظهرها وأدفعها بِرِفْق إلى الصالة داعياً إيّاها إلى الجلوس. وقد جلست على أريكة مازالت تحمل رُطُوبة ماء المطر وهي تواصلُ البكاء بصمت. سألتُ لأواسيها:

- لماذا تبكين؟ ها قد عدتِ إلى بيتك أخيراً وسيعود كل شيء كما كان. وأنا مستعدّ لمساعدتك بدلاً من مُنَظِّف الكلّية محمود.

لم يَبْدُ أنها كانت تَصغي إلى ما أقول. التفتت إلي فرأيت في عينيها شقاءً أقرب إلى الرُّعْب. قالت وهي تُبْعِدُ عينيها عني:

- هل تعلم ما يبكيني في هذه اللحظة؟ أتساءل لماذا تكون حِصّة العراقيين كبيرة إلى هذا الحَدّ من الشقاء؟ لماذا كل هذا الظلم في توزيع المظالم؟ ألا يكفينا ما نحمل من أحزان ومصائب؟

كانت أسئلة وجيهة طالما خطرت لي لأنها أسئلتي أيضاً، وقد استغرقتُ بعض الوقتَ لأجد ما أقول، لكنها استطردتْ كأنها تخاطبُ نفسها:

- لا أدري لماذا يَعْلَقُ بنظري ذلك المشهد البشع المدمّر منذ دخلت الشقة. لا أستطيع أن أبعده عني.

Twitter: @ketab_n

سألتُ في تَناغُم مع نَبْرتها:

- أيُّ مشهد؟

- مشهد الملجأ المحترق والجثث التي تفحّمت فيه في العامرية. هل تعلم أني فقدتُ في ذلك اليوم خمسة من أعزّ الناس إلى نفسي. أختي وزوجها وثلاثة من أطفالها. الرابع أصرّ بعناد على العودة إلى البيت تلك الليلة فنجا بأعجوبة.

بحثتُ عما أقول وأدهشني أن أهتدي إلى الإجابة بسرعة:

- إلى رحمة الله. لم أكن أعلم هذا.

قالت وهي تنظر أمامها وتتجنّب النظر نحوي:

- لا جدوى من العلم بهذه المصائب. لا جدوى من الكلام. الخسائر خسائرنا وإذا تحدّثنا عنها وعن أوجاعنا عُد حديثنا ضرباً من السياسة. ماذا يعرف الآخرون عن وجع الموجوع سوى قِشْرته الخارجية؟ كانت تلك الصدمة كافيةً لتدمير جَبَل وتَفْتِيته، وقد عِشنا العذابَ بكل مراحله. ظلَّ ذلك الصبيّ الناجي يعيش بيننا ويتعذَّب أمامنا فيَزيد عذابُه عذابَنا.

قلت وأنا أحاول أن أتخلّص من إحساسي المزعج أن المواساة يمكن أن تعدّ ضرباً من الاسْتِهانة:

- لابد أن بقاءه قد خفّف بعض الشيء من فظاعة الخسارة.

كانت دموعها قد جفّت واستندت بكوعيها إلى جسمها في جلسة تأمل:

- لا أدري. لا أدري.

شعرتُ أنها تريد أن تقول شيئاً يعذّبها فصمتّ لأفسحَ لها في المجال. التفتت نحوي لأول مرة منذ بدأت حديثها عن الماضي، ولم تُطِلِ النظر لكني فوجئتُ باحمرار عينيها اللتين اعتدتهما نجلاوين ساحرتين. أعتقد أنها أرادت أن تقرر إن كان بإمكانها الاسترسال في الكشف عن مواجعها أمامي. وقد استطردت دون تردد:

Twitter: @ketab_n

- الآن وبعد كل هذه الأعوام الطويلة من المُعاناة أصبح وجود هذا الصبي نفسه مصدر شقاء لي. لقد رَعَيْته رعايةً خاصةً فاقت رعايتي لأبنائي وعاش معهم واحداً منهم بل المفضّل بينهم حتى صار طبيباً بارزاً وتزوَّج أكبر بناتي. صدمة تلك الليلة الجهنمية لم تبارحه. ترك العراق مع عائلته وتوجَّه إلى ليبيا للعمل هناك، لكنه ما إن خرج من العراق حتى سقط في حالة غريبة من الاكتئاب والتوتُّر والعُدوانية. بدأت ابنتي تشكو بالتلفون وتبكي. كان آخر خلاف بينهما إصراره على العودة إلى العراق. لم تُفْلِحْ في إقناعه بأن البلد يعيش حرباً أهلية وبأن العودة تعني مصائب جديدة، لكنه فقد عقله وحين أصرّت على منعه أقدم على ضربها... نعم اعتدى عليها بالضرب وزَعَق بما يشبه الجنون. تصور شخصاً عاقلاً يفكِّر الآن، في هذه الظروف العسيرة في العراق حيث القتل على الهوية والشقاء بكل أنواعه، يفكّر في العودة إليه ويُجَرْجِر معه عائلته وأطفاله. ما يزيد من تعبي وعنائي أن تنقلب ابنتي ضدي وتلومني لأني دفعتها إلى هذا الزواج وضحّيت بسعادتها من أجل مواساته هو. حين أذكّرها بما نشأ بينهما من حبّ تلومني أيضا وتقول إني بخبرتي في الحياة كنت مطالبةً بأن أتوقّع ما ستترك المأساة من دمار في نفسه وأمنع هذا الزواج. إنها مصائب مركبة...

Twitter: @ketab_n

59

بدا أن إطلاق كلمة "مصائب" ساعد بَتُول وقد نشرت مصائبها أمامي دفعةً واحدةً على أن تطويها دفعةً واحدةً أيضاً وتنفض عنها تفجُّعها. سارعت إلى مَسْح دموعها فجأة والاعتذار:

- أعتذر منك كثيراً سليم. أنا أُسَبِّب لك الكثير من الإزعاج وأُثقلك بهمومي. لا بد أن أقدّم لك شيئاً.

قالت ذلك وقامت من مكانها بحيوية لم أتوقّعها. يبدو أنها لطول ما عانت من أسباب شكواها وعايشتها وجدت أن ما تقوله عنها تكرارٌ لن يؤدِّي إلى أية نتيجة مجدية. تقدّمت من الثلاجة التي كانت الريح قد دفعتها إلى زاوية في الغرفة دون أن تتمكّن من إطاحتها وفتحت بابها فصدر عنها هتاف سعيد أدهشني:

- غير معقول!

قفزتُ من مكاني ووقفت قربها أتطلّع إلى داخل الثلاجة. كان مُضاءً بِمِصباح أصفر ساطع. بدا وكأن وجود الكهرباء في الشقّة قد أنساها شقاءها، والواقع أني فوجئتُ أنا أيضاً لأن الكهرباء لم تتوفَّر لي على بُعد شقتي من البحر. ألقيتُ نظرةً سريعةً على فضاء الثلّاجة المُزْدَحِم بالحاويات البلاستيكية "لوك أند لوك" التي أضفت عليه انتظاماً ونظافة، ثم وقع نظري في رفوف الباب على زجاجة ويسكي أسكتلندي ممتلئة إلى النصف. كانت تلك مفاجأةً جديدةً بالنسبة إلي. لم يخطر لي يوماً أن تكون الدكتورة بَتُول بإصرارها على الألوان الغامقة والحِجاب الأسود ممن يَقْرَبون الخمر.

Twitter: @ketab_n

وانتبهت هي لدهشتي لما رأيت فأغلقت البابَ بسرعة ونظرت إلي بإحراج لا يخلو من استمتاع واستثارة:

- لا... هذا كثير! زيارتك هذه كشفت لك الكثيرَ من أسراري التي لم تخطر على بال أحد في صُور. لماذا يتملّكني هذا الميلُ الشديدُ إلى كشف المَسْتور أمامك؟ ربما هي صدمةُ الإعصار وما لقيتُ فيه من عذاب وتشرّد. لأوَّل مرة منذ سنين تتحوَّل وحدتي العزيزة على نفسي إلى وَحْشة. كم تمنّيت تلك الليلة لو كان معي شخص أثق به وأعتمد عليه في تلك المِحْنة.

قلت بابتسامة تأثّر لما تقول:

- لا عليك. يجب أن تعلمي أولاً أن ما عرفته عنك اليوم سيبقى سراً بيننا. وأما ذلك الشخص الذي تضعين ثقتك به وتعتمدين عليه فإني أغبطه على وسامِ صداقتك.

قالت وهي تفتحُ الثلاجة:

- حسناً. يمكنني الآن أن أقدّم لك ما تشاء، كأساً من الويسكي أو فنجاناً من القهوة. اخْتَرْ ما تشاء. لابد من الاحتفال بعودتي إلى بيتي بالرغم من كل شيء.

قلت مشجّعاً:

- نتبادل الأنخاب إذاً، ولكني سأشربُ كأساً صغيرةً جداً.

أعدّت كأسين بصمت ورضا وقرعنا الواحدة بالأخرى فصدر رنينٌ أقرب إلى نغمة موسيقية منفردة مازحة، ومضى الشرابُ يبثّ الحرارة في العروق كأنه مفاجأة سارة بعد طول عذاب. قالت بَتُول وهي تُمْسِك بِحُنُوّ كأسَها التي بقيت فيها ثُمالة:

- ما أخبار صديقتك العجيبة ساندرا؟

كان اسم ساندرا في تلك اللحظة غريباً نَبَّهني على حين غِرّة إلى عالم كامل غاب عني لحظتئذٍ. قلتُ مدافعاً عن نفسي:

Twitter: @ketab_n

- لا توجد صداقة خاصة. إنها زميلة لا غير.

قالت بَتُول بإصرار مشاكس:

- لا تحاول الإنكار. لديّ أدلة كثيرة أوّلها ما سمعت من أساتذة لديكم في القسم. علاقتكما معروفة كما يبدو.

- مِنْ أساتذة القسم؟ هل تقصدين الدكتور حاكم؟

- عندما كلّمني الدكتور حاكم عن هذه العلاقة كان ينوي تحذيري منك، ولم أصدّق ما قاله حينئذٍ. لكن ساندرا نفسها جاءتني يوماً، قبل أسبوع تقريباً، ودخلت مكتبي على غير توقّع. لم تتجاوز علاقتي بها من قبل التحيات المعتادة. سألتني دون أن تجلس سؤالاً مباشراً وغريباً. قالت هل أنت متزوجة أم مطلّقة؟ وقد بقيتُ لدهشتي صامتة باهتة لا أفهم المناسبة التي دعتها إلى مثل هذا السؤال. قلت متزوجة، فسألت بما يشبه الوقاحة والعدوانية عن السبب الذي يجعلني أعيش وحيدةً لسنوات بعيداً عن زوجي، شعرت أنها تتهمني بشيء ولم أفهم.

قلت مدارياً قلقي:

- لا عليكِ منها، لقد قدّمت استقالتها وستعود إلى أستراليا بعد أسابيع.

حدَجتني بنظرة متسائلة:

- ماذا تعني؟ لا يبدو أنك متأثّر لذلك.

- لم يكن حُبّاً!

اتسعت ابتسامة بَتُول:

- هل كان لَعِباً؟

بقيتُ مُصِرّاً على الإنكار:

- لم يكن شيئاً يُذكر. الدكتور حاكم يكرهني لأني لم أنضمّ إلى حِزبه المُعارض للطاهر ولا أدري ما يُلَفِّق ضدي من تهمٍ باطلة.

Twitter: @ketab_n

قالت بَتُول:

- التُّهَم التي أطلقها حاكم ضدك زادت من ثقتي بك. أشدّ ما أكره النِّفاق وأولئك الذين يتسلّحون بالأخلاق الفاضلة أمام الناس ويمارسون الرذائل دون رادع. الدكتور حاكم نفسه وهو يتهجّم عليك بهذه الطريقة ظَلَّ يتقرَّب مني بطريقةٍ مُشِينة. إنه يعرف زوجي منذ كانا ضابطين في الجيش معاً، وبالرغم من ذلك حاول أن يستغلّ غيابه للتقرُّب مني. يكفيك نزاهة ومروءة أنك ابتعدت عني ما إن عرفتَ أني متزوّجة. أما علاقتك بساندرا فلا ألومك عليها. أنت أعزب وحيد وهي امرأة بالغة تعي ما تفعل. هل تعلم؟ عندما كنت أَدْرُس في بريطانيا ووصلتني إشاعات عن مغامرات زوجي في بغداد، وكان عاجزاً عن الالتحاق بي هناك لأنه عسكري، لم أَلُمْه أو أفاتحه بما سمعت. الحياة قصيرة وهي مثقلة بالهموم مما يزيدها قِصَراً. النِّفاق هو ما أكره. ولكن هل لديك خلاف مع ساندرا هذه؟

لزمتُ الصمت. كان الصباح طافحاً بعجائب المكاشفات. قلت:

- لا بد من القول إننا اختلفنا مُؤَخَّراً وتدهورت علاقتي معها.

- هذا ما توقّعته. ولكن ما السبب؟

خَدَش سؤالها جُرْحَ المرض الذي كان مفترق الطريق بيني وبين ساندرا. أدركت أني أمارسُ النفاق الذي تكرهه بَتُول وأنا أقول:

- لم أكن جاداً في تلك العلاقة. ولم يكن حُبّاً. كان الاتفاقُ منذ البداية أن تنتهي العلاقة متى افترقنا في صُور.

بادرتني باستدراك نَمَّ عن اهتمامها بالموضوع:

- ولكنَّ الخلاف بدأ قبل سفرها. هنالك سرّ دون شك.

جاءت عبارتها الأخيرة أقرب إلى المُزاح، وشعرت بأنها قطعت نحوي في ساعة الصباح التي جمعتنا تلك أضعاف ما فعلته خلال عام كامل. هل يمكن لغونو أن يجترحَ كل هذه العجائب؟ قلت جادّاً:

Twitter: @ketab_n

- لا توجد أية أسرار كبيرة، وسبب ذلك بسيط، فالعلاقة نفسها صغيرة وهامشية. ولكن هل تسمحين لي بسؤال لم أكن لأجرؤ على طرحه قبل هذا الصباح؟

- ما هو؟

- إنه سؤال ساندرا نفسه لك. هل زواجك مستمرّ حتى الآن؟

صمتَتْ هُنَيْهةً وبقيتُ صامتاً مصرّاً على الحصول على إجابة. قالت وهي تتطلّع أمامها:

- الأوراق التي وجدتُها مُبَلَّلة في الدرج قبل قليل.

توقّفت عن الكلام حتى اضطررت إلى سؤالها:

- ما بها؟

- تلك هي الأوراق التي سعيت إليها بكل ما أوتيتُ من قوة خلال عقود من الزمان ولم أحصل عليها إلا بداية هذا العام. كانت تلك أوراق الطلاق بيننا، وقد ظلَّ عنيداً يرفض الأمر دَهْراً. هل تعلم أني تزوّجته وأنا في السادسة عشرة من العمر. كنت طفلةً وعندما بدأت أفكّر واكتشف من أكون كَرِهْتُه كَرَهاً شديداً. كَرِهْتُ حماسته الجَوْفاء للحروب وما اقترف من ذنوب بحقّ مئات الأبرياء وهو يعمل لحساب الأمن العسكري. لم أصدّق أني حقّقت هدفي، وأسعدتني الحرية وإن جاءت متأخّرة. قررت بعدها أن أعتكف في شِقّتي وأحتفل بما تبقّى لي من سنوات وحيدة. تعبتُ من الناس ومن المشاكل. حتى أولادي صارت مشاكلهم تضغط عليّ وتحطّم أعصابي.

كانت تلك عجائب بالنسبة إلي. شعرت بالجُرأة لأوَّل مرة:

- هل تعلمين ما دعا ساندرا إلى سؤالها؟

- ماذا؟

- تعتقد أني تركتها من أجلك. جاءت إلى مكتبي قبل أيام من الإعصار غاضبةً وقالت لماذا أنت واجم وحزين هكذا؟ اخرج إليها، إنها

Twitter: @ketab_n

تنتظرك في مكتبها. ساندرا هذه إما أن تكون مجنونة . . . وإما . . . لا أدري ربما كانت عرّافة.

رمقتني بَتُول بنظرة صافية لا تخلو من دهشة. كُنّا متفاهِمَيْن. وكانت تلك النظرة أقرب نقطة بلغناها في لعبة المكاشفة والتفاهُم. كنت أعلم أن دخول هذه المنطقة سيعني تلك الألفة الحميمة والانبساط والسَّكِينة. دعوتها إلى الشروع في ترتيب أثاث الشقّة المتناثر بفوضى كاملة. رفضت في البداية ثم انطلقنا ندفع الكراسي إلى أماكنها ونجمع ما تناثَرَ من أدوات المطبخ في كل مكان. وأسعدها كثيراً أن تكون شاشةُ التلفزيون سالمةً فأعدناه إلى مكانه بينما هي تحدّثني عن أهمّية التلفزيون القُصْوى في تفتيت وحدتها، وأنها تتجنّب كلام السياسة وتعتمد في معرفة آخر الأخبار على الاتصال تلفونياً بابنها في بغداد، حيث يُقيم مع أبيه. أما برامجها المفضّلة فهي الحكايات التي تقدّمها المسلسلات المصرية والسورية (تتجنّب ما تعرضه القنوات العراقية من مسلسلات لما تحتويه من عنف وتصايح). تذكّرت دعوتها لي لسماع أم كلثوم عند منتصف الليل، وكنا قد انتهينا من ترتيب الأثاث ووقفنا في الصالة. قلت لها باسماً:

- أشهد لك بالقدرة على اكتشاف قَنَوات سعيدة بقيت أجهلها لزمن طويل. لقد صِرْتُ أحرص على سماع أمّ كلثوم كل ليلة على قناة طرب بعد تلك الدعوة. لولاك ما كنت لأنتبه لها.

ارتسمت على وجهها ابتسامةُ خَجَل لا تخلو من إحراج. وقفنا وجهاً لوجه وعجبت ليقيني حينئذٍ أنَّ بَتُول قريبة مني قرباً يُذيب كل الحواجز. كان رضا العودة إلى البيت قد بدأ يترسّب في نفسها ويبثّ في وجهها ارتياحاً أحيا ما عهدت فيه من بهاء. وقد عجبتُ لسرعة استجابتها لاستعادة هناء البيت، ثم خطر لي أنها اكتشفت بعد عُقُودٍ من الشدائد أنَّ الامتناع عن قبول الإحساس بالرضا والسعادة بعد مِحْنة صعبة لن يزيدها إلا جَزَعاً وخَيْبة. سارعت إلى إعلان رغبتي في المغادرة فأبدت دهشةً أقرب إلى

Twitter: @ketab_n

الاستنكار لكني بقيتُ مُصِرّاً. حين أدركت مندهشة أنها لن تتمكّن من استبقائي قالت إنها ستنزل معي لتُعِيدني إلى سيارتي قرب الفندق، فقلت بشهامة إن وصولها مرةً أخرى إلى شِقّتها ولوحدها قد يكون محفوفاً بالمخاطر وإني أستطيع الوصول إلى سيارتي مع أية سيارة مارّة إلى هناك ولن يَبْخَلَ العُمَانيون بالمساعدة فهم أكثر من رأيت مَيْلاً إلى تقديم العَوْن لمن يقع في مأزق على الطريق. ولم توافق بسهولة، ثم انتقلتْ إلى دعوتي لتناول الغداء معها، ورفضتُ ذلك أيضاً. تحولت دهشتها إلى سؤال صامت لكني مددتُ يدي لأصافحها. كانت كَفُّها صغيرةً ناعمةً مشدودةً بقوة الامتنان. حين نزلتُ درجات السلّم وحيداً بقيتْ لبعض الوقت في الباب تراقبني. كنت أدرك أن سؤالاً حائراً ظَلّ مُعَلّقاً في البقعة التي تصافحنا فيها وافترقنا. لماذا أُفَرِّط في مزيد من الوقت مع هذه المرأة الفريدة؟

غادرتُ باب البناية واتجهتُ إلى الشارع المحاذي لها دون توقّف. باعدتُ خُطاي كأني أريد أن أبتعد عن المكان مسافةً كافيةً تسمح لي بترتيب عجائب ذلك الصباح وإدراك ما يترتّب عليها. وكان أول ما انكشف أمامي بجلاء الشيطان الذي دفعني بعيداً عن بَتُول. ذلك الحذر من الدُّنُوّ منها في لحظة تحقُّق وشيك، عند وهج نقطة التلامُس الحَيّ بين جسدين ظامئين إلى حرارة الوصل وامتلاء العناق. لم أنتبه إلا وأنا أسيرُ في الشارع المُوحِل أن إحساسي بخطورة جسدي كان يتزايدُ طوال ساعاتي معها، وفكرة أن جسدي معطوب بمرض خطير ظلّتْ تحاصرني مُكْفَهِرَّة مُتَوَعّدة. وبقدر ما كان هذا السبب جلياً كان كل ما عداه مشوّشاً. إنه خليطٌ من دهشةِ أوّلِ مكاشفة بكل ما فيها من سحر ونشوة ومن خيبة إدراك ما يعنيه مرضي من حواجز وخسائر أبدية. انعطفتُ إلى الشاطئ مبتعداً عن الطريق العام لصعوبة السير عليه وقد رَقَشَتْهُ الحُفَر وبِرَك الماء. سيطرت عليّ وأنا أواجه اتّساع البحر الأزرق الذي زاده الصباح فتنةً فِكْرَةُ حاجتي إلى مراجعة طبيب بأسرع وقت. لقد ظلت ساندرا تردّد دائماً دعوتها لزيارة طبيب، ولا أفهم السبب الذي يمنعني من ذلك. القَرْح مستمرّ حتى بعد مضي أكثر من

Twitter: @ketab_n

شهر على الإصابة ولا بد من عمل شيء بأسرع وقت. طريق مَسْقَط مغلق الآن ولا يبدو أنه سيفتحُ قريباً، وأطباء صُور مشغولون بنتائج الإعصار المدمّرة. ليس أمامي إلا المزيد من الانتظار بالرغم من أنه يعمّق إحساسي بالمرض واليأس.

على الساحل ترك الإعصار مَعْرِضاً حزيناً لكائنات بحرية من كل صنف وحَجْم مُلْقاة على صُخوره الكالحة. كان البحر هادئاً، والشمس لاهية. صعّدتُ نظري في السماء وأفق الماء لكني عدتُ أتفحّص هذه الكائنات البحرية التي بدأت حرارةُ الشمس تُجَفّف آخر مظاهر الحياة فيها. وبالرغم من نَسَمات خفيفة يحملها ماءُ البحر إلى الشاطئ المنكوب فإن رائحة زَنِخة غريبة طَغَت على المكان سُرْعان ما أدركت أنها رائحةٌ تنبعث من الكائنات البحرية المتناثرة دون حِراك، رائحة فناء الحياة في جسم حيّ يتفسّخ.

Twitter: @ketab_n

60

لم تتمكّن الكلّية من جمع الطلبة والأساتذة مرةً أخرى لاستكمال امتحانات اليوم الأخير التي أوقفها الإعصارُ إلا بعد انقضاء أسبوع طويل. تواصلت الجهودُ خلال ذلك لكَنْس الفوضى التي ضربت البيت والشارع والمَحَلّ التجاري وأربكت الخَدَمات جميعاً. عملت سيارات حَوْضِية كبيرة على سحب المياه المتجمّعة في الشوارع الرئيسة وانفتح بذلك الطريق المؤدّي إلى مركز المدينة وإن ظلّت بِرَكُ الماء تتوزَّع على المشهد مذكّرة بعنف تلك الليلة. بدا جَلِيّاً بالرغم من ذلك أن ثمة أضراراً لن يَسْهُل إصلاحها. منها الهُوَّة العميقة التي تفصل منطقةَ البرّ عن المدينة وهي فاغرة تطفح بماء البحر الذي اندفع إلى مناطق لم يكن ليحلمَ بالوصول إليها قرب محطة البنزين. والأهمّ وضع كلّيتنا، إذ تأكد لي عندما قصدتها في نهاية الأسبوع الأوَّل، لرؤية ما حلَّ بها والتأكُّد من حال مكتبي أن عودة الدوام إليها لن تتحقّق قبل مرور أشهر الصيف على الأقل. كانت تُغطّي أرضيتها في كل مكان طبقةٌ سميكة من الغَرِين الذي جَرَفه ماءُ المطر من الجبال المُطِلّة على الساحل وشقّقته الشمس. وكان أوَّل ما جَذَب نظري وأنا أَرْكُن سيارتي في الخارج لتعذّر دخول السيارات إلى الكلّية رُفُوف الكتب وقد نُشرت خارج مَبْنَى المكتبة المقابل للبوّابة الخارجية. كانت تتكدّس حولها أكوام من المُجلّدات التي تجعّدت أناقتها بفعل رُطوبة المطر ولم تَعُدْ صالحةً للاستخدام. صادفتُ أحد موظفي المكتبة وكان يتحركُ بحيوية بين مجموعة من المنظفين الهنود وعلمت منه أن الماء قد غطى رفوفَ الكتب تماماً ولم يكن ثمة أمل في إنقاذ شيء. تحدّث بنبرة دفاعية إلى حدّ ما كأنه يردّ تهمةً عن نفسه.

Twitter: @ketab_n

مكاتب الطابق الأرضي في الكلّية تعرضت إلى فَيَضان عارِم أتلف محتوياتها وكانت أبوابها مفتوحةً تسدّها فضاءات مظلمة في الداخل، وأرضيتها مُغَطّاة بطبقة من الغَرِين هي الأخرى. عكف المُنَظِّفون على كشطها وتجمّعت كتلٌ من الطين في المَمَرّات. من المؤكّد أن كل ما فيها من أجهزة ووثائق قد دُمِّر تماماً. يبدو أن إدارةَ الكلّية لم تتخيّل بالرغم من كل التحذيرات المشدّدة أن يصل مستوى الفيضان القادم من الجبال إلى هذا الحدّ.

كان الضررُ في الطابق الثاني المُخَصَّص لقسم اللغة الإنكليزية طفيفاً. فوجئتُ وأنا أفتح بابَ مكتبي بالسكون يلتفّ بالظلام داخله، وامتدت أصابعي لإضاءة المكان لكنّ انقطاعَ التيّار الكهربائي أضاف إلى عتمة المكتبَ المعتادة عتمةً إضافية. انتبهت إلى أن حذائي قد حمل إلى المكتب بعضاً من طين المَمَرّات فلم أشأ البقاء طويلاً وسارعت إلى الخروج وإغلاق الباب. لم أصادف أحداً من الأساتذة في الكلّية، وهو ما زاد إحساسي بوَحْشة المكان وعُزْلته. كنت كمن يقفُ على أطلال دون مقدرة على قول الشعر.

سعيتُ خلال ذلك الأسبوع إلى إعادة بعض الترتيب إلى محيط شقّتي المُنْتَهَك. وبالرغم من التعديلات والتنظيفات الكثيرة بقيت أضرار لا سبيل إلى إصلاحها. كنتُ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى زُجاج يسدّ الفتحة الكبيرة التي كانت الشُّرفة تصبّ منها سعير الصَّيف إلى داخل الشِّقّة. وفضلاً عن ذلك فإن الشُّروخَ المَبْثُوثة على زجاج طاولة الشاي في الصالة، وهي من فعل إعصار ساندرا الأخير، ظلَّتْ تطالعني كلما جلستُ على الأريكة وتدفعني إلى توبيخ نفسي على كَسَلِها وتراخيها عندما يتعلّقُ الأمر بإصلاح الأضرار التي تسبّبت بها ساندرا.

في يوم عودة التيار الكهربائي، وهو حدث كبير بالفعل بعد أيام خانقة من الحَرّ والظلام شُلّت خلالها أية فعالية مُتَحَضِّرة، زارتني ساندرا بعد

Twitter: @ketab_n

غياب وسكوت. كان أول ما جذب نظري وأنا أفتحُ الباب وأراها أنها لم تبدأ اللقاء بابتسامتها المعهودة. كانت تقفُ بجُمُود وتصوّب نظرها إلى النقطة التي تتوقّع أن تكشف الباب بها عن وجهي. حين وقع نظرها عليّ لَزِمَت الصمت فاضطررتُ إلى ترديد بعض كلمات الترحيب الباهتة بنبرة كشفت عن عدم استعدادي لاستقبالها. دخلت وهي تحافظُ على صمتها وتُجيل نظرها في المكان. حين وقع على الشرفة ورأت نُثار الزُّجاج المُكَوَّم قربها نَسِيَتْ عُبُوسها وعادت إليها حماستها القديمة وهي تهتف:

- ما هذا؟

قلتُ وأنا أحاول أن أنزع عن اللقاء فتيلَ الدراما المتوقّعة:

- كما ترين. هذا ما فعله الإعصار.

اقتربت من الشّرفة ودقّقت النظر في بقايا الزُّجاج التي ظلت عالقةً بأطراف الباب لم تسقط، ثم تطلّعت إلى الشارع قليلاً. بدا أنها نسيت وجودي لهُنَيْهة لما بدا عليها من استغراق في تفحُّص المكان. أمامها فوق صيدلية مَسْقَط كان الهيكل الذي حمل من قبل إعلاناً واسعاً يقوم بحديده الأجرد في ضوء الظهيرة مذكّراً بعنف الإعصار. حوّلت نظرها إلى الداخل فوقع على طاولة الشاي المشروخة. قالت وهي تركّز نظرها الثاقب في عينيّ:

- لماذا أنت لئيمٌ إلى هذا الحد؟

أدركت أن الدراما قادمة. قلت بحياد:

- كيف؟

قالت وهي تشيرُ إلى الطاولة:

- ألم تتمكنْ من إصلاح هذه الزُّجاجة؟ لماذا تُبقيها أمامك ليل نهار؟ لتزيد كراهيتك لي؟

قلت دون اهتمام:

Twitter: @ketab_n

- لم تمهلني الأعاصير. توالت عليّ من كل صَوْب.

كانت تقفُ قربي وتعي المسافة بيننا؛ تعي قِصَرها وعُمْقها.

- جئت لأودّعك.

فاجأني إعلانها ذاك بالرغم من علمي بسفرها الوشيك، تعمّدت إخفاءَ دهشتي. قلت بهدوء:

- أتمنّى لك رحلةً سعيدة.

سألت دون أن يعلو صوتها:

- هل تكرهني إلى هذا الحد؟

- لماذا تسألين؟

- لأني أحبك.

يمكن لساندرا أن تعبر عن حبها دون مقدّمات ودونما حاجة إلى سياق مناسب. بالنسبة إليها هذه الحقيقة تعلو على التفاصيل الصغيرة.

ألقيتُ بِثِقَلِي على الأريكة وبقيتْ هي واقفة. شعرتُ أن الحِوارَ يحاصرني في زاوية ضَيِّقة وأن إصرارَ ساندرا على إحياء العلاقة بيننا ينتمي إلى عالمٍ غريب عنّي تماماً. قلت لأُفْلِتَ من الزاوية التي وضعتني فيها:

- كيف يمكنك السفر والطريق إلى مَسْقَط مُغلق؟

قالت بجمود:

- سيفتح الأسبوع القادم.

ثم أردفت وهي تجلسُ قربي:

- اسمعني جَيِّداً وفكر في ما سأقول لك... أنت تعاني حالة شلل نفسي خطير. يجب أن تنتبه إلى صحّتك النفسية وترى ما أنت فيه. مشكلتك أنك لا تريد أن تقبل ما يلازم الحياة من أضرار ومشاكل، لم يحدث قَطّ أن عاش إنسان حياته بدونها. عليك أن تقبلَ الضّررَ لأنك إذا رفضته فسترفض الحياة نفسها. عليك أن تقْبله وتحاول إصلاحه لا أن ترفضه

Twitter: @ketab_n

وترفض الحياة معه كما يفعل الرُّهبان والمتصوّفة. انظر إلى هذه الطاولة أمامك مضى أسبوعان على تحطيم زجاجها، وقد حدث ذلك في لحظة غضب وسوء تفاهم هي لحظة لازمة لأية سعادة في الحب. كان عليك أن تسارعَ إلى إصلاحها، وقبل هذا وذاك كان عليك أن تزور طبيباً ليشرح لك حالتك، ثم تستأنف حياتك من جديد. تستأنف مُتْعَتها وحرارتها وجمالها. كفاك تلعب دورَ الضَّحِيّة المغلوبة على أمرها. إنْسَ قصص العراق ومآسيه. لست مسؤولاً عنها ولن تستطيعَ إصلاحها. انتبه إلى نفسك وتشبّثْ بيومك. جئتُك اليوم لأن حبي لك بدأ يختلطُ بعطفٍ عليك. نعم، أنت لا تعرف كيف تعيش الحياةَ الطيِّبة، لا تعرف كيف ترسم حداً فاصلاً بين مآسي العالم حولك وحياتك الخاصّة وحاجتك إلى مواصلة السعي إلى إصلاح نفسك وعالمك الخاص. اصْحُ!

تحدّثت بتأثُّر أقرب إلى الغضب والإحباط، وبقيتُ خلال خطبتها أفكر في طريقة أتجنّب بها التصعيد. كلامها المنطقي يُخفي إشكالاتٍ لا سبيل إلى حلِّها. قلت لها بنبرةٍ محايدة:

- هل تشربين شيئاً؟

هبت واقفة كأني وجهت لها إهانة وقالت:

- لا، ولا فائدة من الكلام معك. عُمُوماً قد أحتاج إليك قبل سفري لتنقلني فَجْراً إلى موقف الباصات المتّجهة إلى مَسْقَط. لا تكن لئيماً وليكن وداعنا وُدِّيّاً.

ما حدث بعد عبارتها تلك جنون كامل. أحاول الآن استعادةَ التفاصيل، فالشيطان يكمنُ في تضاعيفها كما يُقال. اندفعت ساندرا إلى باب الشقّة بعد عبارتها الأخيرة بخطوات قصيرة عصبية غاضبة، ولحقتُ بها متمهِّلاً مُنَكَّس الرأس. حين اقتربت من الباب لم تفتحه وبقيت متسمّرة قربه تُثَبِّت نظرة عينيها الموجوعة في عيني. لم أجد في تلك النظرة أثراً للغضب الذي كان سافراً في حركات جسدها. كانت نظرة تَجَرَّدت من كل انفعال

Twitter: @ketab_n

طارئ ولم يبقَ فيها إلا تلك الرغبة المحمومة المخذولة في الوصل. ملأتني نظرتها تلك بتعاطُف مُفاجئ أدهشني، كنت وأنا أواجهها وأعانقُ حرارتها وخيبتها أستشعرُ في داخلي استجابةً محمومةً حائرة. لم يكن حُبّاً، كان أقرب إلى التضامُن في المِحْنة. ولا بد أن وقتاً طويلاً قد مرّ ونحن نقف صامتين نحاول أن نقبل إخفاقنا في التواصُل. خفضت رأسها كأنها تفكّر في شيء مختلف تقوله، وعندما رفعته بعد دقائق رأيت دموعاً في عينيها وألماً يشدّ ملامحها عجزتْ عن التحكّم فيه. مددت ذراعي وأحطت كتفها في سَوْرَةِ تعاطُف لم أكد أصدّقها ولم تخطرْ لي من قبل. اندفعت هي نحوي وشدّتني إليها وسمعتُ صوتَ بكائِها. كانت تتعذَّب هي الأخرى. احتضنتها صامتاً بانتظار توقّفها عن البكاء، ثم قلتُ هامساً:

- كفى ... لا يليقُ بك هذا.

رفعت رأسها وطالعني وجهها الذي اختزن راحة عطلة مبكرة واغتسل بدموع غزيرة، ولم يكن التقاء الشفاه أمراً غريباً. كانت قبلة محمومة طويلة لا تريد أن تنتهي، كأنما إن هي انتهتْ صَحَوْنا على كل الحقائق المريرة. وصحا جسدي الذي ظلّ هامداً تحت رماد الإعصار مستجيباً لاندفاع جسدها وقد بثّ فيه حرارة حية ضاغطة. حين تباعدت الشفاه لم تتحرك للنطق بشيء. لن ينفع الكلام. إن قول أية كلمة كفيل بإفساد لحظة تحرير الجسد من فخاخه. بادرت ساندرا إلى العودة إلى الصالة ووضعت حقيبتها على الأرض دون أن تفترق كفّها عن كفّي. هكذا هي كما عرفتها، تأتي بإعلان كامل عن حاجتها. كانت مُغْمَضَةَ العينين غائبةً عنّي في الفراش، كأنها بإغماضها ذاك تختزلني إلى جَسَدٍ ساخن لا يشكو ولا يتذكّر ولا يفلسف الأشياء ويقتلها. وقد عمدتُ إلى إغماض عيني أنا الآخر. فعلت ذلك لأني أدركتُ أن النظر يمكن أن يُعيدني إلى الأرض ويوقظَ شيطان التدبُّر. شَبَّ فِيَّ اندفاع لم أَكُنْ أصدّق أن جسدي المُتْعَب الساخط يمكن أن يحتبس شيئاً مثله. حتى فِكْرةُ المَرَض التي استولت عليّ خلال أسابيع بدت تافهةً وضئيلةً إزاء ذلك الاندفاع العارم إلى ملامستها واستكشاف نُعُومة

Twitter: @ketab_n

مفاتنها بعد طول فراق. لا يعني هذا أن فكرة المرض لم تخطر لي في تلك اللحظة، كنت أعيه وعياً كاملاً، لكن وعيه امتزج برغبة محمومة طال سَجْنها في عتمة المخاوف والتَّحَوُّطات.

حين انتفض جسدي وتأوّهت ساندرا ارتمينا كالصّريعين بصمت وفراغ. كانت الثواني التي أعقبت ذلك مباشرة احتفاءً بما تحقّق من تخفّف آثم من الهَمّ، وسرعان ما أسلمتنا إلى غفوة قصيرة اختارها الجسدُ بمنطقه الخاص فكانت أقرب إلى الكَفِّ التَّلْقائي المباغت. مَرَّ وقت لا أستطيعُ تحديده ثم صَحَوْتُ على صوت ساندرا الهامس قربي. كانت تقول:

- سأبيتُ معك الليلة.

لم أقل شيئاً. كنت بحاجة إلى تصفية الاختلاط الغريب داخلي، وقد أذهلني أن أجدَ عقلي ينتصبُ وحيداً مرة أخرى، معزولاً في اعتباراته الخاصة كأنما لا جَسَد له. ارتوت الرغبةُ وانسحبتْ وخلّفت وراءها فراغاً قاحلاً. لم يَبْقَ من الجسد الهامد ما يذكّر به إلا حُرْقة في القَرْح كثَّفت إحساسي بالمَرضَ والانحلال والخطيئة. لم أتوقّع أن تنقلبَ حالتي خلال دقائق من رغبة مَشْبُوبة في ساندرا إلى رغبة باردة عنها. قلت دون أن أفتح عيني:

- سنهيّئ لِلِقاءٍ قادم. أما اليوم فإن صاحبَ البناية سيأتي مع عامل لقياس الزُّجاج.

لم أسمع رَدّاً، وأدركت أنها تنظر نحوي كعادتها عندما يساورها الشك، وكان لابد أن أفتحَ عيني وأواجهها. كنت بحاجةٍ إلى صلافة تدعم كِذْبتي. حين التقت نظرتي بها قالت:

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- هل تظنين أني أكذب؟

ابتسمت. كانت حريصةً على عدم إفساد ما تحقّق من تفاهم حتى الآن. قالت وهي تستند بجسدها إلى الحائط المجاور للسرير:

Twitter: @ketab_n

- أريد أن أراه وأطمئن إليه.

أغمضتُ عينيّ وأحسستُ بأصابعها تقلّبه وتتفحص القَرْح الذي فيه. قالت بتأثر:

- أنا آسفة.

رفعتُ جسدي دون أن أردّ عليها وتركت السرير. قصدت الحمّام فغسلته بالصابون وشعرت بوخزةٍ في القَرْح زادت من رغبتي في البقاء وحيداً. عندما عدتُ إلى غرفة النوم كانت ساندرا قد بدأت بارتداء ملابسها. قالت دون أن تتخلّص مما داخَلَها من إحراج:

- لابُدَّ أن تزورَ طبيباً وتبدأ العلاج دون تأخير. حين أعود من أوستراليا، وربما سيكون ذلك في الفصل الثاني من العام القادم، يعتمد الأمر على ترتيب أحوال بيلي والاطمئنان عليه، حين أعودُ يبهجني أن أجدك سليماً مُعافى.

لم أعلّق. يمكن أن تتكلّم كما تشاء، لكن محاولاتي لوضع حدّ لهذه العلاقة المريضة لن تتوقف. لا بُدّ أن أضعَ حداً فاصلاً بيننا. خطرت لي بَتُول فجأة وقررتُ بتسرُّع أن زواجي بها سيكونُ هو الحدّ الفاصل الذي يَسُدُّ الطريقَ أمام ساندرا. ولكن، كيف أرتبط بِبَتُول إذا كنت سأحمل إليها مرضي؟

قالت ساندرا وهي تستعدّ للخروج بِنَبْرة خَلَت من أية انفعالات قوية، ربما بسبب ما تحقَّق على غير توقُّع، وربما تَعَمدَّتها لتطبيع الوداع:

- هل لك علم بفضيحة زكي خليل؟

أعادني سؤالها إلى مشاغل القسم من جديد. وانتبهتُ إلى أنني لم أتصل بالطاهر منذ الإعصار. قلت بحذر:

- أيةُ فضيحة؟

- حدّثني أريك قبل يومين عن إقدام زكي على مساعدة بعض الطلبة في إجاباتهم.

Twitter: @ketab_n

- لا أدري. هنالك تحقيق في الأمر لم يَنْتَهِ إلى نتيجة.

قالت وقد استهوتها طبيعةُ الحديث المسترخية:

- لا أكاد أصدّق أن يُقْدِمَ زكي على مثل هذا.

عند الباب مرةً أخرى. نظرتُ نحوي وارتسمت على وجهها ابتسامة مُشْرقة راضية. قالت كأنها تكلّم طفلاً:

- حاول أن تبتسم. . . لن تدفع ضريبةً على ذلك.

لم أبتسم، عانقتُها صامتاً ثم ابتعدت عنها والتقت الأعين. كانت ابتسامتها تذوب تدريجيّاً في قلق مُتصاعد.

Twitter: @ketab_n

61

ما إن استُؤنِفَت الاتصالاتُ التلفونية حتى وصلتني رسالةٌ نَصِّية من الدكتور الطاهر يدعو فيها أساتذة القِسْم كافّة إلى اجتماع طارئ في مدرسة المروة الابتدائية التي ورد أنها تقع خلف دائرة كاتب العدل على الكورنيش. سارعتُ إلى الاتصال به لتحيته ومعرفة آخر الأخبار. وكالعادة لم يكن الوصول إليه سهلاً. أجاب أولاً ولده الصغير الذي ظل يسألُ ويلهو حتى جاء صوتُ الطاهر يحمل فضولاً غير مُبَرَّر لمعرفة من يمكن أن يكون المتصل الذي يعكّر عليه صَفْوَه العائلي. حين تبيَّن صوتي حيّاني بمودّة تخلو من الحماسة وبادر إلى تكرار محتوى رسالته النصية. سألته عن مكان المدرسة بالتحديد فقدّم وصفاً تقريبياً وقال إنه هو نفسه لم يذهب إلى هناك بعد. سألته عن أخبار النتائج والعمل فبدا عازِفاً عن الدخول في التفاصيل وقال إن ذلك سيكونُ موضوعَ الاجتماع فضلاً عن مشاغل أُخرى.

وجدتُ نفسي وأنا أنتهي من الحوار مَشْغُولاً على حين غِرّة بمشكلة زكي خليل وما تمّ بشأنها. كان الطاهرُ قد وعد بعرض الموضوع على العميد وفتح تحقيق قريب فيه، لكنه لم يأتِ على ذكره بعدها ولم يطلعني على ما حدث من إجراءات. وكنت قد وضعتُ اللمسات الأخيرة على نتائج المرحلة التأسيسية النهائية قبل الإعصار تاركاً الحقل الخاص بدرجَتَي الطالِبَيْن المُتَوَرِّطَيْن في المشكلة فارغاً كما شاء الطاهر. أدركت فجأةً غرابة عدم رؤية زكي نفسه خلال الأيام الطويلة الأخيرة بعد أن تعوّدت رؤيته أمامي عند كل منعطف. أما ما عرفته من ساندرا من أن أريك بدأ يتندَّر بالخبر بين الأساتذة فأمر يزيد من تعقيد المسألة.

Twitter: @ketab_n

اتجهتُ بسيارتي إلى المدرسة المُتَّفَق عليها وكانت الشمس وسيارات سحب الماء قد جفّفت الكثير من البِرَك التي تقطعُ الشارع المحاذي للكورنيش. اشتدّت الحرارةُ في الأيام التي أعقبت الإعصار حتى صارت بقايا بِرَك الأمطار مفارقة عجيبة تحت لَهَبِ الشمس. لم أعثر على مكان المدرسة بسهولة بالرغم من صِغَر المدينة كلّها، ركنتُ سيارتي قرب جمع كبير من السيارات التي مَيَّزت بينها بعض سيارات أساتذة الكلّية. ما إن اجتزتُ البوابة الخارجية حتى وجدتُ حشوداً من الطلبة جاءوا لأداء امتحان اليوم الأخير (يوم الإعصار) الذي أُلغي حينها. وهم طلبة أقسام أُخرى لأن قسمنا انتهى من امتحاناته بعد الأسبوع الأول. بحثتُ بين الحشود عن الدكتورة بَتُول لمعرفة آخر أخبارها، وكنت قد أجّلت مراراً فكرة زيارتها مرةً أخرى حتى انتهيتُ إلى إلغاء الفكرة. خشيتُ أن يكون في تردُّدي إليها إحراجٌ لها أمام الجيران والفضوليّين، كما أن غموضَ نيتي في مواصلة التقرُّب منها ثبّط عزيمتي ودفعني إلى الانسحاب بانتظار الوضوح المرتقب.

أول من صادفت جفري ويفر منهمكاً في حديث مع إبراهيم الساسي. كان إبراهيم يحمل ورقةً يسجّل فيها أسماء الأساتذة الراغبين في المشاركة في تدريس الفصل الصيفي، وهو كما عرفته الفصل الذي يلتقي فيه قَيْظ الصيف الحارق مع صعوبات تدريس الطلبة الضعفاء لإفساد العُطلة الصيفية. بادرني إبراهيم بالسؤال إن كنت أرغب في المشاركة فلم أتأخّر في الرَّدِّ سَلْباً، وقلت له إن الحَرّ والخَراب يدفعانني بعيداً عن صُور. قال إبراهيم مرغّباً إنَّ المردودَ الماديّ يستحقّ كل عَناء، فقلت مازحاً إن ذلك مهمّ للشباب من أمثاله أما أنا فيكفيني الراتب ويزيد. وقد سألني جفري عن مكتبنا المشترك في الكلّية فقلت له إنه في مأمن لم يَمَسَّه سُوء.

اتجهنا إلى قاعة الاجتماع الصغيرة، وبدا أنها غُرفة مُخَصَّصة لمعلّمات المدرسة. وجدت فيها مجموعةً صغيرةً من أساتذة القسم. كنت قد لمحت الدكتور حاكم يتحدّث إلى ماثيو كلارك وجين في أحد المَمَرّات لكن الثلاثة امتنعوا عن حضور الاجتماع؛ حاكم لأنه اعتاد مقاطعة

Twitter: @ketab_n

اجتماعات الطاهر مهما كانت ظروفها، وماثيو احتجاجاً على عدم تجديد عقده. علمتُ من جفري فيما بعد أن ماثيو يشنّ حملةً واسعةً للبقاء في عمله وأنه بدأ يهدّد مُؤَخّراً باللجوء إلى الوزارة نفسها للطَّعْن في قرار إنهاء عقده. وكان القرار قد صدر عن عميد الكلّية شخصياً بعد أن فقد ماثيو السيطرة على أعصابه أمامه واعتدى عليه بكلمات نابية. لم يَحْضُر رالف أيضاً لكني رأيت ستورمي ببذلة جينز خاكيّة تنزوي في رُكْن من الغُرفة قرب روجر هوبكنز. بدت مُقَطَّبة يخلو وجهها من أي حماسة حتى تساءلتُ ما الذي دفعها إلى حضور الاجتماع، خصوصاً وأنها قد قَدَّمت استقالتها؟ ولم أجد تفسيراً لذلك إلا إحساسها بالمَلَل من السجن الذي فرضه الإعصارُ على الجميع. أما روجر فينمّ مُحَيّاه عن تهذيبه الأزلي وقُدْرته الوقورة على تفهم كل ما يدور حوله من عجائب. وقد بادلني ابتسامةً وزاد اتساعُ عينيه دهشةً حين رآني، كأنَّه يعلنُ سعادته برؤيتي. ما أدهشني حقاً حضور أريك ذلك الاجتماع، بقيت أتوقّع أنه سيحاول التراجعَ إلى جُحْر ضيق بعيداً عن حياة القسم بعد فضيحته، لكنه لسببٍ لم أفهمه جلس مع الآخرين وإن لزم الصمت كغيره من الحاضرين. في رُكْنَيْن متقابلين من القاعة جلس الغريمان الدائمان إبراهيم هوفمنتال الذي كان يستعرضُ المكان بعينين زرقاوين صافيتين، ولانك بقميص أبيض دون ياقة يذكّر بأصوله الإفريقية. أما زكي خليل فقد كان مَحْشُوراً في زاوية بعيدة وقد تجنّب النظر نحوي. لم تحضر ساندرا الاجتماع!

يعاني الطاهر في اجتماعاته نقصاً مُحْرِجاً في كفاءاته الخطابية. وبالرغم من ربطة عنقه في يوم حارّ ونَبْرة الحماسة التي حاول بها الاحتفال بنهاية العام ومحاولته دسّ عبارات ذكية أو مازحة في حديثه فإن ارتباك عباراته وتفكّكها وافتقاده وضوح القصد جعل استحواذه على انتباه المستمعين مهمةً محكومةً بالفشل. حاولت مِراراً أن أتابعه باهتمام فوجدت أن العبارات الأُوَل من أية فقرة جديدة من حديثه تحتوي على كل ما يملك من قول وأن ما يعقبها لا يعدو الدورانَ حول فكرةٍ محورية بسيطة. هنا

Twitter: @ketab_n

الحاضرين على سلامتهم وأطنب في ذلك، ثم انتقل إلى الحديث عن الأضرار التي أصابت الكلّية ووضّح أن سببها لا يعود إلى إهمال من أحد بل لأن الكلّية تقعُ في منخفضٍ عميق. حين قَرَّرت الوزارة فيما بعد إقالة عميد الكلّية لتقصيره في التحوّط للإعصار أدركت أن ما دعا الطاهر إلى الاستطراد في تبرير الضَّرَر الكبير الذي أصاب الكلّية كان رغبته في الدفاع عن العميد وربما كان يُرَدِّد أصداء ما سمع من دفاع العميد عن نفسه. ولم يَكُنْ من عادة الطاهر أن يُفسح في المجال للأساتذة بالكلام، والسبب كما عرفت من أحد الأساتذة القدماء أن ماثيو تمادى ذات مَرّة في الكلام حتى استحوذ على نصف وقت الاجتماع وعندما نبّهه الطاهر إلى ذلك غضب واتهم الطاهر بالاستبداد. مُذّاك ظلَّ الطاهر حريصاً على أن يقول ما لديه بأسرع وقت ممكن ولا يسأل الأساتذةَ عن تعليقاتهم إلا خلال الدقائق الخمس الأخيرة. وهكذا انتقل دون تأخير إلى الحديث عن الفصل الصيفي وحَثَّ الأساتذة على المشاركة فيه لما في ذلك من امتيازات مادية وخدمة للكلية، وأضاف مازحاً أن المشكلة في السنوات الماضية كانت اختيار من يشارك في الفصل الصيفي من قائمة الراغبين الطويلة، فماذا جرى هذا العام؟ هل هو الخوف من إعصار جديد؟ ارتسمت على الوجوه ابتسامات متعبة.

كان في آخر فقرة طرحها الطاهر مفاجأةٌ لي. فقد هنّأ القائمين على استكمال الامتحانات والنتائج، وقال إن قسمنا كان محظوظاً لأنه سبق الإعصار في وضع اللمسات الأخيرة على نتائجه وإرسالها إلى الوزارة. تساءلتُ مباشرةً وأنا أسمع ذلك عن مصير الحالة التي بقيت قيدَ التحقيق، ومتى استُكمل التحقيق وحُسم القرار بشأنها؟ وكيف تُرسل النتائج دون علمي بذلك؟

حين فتح الطاهر بابَ التعليق لم يَنْبَسْ أحدٌ بكلمة. لم يَبْدُ أن الطاهر قد أثار لديهم أي تعليق بينما هم داخل الاجتماع، لكن لَغَطاً متصلاً ارتفع في القاعة ما إن أعلن الطاهر نهايته إذ اتضح أن التعليقات كثيرة ولكن

Twitter: @ketab_n

الإدراكَ العام بأن الكلامَ لن يُغَيِّر شيئاً بصددها حوّلها إلى أحاديث جانبية متذمّرة. وقد تقدّمت من الطاهر لأصافحه بعد غياب طويل، لكنه قابلني بِجِدِّيّة غير معتادة وقال كأن ظهوري أمامه ذكّره بأمر مُهِمّ، إنه يريد أن يكلّمني على انفراد قبل أن أغادر المكان.

كان أول ما تبادر إلى ذهني وأنا أستعدّ لذلك الحديث المنفرد مع الطاهر تحديد موقف نهائي من مُشكلة الغِشّ التي تورّط فيها زكي خليل. بدا جَلِيّاً أن الطاهر وربما العميد من ورائه، يميلُ إلى إهمال الموضوع وغلقه، وهو أمرٌ مفهوم في ضَوْء ما لَمَّح إليه زكي نفسه بتهديد مُبَطَّن خلال آخر لقاء بيننا. كما أن ما ذكره الطاهر من أمر وضع اللمسات الأخيرة على النتائج وإرسالها دون إبطاء إلى الوزارة ما ينمّ عن إهمال المسألة أو لنقل عن تَسَرُّعٍ في حسمها تَسَتُّراً على المذنبين دون رَيْب. ثم ساورني شكٌ في استنتاجاتي وحاولت أن أحدّد السببَ الذي يستبعد عني احتمال أن يكون القرار إعطاء الطالبَيْن صِفْراً وربما مُحاسبة زكي خليل ومعاقبته. عدت أستحضر هيئة زكي أثناء الاجتماع. كان منبسطَ الأسارير موفورَ الصّحة كمن عاد من إجازة لا إعصار. صَمْتُه ليس بالأمر الجديد لما أعرف عن ميله إلى الصمت وسط جمعٍ كبير. الاختلاف الوحيد عن ذي قبل أنه تجنّب النظر نحوي ولقاء عينيّ أو تحيتي، كما أنه اختار رُكْناً بعيداً عن أريك ولم ألاحظ بينهما أي تواصل. هل حشرني في سلّة واحدةٍ مع أريك؟ وماذا ينتظر مني سوى رفع الأمر إلى الطاهر؟

لم يحدّد الطاهر مكان لقائنا أو ساعته، وهو ما فسح أمامي متسعاً من الوقت لأراجعَ فيه السؤال المحوري في تلك اللحظة. أأُوافق على غلق الموضوع والتستُّر على الفضيحة أم أبقى مُصِرّاً على إحقاق الحقّ ومعاقبة المسيئين؟ بعد تقليب مطوّل للاحتمالات توصّلت إلى أن أفضل موقف هو ترك القرار للطاهر وللعميد. مسؤوليتي تنحصرُ في التنسيق أيْ إيصال المعلومة إلى أصحاب القرار فإذا شاءوا الحطّ من قِيَم الأمانة الأكاديمية والتواطؤ مع المذنب كان لهم ذلك. طالما سمعت من الأساتذة المصريين

Twitter: @ketab_n

والفلسطينيين والسوريين الذين سبقوا العراقيين ببوقت طويل إلى المنافي والسَّعْي وراء الرِّزْق في متاهاتها المُحَيِّرة أن مهمَّة المغترب أداء ما يُطلب منه، أما الإصلاح والجدال والمواجهات فلن تكون في مصلحته أبداً. وهو ما يعني ببساطة أن الانسحاب والانزواء هما الحَلّ. أسلمني ذلك إلى سَرْحات مطوّلة عن الدَّوْر الذي تلعبه القوةُ في تحديد الحقّ وتشكيل المعرفة وتوصّلت بطريقةٍ فلسفيةٍ إلى أن قِيَمَ الأمانة العلمية والنزاهة الأكاديمية تبقى هدفاً منشوداً أما المسافة الواصلة إليها فملغومة بالكثير من الانتهاكات والفضائح. توصّلتُ أيضاً، ربما للثأر لكرامتي واستجابة لِوازِعٍ يسخرُ من انصياعي وتواطئي، إلى أن أطرحَ على الطاهر رغبتي في الاستقالة من مهمة التنسيق للعام القادم، لا بد أن أستغلّ الفرصةَ لتثبيت ذلك والتخلّص من مهمة لم أحصد منها إلا التوتّر والذنب.

كنت أتجوَّل في أحد ممرّات المدرسة التي غَطّاها الإعصار بوحوله عندما اتصل بي الطاهر تلفونياً. سألني بتهذيب أن ألتحقَ به في مكتب يقع قرب غُرفة مديرة المدرسة فأسرعتُ إلى هناك وقد اشتدّ فضولي. لمحتُ العميد في غرفة المديرة محاطاً بمجموعة من الموظفين العُمانيين فيما يشبه الاجتماع، فقرَّرْتُ أن أؤجلَ تحيته إلى ما بعد لقائي الطاهر.

وجدتُ الطاهر جالساً إلى طاولة كبيرة تتوسّط غرفة بدت ضيقة بالقياس بحجم الطاولة. ويبدو أنها استُخدمت مركزاً لتصحيح امتحاني مُؤَخَّراً. ردّ تحيتي بجدّية ودعاني إلى الجلوس قربه وكان قد خلع ربطة العنق التي ظلت تُمْسِكُ بخِناقه في حَرّ المكان، وغاب عن وجهه الانشراح الذي واجه به وجومَ الأساتذة المجتمعين. بدأ بحديثٍ قصير عن الإعصار ونتائجه المدمّرة في صُور ومَسْقَط وقد سألته بتأدُّب عن شِقّته فحمد الله على سلامتها، وإن كانت ليلةُ الإعصار قد أدخلت الرعب في قلوب الصغار. كان مدخلاً متشنّجاً بالرغم من محتواه المنبسط، وسرعان ما انتقل الطاهر إلى الإشادة بعملي وجهودي في القسم وفي التعاون معه، ثم قال:

Twitter: @ketab_n

- طالما أثار قلقي وصول أستاذ أعزب إلى صُور. المدينة صغيرة ومحافظة، إنها أشبه بالقرية، وسرعان ما يدفع المللُ والإحساسُ بالوحدة الرجلَ الأعزبَ إلى محاولة الخروج من عُزْلته. وأنا لا ألومه على ذلك، لكن لكل مكان خصوصياته.

كان منعطفاً لم يخطرْ لي على بال، وقد شعرت بصدمةٍ أقرب إلى ضربة مفاجئة على الرأس حين أدركتُ ما سيأتي. لزمتُ الصمت فأردف الطاهر:

- يؤسفني سليم أن أنقلَ إليك غضبَ العميد للتقارير التي وصلته من عِدّة جهات يَثِقُ بها، وفيها أنك تستضيفُ أستاذة من القسم في شقتك وتخلو بها. وقد رُصدت هذه الزيارات رصداً كاملاً كما يبدو لأنها مذكورة بتواريخها والمدّة التي استغرقتها. هنالك ما يفيد أن تلك الخلوات امتدّت إلى مَبِيت حتى اليوم التالي، وهو ما لا يدعُ مجالاً للشك في طبيعة تلك الزيارات.

لا بد أن وجهي قد احْتَقَن أو شَحُب أو صُعِق. كنت أحاولُ أن أستوعبَ ما يقال بأسرع وقت لأتمكّن من الرد. لزم الطاهر الصمت بعد أن ألقى التهمة بانتظار ما أعلّق به. قلت وأنا أحدّق إلى عينيه بفضول:

- من كتب هذه التقارير؟

قال الطاهر دون اكتراث للسؤال:

- هذه ليست المشكلة. العميد يَثِقُ بمصادر التقارير ولكنه يريدُ منك أن تكتب توضيحاً لموقفك منها يتضمّن رداً عليها.

قلت وقد تصاعد في داخلي سُخْطٌ حاولت مداراته:

- كيف أردّ على تقرير لم أقرأه؟

ما يثيرُ عجبي وأنا أستعيدُ ذلك أن أجد قوله وسؤالي نُسْخة مُكَرَّرة من رد فعل زكي خليل وهو يسمع التهمة التي وجّهتها إليه من قبل وردّه عليّ.

Twitter: @ketab_n

أغمض الطاهر عينيه للحظة ثم فتحهما وحدّق إلي بنظرة تدعو إلى نشر ما لدينا من أوراق على الطاولة. كان ضِيق عينيه يفسدُ رغبته في شَحْن المواجهة بالرَّهْبة والأهمية:

- اسمعني سليم. يبدو لي أن أمامنا احتمالين لا ثالث لهما، الأول فتح تحقيق في الموضوع قد يتسع ليصل إلى الوزارة، وفي هذه الحالة ستكون عواقبه وخيمةً إن لم تستطع إثباتَ براءتك. إذا كنتَ واثقاً بأن ما ورد في هذه التقارير غير صحيح وبأنَّ لديك ما يثبتُ العكس يمكن أن تتخذَ هذا السبيلَ حتى نهايته. ولكن يبدو أن الأدلة المُتوفِّرة قاطعة وهي خلوةٌ غير شرعية.

كنت أشعر بأن براءتي مؤكّدة بالرغم من صحة ما يواجهني به الطاهر. ولم أعرف كيف أُعلن ذلك دون أن أبدو كمن فقد صوابه؟ لزمتُ الصمت بانتظار أن يكمل الطاهر كلامه ويعرض الاحتمال الثاني. وقد انتبه هو إلى ذلك فقال:

- الاحتمال الثاني الذي يوفّر على جميع الأطراف العَناء هو غَلْق الموضوع ونسيانه، ولن يتحقّق ذلك إلا إذا بادرت أنت إلى الاستقالة. بذلك تحصل على فرصة الخروج من صُور دون أن يُلَطِّخ سيرتك العلمية سُوء.

أدركتُ في الحال أن دعوتي إلى الاستقالة هي الغايةُ من الحوار معي، لأن فتحَ تحقيق لإثبات التُّهَم في الأسبوع الأخير من عام دراسي اختتمه إعصار أغلق الكلّية سيستغرق أسابيع طويلة، كما أن إلغاء عقد أستاذ استخدمته الوزارة لا الشركة يُعَدّ أمراً عسيراً فالوزارة تُفْسِح في المجال أمام مختلف أنواع الاستئناف والتدقيق قبل أن تتّخذَ مثل هذا القرار. أدركت أيضاً ودون صُعُوبة أو تأخير أن نبشَ هذه التهمة الآن متصل بشكل ما بفضيحة الطالبين وزكي خليل. هنالك دون أدنى شك رغبةٌ في التَّسَتُّر على الفضيحة الأكاديمية بطمرها في رمال فضيحة أخلاقية، ويبدو أن

Twitter: @ketab_n

العميدَ والمتورّطين في الفضيحة توصّلوا إلى أن بقائي في القسم حتى إن وافقتُ على التواطؤ سَيُمَثِّل تهديداً بإثارة الموضوع مستقبلاً. قد أَتَهَوَّر فأصل به إلى الوزارة. لا بد أن لوالدَي هذين الطالبين مكانة كبيرة لدى العميد.

تطلّعت إلى الطاهر الذي كان متأثراً دون أن أحدّد إن كان تأثره أسفاً على اضطراري إلى الاستقالة أم انزعاجاً من مُجُوني. سألته بحيادٍ أدهشه:

- هل انتهى التحقيق في مشكلة الدكتور زكي؟

تأخرت إجابةُ الطاهر، ولمعت في عينيه الضيّقتين نظرةُ استنكار ورفض:

- لا علاقة لهذا بالموضوع الذي نحن بصدده. وعموماً فقد انتهى التحقيق ولم يَثْبُت شيء. الخطّ لا يشبه خط الدكتور بأي شكل من الأشكال، وقد توصّلت اللجنة إلى أن أحداً من الطلبة المجاورين في القاعة قد أخذ الدفتر وكتب فيه. وهو ما يعني أن اللومَ يقعُ على المراقبين. قَرَّر العميد غَلْق الموضوع واعتماد النتائج، لكنه شدّد على ضرورة متابعة المراقبة الامتحانية مستقبلاً.

اتضحت الصورةُ أمامي بجلاء. لم يبقَ ما يُقال. حين طال صمتي أعلن الطاهر أنه بانتظار قراري. قلت وأنا أنهض بحركةٍ متوتّرة:

- سأردّ عليك غداً.

مررت وأنا أترك الطاهر وأتجه إلى نهاية المَمَرّ بالغرفة التي احتلَّها العميد مع مجموعة من الموظفين، وبرغم أني لم أنظر ناحيتها ولم يخطر لي دخولها لتحية العميد بعد طول انقطاع، فقد لمحتُ بُحَيْرةً بيضاء من الدشاديش يعلوها هدوء لا يقطعه إلا صوت العميد الرزين الوقور يملأ المكان بالرغم من هدوئه. كنت أسعى بهمّة إلى الابتعاد عن المكان كله، كأني إن وصلت سيارتي وابتعدت بها تمكّنت من فهم ما سمعت ووجدت حلاً للمشكلة التي حلّت كالصاعقة وأذهلتني. لكن المكانَ لم يمهلني ولم يطلق سراحي ببساطة. اتضح أن ذلك الممرّ كان قد تحوّل إلى مكاتب مؤقّتة

Twitter: @ketab_n

لمختلف أقسام الكلّية، وقد لحق بي صوت أستاذ من قسم الاتصالات يستوقفني. كان الدكتور سعد جبور رئيس قسم الاتصالات. حياني بوجه مشرق باسم واعتذر مقدماً عن تأخيري ثم دعاني إلى كوب من الشاي. قلت محاولاً مُداراة اضطرابي إني في عجلة من أمري فدفع لي ورقةً كتب فيها إفادةً بالإنكليزية موجّهة إلى السفارة الإيطالية في مَسْقَط تتضمّن معلومات عن عمله في الكلّية وراتبه وضمان تجديد عقده، وكان يرمي كما يبدو إلى الحصول على تأشيرة سَفَر إلى هناك. دخلت مكتبه وأجريتُ تعديلات طفيفة على الكتابة ولا بد أنه استغرب صمتي واقتضاب أجوبتي عن أسئلته المجاملة التي تركّزت على خططي لقضاء العُطلة. حين قلت إني لم أخطط حتى الآن لأي شيء محدّد تحوّل استغرابه إلى استنكار شديد وتساءل "كيف؟" وكان عليّ أن أجد رداً يوقف دوامة الاستزادة التي أدخلني فيها. قلتُ إني أنتظر الضوءَ الأخضر من بغداد لرغبتي في زيارة الأهل هناك، ودفعت إليه الورقة مستأذناً.

لولا الدكتور سعد لما صادفتُ بَتُول وتحدّثت إليها. كنت أتجه إلى موقف السيارات وأنا أواجهُ حرارةَ الشمس المُوقَدة وقد أعلن انتصافُ النهار موعدَ جنونها وقسوتها، عندما لمحتُ بَتُول تتجه إلى المدخل الذي تركته خلفي. كانت تتلفّع بالعباءة الخليجية السوداء وتتقدّم بخطواتها المُتَّئدة الرشيقة، دون عجلة كما هي عادتها، كأنما هي تتمشى لقضاء الوقت. تمنّيتُ لو تجنّبتُ لقاءها، وهو أمر يناقض تطلعي الدائم إلى رؤيتها ومعرفة آخر أخبارها قبل لقائي الطاهر. ألقيتُ عليها تحيةَ الصباح واقتربت منها. ردت تحيتي دون أن تفرّط في سِيماء السَّكينة والاتزان التي ضبطت حركتها. انحرفنا مبتعدين عن حرارة الشمس إلى ظلّ حائط. سألتها عن أحوالها وعن شِقّتها فقالت إن كل شيء على ما يرام لكن طريقَ الساحل ما زال مقطوعاً ولا يبدو أن إصلاحه سيتمّ في وقتٍ قريب. وبدا أن لمشكلة انقطاع الطريق أثرها العميق فتوسّعت في الحديث وبيّنت لي أن المدرسةَ التي نقف فيها تبعد أربعة كيلو مترات عن بيتها فقط ولكنها ستضطرّ بسبب القطع البحري

Twitter: @ketab_n

إلى قطع أكثر من ثلاثين كيلو متراً بالسيارة لتصل إلى بيتها. قلت للتخفيف عنها إن العطلة قادمة ولا بد أنها قد هَيَأت لسفرةٍ خارج صُور. قالت إنها قررت السفر إلى تركيا مع ابنتها. لاح في عينيها وهي تكلّمني حياد متسائل. لابد أن تعجُّلي مغادرة شقّتها في صباح المكاشفات العجيب ذاك قد أثار في نفسها كل ضروب الأسئلة. عندما استأذنتها بالانصراف قالت وقد بدأت السكينةُ تهتزّ على وجهها:

- بالمناسبة، كنت أودّ الحديث معك عن زيارتك لشِقَّتي.

- ما بها؟

- لا شيء. أولاً، أريد أن أقدّم شكري العميق للمساعدة الكبيرة التي قدّمتها لي. كان موقفك شهماً ونبيلاً حقاً.

كان جلياً أن الشكر مدخل هامشي لرسالة أهم. أردفتْ:

- ولكن تعلم طبيعة المدينة التي نعيش فيها ومصيبة القيل والقال. كل ما أتمنّاه أن يبقى أمرُ هذه الزيارة سراً بيننا وأن تعدني ألّا تكشف شيئاً مما عرفت عني لأيّ شخص هنا. هذه أمور لا يعرفها مخلوق في عُمان كلها ولا أدري كيف تحدّثت بها إليك. كنت متعبةً وقلقةً بالتأكيد، لكني أثق بك أيضاً وأعلم أنك رجل نبيل صادق.

داخلني قرفٌ مفاجئ. قرفٌ من أن تكون تعاستها مثيرةً لفُضُول كل هذا العدد من الناس بينما هي أمر يخصها ويستحقّ بدل الفُضُول التعاطُف، ثم قرفٌ من إحساسها النرجسي بأن المدينة لا همَّ لها إلا معرفة هذه الأسرار الصغيرة عنها. قلت وقد طَفَح قرفي بالرغم من محاولتي السيطرة عليه:

- سبق أن وعدتك ألّا أتفوه بكلمةٍ ممّا رأيت أو سمعت.

- أرجوك!

قالتها بتوسّل لا يخلو من ضعف. لم أتخيل أن يكونَ رعبها من الآخرين قد بلغ هذا الحَدّ. قلت:

Twitter: @ketab_n

- تأكدي مما أقول.

هممتُ بالذهاب وقد اشتدّ ضيقي من الحر والحوار، لكنها استوقفتني بعبارةٍ أخيرة:

- وهنالك أمر آخر.

- تفضّلي.

- تعلم أن الزيارةَ تمّت في ظروف استثنائية وأنها لم تكن لتحدث أو تكون مقبولة في وقت آخر. لذا أرجو أن تعلمَ أن زيارة شِقّتي أمر متعذّر. سنلتقي في الكلّية بالطبع، لكنّ السكنَ أمر آخر. هل تعلم أني أغلق بابي ولا أفتحه لأحد مهما أصرّ على طرق الباب؟ لا أفتح إلا إذا سبق الزيارة اتفاق بالتلفون.

قلت بالرغم من محاولتي منع نفسي من التعليق:

- وبالطبع أنت لا تردّين على التلفون.

نظرت إلي عاتبةً وقالت:

- هل تلومني على ذلك؟

كانت على حق. بقيت أردّد وأنا أتجه إلى سيارتي أنها على حق وأن العزلةَ وسيلة البقاء المُثلى لمن وصل متعباً منفياً إلى هذه الولاية.

Twitter: @ketab_n

62

تسارع العدّ التنازلي الذي قادني من جديد إلى مطار السيب. حرصت على عدم إخبار أحد بما حدث وسلّمت الاستقالةَ للدكتور الطاهر في سوق المدينة المزدحمة، وقد أبدى أسفاً لا يخلو من مجاملةٍ ونِفاق. كان يصطحبُ ولديه عندما لقيته أمام الشركة العالمية للسفر، وقد دخل المكتب وهو يحمل استقالتي في يده. قال إنه يرتّب حجزاً لعائلته التي ستسبقه إلى تونس، وإنه سيلتحق بها بعد إكمال الفصل الصيفي. تحدّث معي باطمئنان يخلو من أي انفعال وكأننا سنلتقي بعد أيام قليلة أو كأن الاستقالةَ التي سلّمتها إليه ورقة تخصّ سيرَ العمل ومشاغل التنسيق. وأعجب الآن للطريقة المتخفِّفة الخالية من أي انفعال التي ودّعني بها لآخر مرة.

كان إخفاء الأمر عن ساندرا أكثرَ صعوبةً لأنها ظلت تتحدَّث، وأنا أنقلها إلى موقف الباصات المتَّجِهة إلى مَسْقَط، عن الموعد المتوقّع لعودتها إلى صُور وما ينتظرها من لقاءات وترتيبات للمستقبل. كانت تحمل ثلاث حقائب كبيرة محشوة كما قالت بكل أنواع الهدايا العُمانية لمعارفها في أستراليا ونيوزلندا. وقد حرصتْ على القول مازحةً وهي تحدّثني عن المحتويات إنها لم تستطع الاستجابة لطلب حفيدها جوني إحضار جَمَل له من عُمان. كان الفجرُ ينبلجُ على مهل فأتاح لها ضوؤه رؤيةَ الابتسامة الشاحبة التي استجبت بها لتندّرها. قالت بهدوء أقرب إلى الرقة:

- هل أنت حزين لسفري؟

تأخّرت في الإجابة. هل يمكن أن يصل سوء التفاهم بيننا إلى هذا الحد؟ قلت وأنا أحدّق إلى الشارع الخالي المطرز بأول خيوط الفجر:

Twitter: @ketab_n

- ربما.

- لماذا أنت لئيم هكذا؟

لم يَخْلُ صوتها من رغبة في التشبُّث بالمزاح. سألتها:

- كيف؟

- قل شيئاً يُعيدني إليك بسرعة؟

قلت وأنا أبتسم:

- عودي بسرعة إلى صُور. أرجوك.

ظلت تتطلعُ نحوي حائرة. كانت أذكى من أن تخطئ خيطَ التهكّم مهما دَقَّ وتَخَفَّى.

عند موقف الباص في مركز المدينة النائم بادرتُ إلى حمل حقائبها الثقيلة إلى صندوق الباص وكان يوشك على الانطلاق. حين أتممت عملي وجدتها تقفُ جامدةً بانتظار أن أنتبه إلى خصوصية اللحظة. وقفت أمامها محاولاً تجنّب أي تصعيد عاطفي للموقف. قرّبت وجهها مني فقبلت وجنتها بسرعة واشتدّ صوت محرك الباص مؤذناً بالحركة. طلبت مني أن أهتمَّ بنفسي وأكفَّ عن التفكير العميق لئلا أَمْرض ثم اختفت بين صفوف المسافرين العُمانيين والهنود وتحرَّك الباص. عدتُ إلى شقّتي وقد تملّكني شعور مزعج بخَواء وتَعَبْ ونُعاس تكثف في تلك اللحظات الأخيرة.

استغرقت إجراءات براءة الذّمة وتصفية أثاث الشقة، وقد بعته بثمن بَخْس، أكثر من شهر. لم أكن في عجلة من أمري. اتصلت بالأهل أسأل عن الحالة في بغداد فوصلني تحذير شديد من كل من تحدّثت إليهم من التوجه إلى بغداد لأن الانهيارَ الأمني الكامل قد تفاقم مع سعير حرارة الصيف ويمكن لعودتي الآن أن تتحوَّل إلى عبء على العائلة لأنها ستزيدُ القلق اليومي المعتاد قلقاً جديداً على سلامتي. وقد وصلت إنعام في تحذيراتها إلى حَدّ القول إن عودتي الآن قد تقضي على الوالدة خوفاً ورهبة. لم يكن أمامي إلا التوجه إلى الأردن حيث الدخول لا يحتاج إلى تأشيرةٍ مسبقة.

Twitter: @ketab_n

كان تموز قد استكمل لوحةَ الصَّيف العُمَاني الفريدة، واختفى الأساتذة من صُور فَرادى على نحو تدريجي دون حفلات توديع، ولم يبقَ إلا المشاركون في الفصل الصيفي. مضى الأسبوع الأول بعد الاستقالة في حالة همود أقرب إلى الذهول لزمت خلالها شقّتي التي انقسمت بسبب تحطُّم زُجاج شرفة الصالة إلى حَيِّزَيْن مختلفين، فالصالة مفتوحةُ أمام الحرارة التي تطبق عليها من الشّرفة المنتهكة وهو أمر شلّ قدرةَ التكييف على التأثير في حَرّها بينما غرفةُ النوم تحولت بفعل التكييف إلى ثلاجة خاوية. لم يبقَ أمامي إلا الانكفاء إلى غرفة النوم والحِرْص على إغلاق بابها طوال النهار للحفاظ على برودتها. وقد لزمتُها لا أخرج إلا عند حلول الظلام. ولكن حتى الظلام ظلّ عاجزاً عن التأثير في حرارة النهار الماثلة في لَسْعَة الهواء الساخن عندما يتحرّكُ على الوجه. بعد انقضاء الأسبوع الأول بدأت أتحرك خارجَ الشقّة وداخلها أثناء النهار، دون أن تعني حركتي تلك أني توصّلت إلى خطة محدّدة. استولى عليّ شعور باللامبالاة والعزوف عن التفكير في ما حدث وما يمكن أن يحدث. عجبت وأنا أغادر الشقّة كيف خلا المحيط الذي أتحرك فيه من الناس فجأةً بعد أن كان زِحاماً كبيراً قبل أسابيع. تحركتُ في وسط زِحام المدينة المجهول لأنتهي من إجراءات براءة الذمة. دائرة الماء والكهرباء، والاتصالات، والبلدية، حتى قادتني هذه الإجراءات إلى سعيد المخيني حيث يفترض أن أحصلَ على توقيعه على براءة الذّمة للإفادة أنه تسلّم كل مستحقّاته مني. وقد اتصلتُ به فزارني للمرة الأخيرة وأعلن دهشته لقراري المفاجئ بالاستقالة، قلتُ إن الأمر يتصل بظروفٍ عائلية خاصة في العراق. بدا سعيد متأثراً لوداعي وقال وهو يلاحظُ حرارة الصالة الخانقة إنه لم يَنْسَ أمر إصلاح زُجاج الشرفة.

في الأسبوع الثالث قصدتُ مَسْقَط، وكانت رحلة طويلة بسبب الأضرار التي تركها الإعصارُ على الطريق. اخترت بشكل عشوائي مُجَمَّعاً طبياً في الخوير وحجزتُ لزيارة طبيب أخصائي في الأمراض الجلدية والتناسلية. لم أكن أعرف من يكون الطبيب، وحين وجدت أنه طبيب هندي

Twitter: @ketab_n

شعرت بحرية أكبر في عرض الحالة عليه. كان شاباً في الثلاثينات من العمر أنيقاً متواضعاً أضفتْ عليه ابتسامته الودّية إيحاءً بالتفرُّغ الكامل لحالتي. كنت صريحاً في وصف الحالة وتفاصيل حدوث المرض، وقد حرص هو على الإصغاء دون إظهار أي نوع من الفُضُول الشخصي. ألقى نظرةً متفحصة على الإصابة وهو يرتدي قفّازات طبية، ثم خلع قفازاته وألقاها في سلّة القُمامة وهو يقول:

- احتمال الإصابة كبير، وليس أمامنا إلا محاولة استخدام المضاد الحيوي الخاص بهذه الحالة. ستأخذه لمدة أسبوعين ثم تزورني مرةً أخرى.

قلت متشبثاً بأمل واهٍ:

- لقد قرأتُ عن المرض أنه ينسحبُ بعد أسبوعين أو ثلاثة من ظهور الأعراض. بالنسبة إلي مَرّ أكثر من شهرين حتى الآن، والقَرْح مستمرّ لم يختفِ.

قال محاذراً التمادي في إظهار علامات التفاؤل:

- من المُبَكِّر البَتُّ في ذلك. سنرى تأثير العلاج ثم ننتقل إلى المرحلة الثانية.

لاحظ صمتي وجزعي كما يبدو، فأردف قائلاً:

- هذه الأمراض تنتشرُ الآن بشكل لا يصدّق. وحالتك ليست أسوأ الاحتمالات. هنالك أمراض لا تخطرُ على البال في غرابتها وبشاعة أثرها. الواقي هو الحل.

كان مؤدّباً لم يشأ الدخول في وَعْظ أخلاقي مباشر. ولا بد أن حالتي أثارت لديه أسئلةً كثيرة: لماذا يبقى كهل مثلي دون زوجةٍ وأطفال؟ وكيف يمكن لهذا الكهل أن يندفعَ في علاقة طارئة اندفاع شاب غِرّ لا يحسب للعواقب حساباً؟ ولكنه صافحني بمودة مودّعاً.

بِتُّ تلك الليلة في فندق وأمضيت ليلةً مسهدة طويلة عدت بعدها في الصباح إلى صُور مباشرة. وقد خيم عليّ همّ ثقيل لم أحدّد له سبباً بعينه.

Twitter: @ketab_n

هنالك الإصابة الأبدية التي تجعل جسدي لغماً مدفوناً ينفجر في أية علاقة حُبّ جديدة. لم أكن أطمح يوماً إلى تجربة زواج جديد، وظلت المرأة لسنوات بعد طلاقي تمثل تهديداً غامضاً لي، لكن البطالةَ العاطفيةَ التي يفرضها هذا المرضُ اللئيم تصيبني برعب حقيقي. تذكّرت حديثاً لطبيب عراقي في لقاء إذاعي أثناء اشتداد نوبات الحرب في الثمانينيات قال فيه إن أقسى أنواع الإعاقة هو ذلك الذي يُفسد قدرةَ الرجل على ممارسة الجنس. معه يكون رد الفعل هستيرياً، بينما تكون فرص قُبُول الإصابات الأخرى أكبر. قد لا نحقّق أياً من أحلامنا، قد يمضي العمر في عطالة عاطفية مُزْمِنة، لكن اللحظات التي ينتفض بها حلمُ الرغبة ضرورة لازمة لوجودنا. كانت سلامة جسدي تعني قدرتي على أن أحلم بلقاء المرأة المناسبة يوماً ما. أما الآن فإن عزلةً خانقةً تضيّق الأفق المحيط بي وتكاد تطبق علي. هنالك في تضاعيف الهمّ الثقيل المخيم عليّ حقيقة طردي من العمل، وهي المرة الأولى التي أخرج فيها من عمل بهذه الطريقة. كنت أستقيلُ دائماً بمحض إرادتي ويكون بانتظاري عمل آخر أعددت له مسبقاً. هذه المرة دفعت ثمناً باهظاً.. ولكن مقابل ماذا؟ أهو ثمن الغِواية التي أسلمت نفسي لها مع ساندرا، أم هو ثمن إصراري على عدم التواطؤ مع زكي خليل؟ أألومُ نفسي على ضعفها أمام ساندرا، أم ألومها على تشدّدها أمام زكي؟ تلك أسئلة تتقافز في رأسي دون انتظام ودون أن أحاول أدنى محاولة في الإجابة عنها. ولكن في تضاعيف التضاعيف همّ المنفى والوطن المُحَرَّم. الوطن الذي يبقى فاكهةً محرّمةً ما إن أدنو منها حتى أسقط في شقاءٍ مقيم. يبقى الوطن جميلاً على البُعْد لأنه حينئذٍ يكون من صناعتنا، صورة تبلور أحلامنا الشخصية الموغلة في عمق وجودنا الخاص، أما الاقتراب منه ومحاولة لمسه باليد بوصفه واقعاً فهو أشبه بلمس النار بدلاً من طلب الدفء منها على البعد. كان هماً ثقيلاً.. تَخَيَّلْتُ وجودي وحيداً في عَمّان وقد جفّفتني المنافي وقطّعت جذوري عن أية تربة دائمة، وكم تمنّيت لو تمكّنت من شطب قدرتي على التساؤل والتفكير.

Twitter: @ketab_n

بعد أسبوع من المُضادّ الحيوي أصابني إسهال خفيف كان كافياً لتجفيف ما تَبَقَّى من قوة وحيوية في جسدي. لم أتجنّب الخروجَ من الشقة نهاراً فحسب، بل صرتُ أحرصُ على إغلاق باب غرفة النوم الصغيرة آخر معقل بارد في صُور بعد أن افترش الحرّ الصالة نفسها. استقالتي أوقفت كل محاولة لإصلاح ما دمّر الإعصار. كانت الريحُ قد أطاحت الصحون الفضائية على السطح فانقطع الإرسالُ التلفزيوني عني، ولم أعبأ بذلك. عددته رحمةً لي من طرح الفضائيات المسموم عن الحالة في العراق. ولم أَكُنْ في وضع يسمحُ لي بتحمّل أي سجال ضَيِّق الأُفُق يخصّ المأساة هناك. أما استغنائي عن الإنترنت فقد كشف تفاقمَ قرفي من أيّ اتصال مع العالم الخارجي. كنت أحصلُ على خدمة الإنترنت عبر خطّ التلفون الأرضي، ومنذ يوم الإعصار همدت الحرارةُ في التلفون وانقطعت خدمة الإنترنت، ولم أجد ما يدفعني لطلب الإصلاح. كنت باختصار أنكفئ في زاوية معطلة مهمّشة. حتى القراءة التي وفّرت من قبل مادةً تملأ الوقت وتلونه تعذّرت بسبب انخفاض طاقتي وسرعة شعوري بالتّعب بعد قليل من الصفحات.

لم يعد أمامي إلا أن أستلقي على السرير الضيق وأقلّب في رأسي احتمالات الخطوة القادمة. كانت متنوعة، منها أن أعود إلى شركة النفط في البريقة في ليبيا، وهو احتمال أثار في نفسي جَفْلة كمن يتلقّى تهديداً بإعادة نفيه إلى صحراء جرّبها لثماني سنوات وعرف ما فيها من عزلةٍ قاحلة. هنالك احتمالُ البحث عن عمل في إحدى الجامعات الأردنية، لكنه أمر يزداد صعوبةً بسبب الفيض العارِم من الأساتذة العراقيين والأردنيين الساعين إلى العمل هناك. أما العودة إلى العراق فهي احتمال مؤجّل بسبب ما يثيره لدى الوالدة والأهل عموماً من فزع واستنكار. كنت أمضي الوقت باستعراض الاحتمالات دون أمل في أن أقع على حلّ مقنع. وكان تشبثي بهذا الاستعراض نوعاً من الهرب من الحاضر المضطرب المأزوم والماضي المدفون وسط الخرائب.

Twitter: @ketab_n

63

كان آخر توقيع في براءة الذِّمّة يخصُّ شركة عُمَان موبايل وهو يعني إلغاء الاشتراك لديهم ودفع آخر الفواتير. وقد وقفت في شُرْفة الشِّقّة أتصفّح الأرقام التلفونية الكثيرة التي تجمّعت في قائمة المعارف، وأعجب كيف أني أقف الآن وحيداً لا أجد من أتصل به في صُور. لمحت رقم فرحان فاتصلت به للمرة الثالثة خلال أسبوع فكان تلفونه مُغْلقاً. من المؤكّد أنه غادر عُمان مع عائلته إلى مكان بارد يقضي فيه بعضَ أسابيع الحرّ هرباً من محنة الصيف. خطر لي شهاب حينئذ فاتصلت به. وجاء صوت رجالي عراقي مسجل يعلن أن الرقم خارج حدود التغطية. لابد أنه سافر هو الآخر إلى أوروبا ليلتقطَ أنفاسه. كنت قد تصفّحت مقالته "عودة من المنفى" قبل أيام أثناء تصفية أوراقي، وقد وضعتها على مكتبي مُؤَجّلاً رغبتي في إعادة قراءتها إلى حين. بدت وكأنها دعوة لي لمغادرة المَنْفَى والعودة إلى بغداد. وهو أمر ظلّ يلحّ عليّ منذ تقديمي الاستقالة، ولم أكن قد أخبرتُ إنعام بما حدث وقررت ألّا أعلن ذلك إلّا إذا حصلت على عملٍ جديد.

صحوتُ صباح اليوم التالي على فكرة جديدة قديمة. لا أمل لي إلا بالوصول إلى أوروبا والحصول على لجوء إنساني أو سياسي هناك. هذا هو الحلّ الذي اختاره الكثيرون ووفّر لهم حياةً مستقرة مطمئنة مع جواز سفر جديد لا تقف أمامه حواجز أو حدود. قررت أن أستقصي هذا الاحتمال عندما أصل إلى عمّان، ثم خطر لي حبيب محمود الذي غادر العراقَ قبل أشهر بعد أن تلقى تهديداً من جماعة إرهابية عرقل إحدى عملياتها التي استهدفت السّوق، وانتهى به الأمر في النرويج. لا بد أنه على اتصال مع

Twitter: @ketab_n

شهاب في أوروبا بعدما انتهى بهما المطاف هناك معاً. قدّرتُ أن المسافة بين النرويج وبلجيكا لن تقفَ حاجزاً بينهما. طلبت رقم تلفونه وفاجأني صوته هادئاً على الطرف الآخر. حين تعرّف عليّ حَيّاني بحماسة وقال إنه ظلّ يحاولُ الاتصال بي مراراً خلال الأسابيع الأخيرة دون جدوى. سألته عن حاله في النرويج فقال إنه بخير وإن كانت مشاغلُ عائلته الكبيرة ثقيلة مرهقة. كنت أوشك على طرح فكرتي في اللجوء إلى أوروبا عليه عندما بادرني بالقول:

- هل سمعتَ الخبر؟

بعثت نَبْرته خوفاً في نفسي:

- أيّ خبر؟

- شهاب. لقد اغتيل في بغداد بمسدّس كاتم على طريق محمد القاسم.

- هل أنت جادّ فيما تقول؟

- ألا تشاهدُ التلفزيون؟ الخبر في كل مكان. إنها خسارة، خسارة كبيرة.

كدتُ أُصابُ بإغماء لشدّة الصّدمة على جسدي الذي هدّه الهَمّ والصيف والمُضادّ. طلبتُ المزيدَ من التفاصيل لكني لم أتمكّن من التركيز على ما كان يقوله حبيب حين بدأ يحدّثني عن الأشهر الأخيرة التي قضاها شهاب في عمله مستشاراً في وزارة الثقافة. كلّ ما أتذكر أنه ظلّ يؤكّد على حالة العُزْلة والحِصار الخطِر التي تعرض لها بعد أن تغيرت الوجوه في الوزارة فصار يحاربه البعثيون السابقون من جهة وبعض السلفيين الجدد ممن رأوا فيه خطراً عليهم من جهةٍ أخرى. قال حبيب إنه فوجئ عندما زاره في الوزارة فوجده محشوراً مهمّشاً في نصف غرفة عُزلت بحاجز خشبي بائس انتهت به الحال إليها بعد أن نجح من كاد له، وقد شكا شهاب بمرارة وعناد من صعوبات التأسيس لبدايةٍ جديدة. بقيتُ أصغي ذاهلاً حتى

Twitter: @ketab_n

نفد كارت التلفون وصمت صوت حبيب. مع الصمت تكثَّف إحساسي بالفاجعة. درت بنظري حولي لا أدري ما أفعل. كان أول رد فعل تصاعد غضب تجاه شهاب كأنما هو أقدم على مشاكسة عنيدة طالما حذّرته منها. وقع نظري على الطاولة أمامي وكان عليها جهازُ الحاسوب المقفل منذ أيام، وعلبة المُضادّ الحيوي المُلَوّنة الأنيقة، ورواية ساندرا التي وجدتها بين كتبي ولم أقرر ما أفعل بها، ثم كومة من الأوراق كنت أعلم أن بينها مقالة شهاب "عودة من المنفى" وأوراقاً طبعتها من يومياتي القديمة. امتدّت يدي أبحث عن المقالة بحماسة مفاجئة كأني أتوقّع أن أجد فيها تفاصيل ما حدث وتفسيراً لما يشغلني من تساؤلات. حين وجدتها اندفعتُ إلى قراءتها كما لو كانت رسالةً بعثها لي شهاب تَوّاً من العالم الآخر، واستغرقت في سطورها. حين وصلت إلى نهايتها وأدركت أن موت شهاب قد حوّل كل كلمة فيها إلى جَمْرة وهّاجة حارقة، رميتها على الطاولة بحركة غاضبة. قلّبت ملفّ اليوميّات المهمل وعدت إلى البداية، إلى كدس من أوراق السبعينيات، وقرأت ما كتبته قبل ثلاثين عاماً عن لقاء مطول مع شهاب:

"الاثنين 19/ 7/ 1976

بلغتُ أمس في حواراتي المطولة مع شهاب نقطةَ الخلاف المتعلّقة بتردده في الانتماء إلى تنظيم سياسي، سألته أن يوضح لي مفهوم "الملتزم الديمقراطي" لأني أجده غامضاً فابتسم وقال إنه محاولة منه لوصف الشخص الملتزم بقضايا التقدُّم والعدالة الاجتماعية لكنه غير مستعدّ للدخول في مَعْمَعة العمل السياسي اليومي الذي يستهلك طاقته الفكرية في مشاغل صغيرة. ثم أضاف ونظرته تشي أنه يتوقّع اعتراضي "إن رصد حركة المجتمع وفهمها مهمة تحتاج إلى نوع من الانسحاب والتَّجَرُّد". قلت ردّاً على ذلك إن صورةَ المثقّف المنسحب المتجرّد تذكّرني بصورة الزاهد المتعبد الذي يسعى إلى حقيقة تعلو على عالمنا هذا. المثقّف ابنُ الحياة، والمعرفة فعل قبل أن تكون تأملاً لأن الفعلَ مصدرُ المعرفة الحقة والأمل. التأمل جزء محدود من الفعل، وحين نتكلم عن الفعل فنحن لا نقصد

Twitter: @ketab_n

الفعل الفردي، بل فعل تاريخي جماعي له قوةُ التغيير الحاسم. وكل هذه الشّروط لا تجد ما يضمن الوفاء بها إلا التنظيم السياسي الذي يتجاوز به المثقف نرجسيته وانغلاقه ليصبح فاعلاً.

وقد عاد شهاب لطرح مشكلة الحرية من جديد. قال إن العملَ الحزبي يخنقُ قدرةَ المثقف على التفكير الحر الأصيل لأنه يضعُ قيوداً على حرية الفكر ويُضعف الحسّ النقدي لدى المثقف. قلت له إن الحزب ضمانة أن تكون للعبة الفكر قواعد تضمن زيادة إنتاجيتها، أما اللعبة التي تفتقد القواعد فلا نهاية لها ولا هدف. فردّ عليّ بالقول إن للسياسة اعتباراتها التي تجبرُ المثقف في كثير من الأحيان على قبول قرارات لا يؤمن بها ولكنها ضرورات سياسية. وكان ردّي على ذلك أن للحياة السياسية تعقيداتها واعتباراتها التي لا يستطيعُ الفكر إذا ما أراد أن يؤثّر فيها إلا أخذها في الاعتبار، لا يمكن لعامل البناء أن يتم مهمته دون أن تتعفّر ثيابه بالأتربة والغبار ودون أن يخطئ ويصحّح خطأه. هنالك حيوية في التورُّط السياسي يفتقر إليها الوجود الساكن الشاحب في بُرْج مَعْزُول من طِين المصائب. قال وهو يضعُ نصبَ عينيه ما يعرفه عن عشقي للأدب: "قد تكون التجربة الحزبية مفيدةً للأديب الذي يحتاج إلى تجربة تحرّك المشاعر وتقرّبه من نبض الحياة اليومية، أما عالمُ الاجتماع والفيلسوف فشأن آخر، إنه يتعامل مع الحقائق الموضوعية دون أن يأبه كثيراً لالتواءات الفعل ومفاجآته". فكان ردي أن الحقائقَ الموضوعيةَ تفرض نفسها على الجميع مهما تنوعت مشاغلهم وكل واحد يتلقاها بطريقته الخاصة، أما السؤال الدائم فهو أي حقول المعرفة يجمع كل المداخل إلى الحقيقة الموضوعية ويبلورها في فعل إيجابي بنّاء؟ إنه السياسة والعمل السياسي. وهنا أشار شهاب إلى مقابلة قرأها في "دراسات عربية" الصادرة في بيروت أجراها الناقد المصري غالي شكري مع الشاعر العراقي عبد الوهّاب البيّاتي شكا فيها البياتي مرّ الشكوى من التأثير الضار للعمل السياسي في الأديب وأن رتابة العمل السياسي تقتل جذوةَ الإبداع الأدبي. قلت له إن البيّاتي مغترب شوّهت

Twitter: @ketab_n

المنافي روعة التزامه الإنساني لأنها أبعدته عن ميدان نشاطه الحقيقي أي العراق، تحوّل موقفه إلى إطار غامض يمارس داخله تهويماته كما يشاء. في العراق اليوم فرصةٌ للمثّقف لأن يحيا تجربةً حيّةً، فاعلة، منتجة. ردّ شهاب بثقة أن المنفى مرصد لا ضياع. وهنا قلت له . . ."

لم أكمل القراءة بعدها. أوقفتني شهقة بكاء مفاجئة اضطرب معها كل شيء حولي. كانت الدموع كبيرةً حارةً في برد الغرفة القاحل.

جفّت عيناي بعد حين وذَهِلْتُ عمّا حولي لأكثر من ساعة يئنّ في سمعي فحيحُ جهاز التكييف وتضيق حيطان الغرفة عليّ حتى لكأنها خندق ضيق من تلك الخنادق القديمة. لا أدري الآن ما مرّ في رأسي من أفكار خلال تلك الساعة الصامتة، وأشك في أني كنت أفكّر. كل ما أتذكره أن حقيقةً واحدةً سيطرت عليّ حينئذ: لقد بقيت في سباق مع شهاب خلال ثلاثة عقود من المحنة العراقية. سبقته إلى السياسة فلحق بي وتمادى فيها بعدي، ثم سبقني إلى المنفى فلحقتُ به وتماديت. وما هي نتيجةُ السباق؟

فتحت بابَ الشرفة المُطلّة على الساحة فسربلني الحَرّ بلزوجته الخانقة وتضببت عدستا نظارتي حتى غام مشهدُ الأضواء المتسابقة في الشارع ولم يبق في مأتم المساء إلا زعيق أبواقها الصلف. مسحت نظارتي بقطن قميصي المجعد ووضعتها على عينيّ فانبثقت حدودُ الأشياء جلية من جديد. استندت بكفي إلى حائط الشّرفة المنخفض ولم أر شيئاً أمامي، كنت مشغولاً بملاحقة إحساس غريب بدأ يكتسب كياناً مستقلاً في زاوية بعيدة من نفسي. كان أول ما اكتشفت أن موتَ شهاب فتح بيني وبينه هوةً سحيقةً جعلته يبدو غريباً عني. الآن وقد شطب شهاب مهزلةَ الزمان وتقلّباته وسجالاته وانتقل إلى حيث لا يجرؤ الزمان على مسّه بأصابعه الشيطانية العابثة، صار شخصاً آخرَ لم أتعرف إليه بعد. انتبهتُ فجأة إلى أن موقفي من عودة شهاب إلى العراق ظلّ محفوفاً على الدوام بوصاية مقيتة سَمِجة، تشبه الوصاية السبعينية الأولى. لقد كتب شهاب الردّ المنتظر على رسالتي المطولة الأخيرة، كتبه

Twitter: @ketab_n

باستشهاده الباهر. وهو ردّ مُفارِق يتخطّى الحدثَ وثرثرته ويخطو برصانة إلى عالم جليل غريب لا يُشبه شيئاً ممّا تحفل به اللوحةُ العراقيةُ حيث الشكّ والاضطراب والألم. بموته انتقل إلى النقطة القصية التي وفّرت لي مرصداً جديداً لا يشبه في شيء كلَّ المراصد التي أتاحها الوطن والمنفى حتى الآن. وهو مرصد يبثّ في كل ما يحيط به دلالات تتجاوز الخواء والهامشية والتفاهة إلى انتظام غريب وقدسية باهرة. وكما يحدث عندما تقعُ معجزة أو تمسّ خليط الانحلال والفساد والمرض يد مقدّسة فتشحنه بنقاء منطق سري محيّر، دهمني إحساسٌ غامض أن كلَّ ما حدث منذ أن حللت في صُور يشكل على نحو ما لوحة لها إطار يمنع عنها العشوائية والتصادفية ويعلو على مِزَقِها المضطربة في رأسي. عدتُ إلى البداية وإلى موعدي الذي تأجل مع شهاب، وتطلعتُ إلى أفق صُور الممتدّ في غور البحر والظلام وخيمة الهواء المثقلة بالحر والرطوبة. كان يوماً ساخناً خانقاً، وكانت القنافذُ تتحصّن في زواياها المتباعدة على وجه الأرض. أمعنت الفكر لا أرى إلّا الفوضى التي حوّلها شهاب بعصا استشهاده إلى أُمْثُولة سرّية تدعوني إلى حلّ مغاليقها، وصعّدت النظر الغريب إلى جَمْهَرة من النجوم الأزلية فوق اضطراب ظلام البحر.

Twitter: @ketab_n

تنويه

تحتوي الرواية على مقال الصديق كامل شياع "عودة من المنفى" (الفصل 45)، ورسالتين نُشرتا في ركن رسائل القُرّاء من جريدة "الأسبوع" العُمانية مع بعض التحوير (الفصل 33).

Twitter: @ketab_n

القنافذ في يوم ساخن

عندما يصل سليم كاظم، أستاذ اللغة الإنكليزية العراقي، من الصحراء الليبية إلى مدينة صور الساحلية العُمانية، تبدأ حكاية محتدمة بالمشاعر والأسئلة في مدينة صغيرة وادعة. أبطال هذه الحكاية عراقيون، وعرب، وأجانب من كل بقاع الأرض اجتمعوا في محيط يعتز بتقاليده العريقة لتدريس الإنكليزية التي فقدتْ هويتَها الوطنية وصارتْ شفرة اغتراب عالمية. يتساءل سليم في فندق الفلج بمسقط عندما يصل أوّل مرة:

"إذا كان البيت يدجّن الوطن، فما الذي يمكن أن يدجّن المنفى؟" وتأتيه الإجابة بعد عامين من فصل محموم آخرَ في منفاه الطويل يتعرف خلاله على أريكا وساندرا وبتول وجورج وأريك ورالف وجفري والطاهر وزكي وحاكم وسعيد وآخرين يشاركون جميعاً في نسج خيوط دراما عميقة الدلالة لا تكتفي بأقل من إثارة أسئلة الإنسان الكبيرة في عصرنا المتقلّب الملتبس. تتزامن هذه الحكاية مع تصاعد الحرب الأهلية في العراق بين عامي 2006-2007 في ظلّ الاحتلال الأمريكي، وقرار شهاب العودة من منفاه البلجيكي الطويل في محاولة لاستكشاف ملاذ المثقف الأخير في مشروع الجماعة، بينما يوغل فرحان في مشروع آخر مختلف يرى المنفى نوعاً من التحرير والكرنفال. بين شهاب وفرحان يتحقق لسليم في منفاه العُماني الجديد برفقة ساندرا المثقلة بأزمتها الأسترالية كشفٌ لم يخطرْ على باله من قَبْل. وهو كشف يتبلور تبلوراً حاداً بعد هبوب إعصار غونو المدمّر على مدينة صور في صيف 2007 الساخن.

@ketab_n

فلاح رحيم

مثقف عراقي مقيم في كندا، نشر أولى قصصه في السبعينيات وترجم إلى العربية أعمالاً روائية عديدة لتوماس مان، وميلان كونديرا، وجين ريز، وشوساكو أندو، وجوليان غرين.

موضوع الكتاب رواية

ISBN 978-9959-29-622-1

9 789959 296221

دار المدار الإسلامي توزيع حصري

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com